

لوسيندا رايلي

مكتبة

الشقيقات السبع 3

الشقيقة الظل



ترجمة:

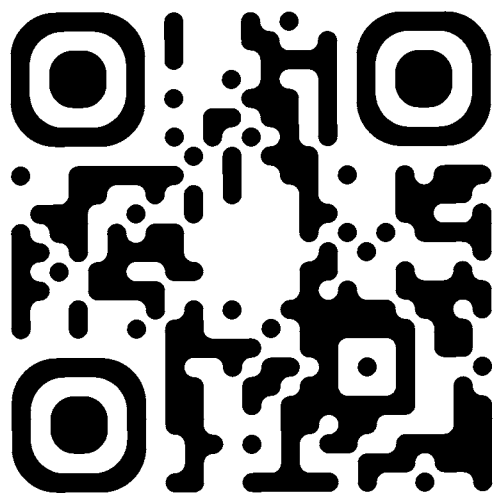
ريتا م. البستاني

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الشقيقات السبع ٣



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الشقيقة
الظل



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق بالعربية محفوظة
لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2025

ISBN: 978-6144-58-629-7

تدقيق لغوي: جمال عبد الرحيم

صورة الكاتبة على الغلاف: © Boris Breuer

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

Original Title: The shadow Sister

Copyright © Lucinda Riley, 2016

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

30 8 2025

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: 8375 - 11 بيروت، لبنان

هاتف: +961 1 830608 فاكس: +961 1 830609

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com

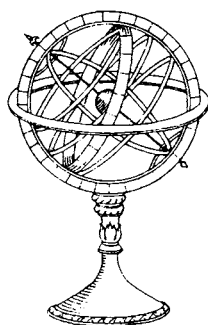
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com

مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

لوسيندا رايلي

السَّقيقة الظلّ

قصة ستار



مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمة:

ريتا م. البستاني



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أدب - رواية

إلى فلو

«... إنما اتركنا بينكما بعض الفسحات
لترقص فيها رياح السموات».

جبران خليل جبران



الشخصيات

أتلانتيس

پا سولت - والد الشقيقات بالتبني (متوفى)

مارينا (ما) - مربية الشقيقات

كلوديا - مديرة المنزل في أتلانتيس

غيورغ هوفمان - محامي پا سولت

كريستيان - الرئاس

الشقيقات دابليز

مايا

آلي (ألسيوني)

ستار (أستروپ)

سيسي (سيلينو)

تيغي (تايجيت)

إلكترا

ميروپ (مفقودة)

ستار

تموز 2007



اللوکبّیّة الکبیرة
(أو الخُریق الأسود - فصيلة الخیمیّات)

الاسم مشتق من المرادف اللاتيني لكلمة «نجم»

1 مكتبة

t.me/soramnqraa

سوف أتذكّر دائماً أين كنت بالضبط، وماذا كنت أفعل، عندما بلغني خبر وفاة والدي....

كان قلمي ما يزال يتدلى فوق الورقة، عندما نظرت إلى شمس تموز، أو بالأحرى إلى شعاع صغير من نورها تسَلَّ بين النافذة وجدار الطوب، على بعد ياردات أمامي. كلّ النوافذ في شَقَّتنا الصغيرة تلك كانت مطلة. وعلى الرغم من الطقس الجميل في ذلك اليوم، كان الجوّ مظلماً في الداخل. كم كانت تلك الشقة مختلفة عن منزل طفولتي في أتلانتيس، على ضفاف بحيرة جنيف.

فجأةً أدركت أنني كنت أجلس حيث أنا الآن، عندما دخلت سيّسي غرفتنا الوضيعة تلك لتخبرني أن پا سولت قد مات.

وضعت القلم جانباً وذهبت أملاً كوباً من مياه الصنبور. كان الطقس شديد الرطوبة والهواء منقطعاً بسبب الرطوبة العالية، فشربت الماء لأروي عطشي، وفكرت في أنني لست مضطرةً إلى إحياء الذكريات الأليمة في داخلي. كانت تيغي، أختي الصغرى، هي من اقترحت عليّ الفكرة، عندما قابلتها في أتلانتيس مباشرةً بعد وفاة پا.

كنت حينذاك، خارجة مع بعض شقيقاتي، لنبحر عبر البحيرة، في محاولة لتناسي لوعتنا عن لوعتنا، فقالت لي: «حبيبتي ستار، أعرف أنك تجدين صعوبة في التعبير عما تشعرين به، كما أعرف أن الحزن يغمرك. فلم لا تعبّرين عن كلّ ذلك بالكتابة؟».

قبل أسبوعين، كنت في الطائرة عائدة من أتلانتيس إلى لندن عندما فكرت في ما قالته تيغي. وها أنا منذ الصباح أسعى إلى تحقيقه.

نظرت إلى جدار الطوب، وفكرت بامتعاذ كم كان صورة مستعارة عن حياتي حاليًا، وهذا ما جعلني على الأقل أبتسم. ثم أعادتني الابتسامة إلى النُذب التي تغطي طاولة الخشب. لا بدّ من أن مالك الشقة الغامض اقتناها من متجر خردوات من دون مقابل.

عاودت الجلوس، وأمسكت قلم الحبر الأنيق مجددًا. لقد كان هدية من پا سولت في عيد ميلادي الحادي والعشرين.

«لن أبدأ الكتابة بموت پا، بل بوصولي إلى لندن». قلت لنفسني بصوت عالٍ. في ما بعد صعقتُ بباب الشقة ينغلق مدويًا. عرفت أنها سيسي فهي كثيرة الصخب. كان يبدو لي أن وضع فنجان قهوة فوق أيّ سطح من دون قرقرته أو دلق محتوياته، يفوق طاقتها. كما أن مفهوم الصوت المنخفض كان يغيب عن ذهنها. ففي صغرها، كانت تصرخ بدلًا من التكلّم، وهذا ما أقلق (ما) فعرضتها على اختصاصي لاختبار سمعها. لكنّها بالطبع لم تكن تعاني أيّ عيب، بل أظهر الاختبار أن سمعها متطور جدًا. أنا أيضًا لم أكن أعاني أيّ خلل، ومع ذلك، عرضتني (ما) بعد مرور سنة، على اختصاصي نطق بعد أن لاحظت أنني قليلة الكلام.

«لا تقلقي لأنها تعلّمت الكلام، كل ما في الأمر أنها لا ترغب في التحدّث. ستفعل ذلك عندما تصبح جاهزة»، قال لها اختصاصي النطق.

في ما بعد، علّمتني (ما) لغة الإشارة الفرنسية لكي نتمكّن من التواصل معًا. «ستستخدمينها لتخبريني بكل ما تشعرين به أو ما تحتاجين إليه»، قالت لي (ما). ثمّ أضافت، وهي تشير إلى نفسها، وتضع راحة يدها على قلبها وفوقها راحتها الأخرى وتعود لتشير إليّ «أنا أحبك كثيرًا».

تعلّمت سيسي لغة الإشارة بسرعة، واعتمدناها معًا في أحاديثنا. وفي ما بعد، طوّرتُ وسيسي ما تعلّمته لأتمكّن من التواصل مع (ما)، إلى لغة خاصّة بنا نحن الاثنين. كانت مزيجًا من الإشارات والكلمات المختلقة، التي كنا نستخدمها عندما

نكون مع الآخرين، ونرغب في أن تبقى أحاديثنا محصورة بيننا. كم كنّا نستمتع بنظرات شقيقتنا الحائرة في أثناء اجتماعنا إلى مائدة الفطور، عندما كنت أعلّق بمكر، وننخرط أنا ويسي في نوبة ضحك هستيرية.

عندما أتذكر الماضي، أرى بوضوح أنني ويسي كبرنا، وأصبحنا نقيضتين. فبقدر ما قلّ كلامي، علا صوتها وكثر كلامها نيابة عني. وبقدر ما فعلت ذلك، قلّت حاجتي إلى الكلام. أصبحنا فعلاً متطرفتين في شخصيتينا. ويبدو أن الأمر لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليّ في مرحلة الطفولة؛ إذ كنّا نعيش وسط عائلة مؤلفة من ست شقيقات. وعلى الرغم من ذلك، كنت ويسي لا نفرق البتة.

أما اليوم، فبات ذلك يسبّب لنا مشكلة...

«احزري ماذا؟ أخيراً وجدتها!»، قالت سيسي وهي تقتحم غرفة الجلوس. «ستمكن من الانتقال إليها خلال أسابيع. ما زال أمام المتعهد بعض الترتيبات، وعندما يُنجزها، أنا واثقة من أن النتيجة ستفوق كلّ التوقعات. يا إلهي، الجوّ حار هنا. لا يسعني انتظار رحيلنا عن هذا المكان».

بعد ذلك، دخلت المطبخ فسمعت أزيز الصنبور وهي تشغله بأقصى قوّة. ورجّحت أن تكون المياه قد تناثرت فوق السطوح التي شقيت في مسحها قبل قليل. «أتريدين ماءً يا سيا؟».

«لا، شكرًا». على الرغم من أننا كنّا وحدنا في الغرفة عندما نادتنني بذلك الاسم، فإنني انزعجت كونه في الأساس اسم حيوان، ولمت نفسي على انزعاجي منها، إذ كانت تناديني به دائماً منذ أن كنّا صغيرتين. كان الاسم مستعاراً من كتاب قصّة أهداه لي پا سولت في عيد الميلاد. كانت «قصّة أناستازيا»، الفتاة الصغيرة التي عاشت في الغابة في روسيا قبل أن تكتشف أنها أميرة.

«إنّها تشبهك يا ستار»، قالت سيسي البالغة من العمر خمس سنوات آنذاك، ونحن نتفرج على الكتاب المصوّر. «ماذا لو كنت أنت أيضاً أميرة، فأنت جميلة جداً بشعرك الذهبي وعينيك الزرقاوين. من الآن فصاعداً سأناديك سيا، فهو يتلاءم مع سي. هكذا أصبح سي وسيا، التوأم!»، قالت مبتهجة وهي تصفّق.

وأدركت في ما بعد، في أثناء دراستي تاريخ قياصرة روسيا، أن ما حدث لأناستازيا رومانوفا وأشقائها ما كان خرافة قط.

فضلاً عن ذلك، فأنا لم أعد طفلة، بل امرأة ناضجة في السابعة والعشرين من عمري.

«أنا واثقة من أنك ستحبين الشقة». قالت عندما أطلت مجدداً داخل غرفة الجلوس ورمت نفسها فوق أريكة الجلد المخدوشة. «أخذت موعداً غداً صباحاً لنراها معاً. إنها مكلفة قليلاً، لكنها ضمن إمكانياتي حالياً، خصوصاً أن وكيل العقارات أخبرني بأن المدينة تمرّ بمحنة، ولذا لا يوجد حالياً قائمة انتظار طويلة للحصول عليها. لذلك تمكنت من مجادلته في السعر واتفقنا على رقم مذهل. حان الوقت لنسكن منزلاً يليق بنا».

حان الوقت لأعيش حياةً تليق بي أنا وحدي. فكرت في نفسي.
«هل ستشترينه؟»

«نعم، أو على الأقل سأشتريه إن أعجبك».

شعرت بدهشة كبيرة ولم أعرف بماذا أجيب.

«أأنت بخير يا سيا؟ تبدين متعبة. أألم تنامي جيداً البارحة؟».

«كلا». على الرغم من الجهود القصوى التي بذلتها لكي لا تنهمر دموعي، لكنها انهمرت تلقائياً وأنا أفكر في الأرق الذي أصابني ساعات طويلة حتى الفجر، بسبب حزني الشديد على والدي الحبيب، ورفض المتواصل حقيقة رحيله.

«المشكلة أنك ما زلت تحت وطأة الصدمة. ففي النهاية لم تمرّ على وفاته سوى بضعة أسابيع. أقسم لك بأنك ستشعرين بتحسّن، خصوصاً غداً عندما ترين شقتنا الجديدة. فهذا المكان كثيب ويحبطك. أنا واثقة من ذلك، كونه يحبطني أنا أيضاً». وأضافت: «هل راسلت الرجل بخصوص حصص الطبخ؟».

«أجل».

«متى تبدأ؟».

«في الأسبوع المقبل».

«هذا جيّد. هكذا سيتسنى لنا البحث عن أثاث جديد لمنزلنا». ثمّ اقتربت سيسي منّي، وعانقتني مطوّلاً. «لا يسعني انتظار أن تري الشقة غداً».



«أليست مذهلة؟».

فتحت سيسي ذراعيها على وسعها لتحضن المساحة الخالية، وراح صدى صوتها يتردّد بين الجدران، فيما كانت تمشي إلى الواجهة الزجاجية الواسعة لتفتح أحد ألواحها.

«انظري، هذه الشرفة لك». قالت وهي تشير إلّي لأتبعها. لكنّ كلمة شرفة كانت متواضعة نسبياً أمام المساحة التي كنّا نقف فيها. لأنّها كانت أشبه بمصطبة واسعة معلّقة في فضاء نهر التايمز. «ويمكنك أن تملئها بنباتاتك وتلك الزهور التي كنت تحبين العبث بها في أتلانتيس». ثمّ أضافت وهي تقترب من الدرابزين لتحّدق إلى المياه الرمادية تحتنا: «أليست مذهلة؟».

أومأت برأسي، لكنّها كانت قد استدارت لتعود إلى الداخل، فوجدت نفسي أنساق خلفها.

«المطبخ ما يزال بحاجة إلى تجهيز. عندما أوقع العقد، حتى يكون لديك كامل الحرية في اختيار الفرن الذي يعجبك، والثلاجة، وغيرها... الآن ستصبحين طبّاخة ماهرة» قالت سيسي وهي تغمزني.

«بالكاد يا سيسي. لم أدرس سوى دورة واحدة».

«لكنّك موهوبة، وأنا واثقة من أنّك ستحصلين على وظيفة لائقة في مكان ما عندما يكتشفون قدراتك. في أي حال، أعتقد أنّه المنزل المثالي لنا نحن الاثنين، أليس كذلك؟». ثمّ أشارت إلى المساحة بين أقصى الجدران والدرج اللولبي وقالت «كما يمكنني أن أحوّل هذا الركن إلى استوديو. فالضوء ممتاز هنا كما هو مطلوب. وأنت ستحصلين على مطبخك الكبير وعلى المساحة الخارجية. من بين كلّ الشقق التي زرتها في وسط لندن، هذه هي الأقرب إلى أتلانتيس».

«نعم، المنزل جميل بالفعل. شكرًا لك».

كنت قادرة على استشعار الحماسة التي شعرت بها لعثورها على تلك الشقة. وأعترف بأنَّ الشقة كانت بالفعل مميّزة. لكنني لم أرغب في إفساد فرحتها بمشاركتها حقيقة شعوري؛ لأنَّ العيش في ما يشبه صندوقًا زجاجيًا واسعًا وخاليًا من أيّ طابع، إذ كلّ ما يميّزه هو أنّه مطلّ على ذلك النهر الغامض، كان في رأيي أبعد ما يكون عن أتلانتيس، إن جازت المقارنة.

وفيما تابعت سيسي حديثها مع الوكيل عن ألواح الخشب الفاتح التي ستغطّي الأرضية، حاولت قمع أفكار السلبية. كنت أعرف أنّي أبالغ في دلالي، لأنَّ السكن في شقة جديدة مثل هذه، وغير مسكونة من قبل، في وسط لندن، يعتبر امتيازًا مقارنةً بالمشقة التي يعانيها رواد شوارع دلهي والمدن المكتظة بالأكوخ التي رأيتها في ضواحي بنوم پنه.

في الواقع، كنت أفضل العيش في كوخ صغير يقوم على أساسات ثابتة، وله مدخل مطلّ على حديقة أو قطعة أرض على العيش في تلك الشقة الراقية. بقيت أسمع في الخلفية حديثهما عن جهاز تحكّم من بعد لفتح الستائر وإغلاقها، وآخر لمكبرات الصوت غير المرئية. ثمَّ رأيتها تلمّح إليّ بالإشارة من خلف ظهر الوكيل، وهي تلفّ عينيها. أرادت أن تُفهمني أنّه «شاب فطن وناجح». تمكّنت من التبسم ابتسامة خجولة، وأنا أشعر بالاختناق لعجزني عن فتح الباب والهرب... فالمدن كانت تختفي؛ كما أن الضوضاء والروائح وحشود الناس كانت ترهقني. لكن الشقة كانت بالفعل واسعة وجيدة التهوية...

«سيّا؟»

«آسفة يا سي، ماذا قلت؟».

«هل نصعد إلى الطبقة العلوية لنرى غرفة نومنا؟».

صعدنا الدرج اللولبي إلى الغرفة التي قررت سيسي أنّا سنتشاركها على الرغم من وجود غرفة أخرى. وعندما رأيت المناظر المدهشة التي أطللنا عليها، شعرت بقشعريرة. بعد ذلك، تفقّدنا الحمام الرائع الملحق بالغرفة. كنت أعرف أن سيسي بذلت مجهودًا كبيرًا لتعثر على مكان جميل مثل هذا ليناسبنا نحن الاثنين.

إلا أننا في الواقع لسنا زوجًا وزوجة. فنحن شقيقتان.

أصرت سيسي، في ما بعد، على جزي وراءها إلى متجر أثاث في شارع كينغز رود، ثم ركبنا الحافلة، وسلكننا جسر ألبرت، فوق نهر التايمز.

وكالعادة قلت لها: «سُمي هذا الجسر نسبة إلى زوج الملكة فيكتوريا. وهناك أيضًا نصب تذكاري له في كنسينغتون».

«لا تقولي لي إنك ما زلت تحملين دليل المدينة عندما تخرجين؟». قاطعتني قائلة، وهي ترسم الإشارة التي تحمل معنى التباهي.

«نعم، فأنا أحب التاريخ»، أجبتها بصدق وأنا أرسم الإشارة التي تحمل معنى الطالب كثير المذاكرة.

ترجلنا من الحافلة بالقرب من شقّتنا، وإذ بسيسي تستدير لتقول: «هيا بنا نتناول العشاء في الخارج، علينا الاحتفال».

«لا نحمل نقودًا». أو على الأقل، لا يوجد معي نقود بكل تأكيد»، فكّرت في نفسي.

«أنا أدعوك».

ذهبنا إلى حانة محلية. طلبت سيسي الجعة لها وكأس نبيذ لي. لم نكن نشرب كثيرًا، سيسي على وجه الخصوص. فجسمها لم يتحمّل يومًا الكحول. كانت قد اكتشفت ذلك في حفلة صاحبة ذهبت إليها، وهي في سن المراهقة. وفيما كانت تنتظر عند البار، رحت أفكر في أموالها الغامضة التي ظهرت فجأة، بعد يوم واحد على تسلّمنا نحن الشقيقات الست، مغلفات من غيورغ هوفمان، محامي پا سولت. عندما ذهبت سيسي لمقابلته في جنيف، توسّلت إليه لكي يسمح لي بحضور اجتماعهما، لكنّه رفض رفضًا قاطعًا.

«يؤسفني القول إنني مجبر على اتباع تعليمات موكلي. فوالدكن كان مصرًا على أن يتم أي اجتماع قد أعقده مع بناته، على انفراد».

كان عليّ الانتظار في قاعة الاستقبال فيما كانت هي في الداخل. وعندما خرجت من الاجتماع، لاحظت ملامحها المتوتّرة وشعرت بحماستها الشديدة.

«آسفة يا سيا، لكنني اضطررت إلى التوقيع على بند خصوصية تافه. لعلها واحدة من ألعيب پا المعتادة. كلّ ما يمكنني قوله هو أن الأخبار سارة».

على حدّ علمي، كان هذا هو السرّ الوحيد الذي احتفظت به سيسي لنفسها منذ أن بدأت علاقتي بها. لذلك ما زلت حتى الآن أجهل مصدر تلك الأموال. كان غيورغ هوفمان واضحًا عندما أخبرنا بأن وصية پا تفيد أننا سنستمر في تلقّي مخصّصاتنا الأساسية. وفي حال احتجنا إلى مزيد من النقود، فعلينا ألا نتردّد في طلبها منه. ربّما كان علينا أن نطلب مزيدًا من هوفمان، كما أفترض أن هذا ما فعلته سيسي.

«نخبك! ونخب حياتنا الجديدة في لندن». قالت سيسي وهي تطرق زجاجتها بكأسي.

«نخب ذكرى پا سولت»، أجبتها وأنا أرفع كأسِي.

«أجل صحيح، نخب پا سولت. لقد أحببته من أعماقك، أليس كذلك؟».

«وأنت أيضًا، لا؟».

«بالطبع أحببته، وكثيرًا. كان... شخصًا مميّزًا».

رحت أراقبها وهي تلتهم طعامها حالما وُضع أمامنا. وخُيل إليّ كأنّ وفاة پا سولت كانت حسرتي أنا وحدي، وليست حسرتنا نحن الاثنين.

«في رأيك، هل علينا شراء تلك الشقة؟».

«هذا قرارك يا سيسي. لست من سيدفع، لذلك ليس من حقّي أن أبدي رأيي في ذلك».

«لا تكوني سخيّة، تعلّمين جيّدًا أن كلّ ما هو لي هو لك، والعكس صحيح. فضلًا عن ذلك، عندما تقرّرين فتح المغلّف الذي تركه لك، قد تكتشفين في داخله ما لا يتوقّعه أحد».

قالت ذلك لتشجّعني. فهي لم تكفّ لحظة واحدة عن فعل ذلك منذ أن استلمت كلّ واحدة منّا مغلّفها. وكانت هي قد فتحت مغلّفها على الفور، وتوقّعت أن أفعل ذلك بالمثل.

«هيا يا سيا، ألن تفتحيه؟». حاولت مجدداً الضغط عليّ.

في الواقع، لم أكن جاهزة لفتحه... لأنّ مجرد فتحه، بغض النظر عما كان سيحتويه، يعني أنّني تقبلت رحيل يا، ولم أكن جاهزة لذلك.

بعد انتهائنا من تناول الطعام، دفعت سيسي الحساب وعدنا إلى الشقة. اتّصلت بالمصرف من هناك، وطلبت إليهم تحويل الدفعة الأولى من أجل الشقة. ثمّ جلست أمام حاسوبها المحمول تشتكي من الإنترنت المتقلّب.

«تعالى ساعديني في انتقاء الأرائك». نادتني من غرفة الجلوس بينما كنت أملأ حوض الحمام المصفرّ بمياه فاترة.

«سوف أستمحّم». أجبتها وأنا أغلق الباب.

استلقيت داخل الحوض وغطّست رأسي تحت المياه إلى أن غمرت كلّ خصل شعري حتى أذنيّ. رحت أستمع إلى الأصوات اللزجة التي تحدثها المياه، «وتشبه الأصوات داخل الرحم»، فكّرت في نفسي. وقررت أن عليّ الابتعاد قبل أن أصاب كلياً بالجنون. لم تكن سيسي مخطئة في ما يحصل، وبالطبع أنا أرفض لومها، لأنني أحبّها، ولأنّها لم تكفّ يوماً عن الوقوف إلى جانبي، ولكن...

بعد عشرين دقيقة، اتخذت قرارى. رحت أتجوّل داخل غرفة الجلوس تحت نظرها.

«هل ارتحت بعد الاستحمام؟».

«نعم يا سيسي».

«تعالى انظري إلى الأرائك التي وجدتها». دعّنتني إلى الاقتراب منها. ورحت أحدّق إلى درجات اللون الكريمي من دون أن أتميّز الفرق بينها.

«أيّ واحدة برأيك؟».

«أيّ واحدة تعجبك. التصميم الداخلي هو ملعبك أكثر منّي».

«ما رأيك بهذه؟». قالت وهي تشير بإصبعها إلى الشاشة. «من الواضح أن من الأفضل الذهاب إلى هناك للجلوس عليها والتأكّد من أنّها مريحة، فالتصميم الجميل

وحده لا يكفي». ثم كتبت اسم الوكيل التجاري وعنوانه على قصاصة ورق، وقالت لي: «ربّما نذهب غدًا؟».

فأخذت نفسًا عميقًا، وقلت لها: «سيسي، هل ستستأين إن عدت إلى أتلانتيس بضعة أيام؟».

«إن كان هذا ما ترغبين فيه، بالطبع لا. سأتحقّق من رحلات الطيران لنعود معًا».

«في الواقع، أفكر في الذهاب وحدي. أقصد... أنك مشغولة حاليًا بالشقة، وتحضّرين مشاريع مختلفة». أجبته وأنا أبلع ريقِي وأستجمع قواي لكي لا أفقد اندفاعي.

«نعم، لكنّ الابتعاد عن لندن بضعة أيّام لن يضرّني. وإذا كنت بحاجة إلى الذهاب وحدك، فسأنفهم الأمر».

«في الواقع، أفضل الذهاب بمفردي». أجبته بجديّة.

«لماذا؟». سألتني متفاجئة وهي تلتفت إليّ بعينها اللوزيتين الواسعتين.

«هكذا، بلا سبب... أنا... كنت. أريد فقط أن أجلس في الحديقة التي ساعدت يا سولت على بنائها لأتمكّن من فتح مغلّفي وقراءته».

«حسنًا بالتأكيد، لا مشكلة في ذلك». قالت وهي تهزّ كتفيها.

أحسست كأنّ طبقة من الجليد تهبط عليّ، لكنني رفضت الاستسلام هذه المرّة، فتأبعت قائلة: «سأخلد إلى النوم، أشعر بصداع شديد».

«سأحضر لك مسكّنات. هل تريدين منّي أن أبحث لك عن رحلة طيران؟».

«سبق أن تناولت حبّتين، شكرًا لك. نعم من فضلك، سيكون ذلك رائعًا. تصبّحين على خير». انحنيت لأقبل أختي في أعلى رأسها الداكن اللّماع، فوق شعرها المجعّد المقصوص قصّة صبيانية كما هي حاله دائمًا. ثمّ مررت من أمام خزانة مكانس صغيرة لأدخل غرفة النوم التي نتشاركها.

كان السرير صلبًا وضيّقًا والمرتبة رفيعة. وعلى الرغم من نشأتنا المترفة

واعتيادنا الرفاهية، إلّا أنّنا استغرقنا السنوات الستّ الماضية نجول حول العالم وننام في أماكن مهجورة، ولم تكن أيّ منّا مستعدة لطلب المال من پا سولت حتى عندما كنّا مفلسيتين تمامًا، خصوصًا سيسي التي كانت ذات كبرياء شديد. لذلك شعرت بدهشة كبيرة عندما خُيل إليّ في الفترة الأخيرة أنّها تسرف في الإنفاق، وأنّ ذلك المال الذي كانت تنفقه بإسراف لا يمكن أن يكون إلّا من المال الذي تركه لها پا سولت.

ربّما عليّ الاستفسار من (ما)، لعلّها تعرف شيئًا، على الرغم من ثقتي الكبيرة بطباعها الكتومة، خصوصًا عندما يكون للأمر علاقة بأسرارنا نحن الشقيقات الستّ. «أتلانتيس». تمتمت في نفسي. أخيرًا، سأكون حرة... في تلك الليلة، رحت على الفور في سبات عميق.

2

كان كريستيان في انتظاري ومعه القارب عندما أوصلتني سيّارة الأجرة إلى العوامة التي تطفو على سطح بحيرة جنيف. استقبلني بابتسامته الدافئة المعتادة، ولأول مرة في حياتي، فكّرت بحيرة في عمره الحقيقي. مع أنّي كنت على يقين أنّه ربّان قاربنا السريع منذ أن كنت طفلة، وأذكر شعره الداكن وبشرته البرونز الزيتونية وقامته الرفيعة التي تعكس لياقته البدنية الأنيقة، إلّا أنّه لم يبدُ يومًا أنّه تخطّى الخامسة والثلاثين.

انطلقنا عبر البحيرة، فجلست في مؤخرة القارب، وأسندت ظهري إلى مقعد الجلد، وفكّرت في أولئك الذين يعملون في أتلانتيس، ولم تظهر عليهم يومًا علامات التقدّم في السن. وفيما كانت شمس المغيب تتوارى، رحت أستنشق الهواء المنعش المؤنس وأنا أفكّر بأتلانتيس. لرّبّما كانت مسحورة، ولذلك منحّت كلّ من يعيش داخل أسوارها الحياة الأبدية، لكي لا يرحلوا عنها يومًا.

باستثناء يا سولت...

واجهت صعوبة في التفكير بآخر مرة كنت فيها هنا، أنا وشقيقتي الخمس، اللواتي تبنّانا يا سولت، آتيًا بنا إلى هنا من أقاصي الأرض ليطلق علينا أسماء ثريا الشقيقات السبع. وجئنا حينذاك لنجتمع في منزل طفولتنا إثر وفاته، مع أنّه لم نُجرّ له جنازة، ولم نحظّ بفرصة لتوديعه. وأخبرتنا (ما) أنّه أصرّ على أن يدفن سرًّا، بمنأى عن الأنظار، في البحر.

كلّ ما بقي لنا بعد رحيله كان محاميه السويسري، غيورغ هوفمان، الذي

كشف لنا عمّا اعتقدناه أول وهلة، ساعة شمسية منمّقة، ظهرت بين ليلة وضحاها في حديقة پا الخاصة. وشرح لنا غيورغ أن ذلك الشيء يسمّى أسطرلاب كروي، وأنّه يستخدم لتحديد مواقع النجوم. ثمّ وجدنا أسماءنا محفورة على شرائط كانت تلتفّ حول الكرة الذهبية في وسطه، وظهرت عليها مجموعة إحدائيات من شأنها أن تخبرنا بالمكان الذي عثر پا سولت على كلّ واحدة منّا فيه، إضافة إلى اقتباسات باللغة اليونانية.

ثمّ أرشدتنا مايا وآلي، شقيقتاي الكبيرتان، إلى كلّ موقع حدّته تلك الإحدائيات، كما شرحتا لنا مضمون النقوش اليونانية. بقيت تلك التي تخصني، وكانتا اثنتين، غير مقروءتين. وحفظتهما داخل محفظة بلاستيكية مع المغلف الذي تركه لي پا سولت.

عندما أبطأ القارب، نظرت نظرة سريعة إلى المنزل الجميل الذي نشأنا فيه، عبر حجاب من الأشجار كانت تخفيه عن الأنظار. وكان يبدو مثل قلعة أسطورية بإطلالته الوردية وأبراجه الأربعة، فيما كانت نوافذه للّماعة تشعّ تحت نور الشمس. بعد أن شرح لنا هوفمان عن الأسطرلاب الكروي وسلّمنا المغلفات، أبدت سيسي تلهّفها إلى الرحيل، عكسي أنا. فقد رغبت أن أمضي فترة حدادي على پا سولت داخل المنزل الذي ربّاني فيه بكل ذلك الحبّ. وها أنا اليوم، أعود يائسة إليه بعد أسبوعين، لأعثر في عزلتي على القوة التي أحتاج إليها لأتقبل رحيله، فأنجح في الاستمرار.

قاد كريستيان القارب إلى الرصيف، ثمّ ربطه بالحبال. وفيما كان يساعدني على النزول، رأيت (ما) تسير فوق العشب باتجاهنا كما كانت تفعل في كلّ مرّة، عندما أعود إلى المنزل. وحالما رأيتهَا، اغرورقت عينايا بالدمع، وانحنيت لكي أرمي نفسي بين ذراعيها المرخبتين وأحصل منها على عناق حار.

«ستار، يا لفرحتي بعودتك إلى المنزل». دندنت (ما) وهي تقبّلني على خدّي، ثمّ تراجعَت قليلاً لتمعن النظر فيّ.

«لن أقول لك أنّك نحفت كثيراً لأنك كنت نحيفة جدّاً دائماً». قالت مبتسمة

وهي ترافقني إلى المنزل، وأردفت «لقد أعدت لك كلوديا فطيرة التفاح المفضلة لديك، كما أن الماء في الغلاية يغلي على النار». ثم أشارت إلى الطاولة على الشرفة، وقالت «اجلسي هناك واستمتعي بما تبقى من نور الشمس لليوم، سأدخل حقيبتك بنفسي وأطلب إلى كلوديا أن تأتي بالشاي والفطائر».

راقبتها في أثناء دخولها إلى المنزل، ثم استدرت لأمتع نظري بالأشجار الكثيفة المشدبة والأعشاب النضرة. ورأيت كريستيان يسير في الطريق السري المؤدي إلى الشقة المبنية فوق غرفة القارب، الذي يرسو في خليج صغير خلف الحدائق الرئيسية المحيطة بالمنزل. فذلك المحرك الأطلسي كان ما يزال يعمل بشكل جيد، وإن لم يعد مبتكره حيًا.

ظهرت (ما) مجددًا على الشرفة تتبعها كلوديا مع صينية شاي. ابتسمت لها إذ كنت أعرف أن كلوديا كانت متفوقة عليّ في قلة الكلام وفي عدم مبادرتها إلى بدء الأحاديث.

«مرحبًا يا كلوديا، كيف حالك؟».

«بخير، شكرًا». أجابت ولكنها الألمانية الثقيلة. كنّا، نحن الفتيات الست، نتحدث لغتين، الفرنسية والإنكليزية، منذ نعومة أظفارنا، وذلك بإصرار من يا. وكُنّا نتحدث الإنكليزية فقط مع كلوديا. أمّا (ما) فكانت فرنسية حتى النخاع. وكانت أصولها تنعكس على أناقتها البسيطة؛ قميص حريري نظيف وتنورة حريرية وتسريحة تثبت خصل شعرها عند رقبتها في كعكة فرنسية. تواصلنا مع كل واحدة منهما بلغة مختلفة جعلنا طليقات في اللغتين وقادرات على التنقل بين لغة وأخرى بشكل فوري من دون تردد.

«أرى أنك لم تقصي شعرك». ابتسمت (ما) وهي تشير إلى غرة شعري الطويلة الشقراء. ثم سألتني وهي تسكب الشاي بعد مغادرة كلوديا. «وكيف حالك يا عزيزتي؟».

«لا بأس».

«حسنًا، أعرف أنك لست بخير، ومن منّا بخير. وكيف سنشعر أننا كذلك فيما ما تزال الفاجعة حديثة؟».

«لا». قلت لها مؤكدة كلامها فيما كانت تناولني فنجان الشاي. ثم أضفت الحليب إلى فنجانِي وثلاث ملاعق صغيرة من السكر. فأنا على عكس شقيقتي. كنت أحب الحلويات وأتلفذ بمذاقها. وعلى الرغم من ذلك كنت نحيفة، الأمر الذي شكّل عقدة لشقيقتي إلى حدّ مضايقتي أحياناً.

«وكيف حال سيّسي؟»

«تقول إنّها بخير، لكنني غير واثقة أنّها كذلك».

«الحزن يؤثّر في كلّ منّا بطريقة مختلفة». فكّرت (ما) بصوت عالٍ. «غالبًا ما يؤدّي إلى إحداث تغييرات في حياتنا. هل تعلمين أن مايا سافرت إلى البرازيل؟».

«نعم، أرسلت إلينا أنا وسيّسي رسالة عبر البريد الإلكتروني قبل أيام. هل تعرفين السبب؟».

«أفترض أن الأمر مرتبط بالمغلّف الذي تركه لها والدك. لكن أيّا كان السبب، أنا سعيدة من أجلها. لكان من المؤسف جدًّا أن تبقى وحيدة في هذا المنزل طوال فترة الحداد. فهي ما تزال صغيرة على العزلة. في أي حال، أنتِ أدري أن السفر يوسّع آفاق الإنسان».

«بالطبع، لكنني في الوقت الحالي أشعر بالاكْتفاء منه».

«حقًّا يا ستار؟».

أومأت برأسي وأنا أشعر فجأة بثقل المحادثة. اعتدت أن تكون سيّسي إلى جانبي لتحدّث نيابة عنّا الاثنتين. وعندما لم تجبني (ما)، اضطررت إلى مواصلة الكلام.

«رأيت ما يكفيني حتى الآن».

«أنا واثقة من ذلك». أجابت (ما) وهي تخفي ابتسامة رقيقة. «هل بقي مكان لم تزوراه أنتما الاثنتان في السنوات الخمس الماضية؟».

«أجل. أستراليا والأمازون».

«ولمّ هذان على وجه التحديد؟».

«لأنّ سيّسي تعاني رهاب العناكب».

«آه صحيح!». صفقت (ما) بكفيها عندما تذكّرت الأمر. «مع ذلك، كانت في صغرها تبدو كأنّ لا شيء يخيفها. تذكرين كيف كانت تقفز من أعلى الصخور في البحر؟».

«وكيف كانت تتسلّقها».

«وهل تذكرين كيف كانت تحبس أنفاسها تحت المياه فترة طويلة، وكيف كان ينتابني الهلع لاعتقادي أنّها غرقت؟».

«أجل». قلت متجهّمة وأنا أتذكّر كم مرّة حاولت إقناعي أن أنضم إليها في ممارسة تلك الرياضات الخطيرة. وربّما كانت تلك المرّات الوحيدة التي كنت فيها حاسمة معها في رفضي. أذكر، في خلال رحلاتنا إلى الشرق الأقصى، أنّها كانت تستغرق ساعات طويلة، تارةً تحت سطح الماء وتارةً فوق الهضاب البركانية، في تايلاند وفيتنام. وفيما هي تحت سطح البحر أو فوقه بكثير، كنت مستلقية بلا حراك على الرمال أقرأ كتابًا ريثما تعود.

«وكم كانت تكره ارتداء الأحذية... كان عليّ في كل مرّة أن أستجمع قواي لأدخل قدميها فيها عندما كانت طفلة».

«ذات مرة رمت حذاءها في البحيرة». قلت وأنا أشير إلى المياه الراكدة. «فرحت أقنعها بدخول البحيرة لاستعادته».

«غالبًا ما كانت روحًا حرّة»، تنهّدت (ما) «ولكن» شجاعة في الوقت نفسه... في إحدى المرّات، كانت في السابعة من العمر، سمعت صراخًا من غرفتك. لوهلة اعتقدت أن أحدًا يهاجمها لقتلها. لكن لا، لقد رأيت فوق رأسها عنكبوتًا لا يتخطّى حجمه قطعة العشرين سنتيمًا. من كان ليفكر؟». قالت (ما) وهي تتذكّر الحادثة وتهزّ رأسها.

«كانت تخاف الظلمة أيضًا».

«حقًا، لم أكن أعرف». ورأيت نظرات (ما) تزوغ فشعرت بأنني قد أهنت بطريقة ما غريزة الأمومة لديها؛ تلك المرأة التي وظّفها باسولت للاهتمام ببناته بالتبني، فنشأن في رعايتها وصرن مراهقات أمام عينيها، ثمّ شابّات، مارست بامتياز

دور الوالدين عندما كان يغيب في رحلاته. وعلى الرغم من أنه لم تربطنا بها صلة دم، كانت تعني الكثير لكلّ واحدة منّا.

«كانت دائماً محرّجة من إخبار أحد عن الكوابيس التي كانت تراودها ليلاً». «هل كان ذلك سبب انتقالك إلى غرفتها؟»، سألت (ما) وهي تدرك الأمر بعد كل تلك السنوات، «وفي ما بعد طلبت إليّ إن كان بإمكانك الحصول على إنارة ليلية؟».

«أجل».

«اعتقدت أنها كانت لك يا ستار. أظنّ أننا مهما كنّا قريبين من أولادنا، فإنّنا لا نعرفهم بقدر ما نعتقد أنّنا نفعل. إذًا، كيف لندن؟».

«جميلة! وإن لم يمرّ بعد وقت على وصولنا إليها. كما أنّي...». وتنهدت بعمق، إذ كنت عاجزة عن التعبير بالكلام عمّا أشعر به من إجهاد.

«ما زلتِ مفجوعة»، أنهت (ما) الجملة عني. «وربّما تشعرين بأنك لا تأبهين للمكان الذي تقيمين فيه».

«نعم، لكنني أردت بشدّة المجيء إلى هنا».

«هذا من دواعي يا عزيزتي، خصوصًا أنّي سأنفرد بك، فهذا لا يحدث كثيرًا، ليس كذلك؟».

«كلا».

«وهل ترغبين في أن تعودني إلى هنا أكثر؟».

«أنا... أجل».

«هذا ما سيؤول إليه الأمر في النهاية. فبطبيعة الحال، لم تعودني أنت ولا سيسي طفلتين. وهذا لا يعني أنّه لا يمكنكما أن تكونا مقرّبتين. لكن، في الوقت نفسه، من المهمّ أن تنعم كلّ منكما بحياتها الخاصة. أنا واثقة من أن سيسي تفكّر على هذا النحو».

«لا يا (ما)، سيسي لا تفكّر هكذا. إنّها ما تزال بحاجة إليّ، لذلك لا أستطيع

تركها». رميت الكلام هكذا فجأة في وجهها كأنَّ كلَّ الإحباط والخوف... وغضبي من نفسي قد تفاقم وانفجر دفعة واحدة. وعلى الرغم من قدرتي على ضبط ذاتي، فلم أستطع كبح تنهيدة طويلة تسلَّت فجأة من أعماق روحي إلى الخارج.

«يا عزيزتي». نهضت (ما) عن كرسيها وغطى ظلها شعاع الشمس، فجثت عند ركبتي، وأمسكت بيدي. «لا تخجلي. سينفعل البكاء».

وبكيت. لكن لا أقدر أن أسمي ما حصل بكاءً، فقد كان أشبه بالعويل، كأنَّ كلَّ المشاعر والأحاسيس التي كنت أحبسها في داخلي، انفجرت فجأة وتدفقت كالسيل.

«آسفة، أنا آسفة»... قلت لها بصوت منخفض وهي تسحب علبة مناديل من جيبها لتمسح بها الدموع الفياضة. «أنا فقط... منزعة بسبب پا...».

«بالطبع أنت كذلك، ولست مضطرة إلى الاعتذار»، قالت بلطف فيما كنت أجلس في مكاني، وأشعر كأنني سيَّارة قد فرغ خزَّانها من الوقود.

«كنت أشعر بالخوف عليك، ولم أشأ أن تبقي مشاعرك مدفونة في أعماقك. أمَّا الآن فأشعر بالسعادة من أجلك»، قالت مبتسمة. «حتَّى لو لم تكوني بالفعل سعيدة. حسنًا، ما رأيك أن تصعدي إلى غرفتك وتغتسلي قبل أن يحين موعد العشاء؟».

تبعتها إلى الداخل. كان المنزل يعبق بتلك الرائحة الطيبة التي حاولت مرارًا أن أفككها وأعيد ابتكارها في المنازل الكثيرة التي أقمت فيها على نحو مؤقت. قليل من الليمون، خشب الأرز، كعكة محضرة طازجًا... لكن بالطبع، أمرها كان يفوق مجموع مكوناتها الأساسية، وكان ببساطة خاصًا بأتلانتيس.

«هل تريدني أن أرافقك؟»، سألتني (ما) وأنا أصعد الدرج.

«كلا. سأكون بخير».

«إذا يا عزيزتي، سنتابع حديثنا في ما بعد. وإذا احتجت إليّ فتعرفين أين تجديني».

صعدت إلى الطبقة العلوية حيث كانت غرفنا نحن الفتيات. وكان جناح (ما) في آخر الرواق، يتضمَّن غرفة جلوس صغيرة وحمَّامًا.

أما الغرفة التي كنت أشاركها مع سيسي فكانت تتوسط غرفتي آلي وتيغي. عندما فتحت الباب، ارتسمت ابتسامة على وجهي بسبب ألوان الجدران الثلاث. كانت سيسي، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، تناصر النزعة القوطية، وأرادت آنذاك طلاء جدران الغرفة باللون الأسود. لكنني وضعت لها حدًا وساومتها على اللون الأرجواني. ومع ذلك أصرت على تزيين الجدار الرابع الذي بجانب سريرها كما يحلو لها.

بعد مرور يوم كامل حبست فيه نفسها داخل الغرفة، خرجت سيسي وعينيها تلمعان قبيل منتصف الليل لتقودني إلى الغرفة.

«بإمكانك رؤيتها الآن».

نظرت إلى الحائط وذهلت بألوانه الحيّة. كانت قد اختارت خلفية زرقاء داكنة زاهية قبل زُرقة منتصف الليل، وأدخلت إليه الأزرق الفاتح لتصنع بقعًا في مساحات قليلة، وفي الوسط رأيت مجموعة نجوم ذهبية تتلألأ. على الفور، اتّضح لي شكلها، فقد كانت ثريا الشقيقات السبع... التي تمثّلنا.

وبعدما تعود بصري عليها، أدركت أن كلّ نجمة مرسومة كانت تتكوّن من نقاط دقيقة، كأنّها اتحاد لذرات صغيرة تجمّعت لإحياء الثريا.

وأحسست بوقوفها خلفي من وتيرة نفّسها فوق كتفي، التي عكست شيئًا من القلق.

«سيسي، هذا مذهل! لا أصدّق عينيّ، كيف خطر لك ذلك؟».

«لم يخطر في بالي. كلّ ما في الأمر أنّني كنت أعرف ماذا أريد». قالت وهي تهزّ كتفها. ومنذ ذلك الحين وأنا أحدّق إلى ذلك الحائط كلّما دخلت الفراش. وفي كلّ مرّة، أعثر فيه على تفصيل جديد لم ألحظه من قبل.

وعلى الرغم من ثناء پا وشقيقتي المتكرّر على ما فعلته، إلّا أنّها لم تكرّر التجربة.

«آه، كانت مجرد فكرة خطرت لي في لحظة ما، وانتهى الأمر».

بالنظر إليه الآن، بعد مرور اثنتي عشرة سنة، ما زلت أعتبر ذلك الجدار من أكثر أعمالها الفنية إبداعاً.

بعد أن وجدت أن حقيبة سفري قد أُفْرِغَتْ، وطُوِيَتْ ملابسِي ووُضِعَتْ على الكرسي، جلست فوق السرير وأنا أشعر فجأة بقلّة ارتياح. فتقريباً، لم أجد شيئاً في تلك الغرفة يمثلني. ولا يمكنني لوم أحد على ذلك إلا نفسي.

مشيت إلى خزانة الأدراج، وفتحت الدرج السفلي، وأخرجت منه علبة بسكويت قديمة كنت أخزّن فيها أكثر التذكارات قيمة عندي. بعد أن عدت إلى السرير، وضعتها على ركبتيّ وفتحت الغطاء، وسحبت منها مغلفاً. لقد مرّ على وجوده هناك سبع عشرة سنة، لذلك أحسست بجفافه بين أصابعي، على الرغم من أنّه كان ما يزال طريّاً. سحبت ما في داخله، ورحت أنظر إلى بطاقات الفهرسة الثقيلة من ورق الرقاق، وكانت الزهرة المجففة ما تزال معلقة فيها.

«عزيزتي ستار، لقد نجحنا في زراعتها».

يا، قبلاتي.

مرّرت أصابعي فوق بتلاتها الرقيقة. وعلى الرغم من هشاشتها كانت ما تزال تحافظ على قليل من اللون الأرجواني اللامع الذي حلّى ذات يوم أولى النباتات التي زهّرت في حديقة يا، والتي ساعدته بنفسه على إنشائها خلال العطلات المدرسيّة. ما يعني أنني كنت أستيقظ باكراً، قبل أن تصحو سيسي من نومها الثقيل، خصوصاً أن الكوابيس غالباً ما كانت تراودها بين الساعة الثانية والرابعة فجراً، لذلك لم تكن تلحظ غيابي. وكان يا يلاقيني في الحديقة، فأشعر بأنّه مستيقظ قبل ساعات، ولربّما كانت حقيقة وليس مجرد شعور. أمّا أنا فكنت أشعره بحماسي الشديدة كلّما تعلّمت منه شيئاً جديداً، على الرغم من النعاس الذي كان ينتابني.

أحياناً كنّا نكتفي بزراعة حفنة بذور يمस्क بها في كفه، وأحياناً أخرى كان يعود إلى المنزل بنبات طرية يحملها معه من البلد الذي يرجع إلينا منه. كنّا نجلس على المقعد تحت سقيفة الورد ونمسك بموسوعته النباتية القديمة الضخمة، فيقلّب صفحاتها بيديه البنّيتين القويّتين إلى أن نعثّر على بلد المنشأ. وبعد أن نطلع على

طبيعة بيتها وما يلائمها، وما لا يلائمها، كنا نذهب للبحث في الحديقة عن المكان المثالي لنزرعها فيه.

في الواقع، كان هو من يقترح وأنا من يوافق. لكنّه لم يشعرني يومًا بذلك، إذ غالبًا ما شعرت بأنّ رأيي كان مهمًّا بالنسبة إليه.

غالبًا ما أتذكّر اقتباسه من الكتاب المقدّس الذي ذكره لي مرّة في أثناء عملنا في الحديقة، وهو أنّ كلّ شيء حيّ بحاجة إلى رعاية دقيقة في بداية حياته، وعندما يحظى بها، فإنّه سينمو مع الوقت ليصبح قويًّا ويدوم طويلًا.

«بالطبع هذا ينطبق علينا نحن البشر أيضًا، لأننا مثل البذور». قال يا وهو يتسم لرؤيتي أستخدم إبريق الري الصغير المتناسق مع حجمي. بعد ذلك، كان ينفذ الطحلب الأسود العطر عن يديه، وهو يقول: «بما أنّ لدينا الشمس... والمطر... والحب، فنحن نملك كلّ ما نحتاج إليه».

وبالفعل أزهرت حديقتنا. وبفضل تلك الساعات الصباحية التي كنت أمضيها مع يا في الحديقة وأنا أساعده في الزراعة، تعلّمت فنّ الصبر.

وأحيانًا كنت أعود إلى مكان الزرع بعد أيام قليلة لأتفقّد نمو النبات، فأكتشف إمّا أنّ لا شيء قد تغيّر أو أنّ النبات بنّي مثل الميّت، وكنت أسرع إلى يا لأسأله عن السبب. فيجيبني وهو يمسك بوجهي بين كفّيه المتفسّخين:

«ستار، كلّ ذو قيمة دائمة يحتاج إلى الوقت لكي يثمر. وعندما يُثمر، فستفرحين لصبرك عليه».

«إذًا، غدًا سأستيقظ باكراً وأعود إلى العمل في الحديقة»، فكّرت في نفسي، وأنا أغلق العلبة.



في ذلك المساء، تناولت العشاء مع (ما). جلسنا إلى مائدة مضاءة بالشموع في الخارج على المصطبة. كانت كلوديا قد طهت لنا أضلع لحم الضأن وقدمته مع الجزر الصغير والبروكلي الطازج الذي قطفته من حديقة المطبخ. وكنت كلّما عرفت أكثر عن الطبخ، اكتشفت كم كانت موهوبة بالفعل.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، التفتت (ما) إليّ وسألتنى: «هل قررت أين ستستقرين؟».

«سيسي ستبدأ دورتها الفنية عمّا قريب في لندن».

«أعرف ذلك، لكنني أسأل عن خطّتك أنت يا ستار».

«هي في صدد شراء شقة تطلّ على نهر التايمز. سننتقل للعيش فيها الشهر المقبل».

«فهمت. وهل أعجبتك؟».

«إنّها... واسعة جدًّا».

«لم أسألك عن هذا».

«الشقة رائعة يا (ما) ويمكنك العيش فيها»، أضفت وأنا أشعر بالذنب لتحفظي في الإجابة.

«وهل ستلتحقين بدورة الطبخ في هذه الأثناء».

«أجل».

«عندما كنت أصغر سنًا. كنت أعتقد أنّك ربّما ستصبحين كاتبة ذات يوم، فأنت حائزة شهادة في الأدب الإنكليزي».

«نعم، أحبّ المطالعة».

«ستار، أنت تقلّلين من شأنك. ما زلت أذكر القصص التي كتبتها وأنت يافعة. كان يا يقرأها لي من وقت إلى آخر».

«أحقّاقًا؟»، سألتها وأنا أشعر بالفخر.

«أجل. ولا تنسي أنّك حظيت بمقعد في جامعة كامبردج، لكنّك رفضته».

«كلا»، قلت بنبرة حادة طنّت في أذنيّ من شدة فظاظتها. إذ كنت ما أزال أجد صعوبة في تذكّر تلك المرحلة، وإن مرّ عليها تسع سنوات...

«هل تمانعين إن التحقت بجامعة كامبردج؟»، سألت آنذاك سيسي «فأسألتني يعتقدون أن عليّ فعل ذلك».

«بالطبع لا يا سيا. أنت ذكيّة جدًّا وأنا واثقة من أنّهم سيقبلونك! سألقي نظرة إلى الجامعات في إنكلترا، على الرغم من أنني أشك في قبولهم لي، فأنت تعرفين مدى حماقتي. وإن لم أنجح، سأكتفي بمرافقتك إلى هناك لأبحث عن عمل في حانة أو شيء من هذا القبيل»، قالت وهي تهزّ كتفها، «الأمر سيّان عندي. كلّ ما يهمني هو أن تبقى معًا».

حينذاك، كنت أشعر بالفعل أن ذلك هو الأهمّ. وكثيرًا ما شعرت الأخريات، إن في المنزل أو في مدرستنا الداخلية، بمدى ألفتنا، لذلك كنّ يتركنا نتخذ قراراتنا بأنفسنا. كانت الواحدة منّا تمثل كلّ شيء بالنسبة إلى الأخرى، لذلك اتّفقنا على جامعات فيها تخصصات بدت لنا الاثنتين مرضية، ما يعني أنّه كان باستطاعتنا البقاء معًا. وبالفعل حاولت في كامبردج، ولدهشتي قبلت في كليّة سلوين شرط الحصول على الدرجات اللازمة في الامتحانات النهائية.

كان ذلك في موسم أعياد الميلاد، وكنت أجلس في مكتب پا وأراقبه وهو يقرأ رسالة القبول. وعندما انتهى، نظر إليّ بفخر وحنان، وما زلت حتى اليوم أستمع بتلك اللحظة كلما تذكّرتها، ثمّ أشار إلى شجرة التّوب الصغيرة وكانت تعلوها نجمة فضية بَرّاقة.

«إنني أراك هناك يا ستار». قال مبتسمًا، ثمّ سأل: «هل ستقبلين العرض؟».

«أنا... لا أعرف بعد. سأنتظر لأرى ما سيحدث مع سيسى».

«حسنًا، القرار متعلّق بك وحدك. كلّ ما يمكنني قوله هو أنّك في مرحلة ما، ستضطرّين إلى القيام بما هو الأنسب لك».

في ما بعد، قُبلت وسيسى في جامعات قدّمتنا للالتحاق بها معًا، وخضعنا للامتحانات في الوقت نفسه، وانتظرنا على أعصابنا صدور النتائج.

بعد شهرين، كنّا على متن «التيّتان»، يخت پا الفخم، برفقة شقيقتانا في رحلتنا السنوية. وكنا في تلك السنة نزور الساحل في جنوب فرنسا. أمسكنا بالمغلف الذي يحتوي على النتائج، بعد أن سلّمه إلينا پا، حالما أرسلوه إليه ضمن كومة البريد التي تصله بالقارب السريع كلّ يومين حيثما كان مبحرًا.

«إِذَا يَا فتيات»، قال يا مبتسمًا حين رؤيته تعابير وجهينا المتوترة، «هل ستفتحانهما هنا أم على انفراد؟».

«من الأفضل أن نهى الأمر على الفور»، قالت سيسي. «هيا يا ستار، افتحي مغلفك أولًا. ففي كل الأحوال، أعرف أن احتمال فشلي كبير».

فتحت المغلف بأصابع مرتعشة، وسحبت الورقة من داخله تحت أنظار شقيقتي ويا.

«إِذَا ماذا؟»، سألتني مايا، بعد أن استغرقت في قراءة الرسالة وقتًا طويلًا.

«حصلت على مجموع 5.4 عمومًا، و6 في اللغة الإنكليزية».

وانفجر الجميع بالهتاف والتصفيق لأجد نفسي فجأة في أحضان شقيقتي الخمس.

«والآن حان دورك يا سيسي»، قالت إلكترا أختنا الصغرى، وفي عينيها بريق.

جميعنا كان يعرف أن سيسي تعاني عسرًا في القراءة، ما أثر في أدائها المدرسي، مقارنة بالكترا القادرة على النجاح في أي اختبار، لكنها ببساطة كانت كسولة.

«مهما كانت النتيجة، فلن أبالي». قالت سيسي تحسبًا لرسوبها.

رسمت لها إشارة «بالتوفيق» وبعد ذلك «أحبك». وعندما فتحت المغلف، حبست أنفاسي ريثما تقرأ النتيجة.

«أنا... يا إلهي! أنا...».

كنّا جميعًا نحبس أنفاسنا في انتظار أن تنطق النتيجة.

«لقد نجحت يا ستار، لقد قبلوني! هذا يعني أنني سأذهب إلى ساسكس لدراسة تاريخ الفنون».

«يا للروعة! أحببتها. أعرف تمامًا مدى صعوبة أن تحققي ذلك».

في تلك اللحظة، انتبهت إلى نظرات يا الفضولية كونه كان يتوقع أي قرار كنت سأأخذ.

«تهانينا يا عزيزتي»، قال يا سولت وهو يبتسم لسيسي، «ساسكس هي من

أروع الأماكن الموجودة في هذا العالم، فضلاً عن أنها موقع لمنحدرات الشقيقات السبع».

في ما بعد في ذلك اليوم، جلست وسيسي على السطح العلوي في «التيان» وشاهد غروب الشمس وراء أفق المتوسط.

«سأتفهم تمامًا إن قررت قبول عرض كامبردج يا سيا بدلاً من الذهاب إلى ساسكس لمجرد مرافقتي في أثناء الدراسة. لا أريد أن أقف في طريقك أو ما شابه. لكن...». عندئذٍ رأيت شفتها السفلية ترتجف. «لا أعرف ماذا سأفعل من دونك. الله يعلم كيف سأتحمل مشقة كتابة مقالاتي من دون مساعدتك».

في تلك الليلة، سمعت سيسي تتقلب في سريرها وتتأوه بصوت خافت لا يكاد يُسمع. وأدركت أن أحد أسوأ كوابيسها قد بدأ. كنت قد أصبحت بارعة في التعرف إلى تلك الأعراض. نهضت من سريري وانزلت بجانبها لأتمتم في أذنها أصوات مطمئنة، مع أنني كنت واثقة من أنني لن أنجح في إيقافها. ثم علا أنينها، وبدأت تصرخ بكلام غير مفهوم، تخلّيت في النهاية عن محاولة فهمه.

«كيف يمكنني تركها؟ وهي بأمرٍ الحاجة إليّ... وأنا بأمرٍ الحاجة إليها...». وبالفعل كنت في ذلك الوقت بأمرٍ الحاجة إليها.

لذلك رفضت كامبردج وقبلت ساسكس والتحقّت بها مع سيسي. وفي منتصف الفصل الثالث من السنة الجامعية الثالثة، أعلنت سيسي تخليها عن متابعة الدراسة. «أنت تفهميني يا سيا، أليس كذلك؟ أعرف تمامًا كيف أرسم وأتفنّن، لكنني لن أفني حياتي في كتابة مقالات عن رسامي عصر النهضة ولوحاتهم اللعينة التي ليست للسيدة العذراء. لا أستطيع فعل ذلك، آسفة حقًا، فأنا عاجزة عن الاستمرار في ذلك».

بعد ذلك، غادرت وسيسي غرفتنا في مساكن الطلبة، وانتقلنا للعيش في شقة قذرة. وبينما كنت أذهب إلى محاضراتي، كانت هي تستقل الحافلة إلى برايتون للعمل كنادلة.

بعد سنة، بلغ يأسى أقصى حدوده بسبب ندمي الشديد على الحلم الذي تخلّيت عنه.

3

بعد انتهائي من تناول طعام العشاء، استأذنت (ما)، وصعدت إلى غرفتنا. أخرجت هاتفي المحمول من حقيبة الظهر وتفقدت الرسائل. وجدت أربع رسائل قصيرة وعددًا من المكالمات الفائتة من سيسي. كنت قد راسلتها، كما وعدتها، حالما هبطت الطائرة في مطار جنيف. وها أنا الآن أرسل إليها ردًا سريعًا لأخبرها بأنني على ما يرام، وأنني سأخلد إلى النوم باكراً، وأنه يمكننا التحادث غداً. وأطفأت هاتفي، وتمددت تحت اللحاف، ورحت أستمع إلى الصمت التام. وفكرت أنني نادراً ما أنام وحدي، في منزل كان يعجّ في الماضي بالحركة والصخب. فهذه الليلة، لن أستيقظ على غمغمة سيسي، وسأتمكن من النوم حتى الصباح، إذا رغبت في ذلك.

وعندما أغمضت عيني، تمالكت نفسي لكي لا أفقد سيسي.



في اليوم التالي استيقظت باكراً. ارتديت سروال جينز وكنزة قطنية، وأمسكت محفظتي البلاستيكية ونزلت على أطراف قدمي إلى الطابق الأرضي. وفتحت باب المدخل بهدوء، وسلكت الممر إلى اليسار، للوصول إلى حديقة پا سولت. كنت أمسك المحفظة في يدي، وفي داخلها المغلف الذي تركه لي پا، والإحداثيات، والنقش اليوناني المترجم.

سرت ببطء بين النباتات التي زرعناها أنا وپا، وتفقدت نموها. كنّا قد أصبحنا في تموز، وقد أثمرت كلها؛ زهور زينيا متعددة الألوان، وزهور النجمة الأرجوانية،

وبإزالة حلوة... كلّها بدت مثل فراشات صغيرة. إضافة إلى الورد التي تسلّقت السقيفة وظلّلت المقعد هناك.

فجأة أدركت أنّه لم يعد من يربّعاها غيري. فعلى الرغم من وجود هانز، البستاني العجوز الذي يعمل عندنا، والذي كان بمنزلة مربٍ لتلك النباتات في غيابي أنا وپا، لكنني لم أكن أتق بمدى حبّه لها مقارنة بحبّنا. كنت أعرف أن من الغباء معاملة النباتات على أنّها أطفال، لكن وفق پا، فإن الاثنين يحتاجان إلى رعاية أولية. توقفت عند نبتة كنت أحبّها كثيرًا، تحمل أزهارًا أرجوانية رقيقة، تفتّحت على سيقان رفيعة فوق كتلة من الأوراق الخضراء الكثيفة.

«هذه تدعى أسترانتيا ماجور»، قال لي پا ونحن نطمر بذورها في إناء، قبل حوالي عشرين سنة. «يقال إن اسمها مشتقّ من «أستر»، اللفظة اللاتينية لكلمة «ستار» الإنكليزية، والتي تعني نجمة. عندما تزهر ستتحوّل إلى انفجار نجومٍ رائع الجمال. وهي تنمو بصعوبة في بعض الأحيان، لا سيما أنني أحضرت تلك البذور من بلد آخر، لذا فهي قديمة وجافة. ولكن إن نجحنا في زراعتها، فلن تحتاج إلّا إلى تربة جيدة وقليل من الماء».

بعد أشهر، قادني پا إلى زاوية مظلمة في الحديقة لزراعة شتلات نبتت بأعجوبة بعد رعاية دقيقة، إذ اضطررنا إلى وضعها في الثلاجة بعض الوقت؛ فوفق پا كان من الضروري أن تتلقّى بذورها صدمة لتحيا.

«الآن، علينا أن نصبر عليها. آمل أن يُعجبها موطنها الجديد». قال پا ونحن ننفذ التراب عن أيدينا.

استغرقت أسترانتيا سنتين أخريين لتزهر. بعد ذلك، بدأت تتكاثر من تلقاء نفسها، فنثرت بذورها في أرجاء الحديقة كما لو أنّها شعرت بالارتياح. نظرت إليها، ووقعت واحدة من زهراتها، ومرّرت أطراف أصابعي فوق بتلاتها الهشة. فجأة شعرت أنني لم أعد قادرة على تحمّل اشتياقي لها.

استدرت لأمشي إلى المقعد الموجود في سقيفة الورد. كان الخشب ما يزال مغطّى بطبقة سميكة من الندى، فجففته بكمّ كنزتي. وحين جلست عليه، شعرت بالرطوبة تتسرّب إلى روحي.

نظرت إلى المحفظة البلاستيكية التي تحتوي على المغلف، وفكرت في ما إذا كنت قد ارتكبت خطأً بتجاهلي إصرار سيسي على فتح رسالتينا معًا. أخرجت المغلف من المحفظة ويدي ترتجف، ثم أخذت نفسًا عميقًا وفتحته. كان يحتوي على رسالة، وما يشبه صندوق مجوهرات صغير. ففتحت الرسالة وبدأت في قراءتها.

أتلانتيس

بحيرة جنيف

سويسرا

عزيزتي ستار،

أكتب إليك هذه الرسالة لأن الكتابة هي أفضل طريقة لإخبارك اليوم بما عندي، ولأننا نحن الاثنين نعرف تمامًا أنها وسيلتك المفضلة في التواصل. ما زلت أحفظ حتى اليوم بالرسائل المطوَّلة التي كتبتيها إليّ، وأنتِ ما زلت على مقاعد الدراسة، وفي أثناء رحلاتك إلى مناطق مختلفة في أرجاء الأرض.

كما تعرفين، لقد حاولت قدر المستطاع تزويد كل واحدة منكنّ بمعلومات كافية عن أصولها. على الرغم من أنني أودّ كثيرًا أن أصدّق أنكِ فلذات كبدي، وأنتي أنجبتكنّ من صليبي مثل أي أب بيولوجي، فإنه سيأتي يوم ما تكون فيه المعلومات التي في حوزتي مفيدة لكنّ. مع ذلك، إن لم ترغب أي منكن في خوض مثل هذه التجربة، خصوصًا أنتِ يا حبيبتي ستار، لأنك الأكثر حساسية، وربما الأكثر تأثرًا، بين شقيقاتك، فسأتفهم ذلك تمامًا.

ثقي أن كتابة هذه الرسالة استغرقت بعضًا من وقتي، لأنني أكتبها بالإنكليزية وليس بالفرنسية، ولأنني أعرف مدى تفوقك عليّ في النحو والتنقيط، لذلك أرجو أن تغضّي الطرف عن الأخطاء هنا. كما أنني أعترف

لك بأنني أجد صعوبة في إيجاد طريقة مباشرة لإخبارك بالمعلومات التي ستضعك على مسار اكتشاف أصولك، وذلك من دون أن يعطل حياتك إن اخترت عدم المواصلة في التحقق.

اللافت أن القرائن التي نجحت في تقديمها لشقيقاتك هي في أغلب الأحيان قرائن غير حيّة، في حين أن القرائن التي تخصّك تشتمل على تواصل لفظي. هذا لأنّ ما كان سيؤدّي إلى اكتشاف قصتك اختفى على مر السنين، وستحتاجين إلى مساعدة الآخرين لكشفه من جديد. اعلمي أنّي لم أكتشف التفاصيل الحقيقية إلّا حديثاً. وإن وجد من يستطيع فعل ذلك، فهو أنتِ يا نجمتي الساطعة، لأنّك سريعة الاستيعاب ويسهل عليك فهم الطبيعة البشرية، بعد أن أمضيت سنوات طويلة في دراستها وفي مراقبة الآخرين، والأهم من ذلك في الاستماع جيّداً، وكلّ هذا سيخدمك كثيراً في حال قررت متابعة الأمر.

لذلك سأعطيك عنواناً، ستجدينه في البطاقة المرفقة بالرسالة. فإن اخترت زيارة العنوان، فأسألي عن سيّدة تدعى فلورا ماك نيكول.

أخيراً، قبل أن أختتم رسالتي وأودّعك، أشعر بضرورة تنبيهك إلى أن الحياة تضطرننا أحياناً إلى اتّخاذ قرارات صعبة وقاسية، ستشعرك في وقت ما، بأنّها قد تؤذي أشخاصاً تحبينهم، على الأقل فترة من الوقت. وفي كثير من الأحيان، ستجدين أن التغييرات التي تسبّب فيها قرارك، هي في نهاية الأمر لمصلحة أحبائك، لأنّها تكون قد ساعدتهم على التقدم في هذه الحياة. حبيبتي ستار، لن أطيل الكلام لكي لا أضغط عليك، فكلانا يعرف ما أقصده هنا. علّمتني السنين التي عشتها على هذه الأرض أن لا شيء يبقى على حاله إلى الأبد. وتوقّعنا العكس، هو خطأ كبير نرتكبه.

التغيير آتٍ لا محالة، سواء أردناه أم لا، كما أنّه يأتي بطرائق مختلفة. لذلك يستحسن قبوله لكي نشعر بالسعادة الفعلية على هذا الكوكب الرائع.

لا تركزي اهتمامك على الحديقة الرائعة التي أنشأناها معًا، بل التفتي
إلى حديقتك الخاصة، وهي موجودة في مكان آخر. والأهم من ذلك،
اهتمي بنفسك دائمًا لتبقي نجمة ساطعة. فقد حان الوقت لتسطعي.

والدك المحب،

پاسولت،

قبلاتي.

نظرت إلى الأفق، فرأيت الشمس تشرق من خلف سحابة كانت تسبح فوق
البحيرة، وهي تطارد الظل ليرحل. وأحسست بخدر، أقل مما كان عليه قبل فتح
الرسالة. ربّما لأنني كنت أتوقّع مضمونها، ولو أنّها لم تحتوِ إلا على قليل ممّا لم
نناقشه أنا وپا عندما كان حيًّا، وعندما كنت قادرة على النظر في عينيه الحنونتين،
والشعور بلمسته الناعمة فوق كتفي خلال وجودنا في هذه الحديقة.
حرّرت البطاقة التي كانت مكبّسة بالرسالة، وقرأت الكلمات المطبوعة عليها.

متجر آرثر مورستون للكتب

190 شارع كنيسة كنسينغتون

لندن دبل يو 4 8 د. س.

تذكّرت أنّني ركبت حافلة مرّت بحيّ كنسينغتون. هذا يعني أنّني إذا قرّرت
الذهاب لرؤية آرثر مورستون، فلن أضطرّ إلى التنقّل مسافات طويلة كما هي حال
مايا. ثمّ أخرجت الاقتباس المترجم من الأسطرلاب الكروي.

«إنّ أشجار السنديان والصفصاف لا تنمو في ظلال بعضها البعض».

ابتسمت لأنّ في الاقتباس وصفٌ دقيق لي ولسيسي؛ فسيسي قوية جدًّا
وعنيدة، وقدماهما متجذّرتان في الأرض. أمّا أنا فطويلة ونحيلة مثل خصلة شعر

تطير في أول هبة ريح. كنت أعرف الاقتباس، فهو من كتاب النبي لفيلسوف يُدعى جبران خليل جبران. وكنت أعرف أيضًا من منّا تقف في «الظل»، أو على الأقل في الظاهر...

لكن لم أكن أعرف أيّ طريق أسلك لأخرج إلى النور.

بعد أن طويت الرسالة بلطف، سحبت المغلف الذي كان يحتوي على الإحداثيات التي فكّك آلي رموزها. وكانت قد سجّلت لي الموقع الذي أشارت إليه. فمن بين كلّ القرائن، كان هذا أكثر ما أخافني.

هل كنت أريد فعلًا اكتشاف المكان الذي وجدني فيه يا؟

قررت ألا أفعل في الوقت الحالي، إذ كنت ما أزال أرغب في الانتماء إلى يا وإلى أتلانتيس.

أعدت المغلف إلى المحفظة البلاستيكية، ثمّ أخرجت صندوق المجوهرات الصغير وفتحته.

وجدت في داخله تمثالًا صغيرًا أسودَ لحيوان. ربّما كان مصنوعًا من العقيق. كان مثبتًا على قاعدة رفيعة من الفضة. أخرجته من الصندوق، وبدأت أتفحص خطوطه الأنيقة التي تشير إلى أنّه قطّ. ثمّ نظرت إلى القاعدة، ورأيت ختمًا إضافة إلى اسم محفور: «بانتر».

ورأيت داخل كلّ عين من عينيه حبة عنبر صغيرة لماعة، غمزت إلى تحت أشعة شمس الصباح الواهنة.

«ملك من أنت؟ وما علاقتي بالملك؟». همست له.

أعدت التمثال إلى الصندوق، ثمّ نهضت إلى الأسطراب الكروي. كانت آخر مرة رأيته فيها، عندما احتشدت وشقيقتي حوله نتساءل عما يعنيه، ولمّ تركه يا إرثًا لنا. أمعنت النظر في مركزه، وحاولت تفحص الكرة الذهبية والشرائط الفضية التي غطّت قفصه الأنيق. كان مصمّمًا بطريقة رائعة، وكانت معالم القارات الخمس بارزة بفخر وسط البحار السبعة المحيطة بها. ثمّ درت حوله لأقرأ اللفظة اليونانية لكل اسم من أسماء شقيقتي؛ مايا، ألسيوني، سيلينو، تايجيت، إلكترا... وبالطبع اسمي أستروپ.

«ما أهمية الاسم؟»، قلت في نفسي وأنا أقتبس جوليت في مسرحية شكسبير، وأتأمل فيه كما كنت أفعل دائماً. هل نتقمّص الشخصية التي تعكسها الأسماء الأسطورية التي نحملها، أم أن الأسماء نفسها هي التي تمتصّ الشخصية التي نبنيناها في هذه الحياة. فأنا مثلاً، على عكس الباقيات، قليلون هم من يعرفون الشقّ المتقمّص من شخصيتي. وأحياناً أتساءل عمّا إذا كان ذلك هو سبب شعوري بأنني غير مرئية بين شقيقتي.

فمايا تتقمّص الجمال، وآلي القيادة، وسيسي البراغماتية، وتيغي الرعاية، وإلكترا شعلة النار. أما أنا فيبدو أنني أتقمّص شخصية صانعي السلام.

حسناً، إذا كان بقائي صامته يعني سيادة السلام، فربّما كنت بالفعل صانعة سلام. فقد يحدّد أهلنا شخصيتنا عند الولادة حين اختيارهم أسماءنا. لكن هل هذا يعني أنّه مهما كانت شخصيتنا الحقيقية في الواقع، فإننا سنتقمّص في هذه الحياة الشخصية التي يحدّدها الاسم الذي اختير لنا. ومع ذلك، لم يكن لديّ شكّ في أن شقيقتي الخمس قد تتقمّص بالفعل الخصائص الأسطورية لأسمائهنّ.

ميروپ...

فجأة وقع بصري على الشريط السابع، فانحنيت أنظر إليه عن قرب. لكنّه كان خالياً من الإحداثيات أو الاقتباسات، على عكس باقي الشرائط. بالطبع، فقد كان مخصّصاً للأخت المفقودة؛ الشقيقة السابعة التي توقّعنا من دون طائل أن يقدمها إلينا يا سولت بعد عودته إلى المنزل. فهل كانت موجودة حقّاً؟ أم أن يا سولت، المحبّ للكمال، أحسّ بأنّ الأسطراب الكروي والإرث الذي تركه لنا، لن يكتمل من دون اسمها؟ لو أن إحدى شقيقتي أنجبت طفلة، فربّما أطلق عليها اسم ميروپ لتكتمل الشرائط السبع.

عدت إلى المقعد ورميت بثقلي عليه. وعدت بأفكاري إلى الماضي، أبحث في طيات ذاكرتي عن أيّ معلومة ذكرها أمامي يا سولت عن تلك الشقيقة السابعة. وإن لم تخنني ذاكرتي، فإنّه لم يفعل. في الواقع، نادراً ما كان يحدثني عن نفسه؛ كان يبدّي اهتماماً أكبر بمجرى حياتي. وعلى الرغم من أنني كنت أحبّه بقدر ما يمكن

الابنة أن تحبّ والدها، كونه أعزّ شخص في هذا الكوكب على قلبي، علاوة على سيسي، أدركت فجأة أنني لم أكن أعرف شيئاً عن حياته الخاصة.

كل ما كنت أعرف عنه هو أنّه كان يحب النباتات والحدائق، وكان فاحش الثراء. أما كيف حصل على هذه الثروة، فلم يكن لديّ أدنى فكرة، كما لم يكن لديّ أدنى فكرة عن سبب وجود ذلك الشريط السابع في غياب الشقيقة السابعة التي يفترض أن يمثلها. مع ذلك، لم أشعر لحظة واحدة بأنّ علاقتنا لم تكن متينة، أو بأنّه كان يخفي عني المعلومات كلّما طرحت عليه سؤالاً.

ربّما لأنني لم أكن أطرح الأسئلة الصائبة، أو ربّما أن أياً من الشقيقات، لم تفعل.

وقفت لأتجوّل في الحديقة، وأتفقّد النباتات من جديد، وأفكر في المهام التي كنت سأكلّف هانز البستانيّ بها، فقد كنت سأقابله قبل أن أغادر أتلانتيس. عندما عدت إلى المنزل، شعرت بالرغبة الجامحة التي أتت بي إلى هنا، وهي أنني أريد العودة إلى لندن من جديد لمواصلة حياتي.

4

كانت لندن في أواخر شهر تموز حارّة ورطبة، خصوصًا داخل المطبخ الذي لا نوافذ فيه، حيث كنت أبقى طوال النهار، في منطقة بايزووتر. شعرت بأنني تعلّمت، في الأسابيع الثلاثة، كلّ المهارات التي يحتاج إليها الطهاة ليتفوّقوا في مهنتهم، حيث تدرّبت على تقطيع الخضروات إلى شرائح رفيعة، حتى شعرت بأنّ السكّين أصبحت جزءًا من ذراعي، ودعكت العجين حتى آلمتني عضلاتي، وكنت أُسرُّ حين يتخمّر.

في كلّ مساءٍ، كانوا يعهدون إلينا بواجب منزلي لتخطيط قوائم وجداول جديدة. وفي صباح اليوم التالي، كنّا نواصل اهتمامنا بإعداد المكونات، وتجهيز اللوازم التي سنستخدمها قبل أن نبدأ بالطهي. وفي نهاية الحصة، كنا ننظف السطوح لكي تستعيد لمعانها. وكنت أشعر بارتياح شديد حين أفكر أن سيسي لن تتجول في الداخل، ولن تتسبّب في إحداث فوضى.

كان زملائي في التدريب من فئات متنوّعة، ذكورًا وإناثًا، منهم شبّان في الثامنة عشرة من عائلات ميسورة، وربّاتُ بيوت جئن ليتخلصن من الملل الذي يشعرن به خلال النهار، ولرغبتهن في إضفاء بعض الإثارة على حفلات العشاء التي ينظّمها في سوراي.

كان هناك بول صاحب البنية القويّة، وهو مطلقٌ في الأربعين من عمره. أخبرني مرّةً وهو يصفّ قطع الفطائر بلباقة بارعة فوق صينية الخبز لتحضير حلوى الجوجير الفرنسية: «عملت سائق شاحنة عشرين سنة. لكنني كنت دائمًا أريد أن أصبح طبّاخًا. وها أنا هنا أخيرًا»، قال وهو يغمزني. «الحياة قصيرة جدًّا، ألا تعتقدين؟».

«أنت محق». أجبته وأنا أدرك تمامًا ماذا يقصد وأشعر به.

لحسن الحظ، منعني إيقاع الدورة بعض الوقت عن التفكير بحالة الركود التي أمر بها، وساعدني انشغال سيسي عني كثيرًا. فعندما لم تكن مبهورة باختيار أثاث شقتنا الجديدة، كانت تتجول في المدينة، فتركب الحافلات الحمراء التي تنتقل عبر لندن طولًا وعرضًا. فقد كان ذلك يساعدها على لملمة أفكارها الإبداعية وإشباع ولعها بتجهيزات المنزل. إضافة إلى ذلك، كانت تجمع أشياء من أنحاء المدينة، مثل قطع معدنية ملتوية تجدها في ساحات خردوات، وكومة من الطوب الأحمر، وعبوات نفط فارغة كانت لها رائحة كريهة، ودمية بحجم إنسان، نصف محترقة ومصنوعة من القماش والقش. وقد وضعت ذلك كله في غرفة الجلوس الصغيرة.

«يبدو أن الإنكليز يحرقون كل سنة في تشرين الثاني دمي رجل يدعى «جاي فوكس». لا أعرف كيف وجدت هذه، وقد أصبحنا في تموز». قالت لي وهي تحشو مسدس المسامير. «يبدو أن لذلك علاقة بالشاب الذي حاول تفجير مبنى البرلمان قبل مئات السنين. هو مجنون في نظر الإنكليز». قالت وهي تضحك.

في الأسبوع الأخير من الدورة، انقسمنا إلى مجموعات، وكان على كل ثنائي أن يعدّ وجبة غداء من ثلاثة أطباق.

«كما تعلمون العمل الجماعي جزء أساسي لنجاح إدارة المطبخ»، قال ماركوس مدير دورتنا التعليمية، وكان مثليًا. «عليكم أن تتدربوا على العمل تحت الضغط. هذا لا يقتصر على إعطاء الأوامر، بل على تلقّيها أيضًا. والآن، إليكم الثنائيات».

شعرت بالاستياء عندما اكتشفت أنني سأكوّن ثنائيًا مع بيرس. فقد كان أقرب إلى مرأق منه إلى رجل، خشن الشعر، ولم يشارك إلا قليلًا في الأحاديث الجماعية، بتعليقات صبيانية هزلية.

لكن الأمر الجيد هو أن بيرس كان طبّاخًا موهوبًا بالفطرة. فقد كان الوحيد بيننا الذي يحصل على إشادة من ماركوس، بين الحين والآخر، وكان يغيط الآخرين بذلك.

«كُلّ ما في الأمر أنّه منجذب إليه». اشتكت تيفاني، إحدى الفتيات الإنكليزيات المتفاخرات، في أثناء وجودها في الحمام قبل أيام.

تبسّمت وأنا أغسل يديّ، وفكّرت في ما إذا كان الإنسان ينضج بمرور الوقت، أم أن الحياة ساحة لعب فحسب.



«إِذا، هذا آخر يوم لك هناك؟». قالت سيسي مبتسمة، وأنا أتعجل في الانتهاء من احتساء قهوتي في المطبخ في صباح اليوم التالي. «بالتوفيق، أمل أن تنجحي في المسابقة».

«شكراً لك، أراك في ما بعد». قلت وأنا أودّعها، ثمّ غادرت الشقة. سلكت شارع توتينغ هاي ستريت لأتمكّن من ركوب حافلة. على الرغم من أن المترو كان أسرع، فإنني آثرت اكتشاف شوارع لندن وأنا في طريقي إلى هناك، وإذ بلافتة تشير إلى تغيير المسار بسبب أعمال الحفر في بارك لاين. ولما عبرت الحافلة الجسر فوق النهر متجهة إلى الشمال، لم تسلك مسارها المعتاد، بل عبرت نايتسبريدج، حيث كانت باقي الحافلات التي غيرت مسارها أيضاً، قبل أن تتجاوز حافلتنا الازدحام المروري، وتنطلق إلى ما بعد رويال ألبرت هول بقبّتها اللافتة.

شعرت بالارتياح عندما انطلقت الحافلة. كنت أستمع إلى موسيقي المعتادة «مورنينغ مود» (Morning Mood) لغريغ، التي تذكّرني بأتلانتيس، هي وموسيقى روميو وجولييت لبروكوفيتش... التي عزّفتني عليها يا سولت. وشكرت الله على اختراع جهاز الآي بود. فمع عشق سيسي لموسيقى الروك الصاخبة، ومع انتشار جهاز الأقراص المضغوطة في هذه الأيام، كانت غرفتنا المشتركة ترتج طوال الوقت، من أثر أزيز القيثارات الكهربائية وصراخ المغنين. حالما توقّفت الحافلة، بحثت عن معلم مألوف في الشارع، لكنني لم أميز أي شيء غير الاسم المكتوب على واجهة متجر رأيتَه إلى يساري، وأنا أترجّل من الحافلة عند نقطة الوقوف: آرثر مورستون. رفعت رأسي لأنظر إليه من جديد، فقد شككت في ما رأيتَه بعد أن لفتني،

لكن الأوان قد فات. فعندما اتجهت الحافلة إلى اليمين، رأيت عبارة «شارع كنيسة كنسينغتون» تزين اللافتة على الطريق. فارتعشت بعد أن أدركت أنني رأيت لتوي، بأمّ عيني، تجسيدا للغز الذي تركه لي يا سولت.

بقيت مشغولة أفكر في الموضوع وأنا في طريقي إلى المطبخ مع بقية الطلاب.

«صباح الخير يا حبيبتي! هل أنت مستعدة للوليمة التي سنطهوها اليوم؟». دنا مني بيرس ووقف إلى جانبي، وهو يفرك يديه متحمّسا. فشعرت بصعوبة وأنا أبتلع ريقى ممتعة. فقد كنت نسويةً، وأؤمن بمساواة المرأة بالرجل، وأرفض تمامًا سيطرة أحدهما على الآخر. لذلك، لا أبالغ عندما أقول إنه لا يروق لي أن يناديني أحدٌ بحبيبتي، سواءً أكان رجلاً أم امرأة.

في ما بعد دخل ماركوس المطبخ وأعطى كلّ ثنائي منا ما يشبه بطاقة بيضاء. «حسنًا»، ستجدون في الجهة الخلفية من البطاقة قائمة بالأطباق التي عليكم طهوها. أريد منكم أن تعرضوا الأطباق أمامكم على الطاولة. وسأمرّ بكم في تمام الثانية عشرة ظهرًا لأتذوقها. مدة الاختبار هي ساعتان. حسنًا، والآن يا أحبائي، بالتوفيق! يمكنكم أن تنظروا إلى القوائم».

على الفور، انتزع بيرس البطاقة التي كانت بيدي، فاضطرت إلى النظر إليها من فوق كتفه لأعرف ما كان علينا طهوه.

«كريما كبد الأوز مع توست ميلبا، سمك السلمون مسلوق مع بطاطا دوفينواز، فاصوليا خضراء مقلية بالزبدة. وفي النهاية، حلوى إيتون ميس». قرأ بيرس بصوت عالٍ. «بالطبع سأطهو كريما كبد الأوز والسلمون المسلوق، فاللحوم والأسماك من اختصاصي. سأترك لك إعداد الخضروات والحلوى. ابدئي بتحضير المورنيغ أولاً».

أردت القول إن اللحوم والأسماك من اختصاصي أيضًا، فضلًا عن أن ذلك الطبق هو الألد في قوائم الغداء الصيفي، لكنني فكرت في أن المزايدة لن تفيد شيئًا حاليًا، خصوصًا أن ماركوس قال إنه اختبار جماعي، وليس فرديًا. لذلك انشغلت بمزج زلال البيض بالسكر الناعم.

بعد مرور ساعتين، واقترب موعد التقديم، كنت قد انتهيت من إنجاز المهمة الموكلة إليّ، ما جعلني أشعر بالارتياح. لكنّ پيرس بدأ يعيد توزيع كريما كبد الأوز على نحو مسعور، بعد أن قرّر إعادة تحضيرها في اللحظة الأخيرة. عندما نظرت إلى سمك السلمون، وجدته ما يزال في الإناء. وأدركت أنّه تركه يغلي على النار أكثر من الضروري لطهوه. حاولت أن أقول شيئاً، لكنّه تجاهلني بسبب نفاذ صبره.

«حسنًا انتهى الوقت المقرر. توقّفوا من فضلكم». صاح ماركوس بصوت تردد صدها في أرجاء المطبخ. وتوقفت قرقعة الأواني بعد أن وضعها الطهاة على الطاولة، وابتعدوا عنها. لكن پيرس تجاهل طلب ماركوس، وسارع في نقل السلمون إلى الطبق الذي زينه بالبطاطا والفاصوليا.

بعد أن مدح ماركوس وذمّ ما طهاه أفراد المجموعات الخمس، وصل إلينا. وكما توقّعت، أشاد بتقديمتنا الأطباق وبكريما كبد الأوز وهو يغمز طاهيه المفضل. «ممتاز، أحسنتما. والآن لتذوّق السلمون».

راقبته وهو يقضم لقمته، وإذ به يعبس، ثمّ نظر إليّ مباشرة.

«هذا غير موفق على الإطلاق. فهو مطهو أكثر من اللزوم. أمّا هذه الفاصوليا... والبطاطا»، قال وهو يتناول لقمة من كل واحدة، «فهما رائعان». ابتسم ماركوس مجدّدًا في وجه پيرس. نظرت إلى زميلي وأنا أنتظر منه أن يصحّح الهفوة التي ارتكبها ماركوس. لكنّه أشاح نظره عني، ولم ينطق بكلمة. بعد ذلك انتقل ماركوس إلى الحلوى التي حضّرتها.

بدت مثل زهرة التوليب عند تفتّح بتلاتها. كنت قد صممت المورينغ على شكل وعاء يحتضن الفراولة المنقوعة بالليكور وكريما الشانتييه. كنت واثقة من أن ماركوس إما سيحبّها وإما سيكرهها.

وبعد أن تذوّق ملعقة واحدة منها، قال لي: «ستار، يا لك من مبدعة. إن طعمه لذيذ جدًا أيضًا. أحسنت!».

في النهاية، منحنا ماركوس الجائزة الأولى للطبق الأول وللحلى أيضًا.

في غرفة تغيير الملابس، فتحت خزانتي بقوة لأخرج منها الملابس التي كنت أرتديها في الصباح، لأبدّل الزيّ الأبيض الذي وضعته قبل دخول المطبخ.

«صُدمت كثيرًا من التزامك الصمت حين كنا في المطبخ».

نظرت إلى أعلى عندما سمعت صدى الأفكار التي كانت تتردد في رأسي. كانت شانتلي، شابة هندية رائعة الجمال، أظن أنها كانت في سنّي تقريبًا. كانت الوحيدة، ما عداي، التي لا تنضم إلى بقية الطلاب في نهاية كلّ حصة، عندما يذهبون لاحتساء شيء في حانة مجاورة. مع أنّها كانت تحظى بشعبية واسعة وتنضح دائمًا بطاقة هادئة وإيجابية.

«رأيت أن بيرس أفرط في طهي السلمون. كان يجلس بجانبني على الأريكة. لم تقولي شيئًا عندما لامك ماركوس؟».

هزرت رأسي مستهجنَةً، وأنا أجيبها: «لا يهمّ. كانت مجرد قطعة من السلمون». «لكن الأمر مهمّ بالنسبة إليّ. هذا ظلم بحقك. إن أردنا أن ينتهي الظلم، فعلينا ألا نسكت عنه».

أخرجت حقيبتني من خزانتي، وأنا لا أعرف بماذا أجيبها. كانت الأخريات قد ودّعنا وخرجن من أجل احتساء جولة أخيرة من الشراب. فبقينا أنا وشانتي وحدنا في غرفة تبديل الملابس. وبعد أن ارتديت حذائي الرياضي، بدأت أنظر إليها وهي تسرّح شعرها الأبنوسي الكثيف، ثمّ طلت شفيتها بأحمر شفاه داكن.

«وداعًا». قلت لها وأنا أمشي صوب الباب.

«هل ترغبين في احتساء كأس شرابٍ معي؟ أعرف حانة صغيرة في آخر الشارع، الجو هادئ هناك وأعتقد أنك ستحبّينها».

ترددت قليلًا إذ لم أكن أحبّذ المحادثات الفردية. وبعد أن شعرت بأنّها كانت تنظر إليّ من الخلف، استدرت، وقلت لها موافقة: «نعم، لمّ لا؟».

مشينا إلى أن وصلنا إلى حانة هادئة، وجلسنا في ركنٍ هادئ. وهناك سألتني مبتسمة: «إدّا، أيتها النجمة الغامضة، أخبريني من تكونين؟».

كنت دائمًا أخشى ذلك السؤال. لذلك كنت مستعدّة له ببضع إجابات حفظتها تحسّبًا لطرحه عليّ. «وُلدت في سويسرا، ولي خمس شقيقات، كلّنا بالتبني. ودرست في ساسكس».

«وماذا درست؟».

«الأدب الإنكليزي، وأنت؟». سألتها، لكي تبادر بالحديث.

«أنا أوّل جيل بريطاني مولود في عائلة هندية. أعمل معالجة نفسية، وأتعامل بشكل رئيسي مع المراهقين المصابين بالاكتئاب، الذين يفكرون في الانتحار. يؤسفني أن أقول لك إن عددهم كبير جدًا حاليًا، خصوصًا في لندن. لكنني ملّمة بالضغط النفسي الذي يمارسه الآباء في هذه الأيام على أولادهم ليحققوا الإنجازات».

«ولم اخترت الانضمام إلى دورة الطبخ؟».

«لأنني أحب الطبخ، ويوفر لي متعة كبيرة أيضًا». قالت وهي ترسم ابتسامة عريضة. «وأنت؟».

أدركت أن هذه المرأة معتادة، بطبيعة عملها، على استجواب الناس. وهذا ما جعلني احتاط أكثر من العادة.

«أنا أيضًا أحب الطبخ».

«هل تعتزمين امتهان الطبخ؟».

«لا. أعتقد أنني أحب الطبخ فحسب لأنني أجيده. وإن بدا الأمر في الظاهر أنانيًا قليلًا».

«أنانيًا؟». ضحكت شانتلي. فأحسست بنبرة صوتها الموسيقية الدافئة في أذني.

«أعتقد أن غذاء الجسم هو في الوقت نفسه غذاء للروح. لذلك لا يمكنني اعتباره أنانية في أي حال. من الجيد أن تستمتعي بما تجيدين فعله. إضافة إلى ذلك سيساعدك كثيرًا في الواقع في نهاية الأمر. هذا ما يسمّى الشغف. وبماذا أنت شغوفة أيضًا، يا ستار؟».

«بالحدائق و...».

«أجل».

«بالكتابة، أحب الكتابة كثيرًا».

«وأنا أحب المطالعة. فالمطالعة فتحت ذهني أكثر من أي شيء آخر. لقد

جعلتني أستنير. لم أملك يومًا المال الكافي لأسافر، لذلك كانت الكتب من سافر بي إلى كل مكان. وأين تعيشين؟».

«في توتينغ، لكننا قريبًا سننتقل إلى باترسي».

«أنا أقطن في باترسي، مباشرة قبالة كوينزتاون رود. هل تعرفينها؟».

«كلا، لقد وصلت حديثًا إلى لندن».

«آه، وأين عشت بعد تخرّجك في الجامعة؟».

«لم أعش في مكان محدّد. في الواقع كنت أتجول في البلدان».

«يا لك من محظوظة». قالت شانتي. «آمل أن أتمكن من زيارة بعض الأماكن قبل أن أرحل عن هذه الدنيا. لكنني لا أملك النقود الآن. كيف تمكنت تحمّل المصاريف؟».

«كنت وأختي نبحت عن عمل حالما نصل إلى وجهتنا. وعادة كانت تعمل في الحانات وأنا في خدمة التنظيف».

«واو ستار، أنت جميلة ومتألّقة لدرجة، سيصعب على أيّ أحد تصوّر يديك داخل المراحيض. لكنك أحسنتِ صنعًا. هذا يعني أنك باحثة أبدية... غير قادرة على الاستقرار في مكان واحد».

«تلك كانت رغبة أختي، وليست رغبتني. أنا كنت أتبعها فحسب».

«وأين هي الآن؟».

«في البيت. إننا نعيش معًا. هي فنّانة وستبدأ في الشهر المقبل دورة فنية في رويال كوليج أوف آرت».

«حسنًا، وهل لديك شريك أو حبيب؟».

«كلا».

«أنا أيضًا. وهل حَبِرتِ علاقة ذات معنى؟».

«كلا». عندئذٍ نظرت إلى ساعتني، كنت أشعر بالسخونة تمتدّ إلى وجنتي من حدّة استجوابها. «عليّ الذهاب».

«بالطبع». جرعت شانتى كآسها، وتبعتنى إلى الخارج.

«سيسرتنى كثيرًا التعرف إليك عن قرب يا ستار. هذه بطاقتى، راسلينى من وقت إلى آخر لتخبرينى عن أحوالك. وإذا شعرت فى أى لحظة بأنك ترغبين فى التحدث إلى أحد، فأنا متوفرة».

«بالطبع، مع السلامة».

وابتعدت بسرعة، إذ إننى لا أرتاح إلى مناقشة «علاقاتى الحميمة بالآخرين» مع الغرباء.



«وأخيرًا!!».

رأيت سيسى تنتظرنى عند مدخل الشقة الضيق، وهى تضع يديها فوق وركيها. «أين كنتِ يا سىا؟».

«خرجت مع صديقة واحتسينا كأسًا من الشراب». قلت لها وأنا أمرّ بجانبها متوجهة إلى الحمام. وبسرعة، أغلقت الباب خلفى.

«حسنًا، ربّما أخبرتنى بذلك ونسيت. لكننى طهوت شيئًا لنحتفل بانتهاء الدورة. ربّما فسد الآن».

كان من النادر أن تدخل سيسى المطبخ لتطهو شيئًا. فى المناسبات القليلة التى أغيب فيها عن المنزل، كانت تطلب وجبات جاهزة من الخارج. «آسفة لم أعرف. سأتى فى الحال».

سمعت عبر الباب وقع خطواتها وهى تبتعد. بعد أن غسلت يديّ، وأبعدت خصل شعري المتدلية على جبينى عن عيني، ثنيت ركبتيّ قليلًا ونظرت إلى نفسى فى المرآة.

«شيءٌ ما يجب أن يتغيّر» قلت لنفسى.

5

بحلول شهر آب، أصبحت لندن أشبه بمدينة أشباح، بعد أن هرب المقتدرون فيها من مناخ بريطانيا المتقلب، بين الغائم الرطب والمشمس الدبق. فبدت المدينة كأنها تغط في سبات عميق، إلى حين عودة سكانها من الشواطئ الأجنبية، لكي تستأنف نشاطها المعتاد.

شعرت بخمول غريب أيضًا. إن كنت قد عانيت الأرق في الأيام التي تلت وفاة پا سولت، فما أنا اليوم أواجه صعوبة في الخروج من السرير كل صباح، على عكس سيسي التي حافظت على نشاطها المعتاد، وأصرّت على أن أرافقها إلى السوق لاختيار ثلاجة مميّزة، أو تصميم مثالي لبلاط لوح الحماية من رشاش الماء لشقّتنا الجديدة.

وكنت في يوم سبت، سجّلت فيه الرطوبة أعلى درجة لها، وقد رغبت في التزام فراشي للمطالعة، لكنّها طلبت إليّ النهوض من السرير، وجرتني خلفها إلى متجر للتحف، لاقتناعها أنّني سأحب الأثاث الذي يعرضه.

«ها قد وصلنا». قالت لي وهي تنظر عبر نافذة الحافلة، وتدق الجرس لتعلم السائق برغبتها في النزول عند المحطة التالية. «رقم المتجر 159، إذًا لقد وصلنا». عندما ترجّلنا من الحافلة، شهقت للمرة الثانية خلال بضعة أسابيع، بعد أن أدركت أن المتجر الذي تزره سيسي كان يبعد خطواتٍ من متجر آرثر مورستون للكتب. استدارت سيسي إلى اليسار لتذهب إلى المتجر المجاور، لكنني تلكأت في اللحاق بها. فبقيت في مكاني ألقي نظرة سريعة عبر نافذة المتجر. كانت مليئة

بكتب قديمة، من النوع الذي حلت بامتلاك ما يكفي من النقود لشرائها كلها. وتصورّت مظهرها وهي تزيّن الرفوف التي كنت سأضعها إلى جانبي مدفأتي. «أسرعي يا سيا، إنها الرابعة إلا الربع. لا أعرف في أي ساعة يغلقون المتجر يوم السبت».

تبعتها إلى الداخل، فوجدت المحل مليئًا بأثاث من الطراز الشرقي؛ طاولات مطلية باللون القرمزي، خزائن سود رُسمت على أبوابها فراشات رقيقة، وتماثيل ذهبية لبوذا وهو يبتسم بصفاء.

«ألا تتمنين لو أننا اشترينا حاوية منها فيما كنا مسافرتين؟». قالت وهي تستهجن السعر المذكور عليها، ثمّ رسمت إشارة بيديها لتقول لي «هذا باهظ جدًّا». علينا أن نبحث عن واحدة أرخص في مكان آخر».

في ما بعد قادتني سيسي إلى خارج المتجر، وبدأنا نتفحص واجهات المتاجر القديمة الجذابة على طول الشارع إلى أن بلغنا مجددًا محطة الحافلات. وفيما كنّا ننتظر وصول الحافلة، حدّقت مرة أخرى باتجاه متجر آرثر مورستون للكتب في الجانب الآخر من الطريق. كانت تيغي لتقول إنه القدر. وفكرت أيضًا في أنّها مصادفة غريبة.



بعد أسبوع، فيما كانت سيسي تزور الشقة لتتفقد سير عمل البلاط، إذ كنّا ننوي الانتقال إليها بعد أيام، نزلت إلى المتجر في أول الشارع لأشتري نصف لتر من الحليب. وفيما كنت أنتظر أن يناولني الموظف الفكة، وقع نظري على عنوان عريض في أسفل الصفحة الأولى لجريدة التايمز من جهة اليمين.

ربّان النمرة

يغرق في عاصفة هوجاء في خلال سباق الشبكة السريعة

شعرت بأنّ قلبي يكاد يتوقّف عن الخفقان. كنت أعرف أن أختي آلي في تلك اللحظة تشارك في سباق الشبكة السريعة، ولأنّ اسم القارب كان مألوفًا، شعرت

بالرهبة. على الرغم من أن الصورة التي تظهر تحت العنوان كانت صورة رجل، لكن روعي لم يهدأ. اشتريت الصحيفة لأقرأ المقالة الكاملة، وازداد توترى، وأنا في طريقي إلى الشقة. بعد انتهائي من قراءة المقالة، تنفست الصعداء وشعرت بارتياح قليل، إذ لم أقرأ أي خبر عن ضحايا آخرين. على ما يبدو، كان الطقس مروعًا فأجبر ثلاثة أرباع القوارب على الانسحاب من السباق.

عندما أصبحت داخل الشقة، راسلت سي سي قبل أن أعاد قراءة المقالة من جديد. على الرغم من أن أختي الكبرى كانت بخارة متمرسة لسنوات، لم يخطر في بالي أنها قد تموت في سباق. كل شيء في آلي كان... حيويًا. فقد كانت تتحلّى بالشجاعة، وكنت معجبة بها، وأحسدها على شجاعتها.

كُتبت لها رسالة قصيرة أخبرها فيها أنني عرفت بوقوع الكارثة، وطلبت إليها الاتصال بي بسرعة. وإذ بهاتفى يرّن وأنا أضغط على زر الإرسال. لقد كانت سي سي المتصلة.

«تحدّثت إلى (ما)، يا سيا. اتصلت بي لتوها. آلي كانت مشاركة في الشبكة السريعة و...».

«لقد عرفت، قرأت لتويّ مقالة التايمز. يا إلهي، أتمنى أن تكون بخير.»
«قالت (ما) إنها تلقت مكالمة من مجهول، وأخبرها بأنّ آلي بخير. يبدو أن القارب انسحب من السباق.»

«الحمد لله! مسكينة آلي لفقدانها زميلًا مثله.»
«هذا رهيب. في أي حال، سأعود إلى المنزل بعد قليل. المطبخ الجديد يبدو رائعًا، سوف تحبّينه بالتأكيد.»
«أنا واثقة من ذلك.»

«لقد وصلت الأسرة، سريرانا والسرير المزدوج للغرفة الاحتياطية. شارفنا على الانتهاء، ولا يسعني انتظار اليوم الذي سننتقل فيه. أراك في ما بعد.»

أنهت سي سي المكالمة. تعجّبت لقدرتها على التحوّل سريعًا من سي سي العاطفية إلى سي سي العملية، بعد مثل تلك الأخبار السيئة التي تلقيناها. كنت

أعرف أن تلك طريققتها في التعامل مع الأمور. ثم فكرت في ما إذا كان علي أن أتحدى بالشجاعة مثل أي فتاة راشدة بلغت السابعة والعشرين من عمرها، وأخبرها ربّما من الأفضل لو نكون في غرفتين منفصلتين. وإذا استضفنا يومًا ما أحدًا، فحينئذٍ لن أمانع في الانتقال مؤقتًا إلى غرفتها. كنت أرى من السخافة أن نتشارك غرفة واحدة بوجود غرفة احتياطية.

في يوم ما يا ستار، عليك التعامل مع هذا الأمر...
لكن كالعادة، ذلك اليوم لم يأتِ.



بعد بضعة أيام، كنت أحزم أغراضي القليلة استعدادًا لانتقالنا إلى شقّتنا الجديدة عندما تلقيت مكالمة من (ما).
«ستار؟»

«هذه أنا، هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل آلي بخير؟ لم تُجب على رسائلي، هل تحدّثت إليها؟». قلت لها بنبرة قلقة.

«لا، لم أفعل، لكنني أعرف أنّها لم تصب بأذى. لقد تحدّثت إلى والدة الضحية. ربّما قرأت أنّه كان الرّبّان الذي يعمل على قارب آلي. يا لها من امرأة رائعة...». وسمعت (ما) تتنهد. «يبدو أن ابنها ترك لها رقمي لتتصل بي. وحالما وقع الحادث فعلت ذلك. المرأة اعتقدت أنّه فعل ذلك لأنّ حدسه أنبأه بحدوث الأسوأ».

«هل تقصدين أنّه شعر باقتراب أجله؟».

«نعم. وكانت آلي مخطوبة إليه سرًّا. اسمه تيو».

سكنت فجأةً من وقع الخبر.

«أعتقد أن تيو توقع أن تكون آلي في صدمة، وغير قادرة على الاتصال بنا»، تابعت (ما)، «خصوصًا أنّها لم تخبر أحدًا أنّها كانت في علاقة جادة به».

«هل كنت تعرفين يا (ما)؟».

«نعم، كنت أعرف أنها تعيش قصة حب. لم تكد تمرّ على مغادرتها المنزل إلّا أيام قليلة، حتى قالت لي إنه الشخص المثالي لها. أنا...». «أسفة جدًّا يا (ما)».

«سامحيني يا عزيزتي، مع أنني أعرف أن هذه هي سنّة الحياة في أخذها وعطائها، لكن ما حدث لآلي بعد فترة وجيزة على موت والدكنّ هو فعلاً أمر مأساوي». «وآين هي الآن؟». سألتُ (ما). «إنّها في لندن، تواسي والدته». «هل عليّ الذهاب لرؤيتها؟».

«أعتقد أن حضورك الجنازة سيكون رائعًا. أخبرتني سيليا، والدّة تيو، أن مراسم الجنازة ستُجرى الأربعاء المقبل عند الثانية بعد الظهر في كنيسة الثالوث الأقدس في تشيلسي».

«سأذهب أنا وسيسي بالتأكيد يا (ما). أعدك بذلك. وهل اتّصلتِ بشقيقتي؟». «نعم، لكنهن مشغولات». «وماذا عنك؟ هل ستأتين؟».

«أنا... لا أستطيع. لكنني واثقة من أنك وسيسي ستمثّلاننا جميعًا. أخبرا آلي أننا نرسل إليها حبّنا». «بالطبع سنفعل».

«سأدعك تخبرين سيسي. وكيف حالك يا ستار؟». «بخير. أنا... فقط... لا أتحمل ما حصل مع آلي». «ولا أنا يا عزيزتي. لا تتوقّعي أن ترد عليك، فهي حاليًّا لا تجيب على مكالماتها الهاتفية».

«لن أفعل، وشكرًا لإخباري يا (ما). وداعًا». «حالما وصلت سيسي إلى المنزل أخبرتها بما حدث، وبموعد الجنازة. «أفترض أنك قلت لـ (ما) إنّنا لن نتمكّن من حضور الجنازة؟ سنكون منهمكتين في إفراغ الصناديق وتوضييبها بعد انتقالنا إلى شقتنا».

«علينا حضور الجنازة يا سيسي، من أجل آلي».

«ماذا عن الأخريات؟ أين هن؟ لِمَ علينا نحن أن نعطل خططنا، بحق السماء، لم نكن نعرف الرجل».

«كيف يمكنك قول ذلك؟». نهضت من مكاني، وأنا أشعر أن الغضب الذي يعتمل في داخلي كان على وشك الانفجار. «الأمر لا علاقة له بخطيبها، بل بآلي، فأختنا كانت دائماً إلى جانبنا، وهي اليوم بحاجة إلينا أكثر من أي وقت مضى، لذلك سنقف إلى جانبها يوم الأربعاء. ولا مجال للاعتراض». قلت ذلك، وخرجت على الفور من الغرفة إلى الحمام الذي كنت قادرة، على الأقل، على إقفال بابه، إذ لم أكن أرغب في رؤيتها من شدة غضبي. وأقفلت الباب وشرعت في الاستحمام. فبعد الاختناق الذي شعرت به وسط الشوارع، بدا حوض الاستحمام المصفر ملاذاً لي.

تركت المياه تغمرني وأنا أفكر في تيو الذي لم يستطع النجاة منها. وعلى الفور، عدلت جلستي ما تسبب بتساقط موجات صغيرة من المياه فوق أرضية الحمام المشمعة. وشعرت بذعر تسبب لي باضطراب نفسي.

سمعت طرقاً على الباب.

«هل أنت بخير يا سيا؟».

ابتلعت ريقى بصعوبة، وحاولت استنشاق الهواء الذي لم يتمكن تيو من استنشاقه وقت الحادثة، ولن يستنشقه بعد اليوم.

«أجل».

«أنت محقة». قالت لي. ثم سكنت قليلاً وأضافت. «أنا آسفة. بالطبع علينا أن نكون هناك من أجل آلي».

«حسنًا». سحبت القابس وحاولت الوصول عبر حافة الحوض إلى منشفتي. بالطبع علينا الذهاب».



في صباح اليوم التالي، كانت شاحنة النقل التي طلبتها سيسي، تنتظرنا أسفل شقتنا، وفي داخلها السائق. وبعد تحميل الأغراض القليلة التي في حوزتنا ومعظمها من الخردة التي جمعتها سيسي لمشروعها الفني الجديد، انطلقنا وحملنا الأثاث الذي اشترته سيسي من متاجر مختلفة في نواحي مختلفة في جنوب لندن.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى باترسي. وقَّعت سيسي الأوراق القانونية في مكتب المبيعات في الطبقة السفلية، واستلمت مفاتيح الشقة الجديدة. ثمَّ فتحت الباب، ودعنتني إلى الدخول لنتجوّل في أرجاء المساحة الفارغة، حيث تردّد صدى صوتينا إلى ما لا نهاية.

«لا أصدّق أن هذا أصبح ملكنا. سنكون ابتداءً من اليوم بأمان يا سيا، إلى الأبد. بات لدينا منزلنا. أليس هذا مذهلاً؟».

«أجل».

ثمّ مدّت ذراعيها إليّ. في تلك اللحظة عرفت أنّها تحتفل بانتصارها. لذلك ارتيمت في حضنها. ووقفنا وسط المساحة الفارغة نحتضن بعضنا بعضاً، ونضحك كما في صغرنا كأننا نسخر من سنّنا بعد أن كبرنا.



بعد انتقالنا إلى هنا، أصبحت سيسي تستيقظ باكراً كلّ صباح وتخرج لتجمع مزيداً من الخردة لدورها الفنية قبل أن يبدأ أيلول ويبدأ أوّل فصل دراسي.

هذا يعني أنّني كنت أبقى وحيدة في الشقة طوال النهار. وكنت أشغل نفسي بإفراغ الصناديق التي احتوت على ملاءات الأسرة والمناشف ولوازم المطبخ التي اشترتها سيسي. وفيما كنت أسحب مجموعة سكاكين حادة من قاعدتها، شعرت كأنني سيّدة متزوجة حديثاً ترتّب أغراض أوّل منزل لها، مع أنّني في الواقع لم أكن متزوجة.

بعد أن انتهيت من إفراغ الأمتعة، انتقلت إلى الشرفة الطويلة لأحوّلها إلى حديقة معلّقة. فاستخدمت ما تبقى من مدّخراتي والمخصّصات الشهرية التي تركها

لي يا سولت لأشتري بها أي شيء يمكنه مساعدتي في تعجيل إنبات النباتات الخضراء والأزهار الملونة. وفيما كنت أشاهد الرجل من الحديقة المركزية يسحب وعاءً ضخماً من الطين يحتوي على نبتة كاميليا رائعة ما تزال براعمها البيضاء تتفتح، إلى الشرفة، عرفت أن يا سولت كان سيتقلب في قبره بسبب «هذا التبذير»، لكنني تراجع عن الفكرة، وأنا أردد في نفسي، لا بدّ من أنه سيكون متفهّماً هذه المرّة.



عندما حلّ الأربعاء التالي، جهّزت ملابس داكنة لكلتينا من أجل الجنازة، فاكثفت سيسي بارتداء سروالاً من الجينز الأسود، إذ لم يكن عندها تنورة أو فستان.

كانت شقيقتنا قد تواصلت معنا عبر الرسائل النصية، أو البريد الإلكتروني، وطلبن منا أن ننقل تحياتهن إلى آلي. وحدها تيغي، كانت على الأرجح الأخت الأقرب إليّ بعد سيسي، اتّصلت بي شخصياً وطلبت إليّ أن أعانق آلي بشدّة نيابة عنها.

«تمنيت المجيء، لكنّ الأسلحة هنا متفلّنة، وعندنا غزلانٌ كثيرة مصابة».

فوعدها أن أعانق آلي نيابة عنها، وفكرت وأنا أتبسم من شغف أختي الصغرى بالحيوانات. كانت في الوقت الحالي تعمل في محمية للغزلان في اسكتلندا. وأذكر، عندما حصلت على تلك الوظيفة، أنني اعتبرتها الوظيفة الأنسب لها. كما أنّها كانت خفيفة الحركة مثل الغزلان. وما زلت أذكر حتى الآن، كم أذهلني رشاققتها حين ذهبنا لمشاهدتها ترقص على خشبة المسرح.

عبرت وسيسي الجسر إلى تشيلسي، حيث ستقام جنازة تيو.

«واو! هناك مصوِّرون وكاميرات تلفزيونية وصحافيون». همست لي سيسي ونحن واقفتان في الطابور عند مدخل الكنيسة. «هل ننتظر آلي لنلقي التحية عليها؟».

«كلا. فلنجلس الآن في المقاعد الخلفية في الكنيسة. لا بدّ من أن نراها في ما بعد فتتحدث إلينا».

على الرغم من أن قاعة الكنيسة كانت واسعة، فقد كانت مكتظة بالحضور الذين تدافعوا للجلوس على المقاعد الخلفية، فتمكنت أنا ويسي من حشر نفسيينا بينهم. بعد ذلك، ملت برأسي قليلاً إلى جنب ورأيت المذبح، كان يبعد عشرين خطوة من مقعدنا. وشعرت بالتواضع والذهول أمام حب كل أولئك الناس لتيو الذي نجح في جمعهم كلهم في مثل هذا المكان اليوم ليودّعه.

فجأةً علا صوت أنهى الأحاديث الجانبية، فاستدار المصلّون نحو باب المدخل، ورأوا ثمانية شبان يتقدّمون بالنعش على طول الممر. وتبعتهم امرأة شقراء قصيرة القامة، وهي تتكى على ذراع أختي.

نظرت إلى ملامح آلي الجميلة، ورأيت التوتر والحزن يغطّي وجهها. عندما مرّت بجانبني، أردت أن أستوقفها لأعانقها وأخبرها كم أنا فخورة بها، وكم أحبّها.

كانت تلك الجنازة الأكثر جلالة وألماً بين كلّ الجنازات التي شاركت فيها في حياتي. أصغيت إلى رثاء ذلك الرجل الذي لم تتسنّ لي فرصة التعرّف به، ومع ذلك كان حبيب أختي. وعندما دُعينا للصلاة على روحه، وضعت رأسي بين يدي وبكيت؛ بكيت على الحياة التي سُرقت منه، وبكيت على أختي التي وجدت نفسها في مأزق بعد خسارتها إيّاه، وبكيت أيضاً على پا سولت الذي لم يمنح بناته السّت فرصة توديعه وفق الأصول. عندئذٍ أدركت، أول مرة في حياتي، أهميّة تلك العادات القديمة لتنظيم مشاعرنا وقت الفوضى.

من بعيد، رأيت آلي تتسلّق الدرجات القليلة المؤدية إلى المذبح، وتنضمّ إلى جوقة الأوركسترا، ثمّ أمسكت بالناي الذي تدرّبت على عزفه سنوات، ووضعت على شفّتيها بعد أن تصنّعت ابتسامة. وإذ بلحن «مزمар البحار» الشهير يعلو في قاعة الكنيسة. عندئذٍ نهضت على قدميّ مع بقية المشاركين وطويت ذراعيّ قبل أن يحين وقت ثني الركبتين. وبدأ المشاركون ينهضون ويجلسون بالتناغم مع الموسيقى إلى أن بلغت الجنازة نهايتها. بعد ذلك، انفجرت الكنيسة بالتصفيق والهتاف. وعرفت أنّني لن أنسى تلك اللحظة في حياتي.

وفيما كنّا جلوساً، التفتّ إلى سيسي ورأيت دموعها تنساب فوق خديّها، وتأثرت كثيراً لرؤية أختي التي قلّما تظهر عواطفها، تبكي مثل الأطفال.

فأمسكت بيدها، وسألتها: «هل أنت بخير؟».

«يا لتلك الروعة». تمتمت وهي تمسح عينيها بساعدها، «يا لتلك الروعة». عندما أخرج نعش تيو من قاعة الكنيسة، لحقت به والدته أولاً برفقة آلي. حينئذ التقى نظري بنظرها لأول مرة منذ وصولنا، ورأيت ظل ابتسامة على وجهها. وبدورنا، لحقت أنا وسيسي النعش إلى الخارج مع بقية المشاركين. وهناك وقفنا تائھتين على الرصيف، لا ندري ماذا نفعل.

فقال سيسي: «هل نغادر؟ بما أن الحشد كبير أفترض أن آلي ستتشغل بالتحدث إلى الجميع».

«لكن يجب أن نسلّم عليها أولاً، أو فلنعانقها على الأقل».

«انظري ها هي هنا».

ورأينا آلي، بشعرها الأحمر الذهبي المتمواج حول وجهها الشاحب على غير عادته، تبتعد وتتوجّه إلى رجل كان يقف وحيداً على جنب؛ شيء ما في لغة جسديهما أخبرني بأن عليّ ألا أقاطعهما. ومع ذلك، اقتربنا قليلاً لكي تتمكّن من رؤيتنا عندما تنهي محادثتها.

في النهاية، ابتعدت منه وجاءت إلينا مستبشرة.

ومن دون أن ننطق بكلمة، لففنا أنا وسيسي أذرعنا حولها وعانقناها بقدر ما سمحت لنا به قوّتنا.

كانت سيسي من بادر إلى الكلام لتخبرها بمدى أسفنا على ما حصل. أما أنا، فوجدت صعوبة في النطق، وشعرت بأنني على وشك البكاء مرة أخرى لسبب لا يخصّني.

«يؤسفنا فعلاً ما حصل، أليس كذلك يا ستار؟». سألتني سيسي.

«بالطبع». أجبتها بصعوبة، «كانت المراسم لائقة يا آلي».

«شكراً لك».

«كما أنّني سررت بسماع عزفك الناي. لم تفقدي موهبتك». قالت سيسي.

«اسمعا، عليّ الذهاب مع والدتي، هل تأتيان إلى المنزل؟». سألتنا آلي.
«لا، لا نقدر. لكن اسمعي، نعيش قريباً من هنا، خلف الجسر في باترسي.
عندما تشعرين بتحسّن، هاتفينا أو تعالي مباشرة للزيارة، اتّفقنا؟». اقترحت سيسي.
«سيسرنا كثيراً أن نراك يا آلي. قلت لها وأنا أعانقها. الجميع يرسل إليك تحياته.
اعنني بنفسك من فضلك».

«سأحاول. شكراً مرة أخرى على حضوركما. لو تديران كم أقدر ذلك».
وبابتسامة أعربت عن امتنانها، لوحت آلي لنا للمرة الأخيرة، ثمّ توجهت إلى
سيارة الليموزين السوداء التي كانت تنتظرها، وفي داخلها والدتي، عند الرصيف.
«هيا بنا». قالت سيسي وهي تنطلق. لكنني تباطأت قليلاً، ونظرت مرة أخرى
إلى سيارة الليموزين وهي تبتعد عن الرصيف، وإلى آلي التي كنت أراها دائماً
جميلة وشجاعة، آلي أختي الكبرى التي لا تُقهر. لكنّها اليوم بدت ضعيفة، حتى إن
أيّ هبة ريح كانت قادرة على زعزعتها. وفيما سرّعت خطاي للحاق بسيسي، أدركت
كم الحب قادر على زعزعة أقوى إنسان.

في تلك اللحظة، قطعت عهداً على نفسي أنّي، عندما يقرع الحب بابي، لن
أقاوم مذاق الفرح أو مذاق الألم الذي سيولده فيّ.



صدقت آلي وعدها واتّصلت بي بعد بضعة أيام، فشعرت بارتياح كبير. واتّفقنا أن
تتناول طعام الغداء معنا، وترى الشقة، ولو في غياب سيسي، إذ كانت تلتقط صوراً
لمحطة كهرباء باترسي من أجل أحد مشاريعها الفنية. بعد ظهر ذلك اليوم، شرعت
في تحضير قائمة الطعام.

في اليوم التالي، رنّ جرس الباب والشقة تفوح فيها رائحة الطبخ المنزلي التي
أملتُ أن تكون مهدئة للنفس. لعلّ شائتي كانت محقة، لأنني أردت دعوة آلي إلى
الطعام لأغذي روحها.

«مرحباً يا عزيزتي، كيف حالك؟». قلت لها وأنا أحتضنها عند الباب.

«أحاول التأقلم». قالت وهي تتبعني إلى الداخل.

لكنني كنت قادرة على رؤية عكس ذلك.

«هذا رائع! يا له من مكان جميل». قالت آلي بعد أن اقتربت من النوافذ المرتفعة من الأرض إلى السقف، لتلقي نظرة على المناظر المحيطة بنا.

بما أن الطقس كان دافئاً لتناول الغداء في الهواء الطلق، فقد جهزت المائدة على الشرفة. وأنا أقدم إليها الطعام، أعربت عن إعجابها بحديقتي المنزلية. وعندما سألتني عن علاقتي بيسي، انفطر قلبي لشعوري بقلبها ينزف مجدداً مراراً وتكراراً. لكنني فهمت أن آلية التكيف عندها تتطلب أن تواصل حياتها طبيعياً كما فعلت دائماً، وألا تحتاج إلى تعاطف الآخرين.

«يا إلهي، هذا لذيذ يا ستار. يبدو أنني سأكتشف اليوم مواهبك الخفية كلها. اعلمي أن مهاراتي في الطبخ بدائية. ولا أعرف كيف أزرع نبتة في وعاء، فكيف إذا أردت زرع هذا كله». قالت وهي تشير إلى نباتاتي.

«في الواقع، في الآونة الأخيرة كنت أفكر في ماهية الموهبة. أقصد، هل تعتقد أن الموهبة مجرد هبة من الله؟ على سبيل المثال، هل كان عليك أن تكتفي بمحاولة العزف على الناي لتعزفي بهذه الطريقة الجميلة؟».

«لا، لا أعتقد. على الأقل في البداية. كان عليّ أن أتدرب مطوّلاً لكي يتحسن عزفي. لا أعتقد أن الموهبة تعوّض العمل الشاق. أقصد، انظري إلى الملحنين العظماء، لا يكفي أن يؤلف الواحد منهم اللحن في رأسه. عليه أن يتعلّم كتابته وتنسيق نواته للحصول على معزوفة كاملة جاهزة. وهذا يستغرق سنوات من التعلّم والممارسة. أنا واثقة من أن هناك ملايين يملكون مواهب، لكن ما لم يستغلّوها أو يكرسوا أنفسهم لها، فلن يبلغوا قمة الإبداع».

أومأت برأسي وأنا أدرك مقصدها، لكنني شعرت بحيرة إزاء إمكاناتي.

ثم لاحظت أن طبقها ما يزال على حاله. «هل انتهيت يا آلي؟».

«نعم. آسفة يا ستار، كان ذلك رائعاً، لكن لا شهية لي الآن».

بعد ذلك، تحدّثنا عن شقيقتنا، وعمّا تمرّ كلّ واحدة منهنّ به. فأخبرتها عن سيسي وكلّيتها وكيف كانت منشغلة بالتحضيرات. وعلّقت آلي على انتقال مايا المفاجئ إلى ريو، وكم سرّها أنّها وجدت في النهاية سعادتها.

«سررت فعلاً لذلك. وسررت لرؤيتك يا ستار».

«أنا أيضًا. وماذا بعد الآن، إلى أين ستذهبين؟».

«في الواقع، قد أذهب إلى النروج لأتحقّق مما تشير إليه الإحداثيات التي تركها لي يا سولت حول مكان ولادتي الأصلي».

«هذا رائع، عليك حتمًا الذهاب إلى هناك».

«أتعتقدين ذلك؟».

«لَمْ لا؟ لعلّ تلك الأدلّة ستغيّر حياتك، كما غيّرت حياة مايا».

غادرت آلي بعد أن وعدتني بزيارة أخرى. في ما بعد، صعدت إلى غرفة النوم وأخرجت محفظة البلاستيك من خزانة الأدراج التي كانت قد صمّمت على مراحل، بخيار من سيسي وليس مني.

حررت البطاقة المكبّسة برسالة يا وحدّقت فيها مرّة أخرى. فتذكّرت الأمل الذي بان في عيني آلي وهي تخبرني عن النروج. أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أتناول المغلّف الذي يحتوي على الإحداثيات، وكانت آلي نفسها من بحث عنها نيابةً عني، وفتحته.



في صباح اليوم التالي، استيقظت على ضباب خفيف كان يخيم فوق النهر. وخرجت لأعتني بنباتاتي فوجدت الشرفة مبللة بالندى. فعدا شجيراتي الصغيرة وورودي المتدلّية، كان يستحيل رؤية الخضرة إلّا من خلال منظار. تنبّهت فجأة إلى الروائح المتغيّرة، التي كانت تعلن عن بداية موسم جديد، فابتسمت.

ها هو فصل الخريف يشق في طريقه إلينا. كم كنت أحبّ الخريف!

صعدت إلى الطبقة العلوية وأمسكت حقيبتني، ثمّ أخرجت محفظة البلاستيك

من الدرج السفلي. امتنعت من التحليل المفرط لكي لا أبدأ بالتخطيط للمسار الذي كنت سأسلكه وأنا أتجه إلى أقرب محطة للحافلات.

بعد نصف ساعة، كنت أترجل من الحافلة أمام متجر آرثر مورستون للكتب. حدقتُ في الواجهة حيث كانت الخرائط القديمة معروضة على طول رف مخملي من الأرجوان الباهت، ولاحظت أن خريطة جنوب شرق آسيا كانت ما تزال مفتوحة على تايلاند، ومشار إليها باسم سيام.

وسط واجهة العرض، رأيت كرة أرضية صغيرة مصفرة اللون، فتذكرت تلك المعروضة في مكتب پا سولت. ولم أستطع رؤية أي شيء آخر أبعد من الواجهة. على الرغم من أن ذلك اليوم كان مشرقاً في الخارج، بدا لي الداخل مظلماً مثل أي متجر ديكنزي قرأت عنه. وبدأت أحوم حول نفسي. كنت أعرف أنني عندما أخطو عتبة ذلك المتجر، فستكون بداية مغامرة لم أكن واثقة من استعدادي لها.

هل هناك ما يشغلني في الوقت الحالي؟ فأنا أمرّ بفراغ وأعيش بلا هدف، غير قادرة على إضافة أي قيمة إلى أي أحد. لذلك كنت أرغب في القيام بأي أمر ذي قيمة.

أخرجت محفظة البلاستيك من حقيبة الظهر الجلدية، وأنا أفكر في كلمات پا سولت الأخيرة، على أمل أن تمدني بالقوة التي كنت بحاجة إليها. أخيراً فتحت الباب، فرن جرس صغير في الداخل. واحتجت إلى بضع ثوانٍ لكي يتكيف نظري مع النور الخافت. ذكرني المكان بالمكتبات القديمة، بسبب أرضية الخشب الداكن والمدخنة الرخامية التي تتوسط أحد جدرانه لتشكّل مركز القاعة. ورأيت كرسيين من الجلد على جانبيها وبينهما طاولة قهوة منخفضة ممتلئة بالكتب.

انحنيت لأفتح أحدها، وإذ بالغبار يتطاير في الجوّ ويتبعثر مثل رقائق الثلج عندما تتدفق وسط بقعة من نور الشمس. انتصبت مجدداً فوجدت باقي المساحة ممتلئة برفوف كثيرة تكدّست فوقها كتب كثيرة جداً.

ونظرت حولي بفرح، مثل فرح النساء اللاتي يعثرن على متجر تتكدّس فيه الملابس الأنيقة. لكن بالنسبة إليّ، كانت تلك الغرفة مثل عثوري على السعادة المطلقة.

مشيت إلى أحد الرفوف لأبحث فيه عن مؤلف أو عنوان مألوف، فوجدت معظم الكتب بلغات أجنبية. ثم توقفت أمام ما ظننت أنه نسخة أصلية لكتب فلوبير، وفي ما بعد انتقلت أبحث عن كتب إنكليزية. فسحبت نسخة من كتاب «العقل والعاطفة»، المفضل لدي بين روايات أوستن، وتصفّحت أوراقه الصفراء القديمة. كنت ألمسها بلطف خوفاً من إتلافها.

اندمجت في المطالعة لدرجة أنني لم أنتبه إلى وجود رجل طويل القامة عند الباب الخلفي للمتجر.

حالما رأيته قفزت في مكاني، وأغلقت الكتاب وأنا أفكر إذا ما كان من «الخطأ»، كما قرأت لتوي في أوستن، أن أسمح لنفسي بفتحه من دون استئذان.

«لا بدّ من أنك من معجبي أوستن؟ أنا أميل أكثر إلى برونتي».

«أنا معجبة بكليهما».

«آه فهمت، إذا لا بدّ من أنك تعرفين أن شارلوت لم تعجب يوماً بأعمال جاين. وقد أعربت عن أسفها لشعور الملحقات الأدبية بالنشوة إزاء مؤلفات السيّد أوستن... وكتاباتها «البراغماتيّة» إذا صحّ التعبير. فشارلوت كانت تستعرض مشاعرها في أثناء الكتابة، أو على الأصحّ قدراتها الكتابية».

«أحقاً؟». كنت أكلّمه وأحاول في الوقت نفسه تمييز ملامحه، لكن كثافة الظلال منعني عن ملاحظة أي ميزة أخرى غير قامته الطويلة، ونحافته، وشعره الأشقر المائل إلى الحمرة، ونظاراته البلاستيكية الصلبة، ومعطفه الطويل الإِدْوَاردِي. أما بالنسبة إلى سنّه، فبدا لي كأنّه في أي سنّ بين الثلاثين والخمسين.

«حسنًا، هل تبحثين عن شيء محدد؟».

«أنا... ليس تمامًا».

«إذا تصفّحي براحتك. وإذا عثرت على أي شيء ترغبين في إخراجه عن الرفّ، لا تترددي، ويمكنك الجلوس على إحدى الكرسيين هناك. فكما ترين، يسرنا أن نكون ملاذًا للقراء بقدر ما نحن متجر لبيع الكتب. فأنا أوّمن بأن الأعمال الأدبية الجيدة وُجدت لنتشاركها. أليس كذلك؟».

«وأنا أوافقك الرأي».

«ناديني إذا احتجت إلى مساعدة. وإذا لم تعثري على ما تريدين، يمكنني أن أطلبه لك».

«شكرًا لك».

اختفى الرجل خلف الباب الخلفي وتركني وحيدة في المتجر. وفكرت في أن هذا الأمر لم يكن ليحدث في سويسرا، مخافة من أن أنتشل كتابًا وأهرب به إلى الخارج في أي لحظة.

فجأة اخترقت ضجة الصمت الغليظ الذي كان يثقل الأجواء، وأدركت أنه رنين هاتفي المحمول. شعرت بالإحراج وأنا أحاول الوصول إليه لأضبط الهاتف على الوضع الصامت، لكن ليس قبل أن يظهر الرجل مرة أخرى وهو يضع إصبعه على شفتيه.

«أعتذر إليك، لكنها القاعدة الوحيدة هنا. لا نسمح بالهواتف المحمولة. لذلك هل تمانعين أن تتلقي مكالمتك خارج المتجر؟».

«بالطبع لا. شكرًا لك. وداعًا».

احمرّ وجهي من الإحراج وأنا أغادر المكان، وشعرت بأنني مثل تلميذة شقية صُبطت وهي تراسل زميلها من تحت المكتب. المثير للسخرية أن هاتفي نادرًا ما كان يرنّ، إلا عندما تتصل بي (ما) أو سيسي. خرجت إلى الرصيف ونظرت إلى الشاشة فرأيت رقمًا مجهولًا. ثمّ استمعت إلى البريد الصوتي.

«مرحبًا ستار، هذه أنا شانتي. حصلت على رقمك من ماركوس، أردت أن أسأل عن حالك. اتّصلي بي عندما تسنح لك الفرصة. إلى اللقاء يا وسيمة».

شعرت بغضب غير مبرّر لتسبّب تلك المكالمة في خروجي من المتجر بهذه الطريقة المهينة. فبعد أن استهلكت وقتًا وأنا أستجمع فيه قواي لأدخل ذلك المكان قبل قليل، ها قد تبعثرت طاقتي، ولم يبقَ لديّ قوة إضافية لأدخله مجددًا. عندما رأيت الحافلة المتّجهة إلى باترسي، عبرت الطريق لألحق بها.

«يا لك من بائسة يا ستار أنت فعلاً مثيرة للشفقة»، وبّخت نفسي «كان عليك

الدخول مجددًا وببساطة لم تفعلني». فضلًا عن ذلك، لقد استمتعت بتلك المحادثة القصيرة التي أجريتها مع ذلك الرجل، والتي أعتبرها معجزة. وها أنا الآن أركب الحافلة التي ستعيدني إلى منزلي، إلى تلك الشقة الفارغة وحياتي الفارغة. عندما وصلت إلى المنزل حدّقت إلى جدرانه الفارغة، وقرّرت أنني بحاجة إلى شراء رفوف لأضع عليها الكتب.

«غرفة بلا كتب مثل جسد بلا روح»، قلت مقتبسة نفسي.

وبما أنني كنت مفلسة هذا الشهر، حيث إنني أنفقت كلّ مالي على شراء النباتات، أدركت حاجتي إلى العثور على عمل، لأنّ الاعتماد على الأموال التي كانت ستأتينا من يا سولت لن يساعدني في شيء، لا سيما في احترامي نفسي. ربّما أخرج غدًا إلى الشارع الرئيسي وأسأل في الحانات والمطاعم إذا كانوا بحاجة إلى عاملة تنظيف. فبالنظر إلى مهاراتي الضعيفة في التواصل لم أكن مؤهلة بتاتًا لمواجهة الزبائن.

صعدت إلى الطبقة العلوية لأستحمّ، فلاحظت أن الدُرج السفلي في خزانة الأدراج بقي مفتوحًا منذ أن أخرجت منه محفظة البلاستيك التي تحتوي على رسالة يا سولت والإحداثيات والاقتباس. لوهلة شعرت بالذعر، لأنني لم أستطع تذكّر المرة الأخيرة التي رأيته فيها. ركضت إلى الطبقة السفلية لأبحث عنها، وأنا أشعر بقلبي يخفق مثل قرع الطبل. عندما أفرغت حقيبة الظهر المصنوعة من الجلد من محتوياتها، لم أجدها هناك. حاولت التذكّر إذا ما كانت في يدي عندما دخلت المتجر، وبالفعل تذكّرت أنني كنت أمسك بها. لكن بعد ذلك...

أملت فقط أن أكون قد وضعتها على الطاولة هناك فيما كنت أجول بين الرفوف.

ذهبت إلى الحاسوب وبحثت عن موقع المتجر، وأخرجت منه رقم الهاتف. ولما رنّ، حوّلني إلى جهاز الردّ الآليّ. وعلى الفور تعرّفت إلى نغمة صوت الرجل الذي التقيت به قبل قليل. قال إنّه سيعاود الاتصال بي في أقرب وقت، إن أبلغته رقمي. وهذا ما فعلت، ثمّ دعوت الله أن يعاود الاتصال بي. فضياع تلك المحفظة البلاستيكية كان يعني ضياع كلّ ما يربطني بماضيّ، وربّما بمستقبلي.

6

في اليوم التالي، عندما استيقظت تفتقدت هاتفي المحمول لأرى إذا ما وصلتني رسالة صوتية من المتجر، لكنني لم أسمع شيئاً. فأدركت أن عليّ الذهاب مجدداً إلى شارع كنيسة كنسينغتون.

وبعد ساعة من الوقت، كنت أقف مجدداً عند مدخل متجر آرثر مورستون للكتب. كل شيء كان في مكانه مثل أمس. ولحسن حظي وجدت محفظتي البلاستيكية حيث وضعتها البارحة على الطاولة أمام المدخنة. فانطلقت مني لاشعورياً تنهيدة قصيرة عكست مدى ارتياحي. وبعد أن رفعتها عن الطاولة، تحققت من محتوياتها فوجدت أن كل شيء ما زال في داخلها.

كان المتجر مهجوراً والباب الخلفي مغلقاً، ما يعني أنني كنت قادرة على المغادرة من دون أن يعرف بزيارتي أحد. وددت ذلك كثيراً، لكنني تذكرت السبب الذي جاء بي في الأساس إلى هنا. من جهة ثانية، لا بدّ من أن جرس المدخل نبّه من في الداخل بمجيء زائر. لذلك كان عليّ أبلغ عن عثوري على ما كنت أبحث عنه قبل مغادرة المكان، من باب التهذيب فحسب.

مرة أخرى، رنّ هاتفي المحمول وكسر الصمت الذي كان يخيم على المكان، فركضت إلى الخارج لأجيب على المكالمة.

«مرحباً؟»

«آنسة دابلييز؟»

«أجل».

«مرحبًا، أتصل بك من متجر آرثر مورستون للكتب. تلقيت رسالتك لتوّي، سأنزل إلى الطبقة السفلية لأبحث عن ضالتك».

«آه». قلت له في حيرة. «في الواقع أنا أقف خارج مكتبكم، كنت في الداخل قبل ثوانٍ وعثرت عليها حيث تركتها البارحة».

«أعتذر إليك. يبدو أنني لم أُنْتبه إلى الجرس. فتحت المتجر قبل قليل وأنا على عجلة من أمري، كان عليّ الإسراع إلى الطبقة العلوية، فهناك مزاد على كتاب قديم».

وقبل أن يخبرني بالتفاصيل قاطعه رنين هاتف. «هذه مساعدتي على الخط الأرضي. اعذريني لحظة...».

ساد صمت على الخط قبل أن أسمع صوته. «سامحيني يا آنسة دابليز، يجب أن أقرّر على الفور المبلغ الذي يمكنني دفعه للفوز بالنسخة الأولى من كتاب «آنا كارينينا»، وهي الأفضل على الإطلاق. إنها أفضل ما قرأته في حياتي، كما أنها موقّعة من المؤلف نفسه. وبما أنني أخشى من استعداد الروس لدفع روبلات أكثر من جنيّياتي التافهة، ففي رأيي أن تلك النسخة تستحق المقامرة، ألا تعتقددين ذلك؟».

«إيه... بالتأكيد». أجبته مندهشة.

«بما أنك ما تزالين هنا، إن لم أكن مخطئًا، لِمَ لا تعودين إلى الداخل لتتناول فنجان قهوة؟».

«لا شكرًا، ربّما في المَرّة المقبلة».

«حسنًا، عودي لزيارتي في أي وقت تشائين».

عندما انتهت المكالمة، بدأت أحوم حول نفسي من جديد وأنا واقفة على الرصيف، أفكر في غرابة أمر ذلك المتجر وطريقة إدارته. المهم أنني الآن هنا، وقد تلقّيت دعوة مفتوحة للعودة إلى الداخل والتحدّث إلى ذلك الرجل الذي قد يكون آرثر مورستون نفسه.

«صباح الخير». دخل الرجل من الباب الخلفي فيما كنت أدخل من الباب

الرئيسي. «أنا آسف حقًا. وأعتذر عن تأخري في الردّ عليك بشأن ما كنت تبحثين عنه. ألا يمكنني إقناعك بتناول فنجان قهوة معي؟»
«لا، شكرًا».

«هل هذا يعني أنك لست من أولئك الشابات اللائي يدمّن الكافيين مثلما يدمّن الهيروين، أم أنني مخطئ؟ اعلمي أنني لا أثق بمن يحتسون القهوة من دون كافيين».

«لا، لست كذلك. فأنا إذا لم أتناول قهوتي الصباحية أبدأ يومي بمزاج سيئ».
«حسنًا».

بدأت أراقبه وهو يجلس أمامي. الآن بعد أن أصبح قريبًا منّي تحت ضوء ساطع، خَمَنْت أن يكون في منتصف الثلاثينيات. كان طويل القامة ونحيفًا مثل عصا تمامًا كما هي حالي. كان يرتدي بدلة من المخمل النقي من ثلاث قطع. كانت أكمام قميصه المكوية بادية من تحت سترته، وكان يضع ربطة عنق متطابقة مع مربّع جيبه المزيّن بأنماط پيسلي. أما وجهه فبدا شاحبًا كما لو أنّه لم يرَ الشمس في حياته. ولاحظت كيف كان يشبك أصابعه الطويلة حول فنجان القهوة الذي يحمله بيديه الاثنتين.

«أشعر بالبرد، وأنت؟».

«ليس تمامًا».

«حسنًا، شارفنا على أيلول. وفق نشرة الأحوال الجوية التي بُثّت على الراديو هذا الصباح، فإنّ الحرارة قد تدنت إلى ما دون الثلاث عشرة درجة. هل أشعل نار الموقدة لندفئ حواسنا في هذا الصباح الغائم والضبابي؟».

قبل أن يعطيني فرصة للردّ، نهض عن كرسيه وانشغل في إشعال النار. في دقائق معدودة، اشتعلت النار خلف شبكة المدفأة الحديد وبعثت دفئًا لطيفًا داخل المتجر.

«اجلسي من فضلك»، قال وهو يشير إلى الكرسي.

فجلست.

«أنت لا تتحدّثين كثيرًا، أليس كذلك؟». وقبل أن أتمكن من الإجابة، تابع قائلاً:
«هل تعرفين أن أسوأ ما قد يحصل للكتب هو تعرّضها للرطوبة؟ فبعد أن تجفّ أوراقها طوال الصيف، على الواحد أن يرهاها وينتبه إلى هشاشتها لكي لا تصفرّ».
ثمّ صمت، فحدّقت إلى النار مثل عمياء.
«يمكنك المغادرة متى ما شئت، من فضلك لا تشعرني بأنني أجبرك على البقاء».

«كلا، لا أشعر بذلك».

«لِمَ أتيت لزيارة المتجر أمس؟».

«للنظر إلى الكتب».

«هل كنت مازّة مصادفة؟».

«لِمَ تسأل؟». قلت وأنا أشعر بالذنب فجأة.

«ببساطة لأنّ معظم أعمالي هذه الأيام هي عبر الإنترنت. كما أن زوّار المتجر من السكان المحليين وأعرف كل واحد منهم منذ سنوات. إضافة إلى أنك لم تتجاوزي الخمسين، ولست صينية، أو روسية... بصراحة، أنت لا تشبهين أيّا من زبائني المعتادين». وبدأ يتأمّلني من خلف إطار نظارته القرني. «لقد حرّرت». قال وهو يضرب فخذه بكفّه مبتسمًا. «أنت مصممة ديكور داخلي، أليس كذلك؟ لا بدّ من أنكِ تؤثّثين إحدى الشقق الفخمة في ميدان إيتون، ويلزمك عددًا خياليًا من الكتب لتغطي مساحة عشرين مترًا، فيتسنى لزبونك الثري أن يتباهى بمدى ثقافته أمام أصدقائه الأُميين».

«لا. لست كذلك». قلت له ضاحكة.

«ممتاز». قال وهو يشعر بارتياح كبير. «سامحيني إن اعتقدت أنني أتعامل بغيرة مع كتبتي كما لو أنّها من ذريتي. من الفظاعة أن ينساها بعضهم لاعتبارها مجرد زينة للغرف. لا يسعني تحمل تلك الفكرة».

كانت تلك المحادثة أغرب ما حصل لي في حياتي. لكن هذه المرة على الأقل، لم أكن أنا مَنْ ينحو بها إلى تلك الناحية الغربية.

«حسنًا سأكرّر سؤالِي، لِمَ أنت هنا؟ أو لِمَ أتيت أمس إلى هنا وبعد ذلك نسيتَ غرضًا فكان سبب عودتكِ اليوم؟».

«أنا... لقد أرسلتُ إلى هنا».

«ها، ها! هذا يعني أن زبونًا قد أرسلك؟». قال الرجل كأنه حلُّ أُحجية.

«لا، لست كذلك. كان والدي من أعطاني بطاقتك».

«فهمت. وهل كان زبونًا عندنا؟».

«ليس لديّ أدنى فكرة».

«ولم أعطاك بطاقتي؟».

«في الحقيقة لا أعرف».

مرة أخرى، شعرت برغبة في الضحك على مجرى الحديث الذي أوشك أن يخرج عن مساره، لذلك قررت أن أوضح له.

«توفي والدي قبل ثلاثة أشهر تقريبًا».

«تعازي الحارة يا آنسة دابليز. على فكرة، يا له من اسم مميز». أضاف بعد أن تأمل برهة في اسم عائلتي. «لم أسمع به من قبل. وبالطبع، لا أقصد التمويه على حقيقة وفاة والدك المسكين الحديثة. في الواقع، لم يكن ذلك لائقًا مِنِّي لذلك أعذر».

«لا بأس. هل لي أن أطرح عليك سؤالًا، هل أنت آرثر مورستون؟». وفتحت محفظة البلاستيك، وأخرجت منها البطاقة وناولته إياها...

«لا، بالله عليك». قال وهو ينظر إلى البطاقة. «آرثر مورستون توفي قبل مئة عام. كان المالك الأساسي لهذا المتجر، فالمتجر افتتح في العام 1850، أي قبل مدة طويلة من استحواذ عائلة فوربس، وهي عائلتي أنا، عليه».

«كان والدي متقدمًا في السن أيضًا عندما توفي، كان قد تخطى الثمانين على ما أعتقد».

«يا للمفاجأة!». قال وهو يتفحصني من جديد. «ما تقولينه يثبت قدرة الرجال على الحفاظ على خصوصيتهم إلى مرحلة متأخرة من العمر».

«في الواقع أنا ابنته بالتبني، كما هي حال شقيقاتي الخمس».

«يا لها من قصة مثيرة. لكن، لِمَ أرسلك إلى هنا؟ ألتحدثي إلى آرثر مورستون؟».

«في الواقع، لم يطلب إليّ التحدث إلى آرثر مورستون على وجه الخصوص. افترضت ذلك من تلقاء نفسي بسبب اسمه المكتوب على البطاقة».

«وماذا طلب إليك أن تفعلي عندما تصلين إلى هنا؟».

«السؤال عن...»، ونظرت بسرعة إلى رسالة أبي لأتحقق من الاسم الصحيح الذي كان عليّ أن أستعلم عنه. «سيدة تدعى فلورا ماك نيكول».

عندئذٍ نظر الرجل إليّ باهتمام أكبر، ثم قال: «هل أنت واثقة من ذلك؟».

«أجل. هل تعرفها؟».

«لا يا آنسة دابليز. فهي أيضاً ماتت قبل ولادتي. لكن بالطبع سمعت عنها».

توقّعت أن يواصل الكلام، لكنّه لم يفعل. بقي جالساً يحدّق إلى الفضاء. كان من الواضح أنّه غرق قليلاً في التفكير، لذلك ساد صمت في الغرفة ولم تأخّر في الشعور بثقله. وهذه المرّة، حرصت وأنا أنهض عن الكرسي، على الإمساك جيّداً بالمحفظة البلاستيكية.

«آسفة حقّاً لإزعاجك. لديك رقمي، في حال...».

«لا، لا... مجدّداً أعتذر إليك يا آنسة دابليز. في الواقع كنت أفكّر في العرض الذي قدّمته للحصول على «آنا كارينينا»، ربّما عليّ مراجعته، فكما قلت لك الكتاب نسخة نادرة، وعلى الرغم من أن ماوس سيخنقني، إلّا أنّني أرغب بشدة في الحصول عليها. مجدّداً، ماذا كنت تسأليني؟».

«كنت أسألك عن فلورا ماك نيكول». قلت له بترو بعد أن حيّرتني قدرته على الانتقال بسرعة البرق من موضوع إلى آخر.

«نعم، بالطبع. لكن في الوقت الحالي عليك أن تعذريني يا آنسة دابليز لأنني

قررت ألا أسمح للروس بالفوز عليّ. سأصعد قليلاً إلى الطبقة العلوية لأتصل بوكيل أعماله وأطلب إليه أن يرفع قيمة العرض قبل أن يبدأ المزاد». نهض عن كرسيه وأخرج من جيبه ساعة ذهبية وفتحها مثلما يفعل الأرنب في رواية «آليس في بلاد العجائب». «لقد جئت في الوقت المناسب، هل يمكنك الاهتمام بالمتجر ريثما أعود».

«طبعًا».

«شكرًا لك».

رأيت ساقيه الطويلتين تعبران المساحة الممتدة من الكرسي إلى الباب الخلفي في خطوتين. جلست هناك أتساءل عما إذا كنت أنا المجنونة أم هو. لكنني في الوقت نفسه شعرت بشيء من الرضا عن نفسي إذ على الأقل نجحت في إجراء محادثة معه تمكنت خلالها من التعبير عما أنا بحاجة إلى قوله وافتعال ردة فعل عنده.

صرفت وقتًا ممتعًا وأنا أتعرّف إلى نفسي من جديد بين كل تلك الكتب. ووضعت في ذهني قائمة مفضلة بما أرغب في عرضه على الرفوف التي سأضعها في منزلي؛ من بينها بالطبع مؤلفات لشكسبير، ديكنز، ف. سكوت فيتزجيرالد، إيفلين وو، فضلًا عن كتب حديثة كنت أهوى قراءتها، لكن لم يمرّ وقت كافٍ على نشرها لتصبح من كلاسيكيات الأدب. ومع ذلك كنت واثقة من أنها سيكون لها قيمة أدبية كبيرة في نظر أي هاوٍ جامع للكتب بعد مئات السنين، خصوصًا إذا غُلّفت بغلاف من الجلد اللائق.

فيما كنت أتجول بين الرفوف، لاحظت أن المتجر لم يدخله أي زائر. بحثت في قسم الأطفال ووجدت مجموعة لبياتريكس بوتر، من بينها قصة السيدة «تيغي وينكل»، وكانت من القصص المفضلة لديّ.

جلست بجوار النار المشتعلة أقلّب صفحاتها، فعدت بذاكرتي إلى مواسم أعياد الميلاد السابقة. كنت حينذاك ما أزال صغيرة جدًّا. وذات مرة وجدت نسخة منها تحت شجرة العيد. كانت هدية من سانتا كلوز. وفي تلك الليلة، أجلسني يا

سولت على ركبتيه وقرأها لي. كنّا حينذاك نجلس أمام نار مشتعلة مثل هذه، في أجواء شتوية مبهجة.

ما زلت أذكر حتى اليوم، منظر الطبيعة عبر النوافذ، والثلج يغطي الجبال ويشعروني بالدفء والرضا والحبّ.

«يا له من سلام داخلي». همست في نفسي. ليتني قادرة على استعادته اليوم. «انتهينا». انتزعني صوت الرجل من عمق ذكرياتي. «يمكنك أن تعتبريني مجنوناً، لكنني مصمم على الفوز بتلك النسخة مهما كان الثمن. بحثت عنها سنوات. أعرف أنّني سأقع في ورطة مع ماوس، وأنا أستحقّها، فما أفعله الآن سيقودنا سريعاً إلى الإفلاس. يا إلهي، وسط كل هذا التوتر، أشعر فجأة بالجوع، ماذا عنك؟».

عندما نظرت إلى الساعة، أدركت أنّه في الواقع غاب من الغرفة أكثر من ساعة، فعقارب ساعتني كانت تشير إلى الواحدة إلّا خمس دقائق. «لا أدري».

«حسنًا، دعيني أغريك، هناك مطعم ممتاز في الجهة المقابلة للشارع، ويقدم إليّ مما لديه من طبق يوميّ. هي وجبة يومية». شرح لي كما لو أنّ الأمر مهمّ بالنسبة إليّ. «من المثير ألا تكوني واثقة مما سيقدّمه إليك المطعم، بدلاً من أن تحتاري حين اختيارك الطعام بنفسك، ألا تعتقدين ذلك؟».

«أفترض ذلك».

«لَمْ لا أعبر الطريق بسرعة وآتي بوجبتين، وبعد ذلك سنرى إذا كنت سأنجح في إغرائك؟ أنا مدين لك بغداء، على الأقل لموافقتك على البقاء هنا ريثما أحل مسألة المزداد».

«حسنًا».

«بياتريكس پوتر، أليس كذلك؟»، قال وهو ينظر إلى الكتاب الذي كان بيدي. «يا للسخرية! لأنّها كانت تعرف فلورا ماك نيكول. ثقي أنّه لا يوجد مصادفة في هذه الحياة، تعرفين ذلك؟».

غادر المتجر. إذا كانت لديّ نية مغادرة المتجر قبل خروجه، فإنّ كلماته الأخيرة منعنتني. بقيت هناك أوقد النار كما علّمني يا سولت. لا أسمح باحتراقها بسرعة وبذهاب الوقود هدرًا، فبدأت أجمع قطع الفحم، الواحدة جنب الأخرى، لكي تعطي حرارة ثابتة ومستقرة داخل الغرفة.

بقيت وحدي في المتجر مجددًا، فواصلت قراءة القصص ريثما يعود؛ «جيميما بادل ذاك» و«توم كيتن». كنت على وشك البدء بقصة «جيريمي فيشر» عندما دخل رفيقي للغداء في ذلك اليوم من الباب الرئيسي. كان ما يزال مجهول الهوية بالنسبة إليّ، ورأيتَه يحمل بيده كيسين من الورق البنيّ.

«الغداء لذيذ اليوم». قال وهو يقفل الباب وراءه، ويقلب اللافتة المعلقة على المدخل إلى جهة «مغلق». «لا أحبّ أن يزعجني أحد في أثناء تناولي الطعام. هل تعرفين أن أي نوع من الإزعاج مسيء للهضم. سأصعد إلى الطبقة العلوية وأجلب بعض الأطباق. آه، وكأس سانسيرى أبيض ليليق بالسّمك». أضاف وهو يعبر القاعة إلى السلالم.

كنت أستمع بسماعه يتحدّث بلغته القديمة المنمّقة. وعلى الرغم من أنّي كنت معتادة على سماع إنكليزية الطبقة الراقية، فإنّ صديقي الجديد كان يفوقها إبداعًا. فهو إنكليزي بامتياز وقد أعجبت بغرابة أطواره. فهو لم يخشَ التمسك بطبيعته، وهذا يتطلب مقدارًا كبيرًا من قوّة الشخصية.

«الآن، أرجو أنك تحبين سمك الموصى. أمّا الفاصوليا الخضراء فطازجة ومطبوخة تمامًا». قال وهو يعود إلى الغرفة مع زجاجة نبيذ باردة كانت تتندّى، وأطباق ولوازم مائدة، ومنديلين من الكتّان الأبيض مكوّين جيّدًا.

«أحبّه كثيرًا. أمّا بالنسبة إلى الفاصوليا الخضراء، فأنت محق. يصعب طهوها على هذا النحو».

«هل أنت طاهية؟». سألني وهو يزيل الغطاء عن علب الألومنيوم التي ذكرتها بالأطباق التي تقدّم على الطائفة. وأمّلت أن يكون مذاقها أفضل.

«لا، مجرد هاوية. التحقت بدورة تدريبية قبل أسابيع، وكان عليّ تحضير الفاصوليا الخضراء».

«اعلمي أنني لست مدّعي طعام من الطراز الرائج حاليًا. ولا آبه لما أدخله إلى معدتي، كل ما يهمني هو ألا يكون الطعام نيئًا. المشكلة هي أنني مدّل، وأعتبر كلارك أحد أفضل المطاعم الموجودة في لندن، ومطبخه هو من أعدّ لنا هذا الطبق اللذيذ اليوم. والآن هل تحتسين كأس نبيذ؟»، سألني وهو يضع الطعام من علبة الألومنيوم في صحن خزفي، ويضعه بروية أمامي.

«ليس من عاداتي أن أحتسي الشراب على الغداء».

«حسنًا، لكن من المفيد لنا أن نغيّر عاداتنا السيئة، أليس كذلك؟ تفضّلي».

وسكب كأسًا، ومرّره إليّ من فوق الطاولة.

«تشين-تشين!»، قال وهو يرفع كأسه، ويتجرع جرعة كبيرة قبل أن يضع في فمه لقمة كبيرة. أما أنا فبدأت أقطع سمكتي بلطف.

«هذه ممتازة يا آنسة دابلييز». قال لي شجعني على تناولها. «لا تقولي لي إنك تتبعين حمية غذائية».

«لا، كل ما في الأمر أنني لست معتادة على تناول الطعام عند الظهر».

«طبعًا، ألا يقول المثل «تناول وجبة فطورك مثل ملك، وغداءك مثل أمير، وعشاءك مثل فقير». المثل بسيط وواضح، لكنّ كثير من الناس يتجاهلونه، ويبدأون بالشكوى عندما يعجزون عن حرق الدهون. الواضح أنّنا لسنا منهم، لذلك لا مشكلة لدينا مع الوزن».

«كلا». قلت له وأنا أشعر باحمرار وجنتي. أكملت وجبتي على مهل فيما كان يلتهم طبقه أمامي مثل مكنسة كهربائية. لكنّه كان محقًا بشأن مذاق الطعام اللذيذ. بقي يراقبني من كذب وأنا أنهي وجبتي، فأشعرتني ذلك ببعض النفور. ثمّ أمسكت كأس النبيذ ورشفت رشفةً لعلّها تمدّني بالقوة لأتمكّن من طرح أسئلتي. ففي النهاية، جئت في الأساس إلى هنا للعثور على أجوبة.

«قلت إن فلورا ماك نيكول تعرف بياتريكس پوتر؟».

«طبعًا... طبعًا كانتا تعرفان بعضهما. في الواقع، الأنسة پوتر كانت مالكة متجر الكتب ذات يوم أيضًا. هل انتهيت؟». سألني وهو ينظر إلى اللقمة التي كانت معلقة بشوكتي. «سأزيل الأطباق المتسخة من هنا وأعيدها إلى فوق، أكره منظرها هكذا، ألا يزعجك؟».

أعدت الشوكة إلى صحنى ورفعت الطبق وزجاجة النبيذ في وجهه. فتناولها مني وهو يمسك كأسه الفارغة، ثمّ نظر إلى كأسى، وعندما وجد أنها لم تفرغ بالكامل، تركها على الطاولة وتوارى خلف الباب.

رشف رشفة أخرى من النبيذ الذي لم أرغب في احتسائه في بادئ الأمر، وتذكرت فجأة أنني ما زلت لا أعرف اسمه. وقد شعرت أن استخراج المعلومات منه أمر حساس للغاية.

عندما ظهر أمامي مجددًا، رأيته يحمل صينية شاي وعليها فنجانان وإبريق. «هل تريدان السكر؟»، سألني وهو يخاطر في وضع الصينية فوق قاموس قديم، ما دفعني إلى التفكير في كلفة مثل هذا الكتاب في هذه الأيام. «أحبّها حلوة كثيرًا».

«وأنا أيضًا. ثلاث ملاعق من فضلك».

«آه، أنا أضيف أربع، دائمًا».

«شكرًا لك». قلت له وهو يناولني الفنجان. فشعرت كأنّ يدًا خفية كانت تنقلني من هنا إلى جلسة شاي مع «ماد هاتر». «وكيف عرفت فلورا ماك نيكول بياتريكس پوتر؟». سألته مرة أخرى.

«فلورا ماك نيكول كانت جارة الأنسة پوتر ذات يوم».

«في منطقة البحيرات؟».

«أجل، يبدو أنّك تعرفين كل شيء؛ الكتب وحياة مؤلفيها يا آنسة دابليز؟».

«نادّني ستار من فضلك. وأنت...».

«اسمك ستار؟».

«أجل». ونظرت إلى تعابير وجهه لأفهم إذا كان في استفساره موافقة أم اعتراض.

«هو اختصار لاسم أستروپ».

«آه، الآن فهمت!». ابتسم، ثم ضحك بصوت عالٍ. يا للسخرية من جديد! أستروپ، نسبة إلى اسم الزوجة أو ربّما الأم في أسطورة الملك أوينوماوس، ملك پيزا. وأنت إحدى شقيقات الثريا السبع، وثالث ابنة للإله أطلس وپليوني، بعد مايا وألسيوني، وتسبقين سيلينو، تايجيت، إلكترا وميروپ... كم من ليلة شاهدت تلك الثريا، وهي تعلو ظلمة خفيفة وتلمع مثل سرب من الخنافس البراقة، بعد أن تشابكت في جديلة فضية...».

«تينيسون»، قلت تلقائيًا، وتذكّرت الاقتباس من أحد كتب پا.

«هذا صحيح. كان والدي العزيز يملك هذا المتجر قبل أن يُتوفى، وقد درس الأدب الكلاسيكي في أكسفورد، لذلك كنت في طفولتي أستمع إلى الخرافات والأساطير... على الرغم من أنني لا يليق بي أن أحمل اسم أحد ملوك الأساطير اليونانية. لكن تلك قصة أخرى...». فجأة خفت صوته فخفت أن يكون قد فقد تركيزه مجددًا. «كلا، كانت والدتي الصالحة، رحمها الله، هي التي أطلقت عليّ هذا الاسم. لقد درست الأدب في جامعة أكسفورد أيضًا. هناك التقى والداي وأُغرم أحدهما بالآخر. لذلك يمكنك القول إن الكتب تجري في عروقي. ربّما هذه هي حالك أيضًا. وهل تعرفين شيئًا عن عائلتك قبل التبنّي؟».

هنا دسست يدي داخل المحفظة البلاستيكية لأسحب منها الدليل.

«في الواقع، جنّت إلى هنا من أجل ذلك. لقد ترك لي والدي هذه... كدليل يقودني إلى عائلتي البيولوجية».

«آه! الآن بدأت اللعبة»، قال الرجل وهو يصفق. «أنا أعشق الأحاجي، وما تأتي به من غموض. هل الأدلة المذكورة هنا؟».

«نعم، لكنّ ما في حوزتي، باستثناء بطاقة المتجر التي طلب إليّ أن أسأل فيها عن فلورا ماك نيكول، لا يُظهر سوى المكان الذي وُلدت فيه. ولديّ هذا أيضًا».

ووضعت صندوق المجوهرات أمامه على الطاولة، ففتحه وأخرج منه تمثال بانثر الأسود. فشعرت بقلبي يخفق من شدة الخوف بسبب الثقة التي أضعها في ذلك الغريب. فأنا أشاركه معلومات لم أُنح بها لسيسي.

دفع بأصابعه الطويلة نظاراته إلى أعلى أنفه، وبدأ يدقق عن قرب في ما اعتبرناه مكانًا لولادتي، ثم في التمثال. ثم أعاده إليّ، وأسند ظهره مرة أخرى إلى الكرسي. وعندما بدأ في التحدث، دنوت منه لأسمع تحليله.

«حان وقت التحلية»، قال في النهاية. «على الرغم من أن لا وقت محدّد للتحلية. ألا تعتقدين؟».

ثم ذهب إلى الطبقة العلوية واختفى هناك بضع دقائق، وعاد بشريحتين من حلوى الشوكولاتة اللزجة. «ألا تريدين تذوّقها؟ إن طعمها لذيذ. أشتريها من متجر الحلوى في الصباح، وأنا في طريقي إلى هنا. فأنا أعاني انخفاضًا في السكر كل يوم بين الثالثة والخامسة، لذلك إمّا أن أتناول الحلوى وإمّا أن آخذ قيلولة».

«نعم من فضلك. وأنا أيضًا أحب الحلوى. على فكرة، ما اسمك؟».

«عجبا، ألم أخبرك؟ أنا واثق من أنني أخبرتك».

«لا، لم تخبرني».

«حسنًا، بالطبع لم أفعل وأعتذر إليك. اسمي من اختيار أمي، وقد اختارته من روايتها المفضلة. فإذا لم أكن قطًا برتقاليًا سمينًا سأكون بطل رواية كاتبة مشهورة هربت إلى فرنسا مع عشيقته متنكرةً بزيّ رجل». أراد أن يتحدثني فسألني: «احزري من أكون؟».

«أورلاندو». وقلت في نفسي «يليق بك الاسم كثيرًا».

«آنسة دابليز، أنا معجب جدًا باطلاعك الواسع في الأدب. في رأيك هل أشبه القطّ البرتقالي السمين أم المرأة المتنكرة في زي رجل؟». قال وهو ينحني احترامًا وتقديرًا لي.

رغبت في الضحك، لكنني تمكّنت من تمالك نفسي.

«لا أعتقد أنك تشبه أيًا منهما، لأنك ببساطة تشبه نفسك».

«أعتقد يا آنسة دابليز»، قال وهو ينحني قليلاً ويضع يده على خده الأيسر،
«أعتقد أنك تعرفين في الأدب أكثر مما تزعمين».

«أنا في الواقع حاصلة على شهادة جامعية في الأدب الإنكليزي، لكنني لست خبيرة».

«أنت تقللين من شأن نفسك. قلّة هم على وجه الأرض من يعرفون القطّ البرتقالي السمين والسيرة الذاتية لتلك الروائية الشهيرة...».

كنت أنظر إليه، وهو يتذكّر اسم المؤلفة، وشعرت بأنه عاد ليختبرني من جديد، فأجبته: «فيرجينيا وولف. القصة مستوحاة من حياة فيتا ساكفيل-ويست وعلاقتها بفيوليت تريفوسيس. أما بالنسبة إلى أورلاندو القطّ البرتقالي السمين فهو من رواية لكاثلين هيل. وهي صديقة مقرّبة لثانيسا بيل شقيقة فيرجينيا وولف، وهي على علاقة بفيتا ساكفيل-ويست أيضًا. وأرجّح أن تكون أنت على معرفة بكل هذه التفاصيل أيضًا».

خفت صوتي وشعرت فجأة بالحرّج من رشقه بكل تلك المعلومات. كل ما في الأمر أنني كنت متحمّسة لعثوري على مهووس آخر بالكتب وعاشق للأدب. ظلّ أورلاندو صامتًا بعض الوقت ريثما يستوعب كلماتي.

«نعم، كنت أعرف القليل منها، لكن ليس كلها. لكنني لم أربط يومًا بين مؤلفي هذين الكتابين المختلفين. كيف نجحت في ذلك؟».

«أعددت أطروحة حول مجموعة «بلومزبري»».

«آه! لا بدّ من أنك لاحظتِ يا آنسة دابليز أن ذهني قادر على الانتقال بسرعة البرق بين موضوع وآخر، مثل نحلة تبحث عن رحيق. ولما تعثر عليه، تواصل تقدّمها. أما أنت فعلى العكس مني تمامًا. أعتقد أنك تخفين مواهبك».

«أنا...».

«أخبريني كيف تعرفين هذا الكمّ من المعلومات وأنت ما تزالين صغيرة في

السن؟ تشعّين مثل هلالٍ، بينما أنت غامضة. آنسة دابليز... أو ستار، أو أستروپ، لا أعرف بأيّ اسم تفضّلين أن أناديك، هل ترغبين في الحصول على وظيفة؟».

«أودّ ذلك كثيرًا. فأنا بحاجة إلى وظيفة لأنني مفلسة». قلت له على الرغم من أنني لم أشأ أن أظهر يأسى.

«وأنا والمتجر أيضًا بعد عملية الشراء الصغيرة التي أتممتها اليوم. الأجور بطبيعة الحال مريعة، لكنني لن أعجز عن إطعامك جيدًا».

«وما مدى سوء الأجور بالضبط؟»، سألته محاولة جذب انتباهه قبل أن يسلك اتجاهًا آخر.

«آه، لا أعرف. لكن آخر طالب وظفته كان يكسب ما يكفي لينعم بسقف فوق رأسه. قل لي كم تريدون؟».

في الحقيقة، كنت مستعدة أن أدفع له مقابل أن آتي هنا كل يوم.

«مئتان وخمسون جنيهاً في الأسبوع».

«اتفقنا». قال وهو يبتسم، فبدأت أسنانه غير المستوية خلف ابتسامته العريضة. «يجب أن أحذرك أنني لست بارعًا في التعامل مع الناس. وأعي تمامًا أنهم يعتبرونني غريب الأطوار. ويبدو أنني أصيبهم بالإحباط عندما يدخلون إلى هنا. لذلك أفضل التعامل معهم عبر الإنترنت. وعلى الرغم من ذلك، فإن لكتبي قيمة كبيرة».

«متى يمكنني البدء؟».

«غداً إذا شئت».

«في العاشرة؟».

«ممتاز. سأصعد إلى الطبقة العلوية، وأحضر لك نسخة من المفاتيح». نهض مرة أخرى، وكان على وشك الصعود إلى الطبقة العلوية عندما أوقفته.

«أورلاندو؟».

«أجل؟».

«ألا ترغب في رؤية سيرتي الذاتية؟».

«ولمَ ذلك بحق الجحيم؟ لقد أجريت معك لتوّي أهمّ مقابلة عمل، ونجحت فيها بامتياز».

بعد بضع دقائق، أي بعد أن انتهيت من إعادة الأدلة التي في حوزتي إلى المحفظة البلاستيكية، وأصبحت علّاقة المفاتيح النحاسية الثقيلة في كفي، قادني أورلاندو إلى الباب.

«شكرًا يا آنسة... بماذا تريدان أن أدعوك؟».

«ستار من فضلك».

«حسنًا يا آنسة ستار». وفتح لي باب المتجر فعبّرتَه، وأنا أقول له: «أراك غدًا».

«أجل».

عندما خرجت إلى الشارع، سمعته يناديني من جديد.

«آنسة ستار!».

«أجل».

«ذكّرني أن أخبرك أكثر عن فلورا ماك نيكول وعلاقتها بذلك التمثال الذي بحوزتك. أما الآن، فوداعًا».

شعرت كما لو أنني رُميت خارج نارنيا، فظهرت مجددًا داخل خزانة الملابس. وعندما أصبحت في الشارع، بدا لي متجر آرثر مورستون للكتب عالمًا موازيًا. استقللت الحافلة لأعود إلى المنزل، وأنا أشعر بأنني داخل فقاعة صغيرة مليئة بالسعادة والتوقعات. أدخلت بطاقتي المغناطيسية لأفتح باب الشقة، وبدأت أهتمهم وأنا أعدّ العشاء وأفكر في ما إذا كان عليّ إخبار سيسي بتفاصيل ذلك اليوم المميز. في النهاية، اكتفيت بإخبارها أنني وجدت وظيفة في متجر كتب، وأنني سوف أبدأ العمل هناك في صباح اليوم التالي.

«أعتقد أن هذا جيد في الوقت الحالي. لكنك بالتأكيد لن تجني ثروة من بيع الكتب القديمة».

«أعرف ذلك، لكنني أرغب في العمل هناك».

ثم استأذنتها وغادرت المائدة لأعتني بنباتاتي. قد لا تعني تلك الوظيفة الجديدة التي حصلت عليها شيئاً للآخرين، لكنها عنت لي كثيراً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

مرّ الأسبوعان الأولان لعملي في متجر آرثر مورستون للكتب مثل وتيرة أوّل يوم لي هناك. كان أورانلدو في معظم ساعات الصباح في الطبقة العلوية، فيما أنا في القاعة الرئيسية بمعزل عما كان وراء الباب الخلفي، أو في الطبقة العلوية. وطلب إليّ مناداته إذا أراد أحد الزبائن أن يتفقّد كتابًا من المجموعة النادرة الثمينة المحفوظة في القبو داخل خزانة ضخمة تأكلها الصدأ، أو إذا كان لديه استفسارًا، ولم أستطع الإجابة عنه. في الواقع، نادرًا ما زارنا أحد ليستفسر عن مثل تلك الكتب.

بمرور الوقت، بدأت أتعرف إلى ما وصفه أورانلدو بالرواد المعتادين. كان معظمهم من المتقاعدين. وكانوا يأتون إلى المتجر لاختيار كتاب من الرفّ، ثمّ يسألونني بأدب عن سعره، على الرغم من وجوده على ملصق في غلاف الكتاب الخلفي. وبعد الانتهاء من الشكليات، كانوا يحملون الكتاب ويجلسون على أحد كرسيّي الجلد بجانب المدفأة ليقروا فيه. وفي كثير من الأحيان، كانوا يبقون ساعات، وفي النهاية يرفعون نظره عن الكتاب، ويغادرون بعد أن يشكروني بلباقة وتهذيب. هناك على وجه الخصوص، رجل عجوز كان يرتدي سترة تويدو رثة. كان يأتي كل يوم طوال أسبوع، يختار كتاب «بيت المرح» (*The House of Mirth*) ويجلس جنب المدفأة ليقراه. لاحظت أنّه كان يعلم الصفحة حيث يتوقّف في نهاية كل جلسة قراءة بقصاصة ورق قبل أن يعيد الكتاب إلى الرفّ.

كان أورانلدو قد جهّز الكؤة في مؤخرة المتجر بمكيئة قهوة لأقّدمها إلى أي زبون يزور المتجر. لذلك كان من واجباتي شراء نصف لتر من الحليب بين الحين

والآخر، وكنت أتسوّقه وأنا في طريقي إلى المتجر. وفي كثير من الأحيان، كنت أضطرّ إلى رميه في سلّة المهملات بعد انتهاء صلاحيته لعدم حضور عدد كافٍ من الزوار.

ذات مرّة لفتتني صورة معلّقة فوق الرفّ داخل الكوة، بسبب أسلوب الرسوم التوضيحية، المألوف لديّ. وقفت على رؤوس أصابعي لأتفحصها عن قرب وعرفت من الكتابة التي شحبت بمرور الوقت وأصبحت نسخة متلاشية عن الأصلية، أنّها رسالة. كانت الألوان المائية الطفيفة التي تخللت الصفحة أفضل حالاً من الكتابة، فاندھشت من روعتها. ولأتمكّن من فكّ الحروف، كان عليّ أن أضغط بأنفي على الزجاج. عندئذٍ رأيت تاريخاً وخطوطاً عريضة مضمحلة لأحد الأسماء.

«عزيزتي فل...» أمّا باقي الاسم فقد امحى، ولم أتمكّن من تهجّته بالكامل. على عكس التوقيع في أسفل الصفحة الذي تميّز بخطه الصغير والأنيق. كانت بياتريكس بلا شك، من كتبت تلك الرسالة.

«فل...» تمتعت في نفسي، هل يمكن أن تكون الرسالة لفلورا ماك نيكول؟ أورلاندو قال إن بياتريكس پوتر كانت تعرف فلورا. لذلك قررت أن أسأله.

كان أورلاندو في تمام الواحدة من بعد ظهر كلّ يوم، ينزل السلالم ويخرج مسرعاً إلى الشارع. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الجالس على الكرسي الجلد جنب النار، أيّاً كانت هويّته، يفسّر خروجه على أنّه حان وقت المغادرة. ولما يعود، كان يقفل الباب خلفه، ويقلب اللافتة المعلّقة على باب المدخل إلى جهة «مغلق».

عندئذٍ كان يأتي بالصحن الخزفية ولوازم المائدة ومناديل الكتان البيضاء المكوية من الطبقة العلوية، ونشرع أنا وهو في تناول طعام الغداء.

كان ذلك هو الوقت المفضّل لديّ من اليوم بكامله، إذ كنت أحبّ الاستماع إليه وهو يتنقّل بعقله بين موضوعات مختلفة غالباً ما يتخلّلها اقتباسات أدبية. فأصبح ذلك الروتين مثابة لعبة بالنسبة إليّ، أحاول في أثنائه استنباط موضوع جديد لعلّه يجرنا إلى موضوع آخر. ومع ذلك، كنت أفشل في التخمين، إذ كان يستطرد إلى موضوعات مبهمّة لا تخطر في بال أحد. لكن بفضل قدرتي على القراءة بين السطور، تمكّنت من معرفة أن والدته فيثيان التي يجلّها كثيراً، ماتت

في حادث سير مأساوي، عندما كان في العشرين من عمره، وكان حينذاك يدرس في أكسفورد في السنة الثانية. فانفطر قلب والده الذي سافر بعد وفاتها إلى اليونان ليدمن هناك الأوزو ويغرق في بؤسه مع الآلهة الأسطوريين. وبقي على هذه الحال إلى أن توفي بمرض السرطان قبل بضع سنوات.

«هل ترين، أنا أيضًا يتيم». أضاف أورلاندو بنبرة مأساوية.

وتخلّلت محادثتنا الكثير من الأسئلة المتفرقة عن تربيتي في أتلانتيس. وقد أظهر لي افتتاحه بيا سولت على وجه الخصوص.

«من كان ليعرف كل تلك المعلومات...». تمتم أورلاندو بعد أن اعترفت له بأنني لم أعرف حتى البلد الذي وُلد فيه.

على الرغم من افتتاحه بيا، فإنه لم يتطوع بتقديم أي معلومة إضافية عن فلورا ماك نيكول. وعندما تطرقت إلى موضوع رسالة بياتريكس پوتر المحفوظة داخل إطار في الكوة، لم يُبدِ ردة الفعل التي تمنيتها.

فأجابني وهو يلوح بيده نحوها:

«آه تلك الرسالة القديمة! يمكننا القول إن بياتريكس كتبت الكثير من الرسائل للأطفال». وقبل أن أتمكن من مواصلة الحديث عنها، انتقل كعادته إلى موضوع آخر.

وقطعت وعدًا على نفسي أن أجد في وقت قريب، الشجاعة الكافية لأطرح عليه أسئلة إضافية. وعلى الرغم من أنني لم أعرف الكثير عن فلورا ماك نيكول، فإنني كنت أصرف أيامي كلها بين الكتب الثمينة. فمجرد شَم رائحتها ولمس أوراقها في أثناء فهرستي المخزون الجديد في دفتر كبير مغلف بالجلد، وأنا أمسك بقلم حبر ثقيل، كان يغمرنني بالبهجة والسرور. لكن قبل أن أبدأ بالفهرسة، كان عليّ أن أجري اختبار خطّ ليُسمح لي باستخدام قلم الحبر على ذلك الدفتر. وفي كل مرة كان يثني على خطّي الواضح والأنيق. ولم يخطر في بالي يومًا أن مثل تلك المهارة القديمة والزائلة ستكون ميزة في يوم من الأيام.



في مطلع الأسبوع الثالث، فيما كنت أجلس في الحافلة وأنا في طريقي إلى المتجر، تمنيت لو أنني وُلدت في عصر مختلف، حين كانت وتيرة الحياة أبطأ، والرسائل التي نكتبها لأحبائنا تستغرق أيامًا إن لم يكن أشهرًا لتصلهم، وليس في ثانية عبر البريد الإلكتروني كما حدث اليوم.

«يا إلهي، كم أكره التكنولوجيا!». قال أورلاندو عاكسًا أفكاره في أثناء دخوله المتجر عند العاشرة والنصف صباحًا، وهو يمسك بيده علبة حلويات.

«عاصفة البارحة تسببت بانقطاع جميع خطوط الهاتف في كنسينغتون، وانقطاع الإنترنت. لذلك عجزت عن تقديم عرضي للحصول على نسخة مذهلة لكتاب «الحرب والسلام». أحب كثيرًا ذلك الكتاب». قال وهو يتنهد ويلتفت إليّ بملامح حزينة. «حسنًا، هذا سيريح ماوس لأنني لن أنفق مالا إضافيًا لا أملكه أساسًا. بالحديث عنه، لقد ذكرت أمامه البارحة».

كنت قد سمعت عن ماوس مرات عدّة، لكنني لم أكن واثقة من هو بالنسبة إلى أورلاندو، أو حتى إذا كان ذكرًا أو أنثى.

«أحقًا؟».

«أجل. هل أنت مشغولة في نهاية هذا الأسبوع يا آنسة ستار؟ سأذهب إلى هاي ويلد للاحتفال مع روري بعيد ميلاده. وسيكون ماوس حاضرًا. فكّرت في أنها مناسبة جيّدة لتمكّني من رؤية المنزل والتعرّف إلى مارغريت والتحدّث معها عن فلورا ماك نيكول».

«بالطبع... ليس لديّ أي خطة». أجبت وأنا أدرك أنّه عليّ انتهاز تلك الفرصة التي أتتني من حيث لا أدري.

«اتفقنا إذًا. سأقابلك في محطة تشارينغ كروس، في عربة الدرجة الأولى، في القطار المتّجه إلى أشفورد، يوم السبت المقبل، عند العاشرة صباحًا. سأقطع تذكرة لك. والآن عليّ الصعود إلى الطبقة العلوية لأتفقد شبكة الإنترنت؛ مخلصنا الجديد في هذه الأيام، لعلّها تنازلت وظهرت علينا من جديد».

«إلى أين سنذهب بالضبط؟».

«ألم أخبرك؟».

«كلا».

«إلى كنت، ومع ذلك كان عليك أن تحزري وحدك». قال بلهجة مرحة.

مرَّ الأسبوع وأنا أشعر تارةً بالإثارة وطورًا بالخوف من المجهول. كنت قد زرت كنت في الماضي، في رحلة سياحية نظَّمتها الجامعة إلى سيسينغهيرست، المنزل ذي الحداثق الرائعة الذي سكنته الروائية والشاعرة فيتا ساكفيل-ويست. وإن لم تخنِّي ذاكرتي، هي مقاطعة لطيفة، تلقَّب بـ «حديقة إنكلترا»، وفق ما أخبرنا به أحد الزملاء.



كما اتَّفقنا أنا وأورلاندو، وجدته عندما وصلت إلى محطة شارينغ كروس صباح يوم السبت في انتظاري في عربة القطار. كان يرتدي سترة من المخمل الكحلي، ويضع وشاح بيسلي، ويمسك بسلة زهات ضخمة، استحوذت كامل المساحة على الطاولة التي يفترض أن نتشاركها مع الجالسَيْن قبالتنا. حتى إنها بدت متناقضة مع طراز القطار الحديث.

«عزيزتي الآنسة ستار، قال لي وأنا أجلس بجانبه. كالعادة، أنت دقيقة في مواعيدك. الالتزام بالمواعيد فضيلة علينا الإشادة بها في كل فرصة، خلاف ما هو رائج اليوم. أتريدين قهوة؟».

وفتح السلة ليخرج منها فناجين خزفيين. بعد ذلك، أخرج «الكرواسان» الطازج، وكان ما يزال ساخناً في مناديل الكتان. وحالما انطلق القطار، قدَّم إليَّ وجبة الفطور، وهو يحادثني بموضوعات شتى. عندئذٍ انتبهت إلى راكب كان يجلس قريباً منَّا وينظر إلينا في حيرة. فشكرت ربِّي لبقاء المقاعد قبالتنا فارغة.

«كم من الوقت ستستغرق الرحلة؟». سألته، وهو يخرج طبقين إضافيين من الفاكهة المقطعة بشكل متناسق، ومرتبّة تحت غشاء لاصق.

«نحو الساعة. وستأتي مارغريت إلى محطة أشفورد، لتقلّنا إلى هاي ويلد».

«ومن تكون مارغريت؟».

«ابنة عمي».

«وروري؟».

«فتى رائع سيبلغ السابعة غداً. ماوس أيضاً سيكون حاضراً، لكنّه ليس مثلك، إذ ليس لديه أدنى مفهوم عن الدقّة في المواعيد. والآن أستاذك، عليّ أن آخذ غفوة».

قال وهو يعيد الأطباق إلى السلة، ثمّ يمسح عن ملابسه وعن الطاولة كل الفتات الذي تساقط في أثناء تناوله للطعام، ويجمعها داخل منديل».

بعد ذلك، طوى أورلاندو ذراعيه فوق صدره كما لو أنّه كان يحمي نفسه من إطلاق نار وأمال رأسه وغفا.

بعد مرور ثلاثين دقيقة، بدأ التوتر ينتابني بشأن رحلتي إلى أشفورد، لكنني لم أرغب في إزعاجه، وفوجئت به يفتح عينيه، ويقول:

«بقي دقيقتان لوصولنا يا آنسة ستار».

كان الرصيف يشعّ بنور شمس الخريف الياقة فيما كنّا نسير إلى جانبه لتجنّب الاصطدام ببقية المسافرين.

«ما زال التطوّر يسبّب لنا الخسائر. والآن بعد بناء محطة الأنفاق الأوروبية تلك، لن ننعم بأيّ هدوء أو سلام بعد اليوم»، اشتكى أورلاندو.

عندما خرجنا إلى الساحة الأمامية، أحسست بالصقيع الذي عاناه المكان الباردة، حتى إنني رأيت مسحة ضبابية من أنفاسي.

«ها هي تنتظرنا هناك». قال أورلاندو وهو يسير بخطى واسعة نحو سيارة فيات 500 مهترئة. «عزيزتي مارغريت، لطف منك أن تأتي إلى هنا لتقلّينا». قال أورلاندو لامرأة نحيفة وطويلة القامة مثله، فيما كانت تخرج ساقها الطويلتين من داخل السيارة الصغيرة.

«أورلاندو»، قالت بنبرة متردّدة، وهو يقبلها على خديها. ثمّ أشارت إلى السلة الكبيرة التي كانت بيده. «وأين سنضع هذه وأنت تصطحب ضيفة».

شعرت بعينيها الداكنتين الكبيرتين بلونهما البنفسجي الجذاب تجتاحاني.
«اسمحي لي أن أقدم إليك الآنسة أستروپ دابليز، المعروفة باسم ستار. آنسة ستار هذه قريبتى مارغريت فوغان».

«يا له من اسم غير مألوف»، قالت المرأة وهي تقترب مني. عندئذٍ رأيت الخطوط الباهتة فوق بشرتها الشاحبة، وأدركت أنها أكبر سنًا مما اعتقدت في البدء. ربّما كانت في أوائل الأربعينيات.

«تسرّني معرفتك. وأعتذر إليك نيابة عن ابن عمي على إحضاره هذه السلة السخيفة التي سيتعيّن عليك حشرها إلى جانبك. اللّهُ وحده يعلم ما مشكلة القهوة التي تقدّم في برّيت». قالت وهي تدحرج عينيها لأورلاندو الذي حاول حشر السلة في المقعد الخلفي. «لكنني واثقة من أنّك أصبحت تعرفينه». قالت وهي تبتسم بحرارة.

«نعم»، قلت لها وأنا أبادلها تلقائيًا الابتسامة نفسها.

«في رأيي، عليه أن يذهب إلى المنزل مشيًا على الأقدام خمسة أميال، ليكفّر عن ذنبه وتتمكّني من الجلوس داخل السيارة براحة». قالت بنبرة متأمرة، وهي تربت على ذراعي. «هيا بنا يا أورلاندو، لديّ أمورًا كثيرة لأنهاها، ف لحم البقر لم يصلني».

«أعتذر إليك يا آنسة ستار». قال أورلاندو مثل الطفل المؤدّب. «بالفعل، لقد تصرّفت بطيش». وأمسك الباب ريثما أتسلق المقعد الخلفي وأثبتت نفسي بجوار السلة ضمن المساحة الضيقة التي بقيت لي، ما اضطررني إلى لصق ذراعيّ بجنبيّ. انطلقت بنا السيارة في الطرقات الريفية المورّقة. كانت مارغريت وأورلاندو يجلسان في المقدمة، وكلاهما طويل القامة لدرجة التصق فيها رأسيهما بسقف المقصورة. أمّا أنا فكنت أجلس على المقعد الخلفي أشعر كأنني طفلة. وبدأت أشغل نفسي بالنظر عبر النافذة وتأمل الجمال الريفي الإنكليزي.

أخبر أورلاندو مارغريت بنبرة سريعة ومتواصلة عن الكتب التي يبيعها ويشتريها. فنّهته بكل لطف إلى المبلغ الكبير الذي أنفقه على «آنا كارينينا».

فتبين أن ماوس أخبرها بالأمر. وعلى الرغم من ذلك، أحسست بالمودّة بينهما. ومع أنني كنت أجلس في المقعد الخلفي، فإنني كنت قريبة منها لأشتم عطرها بعد أن فاحت رائحة مسك مهدئة داخل المقصورة.

كان شعرها الكثيف الداكن يتساقط في أمواج طبيعية فوق كتفيها. وعندما التفتت يسارًا لتحدّث أورلاندو، رأيت أنفها الروماني، مثلما كان يسمّيه يا سولت. كان لافتًا وسط ملامح وجهها البارزة. لم يكن جمالها كلاسيكيًا. وكان من السهل أن أستنتج من سروالها الجينز القديم الفضفاض أنها لا تولي اهتمامًا كبيرًا بالمظهر الخارجي. ومع ذلك، كانت تتمتع بجاذبية كبيرة، لذلك أردتها أن تحبّني. شعور غريب لم يسبق أن راودني.

«هل ما زلتِ قادرة على تحمّل الجلوس في مكانك؟ لم يبقَ أمامنا الكثير.»
«نعم، شكرًا لك.» أجبتها وأنا أسند رأسي إلى النافذة عندما بدأ السياج الشجري السميك المرتفع نسبةً إلى انخفاض سقف سيارتنا، يموّج فوق رؤوسنا، وأصبحت الممرات الريفية ضيقة. كان قراري بالخروج من لندن في عطلة نهاية الأسبوع صائبًا. فسررت بتكدّس كل تلك المداخل غريبة الشكل والمصنوعة من الطوب الأحمر خلف الجدار العشبي الأخضر. ثمّ انعطفنا إلى اليمين وعبرنا بوابة قديمة قادتنا إلى طريق وعرة، تسبّبت باصطدام رأس مارغريت وأورلاندو بسقف السيارة. «سأطلب إلى ماوس ملء هذه الحفر بالحصى قبل موسم الشتاء.» قالت لأورلاندو قبل أن توجه كلامها إليّ: «لقد وصلنا يا ستار.» توقّفت السيارة أمام منزل ضخم أنيق، كانت جدرانها من الطوب الأحمر الناعم، وقد تسلّقتها نبتة لبلاب ووستيريا لتغطّي النوافذ غير المستوية بالخضار. أما مدخله الطويلة والرفيعة، فأشارت إلى حقبة الفن المعماري التيودوري، وهي تشهق هكذا في سماء أيلول الصافية. خرجت من سيارة الفيات وأنا أتخيّله من الداخل؛ كان قديمًا أكثر ممّا كان مثيرًا للإعجاب. ولا شكّ في أنّه لم يكن يمتّ لفخامة هذا العصر بصلة. كما لو أن الزمن مرّ عليه بلطف وقد تحلّل تبعًا ضمن محيطه الريفي. كان يشير إلى حقبة زمنية ماضية، تلك التي أحب القراءة عنها في الكتب، وقد أشعرني ذلك بوخر قليل من شوقي إليها.

تبعث مارغريت وأورلاندو إلى الباب الأمامي الضخم المصنوع من خشب البلوط، وهناك رأيت صبيًا صغيرًا يقترب منّا وهو يتميل فوق دراجته الهوائية الحمراء اللماعة. فجأةً، أطلق صرخة خافتة بدت غريبة على مسمعي، ولما أفلت الدراجة ليلوّح إلينا بيده سقط أرضًا.

«روري!». صرخت مارغريت، وهي تركض إليه. لكنّه انتصب واقفًا وحده. عاد وتكلّم مرة أخرى، فأحسست كأنّه أجنبيّ، لأنني لم أستطع فهم أي كلمة مما قاله. وبعد أن نفضت مارغريت الغبار عنه، أمسك الصبي الدراجة وعاد الاثنان أدراجهما إلينا.

«انظر من أتى ليزورنا»، قالت مارغريت وهي تلتفت إلى الصبي. «هذا أورلاندو وهذه صديقتة ستار. حاول أن تقول ستار». قالت له وهي تهجّئ أول حرفين من اسمي بطريقة خاصّة.

«سس - ت - ااااا»، قال الصبي وهو يقترب مني مبتسمًا، ثمّ رفع يده في الهواء وفتح أصابعه ليرسم بها نجمة ساطعة. كان روري يتحلّى بعينين خضراوين فضوليتين تتوسطان رموشًا كثيفة. أمّا شعره فكان نحاسيًا مموجًا يلمع تحت أشعة الشمس، وكان خداه ورديين منتفخين بالسعادة. بسرعة، أدركت أنّه لا يُرفض له طلبًا.

«لكنّه يفضّل أن نناديه سوبرمان، أليس كذلك يا روري؟». قال أورلاندو وهو يضحك ويرفع ذراعه في الهواء مغلقًا أصابعه في قبضة مثلما يفعل سوبرمان في أثناء تحليقه في الهواء.

أومأ روري برأسه إليّ، ثمّ صافحني مثل بطل خارق. بعد ذلك، اقترب من أورلاندو وعانقه. حضنه أورلاندو بقوة ودغدغه، ثمّ وضعه أرضًا وجلس القرفصاء قبالة وبدأ يستخدم يديه في رسم الإشارات حارصًا على نطق كل ما كان يقول له بوضوح.

«عيد ميلاد سعيد! هديتك في سيارة مارغريت. هلاّ ترافقني لنجلبها؟».

«نعم من فضلك». أجابه روري بالإشارات. حينئذ عرفت أنّه يعاني الصمم.

فبحثت في ذاكرتي المهترئة عما تعلمته من (ما) قبل عقدين من الزمن. بعد ذلك نهض الاثنان عن الأرض، وسارا معًا باتجاه السيارة.

«هيا بنا إلى الداخل يا ستار. قد يستغرق انتظارهما بعض الوقت».

تبعث مارغريت إلى باحة المدخل، التي كانت تتقدمها سلالم من طراز الحقبة التيودورية. هناك اتضح لي أن الدرايزين الرائع المصنوع من خشب البلوط كان منحوتًا ومقلوبًا، وليس مستنسخًا. وفي أثناء عبور الممر الرئيسي، تصدعت الأحجار المسطحة القديمة غير المستوية تحت أقدامنا، ففاحت منها رائحة الغبار ودخان الخشب المحترق. وتخيلت النيران التي اشتعلت في الداخل على مر العصور لتدفئ سكان هذا المنزل المذهل. فجأة حسدت مارغريت كونها تعيش في هذا المنزل.

«أدعوك مباشرة إلى المطبخ، سأواصل التحضيرات. لذلك أرجو أن تعذرني على الفوضى هناك. سأستقبل عددًا كبيرًا من المدعوين على الغداء لمناسبة عيد ميلاد روري، وحتى الآن لم أقشّر سوى البطاطا».

«يمكنني مساعدتك». قلت لها ونحن ندخل غرفة لها سقف منخفض، وملئية بالدعامات، وفي الوسط مدفأة احتوت على موقد من الحديد.

«بالطبع يمكنك المساعدة بسكب كأسَي جين لنا». قالت فيما برقت عيناها، فعكستا جمال منزلها ودفئته. «ستجدين المخزن هناك. أعرف أنك ستجدين فيه زجاجة جين، وأدعو الله أن تعثري على مياه غازية في الثلاجة. وإلا سنفكر في حل آخر. والآن أين وضعت مقشرة البطاطا؟».

«ها هي هنا». التقطتها عن الطاولة الطويلة المصنوعة من خشب البلوط، والتي تناثرت فوقها صحف كثيرة وأكياس من رقائق الحبوب وأطباق قذرة وجورب موحل من زيّ كرة القدم، فقلت لها: «لَمْ لا تعدّين أنت المشروب، وأنا أقطع الخضروات؟».

«لا يا ستار، أنت ضيفة هنا...».

في هذه الأثناء، كنت قد أمسكت كيس البطاطا وأنزلته عن الرف، ثمّ سحبت صحيفة عن الطاولة كانت صادرة قبل أسبوع لأجمع القشور فيها. وبعد ذلك جلست إلى الطاولة وبدأت بتقشير البطاطا.

«حسنًا، سأذهب لإحضار المشروب». ابتسمت مارغريت ممتنة.

في خلال نحو الساعة، أنهيت تقشير الخضروات وتحضير لحم البقر ووضعه داخل الموقد، كما تمكنت من ترتيب المطبخ. في هذه الأثناء، كانت مارغريت قد أحضرت زجاجة الجين إلى المطبخ، وأضافت إلى كل كأس مياه غازية، ثم تركتني أتولى الطبخ، وجابت في الأرجاء، متنقلة بين المنزل والحديقة، تعتني تارة بابنها، وتلقي تارة التحية على الوافدين. في النهاية، جهزت المائدة حيث كنا سنتناول طعام الغداء. وفي أثناء تجوُّلي فيما اعتبرته مطبخ الأحلام، لولا تلك الفوضى التي كانت تعم فيه، والتي تسببت بتعثري أكثر من مرة، وبهمهمتي في سري. فجأة شعرت بارتفاع درجة الحرارة في الغرفة بسبب الموقد. فبدأت أنظر إلى الشقوق في السقف، وأتخيل كيف كان لون الجدران أصفر قبل طليها باللون الأبيض. ثم مسحت طاولة البلوط حيث تراكمت الشموع الذائبة، وغسلت أطباقًا ومقالٍ متسخة وازت تقريبًا متطلبات أسبوع كامل.

عندما أصبح كل شيء تحت سيطرتي، نظرت عبر الزجاج غير المستوي المطل على حديقة المطبخ، ورجحت أن تكون هي مصدر كل الخضروات التي استهلكت في هذا المنزل على مرَّ عصور. ثم خرجت لأنظر إليها من كُتب، فوجدت النباتات في حالة فوضى، ووجدت نبتة إكليل الجبل، فقطفت بضغ أوراق منها لكي أضيفها إلى البطاطا المشوية.

ثم بدأت أفكر في مدى استعدادي للعيش في مكان مثل هذا طوال العمر. في هذه الأثناء، عادت مارغريت إلى المطبخ، فلاحظت أنها بدلت ملابسها وارتدت بلوزة حريرية عسليّة شبه مجمدة، ووضعت فوقها وشاحًا أرجوانيًا.

«يا إلهي ستار، هذه معجزة! لم أرَ المطبخ هكذا منذ سنوات. شكرًا لك. هل تبحثين عن وظيفة؟».

«لديّ وظيفة»، فأنا أعمل مع أورلاندو.

«أعرف ذلك، وأنا سعيدة بوجودك هناك إلى جانبه. لعلك ستنجحين بين الحين والآخر في منعه عن إنفاق مبالغ خيالية لتمويل ذلك المتجر الذي تحوّل مؤخرًا إلى مكتبة شخصية».

«لكنّه في الواقع يبيع الكثير من الكتب عبر الإنترنت». أجبته مدافعة عنه بينما كانت تسكب لنفسها كأسًا أخرى من الجين.

«أعرف ذلك. حسنًا، روري يستمتع بفتح الهدايا في غرفة الجلوس، وأورلاندو نزل إلى القبو لإحضار مزيد من النبيذ، لذلك سأجالسك خمس دقائق». ثمّ نظرت إلى ساعتها قبل أن تتنفس الصعداء. «سيأخر ماوس كالعادة، لكنني لن أرجئ موعد الغداء بسببه. أفترض أنك لاحظت صمم روري عند وصولك؟».

«نعم لاحظت ذلك». أجبته وأنا أفكر في الشبه بينها وبين ابن عمها. فهي أيضًا قادرة على الانتقال مثل الفراشة من موضوع إلى آخر.

«هو أصمّ منذ الولادة. أذنه اليسرى شبه معطّلة، والسماعات الطبية لم تنفعه كثيرًا. أنا فقط...». وتوقّفت عن الكلام، فنظرت إليها ووجدتها تنظر مباشرة في عينيّ.

«لا أريده أن يشعر يومًا بأنه عاجز أو أقلّ قدرة من أي طفل آخر. تعرفين تلك الأمور التي يردها الناس أحيانًا...»، قالت وهي تهزّ برأسها وتتنهّد. «إنّه الأجمل والأذكى بين كل الصبيان».

«بدا لي مقرّبًا من أورلاندو».

«أورلاندو هو من علّمه القراءة عندما بلغ الخامسة من العمر، بعد أن تعلّم بنفسه لغة الإشارة البريطانية ليتمكّن من محادثة روري وإعطائه الدروس. كما أنّه حظي بتعليم خاصّ بعد أن سجّلناه في مدرسة ابتدائية محلية. حتى أنّه يعلم باقي الأطفال لغة الإشارة. حاليًا نضع له اختصاصيًا محترفًا يدرّبه على الخطاب، وهو يعمل معه كل أسبوع ليشجّعه على الكلام وقراءة الشفاه. أعتقد أنّه يقوم بعمل رائع. الأطفال في عمره يتعلمون بسرعة. والآن، هيّا رافقيني لتعرّفي إلى الضيوف، بدلًا من البقاء محبوسة هنا في المطبخ مثل سندريلا».

«لا بأس في ذلك، سأفقّد أولًا لحم البقر». انتقلت إلى الموقد، وانحنيت لأخرج منه اللحم والبطاطا المشوية. «لقد أضفت قليلًا من العسل وبذور السمسم التي وجدتتها في المخزن لتعطي الجزر نكهة لذيذة. آمل ألا تمانعي».

«بالطبع لا أمانع، لم أكن يومًا طبّاخة ماهرة، وإنّه لمن دواعي سروري أن تحضّري طعام الغداء بدلًا مِنّي. فمع روري وهذا المنزل المتطلّب، ناهيك بالوظيفة التي أنا بحاجة ماسّة إليها لأتمكّن من تسديد فواتيري، أشعر كأنني أركض دائمًا في فراغ. عرض عليّ عمولة رائعة لرسم لوحة جدارية في فرنسا، لكنني ما زلت غير واثقة من مقدرتي على ترك روري...». وخفت صوتها قليلًا قبل أن تتابع: «أعتذر إليك يا ستار، فأنا أخبرك بأمور قد لا تعنيك».

«هل أنتِ فتّانة؟».

«أودّ كثيرًا أن أكون كذلك، على الرغم من أن أحدهم قال لي مؤخرًا إنني مصمّمة ورق جدران على أبعد تقدير». قالت مارغريت متعجبة. «في أي حال، شكرًا على المساعدة».

«إنّه لمن دواعي سروري، حقًا. في أيّ ساعة تريدان تقديم الطعام؟ لأنّ اللحم البقري نضج، وسأتركه ليرتاح قليلًا».

«عندما تجهزين أنت، كلّ الذين يأتون إلى هاي ويلد معتادون الانتظار، ولو طال الوقت».

«هل نقول بعد نصف ساعة؟ إذا كان لديك بيض، يمكنني أن أحضّر حلوى يوركشاير بودينغ».

«آه... بالطبع لدينا بيض. فالدجاج هنا يسرح ويمرح في حديقة المطبخ، كما أنّنا نعيش على العجة. سأجلب بعض البيض». قالت وهي تدخل المخزن. «ماغ! أنا جائع!».

التفت خلفي ورأيت روري يدخل المطبخ.

«مرحبًا!». قلت له بلغة الإشارة. وحاولت تقليد ما فعله أورلاندو، فصفّقت بيديّ مرتين، ثمّ رفعت كفّيّ المبسوطتين إلى أعلى وإلى الأمام لأتمنّى له عيد ميلاد سعيد.

ويبدو أنّني نجحت لأنّه أبدى ذهوله، وابتسم وأجابني بلغة الإشارة «شكرًا

لك». ثم أشار إلى الموقد، ونقر على معصمه، كما لو أنه كان يضع ساعة يد، وهزّ كتفيه مستفهمًا.

«سيجهز الغداء بعد ثلاثين دقيقة».

«حسنًا»، أجاب روري بلغة الإشارة، وهو يتجه إلى الموقد ليتفقد اللحم البقري. «بقرة»، قلت له وأنا أضع أصابعي فوق رأسي في شكل قرنين صغيرين. وانفجر روري بالضحك، فصَحَّح لي برسم الإشارة الملائمة للبقرة. بعد ذلك، تناولت سكينًا، وبدأت أقطع اللحم البقري إلى شرائح صغيرة. في هذه الأثناء عادت مارغريت إلى المطبخ، فوضع روري شريحة من اللحم في فمه ومضغها. «رائع»، قال وهو يرفع إبهامه.

«شكرًا لك»، قلت له بلغة الإشارة، وأنا أضع أصابعي على ذقني ثم أبعدت يدي، آملّة أن تكون هذه الإشارة مشتركة بين لغتي الإشارة الفرنسية والبريطانية. «لا تقولي لي إنك تعرفين لغة الإشارة أيضًا يا ستار؟». قالت مارغريت. «تعلمت القليل منها في صغري، لكنني لا أجيدها كثيرًا، ما رأيك يا روري؟». التفت روري إلى والدته وحدّثها سريعًا بلغة الإشارة، فضحكت.

«يقول إن معرفتك بلغة الإشارة فظيعة، لكنك تعوّضين جهلك بها في الطهو. يبدو أنك تفوّقت عليّ في المطبخ، وفق هذا القرد الصغير قليل الحياء». قالت وهي تعبت بشعره.

«وصل ماوس». قال روري وهو يحدّق عبر النافذة. ثم أدّى حركة صغيرة بيد واحدة، كما لو أنه حيوان يجري.

«آن الأوان يا ستار، هل تمانعين إذا تركتك هنا لبعض الوقت لكي أرحّب بالضيوف؟». قالت وهي تضع البيض الذي أحضرته لحلوى يوركشاير بودينغ أسفل الطاولة.

«بالطبع، لا مانع لدي». أمسك روري بيد والدته وسحبها إلى خارج المطبخ. «سأعود لأساعدك في سكب الطعام، أعدك بذلك». قالت بنبرة قلقلة.

«لا مشكلة». قلت لها وأنا أذهب إلى المخزن لأحضر الدقيق.

في خلال نصف الساعة التالية، طبّقت بعض الحيل التي تعلّمتها في دورة التدريب على الطبخ. وبحلول الوقت الذي عادت فيه مارغريت إلى المطبخ، كنت قد سكبت طعام الغداء في أطباق التقديم التي أخرجتها بنفسني من خزانة الصنوبر. وعندما دخلت مارغريت المطبخ وجدّتي أسلمها الأطباق جاهزة لتنقلها إلى المائدة.

«يا إلهي، نسيت تمامًا من أين أتت تلك الأطباق. ستار، أنت حقًا ملاك!».

«هذا من دواعي سروري».

وبالفعل، كان الأمر كذلك، إذ ندر أن أعددت الطعام لغير سيسي. وفيما كنت أفكر إذا ما كان عليّ أن أضع إعلانًا في صحيفة محلية لأرّوج لنفسني كطاهية، فوجئت بدخول رجل غريب إلى المطبخ.

«مرحبًا، لقد طلبوا مني تقطيع اللحم إلى شرائح. أين اللحم؟».

على الفور لاحظت شعره المبعثر الذي بدأ الشيب يغزوه عند الصدغين، وملامح وجهه القاسية التي هيمنت عليها عينا خضراوان، أحسست باجتياحهما لي. كان يرتدي سروال جينز وقميص تحت كنزة بالية بياقة على شكل حرف V اللاتيني. وعندما دنا منّي لاحظت أنّه كان أطول مني. كان ثمة شبه واضح بينه وبين أورلاندو، لكنّه كان أكثر قساوة، ويمكنني القول إنّهُ كان نسخة غير مشدّبة منه. هل يكون هذا هو الأخ الذي ذكره أمامي أورلاندو.

استجمعت قواي وأجبتّه: «إنه هناك، في الموقد».

«شكرًا».

عندما مرّ بجانبني، أمعنت النظر فيه. لاحظت توتّره وهو يسحب السكين من الدرج. وبقي صامتًا في أثناء تقطيعه اللحم، ما أنبأ بطباعه الباردة ومدى تأثيرها في علاقاته. بقيت أحوم في المطبخ إلى أن بدأت أشعر بعدم الارتياح، وأنني لم أكن في المكان المناسب. لذلك بحثت عن الطريق التي تقود إلى غرفة الطعام. وكنت على وشك الخروج عندما أطلّت مارغريت مجدّدًا.

«هل انتهيت يا ماوس؟ إن لم تُعَجِّل، فسيلتهم الضيوف صحنهم فارغة».

«مثل هذا العمل يستغرق وقتًا». ردَّ بالبرودة نفسها التي كلَّمَنِي بها قبل قليل.

«حسنًا، تعالي معي يا ستار، لنَدع ماوس يمارس موهبته».

لم أتخيل أن شخصية «ماوس» الشهير، ستكون مثل هذه الشخصية التي وُثِّرَت الجو في ثوانٍ معدودة، على الرغم من وسامته. تبعت مارغريت إلى غرفة الطعام ذات السقف المنخفض حيث كانت ألسنة النار تتراقص مرحة خلف الشباك الحديد، وتمنيت في قرارة نفسي ألا يصادف جلوسي إلى المائدة بجانبه.

«مرحبًا يا فتاتي العزيزة». قال أورلاندو، وقد احمرَّت وجنتاه من كثرة احتسائه النبيذ الذي أتى به من القبو، وأضاف: «يا للروعة!».

«شكرًا لك».

«تعالي واجلسي بيني وبين ماوس. هكذا يمكنك أن تسأليه عن فلورا ماك نيكول، إذ أجرى مؤخرًا بحثًا عنها».

«ستار، اسمحي لي أن أعرفك إلى المدعوين». قالت مارغريت.

ووجدت نفسي أرحب تلقائيًا بنصف دزينة من الوجوه الجديدة، وأحاول استيعاب أسمائهم وعلاقتهم بروري.

«هل ماوس قريبك؟». سألت أورلاندو بصوت منخفض.

«بالطبع يا فتاتي العزيزة، هو أخي الأكبر، ألم أخبرك؟ أنا واثق من أنني فعلت».

«كلا».

«قبل أن تعلّقي على الموضوع، أعرف أنه استحوذ وسامة والديّ وذكائهما، ولم يترك لي إلا القليل. لكنني مكتفٍ ومرتاح».

ربّما. لكنك تجسد الدفء والتعاطف، في حين لا علاقة له بهما...

خرج ماوس من المطبخ، ومشى حول المائدة إلى الكرسي الذي كان بجواري. فنهض أورلاندو عن كرسيه.

«أيها السادة، سيداتي، أنساتي، يشرفني أن نشرب معًا نخب السيد روري بمناسبة عيد ميلاده السابع. أيها الفتى الوسيم، أتمنى لك كل الصحة وفائضًا من الثروة». وفي أثناء إلقائه كلمة التهنئة، توجه أورلاندو إلى روري وخاطبه بلغة الإشارة. ثم رفع كأسه أمام الجميع، فرأيت روري يتوهج سعادة. بعد ذلك، رفع المدعوون أيديهم في الهواء وبدأوا يصفقون، فشعرت بهتافاتهم تجتاحني، حينذاك رفعت الكأس التي كانت أمامي على المائدة.

«عيد ميلاد سعيد». سمعت ماوس يتمتم بجانبني من دون أن يبذل أي جهد لتهنئة ابنه بلغة الإشارة.

«حسنًا، تفضلوا». قالت مارغريت وهي تدعو ضيوفها إلى البدء بتناول الطعام. وجدت نفسي بين الشقيقين. كان أحدهما يتناول طعامه مثل العادة كأنه يصرف الفضلات، بينما لم يبدِ الآخر أي اهتمام بما كان يفعله. ألقيت نظرة خاطفة إلى الضيوف الذين كانوا يحتسون النبيذ المعتق، فشعرت بقشعريرة جعلتني أفكر بما مررت به خلال الأشهر القليلة الماضية منذ وفاة پا سولت. لقد كان جلوسي إلى تلك المائدة برفقة أولئك الغرباء معجزة. رويّدًا رويّدًا يا ستار، رويّدًا رويّدًا...

وعادت بي ذاكرتي إلى موائد أيام الآحاد في أتلانتيس مع پا سولت، عندما كنّا ما نزال صغارًا، نعيش كلّنا تحت سقف ذلك المنزل. لا أذكر انضمام أيّ غريب إلينا في تلك الأيام، كنّا نحن الثمانية فقط؛ (ما)، وپا، ونحن الفتيات الست. وكان عددنا كافيًا لتوليد هذا الدفء والثروة التي تحيط بي هنا الآن. فشعرت بالاشتياق لأكون مجددًا جزءًا من عائلة.

فجأة بدأ رجل الجليد الذي كان يجلس إلى يميني يحدثني.

«أخبرني أورلاندو أنك موظفة عنده».

«نعم، بالفعل».

«أشك في أنك ستتحملينه فترة طويلة. عادة لا أحد يفعل».

«انتبه إلى ما تقوله أيها العجوز». قاطعه أورلاندو بلطف. «ستار وأنا متفقان تمامًا، أليس كذلك؟».

«أجل بالتأكيد»، قلت له بصوت عالٍ لأدفع عن مديري اللطيف وغريب الأطوار في الوقت نفسه.

«حسنًا، إنه بحاجة إلى من يكبح جماحه. المتجر يسجل خسائر منذ سنوات، لكنه يرفض أن يستمع إلى أحد. تعرف أننا سنضطر إلى بيعه قريبًا. فهو يقع في أحد أغلى الشوارع في لندن، وسنحصل على سعرٍ ممتاز».

«دعونا نرجم هذه المناقشة إلى وقت آخر. لا أحب التحدث عن العمل في أثناء جلوسي إلى مائدة الطعام. لا أريد أن يتسبب لي ذلك في عسر هضم». أجاب أورلاندو.

«أرأيت؟ إنه يجد دائمًا عذرًا لكي يتهرب من المواجهة».

تمتم ماوس. وعندما استدرت إليه، رأيته يحدّق إليّ بعينيه الخضراوين. «لعلّك تساعدنيه على رؤية الأمور بواقعية. يمكنه مواصلة أعماله عبر الإنترنت، لأنّ السعر الذي يعرض علينا اليوم ثمنًا للمتجر عالٍ جدًّا، وكلانا يعلم أن أحدًا لا يدخل المتجر. وهو لا يجني أرباحًا كثيرة».

أجبت، وأنا أتفادى ببصري تحديقه المغناطيسي «يؤسفني القول إنّه ليس لديّ فكرة عن تلك الأعمال».

«أستمحيك عذرًا. من غير المناسب أن أحدث موظفًا بهذا الموضوع».

بالتأكيد ليس مناسبًا، خصوصًا عند لقاء ذلك الموظف بصاحب العمل لقضاء وقت ترفيهيٍّ مثل هذا، فكرت في نفسي وقد انتابني غضب شديد. لقد نجح في معاملتي بفوقية، وفي التقليل من شأنِي، لذلك بطل اعتذاره الفاتر.

«إذن، ما هي علاقتك بفلورا ماك نيكول يا آنسة...؟».

«دابليرز»، أجاب أورلاندو نيابة عني. «وإذا كنت مهتمًّا بمعرفة اسمها الحقيقي فهو أستروپ». قال ببطء وهو يهزّ حاجبيه مثل بومة متحمسة.

«أستروپ؟ مثل إحدى شقيقات الثريا السبع؟».

«أجل».

«لكنهم ينادونها ستار. في الحقيقة أعتقد أن الاسم يناسبها جدًّا، أليس كذلك؟».

قال أورلاندو مؤيدًا.

شككت في موافقة ماوس، فقد بقي عابسًا كما لو كنت بالنسبة إليه لغزًا كبيرًا.

«أخبرني أخي أن والدك مات مؤخرًا؟».

«نعم».

وضعت سكينتي وشوكتي على طبعي، وأملت ألا يطول استجوابه.

«لكنه لم يكن والدك الحقيقي؟».

«كلا».

«على الرغم من ذلك فقد عاملك كما لو كنت من صلبه؟».

«نعم، كان أبًا رائعًا بالنسبة إلينا نحن الشقيقات الست».

«هذا يعني أنك لا توافقين على أن قرابة الدم هي الرابط الوحيد لعلاقة قوية بين الوالدين وطفلهما؟».

«وكيف يمكنني الموافقة، وأنا لم أعرف أحدًا منهما».

«بالطبع لا، أفترض أنك لا تعرفين».

ثم غرق ماوس في صمت رهيب، فأغمضت عينيَّ بعد أن شعرت برغبة عبثية في البكاء. هذا الرجل لم يعرف والدي ليكون استجوابه مجردًا من التعاطف. فجأة، شعرت بأحد يضغط على يدي. كان أورلاندو. لكنّه سرعان ما سحب يده ورمقني بنظرة متعاطفة.

«أنا واثق أن أورلاندو أخبرك بأنني أبحث في تاريخ العائلة. فهناك جدل بشأن مختلف الفروع، لذلك فضّلت أن أبحث بنفسي وأنهاي هذا الجدل. هكذا عرفت بوجود فلورا ماك نيكول». وانتبهت إلى نبرته المهينة حين ذكر اسمها.

«ومن هي؟».

«هي أخت جدتنا الكبرى أوريليا». قال أورلاندو. ومرة أخرى شعرت بصمت كتيب إلى يميني، تلتته تنهيدة عميقة.

«هذه ليست القصة الكاملة يا أورلاندو.. إنك تعرف ذلك، أو على الأقل حتى الآن»، قال ماوس.

«اعذريني يا آنسة ستار. عليّ مساعدة مارغريت في غسل الأطباق». قال أورلاندو وهو ينهض عن كرسيه.

«يمكنني مساعدتكما». أجبته وأنا أنهض بدوري.

«كلا»، قال وهو يدفعني بلباقة لأعاود الجلوس. «يكفي أنك أعددت هذا الغداء الرائع. لا يمكنك العودة إلى المطبخ في أي حال».

بعد اختفاء أورلاندو، فكرت أنني كنت سأستمتع في تنظيف مراحيض هذا المنزل الضخم كلها، على أن أجلس بجوار ماوس. وشبهته في مخيلتي بفأر مجارٍ كبير.

«هل لديك فكرة عن علاقة والدك بفلورا ماك نيكول؟».

تابع فأر المجاري حديثه. فرددت عليه بأدب. «كلا، لا أعتقد أن هناك علاقة بينهما. لقد ترك والدي لكل واحدة منّا دليلاً يقودها إلى أصولها البيولوجية. لذلك أيًا كانت تلك العلاقة، فأرجح أن تكون فقط بيني وبينها».

«هل تقصدين أنك ربّما تكونين فرخًا آخر كُبر بعيدًا عن عش هاي ويلد؟ حسنًا، دعيني أخبرك بأنّ هناك عددًا قليلًا من تلك الفراخ في سجلّ عائلتي فوغان/فوربس».

ورفع بيده كأس النبيذ ليحتسيه دفعة واحدة، عندئذٍ تساءلت عمّا حدث له في الماضي وجعله يصبح دائم الغضب بهذه الطريقة. تجاهلت تلميحه، ولم أمنحه متعة رؤيتي منزعة. لذلك لجأت إلى أسلوب الحاد في المواجهة؛ الصمت بالصمت، وبقيت جالسة ويديّ في حجري. كنت واثقة أنني قادرة على الفوز في أي معركة يرغب في خوضها الآن. في النهاية قال:

«أفترض أنّه عليّ الاعتذار إليك مرة ثانية منذ بداية علاقتنا القصيرة. أنا واثق

أَنَّكَ لست استغلالية بالنظر إلى ماضي والدك المتوفى. لكن أورلاندو ذكر أمامي أن والدك ترك لك دليلاً آخر؟».

قبل أن تتاح لي فرصة الردّ على سؤاله، أطلّ أورلاندو من خلف الباب حاملاً معه كعكة كبيرة مغطاة بالشموع، وانطلقت الأيدي تصفّق وتقرع الطاولة على إيقاع أغنية «سنة حلوة يا جميل». والتقطت الصور لمارغريت وأورلاندو. وهما يتسلمان فوق كتفي روري. عندئذٍ اختطفت نظرة إلى فأر المجاري ورأيت أن تعابير الكئيبة، التي لم تفارق وجهه منذ أن وصل، ما تزال على حالها، ثمّ نظرت مباشرة إلى عينيه، وهو ينظر إلى روري ولاحظت الحزن فيهما.

بعد تناولنا الكعكة بالشوكولاتة التي أحضرها أورلاندو داخل سلة الزهات من لندن، رشفنا القهوة في غرفة الجلوس التي امتلأت بالكتب الموضوعة فوق رفوف ضخمة من خشب البلوط على جانبي مدخنة واسعة كانت تتوسّط الغرفة، أثارت فيّ رغبة في الحصول على واحدة مثلها في منزلي. بعد ذلك نهض أورلاندو. «حان وقت المغادرة يا آنسة ستار. علينا أن نستقل قطار الساعة الخامسة». ومشى إلى مارغريت وقبلها على خديها. «كان الغداء رائعاً مثل كل مرة. هل أطلب سيارة أجرة؟».

«سأقلّكما أنا». علا صوت من الكرسي المقابل.

«شكراً لك أيها العجوز».

نهضت مارغريت ودنت منّي فأريت التعب في عينيها. «ستار، عديني أن تزوريني قريباً، وسأعدّ أنا طعام الغداء؟».

«بالطبع سأفعل. شكراً لك على استضافتي».

فجأة، ظهر روري بجانبنا وهو يفتح أصابع يدي ويغلقها بحماسة، فأدركت أنّه يشير مرة أخرى إلى اسمي. وأضاف بصوته الغريب: «عودي قريباً». ثمّ لفّ ذراعيه الصغيرتين حول خصرتي.

«وداعاً يا روري». أجبته وهو ينزع ذراعيه عني. وعندما نظرت فوق رأسه رأيت فأر المجاري يحدّق إلينا.

«شكرًا لك على هذه الكعكة الرائعة. كانت تستحق حمل تلك السلة السخيفة إلى هنا». قالت مارغريت لأورلاندو.

تبعنا فأر المجاري إلى الخارج، حيث ركن سيارته القديمة المحطمة مثل سيارة ابنة عمه الفيات، لكنها كانت من طراز لاند روفر.

«اجلسي في المقدمة يا آنسة ستار. أنا واثق من أن لديك ما تحدّثي به ماوس أكثر منّي. فأنا أعرف عنه كل ما أحتاج إليه معرفته، وهذا مملّ لي». قال أورلاندو، وهو يصعد إلى المقعد الخلفي ممسكًا بسلته.

«إنه لا يعرفني بتاتًا». زمجر فأر المجاري، وهو يصعد إلى مقعده بجانبه، ويشغل المحرك. «وإن اعتقد أنه يفعل ذلك».

لم أعلّق على حديثهما، إذ لم أشأ أن أزج نفسي بين شقيقتين. سرنا على طول الطريق في هاي ويلد بصمت رهيب ساد داخل السيارة. فشغلت نفسي بالنظر عبر النافذة إلى غروب الشمس اللطيف، الذي كنّا نشهده في فصل الخريف، وإلى أشعتها التي تغمر الأشجار بلون العنبر الذي كان يتحوّل تدريجًا إلى شفق. وفكرت في أنني لا أرغب في العودة إلى لندن.

عندما وصلنا إلى باحة محطة القطار الأمامية قال أورلاندو: «شكرًا لك يا ماوس».

فجأة قطع فأر المجاري صمته الكئيب: «هل لديك هاتف محمول؟».

«أجل».

«سجّلي رقمك هنا من فضلك».

وحين ناولني هاتفه المحمول لاحظ ترددي الآتي.

«هذه المرة الثالثة على التوالي التي أعذر إليك اليوم. أعذك أنني لن أتصل بك إلا إذا أردت قول شيء بشأن فلورا ماك نيكول».

«شكرًا لك». وعلى الفور سجّلت رقمي، وأنا أفكر في تصرّفه النابع من أخلاقه الحميدة، وأتني لن أسمع منه مجددًا. وأعدت له هاتفه. «وداعًا».

عندما انطلق القطار عائداً بنا إلى لندن، غطّ أورلاندو في نوم عميق. أما أنا، فأغمضت عيني واسترجعت أحداث ذلك اليوم، وفكرت في أقارب أورلاندو غربيي الأطوار والمثيرين للاهتمام.

وفي هاي ويلد...

الأهم من ذلك كله، فكرت في ذلك المنزل، وكيف يمكنني العيش فيه بسعادة إلى الأبد.

8

«لقد أحبّك الجميع في عائلتي الضالة». قال أورلاندو وهو يدخل المتجر في صبيحة اليوم التالي بمظهره الأبله مع قالب حلوى الساعة الثالثة.
«ما عدا أخاك».

«آه، لا تأبهي لماوس فهو دائم الحذر مع من لا يجده آثمًا. لا يمكن أحدًا أن يفهم ردات فعلنا حتى نكتشف سببها الحقيقي. أما بالنسبة إلى الغداء الفاخر الذي أعددتَه، فقد كنت أفكر أن نتخلّص من علب الألومنيوم التي نحضرها كل يوم من المطعم، وتبدأين بإعداد الطعام لنا هنا في هذه المؤسسة الصغيرة. مع أنني أشكّ في أنك ستترتاحين في إعداد الطعام في الطبقة العلوية، وقد يتأثر إبداعك سلبيًا». قال لي وهو يتمعّن في تعابير وجهي. «هل لديك مواهب أخرى تخفيها عني؟».

«كلا». أجبتَه، وقد احمرّ وجهي خجلًا، كما يحصل دائمًا عندما يثني عليّ أحد. «أنت متميزة حقًا يا آنسة ستار. هل تعلمين ذلك. أين تعلمت لغة الإشارة؟». «تعلمتها من مربيتي. لقد علّمتني أساسيات لغة الإشارة الفرنسية عندما كنت صغيرة. بعد ذلك، ابتكرت أنا وأختي لغة خاصة بنا. فأنا في صغري لم أكن أميل إلى الكلام».

«هذه موهبة أخرى من مواهبك المتعدّدة. فمن ليس لديه ما يقوله ينبغي ألا يفتح فمه. لهذا السبب أستمتع كثيرًا بالتحدّث إلى روري، فهو مهتم جدًا بما يدور حوله، فضلًا عن خطابه الذي تطوّر بسرعة كبيرة حتى الآن».

«قالت لي مارغريت أنك تتصرّف بروعة معه».

وجاء دور أورلاندو ليحمرّ وجهه خجلًا. «هذا لطف منها. أنا معجب جدًا بقريبي فهو لامع في كل ما يفعله، ويحصل نتائج رائعة في المدرسة، على الرغم من أنه يفتقر إلى أب يرشده. ولا أعني بذلك أنني أعتبر نفسي جديرًا بأداء ذلك الدور، مع أنني أبذل قصارى جهدي».

كنت متشوقة للاستفسار عن هوية والد روري وعن سبب غيابه، لكنني امتنعت عن السؤال لعدم رغبتني في التطفل.

«من الأفضل لي أن أعود إلى العمل الآن، مع أنني جئت لأخبرك بأمر ما. أنا واثق من ذلك. لا يهم، سأذكّر بعد قليل».

لاحظت كيف بقي أورلاندو مركّزًا على موضوع واحد أطول من العادة قبل أن يصعد مجددًا إلى مكتبه. ثمّ أشعلت النار، وأعددت القهوة التي لن يشربها أحد، وأمسكت بمنفضة الريش لأزيل الغبار عن الكتب الموضوعة فوق الرفوف. ورحت أتذكّر تعليقات فأر المجاري على المال الذي سيجنونه من بيع المتجر في حال قرروا ذلك. فلم أستطع تصوّر المتجر من دون أورلاندو. فكلما غادر أورلاندو المتجر، كان يتحوّل إلى عشّ هجرته طيوره. كان متجر الكتب موطنه الطبيعي، وكان الاثنان مرتبطين ببعضهما ببعض بشكل وثيق.

كان ذلك اليوم باردًا، والرطوبة فيه عالية جدًا، لذلك توقّعت ألا يدخل المتجر أحدٌ من الزوّار المعتادين. أنزلت «أورلاندو» عن الرفّ، وجلست قرب النار أعيد قراءته. وعلى غير عادتي، لم أستطع التركيز في القراءة، فبقيت أعود بذهني إلى يوم أمس، أحاول تحليل ديناميكية تلك الأسرة، كما بقيت صورة هاي ويلد والسكون الرائع الذي يهيمن عليها يخيّمان على ذاكرتي البصرية.



كما توقّعت، لم أسمع من فأر المجاري مجددًا. حاولت تقبّل فكرة عدم رؤيتي هاي ويلد من جديد. فركّزت طاقتي على كيفية امتلاك منزل مماثل في المستقبل.

وبمرور الوقت وقصر الأيام تحوّل البرد القارس إلى صقيع ينخر العظام كل صباح وأنا في طريقي إلى العمل. حتى إن زبائننا المنتظمين صاروا يزوروننا نادرًا. ذات يوم، كنت قد أنهيت واجباتي العملية كلّها، ولم يكن لديّ ما أفعله، فجلست قرب النار وبدأت في تدوين ملاحظات حول الرواية التي قررت كتابتها، بعد أن سمحت لكلمات پا سولت المشجعة أن تقمع شكّي في قدراتي. كنت غارقة تمامًا في التفكير لدرجة أنني لم أسمع فيها أورلاندو وهو ينزل من الطبقة العلوية إلا بعد أن تتخنّج بصوت عالٍ جعلني أنظر إلى أعلى، وأتفاجأ به أمامي.

«آسفة حقًا». قلت له، وأنا أغلق دفتر الملاحظات بسرعة.

«لا يهم يا آنسة ستار، جئت لأسألك إذا كنتِ متفرّغة في عطلة نهاية الأسبوع المقبل؟».

جعلتني طريقتة الرسمية في الكلام أرغب في الضحك، لكنني كبحت نفسي.

«كلا. لا يوجد لدي أي ارتباطات».

«حسنًا... هل تسمحين لي بهذا الاقتراح؟».

«بالطبع، تفضّل».

«عُرض على مارغريت عمولة كبيرة في فرنسا، وعليها أن تسافر إلى هناك بضعة أيام لكي تناقش شروط العرض وتتفقد المكان».

«نعم، لقد ذكرت ذلك أمامي».

«لذلك اقترحت عليها أن نذهب معًا إلى هاي ويلد في عطلة نهاية الأسبوع للاعتناء بروري في أثناء غيابها. فتطوعت بدفع ثمن بطاقات القطار».

«لكنني لست بحاجة إلى من يدفع عني ثمن البطاقة». أجبته بلطف على الرغم من الإهانة التي شعرت بها كونها اعتبرتني مجرد موظفة.

«لا.. بالطبع لا. سامحيني. كل ما فكّرت فيه مارغريت هو روري، فهو معجب بك ولعلك قادرة على تزويده بحنان الأم في غيابها. فأنا لست مؤهلًا لذلك».

«وأنا سعيدة بذلك». أجبته بعد أن شعرت بمعنوياتي ترتفع لمجرد التفكير بعودتي إلى هاي ويلد.

«هل تقبلين حقاً؟ يا لسعادتي. لم أضطر يوماً إلى رعاية طفل بمفردي، لذلك ليس لديّ أدنى فكرة عن مواعيد الاستحمام، وغير ذلك. إذًا هل يمكنني أن أوكد لمارغريت موافقتنا؟».

«نعم يمكنك ذلك».

«حسنًا. اتفقنا. سنغادر مساء الغد في قطار الساعة السادسة. سأحجز مقعدينا في الدرجة الأولى لأنّ السفر في يوم الجمعة على وجه الخصوص، كابوس في هذه الأيام. والآن، تأخرت عن إحضار علب الألومنيوم. عندما أعود، سنتناول طعام الغداء. بعد ذلك، يمكننا أن نتمرن في ما تبقى من الوقت في تجويد مهارتك في لغة الإشارة».

عندما أغلق الباب خلفه، وقفت في وسط المتجر أحتضن نفسي لشعوري بالسرور. إذ ما جرى الآن كان أفضل بكثير مما تصوّرت. عطلة نهاية أسبوع كاملة، أيّ ليلتان اثنتان كاملتان، في مكان حلمت به دائماً.

«شكراً لك. شكراً جزيلاً». قلت وأنا أنظر إلى سقف المتجر.



كان القطار المتجه إلى أشفورد مكتظاً بالركاب، حتى إن بعض المسافرين في عربة الدرجة الأولى بقي واقفاً طوال الرحلة. لحسن الحظ امتنع أورلاندو عن إحضار سلة الزهات هذه المرة، واستبدلها بحقيبة جلد رثة، وحقيبة قماش ملأها بالإمدادات، ومنها أخرج نصف زجاجة شمبانيا وكأسين.

«أحتفل دائماً في عطلة نهاية الأسبوع على هذا النحو. في صحتك يا آنسة ستار». قال لي، وهو يرفع كأسه بعد أن خرج القطار من محطة تشارينغ كروس.

عندما أنهى أورلاندو كأسه وضع يديه فوق صدره وغفا. فجأة شعرت بارتجاج هاتفي، ورأيت أنها رسالة نصية. افترضت أن تكون سيسي التي سخطت بشدة عندما أخبرتها بأنني سأرافق مديري في العمل إلى كنت مرة ثانية، لكن هذه المرة كان لقضاء عطلة نهاية أسبوع كاملة.

لكن الرسالة كانت من رقم مجهول.

«عرفت أنك قادمة إلى هاي ويلد مع أخي. آمل أن نتمكن من ترتيب لقاء لمناقشة فلورا ماك نيكول. الإمضاء أو.»

تفاجأت بحرف اسمه الأول؛ «أو.» مثل أخيه.

بعد مرور أكثر من ساعة، خرجنا من المحطة إلى الباحة الأمامية، حيث مشى أورلاندو باتجاه سيارة أجرة سارت بنا على طول الممرات الريفية إلى هاي ويلد وسط ظلمة حالكة.

«لاندو! ستا!». كان روري ينتظرنا في الخارج لتحتينا.

دفع أورلاندو أجرة السائق، وهو يضع قريبه الصغير فوق كتفيه الذي تدلى منهما مثل الشمبانزي. التفت إلى عتبة الباب، فلاح لي ماوس، وهو يعبث بمفاتيح سيارته أمام الباب.

«حسنًا، بإمكانني المغادرة الآن». قال ماوس ونحن ندخل المنزل مع حقائبنا الصغيرة. «لقد أطعمته ما أعدته مارغريت، لكنه لم يأكل كثيرًا. أنا واثق من أنه سيسعد بوجودكما هنا. إذا احتجتما إلى أي شيء فتعرفان أين تجدانني». قال لأورلاندو. ثم خاطبني بقوله: «أنت لديك رقمي، اتصلي بي عندما يكون الوقت مواتيًا، هذا إذا سنحت لك الفرصة». بعد إيماءة فظة، مشى إلى سيارته، وانطلق بها خارج البوابة. «يا إلهي، أشعر كأننا والداه». همس أورلاندو في أذني وهو يحمل الحقيبة وروري إلى المنزل. فتبعته بالإمدادات وبالْحَقِيبَة التي جئت بها.

«هل تحب تناول فطائر الپانكيك؟». قلت لروري بلغة الإشارة. ضحك أورلاندو عندما رأى روري ينظر إليّ مستوضحًا. فسألته مجددًا، وأنا أهجّئ الحروف كل حرف على حدة.

ومن دون تردد أومأ لي إيجابًا. «مع الشوكولاتة والآيس كريم؟». أضاف وهو يهجّئ الكلمات بتأنٍ قبل أن يحرّر نفسه من بين ذراعي أورلاندو ليمسك بيدي.

«لنرّ إذا كان لدينا أي منها». واقتрحت على أورلاندو الذي كان يقف مباشرة فوق رأس روري أن يذهب لإفراغ حقيبتيه، إذ كنت أعرف طباعه المنظمة.

«شكرًا لك». أجابني ممتنًا.

لم تكن مارغريت تحتفظ بأي صلصة شوكولاتة في مطبخها، لكنني وجدت في المخزن لوح مارس، فذوّبته وأضفته مع الآيس كريم إلى فطائر البانكيك. التهم روري وجبته، وأنا أشرح له ببطء أنه سيتعين عليه مساعدتي في التمرس أكثر في لغة الإشارة لأن معرفتي بها محدودة. ثمّ مسحت الشوكولاتة عن فمه وعن يديه، فبدأ يتثاءب.

«أتريد النوم؟». أشرت إليه.

لكنه عبس على مضض.

«هل نبحت عن أورلاندو؟ أنا واثقة من أن لديه قصصًا رائعة ليقصها لك في السرير».

«أجل».

«كما أنني أريد أن أرى غرفة نومك».

قادني إلى أعلى درج كبير. بعد ذلك مشينا على طول ممر راح يثنّ تحت أقدامنا إلى أن بلغنا في نهايته باب غرفة. «هذه غرفتي».

عندما دخلنا الغرفة، لاحظت بين الملصقات الكثيرة للعبة كرة القدم واللحاف الذي زين برسوم زاهية لسوبرمان، مجموعة لوحات معلقة عشوائيًا على الجدران بملصق بلو-تاك.

«من رسم هذه اللوحات؟». سألته وهو يندس في فراشه.

«أنا». أجابني وهو يشير إلى نفسه.

«روري، يا لها من لوحات رائعة». قلت له وأنا أتنقّل بينها وأتفحصها عن قرب. ثمّ سمعت طرقًا سريعًا على الباب، ودخل أورلاندو الغرفة.

«جئت في الوقت المناسب، لأن روري يريدك أن تروي له قصة رائعة». قلت له وأنا أبتسم.

«بكل سرور. أي قصة؟».

أشار روري إلى قصة «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». فرأيت أورلاندو يدحرج عينيه.

«مرة أخرى؟ متى سأروي لك بقية السلسلة؟ أخبرتك مرارًا أن «المعركة الأخيرة» هي قصتي المفضلة».

لم أشأ التطفل عليهما في أثناء قراءة أورلاندو قصة قبل النوم لروري. لذلك سرت نحو الباب، ولما مررت بسرير روري، فتح ذراعيه على وسعهما ليعانقني، فاستجبت له.

«طابت ليلتك يا ستاه».

«طابت ليلتك يا روري». قلت له وأنا ألوح بيدي وأبتسم له، ثم غادرت الغرفة. تركت أورلاندو وروري منشغلين بمرح، ونزلت إلى الطابق السفلي أتجول في غرفة الجلوس وسط إنارة خافتة. هناك توقفت عند الصور الموزعة على الطاولات الجانبية في الغرفة. كانت معظمها صورًا فوتوغرافية بالأبيض والأسود لأشخاص يرتدون ملابس سهرة. ثم توقفت أمام صورة ملونة لروري يركب فيها حصانًا بكل فخر، ومارغريت واقفة إلى جانبه، فابتسمت.

رغبت في استكشاف بقية المنزل، لذلك سلكت ممرًا قادني إلى غرفة بدت حجرة للدراسة. هناك وجدت مكتبًا قديمًا فيه مقعدان، وقد تناثرت على سطحه أوراق كثيرة. ورأيت كتبًا متراكمة على الأرض ومنفضة سجائر وكأس نبذ فارغة كانت على نحو غير مستقر فوق ذراع واسعة لأريكة من الجلد البالي. رأيت أيضًا مطبوعات مختلفة كانت معلقة على الجدران، ودلت أوراقها المخططة الباهتة على الوقت الذي مرَّ على آخر تحديث للغرفة. وفوق المدفأة، رأيت صورة معلقة لامرأة شقراء جميلة كانت ترتدي فستانًا من الطراز الإيدواري. انحنيت فوق سلة المهملات لألقي نظرة فاحصة عليها، وإذ بوقع أقدام تطأ السلالم فوق الغرفة، ما دفعني إلى الخروج مسرعة إلى المطبخ. فلم أشأ أن يعرف أورلاندو أنني أتطفل على المنزل.

«أخيراً أصبح قريبي في سريرته ينام بسلام وأمان. والآن...».

ناولني زجاجة من النبيذ الأحمر وست بيضات. «عليّ أن أتأكد بنفسني أنك قادرة على تحويل هذه إلى عجة».

«بالطبع».

ولأنني بتّ أعرف المطبخ وما فيه، فلم يستغرقني إعدادها سوى خمس عشرة دقيقة. جلسنا بعد ذلك إلى المائدة للاستمتاع بوجبتنا تمامًا مثل أي زوج وزوجة مرّ على علاقتهما بعض الوقت، أو مثل أخ وأخت لتكون المقارنة دقيقة.

«غداً سنرافقك أنا وروري في جولة حول المنزل. فبالنظر إلى ميلك الواضح للنباتات، أنا واثق من أنك سترتعبين من حالة الحداثك المزرية. لكنني شخصياً ما أزال أجد ما تبقى من الأيام الغابرة جميلاً»، تنهّد قائلاً. «لكن السبب في ترديها، إذا جازت الاستعارة، هو بسبب قلة المال».

«أعتقد أن هذا المنزل رائع كما هو الآن».

«هذا لأنك يا فتاتي العزيزة لست مضطرة إلى الإقامة فيه، أو دفع تكاليف صيانتة. فعلى سبيل المثال إن هاي ويلد هول الذي كان مقرّاً لحفلات المجتمع الراقي سابقاً، قد أقفل لسنوات بسبب حاجته إلى الصيانة وشحّ الأموال. وأنا واثق من أنك في نهاية هذه العطلة، بعد قضاء ليلتين في غرفة باردة جداً بسبب انعدام نظام تدفئة حديث، وعلى فراش متكتّل من شعر الخيول، وبعد الاستحمام بالماء الفاتر، ستغيّرين رأيك. قد أوافقك الرأي من الناحية الجمالية، لكن من الناحية العملية، المنزل كابوس لمن يعيش فيه، خصوصاً في فصل الشتاء».

«لا أمانع. فأنا معتادة على الظروف القاسية»، أجبتة وأنا أهزّ كتفي.

«هذا في البلدان الحارّة، لكن هنا الحال مختلفة تماماً. في الحقيقة، لقد مرّت عائلة فوغان بأوقات عصيبة بعد الحرب، كما هي حال كثير من العائلات. من المفارقة أن يرث روري الصغير ذات يوم لقب سيّد، وهو لا يملك سوى هذا القصر القديم ومزرعة عليّة».

«سيّد؟ لم يخطر ذلك في بالي قطّ. وممن سيرث اللقب؟ من أبيه؟».

«أجل. والآن ما الذي يمكن استخراجه من مخزن المؤن لنحضّر الحلوى؟». قال أورلاندو ليغيّر الموضوع بسرعة.



في صباح اليوم التالي، استيقظت في غرفة شعرت كأ أنني رأيتها من قبل في مسلسل تلفزيوني. كنت قد قضيت الليلة على سرير من النحاس، فكلّما أردت التقلّب إلى جهة، كان يرنّ مثل جرس العيد بسبب مقابضه الأربعة وهيكله المتهالك. حتى المرتبة، كانت متكتلة كما حدّرتني أورلاندو. ورأيت ورق الجدران المقشور في بعض الأماكن والستائر الممزقة خلف النوافذ. وعندما نهضت من السرير، تدلّت ساقي الطويلتان بضع بوصات قبل أن تطأ الأرض الخشبية. وفيما مشيت على رؤوس أصابع قدمي إلى الحمام، وقع نظري على باب المدفأة الحديد، وتمنيت لو كان بإمكانني إشعال النار فيها للقضاء على ذلك البرد. ويا لتلك الأحلام التي راودتني البارحة، كم كانت غريبة!

كنت عادة أنام بسلام طوال الليل، وعندما أستيقظ في صباح اليوم التالي، لا أذكر شيئاً من المكائد التي ينصبها لي عقلي وأنا نائمة. فتذكّرت سيّسي وكوابيسها. أردت إخبارها أنني وصلت سالمة إلى هنا، وعندما تناولت هاتفني لأبعث إليها رسالة نصية، وجدت أن الإرسال شبه منعدم.

نظرت من النافذة، ورأيت أن طبقة رقيقة من الجليد قد تسلّلت عبر الألواح المربعة الصغيرة التي اخترقها بصيص النور في ذلك الصباح الباكر المبشّر ببزوغ فجر يوم خريفي مشرق بامتياز؛ تمامًا مثلما أحب. ارتديت طبقات عدّة من الملابس التي أحضرتها معي ونزلت إلى الطبقة السفلية.

عندما وصلت إلى المطبخ، وجدت أورلاندو المتثائب قد سبقني. كان يرتدي ثوبًا من حرير الپيسلي، ويلفّ حول عنقه وشاحًا من الصوف، وينتعل شبشبًا شنيعًا من الحرير الأزرق الطاووسي.

«ها هي طبّاختنا! أحضرنا لك أنا وروري بعض النقانق ولحم الخنزير المقدّد

من الثلاجة، وبما أنه لدينا الكثير من البيض، ما رأيك بفطور إنكليزي يعدنا ليوم طويل مفعم بالنشاط؟».

«يا لها من فكرة رائعة!». وتشاركنا المهام، فكان على روري مزج الخبز بالبيض الذي قال أنه لم يتناوله من قبل، وقال أنه لذيذ عندما تذوقه.

«إدًا يا صغيري روري، سنصطحب الأنسة ستار هذا الصباح في جولة حول المنزل، أو لنقل حول ما تبقى من المنزل، على أمل ألا يهبط غداء الأحد من السماء على رؤوسنا». أضاف أورلاندو. مكتبة سُر مَن قرأ «ماذا تقصد؟».

«هذا موسم صيد الديوك البرية. سيحضر ماوس زوجًا منها لتمارسي سحرك عليها فنتناولها على الغداء». قال أورلاندو وهو ينهض عن كرسيه. «لذلك، بينما نقوم نحن الرجال بالاستعداد للخروج، لِمَ لا تكتبين قائمة بالأغراض التي ستحتاجين إليها وسأحرص على أن يسلموها لنا من المتجر المحلي. على فكرة...»، توقّف وقال عندما بلغ باب المطبخ، «ما زالت أشجار البستان تثمر، وثمارها تدوسها الأقدام. لذلك إن لم يكن لديك مانع، لِمَ لا نستفيد منها في تحضير فطيرة، القرار لك».

عثرت في الدرج على قصاصة ورق وقلم لباد، فجلست إلى الطاولة لأكتب قائمة بالأغراض التي كنت سأحتاج إليها. ولأنه لم يسبق أن طهوت ديكًا بَرّيًا، بحثت في الأجزاء عن كتاب طهو، وعندما لم أعثر على واحد، قررت ابتكار وصفة.

بعد نصف ساعة، خرجنا نتجول في المنطقة المتجمّدة تحت طبقات من الجليد. قرّر أورلاندو سلوك طريق يوصلنا إلى حدود الملكية، ثمّ إلى ما سمّاه جوهرة التاج في هاي ويلد.

«هكذا يدعى منذ سبعين عامًا». كان روري يقود دراجته أمامنا. وعندما بلغ البوابة، صرخ أورلاندو لكي يتوقّف عند حافة الطريق، لكنّه لم يستجب.

«يا إلهي! لا يستطيع سماعي!». صاح أورلاندو من شدة خوفه عليه، وراح يركض خلفه مثل المجنون. فجأة خطرت في بالي كل المخاطر التي قد يتعرض لها روري عندما يكبر، وحاجته حاليًا إلى البقاء تحت إشراف مستمر. ركضت بدوري

خلفهما إلى أن شعرت بقلبي ينبض بسرعة. فجأة، خرج روري من خلف جدار عسبي على حافة الممر، وهو يتسم بوقاحة.

«مختبئ، لقد نلت منكما!».

«نعم، نلتَ منّا بالفعل أيها الشقيّ». انهال عليه أورلاندو بلغة الإشارة بينما كنّا نستعيد أنفاسنا وتوازننا. «ممنوع عليك ركوب الدراجة على هذا المسار. هناك سيارات».

«أعرف ذلك، أخبرتني ماغ».

ركن أورلاندو دراجة روري خلف البوابة. «والآن، هيا بنا نعبّر الطريق معًا». وقف روري بيننا أنا وأورلاندو فأمسكنا بيديه وتابعنا طريقنا. ذهلت من مناداة روري لأّمه باسم مصغّر؛ يا لها من عائلة بوهيمية بالفعل. فكرت في نفسي فيما كان أورلاندو يقودنا عبر فتحة موجودة داخل السياج النباتي إلى الجانب الآخر من الطريق. هناك رأيت حقولاً لا نهاية لها يحدها سياج نباتي على الجانبين. وراح روري يلتفت يميناً ويساراً مستمتعاً بالمناظر الجميلة. ثمّ تفحص التوت الأسود الذي تأخر في النضوج. بعد ذلك قطفناه معًا وانتهى معظمه في فمه.

«هذا هو مضمار الخيل الذي يحد الأملاك القديمة». شرح لي أورلاندو في أثناء تقدّمنا. «هل تركبين الخيل يا آنسة ستار؟».

«لا، أخاف منها». صارحته وأنا أتذكّر الدرس الوحيد في ركوب الخيل، الذي أخذته مع سيسى، حتى إنني ارتعبت من امتطاء الحصان.

«لست المتدمّرة الوحيدة هنا، أنا أيضًا أخاف ركوب الخيل، على عكس ماوس، فهو فارس ماهر. بطبيعة الحال، هو بارع في كل ما يقوم به. أشعر بحاله من وقت إلى آخر، إن لم يكن عندك مانع. أعتقد أن المرء عندما يكون موهوبًا في كل شيء، فإنّه يوازي من لا يكون موهوبًا في أي شيء، ألا توافقينني رأيي؟ كل شيء ينبغي أن يكون باعتدال، هذا هو شعاري. لأنّ الحياة بارعة في الانقضاء علينا».

عاودنا سيرنا. فرأيت فوق السياج طيورًا صغيرة ترفرف في الهواء النقي المنعش. كنت أستمتع باستنشاق الهواء النقي بعد تلك الأسابيع التي قضيتها في

مدينة الضباب. وعكست الشمس لوناً برونزياً فوق شعر روري، ناسخة لون الأشجار المجيد قبل حلول فصل الشتاء.

«انظرا!»، صرخ روري عندما رأى تراكتوراً أحمر من بعيد. «إنه ماوس».

«ها هو صاحبنا». قال أورلاندو وهو يحدّق إلى الحقول. «لديك عينا صقر يا روري».

«هل أحياه؟». سأل روري وهو يلتفت إلينا.

«دعه وشأنه، فهو لا يحب أن يزعجه أحد عندما يعمل على التراكتور». ثم سمعنا دوي انفجار مفاجئ لبندق قريبة، فأخذ أورلاندو حذره: «لقد بدأ الصيد، يجب أن نعود إلى المنزل وإلا ستبدأ الديوك البرية بالتساقط من حولنا بلمح البصر. لديها عادة فظيعة بطعن أي شيء تحتها، سواء أكان متحرّكاً أم جامداً».

انطلق أورلاندو مسرعاً عائداً أدراجه إلى المنزل.

«إذن أخوك مزارع؟».

«ليس بالضبط. لكن نظراً إلى القيود الأخرى التي تثقل كاهله، وإلى النقص المستمر في الموظّفين بسبب أزمّتنا المالية، يجد نفسه في معظم الأحيان مجبراً على العمل بنفسه في الأرض».

«وهل يملك هذه الأرض؟».

«كلانا يملكها. لأنّ التركة قُسمت في الأربعينيات بين الأخ والأخت. فحصل فرعنا، أي جدّتنا لويز فوربس، على الأرض في هذا الجانب من المنطقة، إضافة إلى بيت المزرعة. بينما ورث عمّنا الأكبر، تيدي فوغان، وهو جد مارغريت، المنزل الرئيسي والحدائق. كما ورث الاثنان النبالة مثل أي إقطاعي. هذه هي إنكلترا يا آنسة ستار».

عندما عبرنا الممر لنعود إلى أسفل الطريق في هاي ويلد، تساءلت أي فرع منهما فاز بالقرعة عند تقسيم التركة، لكن لأنه لم يكن لديّ فكرة عن سعر الأراضي الزراعية مقارنة بسعر الممتلكات المحيطة بهذا المكان، فلم أملك الإجابة.

«روري!». مرّة أخرى، ركض أورلاندو للحاق بقريبه الذي انطلق مسرعًا إلى المنزل ليستعيد دراجته. «هيا نصطحب ستار إلى الحدائق لتراها».

رفع روري إبهامه إلى الأعلى مشيرًا إلى موافقته، ومع ذلك ابتعد مجددًا حتى اختفى في أسفل الطريق المؤدي إلى جانب المنزل.

«يا إلهي، سأكون سعيدًا عندما ينتهي كل هذا. فأنا أرتعب خوفًا من مجرد التفكير في أن هذا الشقي قد يتعرّض لمكروه وهو في عهدتنا. سعيد جدًا لوجودك إلى جانبي يا ستار. لم يكن يسمح لي بالاهتمام به من دونك».

فوجئت بتعليقه فيما كنت أتبعه إلى جهة المنزل الخلفية. ثمّ أطللنا على شرفة واسعة مبلّطة، ولدى رؤيتي الحديقة الشاسعة المسوّرة أسفلها التقطت أنفاسي.

بدا لي أنني كنت أخطّ في قلعة الأميرة النائمة، وكان عليّ الآن أن أشقّ طريقي عبر غابة شوك وأعشاب ضخمة، تحيط بها. بعد ذلك، نزلنا السلاالم وسرنا عبر متاهة ما كان حتمًا ذات يوم شجيرات مذهلة. ورأيت الهياكل الخشبية لعرائش تسلّقها ذات يوم ورود رائعة. أمّا الحدود وأسرة الزهور فكانت ما تزال تحتفظ بنمطها الأصلي، مع أنها لم تبدّ قادرة على احتواء النباتات والشجيرات التي خرجت عن حدودها، والتي غطّت أحشاؤها الجافة البنية مختلف الممرات.

توقفت لأنظر إلى شجرة الطقسوس القديمة والمهيبة التي فرضت سيطرتها على الحديقة، ورأيت جذورها المحددة تخترق الممرات الحجرية المحيطة بها. وعكس كل ذلك جوًّا كثيبًا من الرومانسية في أرجاء البرية. وفكرت في أرجحية إنقاذ تلك العيّنات التي تمكّنت من النجاة، على الرغم من الإهمال الذي لحقها.

ثمّ أغمضت عينيّ واستحضرت صورة للحديقة وهي مليئة بالورود والمغنوليا والكاميليا، وبخطوط مستقيمة لسياجات خشبية تفسح المجال لأزهار السيانوسيس الزرقاء... أن تحيي الزوايا والأركان وتمدّها بالروعة والفخامة...

«هل يمكنك تصوّر كم كانت رائعة ذات يوم». قال أورلاندو كأنه قرأ أفكاره.

«آه نعم، أرى ذلك بوضوح». ورأيت روري يتعرّج عبر المسارات التي اكتست بالعشب، ويناور بدراجته حول النباتات المتدلية مثل راكب دراجة هوائية محترف يؤدي اختبار الكفاءة.

«يجب أن آخذك في ما بعد إلى الخيم الزراعية التي بناها جدّي الأكبر ليزرع فيها عينات أتى بها من جميع أنحاء العالم. لكن الآن، هل يمكن أن تجهزي الغداء بسرعة؟ أما بالنسبة إلى عشاء الليلة، فقد طلبت لحم فيليه. المتجر في مزرعة لحوم البقر هو أفضل متجر في المنطقة». تتأب أورلاندو بشدة، ثمّ قال: «يا إلهي! لقد أرهقني المشي. الحمد لله أنني أعيش في المدينة. وهل يوجد ما يمكن فعله هناك غير المشي. فإن لم نمشٍ نشعر على الفور بالذنب».

بعد انتهائنا من تناول الغداء، نهض أورلاندو عن الطاولة، قائلاً: «أتمنى أن تعذريني لأنني سأخذ قيلولة. أنا واثق من أنكما ستدبران أمركما معاً في غيابي». «أحببت طبخك يا ستار». قال روري بلغة الإشارة بعد أن غادر عمّه. «شكراً لك. هل تساعدني في غسل الصحون؟». قلت له وأنا أشير إلى الحوض. عبس روري في وجهي.

«إذا ساعدتني، سأعلّمك كيف نعدّ كعكة الشوكولاتة. فهي لذيذة». وبدأنا في تحضير كعكة الشوكولاتة. عندما انتهينا، سمحت لروري أن يلحق الوعاء، وإذ بالباب الخلفي يفتح، وسمعت وقع أقدام ثقيلة آتية من الخارج. اعتقدت أولاً أنهم جاؤوا من متجر المزرعة باللحوم، لكن عندما استدرت، رأيت فأر المجاري يدخل عبر الباب. تفاجأت به أنا وروري فيما نظرنا إليه بذهول. «مرحباً».

«مرحباً». قلت له.

«روري». أوماً للصبي الذي لوّح له بيده على الرغم من أن تركيزه كان ما يزال مع ما تبقى من خليط الشوكولاتة. «هناك رائحة زكية». «إننا نعدّ كعكة الشوكولاتة».

«إذا أنا واثق من أن روري في النعيم».

«هل أعدّ لك شيئاً؟ كوب شاي مثلاً؟». تمتمت وأنا أشعر بالعصبية لمجرد وجوده حولي.

«فقط إذا كنت ستتناولين واحداً».

«بالتأكيد». وشغلت الغلاية، ثم نظرت إلى روري وقلت له: «روري، دعني أمسح الشوكولاتة عن وجهك». أخذت قطعة من القماش ومسحت فمه بها، وقف فأر المجاري من دون أن يتحرك وهو يحدّق إلينا من دون أن يحرك بؤبؤا عينيه.

«ستار، هل تسمحين لي بمشاهدة سوبرمان؟».

«هل يسمح له بمشاهدة فيلم؟». سألت فأر المجاري.

«لَمْ لا؟ سأشغله لك يا روري».

عندما عاد فأر المجاري إلى المطبخ، كان الشاي قد بدأ يتخمر فوق الطاولة داخل وعاء خزفي كبير.

«الجو بارد جدًا في غرفة الرسم لذلك أشعلت النار. شكرًا على الشاي». قال وهو يجلس، وهو ما يزال في سترته الباربور. «أفترض أن أورلاندو يأخذ قيلولته، أعرف أخي، فهو لا يغيّر عاداته».

ورأيت بريق ابتسامة حنونة ترسم على ملامحه، ولكن سرعان ما اختفت قبل أن تبلغ ذروتها.

«أجل».

«في الواقع، لم آت لرؤية أورلاندو، بل لأتحدث إليك. أريد أولًا أن أشكرك على مجيئك في عطلة نهاية الأسبوع إلى هنا. فقد أنقذتني من أداء دور جليسة الأطفال إذ كان عليّ الخروج للصيد».

«لكنني واثقة من أن أورلاندو قادر على التعامل مع الأمر من دوني».

«لم تكن مارغريت لتسمح بذلك».

«لَمْ لا؟».

«ألم يخبرك؟ عدا عن أنه مصاب بالربو، فإن أورلاندو يعاني بشدة داء الصرع منذ أن كان مراهقًا. وهو ما يزال تحت المراقبة، لذلك لا تشعر مارغريت بالارتياح لبقاء روري وحده مع أورلاندو، فالصغير لا يقدر على الحديث عبر الهاتف. صحيح أنه يتعلّم كتابة الرسائل النصية، لكنك أصبحت تعرفين وضع الإرسال في هاي ويلد، ليس في مقدورنا استخدامه كثيرًا».

«لم أكن أعرف». قلت له وأنا أنهض لأتفقد كعكة الشوكولاتة في الموقد، ولأخفي صدمتي. «إذاً هذه أخبار جيّدة، تعني أن أورلاندو يأخذ دواءه كما وصفه له الطبيب. بما أنّك تعملين إلى جانبه، شعرت بضرورة إخبارك في حال تعرّضه لنوبة، علماً أن أورلاندو يُحرج كثيراً لوضعه. خلاصة القول إنّهُ في حال تعرّض لنوبة يجب إسعافه على الفور، وإلا سيموت. كدنا نفقده في مناسبات عدّة عندما كان أصغر سنّاً. أمّا بالنسبة إلى الأمر الآخر...».

توقّف لحظةً عن الكلام، فحبست أنفاسي بانتظار ما كان سيقوله.
«أردت أن أعتذر إليك على قلة أدبي آخر مرّة كنت فيها هنا. كان بالي مشغولاً في أمور أخرى».
«لا عليك، انتهى الأمر».

«لا، لم ينتهِ. أنا واثق من أنّك استخلصت من تلقاء نفسك بأنني لست شخصاً لطيفاً».

من بين كل الأعداء التي سمعتها في حياتي، والتي تنم عن الأنانية والشفقة على الذات، فقد فاقها هذا قُبْحاً. فشعرت بالغضب يملؤني، وكأن حرارة نار الموقد سرت في جسدي.

«في أي حال أحضرت لك هذه. إنّها نسختي المختصرة عن يوميات فلورا ماك نيكول التي كتبتها بين سن العاشرة والعشرين».

«شكراً لك». تمكنت في النهاية من الإجابة، وأنا أنظر إلى كعكة الشوكولاتة في الموقد.

«حسنّاً، سأدعك بسلام». وسمعت خطاه فوق بلاط المطبخ تتقدّم باتجاه الباب، ثمّ توقّف. «لديّ سؤال آخر...».
«تفضّل».

«هل أحضرت معك تمثال الحيوان؟ أودّ أن أراه».
لعلّها ردّة فعلي كانت طفولية، لكنّ أسلوبه المستفزّ أثار غضبي. «أنا... لست متأكّدة. عليّ أن أبحث بين أغراضي».

«حسنًا، سأعود غدًا. أود أن أخبرك، غداء يوم الأحد سيكون في الردهة الكبيرة. والآن وداعًا».

شربت كوبين من الماء لأطفئ نار الغضب التي اشتعلت في داخلي من ذاك الضيف الثقيل، ولأشعر بالانتعاش، وأنا أتجاهل كومة الأوراق التي وضعها أمامي على الطاولة، رحت أنظر إلى الردهة، فرأيت زوجًا من الديوك البرية، وبجانبيها صندوقًا فيه فاكهة وخضروات طازجة. أخجل من الاعتراف بأن اقتلاع ريش الديك البري بوحشية وتمزيقه وقطع رأسه وأرجله وجناحيه قد استنزف كل طاقتي. لكن عندما انتهيت، جلست إلى الطاولة، وأنا أشعر بإرهاق شديد وأتساءل لِمَ كان يثير ذاك الشخص الذي لا يعني لي شيئًا البتة غضبي في العمق ويصيني بالإحباط. ثم عبثت بالمخطوطة أمامي. وأصبت بالاشمئزاز لمجرد التفكير أن يديه قد لمست صفحاتها. لكنّها الدليل المحتمل في الوقت الحاضر على الماضي الذي أبحث عنه. ومهما كان شعوري تجاه الناسخ، فلديّ سبب أسمى قادني منذ البداية إلى هاي ويلد.

بحثت عن طبق أضع فيه ثلاث قطع من كعكة الشوكولاتة، ودسست المخطوطة تحت إبطي، ودخلت أبحث عن روري فوجدته ملتصقًا بشاشة التلفزيون، يشاهد كريستوفر ريفّ يحلّق في الفضاء.

ربت على كتفه لأجذب انتباهه إليّ، ثمّ أشرت إلى طبق كعكة الشوكولاتة. «شكرًا لك!».

رأيته وهو يأخذ حاجته من الصحن قبل أن يستأنف مشاهدة الفيلم. وبعد أن تأكدت من أنّه يستمتع بوقته، أشعلت النار وجلست على أريكة ذات ذراعين بجانب الموقد، ووضعت المخطوطة على ركبتيّ، وبدأت في القراءة.

فلورا

اِستوائِيّة هَوَل، منطَقَة البَحِيرَات

نيسان 1909

9

ركضت فلورا روز ماك نيكول على العشب بأقصى سرعة تاركَةً طرف تنورتها يتبلل برطوبة الصباح مثل الورق النشّاف وهو طازج. كان النور الخافت عند الفجر يومض على سطح البحيرة ويلمع فوق طبقة الجليد الذي تشكّل بسبب تدنّي الحرارة ليلاً. «سأصل إلى هناك في الوقت المحدّد»، قالت في نفسها وهي تدنو من البحيرة وتنحرف إلى اليمين، وحذاؤها غير المريح ذو الأزرار السوداء يكاد يطأ تربة لايكلانند الوعرة عند التلال المألوفة، متجاهلةً حالة العشب الطري وغير مكترثة بخدمات البستاني المستمرة.

بلغت الصخرة عند حافة المياه في الوقت المناسب. لا أحد يعرف كيف وصلت تلك الصخرة إلى هناك، أو سبب وجودها في ذلك المكان. كانت يتيمة بعد انفصالها من باقي الصخور التي تعمّر المناطق المحيطة بالمنحدرات والوديان. وبدت مثل تفاحة ضخمة مقضومة عند طرفها، وقد شكّلت ملاذاً لأجيال من عائلة ماك نيكول الذين كانوا يقصدونها لمراقبة شروق الشمس في الجانب الآخر من البحيرة.

ما إن جلست هناك، حتى بدأت أولى أشعة الشمس تشع في السماء الزرقاء الرطبة. وطارَت قَبْرة في تزامن رائع مع انعكاسها على البحيرة، ورسمت ظللاً فضية. تنهّدت فلورا مسرورةً وهي تستنشق الهواء. أخيراً، ها قد حلّ فصل الربيع. على الرغم من ذلك، استاءت من نفسها لخروجها على عجلة من دون دفتر الرسم وعلبة الألوان المائية التي كانت ستسمح لها بتسجيل اللحظة في صورة

خالدة. واكتفت بمشاهدة شروق الشمس وهي تتحرّر من قيود الأفق وتسلّط ضوءها على القمم المغطاة بالثلوج، غامرةً الوادي تحتها بشعاع ذهبي لطيف. ثمّ تذكّرت فلورا أنّها نسيت شالها فنهضت وأسنانها تصطك من شدة البرد. فجأةً شعرت بوخر طفيف يحرق بشرة وجهها الرقيقة، كأنه سهم أُطلق من قوس سماوي. فنظرت إلى أعلى، ورأت الثلج يتساقط من جديد.

«بالطبع حلّ الربيع!». فكّرت بسخرية، ثمّ استدارت لتعود إلى أعلى التلّ باتجاه المنزل. كان عليها أن تغيّر تنوّرتها وحذاءها المبلل قبل أن تنضمّ إلى عائلتها لتناول طعام الفطور. لقد طال هذا الشتاء أكثر من أي موسم مرّ. وأمّلت أن تصبح الرياح التي تتسبب بسقوط الثلج عمّا قريب من الماضي ليتمكّن الإنسان والحيوان والطبيعة من الخروج من سباتهم العميق، وليعود عالمها للنفض بالحياة والامتلاء بالحيوية والألوان التي تتوق إليها.

خلال أشهر الشتاء، عندما تقصر الأيام وتشتد الظلمة، كانت تكتفي بالجلوس عند نافذة من نوافذ غرفتها حيث يتوفّر لها القليل من الضوء، وتمسك بقلم الفحم لترسم المناظر الطبيعية. غالبًا ما اعتقدت أن لو كان عليها أن ترسم الطبيعة في الخارج، فلن تحتاج إلّا إلى لونين؛ الأبيض والأسود. وهذا ما أثبتته جلسة التصوير الفوتوغرافي الأخيرة التي خضعت لها هي وأختها أوريليا بإصرار أمّها. ففي رأيها، كانت الصور تعكس نسخًا طبق الأصل عن الواقع، لكن بروح مملّة.

أوريليا... الجميلة أوريليا، الشقراء... كانت أختها تذكّرها بدمية خزفية قدّمت إليها ذات مرّة هديّة في عيد الميلاد. كانت عيناها الزرقاوان واسعتين تحيط بهما رموش داكنة، وتتوسطان وجهًا رائع الجمال.

تمتعت فلورا وهي مسرورة بوصفها المناسب لمظهرهما المتعارض: «الخوخ والقشدة بجانب العصيدة». وتذكّرت جلسة التصوير الفوتوغرافي في ذلك الصباح الذي ارتدت فيه هي وأختها أفضل ما عندهما من ملابس، فأظهر انعكاسهما في المرآة الذهبية، أن كل شيء في أوريليا كان ناعمًا، وأنّ ملامحها كانت مستديرة مقارنة بوجهها هي وجسمها الحاد المنحوت بشدة. كانت أختها بطبيعتها أنثى، من أخمص قدميها الصغيرتين إلى أطراف أصابعها الرقيقة، كما أنّها كانت تشع باللطف.

على الرغم من تناولها المستمر للعصيدة بالكريما، عجزت فلورا عن الحصول على منحنيات أوريليا الملائكية التي ورثتها عن أمها. وعندما عبّرت عن رأيها في الموضوع، وكزتها أوريليا بلطافة بطرف إصبعها.

«عزيزتي فلورا، كم مرة يجب أن أكرر لك أنك جميلة؟».

«أستطيع أن أرى نفسي في المرأة. ميزتي الوحيدة هي عيناى وهما ليستا كافيتين للفت الانتباه».

«بالطبع، إنهما مثل منارة من الياقوت، تسطعان وسط السماء الحالكة». قالت أوريليا، وعانقتها.

على الرغم من لطف أوريليا، فإنها لم تشعر يومًا بالانتماء؛ فوالدها كان ذا شعر ذهبي أحمر وبشرة شاحبة ورثها من أسلافه الاسكتلنديين. أمّا أختها فقد ورثت جمالها من أمها الشقراء. أما هي فتتميز بأنفها «الجرماني»، كما يصفه والدها بنبرة قاسية، وببشرتها الشاحبة وشعرها الداكن الكثيف الذي يأبى الانضباط في عقدة شينيون أنيقة.

توقّفت برهة عند سماعها نداء وقواق خافت كان يصدح من بعيد من أعلى شجرة بلوط غرب البحيرة، وابتسمت ساخرة. «وقواق في عشّه، هذا ما أنا عليه».

تابعت مشيها بخطى بطيئة فوق العشب الخشن حتى بلغت السلالم الحجرية القديمة المؤدّية إلى شرفة منزلها. كانت ألواحها الثقيلة تشبه بلاط القبور التي تتغطّى في الشتاء بالطحالب وأوراق الشجر. وعندما نظرت إلى أعلى، رأت المنزل بنوافذه الكثيرة، وهي تلمع تحت أشعة شمس الصباح الشاحبة. كان أندرو ماك نيكول، جدّها الأكبر، هو من بنى إستويت هول قبل مئة وخمسين عامًا. حينها لم يطمح إلى أن يكون لديه قيمة جمالية بقدر ما أراد أن يكون درعًا لسكانه في فصول الشتاء القاسية في لايكيلاند؛ كانت جدرانها القوية مصنوعة من الصخور الخام المستخرجة من الجبال المحيطة، وكان بناءً صارمًا باللون الرمادي الداكن، سطوحه منخفضة ودفاعية، وحوافه حادة ومانعة. كما أنّه كان يلوح في الأفق فوق مياه إستويت، ثابتًا لا يتحرّك وسط مناظر البرية الطبيعية.

تجولت فلورا حول المنزل قليلاً قبل أن تدخل من باب المطبخ، حيث أودع عامل التوصيل بقالة الأسبوع. في الداخل وجدت الطاهية، السيدة هيليك، ومساعدتها تيلي تعدان طعام الفطور.

«صباح الخير يا آنسة فلورا. أفترض أن حذاءك قد تبلل من جديد». قالت السيدة هيليك، وهي تنظر إليها وتلاحظ أنها فكّت رباطه.

«نعم. هل يمكنك وضعه قرب الموقد ليجف؟».

«بالطبع إذا لم يكن لديك مانع في أن يتعشّق رائحته سمك السلمون الذي سيتناوله والدك على الفطور». أجابتها الطاهية وهي تقطّع حلوى بودينغ بالشوكولاتة إلى قطع سميكة داخل مقلاة.

«شكراً لك. سأتي في ما بعد لاستعادته»، قالت فلورا وهي تناولها الحذاء.

«لو كنت مكانك لطلبت إلى والدتي زوج حذاء جديد، يا آنسة فلورا. لأنّ هذا قد رث حتى النعال». ثرثرت السيدة هيليك وهي تمسك بالحذاء من رباطه وتعلقه حتى يجف.

غادرت فلورا المطبخ، وهي تفكر كم أن فكرة الحصول على حذاء جديد كانت رائعة. لكن على الرغم من روعتها، كانت تعرف جيداً أنها لن تستطيع طلب ذلك. وبينما كانت تشق طريقها على طول الممر المظلم، تغلغلت رائحة عفن قوية إلى داخل أنفها. فكما لم يكن هناك مال لشراء حذاء جديد، لم يكن هناك مال لإصلاح تلك الرطوبة التي بدأت تتسرب عبر الأحجار السميكة إلى الداخل وتتلف ورق الجدران الصيني البالغ من العمر مئة عام، والذي عكس تمرّداً للزهور والفراشات التي تزيّن جدران غرفة أمها.

كان آل ماك نيكول ينتمون إلى طبقة النبلاء الفقراء، وهي عبارة سمعتها من همس الزبائن أثناء انتظار دورها في متجر للقرية بالقرب من ساوري. لهذا السبب لم تتفاجأ في العام الماضي عندما أخبرتها والدتها روز، أنهم لا يملكون ما يكفي من النقود لتذهب إلى لندن وتشارك في عرض البلاط الملكي.

«تفهمين الوضع، أليس كذلك يا عزيزتي فلورا؟».

«بالطبع أفهم يا أمي».

في سرّها، شعرت فلورا بسعادة غامرة لأنّها تجنّبت مشقة الاستعداد لذلك الحدث، سواء بالتعطّر وارتداء ملابس للدمى طوال الموسم. كما أنّها كانت تقشّعر من مجرد التفكير في أنّها ستضطرّ إلى مصاحبة فتيات سخيقات لا يدركن ولو قليلاً طبيعة ذلك الحدث الذي اعتبرته مزاداً علنياً لبيع الماشية، ستنتهي فيه أجمل عجلة مع الذكر الذي يقدّم أعلى سعر فيها. بمعنى آخر، أي على الصعيد الإنساني، إن أجمل فتاة بين المعروضات ستنتهي بالارتباط بابن دوق سيرث تركة كبيرة عند وفاة والده.

علاوة على ذلك، كانت فلورا تكره لندن. ففي المناسبات النادرة التي رافقت والدتها لزيارة الخالة شارلوت في منزلها الأبيض في مايفير، كانت الشوارع المزدهمة ووقع حوافر الخيول غير المنقطع على الأسفلت واختلاطه بهدير السيارات التي باتت رائجة في ذلك الوقت، حتى في منطقة البحيرات، الأحب إلى قلبها؛ كل ذلك كان يشعرها بالإرهاق.

مع ذلك، كانت فلورا تدرك أيضاً أنّها إذا لم تشارك في ذلك العرض مع الفتيات الأخريات، فإنّ حظوظها ستتضاءل في العثور على زوج مناسب من مكانة راقية. «ربّما سأموت وأنا عجوز عزباء». تمتمت فلورا لنفسها، وهي تصعد الدرج الماهوغي العريض، وتسرع إلى غرفتها قبل أن ترى والدتها تنوّرتها الممرّغة بالطين. «كأنني أهتمّ لذلك». قالت بكبرياء وهي تدخل غرفتها وسط أزواج عدّة من العيون الصغيرة التي راحت تحدّق إليها من أقفاصها.

«ستبقين معي إلى الأبد، أليس كذلك؟». قالت وهي تخفت صوتها، وتسير نحو القفص الأول لتسحب قبضة بابه وتطلق سراح پوزي، الأرنب الرمادي الكبير الذي قفز بين ذراعيها. كانت فلورا قد أنقذت پوزي من فم أحد كلاب صيد والدها. كان الوحيد الذي عاش عمراً طويلاً من حديقة حيواناتها. احتضنت فلورا پوزي فوق ركبتها، وبدأت تداعب أذنيه الطويلتين الحريريّتين. كانت أذنه اليسرى قد فقدت طرفها قبل أن تنجح في سحبها من فكّي كلب الصيد. بعد ذلك تركت پوزي يقفز فوق الأرض، والتفتت إلى باقي الرفاق. كان بينهم زغبتان وضفدع اسمه هوراس، كان يعيش في حوض متنقّل، وألبرت الفأر الأبيض الأنيق، الذي ورثته من ابن

السائس، وسمّته باسم زوج الملكة فيكتوريا. ولدى رؤيتها لذلك المنظر، أصيبت والدتها بالرعب.

«حقًا يا فلورا! ليس لديّ أي نيّة بتجاهل شغفك تجاه الحيوانات، لكن لن أقبل أن تجلبي الحشرات بملء إرادتك لتنام معك في الغرفة!».

مع ذلك، لم تشأ روز فضح سرّ ابنتها أمام زوجها أليستير. لذلك لم تخبره شيئًا عن ألبرت. لكنها وضعت لفلورا حدًا عندما أرادت اقتناء ثعبان عشبي، كانت قد عثرت عليه في الغابة. عندما رآته روز تردّد صدى صراخها في فضاء غرفة الرسم، ما اضطرّ سارة، الخادمة المسؤولة عن الطبقة العلوية، إلى الإسراع لإحضار أملاح عطرة.

«لقد أصبّتنا بالذعر بسبب هذا المخلوق!». قالت سارة وهي توبّخ فلورا. كانت لهجتها المحليّة الثقيلة أكثر بروزًا في أثناء التوبيخ. في ما بعد أعيد ثعبان العشب إلى مكانه الطبيعي.

خلعت فلورا ملابسها وبقيت في سروالها الداخلي، ثمّ انهمكت في تقديم وجبات الفطور إلى حيواناتها؛ فسكبت كومة صغيرة من البندق ومن بذور عباد الشمس في أوعية متفرّقة، وأضافت التبن وأوراق الملفوف لپوزي. ووضعت للضفدع هوراس حفنة من الديدان التي يستخدمها والدها طعمًا في الصيد. في ما بعد ارتدت بلوزة نظيفة من الپوپلين التي وصلت أضرارها إلى رقبتها، مع تنورة زرقاء مزينة بالورود، ونظرت إلى نفسها في المرآة. كان قماش ملابسها اليومية، هي وأختها، قد أصبح باهتًا إلى حدٍ بعيد، وبالكاد يتناسب وأحدث طرازات الخياطة الراقية. لكن، على الرغم من ذلك، كانت قصّات ملابسهما أنيقة بإصرار من والدتها.

ثمّ عدّلت ياقتها الضيقة، وهي ما تزال تراقب ملامحها في المرآة. «كم أشبه سيبيل»، تمتعت إلى نفسها وهي تتذكر الدودة التي بقيت طوال عام تقريبًا في القفص قبل أن ينتقل هوراس للعيش فيه. وكم كانت سعيدة عندما عرفت أن العزيزة سيبيل قد أنجبت. ولم تتمكن من ملاحظة نسلها قبل أن تكتمل مرحلة نموها واندماجها بشكل رائع مع بيئتها.

مخلوقات أشباح... تمامًا مثلها: «يعرفون كيف يبقون غير مرئيين».

ثم دَسَتْ خصلة متفلّنة داخل لفافة شعرها عند مؤخرة رقبتها، وأعدتْ فوزي إلى قفصه، وخرجت لتضمّ إلى عائلتها لتناول طعام الفطور.

وعندما دخلت غرفة الطعام القاتمة، كان والداها وأختها يجلسون جميعًا إلى طاولة الماهوغني القديمة. ما إن انضمت إليهم، حتى انبعثت طاقة استياء من خلف صحيفة «التايمز».

«صباح الخير يا فلورا. يسرّني أنّك قرّرت أخيرًا الانضمام إلينا». على الفور وقع نظر والدّة فلورا على قدميها العاريّتين، فراحت تدقّق في حالة جواربها، ما تسبّب في تقوُّس حاجبيها إلى أعلى جبينها لكنّها لم تقل شيئًا. «هل نمت جيدًا يا عزيزتي؟».

«نعم، شكرًا يا أمي». أجابت فلورا. في هذه الأثناء، كانت سارة قد سكبت وعاءً من العصيدة ووضعتّه أمام فلورا. ولأنّ سارة هي من كانت تعتني بالفتيات منذ طفولتهنّ، كانت تعرف أن مجرد فوحان رائحة اللحم المطبوخ قادر على قلب معدة فلورا. فبعد سنوات طويلة من الرفض والمجادلة، انتهى الأمر بتقبّلهم الأمر، واستبدلهم وجبة الفطور المعتادة التي تتألف من سمك السلمون، وحلوى الپودينغ السوداء، والنقانق التي تتناولها باقي أفراد الأسرة، بالعصيدة. كانت فلورا قد أخذت عهدًا على نفسها، أنها عندما ستتزوَّج وتدير منزلها بنفسها، لن تقدّم أي حيوان في طبق على مائدتها.

«أوريليا عزيزتي، تبدين شاحبة. هل أنت بخير؟».

رمشت عينا روز وهي تنظر إلى ابنتها بقلق. «أنا بخير، شكرًا لك»، أجابت أوريليا قبل أن ترفع شوكة صغيرة من النقانق وتضعها في فمها وتقمضها بلطف. «يجب أن ترتاحي قدر المستطاع في الأسابيع القليلة المقبلة. فالموسم قد يكون متعبًا وقد تعافيت لتوك من برد الشتاء اللعين».

«نعم يا أمي». أجابت أوريليا التي تواجه قلق والدتها عليها بكثير من الصبر.

«أرى أن أوريليا متورّدة اليوم». قالت فلورا. فابتسمت أوريليا ممتنة.

كانت أوريليا تعاني باستمرار المرض منذ طفولتها. لذلك عاملها والداها وجميع

العاملين في المنزل مثل دمية خزفية تشبهها إلى حد بعيد، خصوصًا في الأيام الأخيرة، لأنهم كانوا عاجزين عن تحمّل تكلفة علاجها. كانت والدتها قد أعلنت قبل شهر عن ذهاب أوريليا إلى لندن للمشاركة في عرض البلاط الملكي أمام الملك والملكة، على أمل أن تلفت رجلًا ثريًا من عائلة نبيلة أخرى ليصاهروها. كانت تعتقد أن مزاجها اللطيف وجمالها الفائق سيعوّضان عن ندرة الأموال في أسرهم. وعلى الرغم من أن فلورا لم ترغب في المشاركة في موسم العرض، لكنها شعرت بالإهانة كون الخالة شارلوت، وهي أخت والدتها روز، قد اختارت أوريليا لتغطّي تكلفة دخولها البلاط الملكي، ولم تخترها هي، ابنة أختها الكبرى.

استمرّ الفطور وسط الصمت المعتاد الذي فرضه أليستير عليهنّ، إذ لم يكن يرحّب بالثرثرة الفارغة على المائدة كونها تشتّت تركيزه في أثناء اطلاعه على أحداث العالم. نظرت فلورا إلى والدها من تحت رموشها الطويلة، وكل ما استطاعت رؤيته من أعلى جريدته، كان صلعته التي تشبه تربيع القمر، والخصلات الرمادية التي نبتت عند صدغيه داخل شعره الأحمر. وراحت تفكّر في علامات العمر التي بدأت تظهر عليه منذ حرب البوير. كان أليستير قد أصيب بطلق ناري في تلك الحرب، ولحسن الحظّ تمكّن الجراحون من إنقاذ ساقه اليمنى، لكنه أصبح يعرج ويمسك عصا في أثناء مشيه. لكنّ الأثر الفظيع الذي تركته تلك الإصابة هو تألمه حين ركوب الخيل في رحلات الصيد المحلية، بعدما قضى حياته متنقلاً على ظهر الخيول برتبة ضابط في سلاح الفرسان.

وعلى الرغم من أنّهم عاشوا جميعًا تحت سقف واحد طوال تسع عشرة سنة، فإنّ فلورا لا تذكر أنّها أجرت أكثر من محادثة أو اثنتين مع والدها، من باب الأدب فقط. إذ كان أليستير يبعث زوجته لتنقل إلى ابنته أي رغبة لديه أو استياء. وللمرة المئة، تساءلت فلورا عن السبب الذي جعل أمها تقبل به زوجًا؛ فجمال روز وذاكاؤها واسم عائلتها، جعل منها بالتأكيد فتاة مشرّفة لأيّ زوج آخر. لا بدّ من أنّها حظيت في شبابها بكثير من المعجبين الذين تقدّموا إليها.

لذلك افترضت فلورا أن يكون لدى والدها شيء لم تعثر عليه في أي متقدّم

آخر. طوى أليستير جريدته بدقة متناهية مشيرًا إلى انتهاء وقت الفطور. فأومأت روز إلى الفتاتين لكي تغادرا المائدة. عندئذٍ سحبت فلورا وأوريليا كرسيهما إلى الورا ونهضتا.

«تذكر أن عائلة فوغان ستأتي بعد ظهر الغد لتناول الشاي عندنا، لذلك عليكما الاستحمام الليلة. هلاً تساعدنيهما في ذلك قبل العشاء، يا سارة؟».

«نعم سيدتي». أجابت سارة، وهي تحني رأسها.

«أوريليا، عليك أن ترتدي فستان الموسلين الوردي».

«شكرًا يا أمي». أجابت أوريليا في أثناء مغادرتها غرفة الطعام.

قالت أوريليا لفلورا أثناء عبورهما القاعة:

«إليزابيث ابنة آل فوغان ستشارك معي في عرض البلاط الملكي أول مرة». وتردد صدى وقع قدميها ليبدو الصمت الذي كان يخيم في الممر، فيما وطأت قدمي فلورا المغطاة بالجوارب ألواح الجرانيت المتجمدة، كأنها تطأ وسادة. «تقول أمي إننا زرناهم في كنت عندما كنا صغارًا، لكنني لا أتذكر تلك الزيارة. وأنت؟».

«نعم أتذكرها لسوء الحظ»، قالت فلورا وهما تصعدان السلالم. «كما أذكر ابنيهما آرشي الذي كان في السادسة من العمر آنذاك لأنه يكبرني بسنتين، وقد رشقني بتفاح حامض في أثناء وجودنا في بستانهم، فغطت الكدمات جسدي كله. إنه أسوأ فتى قابلته في حياتي».

«لا بد من أنه نضج الآن»، قالت أوريليا ساخرة. «أفترض أنه في الحادية والعشرين من العمر إذا كنت أنت في التاسعة عشر».

«سنرى، إذا قرّر رمي غداً بتفاحاته المهترئة، فسأردّ عليه هذه المزة بالحجارة».

«من فضلك لا تفعلي»، قالت أوريليا وهي تضحك. «فالسيدة فوغان هي أقدم صديقة لأمنا، وكما تعرفين فإنّ أمنا تعشقها. حسنًا، أنا مسرورة لأنني سأتعرف إلى فتاة ذاهبة مثلي إلى لندن. أمل أن تعجب بي لأنني واثقة من أن فتيات الجنوب أكثر رقيًا منّا، وعند مقارنة نفسي بهنّ، سأشعر بأنني فلاحه من الريف».

«أنا واثقة من أنّهن لن ينظرن إليك على ذلك النحو عندما ترتدين ملابسك

الراقية وتكونين في كامل أناقتك». فتحت فلورا باب غرفتها، وتبعتها أوريليا إلى الداخل. «أنا واثقة من أنك ستكونين نجمة هذا الموسم يا أوريليا، أنا متأكدة من ذلك. على الرغم من أنني لا أحسبك». أضافت وهي تعبر الغرفة لتفتح قفص پوزي وتسمح للأرنب بأن يركض بحرية.

فأجابتها أوريليا وهي تجلس على حافة السرير: «هل أنت واثقة يا فلورا؟ على الرغم من احتجاجاتك لكي لا تذهبي، لكنني أشعر بالقلق من أن تكوني مستاءة. ففي النهاية، ليس عدلاً أن أكون أول من يحظى بفرصة العرض في البلاط الملكي، وأنت لما تشاركي بعد في أي موسم».

«وماذا ستفعل حيواناتي من دوني؟».

«أنت محقة. مع أنني لا يسعني الانتظار حتى أنظر إلى وجه زوجك المستقبلي عندما ستصيرين عليه مشاركة غرفتكما الزوجية مع حيواناتك!». قالت أوريليا وهي تحمل پوزي بين ذراعيها.

«إذا أساء التصرف، سأفلت عليه الفأر ألبرت».

«وهل يمكنني استعارته إذا لزمني يوماً؟».

«بكل سرور»، عبست فلورا. «كلانا نعرف يا أوريليا أن الهدف من الذهاب إلى ذلك الموسم هو للعثور على زوج لك. لكن هل تريدان حقاً الزواج؟».

«كي أكون صديقة معك، لست واثقة من الشق المتعلق بالزواج، لكنني أرغب في الوقوع في الحب، أجل. أليس هذا حلم كل فتاة؟».

«هل تعرفين أنني بدأت أقتنع بأن حياة العانس تناسبني أكثر. فأنا أفضل العيش في كوخ وأنا محاطة بالحيوانات، لأنهم يحبونني من دون قيد أو شرط. كما أن حبهم يبدو لي أكثر أماناً من حب الرجل».

«لكن ألا تعتقدين أن الأمر مملٌ قليلاً؟».

«ربما أنت على حق، حينئذٍ سأكون أنا المملة». ووضعت فلورا الزغبتان مایسي وإثيل في راحة كفيها الأول، فالتفتا حول رأسيهما فرحتين بذيلهما الكثيف، وباليدين الأخرى سحبت قفصهما.

«يا إلهي فلورا، متى ستتوقفين عن الحطّ من قدر نفسك؟ لقد كنت متفوّقة في المدرسة دائماً، كما أنّك تتقنين اللغة الفرنسية، وترسمين وتلوّنين مثل الحلم. أنت كاملة الأوصاف مقارنة بغباثي».

«الآن من التي تحطّ من قدر نفسها؟»، سخرت فلورا. «علاوة على ذلك، كلانا يعرف أن الجمال صفة ثمينة عند المرأة. وحدها الفتاة الجميلة والمسلية تتزوّج، وليس من هي مثل كيس عظام عجوز مثلي».

«هل تعرفين، سأفتقدك بشدة عندما أتزوّج. ربّما ترافقينني إلى منزلي الجديد، لأنني حقّاً لا أعرف ماذا سأفعل من دونك. والآن، يجب أن أنزل إلى الطبقة السفلية». قالت أوريليا وهي تفلت پوزي لكي يقفز إلى الأرض. «أمي ترغب في التحدّث معي عن برنامج ذهابي إلى لندن».

عندما غادرت أوريليا الغرفة، تخيلت فلورا نفسها وهي تتجوّل داخل منزل أختها المستقبلي، مثل الخالة العزباء التي تذكرها الروايات التي قرأتها. ثمّ نهضت عن سريرها ومشّت إلى مكتبها لتفتح الدرج السفلي وتخرج منه دفتر يومياتها المغلّف بالحرير. بعد ذلك رفعت كمّيها لكي لا يلطّخهما الحبر، وبدأت بالكتابة.

10

في صباح اليوم التالي، أسرجت فلورا مهرتها مايلا لكي تذهب إلى هوكسهيد، وتجمع أوراق الكرب والجزر التي يحتفظ بها بائع الخضار السيد بولتون لها، بدلاً من رميها في سلة المهملات. كانت تعرف أن والديها لا يوافقان البتة على أن تقود العربة بنفسها، إذ لم يكن لائقاً أن يرى الناس الابنة الكبرى لإستويت هول في أي وسيلة نقل غير العربة، لكن ردعها كان من سابع المستحيلات، بكل تأكيد.

«في أي حال يا أمي، بما أنك أنتِ وأبي استغنيتما عن خدمات السائق، لا أجد غير ستانلي ليأخذني إلى هناك، وليس عدلاً أن أطلب إليه ذلك، خصوصاً أن لديه الكثير ليقوم به في الإسطنبول».

عجزت والدتها عن معارضتها وتقبّلت الأمر، حتى أنّها أصبحت في الفترة الأخيرة تطلب إليها أن تتبضع لها في أثناء وجودها في القرية.

«مسكينة أمي»، فكرت فلورا، وهي تأسف لتدهور حالها المتواصل إلى الفقر الذي لم تعتده، فهي ما تزال تذكر زيارتها للمنزل الذي نشأت فيه أمها، عندما كانت أصغر سنّاً. فقد بدا مثل قصر حقيقيّ أمام عينيها الواسعتين وهي في الرابعة من عمرها. فقد كان يعمل فيه عشرات الخدم إناثاً وذكوراً، على رأسهم رئيس خدم له وجه منحوت مثل الرخام، كان يقف عند الباب مستقيم الظهر كلّما جاءت ابنة ذلك المنزل مع عائلتها للزيارة. وكانت مربّية والدتها العجوز تصطحب فلورا وأوريليا إلى غرفة اللعب، لذلك لم ترَ فلورا جدّيتها قط. ولو أنّهم كانوا يأخذون أوريليا التي كانت في الثالثة من العمر حينها مؤقتاً من الحضانة ليقدموها لهم على ما تذكر.

بعد أن أنهت فلورا مهمتها، أعطت فلسًا للصبي الذي طلبت إليه الاهتمام بمهرها، وصعدت إلى المقعد الخشبي، ووضعت إلى جانبها الصندوق المليء بالخضروات وكيس ورق فيه الكمثرى، فاكهتها المفضلة.

وبما أنه كان يومًا مشرقًا، فما إن حركت اللجام حتى قرّرت أن تغادر هوكسهيد، وأن تسلك الطريق الأطول الذي يحيط بمياه إستويت مرورًا بالقرية القريبة من ساوري لتستمتع برؤية الزعفران والنرجس البري في أثناء تفتّح أزهارها. كان عطر الهواء في ذلك الصباح خفيفًا، حتى الثلوج التي تساقطت في الآونة الأخيرة ذابت، ولم تمكث في الأرض. فسلكت الممر بالقرب من ساوري متّجهة إلى المنزل، وألقت نظرة سريعة إلى المزرعة التي ظهر جزءها المرتفع إلى اليسار.

فكرت فلورا، للمرة المئة، في التوقف هناك وتقديم نفسها إلى ساكنة المزرعة الوحيدة، وتذكيرها بالمرّة الوحيدة التي التقت بها قبل سنوات عدّة، وأنها منذ ذلك الحين تراها ملهمتها.

لكن بعد أن شدّت لجام مايلا لتخفّف من سرعتها خانتها الشجاعة، فتابعت طريقها. ووعدت نفسها أنها ذات يوم ستجرؤ على فعل ذلك. ف خلف جدران تلك المزرعة الصامدة، يعيش تجسيد لجميع آمالها وأحلامها المستقبلية.

عدت مايلا أمام مزرعة هيل توب وفلورا ما تزال غارقة في تفكيرها، وعندما أصبحت فوق الجسر المحدودب الذي يعلو النهر في أسفل الوادي، لم تسمع وسط الهدير الصاخب للمياه فوق السرير المرصوف بالحصى، صوت حوافر على الأرض المفتوحة إلى يسارها، وحين انعطفت في نهاية الجسر، تفاجأت بفارس فوق حصانه يبعد عنها أمتارًا قليلة. فزعت مايلا وانتصبت، فارتفعت العجلات الأمامية للعربة عن الأرض بضع ثوانٍ، وارتفعت فلورا عن المقعد بعد أن مالت العربة بشكل خطير إلى أحد الجانبين. حاولت فلورا التي بقيت معلقة على جنب واحد، أن تعاود موازنة العربة ريثما يوقف الفارس حصانه، وإن على بُعد بوصات فقط من منخري مايلا.

«ماذا تفعل بحق الجحيم؟»، صرخت فلورا، وهي تحاول تهدئة مهرتها المرتعبة، «ألا تجيد ركوب الخيل؟». في تلك اللحظة، قررت مايلا أن تتابع عدوها بسرعة إلى

المنزل، بعيداً عن ذلك الجواد المندفع الذي عرقل مسارها. فترنحت فلورا إلى الأمام وفقدت السيطرة على عربتها بعد أن أفلتت زمام الأمور من يديها، واندفعت مايلا مسرعة إلى ملاذها الآمن متجاوزة الحصان والفارس. في ذلك الوقت، لمحت فلورا تعابير الصدمة في عيني الفارس البنية الداكنة.

تشبثت فلورا بالمقعد بكل قوتها بيد، واستخدمت اليد الأخرى لتشد لجام المهرة لكن من دون جدوى. ولم تبطئ مايلا سرعتها إلا بعد أن دخلت بوابة المنزل، وقد بدا التعرق بوضوح على رديها. وصلت فلورا إلى الإسطبل وهي ترتجف والصدمة بادية عليها بوضوح.

«آنسة فلورا! ماذا حدث بحق السماء؟». قال ستانلي السائس حين لاحظ الذعر في عيني المهرة وحاول تهدئتها.

«تفاجأنا بفارس يقطع الطريق علينا، فانطلقت مايلا بسرعة لتهرب منه»، قالت فلورا وهي توشك على البكاء، وتناول اللجام إلى ستانلي، وتمسك بيده ليساعدها على الترجل.

«آنسة فلورا أنت شاحبة كشح»، قال لها ستانلي بعد أن وطأت قدميها الأرض الصلبة. وشعرت فلورا فجأة بوهن، فاستندت إلى كتفه العريضة تبحث عن شيء تستند عليه.

«هل أناذي سارة لتساعدك في الوصول إلى المنزل؟».

«لا، دعني أجلس في الحظيرة بعض الوقت. هلاً أحضرت لي كوب ماء؟».

«نعم يا آنسة». قال بعد أن قادها إلى الحظيرة، تركها فوق حزمة من القش وذهب ليحضر لها الماء. في أثناء ذلك، لاحظت فلورا أنها ترتجف. وعند عودته، قال لها:

«تفضلي يا آنسة. أأنت واثقة من أنك لا تريدني أن أستدعي سارة؟ إنك شاحبة جداً».

«كلا». قالت فلورا بنبرة حازمة. كانت تعرف تماماً أن أي همس حول فقدانها السيطرة على العربة في أماكن عامة سيعني توقف رحلاتها وبالتالي تقييد فوري

لحرّيتها. ثمّ قالت له وهي تستجمع قواها وتشدّ أطرافها التي باتت مثل هلام: «من فضلك، لا تخبر أحداً بما حصل».

«كما تريدن يا آنسة».

غادرت فلورا الحظيرة ورأسها مرفوع في الظاهر فقط، لكنها في الصميم كانت تشعر بأن عظامها قد تكسّرت تحت جلدها. وفي أثناء عبورها المروج باتجاه المنزل، أدركت حاجتها إلى التماسك لكي لا يرفّ جفنها أمام والديها فيشعران بما حدث لها.

عندما دخلت المطبخ، رأت تعابير السيدة هيلبيك المنزعجة، وهي تسحب لحم الضأن من الموقد.

«أين كنتِ يا آنسة فلورا؟ كانت والدتك هنا قبل عشر دقائق وسألتنا إذا رأيانا. ستجدين الجميع في غرفة الطعام، لقد جلسوا لتناول الغداء».

«أنا.. كنت في الخارج».

«آنسة فلورا؟». اقتربت منها سارة.

«نعم؟».

«هناك لطخة قذرة على أنفك وشعرك مبعثر».

«هل لديك قطعة قماش؟».

«بالطبع».

أمسكت سارة بقطعة قماش ونظّفت وجه فلورا كما كانت تفعل في صغرها.

«هل اختفت؟».

«نعم اختفت، لكن شعرك...».

«لا وقت لديّ، شكرًا لك». ركضت فلورا خارج المطبخ وهي تدسّ أصابعها في خصلات شعرها المبعثرة من دون أن تنظر في المرأة لتتّبّتها في عقدة شينيون. وعندما وصلت إلى مدخل غرفة الطعام، توقّفت قليلاً لتستمع إلى همهمة المحادثة الخافتة، ثمّ أخذت نفساً عميقاً قبل أن تدخل عليهم. فاستدارت ستة رؤوس باتجاهها.

«أرجوكم سامحوني، أمّي، أبي، سيدة فوغان، آنسة فوغان وآر...».

تبعّت نظرات فلورا كلماتها حول المائدة إلى أن التقت عينين داكنتين اتّسع بؤبؤاهما من الذعر والمفاجأة عندما تعرّف الواحد منهما إلى الآخر.

«آرتشي». إذاً هذا هو البائس الذي كاد يطيحها أرضاً؛ ذاك الولد الصغير السيئ الذي جرحها قبل سنوات بتفاحه الحامض. لقد كبر بالفعل لكنّه ما يزال مشاغباً.

«لقد بلغ ابني سنّ الرشد، لذلك يمكنك مناداته لورد فوغان». صحّحتها السيدة فوغان.

«عذراً لم أكن أعرف. لورد فوغان». قالت وهي تجلس.

«أين اختفيت يا فلورا؟»، سألتها أمّها بلطف، لكنّ تعابير وجهها عكست كل ما لم تقدر على قوله. لاحظت فلورا أن والدتها كانت ترتدي أفخر ثوب للمناسبات لديها.

«كنت... تأخرت في طريق العودة إلى المنزل بسبب... انقلاب عربة وسدادها الطريق». اعترفت فلورا بنصف الحقيقة. «من فضلك سامحيني يا أمّي، إذ كان عليّ سلوك طريق أطول للعودة إلى هنا».

«هل تقود ابنتك بنفسها عربة الخيول؟»، سألت السيدة فوغان، وقد رسمت ملامحها الحادة استياءً على وجهها بمجرد التفكير بذلك.

«ليس عادة يا عزيزتي أرابيلا. لكن سائقنا شعر بتوّعك هذا الصباح، وكان لدى فلورا بعض الأعمال العاجلة في هوكسهيد».

«سامحيني يا أمّي». كرّرت فلورا وهم يقدّمون إليها طعام الغداء. على الرغم من أنّها بذلت جهداً للاستماع إلى ما كانت تقوله أخت آرتشي السطحية، إليزابيث التي تجلس إلى جانبها، عن الملابس الرائعة التي جهّزتها لموسم العرض المقبل، لكنّ تركيزها كان على عيني «اللورد» آرتشي المعتذرتين بينما كانا يتبادلان النظرات عبر الطاولة. كانت أوريليا قد جلست إلى جانبه، فبذلت هي أيضاً قصارى جهدها لتشرّكه في الحديث، لكنه ظلّ مشغولاً بالذهن تماماً مثل فلورا التي انزعجت من طبق لحم العجل الموضوع أمامها، فاضطرت إلى فرز اللحم جانباً. وفكّرت في أن

تجرّ آرتشي وراءها إلى الإسطبل لتباغته بلكمة على أنفه الأرستقراطي المتعجرف. بعد ذلك، سحب أليستير كرسيه معلناً انسحابه إلى مكتبه، إذ كانت لديه بعض الأعمال لينهيها.

«سننتقل أنا وأرابيلا وإليزابيث إلى غرفة الرسم. قالت روز وهي تنهض عن كرسيها. لدينا الكثير لنحدّث عنه، أليس كذلك يا عزيزتي؟».

«بالتأكيد لدينا الكثير». أجابت السيدة فوغان.

«أوريليا، هل ترغبين في مرافقة آرتشي إلى الحدائق؟ يبدو أن الطقس دافئ اليوم، ومع ذلك من الأفضل أن تضعي شالاً. لقد عانت أوريليا نزلة صدرية رهيبة قبل أسابيع، لكنّ ذلك متوقّع عندما يعيش المرء في المناطق الشمالية النائية». شرحت روز للسيدة فوغان.



كونها الوحيدة التي لم تتلقّ تعليمات، نهضت فلورا في النهاية عن المائدة، وتبعت الباقين إلى الخارج. وعندما أصبحت في الردهة، لاحظت أن روز والسيدة فوغان وإليزابيث قد دخلن غرفة الرسم، أمّا أوريليا وآرتشي فخرجا من الباب الأمامي إلى الحدائق.

عندئذٍ تابعت فلورا طريقها، ببطء وانزعاج، إلى غرفتها في الطبقة العلوية. وعندما أصبحت في أمان داخل غرفتها، أغلقت الباب وراءها ممتنة، واستلقت على سريرها.

كان الغسق قد بدأ يحلّ عندما أيقظها طرق هادئ على باب غرفتها.

نهضت بحذر من فراشها وجلست متأهبة على حافة السرير.

«من هناك؟».

«هذه أنا، أوريليا. هل يمكنني الدخول؟». أجبرت فلورا نفسها على الوقوف ومشّت متصلبة لتفتح قفل الباب.

«مرحباً».

«أخبرني آرتشي بما حدث صباح اليوم. كيف تشعرين؟». بدا القلق في عيني أوريليا. «إنه يشعر بالقلق عليك لقد خاف كثيرًا. لم يحدثني إلا عن ذلك طوال النزهة. حتى إنه أصر على كتابة ملاحظة يعتذر فيها إليك ووعدته بأنني سأوصلها إليك. تفضّلي».

وسلمت أوريليا المغلف إلى فلورا.

«شكرًا لك». قالت فلورا وهي تدسّ الرسالة في جيبها.

«ألن تفتحيها؟».

«سأفتحها في ما بعد».

«فلورا، أفهم تمامًا أن المرّتين اللتين اجتمعتما فيهما أنتما الاثنتين حتى الآن... لم تكونا موفقتين، لكن آرتشي بالفعل شاب لطيف. وأعتقد أنك ستحيينه إذا أعطيته فرصة. أنا واثقة من ذلك... تمامًا».

رأت فلورا نظرات أوريليا الحاملة تنجرف نحو النافذة.

«يا إلهي أوريليا! لا تقولي لي إنك استلطفته في هذه المدة القصيرة أو أنه حصل؟».

«أنا... لا، بالطبع لا، لكن لا يمكننا إنكار أنه شاب وسيم، ومتفوّق أيضًا. يبدو أنه قارئ نهم، فقد قرأ كل كتاب نشر حتى الآن، وقد سافر عامًا في جولة حول أوروبا. إنه مثقف بامتياز. لقد شعرت خلال محادثتنا، بأنني بلهاء».

«بالطبع، لقد حظي آرتشي بتعليم مناسب، الذي، مع الأسف، لا يبدو للذكور، أننا نستحقّه، نحن الإناث».

«حسنًا...». كانت أوريليا تعرف أن من غير المجدي أن تتجادل مع أختها عندما تكون متعكرة المزاج. «هذه هي الحال اليوم، ولا يمكن القيام بشيء لتغييرها، علينا تقبّلها كما هي. في بعض الأحيان، أشعر أنك لا تحبين كونك أنثى».

«أنت محقّة، من الأرجح هو كذلك. في أي حال»، تابعت فلورا بعد أن أصبح وجهها أكثر ليونة حين لاحظت انزعاج أوريليا، «أرجوك تجاهليني يا عزيزتي، ليس جسمي وحده الذي تلقّى كدمات، بل كبريائي أيضًا. أفترض أن ضيوفنا قد غادروا؟».

«نعم، لكنني أتمنى الالتقاء بكثير من أمثالهم خلال الموسم. يقع منزلهم في لندن في الساحة المجاورة لمنزل الخالة شارلوت. كما أن إليزابيث كانت لطيفة معي وأخبرتني عن جميع الفتيات اللواتي سيشاركن معنا. حتى إنها قالت إن آرتشي قد يحضر بعض الرقصات هذه السنة».

لاحظت فلورا من جديد نظرات أختها عندما خفت صوتها وغرقت مجددًا في أحلامها.

«هل ستنزِلين لتناول طعام العشاء؟»، سألت أوريليا في النهاية. «يمكنني أن أخبر أمي أنك تعانين صَدَاعًا، وستطلب إلى السيدة هيلبيك أن ترسل إليك صينية الطعام إلى هنا. إنك شاحبة جدًّا».

«شكرًا لك. من الأفضل أن أبقى في السرير اليوم، أشعر بأنني لست على ما يرام هذه الليلة».

«سأعود بعد العشاء لأطمئن عليك. أأنت واثقة من أنك لا تريدني أن أخبر أمي بالحقيقة؟».

«لا، ستثير ضجة لا معنى لها. أنا حقًا بخير يا أوريليا».

حالما غادرت أوريليا الغرفة، دَسَّت فلورا يدها في جيبها لتخرج الرسالة. وبينما كانت تسحبها فكَرت في ما إذا كان عليها أن تمرّقها أو تحرقها، لأنّ ما كتبه لن يَهْمَها على الأرجح. لكنّ الفضول تغلّب عليها ففتحتها، وعلى الفور وقع نظرها على خطّه الجميل، فبدأت في قراءتها.

عزيزتي الأتسة ماك نيكول،

أطلب إليك الصفح عني بسبب الحادثة المؤسفة التي تسببت في وقوعها في وقت سابق اليوم. لقد واجهت صعوبة في السيطرة على حصاني، وعندما نجحت، تبعتك لأرى إذا كنت بحاجة إلى مساعدة، لكنني لم أعرّ عليك.

أود أيضًا الاعتذار عن سلوكي المشين برميك بالتفاح الحامض. كنت

قد قررت طلب العفو منك بمفعول رجعي قبل وقوع كارثة اليوم، وتقديم
الشكر إليك على عدم فعلك ما تفعله الفتيات الصغيرات عادة، لأنك لم
تركضي حينها إلى أحضان أمك باكية، وبذلك أنقذتني من العقاب.

إذا كان هناك ما يمكنني فعله لأبرئ نفسي في نظرك، فإنني أودّ كثيرًا
فعل ذلك. تعارفنا حتى اليوم كان مضطربًا، لكنني آمل أن أحظى بفرصة
في المستقبل للبدء من جديد. فكما يقال الثالثة ثابتة.

أنا واثق من أنني سأراك في لندن هذا الموسم.

وإلى ذلك الحين، تقبلي اعتذار خادمك المتواضع والآسف، آرتشي
فوغان.

ألقت فلورا الرسالة جانبًا ورأتها تطير في الهواء مثل فراشة منكوبة قبل
أن تهبط على الأرض. وقرّرت أن آرتشي فوغان تمرّن كثيرًا على كتابة مثل تلك
الرسائل الأنيقة للفتيات. وعلى الرغم من أنها لم تشأ الاعتراف ضمنيًا، فإنّ أوريليا
كانت محقّة. فآرتشي يتمتع ببنية قوية، وملامح منحوتة بغمازة طفيفة على كل
خدّ، وشعره الداكن المتموج يتدلى بحرية على جبينه، وعيناه البنيتان تبتسمان
باستمرار. إنّه حقًا وسيم بطريقة مزعجة.

أمّا شخصيته فمسألة أخرى.

«يعتقد أنّه سيحظى بغفران الجميع. حسنًا، لكن ليس هذه المرّة». تمتمت
وهي تعبر غرفتها وتجبر جسمها المتصلب على الجثو أمام الأقفاص. وسط ذلك
الصراع الداخلي، تنبّهت فجأة إلى أن وقت إطعام حيواناتها قد مرّ. فحاولت الوصول
إلى الصندوق حيث البذور والخضروات، لكنها أطلقت أنينًا يائسًا.

«وعلاوة على هذا كلّهُ، لا بدّ من أن طعماكم وقع من العربة».

11

«عزيزتي فلورا فكّرتُ في محادثتك عن الصيف المقبل».

«نعم يا أُمِّي». وقَفَت فلورا في خِدر أُمّها حيث كانت روز تجلس إلى طاولة التزيّن ذات المرايا الثلاثية، وتضع أقرأطاً من اللؤلؤ استعداداً لتناول وجبة العشاء. «من فضلك اجلسي».

جلست فلورا على مقعد ديمقسي أزرق وانتظرت أُمّها لتبدأ الحديث. كان وجه روز ما يزال ناعماً وجميلاً كما كان في شبابها من دون شك. على الرغم من ذلك، استطاعت فلورا رؤية البشرة المزمومة حول شفثيها والخطوط الدقيقة بين حاجبيها الفاتحين، والتي عكست قلقها الدائم.

«تعرفين أُنّني وأوريليا سنسافر إلى لندن بعد أسبوع، ووالدك سيخرج في رحلة الصيد السنوية إلى المرتفعات مع أبناء أعمامه. كنْتُ أفكّر في ما أنت قادرة على فعله في هذه الأثناء». سكّنت روز ثمّ نظرت إلى انعكاس فلورا في المرآة قبل أن تتابع. «أعرف تمامًا أنّك تكرهين المدينة ولا ترغبين في مرافقتنا إلى لندن».

«حقاً، لكنّك لم تطلبي مِنّي ذلك». فكّرت فلورا في نفسها.

«في أي حال، النساء غير مرحّبات بهنّ في رحلات الصيد في اسكتلندا. لذلك أخبرت العاملين لدينا أنّك ستبقين هنا في المنزل، إذ نعتقد أنا ووالدك أن هذا هو الحلّ الأمثل لك. فما رأيك؟».

أَيّا كانت مشاعرها المتضاربة، فقد كانت فلورا تعرف أن هناك إجابة واحدة

تتوق أمها لسماعها. «سيسرني البقاء هنا يا أمي. ففي النهاية إن لم أبقَ في المنزل، سأظل أفكر في حيواناتي وأقلق عليها».

«تمامًا». قالت روز وقد ظهر على وجهها تعبيرٌ موجزٌ عكس ارتياحها.

«على الرغم من أنني بالطبع سأفتقدكم أنت، وأوريليا، وأبي».

«نحن أيضًا سنفتقدك. المهم أننا وجدنا حلًا. سوف أبلغ والدك بقرارنا».

«نعم يا أمي. سأتركك لتجهزي طعام العشاء».

«شكرًا لك».

نهضت فلورا وسارت نحو الباب، وعندما أوشكت على فتحه، رأت أمها في المرأة تدير ظهرها لها وتحقق إليها.

«فلورا؟».

«نعم يا أمي؟».

«أحبك كثيرًا. وأنا آسفة».

«علام؟».

«أنا...».

إلا أن روز ضبطت نفسها وقد لاحظت فلورا ذلك بوضوح.

«لا شيء يا فلورا، لا شيء».



«تبدين رائعة». قالت فلورا وهي تقف مع أوريليا عند عتبة الباب بعد أسبوع لتودّع أمها وأختها قبيل انطلاقهما إلى لندن.

«شكرًا لك». أجابت أوريليا، وهي تبدي ابتسامة خجولة. «فستان المخمل هذا

غير مريح وسيثقل كاهلي طوال الرحلة. وهذا المخصر ضيق. ولا أعتقد أنه سيسمح لي بالتنفس براحة قبل أن أصل إلى لندن وأخلعه!».

«حسنًا أراه رائعًا عليك. أنا واثقة من أنك ستكونين نجمة الموسم». وعانقت

فلورا أختها بقوة قائلة: «اجعليني فخورة بك، اتفقنا؟».

«حان الوقت يا أوريليا». وظهرت روز من خلفهما عند عتبة الباب. ثم قُبِلَتْ فلورا على خَدَّيْها وقالت لها: «اعتني بنفسك يا عزيزتي. حاولي ألا تتجولِي كثيرًا في المنطقة في أثناء غيابنا».

«سأبذل قصارى جهدي يا أمي».

«وداعًا يا عزيزتي فلورا». عانقت فلورا أختها مرة أخرى، ثم رمت لها قبلة في الهواء وهي تركب عربتهم القديمة التي كانت ستنقلهما إلى محطة ويندرمير، ومن هناك إلى محطة أوكزينهولم حيث ستركبان القطار المتّجه إلى لندن.

كانت فلورا رغم تواضعها، تحتقر ما تبقى مما اعتبر في الأساس عربة. كانت تعرف أن حالتها هذه أثارت استياء والدها دائمًا لعدم قدرته على شراء عربة ذات محرك. وإذ بأوريليا تخرج رأسها من النافذة وتلوّح لأختها وسط قرع حوافر الحصان على طول الممر. بقيت فلورا تلوّح لأوريليا إلى أن اختفت العربة خلف البوابة الأمامية. بعد ذلك، عادت فلورا إلى الداخل فوجدت المنزل معتمًا، ما زاد من شعورها بالهجران. كان والدها قد غادر إلى المرتفعات في اليوم السابق، وعندما سمعت صدى خطواتها يتردّد في أرجاء المنزل شعرت بالذعر لمجرّد التفكير في أن ذلك الصمت الرهيب سيرافقها طوال الشهرين التاليين.

ثمّ صعدت فلورا إلى غرفتها وأخرجت پوزي من قفصه لتداعب أذنيه الحريرتين لعلّها تشعر ببعض الراحة. وتوقّعت أن تنجح تلك المداعبة في مواساتها في وحدتها في ما بعد في المستقبل. لذلك فكّرت في أنّه سيتوجّب عليها ممارستها طوال الوقت.



خلافًا للروتين الذي اتبعته فلورا منذ طفولتها، أوجدت في غياب عائلتها روتينًا جديدًا خاصًا بها. وأصبحت تستيقظ مع القبرة في الصباح، فترتدي ملابسها على عجل. وبعد أن استغنت عن فكرة تناولها طعام الفطور على انفراد بشكل رسمي في غرفة الطعام، بدأت تنضمّ إلى السيّدة هيلبيك وسارة وتيلي في المطبخ وتشرب

كوب الشاي وتأكّل الخبز الطازج مع المربى وسط ثرثرتهنّ. ثمّ كانت تخرج من المنزل حاملة معها شطائر الجبن ملفوفة بورق شمع وموضّبة جيّداً مع لوازم الرسم في حقيبة قماش كبيرة.

كانت فلورا تعتقد أنّها تعرف الريف الذي يحيط بمنزل عائلتها، لكن تبين لها أنّها لم تكتشف حقاً جماله الخلاب قبل ذلك الصيف.

وبدأت تتسلّق التلال في محيط بحيرة إستويت، ممسكة تنورتها المتدافعة فوق الحجارة الجافّة التي قسّمت الأراضي الزراعية قرونًا، لترفعها عن الأرض. وكانت تفهرس بتفاني عالمة نبات متمرّسة كل الكنوز التي تعترض طريقها، مثل حصيلة البقدونس/ النبات الصخري الأرجواني الذي يكسو الصخور. وكانت تبحث عن زقزقة العصافير وتغريد طيور الواكسوينغ لتطرب أذنيها، وذلك في أثناء تسريح أصابعها الناعمة للعشب الشائك والحجارة الخشنة التي كانت تحترق تحت أشعّة الشمس.

في أحد الأيام الحارّة التي شهدها حزيران ذلك العام، خرجت فلورا تتنزّه على طول ضفّة البحيرة الجبلية الراكدة والبرّاقة مثل المرآة تحت أشعة الشمس، على أمل العثور على أزهار لم ترّها عيناها إلّا في الكتب العلمية. وبعد مرور ساعات على بحثها وسط الحر الشديد، عثرت على تيجان برّاقة من لون الفوشيا لزهرة صياد جبال الألب الملتصقة بالصخور الغنية بالمعادن. صعقت فلورا من شدّة التباين بين بتلاتها المزركشة وقساوة موطنها. ثمّ جلست على الأرض تحت أشعة الشمس وبدأت ترسمها.

فجأة شعرت بالنعاس من ارتفاع الحرارة، فغفت قليلاً ولم تستيقظ إلّا في وقت الغروب، عندما بدأت الأشعة الناعمة تداعب كتفيها. حينها نهضت عن الأرض وهي تنظر فوق رأسها، عبر أغصان الصنوبر الاسكتلندي بعد أن لفت انتباهها صقر شاهين نادر الوجود كان يحطّ فوق غصن عالٍ.

لم تشأ أن يهرب منها، لذلك بقيت جامدة في مكانها وحبست أنفاسها. وأمعنت النظر في ريشه المشعّ تحت انعكاس الضوء وفي انعكاف منقاره المنتصب في

وجه النسيم. بقي الاثنان الإنسان في وجه الحيوان هكذا من دون حراك برهة من الوقت. ثم حرك الصقر جناحيه على نحو جليل وانطلق باتجاه الشمس يحلق عاليًا بعد أن اخترق الهواء وتسبب بارتعاش الغصن حيث كان جاثمًا.

عادت فلورا إلى المنزل عند الغسق، وعلى الفور أنهت رسمة الصقر الذي أنجزت تخطيطًا أوليًا أولي له في أثناء تحليقه في الفضاء.

وكانت تصرف معظم أمسياتها في قراءة كتابها المفضل عن النبات، وكان إصدارًا لسارة بوديتش، لتقارن الأزهار التي قطفتها في النهار بالصور الموجودة فيه، ثم كانت تضيف تسمياتها اللاتينية في سجل قصاصاتها تحت الأزهار الطبيعية التي كانت تحررها مؤقتًا من ضغط جلدي الكتاب. وكان هذا يشعرها بذنب غير مبرر، كونها كانت تقيد شيئًا حيويًا بين صفحات الكتاب، لكن رغبتها في الاحتفاظ بذاك الجمال وتخليده كانت أشد.

وكانت فلورا قد عثرت على قط صغير وجدته شبه غارق عند بحيرة الجبل، فأحضرتة معها إلى المنزل لتضمه إلى حديقة حيواناتها. كان صغيرًا لدرجة أن حجمه لم يتجاوز راحة يدها، فحسبت فلورا أن لا يكون تجاوز بضعة أيام من العمر، إذ إنه ما يزال مغلق العينين عندما عثرت عليه. وبطريقة ما، تمكن ذلك القط من إنقاذ نفسه من المياه التي كادت أن تكون مثواه الأخير. فتأثرت فلورا بتصميمه على العيش أكثر من أي مخلوق آخر تبنته من قبل. وفي غياب أي مانع، سمحت للقط الأسود الأنيق أن يشاركها فراشها الدافئة.

وأطلقت فلورا عليه اسم بانثر بعد أن وجدته يحدق إلى بوزي عبر شباك قفصه، كأنه ينتظر الوقت المناسب لينقض عليه، علمًا أن حجم الأرنب كان خمسة أضعاف حجمه الحقيقي. لم يمر وقت طويل قبل أن يتعافى بانثر تمامًا ويخرج مخالبه الصغيرة الحادة وينجح في تسلق الستائر داخل غرفتها. عندما فطم بانثر، أدركت فلورا أن كان عليها نقله إلى المطبخ في الطبقة السفلية لكي لا يلتهم نصف حديقة حيواناتها.

كانت أوريليا تكتب لها مرة في الأسبوع لتخبرها عن مغامراتها في لندن.

أنا مسرورة لأننا انتهينا أخيراً من العرض التقديمي. كنت متوترة طوال الوقت وأنا أقف في الطابور إلى أن جرى تقديمي إلى الملك والملكة. أرجو يا فلورا أن يبقى ما يلي بيننا؛ ألكسندرا تبدو أكثر نعومة وجمالاً مما تظهر في الصور، في حين أن الملك أكثر قبحاً وبدانة! لدهشتي، حظيتُ بشركاء رقص كثر، اثنان منهم طلبا زيارتي عند الخالة شارلوت. أحدهما فيكونت، وقد أخبرني أمي أنه يملك نصف أسهم بيركشاير، لذلك يمكنك أن تتخيلي مدى سعادتها في هذه الأيام! لكنني لم أشعر بأي انجذاب إليه؛ كما أنه أطول مني ببضعة سنتمترات فقط عندما يقف إلى جانبي، وأنت تعرفين أنني قصيرة في الأساس. فضلاً عن ذلك، فهو يعرج في أثناء مشيه. قيل لي إنه عانى شلل الأطفال في طفولته.

أشعر بالتعاطف تجاهه لكنه بالتأكيد ليس فارس أحلامي، مع أنني أعرف أن لا ذنب له في ذلك.

بالحديث عن «الأمراء»، آرتشي فوغان حضر إلى الحفل الراقص الأسبوع الماضي ممسكاً بذراع أخته إليزابيث. آه، وقد أصبحت واثقة من أنه الرجل الأكثر وسامة في لندن. كما أنني شعرتُ بغيرة باقي المبتدئات⁽¹⁾ عندما طلب إليّ الرقص معه أكثر من مرة. ورقصنا ثلاث مرات لكنّ الخالة شارلوت وجدت ذلك غير لائق! تحدّثنا بعض الوقت، وسألني عنك، يبدو أن غيابك عن لندن أثار حيرته. شرحتُ له أنك تكرهين حياة المدينة وأنت أترت البقاء في إستويت هول على المجيء إلى هنا. لقد كرّر لي أنه يأمل أن تكوني قد سامحته. أعترف لك بأنني مغرمة قليلاً به، على الرغم من أن هناك ما يزعجني فيه.

هذه أخباري في الوقت الراهن. أمي ترسل إليك قبلاتها. أنا واثقة من أنك تعرفين مدى استمتاعها بالعودة إلى تلك الحياة الاجتماعية. يبدو أن الجميع يعرفها هنا، من الواضح أنها حظيت قبل الزواج من أينا بشعبية كبيرة في أوّل ظهور اجتماعي لها. تقول إنها ستراسلك عمّا قريب.

(1) الفتيات اللواتي يظهرن في أوّل ظهور اجتماعي لهن.

اشتقتُ إليك كثيراً يا أختي العزيزة.

أوريليا

«يا إلهي!»، صاحت فلورا خائبة في وجه پانثر الذي تسلق تنورتها ليستقر في حجرها بينما كانت تقرأ الرسالة. «هذا ما كان ينقصني، أن يصبح آرتشي فوغان صهري».



بعد بضعة أيام، خرجت فلورا إلى الحديقة وجلست إلى طاولة الرسم لتستفيد من أيام تموز الحارة. كانت قد عثرت في غرفة الأحذية على قبعة واسعة الحواف من القماش لم تعرف كيف وصلت إلى هناك، فاعتمرتها لتحتمي من أشعة الظهيرة المؤذية. وكان پانثر في ذلك الوقت يقفز فوق العشب مطارداً الفراشات، فجذبها مرحة وتوقفت عن رسم الزهور وجلست على العشب تصوره وهو في ذلك المظهر.

تفاجأت بوقع أقدام من خلفها. استدارت لتعرف من الزائر. كانت تتوقع رؤية تيلي لدى عودتها من السوق الأسبوعي، لكنها فوجئت بظل طويل يستقر إلى جانبها. وعندما نظرت إلى أعلى، رأت عيني آرتشي فوغان الداكنتين.

«مساء الخير يا آنسة ماك نيكول. أعذر إليك إن تسببت في ذعرك، لكن قبضتي كلت من طريقي المتواصل على باب المدخل. لذلك جئت من خلف المنزل بحثاً عن آدمي».

«يا إلهي!»، قالت فلورا مذعورة وهي تقف بسرعة، بينما انتصب وبر پانثر وبدأ يزمجر في وجه الغريب.

«العاملون كلهم في الخارج، وعائلتي كما تعرف ليست هنا».

«إذن أنت يتيمة حقيقية في منزلك».

«لست يتيمة. ببساطة، لست مهتمة بالذهاب إلى لندن لذا فضّلت البقاء وحدي هنا».

«هذا يعني أننا نتشارك الرأي نفسه، خصوصًا في موسم التعارف عندما تضطرّ كل سنة مجموعة جديدة من الشابات البريئات إلى رفقة رموشهنّ قدر المستطاع لتثبت الواحدة منهنّ مدى دلالتها، في محاولة للتفوّق على منافساتها لكي تحصل على أكبر جائزة ذكورية».

«وهل تعتبر نفسك «جائزة» ذكورية يا لورد فوغان؟ سمعتُ من أختي أنّك حضرت حفلة راقصة في الأسبوع الماضي؟».

«على العكس تمامًا لأننا على الرغم من اسم عائلتنا ونسبنا العريق، فنحن مفلسون. تعرفين أن والدي قد توفّي في حرب البوير الأخيرة قبل سبع سنوات، ما تسبّب في بقاء سفينة آل فوغان من دون قبطان إلى أن بلغت سن الرشد قبل بضعة أشهر. مع ذلك، أوكد لك أنّني أبذل قصارى جهدي للبقاء بعيدًا عن مخالاب أي وريثة ثرية أصادفها».

لم تتوقّع فلورا مثل هذا الرد الصريح على تعليقها المتهوّر.

«وهل لي أن أسألك ماذا تفعل هنا؟».

«أتيتُ من المرتفعات. كنتُ هناك مع والدك والآخرين، أشارك في رحلة الصيد السنوية لبضعة أيام. وبما أن الرحلة إلى لندن طويلة، قررتُ أن أصيب عصفورين بجحر واحد».

«ومن أو ما هما «العصفوران» بالضبط؟».

«الأول هو أن أستريح، والثاني هو أن آتي إلى هنا على نحو مفاجئ، وأنا أدعو الله أن تكوني في المنزل لعلّك تسمحين لي برفقتك لبضع دقائق. أريد أن أعذر شخصيًا لما حدث في نيسان الماضي. فضلًا عن ذلك، كنتُ آمل أن تقدّمي إليّ مشروبًا. لكن نظرًا إلى غياب العاملين عن المنزل في الوقت الحالي أشك في أنّه سيستجاب لطلبي الأخير».

«هذا أقل ما يمكنك طلبه يا لورد قوغان. ثق بأنني أعرف تمامًا كيف يُخمر الشاي، وكيف تُحضّر السندويشات».

«يا للعجب، سيّدة قادرة على إعداد الشاي والسندويشات بنفسها! أشكّ في أن أختي أو أمي لديهما أدنى فكرة عن فعل ذلك».

«إنه ليس أمرًا صعبًا»، تمتعت فلورا وهي تنهض. «وهل ستبقى في الحديقة فيما أقوم بإعدادها لك؟».

«لا، سأتي معك لأشيد بمهاراتك في المطبخ».

«كما تشاء». أجابته فلورا وقد أثار الأمر فيها حماسة. لكن في أثناء عبورهما الشرفة، امتعضت من نفسها بعد أن أدركت تلاشي غضبها منه، ولوقوعها تحت تأثير سحره وصدقه. لكنّها كانت حريصة على ألا تقع في فخّه، لذلك سرّعت وتيرة عملها بعد أن دخل المطبخ. فوجدت الغلاية ممتلئة، ووضعتها على الموقد وتركت ما في داخلها يغلي، ثمّ انتقلت إلى الطاولة وانشغلت بإعداد سندويشات بالزبدة والجبن.

«أنت خير مثال للزوجة الريفية، ألا تعتقدين؟»، علّق آرثشي وهو يسحب كرسيًا ليجلس.

«أرجو ألا تحاول تصنيفي يا لورد قوغان، خصوصًا عندما أقوم بتحضير طعامك».

«هل لي أن أطلب معروفًا منك يا آنسة ماك نيكول؟ بما أننا في وضع غير رسمي، لمَ لا تنادينني «آرثشي»؟ وأنا أناديك «فلورا»؟».

«لن أسمح لك بمناداتي «فلورا»، فنحن بالكاد نعرف بعضنا». ثمّ وضعت السندويشات في طبق وقالت له:

«الرجال هنا يأكلونها بقشورها. هل يناسبك ذلك؟».

«يا إلهي، كم أنت قاسية!»، قال لها مبتسمًا وهي تقدّم له الطبق كأنّها ترغب في رميه في وجهه. فجأة صرخ «آخ»، تحت تهديد كتلة الفرو الصغيرة التي عضّته في كاحله. «يبدو أن قطك أيضًا ليس راضيًا عني».

حملت فلورا بانثر في ذراعيها وهي تكبّت ابتسامة لئيمة، ثمّ استدارت لتصبّ الشاي.

«آنسة ماك نيكول، هل من طريقة تجعلنا نبدأ علاقتنا من جديد؟ بالنظر إلى أن حادثة التفاح الحامض قد جرت عندما كنتُ طفلًا ما يزال أنفه يسيل، إذ كنتُ حينذاك في السادسة من عمري، أما الثانية فكانت عن غير قصد».

«لورد فوغان، ليس لديّ أدنى فكرة عن سبب وجودك هنا، أو لماذا تظهر اهتمامك بما أفكر فيه عنك في حين أن نصف الشابات في لندن يمدحن مزاياك وفق ما قالته أختي. أما إذا كنت عاجزًا عن تقبّل حقيقة أن هناك امرأة واحدة على هذه الأرض لن تستطيع إغواءها، فأشعر بالحزن عليك لأنّ الأمور ليست بتلك البساطة معي. والآن، هل نحمل الصينية إلى الشرفة؟».

«اسمحي لي بحمل الصينية، وأنت احمليه هو». قال آرتشي وهو يشير إلى بانثر. «على ذلك النمر الشرس المتنكّر في مظهر قطّ أن يبقى تحت سيطرتك في حال قرّر مهاجمتي مرّة أخرى. عرفت كيف تختارين حيوانك الأليف يا آنسة ماك نيكول». حمل آرتشي صينية الشاي ومشى إلى الباب.

في الخارج، كانت الشمس تشع على الشرفة جوًّا مرّحًا، في تناقض تام مع الصمت الرهيب الذي ساد بينهما. وبعد أن جلسا في الشرفة، سكبت فلورا الشاي، واحتساه آرتشي وهو يلتهم السندويشات بقشورها، علمًا أنّها كانت قاسية على نحو لا يحتمل. لو رأتها أمّها لوّبختها على سلوكها. لكنّها لم تستطع إجبار نفسها على إجراء محادثة مهذّبة. وبدأ الأمر مماثلاً مع آرتشي.

في النهاية، نجحت في القول بكل تهذيب وهي تشير إلى العشب وتنهض عن الطاولة: «أطلب المعذرة، عليّ إحضار دفتر الرسوم من الحديقة قبل أن يصبح رطبًا».

«تفضّلي». أجابها وهو يومئ برأسه. «وأرجو أن تحملي ذلك النمر معك». عندما عادت إلى الشرفة، كان آرتشي قد نهض. «شكرًا لك على حسن الضيافة. أشعر بالحزن فقط لأنّ لديك انطباعًا خاطئًا عني، ولا أستطيع إقناعك بخلاف ذلك. أراك قريبًا يا آنسة ماك نيكول».

«أنا واثقة من أنّه ليس انطباعًا خاطئًا. لكن اعلم أن أختي ستسرّ باستقبالك

عندما تجد نفسك قريبًا من هنا في الممرّة القادمة». وضعت فلورا دفتر الرسم جانبًا على الطاولة تحت نظر آرتشي.

«هل يمكنني إلقاء نظرة عليها؟».

«لا يوجد شيء يستحق النظر إليه. إنها رسوم بدائية، أنا...».

وقبل أن تنهي جملتها، كان آرتشي قد فتح الدفتر وقلب أوراقه ورأى رسومات الفحم. «آنسة ماك نيكول، أنت تقللين من شأن موهبتك. بعض هذه الرسوم رائع. ذاك الصقر... ورسمه النمر الأسود الذي تملكين...».

«اسمه بانثر».

«إنها رائعة حقًا. لا بل ممتازة. وممتازة جدًا أيضًا. لديك عين ثاقبة للطبيعة والحيوانات».

«أرسم من أجل متعتي الشخصية فقط».

«هذا ما يفعله جميع الفنانين العظماء. الرغبة تأتي من الداخل، من حاجة إلى التعبير عن الذات مهما كانت الوسيلة الفنية التي يقع عليها الاختيار».

«نعم». وافقته فلورا على مضض.

«في أثناء جولتي في أوروبا، رأيت كثيرًا من الأعمال الفنية الرائعة. واكتشفت أن معظم أصحابها عاشوا في عوز مدّة طويلة في حياتهم، كانوا عبيدًا لمواهبهم. قلة منهم لم تعانِ بطريقة أو بأخرى». وانتقلت نظرات آرتشي من دفتر الرسم إلى فلورا.

«وهل تعانين ألمًا ما يا آنسة ماك نيكول؟».

«يا له من سؤال! ميلي إلى الرسم والتلوين لا يعني بالضرورة أنني أعاني اضطرابًا عقليًا أو عاطفيًا».

«هذا جيّد لأنني لا أريدك أن تعاني أي ألم أو تشعري بالوحدة. على الرغم من ذلك، أراك تتجولين بمفردك في هذا الضريح القديم، وقد تراءى لي أنك وحيدة، أم أنا مخطئ؟». قال آرتشي ليضغط عليها.

«لست وحيدة. لدي فريق كامل من العاملين ومجموعة كبيرة من الحيوانات التي ترافقني».

«صحيح، ذكرت لي أختك عندما تحدثنا آخر مرة في لندن، مجموعة الحيوانات البرية لديك. ويبدو أنك ذات مرة صادقت ثعبانًا».

«نعم، كان ثعبانًا عشبيًا غير سام». اعترفت فلورا وهي تشعر بانقطاع نفسها من استجوابه المفاجئ الذي ذكرها إلى حد بعيد برشق التفاح الحامض الذي تلقته قبل سنوات. «لكنهم لم يسمحوا لي بالاحتفاظ به».

«أعتقد أنني سأرفض فكرة العيش مع ثعبان تحت سقف واحد. أنت امرأة غير عادية يا آنسة ماك نيكول. أعترف أنك تبهريني».

«يسرني أن طريقتي المختلفة في التفكير تسليك».

«حسنًا أحبيك يا آنسة ماك نيكول». قال آرتشي بعد صمت. «أنت ماهرة في تحويل التعليقات السلبية إلى مزاح إيجابي. ماذا يمكنني أن أفعل أكثر لأحظى بعفوك؟ حتى الآن حاولت كل ما في وسعي لتحقيق ذلك، بما في ذلك القيادة عبر البلاد بدلاً من ركوب قطار سكوتش إكسبريس مباشرة إلى إدنبرة ذهابًا وإيابًا». ورأت فلورا الإحباط في عينيه.

«لقد قلت لك الحقيقة».

فجأة، جلس آرتشي على كرسي كما لو أن ذلك الاعتراف استنزف كامل طاقته. «غادرتُ الصيد باكراً لآتي إلى هنا وأراك. من الواضح أنني لن أستطيع كسب رضاك مهما بذلتُ من جهد، لذلك سأواصل طريقي إلى الجنوب وأتوقف لأستريح في فندق».

حدّقت فلورا إليه جيّدًا من رأسه إلى أخمص قدميه. كانت تفتقر إلى الخبرة مع الرجال المادّيين أمثاله، لذلك عجزت غرائزها الطبيعية عن شرح سبب مجهوده هذا والتخلّي عن كبريائه للاعتذار إليها، في حين أنّه كان قادرًا على الحصول على أي امرأة يرغب فيها، في لندن.

«أنا... لا أعرف ماذا أقول».

«ربّما تمنحيني بضعة أيام من وقتك؟ وخلال تلك الفترة، بإمكاننا التحدّث عن كل المواضيع التي أخبرتني أختك أنّك شغوفة بها، وقد تبين لي أنّني نشارك الشغف نفسه».

«مثل ماذا؟».

«أنا شغوف بالنبات يا آنسة ماك نيكول، لكنني أشكّ في أنّي أملك المعرفة الواسعة التي تملكينها. أفضل أن أقيم نفسي حاليًا بالمستوى الابتدائي. على الرغم من أن حديقتنا في هاي ويلد لا توازي جمال حديقتك هذه، لكنّها كما هي الآن جميلة بما يكفي. هل سبق أن زرت حدائق كيو؟».

«كلا». وأشرق وجه فلورا لمجرّد ذكره اسم ذلك المكان. «رغبْتُ دائمًا في رؤيتها بعد أن قرأتُ أنّهم يستوردون النبات من جميع أنحاء العالم، بما في ذلك أميركا الجنوبية».

«نعم هذا ما يفعلونه بالضبط، كما أن المدير الجديد سير ديفيد برين أبدع في إنجاز مهمته. وكان لطيفًا معنا بمساعدتنا في حدائقنا الخاصة. بالنظر إلى المناخ في جنوب إنكلترا، أدركتُ مع الوقت أنّني إذا لجأتُ إلى النباتات المستوردة من مناخات أجنبية، فإنّها ستتمو بسهولة عندنا. وسأستمتع برؤية النباتات الأصلية التي تنمو بكثرة هنا. أنا حريص على إنشاء مجموعة نباتات استثنائية من جميع أنحاء إنكلترا - آخ!».

في هذه الأثناء، تسلّق پانثر سروال آرتشي وراح يخرخر مفتخرًا بنفسه بين فخذه. كانت مخالبه الحادة تعجن قماش سرواله. وعندما رأت فلورا أن قطها قد غفر له شعرت بالرضا عنه.

«إذا كنت تشعر بأنني قادرة على المساعدة في دراستك، فسيسرّني أن أسانّدك ما استطعت».

«شكرًا لك»، قال آرتشي. حينذاك لاحظت فلورا ملامح آرتشي تسترخي، ثمّ رفع يده المتوترة وبدأ يداعب القط. «سأكون ممتنًا لأي خبرة تشاركينني إياها».

«لكن أين ستقيم؟».

«حجرتُ غرفةً في فندقٍ محلي قريب من هنا في ساوري»، قال وهو يرفع ذراعه ويقدمُ إليها مرفقه بينما بقيت ذراعه الأخرى تحتضن قَطَّها الراضي عنه. «الآن، هل ترافقيني في جولة حول هذه الحديقة الجميلة؟».

عندما انطلقا في جولتهما، بذلت فلورا جهدًا في اختبار معلوماته كونها لم تكن واثقة بعد من نيَّته، بعد أن شكَّت في أن تكون حيلة أخرى منه بهدف إهانتها أو التقليل من شأنها. لكنَّها أدركت على الفور أن اهتمامه ومعرفته بالنبات حقيقيان. وقد عرف من دون تردّد أسماء كل النباتات بما فيها الأنواع غير المألوفة، التي كانت مزروعة في أحواض داخل حديقتهَا، باستثناء واحدة، أخبرته بأنَّها تدعى زهرة النجمة أو مستنقع النجوم؛ پارناسيا بالوستريس.

«أعتقد أنَّها نادرة الوجود، وبما أنَّها تُفضَّل مناخ شمال إنكلترا، فقد يكون ذلك سبب عدم معرفتك بها».

وفي أثناء تجوُّلهما على طول حدود الحديقة، أخبرها بأنَّه في صغره كان يتبع البستاني مثل كلب أليف. «يا للأسف، مات في حرب البوير أيضًا. وعندما عدتُ من أكسفورد العام الماضي، لم أكن أملك النقود لتوظيف فريق يهتمَّ بحديقتي، فاضطررتُ إلى تثقيف نفسي، حينذاك اكتشفتُ شغفي بالنبات. عليك أن ترينني وأنا في المنزل بملابس العمل».

«إذا شئتَ يمكنني ارتداءها عندما آتي لزيارتك في المرة القادمة. أنصحك ألا تحكمني على الكتاب من غلافه يا آنسة ماك نيكول». قال بنبرة موبَّخة وهو يهز إصبعه في وجهها.

«لكن غطاءك هو الذي يجعلك معشوق الفتيات في لندن»، قالت وهي تنظر إليه بارتياح.

«وهل ذلك سيمنع شغفي بالنبات؟ أو أنَّك تعتقدين أنَّني مجرد نذل يمضي وقته في التسلية وفي إفراغ صندوقه الائتماني؟».

عندئذٍ شعرت فلورا بالحرَج فخفضت عينها.

«هذا صحيح لأنني لم أتعُدَّ الحادية والعشرين من عمري وأستمتع بالمناسبات الخاصة وبرفقة الأنسات الجميلات. تعرفين أن عائلات إنكلترا العريقة لم تعد غنية

كما كانت في السابق، وقد جاء ميراثي في هاي ويلد، وهو عقار بحاجة إلى عناية خاصة، ولا أملك حسابًا مصرفيًا كبيرًا. لذلك سأفعل ما بوسعي للحفاظ على روعته، على الأقل من الخارج. فحديقته المسورة تشتهر بجمالها ولن أمانع وضع يدي في الطين للحفاظ عليها.



في ذلك المساء، جلست فلورا إلى مكتبها لتكتب يومياتها وعقلها يطنّ من التحول الغريب في الأحداث. وبعد أن انتهت من تدوين كلّ كلمة نجحت في تذكّرها من حديثه، أقفلت دفتر يومياتها داخل درج مكتبها. وعلى غير عاداتها، لم تستطع النوم في تلك الليلة. بقيت تفكّر في شخصيّة آرثشي التي اكتشفتها اليوم، وكيف استطاع إقناعها قبل مغادرته، بمرافقته غدًا إلى مكان بعيد لرؤية قمم لانغديل بايكس.

«يا له من أحجية»، همست في أذن پانثر الذي وضع رأسه على الوسادة إلى جانب رأسها. «وكم أكره نفسي لأنني بدأت أعجب به».

12

«صباح الخير آنسة ماك نيكول». قال آرتشي عندما التقى فلورا في باحة الإسطبل كما اتفقا أمس. «أحضرتُ معي وجبتي غداءً لنا نحن الاثنين. ولا تقلقي بالنسبة إلى السندويشات، لأنني لم أنزع القشور عنها». أضاف وهو يضع سلة النزهات في العربة، ويمدّ يده إليها ليساعدها على الركوب.

وفيما صعد إلى جانبها لتتولّى هي القيادة، سخرت من الملابس التي كان يرتديها؛ بنطال قطني قديم، وقميص مربعات بالكاد مخيطة، وفي قدميه جزمة عامل سميكة.

«استعرتُها من صاحب الحانة في القرية». شرح لها عندما لاحظ أنها تحدّق إليه. «البنطال واسع قليلاً لذلك ثبتّه بالأسلاك. هل أبدو مقنعاً، في رأيك؟». «بالطبع يا لورد فوغان. تبدو ريفياً بامتياز».

«حسناً بما أننا سنقضي يوماً سيختلف عما نحن عليه في الواقع، هل يمكننا التخلي عن الشكليات لأكون بكل بساطة آرتشي ابن البستاني، وأنت فلورا بائعة الحليب؟».

«بائعة الحليب! وهل أبدو وضیعة إلى هذا الحد؟». قالت متظاهرة بالإهانة فيما جلدت المهرة لتنتقل. «ألا يمكنني على الأقل أن أكون خادمة منزل أو حتى مرافقة سيّدة عجوز؟».

«آه، لكن في القصص التي قرأتها توصف بائعة الحليب بأنها جميلة. لم أقصد الإهانة، بل المجاملة».

واصلت فلورا التركيز على قيادة العربة، وهي تشعر بالامتنان للقبعة التي

كانت تحمي وجهها من الشمس، عندما بدأت حرارة الطقس تشتدّ وتلفح بشرتها. كانت تلك أوّل مجاملة على مظهرها تسمعها من رجل، لذلك لم تعرف كيف ترد عليه.

يقع وادي لانغديل وسط قمم مهيبة شاهقة تعلو على ما حولها مخترقة الغيوم. وقد انتصبت بجلالتها على نطاق واسع، تحتضن الوادي الأخضر الذي تبدّد مظهره أمام الصخور الخام التي كانت تثبت وجودها كلما ارتفعت العين إلى مستواها.

ساعد آرتشي فلورا على التّرجّل من العربة، ووقفّا ينظران إلى القمم. «في ذاك الاتحاد الذي تصنعه، وهي شاهقة هكذا الواحدة فوق الأخرى، أو في انتشار نفسها من النتوءات مثل أمواج البحر المضطرب»... «... وفي جمال سطوحها وتنوّع ألوانها، لا أحد قادر على تخطّيها»، أنهت فلورا كلامه.

«أنا ابنة البحيرات، وأعرف ووردزوورث»، قالت له غير مكترثة باستغرابه الواضح.

«هذا أكثر ما أحبه في الجبال كلّما أتيت لزيارتها»، قال وهو يتنفس الصعداء «فهي تُشعرنا بتفاهتنا وبأننا لسنا سوى رأس دبوس في هذا الكون الشاسع».

«نعم، لهذا السبب يشعر أولئك الذين يسكنون في لندن بأهميتهم». «هم سادة في عالمهم، وفي مدنهم التي هي من صنع الإنسان، أمّا هنا...»، لكنّ آرتشي لم يكمل جملة، فقد توقّف ليأخذ نفساً عميقاً ويملاً رئتيه بالهواء النقي. «هل سبق أن تسلّقت أي من هذه الجبال يا فلورا؟».

«بالطبع لا، فأنا فتاة. كما أن أمي ستصاب بنوبة صرع لو اقترحت عليها ذلك». «هل ترغبين في تسلّقيها؟ غداً مثلاً؟»، سألتها آرتشي وهو يمسك يدها. «ستكون مغامرة حقيقية. في رأيك أي واحدة نتسلّق؟ تلك؟»، قال وهو يترك يدها ويشير إلى الممر الطويل. «أو ربّما تلك؟».

«إذا كنّا سنفعل، من الأفضل أن نختار أعلاها، أقصد قمة جبل سكافيل».

أجابت فلورا وهي تشير إلى أطول قمة بينها. في تلك اللحظة، كانت أعلى نقطة فيها تختفي داخل هالة من الغيوم. «إنها الأعلى في إنكلترا. يقول والدي إن المنظر من هناك لا نظير له».

«إذن، ماذا قررت؟».

«ليس بالثوب!».

«فضحك».

«إذًا عليك العثور على سروال قصير. هل أنت مستعدة لذلك؟».

«ما دام أن الأمر سيبقى سرًا بيننا».

«بالطبع». عندئذٍ مدَّ آرتشي يده ليمسك خصلة من شعرها كانت قد ضلَّت مكانها، ويعيدها إلى خلف أذنها. «سأمرّ عليك غدًا لاصطحابك من عند البوابة الأمامية في تمام السادسة والنصف».



في ذلك المساء، فعلت فلورا ما لم تفعله من قبل. دخلت غرفة ملابس والدها. فعلى الرغم من أنها كانت تعرف أن الغرفة فارغة، وأنه لا يوجد أحد في الجوار، فسارت في تلك الساعة كانت في الكوخ الصغير الذي تشاركه مع والدتها، وتيلي والسيدة هيلبيك كانتا في المطبخ تتبادلان أحاديث ليلية، إلا أنها فتحت باب الغرفة بتردد. وعندما خطت فوق عتبة الغرفة وأصبحت في الداخل، شعرت بقشعريرة خفيفة بسبب انخفاض الحرارة في الداخل، كما أحسّت برائحة الرطوبة، وهي تمتزج بلفحة من عطر والدها. كانت الغرفة تغرق في ظلال المساء التي انعكست حول السرير الخشبي المفرد. ورأت ساعة موضوعة على المنضدة بجانب السرير، كانت تعدّ الثواني في غياب صاحبها.

فتحت فلورا باب خزانة الملابس المصنوعة من خشب البلوط الثقيل، وبدأت تتلمس بأصابعها رفّ السراويل مفتّشة عن حاجتها، إلى أن استقرّت على سروال رماية مصنوع من قماش التويد. بعد ذلك، تذكرت أنها بحاجة إلى جورب، ففتحت

درجًا يشبه الصندوق، مصنوع من خشب الماهوغي، فوجدته مليئًا بالأوراق. ورأت في إحدى زواياه، حزمة صغيرة من المغلفات البيض كانت ملفوفة بخيط رفيع، فتعرّفت على الفور على خطِّ والدتها، وشكّت في أن تكون رسائل حب من أيام المغازلة.

أغراها النظر فيها إلى أبعد الحدود، لعلّه يساعدها في فهم السبب الذي جعل والديها يتزوَّجان، وقبل أن تخونها أصابعها، أغلقت الدرج. وبعد أن عثرت على الجورب، أضافت إلى كومة الملابس التي لفتها فوق ذراعها قميصًا سميكًا، ثمّ عادت أدراجها إلى الباب.

ما إن لمست أصابعها المقبض، حتى اشتدّت حدّة الإغراء، فعادت مسرعة إلى الخزانة، ورمت الملابس على السرير، وفتحت الدرج وأخرجت منه كومة الرسائل. ثمّ سحبت أول رسالة تحت الخيط، وبدأت في قراءتها.

منزل كرانهيرست

كنت

13 آب 1889

عزيزي أليستير،

سوف نتزوج في غضون أسبوع. لا تكفيني الكلمات لأشرك على كونك فارسي ذي الدرع اللّماع وعلى إنقاذي من العار. في المقابل، أقسم لك أنني سأكون الزوجة الأكثر اجتهادًا وإخلاصًا التي يتمناها كل رجل. لقد أخبرني والدي أنّه حوّل المال. أتمنى أن يكون قد أصبح في حسابك.

أتطلع بسرور لرؤيتك ورؤية منزلي الجديد.

مع أطيب التحيات،

روز

قرأت فلورا الرسالة أوّل مرّة، وأعادت قراءتها مرّة أخرى لتحاول فهم المقصود من كلمة عار. ما الفظاعة التي اقترفتها أمّها يا ترى؟

«حسنًا مهما تكن، فإنّها تفسّر زواجهما»، قالت فلورا في فراغ غرفة تبديل الملابس. ورَجَّحت أن تكون والدتها قد وقعت في حب رجل غير مناسب؛ إذ إن هذا ما كان يحصل في معظم القصص التي قرأتها. ثمّ بدأت تفكّر في هويّة ذلك الرجل. على الرغم من أن والدتها لم تتفوّه يومًا بكلمة عن نشأتها، فإنّ أوريليا ذكرت في آخر رسالة لها معرفة الناس العميقة بأمّها، وهذا يؤكّد نظرية أن يكون لها ماضٍ. أعادت فلورا الرسالة إلى المغلّف، ثمّ دسّته تحت الخيط، وأعادت بعد ذلك الحزمة إلى الدرج. أخيرًا استعادت كومة الملابس عن السرير وغادرت الغرفة.



في صباح اليوم التالي، نهضت فلورا في السادسة صباحًا، وارتدت بسرعة سروال والدها وقميصه وجواربه. ثمّ مشّت على رؤوس أصابعها إلى غرفة الأحذية لتستعير حذاء مشي متين من أحذية سارة. كان مقاسه صغيرًا، لكن لم يكن لديها خيار آخر. وفي النهاية، ارتدت معطفًا لوالدها مصنوعًا من قماش التويد.

قبل أن تخرج خُلصة من المنزل، تركت ملاحظة للعاملات أخبرتَهنّ فيها بأنّها ستكون اليوم في الطبيعة لتقطف الأزهار من أجل رسوماتها. ثمّ مشّت على طول الممر المؤدّي إلى البوابة الرئيسية وعبرتها إلى الخارج. هناك رأت سيارة رولز رويس فضية، حديثة الطراز، تتوقّف عند حافة الطريق. وعندما وصلت إليها، فتح لها آرتشي الباب لتركب فيها.

«صباح الخير». قال وهو يبتسم من مظهرها. «تبدّين رائعة الجمال اليوم يا آنسة فلورا، بائعة الحليب. وملابسك تليق بسيارة السيلفّر غوست التي ستركبينها». «على الأقلّ هي عمليّة».

«وتبدّين مثل صبيّ بهذه القبعة. هاكِ نظارات القيادة ليكتمل مظهرك». وضعت فلورا النظارات على عينيها في عبوس، وقالت: «أنا مسرورة لأنّ أحدًا لن يتعرّف عليّ في هذه المنطقة».

«هل تتخيّلين ما ستقوله والدتك أو أختك لو رأتاكِ الآن؟»، سألتها وهو يشغل محرك السيارة.

«أفضل ألا أفكر في الأمر. كيف تمتلكون سيارة مثل هذه وقد أخبرتني أن عائلتك مفلسة؟ يقول أبي إن ثمنها باهظ جدًا».

«يؤسفني القول إن هذه السيارة ليست لي، بل لصاحب العقار المجاور لنا. أعارني إياها في مقابل استخدام كوخنا في هاي ويلد. وعده ألا أسأل عن سبب حاجته إليه. علمًا أن زوجة ذاك المسكين حامل بطفلهما السادس، في زواج دام منذ ست سنوات. لا أدري إذا كنت تفهمين قصدي».

«ثق بأنني لم أفهم».

«حسنًا، يسعدني أن أمنح هذه السيارة تجربة القيادة الجبلية. وضعت لوازم النزهة في حقيبة ظهر عسكرية قديمة أقرضني إياها السيد تيرنبول صاحب الحانة اللطيف، وجلبت معي بطانيتين قد نحتاج إليهما».

نظرت فلورا عبر النافذة إلى السماء في الأفق فوق القمم، وعبست لدى رؤيتها تلبّد الغيوم. «أمل ألا نكون قد اخترنا اليوم الوحيد الذي ستفتح فيه السماء فاهها، فهي لم تفعل ذلك منذ أسابيع».

«لكنّ الجو دافئ هذا الصباح، لحسن حظنا».

«يبدو كذلك. لكن والدي يقول إن درجات الحرارة تنخفض كثيرًا على المرتفعات. فقد تسلّق معظمها في السنوات الماضية».

«في هذه الحال، سيتعيّن علينا العثور على حظيرة لتركّن السيّارة فيها، لأنني وعدتُ فيليكس أن أعيدها إليه سالمة، ولا أستطيع المخاطرة بتبليّها».

وافق أحد المزارعين المحليين على إيواء سيارة الرولز رويس عنده. فأظهر صغاره الذين اتّسعت عيونهم لدى رؤيتها ودجاجاته بعض الحماسة ورغبة في ركوبها أمام ناظري آرتشي.

«قال أبي إن الوصول إلى القمة يستغرق نحو أربع ساعات». علّقت فلورا وهما ينطلقان في سيرهما نحو الوادي فوق العشب الخشن.

«والدك متسلّق محترف. لذلك أعتقد أن المسار سيستغرق منا وقتًا أطول». قال آرتشي وهو يخرج خريطة من حقيبته. «أرشدني صاحب الحانة إلى طريق سهل. لذلك، من الأفضل لنا أن نسلك هذا الطريق». والتقط قضيبًا رسم به خطأ في

التراب الجاف. «علينا أن ننتجه جنوبًا نحو إيسك هوز، ومن هناك سنواصل سيرنا إلى برود كراج كول». وقادها آرتشي على الطريق حاملاً الخريطة بيده.

«ما هي تلك النقاط البيضاء الصغيرة في أعلى الجبل؟».

«أغنام تترك روثها في كل مكان لندوس عليه».

«إذاً يمكننا أن نركب ظهر إحداها إذا شعرنا بالتعب. فضلاً عن ذلك، فإن تلك الحيوانات مفيدة جداً فهي توفر لنا الطعام اللذيذ على الموائد وتغطي أجسامنا بالصوف».

«أكره مذاق لحم الضأن. لذلك اتخذت قراراً ألا أقدمه على مائدتي عندما أصبح في منزلي الخاص».

«أحقاً؟ وماذا ستقدمين بدلاً منه؟».

«لم تسأل، الخضروات والأسماك بالطبع».

«إذاً لم أعد واثقاً من أنني أريد تناول طعام العشاء في منزلك».

«افعل ما يناسبك». قالت فلورا وهي تهز كتفها في أثناء تقدّمها في المشي.

سارت الأمور بمنتهى السهولة خلال الساعتين الأوليين اللتين استغرقهما هبوط المنحدرات. وكانا بين الحين والآخر، يتوقفان عند جدول ماء ينحدر إلى أسفل الوادي، ويغرفان من مياه الينابيع العذبة ليشربا أو ليرطبا بشرتهما الدافئة. ثمّ سلكا المسارات المدروسة التي ارتادها قبلهما المتسلقون المحترفون وهما يتناقشان بكل رقيّ ما قرآه في الكتب أو المقطوعات الموسيقية المفضلة لدى كلّ منهما. وفي ما بعد، تحوّلت المسالك إلى صعود صعب، ما اضطرهما إلى التوقّف عن الدردشة ليحافظا على نفسيهما، خصوصاً عندما بدأ يتسلقان الصخور الخشنة التي تخلّلت سفح الجبل.

«أعتقد أننا اجتزنا ثلثي الطريق»، قال آرتشي وهو يقف عند الصخور المكشوفة وينظر إلى أعلى. «هيا بنا نتسابق إلى القمة».

بعد ساعة، بلغا قمة الجبل وسط لهاث وتأوّه. فوقفا أحدهما إلى جانب الآخر،

وهما يشعران بالبهجة على ما أنجزاه حتى اللحظة. بدأت فلورا تحوم حول القمة وتتفحص المنظر الرائع الذي أطلت عليه.

«قرأتُ في كتاب البارحة أنه في يوم صافٍ يمكن رؤية اسكتلندا، ويلز، أيرلندا، وآيل أوف مان من هنا». قال آرتشي الذي لحق بفلورا ووقف إلى جانبها. «من المؤسف ألا يكون لدينا آلة تصوير لنحتفي بهذه اللحظة. هل أساعدك على الصعود إلى صخرة القمة؟».

«شكرًا لك». وأمسك آرتشي يدها بثبات لتتمكن من تسلق كتلة الصخور الضخمة، ثم تركها، فمدّت ذراعيها في الهواء، وهي تنظر إلى زرقة السماء، وقالت: «أشعر بأنني أقف على قمة العالم!».

«بالطبع أنت كذلك، فأنت في إنكلترا». قال ضاحكًا. ثم حاولت فلورا الإمساك بذراعيه لتنزل إلى أسفل، فأمسك بها من خصرها وترجّحت في حضنه قبل أن تحطّ على الأرض. وبقي آرتشي ممسكًا بها بضع ثوان، وفي النهاية نظر إليها، وقال: «فلورا، أعترف أنني أجدك جميلة جدًّا، وأنت سعيدة هكذا».

شعرت فلورا بتورّد خديها مرة أخرى، فيما تصاعد الضباب حولهما وأخفى المناظر الجميلة.

«أشعر بالجوع»، قالت له لتخفي خجلها.

«وأنا أيضًا. ما رأيك لو نعود إلى أسفل حيث الشمس ما تزال ساطعة فنتناول الطعام هناك؟ نصحني السيد تيرنبول بالتوجّه إلى الشمال الغربي نحو لينغميل. لقد أخبرني بأن الطريق مرصوف بالحجارة كما أن المنظر المطلّ على ويسدايل مذهل. لذلك يمكننا التوقف هناك لتناول الطعام».

«إذا سأبتعك إلى مائدة طعامنا»، قالت له وهو يلتقط حقيبة ظهره ويبتعد عن القمة.

بعد عشرين دقيقة من المشي، أخبرته فلورا أنها لم تعد قادرة على المسير، لذلك استقرّا على صخرة منبسطة حيث مدّ آرتشي سفرة غدائهما.

«لم يسبق أن ذقْتُ سندويشات جبنة بهذه الروعة». تمتمت فلورا. «ليتني

فكرت في إحضار لوحة الرسم وأصابع الفحم معي. الآن، عليّ حفظ هذا المنظر في ذاكرتي لأتمكن من رسمه على ورقة في ما بعد». وخلعت فلورا قبعتها فانسال شعرها على كتفيها، ثم رفعت وجهها إلى السماء وراحت تنعم بدفء الشمس.

«شعرك رائع»، قال آرتشي وهو يمسك بخصلة من خصلات شعرها ويلفها في حلقات حول إصبعه.

شعرت فلورا بصعقة صغيرة عندما لمسها آرتشي بتلك الطريقة الحميمة. «شعري سميك وقوي مثل حبال السحب. تقول والدتي إنها لا تعرف عمن ورثته. لذلك إذا انزلقت فجأة ونحن في طريق عودتنا، سأرميه إليك لكي تسحب نفسك إلى فوق».

قالت فلورا وهي تبتسم، وعندما استدارت إليه وجدته يحدّق إليها، كما أنّها لاحظت في عينيه تعبيرًا غريبًا. «ما بك؟».

«قد لا يكون مناسبًا أن أخبرك بما كنتُ أفكر. ما يمكنني قوله هو أنني وجدتُ فيك صحبة ممتعة وأنت بهذا المزاج المبتهج».

«شكرًا لك. أودّ أن أخبرك أيضًا أنني سامحتك أخيرًا على محاولتك الوشيكة لقتلي. مرتين».

«إذن نحن صديقان؟». للحظة، كان وجه آرتشي قريبًا جدًا من وجهها.

«نعم، نحن صديقان».

ثمّ استلقيا على صخرة منبسطة دافئة، وفكرت فلورا في أنّها لم تشعر من قبل بهذا القدر من الاسترخاء مع أي إنسان، واعتبرت ذلك تحولًا كبيرًا في تلك الظروف. «في رأيك ممن ورثت موهبتك في الرسم؟».

«لا أعلم. لكنني أعرف ملهمتي. ومن المرجح نحن قادران على رؤية مزرعتها من هنا».

«ومن تكون؟».

«كاتبة قصص أطفال تدعى بياتريكس پوتر. كنتُ في السابعة عندما أتت أول مرة إلى إستويت هول مع والديها لتحتسي الشاي عندنا. كنتُ حينذاك جالسة في

الحديقة، أحاول رسم يرقة عثرتُ عليها فوق ورقة خضراء وأنا أقارنها ببرّاق. فجلست إلى جانبي على العشب وأعجبت برسمتي، ثمّ سألتني إذا كان في إمكانها أن تريني طريقة رسمها. بعد أسبوع، استلمتُ مغلّفًا عبر البريد أشعُرني بالحماسة إذ كانت أوّل مرّة يصلني فيها بريد. وداخل المغلّف، وجدت رسالة من الأنسة پوتر. لم تكن رسالة عادية، بل قصّة «اليرقة سيدريك وصديقها البرّاق سايمون»، واحتوت القصّة على رسومات مائية صغيرة. وهي اليوم أغلى ما أملك».

«سمعتُ بالآنسة پوتر وبكتبها التي شهرتها في السنوات القليلة الماضية».

«صحيح، لكن عندما التقيتُها لم تكن مشهورة. اليوم تعيش بالقرب من سوارى في مزرعة هيل توب القريبة جدًّا من منزلنا».

«هل حاولت التعرّف إليها أكثر منذ وصولها إلى هناك؟».

«كلا. إنّها مشغولة في هذه الأيام، ولأنّها مشهورة لا أشعر أن في إمكانى الوصول إلى عتبة بابها من دون دعوة».

«هل تعيش بمفردها؟».

«أعتقد ذلك».

«ربّما كانت وحيدة. فكونها مشهورة لا يعني أنّها لا ترغب في رفقة. خصوصًا رفقة شابة مثلك قد ألهمتها ذات يوم».

«هذا ممكن، لكنني لستُ قادرة بعد على ضبط نفسي أمامها. فهي بكل بساطة مثلي الأعلى، وأتمنى في يوم من الأيام أن أعيش الحياة التي تعيشها».

«أيّ منهما؟ العانس العجوز التي ليس لديها سوى حيواناتها ونباتاتها لتشاركها حياتها؟».

«أقصد المرأة المستقلة ذات الإمكانيات العالية والقادرة على اختيار مصيرها بنفسها؟». أجابت فلورا.

«هل تعتقدين أن مصيرك هو أن تبقي وحيدة؟».

«لم يرني والدي ملائمة لأشارك في عرض البلاط الملكي مثل أختى الصغرى، لذلك اعتدتُ فكرة أنّي قد لا أنزوّج أبدًا».

«فلورا»، قال آرتشي وهو يُمسك يدها متردّدًا قليلًا. «حقيقة أنك لم تشاركي في عرض البلاط لن يمنع وقوعك في الحب ومشاركة حياتك مع رجل. ربّما لديهما أسبابهما لكي لا يرسلاك إلى هناك...».

«نعم. ينقصهما المال أو دعم الخالة شارلوت كما حصل مع أوريليا.»
«لم أقصد ذلك. في بعض الأحيان، هناك... ظروف لا نعرفها تؤثر في تصرفات الآخرين.»

«هل تقصد أنني لست جميلة بقدر أوريليا؟.»
«بالتأكيد لم أقصد ذلك! أعتقد أنك لا تدركين مدى إشراقك وتألقك، سواء من الخارج أو الداخل.»

«من فضلك آرتشي، أدرك محاولتك في أن تكون لطيفًا معي وأعرف السبب. الآن فلنعد إلى أسفل الجبل. هل رأيت كيف تجمّعت السحب فوقنا؟ أعتقد أن هناك عاصفة قادمة.» وأسرعت فلورا في النهوض متمنية في قرارة نفسها لو أن تلك المحادثة لم تبدأ. فقد أشعرتها بضعف غير مبرّر وغيّرت مزاجها بسرعة مثلما غيّرت الغيوم مزاج السماء من مشمس إلى قاتم.

بعد ربع ساعة، وجدا نفسيهما يحنيان رأسيهما فوق العشب الخشن وروث الغنم، بعد أن فتحت السماء فاهها وزادت قوة الرياح، وهطل المطر، ووخز بشرتهما على نحو مؤلم مثل الإبر الحادة.

«تفضّلي.» قال آرتشي بعد أن أخرج من حقيبة ظهره بطانية. «امسكي حافتها جيّدًا لكي تحميّنا من المطر.»

أمسكت فلورا طرف البطانية وسحبته فوق رأسها. في حين أمسك آرتشي الطرف الآخر واختبأ تحتها وسط ظلمة حالكة. لكن ذلك الدرع لم يكن كافيًا لحمايتهما، وامتصّ مياه المطر بسرعة فائقة.

«مرحبًا.» همس لها فشعرت بأنفاسه على خدها.
«مرحبًا.»

«هل التقينا من قبل؟ اسمي آرثشي، فتى المزرعة».

«وأنا فلورا، بائعة الحليب». لم تتمالك فلورا نفسها من الابتسام له.

«هذه رائحة روث الأغنام، أليس كذلك؟».

«أعتقد أنها الرائحة المفضلة في هذا الجزء من العالم».

«فلورا؟».

«أجل؟».

وبحثت شفتاه عن شفتيها وقبلها، فأحسّت برغبة جامحة في فمها أولاً سرعان ما انتقلت إلى جسدها. وعلى الرغم من أنها أبعدت شفتيها الحذرتين، لكنهما أبتا إطاعتها. عندئذٍ اقترب آرثشي أكثر بعد أن زادت حماسته، ولفّ ذراعيه بإحكام من حولها. يبدو أن قبلاتهما استمرّت فترة طويلة، وعندئذٍ تلاشت نية فلورا في التقدّم في السنّ وهي وحيدة، بالسرعة التي تلاشت فيها الغيوم الغاضبة فوقهما. أخيراً توقّف المطر، فأجهدت فلورا نفسها لإبعاد وجهها عن وجهه.

«يا إلهي فلورا»، قال آرثشي وهو يلهث، «ماذا فعلت لي؟ أنت معجزة! أنا أعشّقك...».

حاول الوصول إليها مرّة ثانية لكنّها نجحت في الابتعاد عنه، ثمّ انتزعت البطانية وجلست في حالة ذهول وسرور في الوقت نفسه. وبعد ثوانٍ قليلة، ظهر آرثشي من تحت البطانية، وجلسا جنباً إلى جنب في صمت تامّ.

«أعتذر إليك بصدق يا فلورا، فقد غلبتني مشاعري. الآن أنا واثق من أنّك ستضيفين هذا السلوك السيئ إلى قائمة الجُنح التي اقترفتها من قبل. من فضلك يا فلورا لا تفعلني، أتوسل إليك. ببساطة، لم أستطع كبح نفسي. ومهما كان ما سأقوله غير مناسب، صدّقي أنّني أعشّقك. لم أفكر في أي شيء أو أي أحد غيرك منذ أن رأتك عيناى في نيسان الماضي».

«أنا...».

«اسمعيني»، قال آرثشي وهو يمسك يدها. «هذه الفرصة الوحيدة والأخيرة التي سنكون فيها وحدنا. السبب الذي جعلني أصطحب إليزابيث إلى تلك الحفلة

الراقصة في لندن هو أنني كنت أتوقع رؤيتك هناك. وبعد ذلك تذكرت أن والدك دعاني إلى رحلة الصيد في المرتفعات، فبحثت عن عذر مثالي للمرور بك وأنا في طريق العودة من هناك. كانت الأيام الثلاثة الماضية معك... أروع ما حصل لي في حياتي. إذا هناك شخصان يليقان ببعض في هذه الحياة، فسيكونان أنا وأنت. أقصد بالتأكيد إذا شعرت بذلك أنت أيضاً؟».

أرادت فلورا النهوض لكنه سرعان ما أمسك يدها. «لو سمحتِ صدّقي ما أقول لك». توّسل إليها آرتشي. «أريدك أن تتذكّري كل كلمة أقولها لك الآن، وأن تنظري في عينيّ لتعرفي أن كلامي حقيقي. يجب أن أغادر الليلة لأكون في المنزل غدًا كما وعدتُ والدتي، لكنني أقسم لك أنني سأراسلك، وسنلتقي مجددًا». عكست عيناه الداكنتين وضوحًا في أفكاره، فيما كان يشدّ على يدها أكثر براحة يده.

«أريد فقط أن تثقي بي مهما حدث في المستقبل، يجب أن تثقي بي».

التفتت فلورا إليه بعد أن تأثرت بمشاعره المهتاجة على نحو مفاجئ. لكن كيف يمكنها أن تثق به، ولم تمرّ على معرفتها به سوى ثلاثة أيام؟

ثمّ شاحت ببصرها عن عينيه. ««الأفضل أن نغادر وإلا ستقلق سارة عليّ».

«نعم بالطبع»، وأفلت آرتشي يدها مثلما ينقطع الحبل تحت الضغط، فشعرت بياس غريب.

عادا إلى أسفل الجبل في صمت رهيب وبمزاج ثقيل مثل ملابسهما المبتلة.

بعد أن انطلقت السيارة، حاولت فلورا إبقاء عينيه مفتوحتين من شدة التعب ومن شدة ارتباكها العاطفي. أمّا آرتشي فجلس وراء المقود على بعد سنتمترات منها، وبقي كلّ منهما شاردًا في أفكاره. في النهاية، أوصلها إلى بوابة منزلها، وأطفأ محرّك السيارة.

«فلورا، عليّ العودة إلى المنزل لأصحّ خطأً فادحًا لم أدرك أنني اقترفته إلا الآن. أقسم لك أنني سأصحّحه. أتوسّل إليك ألاّ تنبذي ما حدث بيننا في الأيام الثلاثة الأخيرة. وتذكّري دائمًا، مهما بدا لك الأمر سورياليًا بمرور الوقت، أنه حقيقي. هل تعدينني بذلك؟».

حدّثت فلورا إليه، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقالت: «نعم، سأفعل».

«إذن وداعًا يا عزيزتي فلورا».

«مع السلامة».

ترجّلت فلورا من السيارة وأغلقت الباب بقوة، وسارت مترنّحة عبر البوابة كما لو أن الأرض لم تكن صلبة تحت قدميها. وعندما وصلت إلى المطبخ، وجدت سارة تجلس رافعة ساقيها فوق الموقد وتمضغ قطعة حلوى. وكانت السيّدة هيلبيك تجلس إلى الطاولة وتحتضن پانثر في ذراعيها. نظرت كلتاها إلىها بذهول، لكن سرعان ما انفجرتا بالضحك.

«آنسة فلورا، أين كنت بحق السماء، وماذا ترتدين؟! تبدين كمن نجا من الغرق»، صرخت سارة بعد أن عدّلت جلستها.

«أنا»، أجابت وهي تشعر بالامتنان كونهما يذكرانها بضرورة تماسك نفسها والعودة إلى حالتها الطبيعية من الظاهر والداخل أيضًا. بدأت سارة تفرك شعرها بقماشة موسلين لتجففه، فقالت لها فلورا بنبرة حاملة: «كنتُ في الجبال».

«من الجيّد أنك فعلت شيئًا جديدًا» تمتمت سارة.

«يا طفلي العزيزة، اصعدي إلى الطبقة العلوية واخلمي ملابسك المبللة. سأحضر لك صينية شاي وأملأ الحوض لتستحمي».

«شكرًا لك». وسارت فلورا ببطء إلى غرفة الأحذية، ونزعت حذاء المشي المبلّل عن قدميها المتألمتين. بعد ذلك، عرّجت على القاعة الكبيرة قبل أن تصعد إلى غرفتها. هناك استقبلتها حيواناتها الجائعة في شجار ساخط. خلعت ملابسها وارتدت ثوبًا قبل أن تسرع في إدخال الأوراق والبذور عبر قضبان الأقفاص. فجأة، شعرت بإرهاق شديد شلّ أطرافها، فمشت إلى السرير واستلقت فوقه.

ومع عودة سارة إلى الطبقة العلوية حاملة بيدها صينية الشاي، كانت فلورا قد غطّت في نوم عميق.

13

بقيت فلورا الأسبوع التالي كلّه في السرير تعاني قشعريرة جرّاء ارتفاع حرارة جسمها. وأصبح موضوع آرتشي أشبه بحلم لدرجة أنّها تساءلت عمّا إذا كان الأمر برّمته من نسج خيالها.

وعندما شعرت بتحسّن، استطاعت الخروج من السرير، فوقفت على ساقيها الضعيفتين ونزلت إلى الطبقة السفلية تبحث بين الرسائل الموضوعة في طبق الفضة في ردهة مدخل المنزل عن رسائل لها. ومن خطّ اليد، عرفت أن هناك رسالتين من أوريليا ورسالة ثالثة من والدتها، أمّا الرابعة فكانت من آرتشي، وكانت مكتوبة بخطّه الأنيق. جلست في القاعة وفتحت المغلّف بيدين مرتجفتين من شدّة الضعف الناتج من مرضها، ومن شدّة الخوف مما فيه.

هاي ويلد

أشفورد، كنت

5 تموز 1909

عزيزتي فلورا،

أمل أن تكوني بخير، لأنني عانيتُ في الأيام الأخيرة التي تلت هروبنا إلى القمة، من نزلة صدرية تسبّبت لي في قشعريرة قوية. أرغب في أن أخبرك بأنني كنت أقصد كلّ كلمة قلّتها لك آنذاك.

الآن، أطلب إليك أن تصبري قليلاً لأنّ الوضع معقّد هنا وأسعى إلى

حلّه عمّا قريب. ولا علاقة لك به بتاتاً، لا سيّما أنّه لا يتعلّق بمشاعري تجاهك أبداً، لكنّه مرتبط بميلي إلى حلّ الأمور على نحو جذري صحيح. أعرف أنّي أحدثك ألغازاً، ولكن يؤسفني القول إنّّه قد جرى التخطيط لذلك الوضع مسبقاً، أي قبل أن أراك، وسأبذل قصارى جهدي لأخرج نفسي منه لكي أمهّد الطريق أمامنا. وبالنظر إلى حساسية ذلك الوضع أقترح أن تحرقني هذه الرسالة لأنّني أعرف إلّام ستودّي إذا وقعت في الأيدي الخطأ. ولستُ مستعدّاً للتضحية بك أبداً.

إلى حين ذلك، أتوسل إليك مرة أخرى أن تثقي بي.

صديقك المخلص ومعجبك الشغوف،

آرتشي فوغان

ملاحظة: أرجو أن تنقلي تحياتي إلى پانثر، أمل أن يعتني بك جيّداً

في غيابي.

قرأت فلورا كلماته أوّل مرّة، وأعادت قراءتها مرّة أخرى محاولة فهم قصده. وعندما بدأت الحروف تتراقص أمام عينيها، طوت الورقة وسط تنهيدات عميقة، وأعادت الرسالة إلى المغلف.

لتلهي نفسها قليلاً، بحثت عن رسائل أوريليا. كانت الأولى عبارة عن ثرثرة فارغة.

تمّ الإعلان عن خطوبتين، ودُعيْتُ وأمّي لحضورهما. في الحقيقة، هناك عدد من الشبان يلاحقونني، لكن لم ينجح أحدهم في الإيقاع بقلبي. كما أنّي أشعر بخيبة لأنّ عدوّك اللدود آرتشي فوغان ليس على ما يرام، ولذلك اضطرّ إلى إلغاء زيارته المرتقبة إلى لندن.

الآن أشكّ في أنّي سأراه مجدّداً قبل انتهاء الموسم. لقد تفرّق الجميع هنا مع بداية الصيف، بعضهم عاد إلى منزله، وسيغادر آخرون إلى الخارج.

أعترف لك أنني لا أرغب في العودة إلى إستويت هول بعد الوقت
الذي قضيته في لندن، وأشعر بأنني سأملُ هناك، على الرغم من أنني
أتحرق شوقاً لرؤيتك يا أختي العزيزة.

عدوّي اللدود آها! وضعت فلورا الرسالة جانباً وهي تفكر في الانقلاب الجذري
الذي حصل منذ آخر مرّة رأت فيها أوريليا. بعد ذلك، أدركت وجوب الاعتراف
لنفسها أولاً ولو بقلب مثقل، أن أختها كانت تكنّ مشاعر لآرتشي. ويبدو أن كلّ ما
تتمناه أوريليا هو أن أحبه وأسامحه. ويا للرعب لو عرفت الحقيقة؟

صعدت فلورا إلى غرفتها ودست الرسائل في الجيب الحريري الخلفي لدفتر
يوميّاتها، ثمّ وضعته داخل درج مكتبها. وبدأت تتلو في صمتها صلاةً، أنانية قليلاً،
تطلب فيها أن يستحوذ رجل... أيّ رجل عدا آرتشي، على قلب أوريليا قبل انتهاء
الموسم. كانت هناك أمورٌ كثيرة لتشاركها فلورا مع أختها لدى عودتها إلى المنزل،
باستثناء موضوع شغفها الجديد بآرتشي فوغان.

بعد ذلك، استلقت فوق السرير وفتحت رسالة أوريليا الثانية.

4 ميدان غروسفينور

لندن

7 تموز 1909

مكتبة

t.me/soramnqraa

أختي العزيزة،

بمزيج من الحزن والفرح الشديد أكتب لك هذه الرسالة لأخبرك بأنني
لن أعود إلى المنزل بالسرعة التي تصوّرتها. لقد دعّني السيّد فوغان
إلى هاي ويلد. وقد أخبرتني إليزابيث عن جمالها، لذ أتطلّع بشوق إلى
رؤية حدائقها الأسطورية التي وصفتها بشغف. لكنني أيضاً، كما يمكنك
أن تتصوّرني، أتطلّع بشوق إلى رؤية آرتشي الذي سيكون هناك. قيل لي
إنّه ما يزال يعاني نزلة صدرية، ولهذا لم أتمكن من رؤيته ثانيةً في لندن،

ولم أكن الوحيدة التي افتقدته. ستعود أُمِّي إلى إستويت بمفردها. أمل أن تسامحيني على تمديد إقامتي في الجنوب لكنني واثقة من أنك تتفهمين السبب. أعدك أن أكون في المنزل في أيلول، وإلى ذلك الحين سأواصل في مراسلتك بانتظام.

مع خالص محبتي،
أختك الفاضلة أوريليا

شعرت فلورا بألم في صدرها تجاوز تقرّحات قدميها والحمّى وكل الحزن الذي تشعر به كلّما فقدت أحدًا من حديقة حيواناتها. ستبقى أوريليا في هاي ويلد لتكون أوّل من يرى المنزل الذي يملكه آرتشي، والذي وصفه وحدائقه الرائعة على نحو مثير.

على الفور تصوّر عقلها الخائن أوريليا في أحد فساتينها الجميلة وقبعتها الشمسية الكبيرة المزينة بالأزهار فوق شعرها الأشقر اللامع، تنتزه عبر الحدائق وهي تمسك ذراع آرتشي. مرة أخرى، غرقت فلورا في وسائدها، لكنها شعرت هذه المرّة برغبة في التقيؤ فوق فراء پانثر الأسود الأنيق.

وعندما طرقت سارة الباب بعد مرور ساعة، لتسألها عمّا ترغب في تناوله على الغداء، تظاهرت بالنوم. شكّت في أنها ستشعر بالجوع مجددًا بعد ذلك اليوم.



رجعت روز إلى المنزل في الأسبوع الأول من آب. استطاعت فلورا أن تشعر بتوتّرها الذي عزّته إلى استياء أمها من العودة إلى منزلها بعد أضواء لندن الساطعة. بعد ثلاثة أيام، عاد والدها من المرتفعات، الذي كان دائمًا بائسًا في نظر فلورا. ربّما كان غياب أوريليا هو السبب، أضف إليه خيالها الواسع الذي جعل أفكارها المظلمة، تسافر إلى أختها، وتخمّن ما كانت تفعله مع آرتشي في هاي ويلد. المهم أن المنزل برمّته بقي تحت غمامة من الكآبة.

الآن، وقد تعافت كليًا من مرضها، عادت فلورا إلى روتينها اليومي. بدأت تستيقظ باكراً لتؤمن الطعام لحيواناتها. وكانت تخرج في العربة لإنهاء المهام في هوكسهيد، وكانت ترسم أي كنز جديد تعثر عليه في أثناء رحلاتها في شمس الظهيرة. وكانت عندما تبقى في المنزل، تسمع همسات مكتومة من خلف باب مكتب والدها. أما المحادثة إلى مائدة العشاء فباتت أكثر تعقيداً من المعتاد.

عندما بدأ آب يلفظ أنفاسه الأخيرة، حاملاً معه الصيف إلى العام التالي، طلبت روز ذات يوم من ابنتها أن تزورها في غرفتها بعد انتهاء الفطور. شعرت فلورا بارتياح غريب في أثناء توجّها إلى هناك، وعند قرعها باب الغرفة. فمهما كانت ستقوله أمها، فسيكون حتماً في مثابة تفجير قبلة بعد كل الضغط الذي كبته أسابيع.

«مرحباً يا أمي»، قالت فلورا عندما دخلت الغرفة.

«ادخلي واجلسي إلى جانبي يا فلورا».

جلست فلورا على الكرسي حيث أشارت أمها. كان النور يتدفق من النوافذ، ويضيء ألوان السجادة الهندية القديمة الباهتة تحت أقدامهما. وكانت النار المشتعلة خلف الشباك الحديد تشير إلى انتهاء فصل وبداية آخر.

«فلورا، في الأسابيع القليلة الماضية، ناقشتُ مع والدك مستقبل... عائلتنا».

«فهمت».

«آمل ألا يشكّل ما سأقوله لك بعد حين صدمة. فعلى الرغم من أنك لا تتحدّثين كثيراً، لكنني أعرف كم أنت دقيقة الملاحظة».

«فعلاً؟». تفاجأت فلورا من تعليق والدتها.

«نعم، أنت شابة ذكية ومدركة».

عندئذٍ أدركت فلورا أن ما سيلي سيئ جداً، لأنها لا تذكر أبداً أن والدتها جاملتها في السابق على ذاك النحو. «شكراً يا أمي».

«لا أجد طريقة أخرى لأخبرك بهذا، لكن والدك سيبيع إستويت هول».

واصلت روز كلامها وهي تشيح ببصرها عن فلورا التي حبست أنفاسها في حلقها من وقع الخبر. «خلال السنوات القليلة الماضية، أنفقنا كل قرش لدينا على صيانة المنزل، ولذلك تعيش أسرتنا اليوم باقتصاد. لكننا لم نعد نملك النقود، أو بالأحرى يرفض والدك الاستدانة أكثر لتمويل الإصلاحات اللازمة. هناك مشترٍ مستعد لدفع سعر جيد، كما أنه يملك ما يكفي من المال لترميمه. وجد والدك منزلاً في المرتفعات بالقرب من بحيرة لوخ لي، وسننتقل إليه في تشرين الأول القادم. أنا آسفة يا فلورا، أدرك مدى حبك أنت بالذات لهذا المنزل ومحيطه، لكن ما باليد حيلة».

عجزت فلورا عن الرد.

«ربّما ليس الحلّ المثالي، أو افقك الرأي...». كانت فلورا تراقب والدتها وهي تعاني في بلع ريقها لتحافظ على رباطة جأشها. «أنا أيضاً أجدها خطوة صعبة لكن لا مفرّ منها. أما بالنسبة إليك يا فلورا، لقد شعرنا أنا ووالدك أنه سيكون من الخطأ أن نصحبك معنا إلى مثل ذلك المكان المعزول فيما أنت في عزّ شبابك وبحاجة إلى رفقة الآخرين. لذلك وجدت لك وظيفة في لندن في منزل، وأعتقد أنها ستناسبك كثيراً».

للحظة، تصوّرت فلورا نفسها تلمّع الموقد وتقرّش البطاطس في قبو المطبخ. «وما هي تلك الوظيفة يا أمي؟»، تمكنت فلورا أخيراً من النطق بحلق جاف. «صديقتي العزيزة بحاجة إلى فتاة تقدّم لابنتيها تعليمًا إضافيًا. فأخبرتها عن براعتك في الرسم وعن اطلاعك الواسع في علم النبات. فسألتنني إذا كنتِ ترغبين في الانضمام إلى أسرتهما لتتقلي مهاراتك إلى ابنتيهما».

«هل سأصبح مربية؟».

«لا.. ليس بالمعنى الحرفي. لأنّ تلك الأسرة فاحشة الثراء، ولديها عدد كافٍ من العاملين لرعاية ابنتيها وتعليمهما. لنقل إنك ستكونين مدرّسة».

«هل لي أن أسأل عن اسم صديقتك؟».

«اسمها السيّدّة آليس كيبييل. وهي تحظى باحترام مجتمع لندن الراقى».

فأومأت فلورا على الرغم من أن أسماء الأشخاص الذين يعيشون في لندن لم

تكن مألوفة بالنسبة إليها بما أنها تعيش وسط البحيرات البرية، فضلاً عن أنها لم تكن قادرة على تقييم إذا كانوا محترمين أم لا.

«إنها سيّدة ذات نفوذ وسيكون شرفاً عظيماً لك إن اختارتك لمثل تلك الوظيفة». فجأةً بدا تعبير غريب على وجه أمها. «حسناً هذه هي حالنا اليوم. أردتك أن تعرفي أنك ستنضمين إلى تلك الأسرة في بداية تشرين الأول».

«وماذا عن أوريليا؟ هل ستنتقل للعيش معكما في المرتفعات؟».

«أوريليا ستعيش مع خالتها شارلوت في لندن عندما تعود من كنت... مؤقتاً. لنأمل ألا يمرّ وقت طويل قبل أن تدير أوريليا منزلها الخاص».

شعرت فلورا بتوقّف نبضات قلبها. «هل ستتزوج؟ ممّن؟».

«أنا واثقة أن أختك ستخبرك بالتفاصيل عندما تُعلن الخطوبة. والآن يا فلورا هل لديك أسئلة أخرى؟».

«كلا». لم تجد مغزى في طرح أسئلة إضافية، فمصيها قد حُدّد مسبقاً.

«عزيزتي». قالت روز بتردد وهي تمدّ يدها إلى فلورا. «أنا حقاً آسفة. أتمنى لو اختلفت الأمور لكيلنا. لكنّ الأمور هكذا، وعلينا أن نتقبلها كما هي على الرغم من مرارتها».

«أجل». شعرت فلورا بتعاطف والدتها المفاجئ، التي بدت هي أيضاً محبطة مثلها. «أنا واثقة من أنني سأتكيف مع ظروفك الجديدة. أخبرني السيّدة كييل... أخبرني أنني أشعر بالامتنان».

وقبل أن تتمكن من احتقار نفسها والانفجار في بكاء صاخب ومقفر، غادرت غرفة والدتها على عجل، وذهبت إلى غرفتها، وأقفلت على نفسها في الداخل. وهناك ارتمت على السرير، وسحبت البطانية فوق رأسها وبكت في صمت إلى أن جفّت دموعها.

«خسرت كل شيء... المنزل، أختي، حياتي...».

تسلّل بانثر تحت البطانية، وعندما لامست فروته الناعمة والدافئة بشرتها

تسببت في انسياب دموعها أكثر. «والآن ماذا سيحدث لك؟ أنت وپوزي وبقية الحيوانات؟ لا أتخيل تلك السيدة كييل - ولفظت اسمها كأنها تبصق سُماً - سترغب في ضفدع عجوز وفأر في منزلها الراقي. أنا، ينتهي بي الأمر كمدرسة أطفال! يا إلهي پانثر، بالكاد أعرفهم، ناهيك بكيفية تعليمهم، كما أنني لست واثقة من أنني سأحبهما».

استمع پانثر إليها بكثير من الصبر من دون أن يتوقف عن الخرخرة في أذنها. «كيف يمكن لأمي وأبي أن يفعلوا ذلك بي». نزعت فلورا البطانية عنها، ونهضت تجلس على السرير، وتحقق من خلف النافذة إلى منظر مياه إستويت المجيد. وإذا بالحزن يأخذ مكان الغضب. ثم نهضت تتجول في الغرفة، غارقة من أسها في التفكير بحلّ قد ينقذ منزلها الحبيب. عندما استنفدت كل الاحتمالات التي لم تكن موجودة في الأساس، قررت فتح باب الأقفاص وهرعت حيواناتها خارج أسرها تلفّ وتدور حول مالكتها وتحتمي تحت جناحها.

«يا إلهي!» أطلقت فلورا تنهيدة طويلة وعميقة وهي تضمّها إليها. «ماذا يمكنني أن أفعل بحق السماء؟».



فيما بدأ رذاذ المطر يتناثر فوق البحيرة مع انبثاق الفجر وهبوط الظلام في وقت أبكر كلّ مساء، بدأت فلورا في المكوث وقتاً أطول خارج المنزل ما استطاعت. فحتى الساعة، لم يفاتحها والدها بخطته بيع المنزل، أو بانتقالها الوشيك إلى لندن. وبما أن وجبات الطعام في ذلك المنزل بقيت على حالها، بدأت تتساءل عمّا إذا كان سيودّعها عند رحيلها في غضون أسبوعين.

كانت الإشارة الوحيدة إلى التغيير الحاصل في ذلك المنزل، مجيء عدد من الشاحنات لحمل الأثاث، إمّا بهدف عرضه في مزاد، وإمّا لنقله إلى المنزل الجديد في اسكتلندا. كانت فلورا تجهل مصير كل قطعة أثاث في بيتهم. وعندما رأت الرجال يدخلون صناديق فارغة إلى متجر الكتب، تسلّلت إليها مثل لص وجمعت على حين

غزة عددًا من كتبها المفضلة، والتي كانت قادرة على حملها تحت ذراعيها، وصعدت بها إلى الطبقة العلوية.

خلال موسم القطاف في إستويت وضواحيها، كان الطقس جميلًا على غير عادة، ما سمح لأهل القرية بالخروج إلى الحقول لجمع التبن قبل هطول المطر. وسارت فلورا عبر الممرات حاملة سلتها فوق ذراعها، وهي تلقي التحية على الوجوه المألوفة التي كانت ستودّعها قريبًا، وجمعت عينات مختلفة من النباتات التي عثرت عليها. لم تتخيل لحظة أنها ستعثر على ما يكفي من النباتات المثيرة التي ستساعد في مهمتها الجديدة في مجال الرسم.

المشكلة الأكثر إلحاحًا كانت تحديد مصير حديقة الحيوانات. فلو قرّرت إطلاق سراحها، سيكون ذلك بمنزلة الحكم عليها بالإعدام بعد كل تلك السنوات في إستويت هول. لكن ماذا عساها أن تفعل؟

في صباح أحد الأيام، استيقظت فلورا باكراً بعد أن نجحت في العثور على إجابة عن سؤالها. وبعد تناولها الفطور، ارتدت أفضل قلنسوة عندها ومشّت إلى الإسطبل لتجهّز العربة.

«حسنًا»، قالت لمهرتها وهي تسوطها لتنتقل بسرعة. «يمكنها أن ترفض فحسب».

بعد بعض الوقت، أوقفت فلورا العربة أمام مزرعة هيل توب وربطت مهرتها بعمود. ثمّ قوّمت لباسها وقلنسوتها وفتحت البوابة الخشبية. وفي أثناء عبورها الممر المؤدّي إلى المنزل، لفتتها مساكب الورود التي اعتنّى بها جيّدًا، والتي طغى عليها الزعفران والداليا الأرجوانيان. ثمّ لفتت نظرها، من جهة اليسار خلف بوابة الحديد الخضراء، مساحة مزروعة بالنبات، فاقتربت منها لتتعرّف إلى نوعها، ووجدت حبات كرنب كبيرة وأوراق جزر كثيفة، ورأت كرمة وستارية تتسلّق الجزء الأمامي من المنزل، وسفرجلًا يابانيًا ناضجًا يبهج الجدران الرمادية.

عندما أدركت أن كل ما يفصلها عن بطلتها كان ذلك الباب المصنوع من خشب البلوط، توقّفت في مكانها. فمرة أخرى، كادت شجاعتها أن تخذلها، لكن

سرعان ما تذكرت مصير حيواناتها المجهول، فلم تجد ضرراً في المحاولة. فطرقت الباب بمطرقة النحاس المثبتة فيه. وما هي إلا ثوانٍ حتى سمعت خطوات تقترب من الباب. وعندما فُتح، وجدت نفسها أمام عيينين لماعتين تستفسران عن هوية الطارق.

«مرحبًا، كيف يمكنني مساعدتك؟».

على الفور تعرّفت فلورا على الأنسة پوتر. ولأنّها توقّعت أن تفتح لها الخادمة الباب، انعقد لسانها من وقع المفاجأة، إذ كانت صاحبة المنزل بنفسها تقف أمامها. وبدت لها بطلتها شعثناء، وهي تسمح يديها بمئزرها المهترئ والمتسخ بلطخات من الفاكهة، الذي كانت تضعه فوق ملابس متواضعة؛ تنورة من الصوف الرمادي وبلوزة بيضاء.

«أنا واثقة أنك لا تذكريني»، بادرت فلورا إلى القول بنبرة خجولة. «اسمي فلورا ماك نيكول وأعيش في إستويت هول، غير بعيد من هنا. لقد زرتنا مع والديك لتناول الشاي، وفي ما بعد كتبت لي رسالة تضمّنت قصّة البرقة والبرّاق».

«لَمْ تقولين ذلك. بالطبع أذكرك يا آنسة ماك نيكول. لقد كبرت منذ ذلك الحين. أَلن تتفضّلي بالدخول؟ كنْتُ أصنع مربّى التوت الأسود وعلّي مراقبته وهو يغلي. فهذه أوّل مرّة أصنعه بنفسي».

«شكرًا لك». أجابتها فلورا التي لم تصدّق أذنيها، وهي تتلقّى دعوة الأنسة پوتر الشهيرة إلى الدخول.

استقبلت الأنسة پوتر فلورا في قاعة أمامية كانت مزخرفة على نحو أنيق وفاخر يتناقض والمظهر المتواضع للمنزل من الخارج. رأت فلورا ساعة قديمة موضوعة بجوار السلالم، وإلى جانبها خزانة كبيرة من خشب البلوط ممتلئة بكنوز صغيرة. كلّ شيء كان نظيفًا وأنيقًا مثل بيت الدمى. وتخيّلت فلورا الفأرة التي تناولتها حكاية الأنسة پوتر، وهي تتنقّل بسرعة في الأرجاء، وتحدث فوضى داخل الكوخ. وقرصت نفسها خلسةً لتتأكّد من أن كل ذلك حقيقيّ.

«آه يا عزيزتي، التصقت المربى في قعر القدر مجدّدًا». قالت الأنسة پوتر،

وهي تسرع إلى النار المشتعلة وتكشف عن محتويات القدر التي تغلي أكثر من اللزوم. وفاحت رائحة السكر المحروق داخل الغرفة. «يجب أن تعذريني، سأواصل تحريك المحتويات وأنا أستمع إليك. في العادة، تقوم السيّدة كانون بتحضير المربّى لكنني هذه المرّة أردتُ أن أكتسب مهارة جديدة. من فضلك، اجلسي وأخبريني عن سبب تشريفك لي بهذه الزيارة؟».

«أنا... حسنًا، في الحقيقة جئتُ أطلب معروفًا، أو في الأقل بعض النصائح». جلست فلورا إلى الطاولة كما طلبت إليها الآنسة پوتر، سمعت مواءً خاطئًا لقطة كبيرة أرادت النزول عن الكرسي. «لا بدّ من أن تكون تاييثا تويثشيت نفسها؟» «لا تهتمّ يا توم! كل ما يريده هو إحداث ضجة. وما هو بالضبط ذلك المعروف؟».

«أنا... حسنًا...»، قالت فلورا وهي تحرّر حلقتها. «سبق أن أنقذتُ عددًا لا بأس به من الحيوانات التي أويها حاليًا في غرفتي». «تمامًا مثلما كنتُ أفعل عندما كنتُ طفلة!»، قالت الآنسة پوتر وهي تضحك مبتهجة. «وأي نوع من الحيوانات لديك؟».

استعرضت فلورا مجموعتها في أثناء مواصلة الآنسة پوتر تحريك المربّى وإصغائها إلى فلورا باهتمام. «نعم، كان لديّ كل الحيوانات التي وصفتها باستثناء الضفدع على ما أعتقد. على الرغم من أنّي كنتُ أملك واحدًا في وقت ما... في أي حال، لم توضحي لي بعد ما هو المعروف؟».

«ربّما سمعت أن إستويت هول معروضة للبيع. لذلك سأنقل إلى لندن لأعمل في التدريس المنزلي، سأدرّس علم النبات والرسم لطفلتين. في الحقيقة، ليس لديّ فكرة عمّا يجب فعله بحيواناتي الأليفة اليتيمة والمسكينة».

«آها!». رفعت الآنسة پوتر القدر عن النار ووضعت على لوح من الفلين فوق الطاولة. «الإجابة بسيطة، ستجلبينها إلى هنا لتعيش معي في هيل توب. لن أعدك بأن تحظى هنا بالاهتمام الذي عوّدتها عليه، لأنني حاليًا مشغولة على نحو غير عادي، فأنا أكتب القصص، هل تعلمين ذلك؟».

«نعم يا آنسة پوتر، لديّ كل ما نشرته حتى الآن».

«أحقًا؟ هذا لطف منك. حسنًا والآن بالنسبة إلى مشكلتك، لدي سقيفة حديقة كبيرة دافئة وجافة أستخدمها بانتظام لإيواء الطيور الجريشة وأمثالها. لذلك ستكون حيواناتك موضع ترحيب في منزلي. هناك كثير من الحشرات لضفدعك. كما أنّني أحفظ بما يكفي من البذور لبقية الحيوانات. على الرغم من أنّني تعلّمتُ الدرس عدم إطعام الأرانب بذور الحشيش، فقد تسببتُ لأرنبي المسكين بنيامين في نوبة مضحكة ذات مرة. قلت لي لديك فأر أبيض؟ هذا يعني أنّه عليّ منع توم من دخول السقيفة».

وبدأت الآنسة پوتر تردّد شفاهة قائمة الترتيبات لتحمي الوافدين الجدد إلى منزلها. فشعرت فلورا بامتنان كبير وارتياح لم تتوقّعه قط. ثم أضافت وهي مفعمة بالأمل: «لديّ أيضًا قطّ صغير يدعى پانثر».

«أخشى أن يسبب هذا لنا مشكلة يا عزيزتي لأنّ توم فرض سيطرته على المكان منذ فترة طويلة، وقد لا يتعامل معه بلطف كونه منافسًا له. هل لديك مكان آخر تأخذين ذلك الپانثر إليه؟».

«لا أستطيع التفكير في خيار آمن».

«حسنًا سأسأل في الجوار، أنا واثقة من أننا سنجد شخصًا يتبنّاه».

«شكرًا لك». أجابتها على الرغم من أن كلمات الشكر تلك بدت غير كافية مقابل كرم الآنسة پوتر.

«هل يمكنك مساعدتي في نخل المربى وصبه في الجرار؟».

«بالطبع». ونهضت فلورا عندما رأت الآنسة پوتر ترفع قدر المربى عن الطاولة. وقفت الاثنتان جنبًا إلى جنب تغربلان المربى عبر الشاش للتخلص من بذور التوت الأسود، ثمّ سكبتاه في الجرار.

«يا لها من ثمرة سلسة». قالت الآنسة پوتر. «لقد نضجت تحت المطر، فكما تعرفين لدينا كثير منها هنا. إذاً هل أنت متحمسة للذهاب إلى لندن؟».

«إطلاقاً. لا أعرف كيف سأتحمل مغادرة إستويت». اعترفت فلورا. «فكل ما أحبه موجود هنا».

«حسنًا، يجب أن تتحملي، أنا واثقة من أنك ستنجحين». وكشطت الأنسة پوتر المربى من القعر. «أنا نشأت في لندن. ستجدين فيها عددًا من المتنزهات والحدائق الجميلة، وبالطبع هناك متحف التاريخ الطبيعي... واي، وحدائق كيو! أنصحك يا عزيزتي أن تستفيدي أقصى ما يمكنك من إقامتك هناك. فكما يُقال أي تغيير هو أخذ قسط من الراحة».

«سأحاول يا آنسة پوتر».

«جيد». أومأت الأنسة پوتر عندما بدأت في وضع أقراص الشمع فوق المربى ثم أغلقتا الجرار بالأغطية. «الآن أعتقد أننا نستحق مكافأة على مجهودنا. فيما أنقلها إلى مخزن المؤن لكي تبرد، هل يمكنك أن تفضلتي بسكب كأس لاحتسيها». وهذا ما فعلته فلورا. ثم رغبت في إخبار الأنسة پوتر بأمنيتهما في استنساخ حياتها، لكنها خشيت أن تبدو مبتذلة في نظرها. وسلّمت بطلتها كأسها وجلستا إلى الطاولة تحتسيان الشراب. حاولت فلورا أن تجعل من تلك اللحظة ذكرى حلوة لعلها تُهدئها في المستقبل الذي ما يزال غامضًا بالنسبة إليها.

«هل مازلت ترسمين يا آنسة ماك نيكول؟ أذكر أنك كنت ترسمين في صغرك».

«نعم، لكن معظم رسومي لمناظر طبيعية، وفي بعض الأحيان أرسم الحيوانات».

ضحكت الأنسة پوتر قائلة: «وهل هناك ما يمكن رسمه غيرها؟». «النباتات والحيوانات ليست مادة للنقد الفني مثل الكائنات البشرية. لذلك، عليك أن تكوني مربية. ألا تتمنين الحياة الزوجية؟ أنت جميلة بما يكفي لتجذبي أي زوج».

«أنا... ربّما. لكن الحياة لم تقدّم لي هذه الفرصة بعد».

«عزيزتي، أنا في الثالثة والأربعين من عمري وما زلت أنتظر الحياة أن تمنحني زوجًا! يؤسفني القول إن القلوب المنكسرة تحتاج إلى وقت طويل لتعافى، قد يستغرق ذلك سنوات أحيانًا». فجأة خيم الحزن على وجه الأنسة پوتر الذي تحوّل لونه إلى أزرق. ثم قالت لفلورا: «أخبريني، عند من ستعملين في لندن؟».

«عند السيّدة آليس كيبيّل. أعتقد أن الطفلتين اللتين سأقوم بتعليمهما تدعيان
فَيُوليت وسونيا».

لدى سماعها ذلك، أطلقت الآنسة پوتر ضحكة وهي ترمي رأسها إلى الوراء.
«من فضلك يا آنسة پوتر، ما المضحك في ما قلته؟»
«آه سامحيني على تصرّفي الطفولي. أرجو يا عزيزتي أن يكونوا قد حدّروك
مسبقًا من علاقات السيّدة كيبيّل...؟».

ولعدم رغبتها في الظهور بمظهر الساذجة، أخفت فلورا ارتباكها. «أنا... نعم».
«حسنًا إذا كان هناك أمر يستحق ترك هذه البحيرات الجميلة من أجله، فلا
أستطيع التفكير في أسرة أكثر إثارة من تلك لكي أستغني عن البحيرات من أجلها!
والآن، حان وقت الرحيل يجب أن أعود غدًا إلى لندن لرؤية أمي المسكينة، فهي
مريضة وما يزال هناك الكثير لأقوم به قبل المغادرة. من فضلك، اجلبي حيواناتك إلى
هنا في الأيام القليلة المقبلة. وإن لم أكن موجودة، ستجدين السيّد والسيّدة كانون
هنا فهما يعيشان في الجناح الآخر من المزرعة، وسيسرّهما الاعتناء بحيواناتك. ولا
تشغلي بالك فهما يدركان تمامًا أن الحيوانات في منزلي لها أولية. لذلك سيُعتنى
بحيواناتك الأليفة كما لو كانت من العائلة المالكة». قالت الآنسة پوتر وهي تطلق
ضحكة مكتومة أخرى وهي ترافق فلورا إلى الباب الأمامي.

«وداعًا يا آنسة پوتر! مهما شكرتك على لطفك، فلن يكفي».

«لا يهّمك يا آنسة ماك نيكول، فنحن الاثنتيّ محبّتان للبحيرات والحيوانات،
وعلى كلّ منّا مساندة الأخرى، أليس كذلك؟ وداعًا».

مرّت الأيام القليلة الباقية في منزل طفولتها وسط أجواء حزينة، شهدت خلالها فلورا تخزين ممتلكات أسرتها في صناديق كبيرة وتحميلها خارج المنزل، كما أنّهم أعطوها صندوقاً كبيراً لتضع فيه أغراضها الشخصية وممتلكاتها الثمينة، لكي تُرسل مع والديها إلى اسكتلندا. وعندما أُخرجت دفتر يومياتها المغلّف بالحبر، والذي دوّنت فيه كل ما عاشته حتى تلك اللحظة في إستويت، لم تقاوم رغبتها الشديدة في تصفّح أوراقه البنية وقراءة مقتطفات منها. فتغلغل الحزن والأسى فيها جرّاء تقييمها لخسارتها الفادحة.

في هذه الأثناء، بقي والداها منشغلين بأمورهما حتى إنّهما نادراً ما قالوا لها كلمة طيبة. وعلى الرغم من أنّها كانت معتادة أسلوبهما هذا، لكنّ إحساسها بالعزلة زاد، ما جعلها تنتظر يوم رحيلها إلى لندن بفارغ الصبر حتى تشعر بالارتياح.

علاوة على ذلك، فهي لم تسمع مجدّداً من آرتشي، لذلك قرّرت أن على الرغم مما قاله لها بشأن الوثوق به، فمن الأفضل لها أن تُلحق الأيام التي قضتها معه بباقي الذكريات التي خزنتها. فالمشاعر التي عبّرت عنها أوريليا في رسائلها من هاي ويلد كانت واضحة، وقرارها العقلاني ذاك هو خيارها الوحيد. لكن هذا لا يعني أنّه ساعدها على النسيان، لأنّها لم تتوقّف للحظة عن التفكير فيه.

أما توديع حيواناتها الحبيبة فكان أكثر إيلاًماً بين كل ما حصل معها، بعد أن نقلتها إلى سقيفة الأنسة پوتر، وأخبرت السيّدّة كانون باحتياجاتها. ولدى رؤية الفرحة في عيون رالف وبيتسي ولدي السيّدّة كانون، اللذين حملا على الفور

الزغبتين مايسي وإثيل ووعداها بأنهما سيهتمان بهما كما كانت تفعل هي، هان عليها الفراق.

أما بالنسبة إلى پانثر، فبما أن سارة رفضت الذهاب إلى المرتفعات بسبب العث والقراد هناك، فقد قبلت أن تأخذه معها إلى الكوخ الذي تتشاركه مع أمها في أقصى ساوري. لم تشعر فلورا بالارتياح إلا بعد أن اطمأنت على حيواناتها، وباتت واثقة من أنها ستبقى في مكان آمن، عكسها هي.



في صبيحة سفرها، نزلت فلورا إلى الطبقة السفلية بقلب مثقل مثل الصخرة العظيمة التي كانت تستريح فوقها على ضفة إستويت، وخرجت من المنزل عند الفجر لإلقاء تحية أخيرة على لايكلان.

في الخارج، منحتها مناظر الطبيعة ذكرى أخيرة رائعة عن ذلك المكان. كانت السماء في ذلك اليوم الخريفي تستنير بخطوط أرجوانية قرمزية. وبينما كانت تجلس على الصخرة، شعرت بقوة الهواء وانخفاض الضباب. فبدأت تتلذذ بالنغمات التي تطلقها جوقة الفجر، وتملاً رثتها بالهواء النقي. «وداعاً»، قالت وهي تأخذ نفساً عميقاً وترمش عينيها مثل نقرة الكاميرا كأنها تحتفظ بصورة أخيرة في ذهنها لذكرى أبدية.

عندما عادت إلى غرفتها ارتدت ملابسها على عجل استعداداً للرحلة، ثم وضعت معطف السفر على كتفيها ونادت على پانثر لتودّعه. في العادة كان يخرج من تحت الملاء، ويتمدد وهو ما يزال يشعر بالنعاس، فينظر إليها بعينيه الكهرمانيتين مُبدياً انزعاجه. لكنها لم تره حتى الساعة. بحثت عنه في الغرفة لكنها لم تجده، فرجّحت أن يكون قد تبعها إلى الطبقة السفلية بعد أن تركت باب غرفتها مفتوحاً. كانت تيلي والسيدة هيلبيك تتنبهان إليه لانشغالهما في المطبخ.

«طلبت والدتك منّا أن نحضّر لكما سلّة الزهات لأنّ الرحلة طويلة إلى لندن».

قالت تيلي وهي تربط الشريط الجلدي لتحكم إغلاق السلّة.

«هل رأيتما پانثر؟»، سألتهما فلورا وهي تنظر تحت الطاولة. «بحثت عنه في كل مكان ولم أعر عليه. أريد أن أودّعه...».

«لا أعتقد أنّه ذهب بعيدًا يا آنسة فلورا، أنا واثقة من أنّه ما يزال هنا. الأفضل أن تذهبي الآن، فأمك في انتظارك عند الباب. لا تقلقي عليه، سأبحث عنه». قالت سارة وهي تخرج من المخزن.

«وداعًا يا آنسة فلورا، نتمنى لك حظًا موفقًا في تلك المدينة الوثنية التي تذهبين إليها. أشكر الله أنّي لست أنا المضطرة إلى الذهاب». قالت السيّد هيليك بازدرء. «أعددت لك فطائر الكشمش التي تحبينها».

«شكرًا لك، عديني من فضلك أنّك ستبحيثين عن پانثر. ثمّ اكتبي لي رسالة لتطمئنيني؟».

«بالطبع يا عزيزتي. الآن اعتني جيّدًا بنفسك». أضافت السيّد هيليك التي أوشكت على البكاء. «سنفتقدك».

«حسنًا، شكرًا لك، وإلى اللقاء». ألقت فلورا نظرة يائسة أخيرة من حولها، ثمّ غادرت المطبخ لملاقاة والدتها.

«حان الوقت يا فلورا، وإلا سيفوتنا القطار». وقفت روز وقفة ملكة في القاعة، وهي تطوي يديها داخل موفة من الفراء لتحمي نفسها من برد الصباح. مشت فلورا نحو الباب وتبعثها سارة بسلةّ النزهات. «ودّعي والدك، ثمّ لاقيني داخل العربة».

لدهشتها رأت والدها ينزل من الطبقة العلوية وهو يتكئ على عصاه بثقل أكثر من المعتاد.

«فلورا، عزيزتي».

«نعم يا أبي؟».

«أنا... حسنًا، الأمر... أنا آسف حقًا بشأن ما يحدث والطريقة التي يحدث بها».

«ليس خطأك يا أبي. ليس لدينا المال لنحافظ على المنزل».

«لا، حسنًا...»، نظر أليستير إلى قدمه. «لم أقصد ذلك مباشرة، لكن في أي

حال شكرًا. أنا متأكد من أنك ستراسلين والدتك بانتظام وهي ستخبرني بمغامراتك. أتمنى لك التوفيق في المستقبل. وداعًا يا عزيزتي». «شكرًا لك يا أبي. وداعًا».

استدارت فلورا باتجاه الباب متأثرة بكلمات وداع والدها، فشعرت بحزن شديد. وبعد أن صعدت إلى العربة، ألقت نظرة أخيرة إلى إستويت هول، وما إن اجتازت العربة البوابة حتى بدأت تفكر في ما إذا كانت تلك المرة الأخيرة التي ترى فيها والدها وذلك المكان الحبيب.



عندما اتخذت روز وفلورا مكانهما في عربة الدرجة الأولى في القطار المتجه إلى لندن، انتظرت فلورا في صمت الوقت الذي ستحوّل فيه مناظر التلال والأودية الوعرة إلى مسطحات غير مألوفة، لكن داخلها كان يغلي حزنًا على خسارتها الفادحة، في حين بدأ مزاج روز يتحسن مع ابتعاد القطار عن المنزل. «ربما ينبغي أن أعطيك فكرة عن عائلة كيبيل». «نعم يا أمي».

لم تُعر فلورا انتباهًا كبيرًا إلى حديث روز عن جمال منزل العائلة الذي يقع في ساحة پورتمان، وعن المكانة الرفيعة التي تحتلها العائلة في مجتمع لندن، وعن الفتاتين فيوليت وسونيا اللتين تبلغان الخامسة عشرة والتاسعة من العمر بالترتيب. «ستجدين فيوليت جميلة جدًا لكن سونيا... حسنًا سونيا مثل خروف صغير. لنقل إن لديها صفات أخرى تعوّض بساطتها. الأفضل أن نقول إنها فتاة لطيفة مقارنة بصعوبة مراس فيوليت». قالت روز وهي تحدّق مبتسمة خارج النافذة، «لا يمكن أحدًا أن يلومها بالنظر إلى الحياة التي تعيشها». «أي حياة يا أمي؟».

«آه!»، قالت روز وهي تحرك جسمها في مقعدها أمام ابنتها. «ربما كونها أول طفلة في العائلة، لذلك فهي مدّلة كثيرًا». هذه المرة، كان دور فلورا لتبعد نظرها عن عيني والدتها. لكنها تمكّنت من

رؤية الاحمرار الخافت الذي علا خديها. إذ إن كليهما كانتا تعرفان أن تلك ليست الحال في أسرتهما.

عند الساعة الواحدة ظهرًا، أخبرت روز ابنتها أنها جائعة، ففتحت فلورا سلة النزهات كما يفترض أن تفعل. «لا أجد طعام القطار صالحًا للأكل». قالت فلورا وهي تمرر لأُمها طبقًا ومندبًا. فجأة قفز من داخل السلة شيطان صغير أسود تسبب في صياحهما. وبعد أن ألقى نظرة سريعة إلى ما حوله عاد واختفى تحت تنورة فلورا. «بحق السماء ماذا يفعل هذا هنا يا فلورا!»، قالت روز وهي ترمق ابنتها بنظرة قاسية. «أمل أنك لم تخبئه في السلة لتحضره معك إلى لندن؟».

«بالطبع لا يا أُمي! هو...»، قالت فلورا وهي ترفع بانثر الذي بقي يحاول إخفاء نفسه، من تحت تنورتها وتعانقه بشدة بعد أن بلّلت دموع الفرحة عينها. «لا أعرف ماذا سنفعل به عندما نصل إلى لندن؟ أنا متأكدة من أن عائلة كيبيل لن ترضى أن يعيش حيوان مثله في منزلها بسبب بيئتهم».

«أُمي، قد يبدو لك بانثر مزعجًا قليلًا، لكن بحسب معرفتي بالأطفال، فإن معظمهم يحب القطط الصغيرة، لذلك أرجح أن فيوليت وسونيا من ذلك النوع». «حسنًا، هذه ليست بداية جيدة. ليست بداية جيدة على الإطلاق». قالت روز وهي تتنهد.



مع غفوة بانثر السريعة داخل سلة النزهات، بدا كأنه فهم قواعد اللعبة. بعد ذلك، ترجّلت الأم وابنتها من القطار في محطة يوستون. «قالت لي العزيزة آليس إنها سترسل السيارة مع سائقها ليستقبلنا. آه، ها هو فريد».

هرعت فلورا لتلحق بأُمها عبر ردهة المحطة المزدحمة فيما راحت روز تتجه بكل خفتها ورشاقتها نحو رجل قصير القامة بشاربين أنيقين. كان يرتدي معطفًا أنيقًا من اللون الأخضر الداكن بأزرار نحاسية لماعة. عندما اقتربت روز منه،

خلع قبعته لإلقاء التحية. في هذه الأثناء، تسببت رائحة المحركات وضوضاؤها المتواصل، إضافة إلى ازدحام الركاب، في دوار مربك لفلورا. حتى پانثر أطلق من السلّة مواءً مقلّقاً من شدة استيائه.

«سیدتی، آنستی، مساء الخير. أهلاً بكما في لندن»، قال فريد. ثمّ استدعى الحّمّال لیساعدهما على حمل الحقائب. فتبعته روز وفلورا إلى العربة المركونة خارج المحطة وخلفهما الحّمّال الذي راح یدحرج حَمّالة الأمتعة. «هل كانت الرحلة مريحة؟» في الخارج، كانت في انتظارهما عربة برهام كهربائية، تلمع ألواحها الخشبية تحت أشعة الشمس، وكان فرشها الناعم مصنوعاً من الجلد. ما إن أدار فريد المحرك حتى سُمع أزيز لطيف، ثمّ انطلق في جولته عبر شوارع لندن الواسعة. بدأت فلورا تحدّق إلى أناقة المارّة، رجالاً ونساءً، في طريق مارليبون، وإلى المباني المهيبة الشاهقة. لم يتوقّف پانثر عن المواء طوال الرحلة. لكنّ فلورا لم تجرؤ على فتح السلّة لطمأنته خوفاً من أمّها.

ثمّ انعطفت العربة عند منتزه جميل كانت تحيط به منازل عالية من الطوب إلى أن توقّفت أمام أحدها. وفي الحال فُتح الباب فأطلّ من خلفه خادم لیساعدهما على الترجّل. وعندما دخلتا المنزل، عرض الخادم أن یحرّر فلورا من سلة النزّهات. «لا شكراً لك سيدي. في داخلها هدايا للأسرة». قالت له فلورا لإنقاذ الموقف.

فساعدهما في نزع معطفيهما وقبعتيهما، وقادهما عبر السلالم إلى قاعة استقبال بدت أوّل وهلة كأنّها حديقة معلّقة، أكثر مما هي غرفة داخلية؛ إذ كانت مليئة بزهور الأوركيد والزنبق التي فاحت رائحتها في كل مكان، إضافة إلى ورود مالميزون داخل مزهريات من الزجاج المحفور. هناك جلست امرأة لم يسبق أن رأت فلورا أحداً بجمالها وأناقتها، على أريكتها وسط وسائل مغطاة بالدانتيل. وكان شعرها الكستنائي الكثيف اللّماع يتدلّى فوق كتفيها في خصل مجعدة. وكانت تضع حول عنقها عقدًا من اللؤلؤ سلّط الضوء على جمال بشرتها المرمرية وعلى طول عنقها، وكان ليلفت الأنظار إلى انتفاخ صدرها. وكانت عيناها زرقاوين مشعّتين. بقيت فلورا مسحورة بمظهرها إلى أن نهضت، ومشت عبر الصالون الفخم لترحب بحضورهما.

«عزيزتي روز». قالت وهي تعانق والدة فلورا. «أرجو ألا تكون الرحلة قد أرهقتكما؟».

«شكرًا يا آليس، كانت رحلة مريحة جدًا على الرغم من أنني وفلورا سعيدتان بوصولنا أخيرًا».

نظرت آليس كيبيل بعين ثاقبة إلى فلورا، وقالت: «إذًا هذه هي الشهيرة فلورا. أهلاً بك في منزلي يا عزيزتي. أتمنى أن تجدي السعادة برفقتنا. البنتان تنتظران لقاءك بفارغ الصبر. أخبرتني المربية ناني أن الصغيرة سونيا قضت اليوم بكامله وهي ترسم. كما أنهما قد استاءتا كثيرًا عندما حان وقت الاستحمام والخلود إلى النوم قبل أن تتسنى لهما رؤيتك، لذلك وعدتهما أن أقدمك إليهما غدًا صباحًا قبل فعل أي أمر آخر».

عندئذٍ صدر أنين مثير للشفقة من داخل سلة النزهات، تلاه ظهور مخلب أسود صغير من تحت الغطاء.

وعندما اتجهت العيون إلى السلة، سألت السيِّدة كيبيل: «ماذا هناك بحق السماء؟».

«إنه... قطّ صغير»، أجابت فلورا وهي تنظر إلى وجه والدتها المرتعب. «من فضلك يا سيِّدة كيبيل لم أقصد إحضاره معي، لكنّه اختبأ في السلة».

«أحقًا؟ يا له من محتال». قالت قبل أن تطلق ضحكاتها عاليًا. «دعينا نرى ذلك المتسلل، أنا واثقة من أن الفتاتين ستسعدان به».

انحنى فلورا وفكّت رباط السلة وسط تمتمة روز المحرّجة واعتذاراتها التي تجاهلتها السيِّدة كيبيل. بعد ذلك انحنى السيِّدة كيبيل بدورها لتتعرّف إلى پانشر وتحمله بين يديها كما لو أنّها معتادة حمل القطط.

«كم أنت جميل أيها الوسيم، والمحتال من دون شك. كان لديّ قطّ مثلك في شبابي في دونتريث. أنا واثقة أن الجميع سيرحب بك في الحضانة».

عندما أعادت السيِّدة كيبيل القط المتلوي إلى صاحبتة، شعرت فلورا برغبة في الركوع عند قدمي تلك المرأة لتقبّلها.

«الآن، سيقدّم العشاء في تمام الثامنة. قمّت بدعوة بعض الأصدقاء القدامى

يا عزيزتي روز، لذلك سأطلب إلى مدبرة المنزل آنسة درايفر أن ترشدك إلى غرفتك لتغيري ملابسك. أما أنت يا فلورا فقد خصّصت لك غرفة أخرى بجانب غرفة أمك. أتمنى أن تنال إعجابك». ومدّت السيّدة كيبيّل كفّها لفلورا لتضغط على يدها بقوة. «أهلاً بك في منزلي».

قادتتهما مدبرة المنزل عبر سلالم أخرى إلى غرفتيهما، فبدأت فلورا تفكّر في تحية السيّدة كيبيّل السخية، وتتساءل عمّا إذا كانت صادقة فيها أو من باب التباهي. فلو كانت حقيقية وصادقة لكانت تلك أحرّ تحية تتلقاها من أيّ شخص غريب. وعندما أوشكت روز على دخول غرفتها، خطر في بال فلورا أمر، فأمسكت بذراع أمّها وسحبتهما جانباً لتكلّمهما على انفراد.

«أمّي، ليس لدي لباس مناسب لذلك العشاء». همست فلورا في أذن أمّها على مسمع مدبرة المنزل وخادمة الطّبقة العلوية اللتين بقيتا تحومان حولهما.

«أنت محقّة يا فلورا، سامحيني لم يخطر في بالي ذلك. لم أعرف أن السيّدة كيبيّل تنوي تقديمك بهذه السرعة إلى المجتمع. سأخبرها بأنك مرهقة من الرحلة وأطلب إليها أن تأمر أحد خدامها بإحضار الطعام إليك. ولا تقلقي بشأن الملابس لأنني سأترك لك الثوب الذي جلبته لنفسني عندما أعود غدًا. سيتعيّن عليك تعديله، لا بدّ من وجود خياطة بين كل أولئك العاملين هنا. فكما يمكنك أن تخمّني فإن خزانة السيّدة كيبيّل كبيرة جدًّا».

«شكرًا لك يا أمّي».

ثمّ قادت مدبرة المنزل فلورا على طول الممر الطويل إلى غرفتها، وعندما فُتح الباب وجدت نفسها في غرفة كبيرة، عالية السقف، ومفروشة بشكل أنيق وراق. ورأت مزهرية احتوت على زهور مقطوفة لتوّها، وموضوعة على خزانة أدراج إلى جانب مناشف ناعمة مطوية جنب مغسلة.

«إذا احتجت إلى أي شيء يا آنسة، اقرعي الجرس لتنادي بيغي». قالت مدبرة المنزل وهي تشير إلى الخادمة التي وقفت خلفها وانحنت لإلقاء التحية. «والآن دعي بيغي تأخذ منك القط إلى الطّبقة السفلية لتفعل... بما عليها فعله».

«شكرًا لك». أجابتها فلورا، أرادت أن تقول لها إنها سعيدة بالاعتناء به بنفسها، لكن الخادمتين غادرتا الغرفة قبل أن تتمكن من قول كلمة إضافية. مشت فلورا إلى النافذة، ورأت أن الظلام قد حلّ ومصابيح الغاز في الباحة الخارجية قد أُنيرت. ورأت العربات وهي تتوقّف أمام المنازل المجاورة، فينزل منها الركّاب، وهم يرتدون قبعات سوداء لماعة، أو قبعات لها حواف واسعة مغطاة بالريش.

عندما ابتعدت عن النافذة، لاحظت أن پانثر بدأ يتصرّف كأنه في منزله، بعد أن جلس على السرير النحاسي الكبير ليغتسل. صعدت فلورا إلى جانبه واستلقت على ظهرها وحدّقت إلى السقف الناصع البياض، الخالي من التشقّقات، ومن أي بقعة رطوبة.

«يا للهول، لا بدّ من أنّهم فاحشو الثراء ليضعوا المساعدة في غرفة نوم مثل هذه». تمتمت فلورا وهي تغمض عينيها رغبة في النوم. بعد بعض الوقت، أيقظها طرق على الباب. استفاقت على نحو مفاجئ وجلست مشوشة فوق السرير تحاول أن تتذكّر المكان الذي استيقظت فيه.

«مرحبًا يا عزيزتي، هل أيقظتك؟»، قالت روز وهي تدخل الغرفة. كانت روز ترتدي فستانًا أخضر زمرديًا، وتضع على رأسها تاج العائلة الذي بقي في صندوقه الصلب مدة طويلة في إستويت هول، حيث إن المناسبات التي تليق به كانت نادرة هناك. وبدت متألّقة مثل حبّات الماس التي وضعتها على رأسها.

«لا بد من أنّه تعب الرحلة يا أمّي. أرجو ألا تشعر السيّدّة كيبيّل بالإهانة لأنني لن أقدر على الانضمام إلى مائدة العشاء هذه الليلة».

«أنا واثقة أنّها ستفهم الأمر. والآن أحضرت لك شيئًا لاعتقادي أنّه سيكون مناسبًا لك». قالت روز وهي تعطي صندوق مجوهرات لابنتها.

عندما فتحت فلورا الصندوق، شهقت بصوت عالٍ حين رأت عقد اللؤلؤ وقُطّيبه على سطح الصندوق المخملي. عندئذٍ أمسكت روز بالقلادة وربطتها حول عنق فلورا، وأعجبت الاثنان بانعكاس فلورا في المرأة.

«كانت هذه هدية والدتي في أوّل موسم لي في لندن. لذلك فهو عزيز عليّ،

وقد حان الوقت لتحصلي عليه». قالت روز بهدوء وهي تضع يدها بلطف على كتف ابنتها.

«شكرًا لك يا أمي». قالت فلورا متأثرة.

«أمل أن تشعرني بالراحة هنا. يبدو أن السيّدة كيبييل قد بدأت تتعوّد وجودك».

«أنا واثقة من أنني سأفعل. فالسيّدة كيبييل تبدو لطيفة جدًا».

«نعم. والآن يجب أن أنضم إلى طاولة العشاء. طلبت إليّ السيّدة كيبييل أن أخبرك بأنها ستنتظرك في الحضانة في الطبقة العلوية غدًا في الثامنة صباحًا لتقدّمك إلى الفتاتين وبقية العاملات. بعد ذلك، سنودّع بعضنا بعضًا. يجب أن أتمكن من ركوب القطار الذي سيأخذني إلى المرتفعات غدًا لأجهز المنزل الجديد لوالدك قبل أن ننتقل إليه. قبلت روز فلورا في أعلى رأسها، وغادرت الغرفة. «بيغي ستحضر لك صينية العشاء. نامي جيدًا يا فلورا».

«بالطبع سأفعل يا أمي. طابت ليلتك».

15

في صباح اليوم التالي، استيقظت فلورا على أصوات صاحبة غير مألوقة في محيط المنزل. وفي السابعة، سمعت قرعًا على الباب، دخلت من بعده بيغي إلى الغرفة حاملة بيديها صينية طعام الفطور، ثم أشعلت النار خلف الشبكة الحديد.

احتست فلورا الشاي، وهي تفكر في نظام ذلك البيت الرائع حيث الخدم يخدمون خدمًا آخرين. بعد ذلك، غادرت بيغي الغرفة، وهي تحشر پانثر تحت ذراعها. ارتدت فلورا فستانًا من الكتان الأزرق مع أزهار شوكية كانت سارة قد خاطتها بنفسها في طرفه. كان هذا من أفضل فساتينها في الوقت الحالي. وبينما كانت تثبت شعرها المبعثر، فُتح الباب مجددًا، وظهر پانثر وبيغي في الغرفة.

«هل أنت جاهزة يا آنسة؟ الجميع في انتظارك في الحضانة.»

حملت فلورا پانثر وتبعت بيغي إلى مجموعة أخرى من السلالم، قادتها إلى حيث كانوا في انتظارها. هناك أول ما رأيته فلورا كان جدرانًا ناصعة البياض ونوافذ كبيرة تطل على حديقة رائعة. كانت السيدة كيبل تقف بمحاذاة مدخنة وإلى جانبها ابتناها؛ سونيا الأصغر سنًا التي كانت ترتدي فستانًا جديدًا فضفاضًا، قماشه منشى ولونه أبيض وأسود وحذاء من الجلد المصبوغ، وفيه بكلة. أمّا أختها الكبرى فيوليت التي أخبرتها أمها أنها في الخامسة عشرة، فكانت ترتدي تنورة وقميصًا بدا كأنه قميص ذكوري، إذ كان بياقة وربطة عنق.

«الآن يا عزيزتي، رَحبا بالآنسة ماك نيكول.»

«كيف حالك يا آنسة ماك نيكول؟» أجابت الصغيرتان بأدب.

«مرحبًا». ابتسمت فلورا. ثم لاحظت فلورا أن فيوليت على الرغم من ملابسها الغريبة، فإنها كانت نسخة عن والدتها بتجاعيد شعرها الأنثوية وعينيها الزرقاوين. على عكس سونيا التي كانت داكنة ورفيعة وبشرتها قريبة من بشرة فلورا. وعلى الفور ذكرها ذلك التباين بين الأختين بالتباين بينها وبين أوريليا.

«ما اسم القط؟»، أشارت فيوليت إلى پانثر الذي كان يستريح بين ذراعي فلورا. «هل هو آمن؟ هل يمكنني الإمساك به؟ تبدو مخالفه شريرة وأخاف أن يخدشني». - «اسمه پانثر، ولا تقلقي فهو أليف». ثم أضافت بعد أن نهتها غريزتها إلى مزاج فيوليت المتقلب، «لكنه لا يتقبل المضايقة».

«هل يمكنني مداعبته؟»، قالت سونيا، وهي تقترب من پانثر وتمد يدها إليه بحذر.

«بالطبع يمكنك ذلك». أجابت فلورا وهي تضع پانثر بين ذراعيها. وعلى الفور، فرك القط رأسه تحت أصابع سونيا وشعر بالدفء، فبدأ الرضا في عينيه. «والآن يا آنسة ماك نيكول، دعيني أعرفك إلى المربية ناني والآنسة كليساك؟». قالت السيدة كيبييل حين دخلت امرأتان الحضانة. كانت إحدهما عريضة ترتدي فستانًا رماديًا وممزرًا غير مجعد، والأخرى شقراء قصيرة القامة، لكن جسمها كان ممتلئًا، ونظرت إلى فلورا باشمئزاز، كأنها تشتم رائحة كريهة.

«سعدت بلقائكما»، قالت فلورا. ولسبب ما، شعرت فلورا بضرورة الانحناء أمام ناني المربية، إذ استشعرت بأنها القوة الطبيعية بذاتها التي تحكم طابقي الحضانة. «وأنا بالمثل يا آنسة ماك نيكول»، أجابت بلهجة لينة لم تتوقعها فلورا، تشوبها لكنة اسكتلندية.

«تشرفنا»، قالت الآنسة كليساك. ثم أضافت بلهجة متغطرة: «يمكنك مناداتي بموازيل (آنسة)».

«موازيل تساعد سونيا في حجرة الدراسة»، شرحت السيدة كيبييل. «أما فيوليت فتلتحق بمدرسة الآنسة وولف في جنوب شارع أودلي».

«وأفضل ألا أتأخر عليها يا أمي». قالت فيوليت وهي تنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط. «إن قيتا تنتظرني في الخارج».

«بالطبع يا عزيزتي. والآن سأدعكنّ وحدكنّ أنتنّ الثلاثة لتضعن جدولاً مناسباً حتى تصرف الفتاتان ساعة في اليوم مع الآنسة ماك نيكول».

«نعم سيدتي»، أجابت ناني بكل احترام وهي تنحني بطريقة غريبة أمام سيّدتها.

فجأة عطست فيوليت، فالتفت أمها إليها عابسة. «آمل ألا تكوني قد أصبت بنزلة برد يا عزيزتي فيوليت».

«لا، أرجح أن يكون السبب هو هذا»، أجابت الفتاة وهي تشير إلى پانثر الذي بقي بين ذراعي سونيا، وكانت سعيدة به.

حبست فلورا أنفاسها ريثما ترى ما إذا كانوا سيبعدون القط عن الحضانة، لكن السيّد كيبيل اكتفت بهزّ كتفيها. «أنا لا أؤمن بما يسمّى حساسية. رأيي أن من الأفضل أن تعتادي فراء الحيوانات، يا عزيزتي».

شعرت فلورا بأنّها بدأت تميل أكثر إلى السيّد كيبيل.

ذهبت فيوليت إلى المدرسة وسحبن پانثر على مضض من سونيا التي تبتعت موازيل خارج الغرفة لتنتهي دروس الصباح. فبقيت فلورا على انفراد مع ناني، وحاولت الاثنتان إيجاد ساعة في اليوم لتتمكّن فلورا من تدريس الفتاتين. لكن مع دروس الرقص والجمباز، وزيارة المتاحف والمعارض برفقة موازيل، ناهيك بارتباطاتهما الاجتماعية بعد ظهر كل يوم، بدا الأمر مستحيلاً.

«ربّما في السادسة مساءً؟»، أشارت فلورا بعد أن يئست من إيجاد ساعة في جدولهما الزمني الحافل.

«هذا ممكن في بعض الأيام يا آنسة ماك نيكول، لكنّه مستحيل عندما تضطرّان إلى النزول إلى الطبقة السفلية لاحتساء الشاي مع... الضيف الذي يأتي لزيارة أمهما».

«حسنًا، علينا أن نبدأ في مكان ما، وإلا فلن أتمكّن من رؤيتهما».

«سأتحدّث إلى موازيل لأرى إذا كانت تستغني عن سونيا في الصباح بضع ساعات في الأسبوع»، قالت ناني لتطمئن فلورا. «وبالطبع أنت مدعوّة كل يوم للانضمام إلينا في الحضانة في وقت الغداء والعشاء، على الرغم من أنّي أفترض أنك ستتناولينه في الطبقة السفلية قريبًا جدًّا. والآن، عليّ الخروج».

وبما أنّها لم تتلقَ تعليمات بشأن ما عليها فعله في ذلك الوقت، عادت فلورا إلى غرفتها في الطبقة السفلية وجلست على السرير تفكّر في ما يجعل السيّدة كيبيّل تدعوها للانضمام إلى أسرتها في حين كان واضحًا أنّها ليست بحاجة إليها. ثمّ سمعت طرقًا على الباب فدخلت بيغي.

«آنسة ماك نيكول، والدتك في انتظارك في صالون السيّدة كيبيّل».

«شكرًا لك يا بيغي».

نزلت فلورا إلى الطبقة السفلية لتجد والدتها وهي تضع معطف السفر. «مرحبًا يا فلورا. كيف وجدت الفتاتين؟».

«كلتاها لطيفتان، على الرغم من أنّي كنت معهما بضع دقائق فقط»، قالت فلورا وهي تومئ برأسها.

«جيد، جيد. أنا واثقة أنّك ستكونين سعيدة هنا، يا فلورا. فالسيّدة كيبيّل امرأة لطيفة ومتفهمة. وستقابلين كثيرًا من شخصيات المجتمع الراقى. أمل ألاّ تخذليّني».

«سأبذل قصارى جهدي يا أمي».

«هل لديك عنواننا الجديد؟».

«نعم حصلتُ عليه، سأراسلك باستمرار».

«إذن، أعتمد عليك في نقل أخبار لندن إليّ. كم أحسّدك! أتمنّى لو كنتُ أنا من ستقيم هنا. وداعًا يا عزيزتي فلورا، أدعو الله أن يوفّقنا في هذا القرار الذي اتّخذناه من أجل مصلحة الجميع».

قبّلت روز ابنتها على خديها وخرجت.

شعرت فلورا بالدموع تَخِرْ عينيها. ومشّت إلى النافذة لترى والدتها وهي تركب العربية. فعلى الرغم من أنّها هي مَنْ سُلّخت عن منزلها الحبيب، تراءى لها في تلك اللحظة أنّ والدتها تُنفى إلى مكان بعيد.

«هل أنت بخير يا عزيزتي؟»، قالت لها السيّدة كيبيّل عندما دخلت الغرفة.

«نعم، شكرًا لك». أجابت فلورا وهي تمسح دموعها بسرعة.

«أعرف جيّدًا مدى صعوبة ترك منطقة البحيرات وعائلتك. لكن أرجو منك أن تعتبري هذا المنزل منزلك الجديد، وأنّا عائلتك البديلة. الآن، سأتصل بخياطتي لتأتي عند العاشرة من صباح الغد. عليك أن تحسلي على خزانة ملابس جديدة قبل أن تتعرّفي إلى المجتمع». قالت السيّدة كيبيّل وهي تدور حول فلورا مثل نسر ينظر إلى فريسته. «هذا الشعر الرائع بحاجة إلى بعض التقليم».

«سيّدة كيبيّل، أستطيع تدبّر أموري. لقد قصصت شعري قبل بضعة أسابيع».

«فتاتي العزيزة، قد تكونين قادرة على تدبّر أمورك، لكن لا يمكنني تجاهل بعض الأمور!».

«اعتقدتُ أنّي سأحصل على زيّ رسمي».

«زي رسمي؟! وهل تعتقدين أنّك جئتِ إلى هنا لتكوني خادمة؟»، قالت السيّدة كيبيّل وهي تطلق ضحكة رثانة. «عزيزتي فلورا هذا الوضع يمكن أن يصبح أكثر سخافة في ثانية! أعتقد أنّ عليّ ألّقُبك بسندريلا». ثمّ قادت فلورا إلى الأريكة الطويلة وسحبته برفق لتجلس إلى جانبها.

«اطمئني لن تكوني خادمة عندنا، بل صديقة شابة للعائلة ستُقيم ضيفة هنا. انتظري حتى أخبر بيرتي، سيكون الأمر مسليًا بالنسبة إليه. أمّا في الوقت الراهن، وإلى أن تصبح خزانة ملابسك جاهزة، ينبغي أن تبقي في الطوابق العليا مع الفتيات. هذه فرصتك لتتعرّفي إليهما؛ سونيا فتاة حلوة ولذيذة أمّا فيوليت... حسنًا فيوليت، أعتقد أنّها بحاجة إلى بعض التوجيه من فتاة أكبر سنًا منها. ففي مثل هذه السنّ هي ضعيفة وقابلة للتأثر».

«سأبذل قصارى جهدي في مساعدتهما يا سيّدة كيبيّل».

«شكرا لك يا عزيزي. الآن يجب أن أغير ملابسِي، فلديّ ضيوف على الغداء». غادرت فلورا صالون السيّدة كيبيِل وهي تتساءل عن السبب الذي يجعل مثل تلك المرأة تهدر وقتها ومالها عليها. ووصل بها الأمر إلى التفكير في أنّها أتت إلى هنا لتكون مربية من النوع الرديء. أمّا الآن فلم يعد لديها أي إشارة واضحة لتحديد الوظيفة التي جاءت من أجلها إلى هذا المنزل.

على الرغم من أنّها لم ترَ إلّا القليل بعد، أدركت أن ذلك المنزل لم يكن عاديّاً، وأنّ آليس كيبيِل لم تكن امرأة عادية.

في ما بعد، قبلت فلورا عرض المربية ناني لتناول طعام الغداء مع موازيل وسونيا في الحضانة النهارية.

لم تتوقف سونيا عن الثرثرة من شدة سعادتها برفقتها الحديثة.

«قالت موازيل إنّك ستعلميني الرسم وعلم النبات».

«نعم أود ذلك كثيرًا، علينا أن نجد وقتًا لذلك أوّلًا».

«من فضلك جدي الوقت»، قالت سونيا بصوت منخفض عندما وقفت موازيل لإحضار الحلوى من الطاولة ذات العجلات. «فأنا أكره موازيل وأكره دروسها».

«سأبذل قصارى جهدي». همست فلورا لها.

«هل لديك أخت يا آنسة ماك نيكول؟».

«أجل».

«هل تحبّينها؟».

«بالطبع أحبّها كثيرًا».

«طبّاع فيوليت مثل طبّاع السيّدات، حتى ناني تقول ذلك، كما أنّها ليست لطيفة معي».

«بعض الفتيات لسن لطيفات مع أخواتهنّ، لكنّ داخلهن مليء بالحبّ».

فتحت سونيا فمها لتدلي بتعليق آخر، ثمّ غيّرت رأيها حين رأت موازيل تعود إليهما. «سأحاول أن أحبّ أختي أكثر»، قالت بجدية.

بعد تناول طعام الغداء، أخذت ناني سونيا لتغتسل وتنظف أسنانها قبل أن تنتقلا إلى درس الرقص، ما جعل فلورا تنسحب إلى غرفتها مرّة أخرى لتقرأ قليلاً. وعندما شعرت بحاجة إلى استنشاق هواء نقي، حملت پانثر إلى أسفل الدرج، وبحثت عن طريق إلى الخارج.

عندما أصبحت في الطبقة الأرضية، وجدت نفسها في ممر خلفي أمام باب مغلق. وعندما فتحتّه، أشارت السلالم هناك إلى وجود باحة، لكنّ كبير الخدم، السيد رولف، أمسك ذراعها.

«إلى أين تذهبين يا آنسة ماك نيكول؟».

شرحت له فلورا، فبدأ السيد رولف مرتبكاً وهو يستمع إليها. وبقيت عيناه تنظران إلى الساعة النّقالة الموضوعة على الطاولة الجانبية.

«سأناذي بيغي لتأخذ منك القط، ستعيده إليك عندما تعود به من الخارج».

«أعتقد أنّي أنا أيضاً بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي».

«هذا غير ممكن حاليّاً، فالسيّدة كيبيّل ستستقبل ضيفاً في أي لحظة لتناول الشاي».

نادى السيد رولف بيغي فظهرت أمامه في ثانية، وانتزعت پانثر من ذراعي فلورا.

«لا تقلقي يا آنسة سأعتني به نيابة عنك. وثقي أنّي أحب القطط كثيراً».

وفي لمح البصر، اختفت الخادمة. فاصطحب السيد رولف فلورا إلى الدرج الرئيسي مبقياً عينيه على باب المدخل. وبينما كانت فلورا تصعد السلالم، توقفت عربة أمام مدخل المنزل.

«لقد وصل يا جونسون. هل يمكنك أن تفتح له البوابة؟»، قال السيد رولف للخادم الذي قفز من مكانه لفتح البوابة.

تمنّت فلورا لو كانت قادرة على البقاء هنا لتعرف من يكون ذلك الضيف المميز، لكنّها خافت من عصيان أوامر كبير الخدم، فصعدت الدرج بسرعة البرق،

مروراً أمام صالون السيّدة كيبيّل حيث انبعثت رائحة عطر وردي قوية. وعندما وصلت إلى الطّبة العلوية، نظرت من فوق الدرابزين وسمعت صوتاً ذكورياً وخطوات ثقيلة تصعد السلالم. أيّاً كان ذلك الضيف فإنّه يعاني سعالاً حلقياً عميقاً وقد فاحت رائحة سيجاره في منطقة السلالم. عندئذٍ مالت أكثر لإلقاء نظرة على الرجل، وإذ بيد توضع على كتفها وتسحبها من ظهرها.

«الآن يا آنسة ماك نيكول، من الأفضل ألا تتجسّسي على أحد في هذا المنزل». قالت ناني وهي تنظر إليها نظرة مسلية.

ثمّ أغلق الباب في الطّبة السفلية وتوارت الخطى خلفه.

«ينبغي ألا يزجج أحد السيّدة كيبيّل حين تستقبل ضيوفها بعد الظهر. هل فهمت؟».

«نعم فهمت».

واحمرّ وجه فلورا من شدّة الحرج، ثمّ عادت إلى غرفتها.

16

بعد أسبوعين، وجدت فلورا نفسها تحبس نفسها لكي تنجح بمساعدة بارني، المساعدة الشخصية للسيدة كيبيل، في إغلاق المَخَصَّر الذي كانت ترتديه. وللحظة أَحَسَّت بأنَّ ضلوعها ستتكسّر تحت ضغطه الشديد.

«انتهينا».

«لكنني لا أقدر على التنفّس....».

«لست الوحيدة، هذا ما يحصل لكنّ أُنْتَنَ السيّدات، لكن انظري»، قالت بارني وهي تشير إلى المرأة، «بات خصرُك واضحًا. ستعتادينه يا آنسة ماك نيكول، كما هي حال باقي السيدات، وسيتلاشى ضغطه بمرور الوقت، فهو ما زال حديثًا الآن».

«بالكاد أستطيع التحرك»، تمتمت فلورا بينما كانت بارني تجمع قماش الحرير الأزرق الجليدي وتطلب إلى فلورا الدخول فيه.

«السيدة كيبيل على حق، هذا اللون يليق كثيرًا ببشرتك. لاحظي أنّها دائمًا على حق». قالت بارني وهي تقفل أزرار اللؤلؤ الصغيرة عند الظهر.

«أجل». قالت فلورا مؤكدة كلامها. لو كانت فلورا سندريلا لكانت السيدة كيبيل بلا شك عَزَابَتِها الجَنِّيّة المقيمة في 30، شارع ميدان بورتمان. فقد حَوَّلَتِها من هيئة خادمة تعمل في حجرة لغسل الصحون والأواني إلى ضيفة أنيقة محبوبة من الجميع، والتي تنزل تقريبًا كلّ مساء في موعد العشاء إلى الطوابق السفلية. كانت السيدة كيبيل تتمتّع بطاقة هادئة تمذّها بالسحر. فهي لم ترفع صوتها يومًا لتحصل على ما تريد؛ يكفي أن تهمس بكلمة واحدة لا غير لتجد الجميع مذعنًا لها.

«هي مثل الملكة»، قالت فلورا ببراءة للمربية في ذلك اليوم بعد أن عادت من أول ظهور لها في المجتمع اللندني، في رحلة تسوق مع السيدة كيبييل وابنتيها قبل أسبوع. حينذاك زُرْنَ متجر موريل للألعاب، وهناك انحنى جميع الموظفين لها، وعرضوا عليها المساعدة على الفور.

انفجرت ناني بالضحك من تعابير فلورا على الرغم من طباعها الرزينة. «نعم، هي كذلك يا آنسة ماك نيكول، ليس هناك أدنى شك».

وبدأت فلورا تتعلّم إيقاع المنزل والشخصيات المسيطرة فيه. ولاحظت أن العاملين لدى السيدة كيبييل يتمتّعون بشخصيّات ساحرة وجاذبة مثلها. كما أنّهم كانوا يتشرّفون بكونهم جزءًا من أسرّتها؛ السيّد رولف والطاهية السيدة ستايسي المسؤولين عن المنزل، الآنسة درايبير مدبّرة المنزل، بارني التي تعتبر نفسها محظوظة لاهتمامها بشؤون السيدة كيبييل الخاصة، ولإعداد صالونها للترفيه، ما يعني أنّها كانت تستغرق ساعات طويلة في الترتيب والتجهيز، وفي تنسيق الزهور، ومساعدة سيّدة المنزل على الاستعداد شخصيًا لتلك المناسبات.

ورأت الصغيرة فلورا في زوج السيدة كيبييل، السيد جورج كما يناديه العاملون، رجلًا عملاقًا ولطيفًا وأحبّت صوته الناعم كثيرًا. وكانت سونيا تختفي، كلّ مساء، في صالون والدها الخاص، تجلس على ركبتيه ليقرأ لها المغامرات التي تكرّرها لفلورا في ما بعد.

خلال الأسبوعين الماضيين، انقضى معظم وقت فلورا في الحضانة، وهي تساعد المربية وموازيل في بعض المهام، إذ لم تشعر برغبة في فعل شيء آخر. وفي المساء، كانت تجتمع إلى الفتاتين حول النار المشتعلة في الحضانة النهارية، فيحمّصن الكعك وتخبرهما فلورا قصصًا عن طفولتها في إستويت.

كانت فيوليت تتظاهر بعدم الاكتراث لما تقوله فلورا، فتدفن رأسها في دفتر ملاحظاتها الذي لم تكن تكتب فيه بقدر ما كانت تمضغ طرف قلم الرصاص. وكانت فلورا تعرف تمامًا أنّها تستمع إليها.

«كنتِ تقودين المهرة والعربة بنفسك؟»، سألتها فيوليت بعد أن أخبرتهما فلورا عن مايل.

«أجل».

«من دون سائق؟ أو مربية أو خادمة؟».

«أجل».

«آه، كم أشتاق إلى ذلك النوع من الحرية». قالت فيوليت وهي تأخذ نفسًا عميقًا، وتعود إلى دفتر ملاحظاتها.

ما إن عادت فلورا بذهنها إلى الحاضر، حتى واست نفسها بالملابس التي تملكها الآن، والتي ستسمح لها بدخول الديوان الملكي. وقد أملت مرارًا في أن تسمح لها السيدة كيبييل بالتنزه في الحديقة المقابلة للمنزل أو ربّما أبعد بقليل لتتمكّن من استكشاف لندن. فبعد الحجز القسري الذي طالت مدّته داخل جدران المنزل الأربع، لم يكن پانثر الكائن الوحيد الذي شعر بالاختناق من قضبان قفصه. «هل تسمحين لي بتصفيف شعرك يا آنسة ماك نيكول؟».

«شكرًا لك». وجلست فلورا أمام المرأة عند منضدة التزيّن وبدأت بارني في تسريح شعرها الكثيف الطويل بفرشاة عريضة من الفضة.

على الرغم من أن كلّ ما كان يخصّ تلك الأسرة بات واضحًا في نظر فلورا، لكنّ لغزًا وحيدًا لم تستطع فكّه؛ هويّة ذلك الضيف الذي يأتي باستمرار لزيارة السيدة كيبييل في فترات ما بعد الظهر. كانت فلورا تتكهّن بمجيئه من حالة التوتر التي تصيب سكّان المنزل. أوّل ما كان ييشّر بقدومه صوت ماويل وكاتي في أثناء تلميعهما قضبان السلالم النحاسية بدءًا من السابعة صباحًا، موعد نهوض فلورا من النوم. كان التنظيف يبدأ من أعلى الطوابق وصولًا إلى الطابق الأرضي. وعند الظهر، كان بائع الزهور يصل ليملاً الصالون بالورود فتعقب رائحتها في الأرجاء. وبعد انتهاء الغداء، كانت بارني تنسحب إلى صالون السيدة كيبييل لتعدّها لاستقبال ذلك الضيف المجهول.

وما إن يصل الضيف حتى يُسارع الجميع إلى الاختفاء عن الأنظار، فيقع المنزل في صمت رهيب لحظة دخول صاحب السعال القوي من باب المدخل ليشقّ طريقه عبر السلالم إلى ذلك الصالون تاركًا رائحة سيجاره المعقّ تفوح في كلّ مكان. وكانت فيوليت وسونيا ترتديان أحيانًا أجمل ما لديهما من ملابس

وُتصطحبان في السادسة مساءً إلى صالون السيدة كيبييل في الطبقة السفلية لتناول الشاي مع الضيف.

بعد مغادرته في عربته الكبيرة، كانت فلورا تحاول التجسس من أعلى نافذتها. حينذاك فحسب، كانت الأسرة تتنفس الصعداء وتشعر بالارتياح وتعود الأمور إلى سابق عهدها. حاولت فلورا مرّات عدّة استخلاص المعلومات من الفتاتين عن هوية الضيف الذي تلتقيان به في الصالون المغلق. لكن سرعان ما كانت تتراجع بعد أن تشعر بفضاظة التعدي على خصوصيتهما.

«انظري يا آنسة فلورا. هل أعجبك؟»، قالت بارني وهي تتراجع خطوتين إلى الوراء لتتمكن فلورا من رؤية التسيريحة التحفة التي أنجزتها يداها. نظرت فلورا إلى تلك التسيريحة الجريئة، فشكّت في قدرة الأمشاط على تثبيت شعرها أطول وقت ممكن. ثمّ تفاجأت بالتحول الجذري الذي لحق بمظهرها حين اختارت ملابس وتسيريحة مختلفين.

«أبدو مختلفة».

«أفضل القول إنك تبدين جميلة»، قالت بارني مبتسمة.

«أعتقد أنك جاهزة للنزول. تريد السيدة كيبييل أن تراك في الصالون». نهضت فلورا وسط الصخب الذي أحدثه فستانها، وهي تشعر بضيق في صدرها من المخصّر الذي أعاق تقدّمها نحو الباب. «شكراً لك يا بارني». تمكّنت فلورا من القول في أثناء خروجها إلى الرواق، وفي تلك اللحظة كانت سونيا تنزل السلالم برفقة المربية.

«يا للهول!».

قالت سونيا مستخدمة تعبيرها الجديد المفضل الذي التقطته من مابيل، خادمة صالون الاستقبال، بعدما سمعتها تردّده عند رؤيتها عنكبوتاً سوداء كبيرة تهرب من دلو الفحم.

«تبدين جميلة يا فلورا! حتى إنني لم أتعرف عليك».

«شكراً لك». ضحكت فلورا وهي تنحني لسونيا.

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

«دعيني والدتك للانضمام إليها في غرفة الرسم».

«آه، هذا يعني أنك ستلتقين بكثير من السيدات، وتصرفن وقتك في احتساء الشاي وتناول الحلوى، أليس كذلك يا ناني؟».

«هذا صحيح يا حبيبتي».

«سيكون الأمر مملًا يا فلورا. لِمَ لا تأتين معنا إلى الحديقة لنستمع معًا إلى طاحونة الأرغن ونضرب القرد ونتناول المثلجات؟».

«ليتني أقدر». همست فلورا في أذن سونيا، وتابعت سيرها إلى صالون السيدة كيبييل.

عندما أطلت فلورا من فوق، ظهر رضا تام على وجه السيدة كيبييل.

«عزيزتي، تبدين راقية وأنيقة. هيّا بنا نحبي الضيفات اللاتي دعوتهن لمقابلتك». مدت السيدة كيبييل مرفقها لفلورا وقادتها إلى أسفل السلالم، وهي تقول لها: «لدي مفاجأة لك. ستحضر أختك أيضًا».

«أوريلى؟ يا للروعة! لم أعرف أنها ستعود إلى لندن».

«كلا. حسنًا، أعتقد أنها تعبت من انتظار أمر ما كان سيحدث في كنت ويبدو أنه لم يحصل». وما إن دخلتا غرفة الرسم حتى خفضت السيدة كيبييل صوتها. «على الرغم من أنها أصرت على اصطحاب تلك المملة صديقتها، الأنسة إليزابيث فوغان. سمعت أنها خُطبت إلى مزارع شاي، وستغادر إلى سيلان بعد زواجها. ألا تجدينها مملة يا فلورا؟».

«أنا... لا أعرفها جيدًا لكي أحكم عليها، كانت لطيفة معي دائمًا، لذلك لا يمكنني الجزم».

«أنت متحفظة جدًا. وهذا سيكون في مصلحتك كثيرًا في لندن». أجابتها السيدة كيبييل. وعندما دقت الساعة الثالثة، سمعت عربة تتوقّف أمام مدخل المنزل. «والآن دعينا نطلّ على أختك وباقي لندن ليرى الجميع كيف تفتّحت براعمك».



«فلورا! أهذه أنت؟»، قالت أوريليا حين دخلت غرفة الرسم وأخذت أختها في حضنها. «تبدين... جميلة! وفستانك هذا...»، قالت وهي تمسك الدانتيل الفاخر المطرز عند الياقة وسوارِي الأكمام وتنتقل إلى باقي التطريز على التنورة. «ما هذا كله، إنه رائع». أضافت وهي تقترب أكثر من فلورا لتهمس في أذنها. «أخيرًا حصلت على راعية في لندن يا عزيزي، وليس أي راعية، السيدة كيبييل ذاتها، وهي أكثر النساء تأثيرًا في لندن».

بعد الترحيب باليزابيث التي أبدت تعجرفها بخاتم الخطوبة الذي احتوى على حبة ياقوت كبيرة، قادت فلورا أوريليا على مسافة من التجمعات لتتمكن من محادثتها على انفراد. «في الواقع، السيدة كيبييل لطيفة جدًا معي». ثم أشارت إلى الكرسي الطويل وقالت لأختها، «هل نجلس؟ أريد أن أعرف كل ما حدث معك هذا الصيف».

«إذًا، عليّ البقاء على العشاء وربما على الفطور غدًا أيضًا لأخبرك بكل ما عندي». قالت أوريليا وهي تتنهد من قلة السعادة. في هذه الأثناء، بقيت سيّدات لندن تدخل الواحدة تلو الأخرى إلى صالون السيدة كيبييل تحت أنظار الأختين فيما كانتا تراقبان السيدة كيبييل في أثناء ترحيبها الحار بضيفاتها. «لو استطاعت أمي رؤيتنا الآن ونحن نجلس مع خيرة مجتمع لندن».

«أعتقد أنها ستكون فخورة بنا».

- حسنًا، باستثناء رحلة التسوّق الوحيدة لي قبل بضعة أيام، يمكنني القول إنها أول إطلالة لي في هذا المجتمع منذ وصولي إلى هنا. لقد تردّدت السيدة كيبييل كثيرًا في السماح لي بالظهور قبل أن تجهز خزانة ملابسي.

«لست متفاجئة. فهي تدير الصالون الأضخم في لندن».

«أعترف لك أنني في حيرة من أمري بسبب ذلك الانقلاب في الأحداث. كنت أعتقد أنني آتية إلى هنا لأعمل مدرّسة، ثم تبين لي أن للسيدة كيبييل حسابات أخرى».

«إن اختارت أن تدعمك في الانخراط في مجتمع لندن، فهذا يعني أنك حظيت

بأفضل راعية على الإطلاق على الرغم من المنشقين عنها، ومن الأبواب التي أُغلقت في وجهها. أنت تعيشين تحت سقف منزلها، وأفترض أنك تعرفين ذلك...».

«فلورا، فتاتي العزيزة!»، قالت الخالة شارلوت وهي تظهر أمام الفتاتين. ووقفت فلورا لتحية خالتها، لكنّها شعرت مرة أخرى بالإعاقة بسبب ذلك الوضع المقيّد.

«الخالة شارلوت، كيف حالك؟».

«أشعر بالإرهاق بعد نهاية الموسم. أمّا أنت يا ابنة أختي العزيزة فتبدين ساحرة جدًّا. يبدو أن لندن تناسبك كثيرًا».

«بدأت أفهم كيف تسير الأمور هنا يا خالتي».

«إنّها معجزة حقيقية أن تقرّر السيدة كييل رفع شأنك. أعتقد أن أيّ أحد قادر على فهم السبب. عليك زيارتنا قريبًا في ميدان غروسفينور. سررت كثيرًا باستضافة عزيزتي أوريليا في منزلي، ويؤسفني أن تعود قريبًا إلى منزل والديك. والآن اعذراني، يجب أن أحدث السيدة أليينغتون عن مشاريعنا الخيرية الخاصة باليتامى».

«هل ستعودين إلى اسكتلندا؟»، قالت فلورا وهي تلتفت إلى أختها.

«نعم». قالت أوريليا بعد أن غمّت عيناها فجأة.

«لكنني واثقة من أن هناك عشرات الشبان الذين يرغبون في الزواج بك؟».

«كان هناك العشرات، أنت محقّة. لكن بعد أن صددت الإعجاب الذي أبدوه لي في البدء، حوّلوا اهتمامهم إلى مكان آخر. هل تذكرين فيكونت بيركشاير الذي أخبرتك عنه، بات الآن خطيب صديقة لي. وقد أعلنت خطوبته في التايمز في بداية هذا الأسبوع».

«ألم تجدي أحدًا يستحوذ قلبك؟».

«آه بلى، لكن هنا تكمن المشكلة، أو ربّما هنا ما تزال المشكلة».

«ماذا تقصدين؟»، قالت فلورا بقلب منقبض كونها تعرف التفاصيل.

«حسنًا، عندما بلغتني الدعوة لزيارة منزل آل فوغان في هاي ويلد، كنت أعتقد... أن آرتشي سيعرض الزواج عليّ بعد أن لحق بأبينا إلى رحلة الصيد في تموز... كنت أعرف... أنهما تناقشا الموضوع. لذلك رفضت العروض الأخرى التي أتتني، كنت أفترض أنني سأدعى إلى كنت وهناك سيعرض آرتشي على الزواج. وعلى الرغم من أنني بقيت تحت سقف واحد معه طوال شهر، لكنني شعرت كأنه كان يبذل جهداً ليتجنبني. حتى أنني نادراً ما كنت أراه في غير مواعيد الطعام...»، ثم توقفت أوريليا وعضّت شفتها بعد أن اغرورقت عينها بالدموع. «فلورا، أشعر بأنني أحبه كثيراً».

وعلى الفور، شعرت فلورا بارتياح كبير وذب شديد في آن واحد كونها السبب الأساسي في بؤس أختها.

«أنا... ربّما كان ينتظر اللحظة المناسبة».

«عزيزتي فلورا، أقدر كثيراً أنك تحاولين مواساتي، لكن تلك اللحظة أتتحت له مرات عدّة، ولم يفعل لأنه ببساطة لم يرغب. حتى إن والدته لم تتوقّف لحظة عن تشجيعه على اصطحابي في نزهة حول الحدائق. ولم أرَ بجمالها في حياتي. وعندما كنّا نخرج للتنزه، كان يكتفي بالحديث عن خطته لإعادة ملء الحدائق بشتى أنواع النباتات الغريبة التي لم أسمع بها قط! ثم كنّا نعود إلى المنزل فيعاود الاختفاء في خيمته الغالية». وعضّت أوريليا شفتها مرة أخرى، ثم قالت:

«في النهاية، قررت العودة إلى لندن».

«ربّما يكون ذلك لمصلحتك، لأنّه سيدرك مدى افتقاده لك وسيتبعك إلى هنا». اقترحت فلورا، وقد بدأ معنى رسالة آرتشي الأخيرة يتضح في ذهنها.

«كلا. لا يمكنني العيش على حساب الخالة شارلوت مدّة أطول، لذلك قررت العودة إلى المنزل».

«آه أوريليا، أنا آسفة حقًا. ربّما لا يكون آرتشي مؤهلاً للزواج».

«المعضلة ليست هنا. من الأسباب التي جعلت أبي يقرّر بيع إستويت هول هو توفير مهر لي ليساعد عائلة فوغان على الحفاظ على هاي ويلد بما أنّه كان

سيصبح منزلي العائلي. تعرفين أن السيّدة فوغان وأمّي صديقتان مقرّبتان منذ طفولتهما». ثمّ خفضت أوريليا صوتها عندما رأت إليزابيث على بعد أمتار منهما. «لقد خطّطنا لذلك معًا. بعد ذلك لحق آرتشي بأبينا إلى اسكتلندا ليناقش معه الموضوع».

«الآن فهمت». قالت فلورا وقد اتضحت الصورة الكاملة في ذهنها.

«لا أجد خيارًا سوى حزم أمتعتي والعودة إلى اسكتلندا. يا لسخرية ما حصل!»، قالت أوريليا وهي تظهر لشقيقتها ابتسامة شاحبة. «الآن، سأعود أنا إلى المنزل بعد فشل ذريع، فيما ستبقين أنت هنا في لندن تحت رعاية السيّدة كيبييل. بالطبع لا أقول ذلك لأحسدك يا عزيزتي».

«أوريليا، صدّقي أن قلبي انفطر عندما أخبرتني أمّي برحيلنا عن إستويت. تعرفين كم أحبّ ذلك المكان وكم أفقده، وأنني سأقدم أيّ شيء للعودة إلى هناك. «أعرف ذلك يا أختي». قالت أوريليا وهي تمسك يد فلورا. «سامحيني على مزاجي البائس، لكن إن لم أحدّثك أنت بهذا، فمن سأحدّث؟».

«بالتأكيد. إذا أبرم آرتشي اتفاقًا مع أبينا، فلا بدّ من أنّه سيحترمه، أليس كذلك؟»، قالت فلورا وهي عابسة.

«حتى إن حصل، لم أعد أرغب في الزواج به بعد الآن. لقد أبدى اهتمامًا كبيرًا بي في بداية الموسم، وبعد أن وصلت إلى كنت أصبح مشّت التفكير. أشعر أن هناك امرأة أخرى سرقت قلبه. لكن مهما حاولت لن أعرف من هي». قالت أوريليا وهي تطلق تنهيدة عميقة. في تلك اللحظة، تمنّت فلورا لو أن الأرض انشقت وابتلعتهما هي وقلبها المخادع وآرتشي فوغان معهما.

«والآن دعينا من مشكلتي يا عزيزتي، أخبريني عنك أنت، وعن حياتك في منزل آل كيبييل».

بذلت فلورا قصارى جهدها لتخبر أختها عن فيوليت وسونيا وعن روتينها اليومي. أمّا الخيانة التي كانت طرفًا بريئًا فيها، ولكن راضيًا بها، حوّلت أفكارها إلى حثالة. وعندما ظهرت السيّدة كيبييل أمامها لتقدّمها إلى أصدقائها شعرت بامتنان شديد كونها قاطعت تلك اللحظة المزعجة.

«كلهنّ متشوقات للتعرف إلى أحدث فرد انضمّ إلى عائلتنا وأجملنا على الإطلاق». ابتسمت السيدة كيبييل وهي تمسك مرفق فلورا وتقودها في مختلف أنحاء الصالون متباهية بها كما لو أنّها ميدالية على صدرها. وبالفعل، بدت السيّدات متلهفات للقائها. ومن وقت إلى آخر، استرقت فلورا النظر إلى أوريليا التي جلست كئيبة على الكرسي الطويل، تحاول محادثة امرأة عجوز كانت ترتدي ملابس سوداء، والتي بدت هي أيضًا وحيدة.

في النهاية، بدأت ضيفات السيدة كيبييل يغادرن، فاستأذنت فلورا الكونتيسة توربي التي وجّهت إليها دعوة إلى سهرة كانت ستحييها قريبًا.

«ستؤدّي دأَمَ نيلي ميلبا وصلة لنا. لقد عادت لتوّها من جولتها في أستراليا وستأتي مباشرة إلى كينوود هاوس»، قالت الكونتيسة أمام دائرة المعجبات اللاتي تحلّقن حول فلورا.

ثمّ جاءت أوريليا لتودّعها.

«متى ستغادرين إلى اسكتلندا؟».

«في عطلة نهاية الأسبوع. أعتقد أنّه كلّما اقترب الموعد كان أفضل بالنسبة إليّ، فلندن لا تناسب الفاشلات».

«هل ستزوريني قبل أن تغادري؟».

«بالطبع سأزورك، وأرجوك لا تقلقي بشأنّي. ربّما ألتقي هناك بشاب يختبئ في المرتفعات وأصبح مالكة عقار جميل». قالت أوريليا وهي تبتسم ابتسامة واهنة. «حان الوقت لأنسى كلّ ما له صلة بآرتشي فوغان. وداعًا يا أختي العزيزة».

عندما غادر الجميع، رفعت ماويل بمساعدة الخادم فناجين الشاي وأطباق الحلوى التي لم يمسهَا أحد وأخرجها من الصالون. أشارت السيدة كيبييل إلى فلورا لكي تجلس على الكرسي المقابل لها جنب النار.

«حسنًا يا فلورا، يبدو أن غزوتك الأولى لمجتمع لندن حققت نجاحًا باهرًا! أعتقد أنّك في الأسابيع القليلة الآتية ستجدين نفسك منشغلة على نحو مفاجئ. لقد صدرت باسمك دعوات عدّة، وأخبرني الجميع أنّهم وجدوك ساحرة».

«شكرًا لك. ومع ذلك لا يفترض أن أهمل واجباتي تجاه ابنتيك».

«فتاتي العزيزة، ألم تفهمي بعد أن موضوع التدريس هذا كان ذريعة أعطيتهَا لك ولأملك لآتي بك إلى هنا وتعيشي تحت سقف منزلي؟ حينذاك لم أكن أعرفك شخصيًا، لذلك لم أكن واثقة من... نجاح خطتي، فرغبت في امتلاك حق الرجعة. وبعد أن رأيتك ووجدتك أنيقة ومثقفة وجذابة تغيّر الموضوع! بعد حفلة الشاي اليوم، سوف تتلقين دعوات عدّة؛ هناك عشاء هذا الأسبوع، وبعد ذلك حفلة شاي حميمة. لن يبقى منزل في لندن إلّا وسيرغب في أن تشرفيه بحضورك. ستكونين حديث المدينة!».

فحدّقت فلورا إلى تلك المرأة الاستثنائية بارتباك. «سيّدة كيبيل، مهما حاولت فلن أفهم من تلقاء نفسي السبب الذي سيجعل كلّ شخص في لندن يرغب في دعوتي إلى منزله. ففي النهاية، لم أقدم إلى البلاط الملكي».

«ألا ترين أن هذا أكثر ما يجعلك جذابة؟».

«بصراحة لا، لا أرى ذلك. من فضلك ألاّ تعتبريني ناكرة جميل. كلّ ما في الأمر أنّني رضيت بنصبي في هذه الحياة. وأرى أن هذا الانقلاب المفاجئ في الأحداث من دون سبب واضح، غريب قليلًا».

«عزيزتي فلورا، أفهم تمامًا استغرابك. ذات يوم ستتضح لك الأمور، واعذريني لأنّ ليس من واجبي أن أوضحها بنفسني لك. كلّ ما أطلبه منك الآن هو أن تثقي بي. تأكّدي أنّني لن أقودك إلى الخطأ. وعلى الرغم من أنّك لا تدركين الأمر، لكنّ هناك كثيرًا من أوجه الشبه بيننا. وبما أنّني أجد نفسي قادرة على مساعدتك، لذلك أرغب حقًا في فعل ذلك».

بما أن فلورا لم تكن أكثر حكمة منها لم تقدر إلّا على موافقتها.

في تلك الليلة خلدت فلورا إلى النوم، وهي تشعر بضرورة أخذ حذرهما. بعد أن أزالّت المخصّر وشعرت بالارتياح، نظرت إلى أضلاعها وراحت تعدّ الكدمات الأرجوانية الصغيرة التي طفت على بشرتها. فكّرت كيف يمكن لتلك النساء اللواتي جلسن بعد ظهر اليوم في غرفة الرسم الخاصة بالسيدة كيبيل أن يتحمّلن ذلك الألم نفسه كلّ يوم.

عندما حاول پانثر تسلّق صدرها أبعدهته عنها، وبدأت تداعبه.

«أشعر بأنني أستحقّ ذلك الألم بسبب ما فعلت. إلّا إذا كان آرتشي يتلاعب بنا نحن الاثنين واتضح أنّه نذل كما اعتقدته منذ البداية. يؤسفني ألا يكون باستطاعتي فعل شيء بعد الآن. أتمنى أن أكون محقّة في ما قلته لأوريليا فحسب، وألا يكون آرتشي مؤهلاً للزواج». قالت وهي تحك أذني القطّ المخمليتين. «أما بالنسبة إلى ما حدث اليوم، فأعترف يا عزيزي پانثر أنني أشعر كأنني أليس أثناء سقوطها في جحر الأرنب. وشعوري هذا يا پانثر يجعل منك القطّ المفترس. يبقى السؤال، لم بحقّ الجحيم جاؤوا بنا إلى هذا المنزل؟».

عندئذٍ خرخر پانثر كأنّه يجيب عن سؤالها.

17

«آنسة فلورا، من فضلك انزلي على الفور إلى صالون السيّد كيبيّل».

«لماذا؟».

«لديك زائر».

«أحقًا؟ هل أنت أختي مجدّدًا؟».

«لا، إنّهُ رجل».

«ما اسمه؟».

«سامحيني يا آنسة فلورا، لا أعرف».

تبعّت فلورا بيغي إلى أسفل السلالم ممسكة تنوّرتها الصوف الثّقيلة لترفعها عن الأرض حتى لا تتعثّر بها. وهناك وجدت السيّد كيبيّل تنتظرها عند المدفئة، وإلى جانبها آرثشي فوغان.

«عزيزتي فلورا، أتى اللورد فوغان إلى هنا ليتأكّد بنفسه أنّك بخير وسعيدة في منزلك الجديد. ألاّ تجدّين هذا تصرّفًا لطيفًا منه؟ حاولت أن أطمئنّه عليك وأخبرته بأنّك لا تقبعين في قبو، وأنّني لا أتركك على المياه، ولا أطعمك الفئران الميتة، لكنّه أصّر على رؤيتك للتأكّد من ذلك بنفسه. لورد فوغان ها هي الآنسة ماك نيكول بشحمها ولحمها».

كانت فلورا قادرة على نعت تصرّف آرثشي هذا بشتّى الصفات، إلّا اللطف، لأنّه آخر ما رغبت في نعبته به.

«مرحبًا آنسة ماك نيكول».

«مرحبًا لورد فوغان».

«تبدين على خير ما يرام».

«أنا بصحة جيدة الحمد لله، شكرًا لك. وأنت؟».

«تعافيت لتؤي من قشعريرة».

حاولت فلورا التملص من نظرات آرتشي، فشعرت السيدة كيبييل بذلك، وأرادت أن تؤدي دور العزابة الجنية، لذلك تدخلت على الفور لكسر الصمت الذي ساد بينهما. «فلورا، هل ترغبين في كأس شيري؟ أنا واثقة أنه سيمنع عنك القشعريرة».

«شكرًا لك». قالت فلورا وهي تمسك الكأس وتشرب معهما نخبًا، وإن لم تعرف نخب من أو ماذا.

«سيدة كيبييل، أرى أنك تثرين المجموعة التي تملكينها من فابريجيه. القطعة الجديدة رائعة الجمال». قال آرتشي بأدب، وهو يشير برأسه إلى بيضة صغيرة كانت مرصعة بالجواهر، وموضوعة على الطاولة أمامه.

«لطف منك أن تلاحظ تلك الإضافة يا لورد فوغان»، قالت السيدة كيبييل.

«والآن أستاذنكما، علي مناقشة قائمة عشاء الغد مع السيدة ستايسي، فضلًا عن أن بائع الزهور سيصل في أي لحظة. أرجو أن توصل تحياتي إلى والدتك».

«بالطبع».

غادرت السيدة كيبييل الصالون بعد أن رمقت فلورا بنظرة سريعة. وقف الاثنان في مكانهما بصمت وبقيت فلورا تنظر في كل الاتجاهات ما عدا اتجاه آرتشي. ومع ذلك بقيت تشعر بنظراته عليها. في النهاية، خضعت لمعاناتها الجسدية من المخضّر والحذاء الجديد، فقالت له وهي توشك على الانهيار فوق الكرسي الموضوع بجوار النار:

«هل نجلس؟». وأشارت إلى الكرسي المقابل لها، ثم رشفت من كأسها لتشعر بقليل من الدفء وانتظرت أن يبدأ في الكلام.

«سامحيني يا آنسة ماك نيكول... هل تسمحين لي بأن أدعوك فلورا؟».

«لا. لا أسمح بذلك».

ابتلع آرتشي ريقه بصعوبة قبل أن يتابع: «كلا... دعيني أشرح لك... أنت لا تفهمين».

«أنت مخطئ، رأيت أختي أمس، وفهمت كل شيء منها».

«حسنًا، هل لي أن أسألك ماذا قالت؟».

«إنك اتفقت مع والدي على بيع إستويت هول لتحصل أوريليا على مهر عالٍ يمدك بالأموال التي تحتاج إليها من أجل هاي ويلد مقابل الزواج بها».

فأجابها آرتشي وهو يبعد نظره عنها. «نعم، هذا تقييم دقيق للوضع».

«إلا أن أختي يا لورد فوغان تقول إنه على الرغم من الفرصة الكبيرة التي حظيت بها لإنقاذ هاي ويلد، لم تعرض الزواج عليها. لذلك وجدت نفسها بعدما رفضت عددًا من المتقدمين لها، من دون خيار بديل ما يضطرها اليوم إلى العودة إلى منزل والدينا في المرتفعات في اسكتلندا. كما أن انتقالهما مؤخرًا إلى هناك، حدث نتيجة عرض منزلنا في لايكلاند للبيع لتمويل مستقبل منزلك، ومستقبل أختي».

«أجل»، أجاب بعد صمت طويل.

«إذًا يا لورد فوغان، أخبرني من فضلك. ماذا تفعل معي هنا في صالون السيّد كيبيل فيما ينبغي أن تكون الآن عند أختي لمنعها من العودة إلى ذلك المنزل النائي المعزول عن العالم الذي سيقضي على مستقبلها الذي حكمت أنت عليها به؟».

«يا إلهي، يا فلورا! كلماتك قادرة على طرح أي رجل أرضًا من مسافة عشرين خطوة. هل فكرت يومًا في كتابتها؟».

«لست في مزاج للمزاح يا لورد فوغان. ومن فضلك توقّف عن مناداتي فلورا».

«أستطيع رؤية ذلك تمامًا كما أستطيع رؤية مدى أناقتك، وكم تبدين رائعة في ملابسك الجديدة».

«كفاك الآن!»، نهضت فلورا وهي ترتجف من الغضب. «ألن تخبرني لماذا لعبت علينا نحن الاثنين لعبة الهرّ والفأر؟ ولماذا خدعت والدي وأقنعتة ببيع المنزل وهو منزل العائلة منذ خمسة أجيال؟».

«ألا يمكنك التخمين؟».

«أرجوك نورني يا لورد فوغان لأنني أكافح لأفهم».

«حسنًا، دعيني أخبرك بشيء لا تعرفينه». نهض آرتشي عن الكرسي وبدأ يتجول داخل الصالون وتوقف لحظة ليملاً كأسه من جديد. «عندما التقيت أختك أول مرة في إستويت، كنت مقتنعًا أنني غير مهتمّ بهويّة من سأتزوّج بها بعد كلّ الشابات اللواتي قدّمتهنّ والدتي إليّ. أعرف أنّ عندك علمًا بسمعتي، ولن أنكر أيّا مما سمعت به. لقد كانت لي على مر السنين علاقات رومانسية مع عدد كبير من النساء. وبما أنّه يحقّ لي الدفاع عن نفسي، تأكّدي أنّ ذلك لم يحصل إرضاءً لغروري أو ما شابه، إنّما لحاجتي الماسّة إلى العثور على شريكة تأسر قلبي. قد تعتقدين يا آنسة ماك نيكول أنت وكثير من النساء أنّ الرجال مجرّدون من مفهوم الرومانسية والحب الذي تؤمّن به أنتنّ النساء. لكنكّن مخطئات أو على الأقلّ في ما يخصني. أنا أيضًا أقرأ ديكنز، وأوستن، وفلوبير... وأريد أن أعثر على الحب الحقيقي».

جرعت فلورا آخر ما في كأسها وهي تحدّق إلى النار بصمت.

«بحلول الوقت الذي التقيت فيه أختك، كنت صديقًا قد فقدت الأمل في العثور على امرأة أحبّها. وكانت أمي مصرّة على فكرة زواجي بأوريليا، ابنة أقدم صديقة لها. وقد ناقشت الموضوع مع أمك، فوافقت أمك على التحدّث مع والدك بشأن إستويت. ربّما لا تعرفين حقيقة كرهها لذلك المنزل منذ البداية، إذ كانت تعتبره عقابًا على الجنح التي اقترفتها في الماضي. وعلى ما أعتقد، انشغلت بالعذر الذي سيسمح لها بالإقامة في كنت قدر ما شاءت، عندما كانت ستزور ابنتها وصديقتها القديمة ولم تدعّ الانزعاج من فكرة الانتقال إلى المرتفعات، المكان الذي كانت تعرف تمامًا أنّ والدك يحبّه».

«أي جنح؟»، أجابت فلورا. «هل ستهين والدتي أيضًا؟».

«سامحيني يا فلورا، أنا ببساطة أحاول أن أشرح لك ما أوصلنا إلى هنا. أرجوك، دعيني أكمل».

حدّثت فلورا إلى النار مجدّدًا، ثمّ أظهرت شرنقة خفيفة عكست موافقتها.
«سأكون صريحًا معك. عندما رأيت أختك في لندن أُعجبت فعلاً بها. كانت شابة لطيفة وجميلة، وشعرت بأنني سأكون قادرًا على العيش معها. لذلك اتّفقت مع والدك خلال رحلة الصيد على الزواج بها، وبيع إستويت هول».
«ولم آتيت لزيارتي وأنت في طريق العودة في ذلك اليوم؟»
«في الحقيقة... لا أعرف». قال آرتشي وهو يحدّق في وجهها.

«كلّ ما يمكنني قوله، وأنا أعرف أنّها ليست الإجابة المثالية، هو أن شيئًا ما في داخلي حثني على فعل ذلك. فلورا: الفتاة الصغيرة التي رشقتها ذات يوم بالتفاح الحامض، ثمّ كدت أن أقتلها، وأنا على حصاني في طريقي إلى إستويت هول، والتي لم «تخبر» أحدًا عني مثلما كانت ستفعل أي فتاة أخرى. وها هي الآن، شابة ذكية وشجاعة ومتفاهرة، تتحلّى بروح قوية لم أرها في امرأة أخرى من قبل. كما أنّها جميلة أيضًا. سامحيني يا فلورا، فأنا رجل في النهاية».
«أنت محق. هذه ليست الإجابة المثالية».

«لقد سحرتني يا فلورا حتى أنّني آتيت لرؤيتك على الرغم مما اتّفقت عليه مع والدك قبل يوم واحد فقط. كلّ ما كنت أتخيّله في زوجتي المستقبلية رأيته فيك خلال الأيام القليلة التي كنا فيها معًا. حينذاك أدركت أن ما كنت أبحث عنه دومًا كان موجودًا أمامي طوال الوقت».

لم تجرؤ فلورا على التنفس. واصلت تحديقها في النيران التي تراقصت بخفة متناهية مقارنة بثقل نظراته المستقرّة عليها، والتي أحسّت بها.

«لذلك بعد أن غادرت إستويت قلت لك إن هناك وضعًا عليّ حلّه أولًا. وبحلول ذلك الوقت، كانت الأمور قد تحرّكت بسرعة ووصلت أوريليا بعد بضعة أيام إلى هاي ويلد، فبذلت قصارى جهدي لأتجنبها لكنني رأيت الإحباط في عينيها وعيون أفراد

عائلي. ومع ذلك، تمسكت برأيي ومنعت نفسي عن عرض الزواج عليها، وفي النهاية رحلت. رأيت ضيقها ولكن عزمي وإصراري لم يتبدلا، لأنني أحبك أنت يا فلورا». بقي آرتشي جالسًا بكلّ ثقله على الكرسي الطويل وسط صمت رهيب في الصالون.

«أليس لديك أي ردة فعل على صدقي في الكلام يا آنسة ماك نيكول؟»، توسّل إليها آرتشي.

في النهاية رفعت فلورا عينيها إليه، ونهضت عن كرسيها. «بالطبع سأقول شيئًا. إليك هذا. تقول إن كلّ ما فعلته كان من أجلي، لكن هذا ليس صحيحًا. كلّ ما فعلته كان من أجلك أنت. لسبب خاطئ، تعتقد أنني أحمل مفتاح سعادتك، وأنت تسعى إلى الحصول عليه. تسببت في بيع منزل عائلتنا. وهنا أجد نفسي مجبرة على تذكيرك أنني أحبّ ذلك المنزل كثيرًا. كما أنك أجبرت والديّ على العيش في المنفى في اسكتلندا. والأهم من ذلك كلّهُ، أنك أذلت أختي أمام مجتمع لندن وفطرت قلبها. لذلك أخبرني يا لورد قوغان، كيف يسعك القول إن كلّ ما فعلته كان من أجلي؟».

وبدأ دمها يغلي في شرايينها، فلم تقدر على البقاء واقفة في مكانها. «ألا ترى ماذا فعلت وأنت تسعى لتحقيق رغباتك الأنانية؟ لقد دمرت عائلي!».

«غالبًا ما يبدو السعي وراء الحب في الظاهر أنانية؟ لكنني اعتقدت... أنك تبادليني المشاعر نفسها».

«أنت مخطئ. ولنفترض أنك محقّ، فلن أقدم مشاعري الشخصية على احتياجات الذين أحبهم».

«هذا يعني أن نظرتي فيك صحيحة». همس في نفسه. «بالطبع يا فلورا أنت على حق. والآن ماذا تقترحين أن نفعل نحن الاثنين؟».

«ليس هناك نحن». أجابت فلورا وقد بدأت تشعر بالوهن.

«ولن يكون هناك «نحن». والآن، إذا رغبت حقًا في إثبات حبك لي واستعادة تقديري لك، عليك أن تذهب حاليًا إلى أوريوليا وتعرض الزواج عليها، فقد طال انتظارها له. فضلًا عن ذلك، سوف تقنعها بأنك تحبّها».

«هل تريدني مني فعل ذلك حقاً؟».

«أجل».

«ألا تكنين لي المشاعر؟».

«كلا».

نظر آرتشي مباشرة في عيني فلورا، فلم يرَ سوى الغضب. «فليكن». قال بلا اعتراض. «إذا كان هذا ما تريدنه فسأفعل».

«نعم، هذا ما أريده».

«حسنًا أودّعك، وأتمنى لك التوفيق في المستقبل».

«وأنا بالمثل».

راقبت فلورا آرتشي وهو يغادر الصالون، وهمست بحزن في الفراغ فيما سمعت قرقعة عربته تبتعد عن المدخل «وأنا أيضًا أحبك».

18

من حسن حظ فلورا أن خطط السيدة كيبييل لتقديمها إلى المجتمع اللندني، لم تمنحها وقتًا للتفكير في أنها أعادت آرتشي، عن طيب خاطر، إلى ذراعي أختها.

في الليلة التالية، بدأ رسميًا تنفيذ خطة السيدة كيبييل. فارتدت فلورا فستانًا من الساتان الأزرق الكوبالت، ووضعت عقدًا من الياقوت المُستعار حول عنقها، ليجري تقديمها كضيفة شرف خلال مأدبة عشاء رسمية أقيمت للمناسبة. وعند احتساء الشراب في غرفة الرسم، تجمّعت حولها وجوه مختلفة، أبدت إعجابها بتوازنها وسحرها، وأثنت على السيدة كيبييل لأنها أحضرتها إلى لندن.

«أرى أنها تستحق أن تحظى بأول ظهور خاص في المجتمع. وكلّ ما أقوم به هو جهود قليلة لتتوافر لها تلك الفرصة». ابتسمت السيدة كيبييل وهي تقدّم ضيفاتها إلى فلورا بأسماء وألقاب مختلفة، دارت كلّها في رأسها مثل زوبعة، فلم تقدر على تذكرها بسهولة. «أقدّم لك السيّد كذا... وهذا السيّد كذا...». وعندما تعرّفت فلورا إلى وجه الكونتيسة توربي التي حضرت جلسة الشاي في عصر اليوم الفائت شعرت ببعض الارتياح. وبطبيعة الحال، كان آل أليينغتون الذين يسكنون في الجانب الآخر من الميدان، والذين لديهم بنات يلعبن مع سونيا وفيلوليت، حاضرين. أقيم العشاء في غرفة طعام رائعة تقع في طابق غرفة الرسم. وسرت فلورا بجلوسها إلى يسار جورج كيبييل الذي التفت إليها مرارًا بابتسامة عريضة تحت شارب يكاد يكون مجعّدًا.

«آنسة ماك نيكول أو فلورا، يسرّني كثيرًا أن تجلسي إلى جانبي على العشاء هذه الليلة»، قال لها ليخفّف من توتّرها، وهو يسكب نبيدًا أحمر بلون الياقوت

في كأسها. «على الرغم من الصدمة التي تسببت لك بها هذه المدينة بعد إقامتك الطويلة في منزلك الجميل مثل لايكلاندر، أتمنى أن تكوني قد عثرت هنا على محفز أقوى يغذي شغفك بعلم النبات والفنون. فالمعارض التي لدينا كثيرة ويمكنها أن تعلمك أكثر من أي كتاب مطبوع. أرجو أن تنجحي في زرع ذلك الشغف في فتاتينا».

«بالتأكيد سأبذل قصارى جهدي». لكن فلورا تمكنت من سماع نصف ما قاله السيد جورج فحسب، لأن السيدة أليغتون، التي كانت تجلس في الجهة المقابلة للطاولة قالت: «ابنة آل فوغان عثرت على عشيق مقبول. أما ابنهم عصفور الليل، فهناك شائعات تدور...».

«فلورا؟ أنت بخير؟ لقد أصبحت شاحبة». سمعت فلورا السيد جورج يناديها. «أعتذر إليك يا سيدي، لا بد من أنه الإرهاق». «بالطبع. هو كذلك يا عزيزتي. أمل ألا تكون فيوليت قد أزعجتك كثيرًا بأحدث أفكارها عن القصائد».

«إنها تتمتع بشخصية قوية، وهي محط إعجاب». فجأة سمعت قهقهة إلى يسارها. كانت السيدة سارة ويلسون صاحبة العيون الساحرة والمشرقة. «تقول عزيزتي آليس إنك تتمتعين بحس الدبلوماسية يا آنسة ماك نيكول».

شعرت فلورا بأن تلك المحادثات الشائكة في لندن لا تمت بصلة إلى تفكيرها العميق. «أنا أقول ما ألاحظه يا سيدة سارة. هل أحببت مذاق كبد الأوز؟».

كانت المائدة مليئة بالأطباق التي بلغ عددها عشرة. وقد رأت في ذلك بعض المبالغة، فلو اقتصرنا على سبعة لكانت كافية. وراحت تنقر في الطعام لتبعد اللحم عن نظرها، وقد صعقت بعدد الحيوانات التي طهتها السيدة ستايسي وشوتها بالكارى في ذلك اليوم.

في النهاية، اصطحب السيد جورج الرجال ليحتسوا البراندي ويدخنوا السيجار على انفراد، فتبعت فلورا النساء إلى غرفة الرسم واحتست بصمت معهن قهوتها

وسط الثرثرة الخاملة التي كانت تدور فوق رأسها. كان معظمها يدور حول نساء جرت رؤيتهن في أنحاء المدينة مع رجال غرباء. فاستمعت إليهنّ بمزيج من الانبهار والرعب. ربّما كانت ساذجة، لكنّ نظرتها إلى الزواج كانت مقدّسة.

«إذن، هل تفكرين في شاب محدّد لفلورا؟». سألت السيدة أليينغتون السيدة كيبيل.

«قد يكون لفلورا رأي خاص في الموضوع». أجابت عزّابتها، وهي ترمقها بنظرة ثابتة.

«آه! ومن يكون ذلك السيّد سعيد الحظّ؟».

«يا إلهي! لقد وصلت لتوّي إلى لندن». أجابت فلورا بدبلوماسية.

«حسنًا، أنا واثقة من أنّه لن يمرّ وقت طويل قبل أن يُغرم بك أحدهم، خصوصًا أنّك تحت رعاية السيّد كيبيل. هناك الكثير من الحفلات الراقصة الشتوية التي ستتيح لك فرصة النظر من حولك. على الرغم من أن معظم العشاق اللائقين ليسوا متوافرين حاليًا».

منذ أن رحل آرتشي قسرًا عن حياتها أمس، شعرت فلورا بالسعادة لعودتها إلى خطتها الأصلية بقضاء بقية حياتها وحيدة.

عندما غادر الجميع، قبلتها السيدة كيبيل على خديها، وقالت لها: «ليلة سعيدة يا عزيزتي، اسمحي لي أن أقول لك إنّك أثبتّ نفسك هذه الليلة وجعلتني فخورة بك». وأضافت قائلة لزوجها وهو يقودها خارج الغرف: «هل ترى يا جورج، كنت محقّة بشأنها».

«أجل يا عزيزتي. أنت محقّة دائمًا»، سمعته فلورا يقول، وهما يصعدان السلالم.



استأذنت فلورا موازيل والسيدة كيبيل لاصطحاب سونيا إلى حدائق كيو، لكي تتنزها اليوم هناك. فتوكّل السيد رولف بالترتيبات وتجهيز السيارة. شعرت فلورا ببعض الإثارة لمجرّد التفكير في أنّها ستحيط نفسها مجدّدًا بالطبيعة وتتمكّن من دراسة

عَيْنَات نادرة من النبات، وإن كان ذلك الترويح عن النفس الذي رغبت فيه سيذكرها بآرتشي.

«لن أسمح له بإفساد الأمر»، قالت في نفسها بحزم.

«آسفة يا آنسة فلورا»، قالت بيغي عندما دخلت غرفتها بصينية الفطور. «لكن السيدة كيبييل ترغب في أن تنضمي إليها بعد ظهر اليوم لتتناولي الشاي معها ومع صيفها. إنها تقول إنك ستذهبين إلى الحدائق في يوم آخر.

«آه!»، أجابتها فلورا وهي تعض شفتها. «هل تعرفين من هو الضيف؟».

- ستكتشفين ذلك بنفسك قريبًا يا آنسة. لكن قبل أن تنضمي إليهما في صالون السيدة كيبييل عليّ إعدادك لذلك اللقاء. سنتقابل هنا في الثالثة بعد الظهر.

«لا تقلقي»، قالت فلورا لسونيا عندما رأتها في الحضانة النهارية، وأعربت لها عن خيبة أملها بشأن إلغاء النزهة. «أنا واثقة من أن موازيل لن تمنع ذهابنا إلى حديقة سانت جيمس هذا الصباح للتنزه فيها. سنعدّها بالتحدث بالفرنسية طوال الطريق ذهابًا وإيابًا». قالت فلورا لسونيا وهي تغمزها. ثمّ التفتت إلى فيوليت، وسألتها: «كيف حالك هذا الصباح يا فيوليت؟».

«أنا بخير شكرًا لك. ستأتي أعزّ صديقاتي لتناول الغداء عندنا بعد الدرس. فالיום هو نصف دوام في المدرسة».

«فهمت».

«أتوقع أن تكوني هنا عند الواحدة بعد الظهر يا ناني»، قالت فيوليت.

عندما خرجت فيوليت من الغرفة، رفعت ناني حاجبها إزاء طريقة فيوليت المستبدة في الكلام.

«يمكنني أن أخبرك بأنّ الآنسة ساكفيل - ويست فتاة غريبة الأطوار»، همست ناني في أذن فلورا. «يسرّني كثيرًا ألا تكون في حضانتني. عليك فقط أن تستمعي إلى حديثهما عن الكتب والأدب. كأنهما أستاذتان حكوميتان، كما أنّها تأخذ نفسها على محمل الجد. ولا يمكنني إنكار حقيقة أن فيوليت مهووسة بها».

«إذن لا يسعني الانتظار لمقابلتها».

«حسنًا. والآن يا آنسة فلورا، أود أن أقول لك بطريقة أو بأخرى، إن أمامك يومًا مثيرًا للاهتمام».

كان التنزه برفقة سونيا إلى حديقة سانت جيمس أكثر مما احتاجت إليه فلورا في ذلك الوقت. كان يومًا من أيام تشرين الأول المشرقة، وإن كان باردًا قليلًا وأوراق الأشجار تميل فيه إلى ظلال العنبر وتبرق بلونها الأحمر الذهبي، وقد شكّلت تحت أقدامهما سجادة نابضة بالحياة.

«انظري». قالت فلورا وهي تشير إلى مكان مرتفع عند طرف الحديقة. «هل ترين كيف تتجمع طيور السنونو هناك؟ إنها تستعد للرحيل جنوبًا إلى أفريقيا. هذا يعني أن فصل الشتاء في طريقه إلينا».

شهقت سونيا وهي تراقب طيور السنونو في رحيلها: «يا إلهي، أفريقيا! الطريق طويل إلى هناك. ماذا يحدث إن شعرت بالتعب، وهي تطير فوق البحار؟».

«سؤال وجيه لكنني ببساطة لا أعرف الإجابة عنه. ربّما تهبط قليلًا وتحط فوق قارب مبحر».

«انظري هناك، هذا سنجاب. أفترض أنه يجمع المكسرات ليخزنها قبل وصول الشتاء. قريبًا سيدخل في سبات عميق، ولن نراه ثانية قبل الربيع».

«أتمنى لو كنت سنجابًا»، مازحتها سونيا بأنفها الصغير. «أنا أيضًا أود أن أغط في سبات طوال الشتاء».

عادت فلورا وسونيا إلى المنزل في موعد الغداء. جلست فلورا مع العاملين والأطفال إلى الطاولة في الحضانة النهارية. وهناك بالكاد استمعت فيوليت إلى محادثتها. كانت تتهامس مع صديقتها، وهي طفلة ذات عينين داكنتين وبشرة شاحبة وشعر بني قصير وجذع نحيف. لو لم تعرف مسبقًا أنها فتاة، لافتكرتها صبيًا. استغربت فلورا الطريقة الحميمية التي كانتا تتعاملان بها. كانت فيوليت تلمس يد فيتا باستمرار، وفي ما بعد وضعت يدها بلطف على ركة الأخرى.

«ناني، سنسحب فيتا وأنا إلى غرفتي. فيتا ترغب في قراءة قصائدها الجديدة

لي».

«أحقًا؟»، تمتمت ناني في صمتها. «حسنًا احرصي أن تعودي في الساعة الثالثة لأنّ مربّية الآنسة فيتا ستأتي لاصطحابها في ذلك الوقت. كما أن أمك ستستقبل ضيفها الخاص عند الرابعة، لذلك على المنزل أن يكون في هدوء تام. أما أنت يا آنسة فلورا فعليك أن تنضمي إليهما في تمام الخامسة»، أضافت ناني وهي ترافق سونيا لتغسل وجهها. عندما غادرت فيتا وقيوليت الغرفة كانت كل منهما تضع ذراعها حول خاصرة الأخرى.

وفي تمام الساعة الثالثة، دخلت بارني غرفة فلورا بفستان ملفوف فوق ذراعها. «السيدة كيبييل ترغب في أن ترتدي هذا الفستان لجلسة الشاي، لذلك أخذته إلى الطبقة السفلية لأهيئته لك».

جلست فلورا على منضدة التزيّن تاركة بارني تصفّف لها شعرها في تجعيدات مرتبة تضبط طباع خصلها الجامحة. وثبتت بارني تلك الخصل بأمشاط من عرق اللؤلؤ ذات الأسنان الحادة. ثمّ أخضعت فلورا نفسها لمشدّ مخيف. في تلك اللحظة شعرت، على الرغم من كرم السيدة كيبييل المعلن، كأنها دمية كبيرة الحجم ترتدي الملابس التي تختارها لها مالكها. لكن ذلك لا يعني أنّه كان لديها الخيار لتقوم بأي ردة فعل من دون أن يبدو الأمر أنّه نكران للجميل. وحين تثبتت بارني الثوب المخطّط باللونين القشدي والأزرق عليها، فكّرت فلورا في طبيعة إصرار المجتمع على ربط نسائه ورسمهنّ وعبادتهنّ وفق رغبة الرجال، فتذكرت اليوم الذي تسلّقت فيه سكاويل بملابس والدها. وكيف أن الأمر لم يبدُ قطّ مهمًّا بالنسبة إلى آرتشي.

«آنسة فلورا؟».

«نعم؟»، أجابت وهي تسحب نفسها من حلم اليقظة.

«كنت أسألك إذا ما كان يمكنك شدّ قرطّي أذنك بإحكام. أخشى أن يسقط أحدهما في فنجان الشاي!».

«يا إلهي، سيكون ذلك كارثة!»، أجابت فلورا، وهي تحاول ألاّ تبتسم.

«سأضع قليلًا من كريم الورد على وجنتيك لإضافة لونٍ إليهما. ستكونين جاهزة للنزول حين ينادونك. والآن يمكنك أن تجلسي بهدوء لتقرأ أي كتابًا، وستأتي الآنسة دريير لاصطحابك عندما يحين الوقت».

«شكرًا لك».

«حظًا موفقًا يا آنسة».

عبست فلورا عندما غادرت بارني الغرفة. وشعرت بالفضول لمعرفة السبب الذي سيجعلها تحتاج إلى «الحظ» لمجرد أنها ستشرب الشاي مع الضيف اللغز الذي عرفت بوصوله بعد مرور عشر دقائق فقط. ولكيلا تشعر بمرور الوقت، ذهبت إلى مكتبها وأخرجت منه دفتر يومياتها لتوثق المحادثة المروعة التي جرت بينها وبين آرثشي. أما كتابتها لتلك الوقائع فجعلتها تشارف على البكاء. في النهاية، سمعت طرقًا على الباب، وأطلت من خلفه الآنسة دريير.

«السيدة كيبييل تطلب إليك أن تنضمي إليها الآن».

«ممتاز».

تبعث فلورا الآنسة دريير إلى الطبقة السفلية، وهي تشعر بتوتر وسط الصمت الرهيب الذي ساد المنزل، والذي بشر بوجود ضيف السيدة كيبييل المميز.

«أجاهزة أنت؟»، سألتها الآنسة دريير.

«أجل».

«ممتاز». وحين رفعت الآنسة دريير يدها لتنقر على باب الصالون، لاحظت فلورا اهتزازة قليلًا.

«تفضلي»، سُمع صوت السيدة كيبييل ينادي من الداخل.

«بحق السماء، لا تنسي أن تنحني له عندما تقدّمك إليه»، همست لها الآنسة دريير عندما أمسكت مقبض الباب لتفتحه.

«عزيزتي فلورا»، قالت السيدة كيبييل وهي تقترب منها. «تبدین رائعة الجمال اليوم، أليس كذلك يا بيرتي؟». أمسكت السيدة كيبييل يد فلورا وقادتها إلى رجل ضخم ذي لحية رمادية كان يجلس على أريكة فيها مقعدان، لكنه احتلّ المساحة الأكبر منها.

فشعرت فلورا بعينيه الثاقبتين تحدّقان إليها كلّما اقتربت منه هي والسيدة كيبييل، إلى أن توقفتا على بعد قدم واحدة منه. كان فضاء الغرفة ممتلئًا بدخان

سيجاره. لكن على الرغم من ذلك، أخذ ذلك السيّد سحبة أخرى من سيجاره من دون أن يبعد ناظره عنها. فوجئت فلورا بشيء ما يتحرّك جانب ساق السيد. لقد كان كلب صيد ثعالب، أبيض اللون وبني الأذنين، وقد شعر بالانتعاش لدى دخولها فنهض لإلقاء التحية عليها.

«مرحبًا». ابتسمت فلورا للكلب الصغير وهي تمسكه لاشعوريًا لمداعبته.
«فلورا، هذا صديقي العزيز، بيرتي. بيرتي، اسمح لي أن أقدم إليك الأنسة فلورا ماك نيكول».

انحنى فلورا أمام السيّد كما طُلب إليها، وأملت أن تكون تحيتها راقية ولائقة. وعندما حاولت النهوض بأناقة قدر المستطاع، أدركت أن وجه الرجل لم يكن غريبًا. تلا ذلك صمت تام، ظلّت خلاله عيناه تحدّقان إليها بطريقة مزعجة. في النهاية نجحت بطريقة ما في النظر إليه، فشعرت بوهن في ركبتيها.
«ألم أقل لك إنّها جميلة؟»، قالت السيدة كييل لتبدد الصمت. «تعالى يا فلورا، اجلسي إلى جانبي».

تبعث فلورا السيدة كييل إلى الأريكة الطويلة الموضوعة قبالة الرجل الذي فهمت أنّه يدعى بيرتي. وشكرت السماء على إعطائها القوّة للجلوس، فلولاها لسقطت أرضًا في حالة صدمة.

مع ذلك، لم ينطق الرجل بكلمة، بل واصل التحديق إليها.
«سأطلب الشاي. أنا واثقة من أنّنا جميعًا بحاجة إلى شاي مخمّر طازج».
عندما ضغطت السيدة كييل على الجرس الموضوع بجانب المدفأة، استطاعت فلورا أن تلاحظ تبدّد الهدوء الأسطوري الذي تتصف به راعيتها وحلول انزعاجها من الصمت محلّه. وفي نهاية المطاف، أمسك بيرتي السيجار مرة أخرى وأشعله من جديد ثمّ نفث الدخان في الهواء.

«كيف وجدت لندن يا آنسة ماك نيكول؟».
«ممتعة جدًّا، شكرًا لك...». أجابته بعد أن تأخرت في الرد قليلًا، إذ لم تكن تعرف كيفية التعامل معه.

«من فضلك، عندما نكون على انفراد يمكنك مناداتي ببيرتي كما تفعل عزيزتي السيدة جورج. فجميعنا هنا أصدقاء. إنك تبدين لي ناضجة لكي لا أطلب إليك مناداتي كينغي مثلما تفعل فيوليت وسونيا». وابتسمت عيناه الزرقاوان المرحتان، وزادت حدة التوتر في الغرفة أكثر.

«إذًا، كيف حال والدتك العزيزة؟».

«أنا... إنها بخير، شكرًا لك. أو على الأقل هذا ما أعتقده لأنني لم أرها منذ أن غادرت إلى اسكتلندا».

«أتذكر يا بيرتي، أخبرتك بأنّ والدَي فلورا انتقلا من منزل البحيرات إلى المرتفعات؟».

«آه صحيح، كان خيارًا صائبًا. اسكتلندا بلا شك هي جزئي المفضل من الجزر البريطانية. خصوصًا بالمورال. هل زرت المرتفعات يا آنسة ماك نيكول؟».

«عندما كنت أصغر سنًا. ذهبت إلى هناك لزيارة جدّي من جهة والدي. أذكر أنّها كانت جميلة». بذلت فلورا ما بوسعها لتضبط نفسها وتصوغ جملاً متماسكة. وتفاجأت بنبرة صوته وبلطفه للكلمات بلكنة توتونية جعلته يبدو أجنبيًا.

وصلت الآنسة دريبر مع الخادم، وهما يجزّان عربة الشاي. كان عليها سندويشات، ومعجنات، وحلوى. ولحق بقدمي الآنسة دريبر ظل أسود، دفع الكلب الذي بقي هادئًا لغاية تلك اللحظة إلى إطلاق سلسلة من النباح تسببت في فقدان سمع الجالسين تقريبًا. ومن دون تردّد، نهضت فلورا وحملت قطها الذي سال لعبه فبدأ يهسهس بين ذراعيها.

تخلّل نباح الكلب دويّ ضحكات. «ابقَ إلى جانبي يا قيصرا!»، أمر بيرتي كلبه. فانسَلَّ الكلب وجلس عند قدمي سيّده. «ومن يكون هذا يا آنسة ماك نيكول؟».

«هذا پانثر». قالت فلورا وهي تحاول تهدئة القطّ الذي كان يرتعش.

«يا له من حيوان رائع. أين وجدته؟».

«أنقذته من على ضفّة إحدى البحيرات عندما كان صغيرًا. هناك في منطقة البحيرات».

«فلورا، من فضلك خذي پانثر إلى الخارج». قالت السيدة كيبييل.

«لا داعي لذلك. إذا كنت تفعلين ذلك من أجلي يا سيدة جورج، فأنت تعرفين أنني أحب الحيوانات».

أطلقت فلورا پانثر في الممر، ثم أغلقت الباب، وعادت الجلوس في مكانها. فسكبت السيدة كيبييل الشاي، لكنها كانت تعرف أنها لن تستطيع لمسه خوفًا من أن ترتجف يدها، فينسكب على فستانها الفاخر ويلطّخه.

«آنسة ماك نيكول، أنت محظوظة للحصول على رفيقة ذكية ومحركة مثل السيدة جورج». قال بيرتي. ثم أخذ نفسًا آخر من سيجاره وابتسم باعتزاز للسيدة كيبييل قبل أن يتابع. «أستطيع القول بصدق أنني لم أعتقد أنني سأرى اليوم الذي...». عن أي يوم كان يتحدث؟ لن تعرف فلورا لأن استنشاقه دخان السيجار تسبّب له في نوبة سعال خانقة. فاحمرّ كلون الشمندر، وسالت الدموع من عينيه، وهو يكافح لأخذ نفس عميق. على الفور، سكبت السيدة كيبييل كوبًا من الماء، وحشرت نفسها على الأريكة إلى جانبه، ووضعتة على شفتيه وأجبرته على شرب الماء.

«اللعنة يا امرأة! لا أحتاج إلى الماء، بل أريد كأسًا من البراندي». ثم سحب منديل پيسلي كبير من معطفه الخفيف، ودفع بكوب الماء بعيدًا منه، حتى إنه انسكب على تنورة السيدة كيبييل، وراح يمخط بصوت عالٍ.

«بيرتي، عليك أن تتوقف عن التدخين». وبخّته السيدة كيبييل عندما نهضت لتذهب إلى الدورق عند البوفيه. «كلّما عاينك طبيب، قال لك الأمر نفسه. هذه الأمور ستقضي عليك، وستنهيك لا محالة». ثم ناولته كأسًا من البراندي، فتجرّعه دفعة واحدة، قبل أن يتناول كأسًا أخرى.

«هراء! هذا طقس بريطانيا اللعين. الرطوبة عالية جدًا هنا. هل تذكرين كيف كنت في بياريتز؟».

«بيرتي، تعرف أن ما تقوله غير صحيح. ففي المرة الأخيرة التي كنّا فيها هناك، أنت...». «كفى!». زار في وجهها وتجرّع كأسًا أخرى من البراندي. بعد ذلك نظر من جديد إلى فلورا.

«هل ترين ما عليّ أن أتحمّله يا آنسة ماك نيكول؟ إنني أعامل كأنتي طفل في حضانة».

«إنك تُعامل على قدر محبّتنا لك»، ردّت عليه السيدة كيبييل.

انتظرت فلورا وقوع مشاجرة أخرى بينهما، لكن حين جلست السيدة كيبييل إلى جانبه وأمسكت يده، هدأ قليلاً وأوماً لها برأسه، وقال:

«أعرف يا عزيزتي. لكنني أشعر بأنّ الجميع يحاول إفساد متعتي هذه الأيام».

«كلنا حريصون على تفادي ألم خسارتك».

«كفانا من هذا الآن». ولوّح بيده إلى السيدة كيبييل كما لو كانت ذبابة. «إنني بالكاد أعطي انطباعاً جيّداً للآنسة ماك نيكول. إذاً أخبريني عن نفسك. ما هي النشاطات التي تستمتعين بها؟».

«الريف»، أجابت فلورا بأول شيء خطر في بالها. «بالطبع، هذا كلّ ما أعرفه. ربّما كنت سأحبّ حياة المدينة بالقدر نفسه لو نشأت فيها. أسمع أن لندن مدينة جميلة».

«لا داعي للاعتذار يا آنسة ماك نيكول. لو أن القدر كان ألطف بي قليلاً، لاخترت الريف أنا أيضاً. قل لي هل تمتطين الخيل؟».

«أجل»، أجابت فلورا وهي ما تزال غير قادرة على مناداته بيرتي. «على الرغم من ذلك، أعترف بأنني سأتردد كثيراً في امتطاء الخيل في مسار روتين رو. لقد تعلمت ركوب الخيل في الأراضي الوعرة، فأنا لست بارعة في المسارات المحددة».

«آه، من تلك الأيام!»، قال وهو يصفّق بيديه مثل طفل. «عندما كنت شاباً، لم يستهوني شيء أكثر من العدو عبر المستنقعات الاسكتلندية. وما هي النشاطات الأخرى التي تستثيرك يا آنسة ماك نيكول؟».

«كنت أتمنى أن أقول لك الشعر أو الخياطة أو أنني أعزف البيانو ببراعة مثلاً، لكنني في الواقع ميّالة إلى الهواء الطلق. فأنا أحبّ الحيوانات مثلاً...».

«وأوافقك في ما تقولين!»، قال وهو يشير إلى الكلب الذي كان يهرّ ذيله باعتزاز عند قدميه. «أما بالنسبة إلى الفنون... حسنًا، فإنّ موقعي هو الذي يفرض عليّ أن أكون متساهلاً مع الفنّانين وأنّ أشيد بهم. مع ذلك، لا يمكنك تخيل الليالي الطويلة لي في دور الأوبرا والمسارح التي يفترض أن أعثر فيها على معنى روحاني أو نفسيّ، أو الوقت الذي أستمتع فيه إلى شعر لم أستطيع فهم أي كلمة منه...». «بيرتي! أنت تظلم نفسك»، قالت له السيدة كيبييل. «أنت قارئ محترف».

«لأنّ الأمر مفروض عليّ، إنه جزء من وظيفتي». وغمز فلورا.

«أحبّ رسم الحيوانات أيضًا، لكن يبدو أنّي غير قادرة على رسم البشر. ربّما لأنني أجدهم أكثر... تعقيدًا». أملت فلورا أن تهدّئه إجاباتها عن أسئلته. «أحسنّت القول!». قال بيرتي وهو يصفع فخذه الضخم.

«بيرتي، عربتك تنتظر في الطبقة السفلية. تعرف أنّ عندك موعدًا هذه الليلة و...».

«نعم، أعلم». قال وهو يعاود النظر نحو فلورا للتعبير بصمت عن سروره بصحبته. «آنسة ماك نيكول، السيدة جورج على حق، يجب أن أأغار لخدمة الأمة والملكة».

فنهضت فلورا على الفور، وكانت على وشك الانحناء له مرّة أخرى عندما جذبها إليه.

«تعالى إلى هنا يا عزيزتي».

فتقدّمت نحوه خطوات قليلة ووقفت مباشرة قبّالته. اندهشت عندما أمسك يديها بكفّيه، وكانت أصابعه مثقلة بخواتم من الذهب وحجر الياقوت.

«كان من دواعي سروري التعرف إليك يا آنسة ماك نيكول. لقاؤنا هذا ذكرني بأنّ غريزة السيدة جورج لا تخطئ. والآن تعالي وساعديني على النهوض يا امرأة».

نهض بيرتي عن الأريكة بمساعدة السيدة كيبييل. وعلى الرغم من أن فلورا كانت طويلة القامة، إلّا أنّه كان أطول منها.

«آمل أن نستمتع بمزيد من الوقت معًا في المستقبل. خصوصًا في الريف. ربّما في دونتريث؟». ثمّ نظر إلى السيدة كيبييل، التي أومأت برأسها. «بالطبع».

«والآن يا آنسة ماك نيكول، أو فلورا، يجب أن أذهب. وداعًا يا عزيزتي». «مع السلامة».

«تعال يا بيرتي، سأرافقك إلى الطبقة السفلية».

وخرجت السيدة جورج برفقة الكلب وملك المملكة المتحدة وإيرلندا والأراضي البريطانية خلف البحار والمدافع عن الدين وإمبراطور الهند من الصالون الخاص بالسيدة كيبييل.

19

«هل قابلت كينغي؟»، سألت سونيا التي كانت تستعد لدخول الفراش بعد أن وضعت المجعدات الورقية على شعرها، حين التقت بفلورا عند مدخل الحضانة بعد ساعتين.

«نعم قابلته».

«أليس لطيفًا، على الرغم من أنه سمين بشكل مخيف، لكنّه لطيف».

«أوافقك الرأي». ضحكت فلورا، ثمّ قبلت سونيا على رأسها. «طاب مساؤك!». «فلورا؟».

«نعم؟».

«هلا تأتين إلى غرفتي وتخبريني قصّة أخرى من قصصك؟ فأنا أفضلها على الكتب المصورة التي تقرأها لي ناني».

«سأفعل ذلك غدًا».

«هذا ما يردّده الكبار دائمًا»، قالت سونيا عابسة حين لاح ظلّ ناني في الأفق، واكتسح الطبقة العلوية.

«هذا وعد منّي يا سونيا. والآن تصبحين على خير، وأحلامًا سعيدة». كانت فلورا بحاجة إلى التموية بعد ما مرّت به عصر ذلك اليوم، لذلك أكملت طريقها إلى الحضانة النهارية حيث وجدت فيوليت متفوقة على كرسي بجوار النار، وتقرأ كتابًا.

«هل أزعجك؟»، سألتها فلورا.

نظرت فيوليت من فوق الكتاب، وقد تفاجأت بفلورا.

«من الوقاحة أن أقول نعم».

«إذا سأغادر».

«كلا». قالت فيوليت، وهي تشير إلى الكرسي المقابل لها.

«أأنت واثقة؟».

«نعم، تمامًا». قالت فيوليت، وهي تعني ما تقول.

جلست فلورا حيث أشارت إليها فيوليت. «ماذا تقرأين؟».

«كيتس. قدمته إليّ فيتا هدية متأخرة لعيد ميلادي».

«يا لكرمها! أعترف لك أنني لا أجد كيف أُميّز الشعر الجيد من الرديء».

«هذه بالطبع مجرد ملاحظة مني. لكن مع شعراء رومانسيين مثل كيتس، لا يهم مدى معرفة القارئ بالأدب، بقدر ما يهم مدى معرفته بالحب».

«لست واثقة مما تقصدينه يا فيوليت». قالت فلورا على الرغم من أنها على يقين مما قصدته.

«حسنًا، قبل أن أقابل فيتا وتشرح لي الشعر كنت أجد أنه أيضًا مملًا»، قالت فيوليت وهي تحدّق في النار. «أمّا اليوم بعد أن قرأت ما كتبه، أدرك أنه يكتب تعابير حب عامة لمن لا يستطيع التعبير عن نفسه على نحو خاص. هل تفهمين؟».

«أعتقد أنني أفهم يا فيوليت. من فضلك أكملني».

«حسنًا، بما أن فيتا أهدتني هذا الديوان، فهذا يشير إلى أنها تريدني أن أقرأ الكلمات التي وجدت نفسها عاجزة عن التعبير بها لي».

«هل تعنين أنك تعتقدين أنها تحبك؟».

«بقدر ما أحبها». بدت فيوليت بنظراتها المباشرة التي ذكّرت فلورا بنظرات والدتها، كأنها كانت تتحدّى فلورا. «هل ثمة خطأ في ذلك؟».

بعد قضاء يوم كامل وجدت نفسها فيه مضطرة إلى التفكير فيما كانت ستقوله قبل التفوه به، فأجابتها بصدق:

«هناك أشكال عدة للحب يا فيوليت. يمكن للمرء أن يحب أهله بطريقة ما، وأخاه أو أخته بطريقة أخرى، وأن يحب حبيبته، صديقه، حيوانه الأليف... كل واحد بطريقة محددة».

وراحت فلورا تراقب تعابير وجه فيوليت، وهي تلين وتسقط الحجاب عن عينيها.

«نعم، نعم! لكن يا فلورا، كيف يمكننا أن نختار من نحب، بينما يملئ المجتمع علينا ذلك؟».

«حسنًا، على الرغم من أنه في الظاهر علينا أن نخضع لما يملئ المجتمع، قد يحدث للمشاعر التي تخالجننا أن تتعارض معه».

صمتت فيوليت لحظة، ثم ابتسمت. كانت تلك أول مرة تراها فيها فلورا سعيدة منذ أن رأتها التقت بها.

«أنت تفهميني!»، قالت فيوليت وهي تغلق كتابها. ثم وقفت ومشيت نحو فلورا. «في البداية لم أكن واثقة مما رأيته فيك يا أمي، لكنني فهمت الآن، وأنا سعيدة لأنك هنا. لا بدّ من أنك وقعت في الحب أنت أيضًا. تصبحين على خير يا فلورا».

حين غادرت فيوليت الحضانة، أطلّت بارني من خلف الباب. «اعذريني يا آنسة فلورا، لكنّ السيدة كيبييل تسأل إذا ما كنت ترغبين في الانضمام إليها في حجرتها قبل أن تخرج لتناول العشاء».

نهضت فلورا وتبعّت بارني إلى الطرف الآخر من الممر، حيث كان جناح السيّد والسيدة كيبييل الخاص.

«تعالى يا فلورا واجلسي إلى جانبي». كانت السيدة كيبييل تجلس إلى طاولة التزيّن مثل إمبراطورة.

«شكرًا لك». قالت فلورا وهي تجلس على حافة كرسي مغطى بقماش مخملي وتراقب شعر السيدة كيبييل الكستنائي المنسدل على طبيعته إلى أسفل كتفها فوق بشرتها الكريمة الناعمة. كانت ترتدي ثوبًا من دانتيل الشانتيلي فوق مخصر

دفع بثدييها إلى أعلى الفستان. فكرت فلورا أنه لم يسبق لها أن رأت السيدة كيبييل بهذا القدر من الجمال.

«أريد أن أحدثك عن بيرتي. لقد انبهر بك كثيرًا اليوم».

«وأنا أيضًا». أجابت فلورا بتأنٍ.

«حسنًا. إنه لم يعد كما كان في السابق»، قالت السيدة كيبييل بعد أن لاحظت نبرة صوتها. «إنه مريض ويرفض أن يتعالج. لكنه رجل طيب وحكيم وعزيز على قلبي».

«نعم يا سيدة كيبييل».

«بارني، من فضلك اتركنا على انفراد بضع دقائق؟».

«أجل سيدتي». وغادرت بارني التي بقيت تحوم خلف سيّدتها، في انتظار إشارة منها لتبدأ بتصفيف شعرها. عندئذٍ التفتت السيدة كيبييل إلى فلورا ومدّت ذراعها لتمسك يدها ثمّ ضغطت عليها بقوة، وقالت:

«عزيزتي فلورا، لم أكن واثقة من أن تقديمك إلى بيرتي كانت فكرة صائبة. لكنك ببساطة أثبتت نفسك بجدارة».

«أحقًا؟ مع أنني كنت متوترة».

«لقد تصرفت على طبيعتك كما قال الملك في أثناء مغادرته. كنت طبيعية مثل زهرة اسكتلندية برية تنمو بين نبات الرتم».

«أنا... إنني مسرورة لأنني نلت إعجابه».

«آه فلورا»، تنهدت السيدة كيبييل بعمق. «ليتك تعرفين كم أعجب بك. وكم أنا ممتنة لك... لأنك تصرفت على طبيعتك. لقد حذّرني ألا أفسدك أو أحوّلك إلى سيّدة مجتمع مختلفة. إنه حريص على ألا يفسد وجودك هنا في المدينة طبيعتك النقية. كما أنه يأمل بتمضية مزيد من الوقت برفقتك. مع ذلك، بما أنك لم تُقدّمي رسميًا، فأنا أفضل - وهو بالمثل - أن نحافظ على سرية اجتماع اليوم، وعلى أي لقاء بينكما في المستقبل».

«نعم، لكن سونيا وقيوليت تعرفان أنني قابلته».

«ولمَ لا، بالطبع ستعرفان». قالت السيدة كيبييل وهي تضحك. «إنني لا أعني من هم داخل هذه الجدران. إن أهم سبب يجعل بيرتي يزور ميدان بورتمان، هو أن هذا المنزل يخضع للكتمان والخصوصية التي تفتقر إليهما الأماكن الأخرى. هل فهمت يا فلورا؟».

«أجل يا سيدة كيبييل».

«جيد. إذًا أنا واثقة من أنك وبيرتي ستطّلعان إلى التعرف أكثر إلى بعضكما في المستقبل».

«نعم، أود ذلك. أنا...».

«ما الأمر يا عزيزتي؟».

«إنني أتساءل إذا ما كان السيد جورج... يعرف بزيارات الملك السرية إلى هنا».

واحمّرت وجنتا فلورا عندما لمّحت إلى ذلك.

«لمَ؟ بالطبع يعرف بزياراته! هو وبيرتي صديقان مقربان، وغالبًا ما يخرجان معًا في رحلات الصيد عندما يأتي الملك للإقامة في دوتنريث في فصل الخريف».

شعرت فلورا بأنها بلهاء لسؤالها، فاحمّرت خجلًا أكثر من السابق.

«في هذا المنزل، لا أحد يخفي الأسرار عن الآخرين. والآن يجب أن أنادي بارني لأنني سأغادر إلى العشاء في منزل مارلبورو خلال ثلاثين دقيقة». ورّنت السيدة كيبييل الجرس الموضوع على طاولة التزيّن. «هذه الليلة، سينضمّ رئيس الوزراء إلينا. هذا يعني أننا سنصرف الأمسية ونحن نناقش أحدث طرائف كايزر ويلهلم».

عندئذٍ بدأت فلورا تشك في تلك المرأة التي كانت تبصق أسماء المشاهير، كأنها تبصق بذور الكرز. «أمل أن تستمتعي بأمسيتك».

«شكرًا. لكنني واثقة من أنني لن أفعل. تذكرت لتوي أنك ستزورين أختك أوريليا غدًا في منزل خالتها في ميدان غروسفينور. وبما أنني لن أكون منشغلة غدًا، سيأخذك فريد إلى هناك، ويعيدك بعد ذلك إلى المنزل».

«شكرًا لك».

«مرة أخرى يا عزيزتي، تهاني على سلوكك المميز خلال جلسة الشاي بعد ظهر اليوم. ثقي بأنه لن يكون لقاءك الأخير ببيرتي».



«أختي العزيزة!».

استقبلت أوريليا أختها فلورا بعناق مطوّل عند باب غرفة الرسم في منزل خالتهما شارلوت. وما إن دخلتا الغرفة، حتى أغلقت أوريليا الباب خلفهما.

«طلبت إلى الخالة شارلوت أن تمنحنا بعض الخصوصية، فأنا بحاجة ماسة إلى نصيحتك». قالت أوريليا وهي تقود فلورا إلى الأريكة وتجلس إلى جانبها.

بدت أوريليا في نظر فلورا مختلفة قليلًا منذ آخر مرة رأتها فيها. كانت عيناها الجميلتان تنبضان بالحياة وكانت بشرتها متوهجة. وعلى الفور أدركت فلورا السبب.

أرجوك يا الله، ساعدني لكي لا أظهر ألمي...

«طلبت إليك المجيء لأخبرك بما حصل منذ آخر مرة التقينا فيها. لقد زارني أحدهم».

«أحقًا؟ من؟».

«آرتشي فوغان! لقد زارني قبل يومين، كنت أنهي استعداداتي للعودة إلى اسكتلندا التي كانت مقررة بعد غد. لن تتخيلي مدى دهشتي لرؤيته واقفًا أمامي».

«يا إلهي!». تظاهرت فلورا بالصدمة. «بلى أستطيع تخيل ذلك».

«بالطبع، افترضت أولًا أنه أتى ليوذّعني من باب المجاملة. دخل إلى هنا وأغلق الباب خلفه، وعلى الفور أمسك يدي وأخبرني بأنه ارتكب خطأ فادحًا! فصعقت من المفاجأة».

«أنا واثقة من أنني كنت لأصعق أنا أيضًا».

«سألته عن أيّ «خطأ» يتحدث، فشرح لي أن مسؤولية الزواج تسببت له فجأة

في الخوف، فشكّ في أهليّته له، تمامًا كما قلتِ أنتِ! وخشي من أن يخيب ظنيّ به كزوج، لذلك لم يتقدّم لي عندما كنت في هاي ويلد». «فهمت».

«وأخبرني بأنّه أدرك أنّه يفتقدني بعد مغادرتي هاي ويلد». عندئذٍ تاهت عينا أوريليا كأنّها كانت تسترجع تلك اللحظة. «آه، يا إلهي! كم كان.... رومانسيًا».

«وعندما أبلغته والدته أنّني أستعدّ للمغادرة إلى اسكتلندا، قال لي إنّهُ شعر في أعماقه أن عليه أن يأتي خلفي ليمنعني من الرحيل. وهذا ما يفعله الآن بالضبط». «وهل عرض عليك الزواج؟».

«نعم! آه يا فلورا. لقد سألني إذا كان بإمكانني مسامحته على سوء حكمه على الأمور، وعلى الفور نزل على ركبة واحدة وقدم إليّ خاتم خطوبة فيه زمردة براقّة». «وما كان ردّك؟».

«حسنًا هنا الموضوع. أتمنّى أن تشعري بالفخر بما فعلته. قلت له إنّني بالنظر إلى التحول المفاجئ في الأحداث، فإنني أحتاج إلى بضعة أيام لأفكر في الموضوع. لهذا السبب طلبت إليك المجيء، فأنت عاقلة في أمور القلب يا عزيزتي فلورا. ما رأيك؟ كيف أتصرّف؟».

بلعت فلورا ريقها، إذ لم تشأ أن تبدي رأيها الشخصي في ذلك الموضوع. «أول ما يخطر في بالي الآن هو لماذا لم تقبلي بعرضه على الفور؟ ما الذي منعك؟». «لِمَ هذا السؤال يا فلورا؟ لقد أخبرتك قبل بضعة أيّام أنّني سأرفض الزواج به إن عاد معتذرًا. على الرغم من أنّني آنذاك كنت أفكر في الرفض لأحمي نفسي وأحمي كبريائي فحسب. كما أنّني الآن لم أكن واثقة من أنّه يحبني بقدر ما أحبه». «هل قال إنّهُ يحبك؟».

«نعم... أو على الأقل قال إن حياته ستكون بلا معنى من دوني». «حسنًا. الأمر سيّان!»، وأجبرت فلورا نفسها على رسم ابتسامة واسعة على ثغرها. «لأنّه يوصلنا إلى النتيجة نفسها، مهما استخدم آرتشي من كلمات».

«هل تعتقدين ذلك؟»، نظرت أوريليا إليها متوسلة بعض التوضيح. «قد يكون سقف توقعاتي مرتفع، أو أن لدي مفاهيم كثيرة عن الرومانسية، لكن تردده الأساسي يجعلني أشعر، على الرغم من الأسباب التي أخبرني بها أن لديه تحفظات. «والتي حلّها، ولم يكن لها علاقة بك».

«سألته إذا كان هناك امرأة أخرى. فأقسم لي أنه لا يوجد أحد غيري».

تسارعت دقات قلب فلورا. «وهل هذا يعني أن ما أخبرك به كافٍ لتقبلي عرضه الزواج بك؟».

«أجل. لكن قلت لك أنه كان لدي خطاب آخرون في وقت سابق، وكنت أشعر بحماستهم في أثناء مطاردتهم لي أكثر من الآن». نهضت أوريليا، وبدأت تمشي داخل غرفة الرسم الصغيرة. «كانوا يغرقونني بالزهور ورسائل الحب حتى بعدما رفضتهم. كنت واثقة حينذاك من رغبتهم فيّ. لكن مع آرتشي، أشعر كأنني أنا الخاطب المتحمس، وأنا من يطارد رجلاً يظهر لي أنه غير مبال بي طوال الوقت».

«تعرفين أن خبرتي محدودة مع الرجال، ومع ذلك أعرف أنهم لا يتعاملون مع الحب بالطريقة نفسها مثلنا نحن النساء. فبعضهم يعلن رومانسيته، أمّا معظمهم فلا. انظري إلى والدنا. فهو عاشق أمنا دائماً، ومع ذلك لم يكن يوماً رومانسياً معها في العلن».

«هل أنت واثقة من أنه يعشقها؟»، قالت أوريليا وهي تقف في مكانها. «لقد سألت نفسي دائماً هذا السؤال. فأنا بالتأكيد لا أريد زواجاً مثل هذا».

حينذاك أدركت فلورا أنها خسرت الجولة في ذلك النقاش عندما اختارت مثال والديها. ربّما كان عليها إقناعها أن الرجال تربّوا على ألا يظهر مشاعرهم، وأن آرتشي قوған واحد من هؤلاء.

حدّقت أوريليا في أختها، وقد بدا الشك في نظرتها. «أعرف أنك لم تحبيه يوماً، ولم تثقي به بسبب كرهك له. لكنني مندهشة كثيراً من دفاعك عنه الآن».

«لا علاقة لمشاعري هنا. أحاول فقط أن أكون عملية وصديقة معك قدر المستطاع. لقد طلبت رأيي وأنا أعطيك إياه. لقد رأى خطأ في ردة فعله وأدرك أنه

في الحقيقة يريد الزواج بك. أشك في أنك قادرة على المبالغة في الطلب، خصوصًا أن خياراتك الأخرى.....».

«أعرف ذلك. قبل أن يعرض آرتشي الزواج عليّ، كنت أشعر بأنني سأموت من البؤس لمجرّد التفكير بأنني نفيت إلى اسكتلندا مع أمي وأبي». «إذًا، لديك الإجابة».

«نعم، باستثناء أنني لا أتحمّل فكرة أن يكون آرتشي لا يحبني، وأنه يتزوج بي لمهري وإنقاذ منزل عائلته فحسب».

«عزيزتي أوريليا، أعتقد أن اللورد فوغان قد أثبت بوضوح أنّه يتمتّع بطباع خاصة، وأن أحدًا لا يمكنه إجباره على فعل ما لا يرغب فيه». «إذًا، هل تعتقدين حقًا أنّه يجب أن أجيئه بنعم؟». فأجابتها فلورا بأكبر كذبة قالتها طوال حياتها: «نعم».

«وهل ستوافقين على أن تكوني إشبينتي، وأن ترقصي في حفل زفافي على الرغم من مشاعرك السلبية تجاهه؟». «بالطبع سأوافق».

عندئذٍ انقشع الضباب عن وجه أوريليا. «حسنًا لقد أقنعتني. سأخبره بأنني أقبل عرضه، عندما يأتي لزيارتي بعد ظهر الغد. شكرًا لك يا أختي العزيزة لا أعرف ما كنت سأفعل من دونك. والآن بما أنني اتخذت القرار دعينا نطلب الشاي. أشعر بوهن إيجابي من مجهودي بالتفكير». بعد انقضاء الساعة، سمحت فلورا لفريد أن يساعدها على ركوب العربة بعد أن شعرت بتعب شديد نتيجة التوتر الذي تسبب لها فيه خداعها أختها. ومع ذلك كانت مقتنعة بأنّها فعلت الصواب في إقناع أوريليا بقبول عرض آرتشي. لكن الشك بقي يتأكلها طوال الرحلة إلى منزل آل كيبييل في ميدان بورتمان. كلّ ما كانت أوريليا تتمنّاه هو أن يبادلها آرتشي الحب.

لكن فلورا كانت واثقة من أنه لن يستطيع منحها مشاعره.



«أفترض أنك عرفت بالإشعار الذي صدر في صحيفة التايمز هذا الصباح؟»، قالت السيدة كيبييل وهي تناول الصحيفة لفلورا لتقرأ مضمونها.

«نعم. أخبرتني أوريليا بعرض اللورد فوغان».

«وهل أنت سعيدة لأنهما سيتزوجان قبل عيد الميلاد؟ إن فترة الخطوبة قصيرة على غير المعتاد».

«ربّما لأنهما يشعران بأنهما أضاعا ما يكفي من الوقت. أنا سعيدة من أجلهما فهما يحبان بعضهما كثيراً».

ومالت عينا السيدة كيبييل عن قصد. «أنا أيضاً سعيدة من أجلهما، سنرسل لهما على الفور بطاقة تهنئة باسم العائلة».

«وسأرسل بطاقة باسمي».

«وقعت في يدي مصادفة رسالة وصلتك باليد من منزل عائلة فوغان الذي في لندن هذا الصباح. فأخبرت السيد رولف بأنني سأسلّمها إليك شخصياً».

«شكراً لك». قالت فلورا وهي تأخذ الرسالة من يد السيدة كيبييل البيضاء الناعمة، فيما كانت تحاول المحافظة على هدوئها.

راحت السيدة كيبييل تراقبها وهي تعبت بالمغلّف. «عزيزتي فلورا، سأكون في المنزل بعد ظهر اليوم، ولن أستقبل أي زائر إذا رغبت في أن تنضمّي إليّ لاحتساء الشاي بعد قراءة تلك الرسالة».

«شكراً لك». غادرت فلورا الردهة وأسرعت إلى الطبقة العلوية. وعندما دخلت غرفتها، أغلقت الباب وراءها واستلقت فوق السرير وراحت تحدّق بتمعّن في الرسالة. وحين قرأت خطّ يده، سالت الدموع بغزارة من عينيها. ثمّ مزّقت المغلّف وفتحت الرسالة بأصابع مرتجفة.

18 ميدان بيركلي

مايفير

19 تشرين الأول 1909

لقد فعلت ما طلبته مني، مع أنني واثق من أنني أرتكب خطأً فادحاً في حقنا نحن الثلاثة. لقد عرضت الزواج على أوريليا في أقرب وقت ممكن وفق ما اتفقنا عليه. وعلى الرغم من هذا كله، أحبك.

آرتشي



«آه فلورا، كنت أتوقع قدومك».

«فعلًا؟»، أجابت فلورا وهي تطل من خلف الباب داخل صالون السيدة كيبييل في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم.

«بالطبع. أغلقي الباب من فضلك. فنجانك جاهز، وهو في انتظارك لكي لا يزعجنا أحد».

أغلقت فلورا الباب خلفها، واقتربت من السيدة كيبييل مترددة. لم تكن قط من النوع الذي يعطي سرّه للآخرين، لكن اليوم...

«اجلسي يا عزيزتي بجوار النار لتشعري بالدفء». قدّمت السيدة كيبييل فنجان الشاي إلى فلورا فراحت ترتشف منه بعد أن أعربت لها عن امتنانها. «والآن، يمكننا أن نجلس ونحتسي الشاي ونثرثر عن لا شيء، أو يمكننا أن نتحدّث عن السبب الحقيقي لانضمامك إليّ. أيهما تفضّلين؟».

«لست أدري».

«الحب مربك، أليس كذلك؟ وأنت مثلي تفضّلين الاحتفاظ بمخططاتك لنفسك. قال لي بيرتي دائماً إن المعرفة قوّة وإنك مهما شعرت بالإغراء لمشاركة القوّة التي بين يديك مع شخص آخر في مقابل أن ترتاحي في إثر ذلك، فمن غير الحكمة فعل ذلك. ونحن الاثنتين اخترنا ألا نفعل ذلك».

«أجل». اندهشت فلورا من بصيرتها.

«والآن يا فلورا لقد أطلعتك على سري. الكلّ في لندن يعتقد أن هناك علاقة بيني وبين الملك وينتقدني على ذلك. لكن ثرثرتهم الخبيثة ورغبتهم في تشويه سمعتي تعمي بصيرتهم عن أبسط حقيقة، وهي أنني أحبه. قد يدّعي أي شخص من الخارج أن علاقتي به مجرد خدعة تغذي طموحي الشخصي، تمامًا كما يمكن أن يُقال إن رفضك اهتمامات اللورد فوغان بك هو من باب قساوتك. أما أنا فأعرف أن دوافعك الحقيقية نابعة من حبك لأختك العزيزة».

«سيدة كييل، ماذا تقولين؟ أنا... لا أحد يشكّ في أن هناك علاقة بيني وبين اللورد فوغان...».

«أعرف ذلك، وأشكّ في أن أي شخص في لندن سيخمن الوضع، غيري أنا. هذا لأنني رأيت وجهيكما عندما التقيتما قبل أيام. لقد قرأت تلك الورطة على وجهيكما. لذلك لا تقلقي يا عزيزتي، سرّك في أمان. لكن من فضلك، ثقي بي وأخبريني بما حصل قبل أن تدفعي بنفسك إلى حافة الجنون».

في نهاية المطاف، أخبرت فلورا السيدة كييل بكل ما حدث بينها وبين آرثي فوغان. فسكبت السيدة كييل لها كأس شيري وقدمت لها منديلًا نظيفًا من الدانتيل. ومن دون شك شعرت فلورا بالارتياح في إثر مشاركتها ذلك السرّ.

«لن تكوني أول أو آخر امرأة تدفع بالرجل الذي تحبه إلى أحضان امرأة أخرى، فقط لأنك تشعرين بأنّ هذا ما عليك فعله. أنا أيضًا مررت بتلك التجربة ذات يوم. كان ذلك قبل زواجي بعزيزي جورج، وقبل التعرّف إلى بيرتي. تصرفت على النحو الصحيح لأنبل الأسباب. والآن عليك الاستمرار».

«أعرف ذلك. وهذا أصعب ما في الأمر».

«حسنًا، أفضل طريقة للنجاح في ذلك هي أن تُشغلي نفسك بأمورٍ أخرى، وسيسعدني جدًّا أن أساعدك على ذلك». قالت السيدة كييل وهي تبتسم لها. «هناك عدد من الحفلات الراقصة عمّا قريب. يمكنني أن أوكد لك أنك إلى أن يحين موعد زفاف أختك، ستكونين قد حصلت أقلّه على عرّصي زواج».

«شكرًا لك، لكنني لست مهتمة بالخطاب في الوقت الحالي».

«هذا لأنك لم تقابلي أي منهم بعد». قالت السيدة كيبييل بعينين برّاقتين. فلنبدأ بالحفلة الراقصة في ديفونشاير هاوس، وهناك حفلة كبيرة أخرى في بلينهايم، مع أن الرحلة شاقة إلى هناك لكنني أشعر بأنه علينا الذهاب».

«سيدة كيبييل؟»

«نعم يا عزيزتي؟»

«لَمْ تفعلين كل هذا من أجلي؟»

نظرت السيدة كيبييل إلى النار، ثم عاودت النظر إلى فلورا. «لأنني أشعر بأنك الطفلة التي لم تُرزق بها».

ستار

تشرين الأول 2007



ميانوثوس (ليلاك كاليفورنيا
- فصيلة رامناسياسي)

20

شعرتُ بيد تربت على كتفي أكثر من مرة وتعيدني إلى الحاضر. رفعت رأسي فرأيت شارة النهاية لفيلم سوبرمان تظهر على الشاشة وروري يقف بجانبني. «أريد مشاهدة سوبرمان 2 الآن».

نظرت إلى الساعة، فوجدت أنها قد تجاوزت الخامسة والنصف. «كلا». قلت له وأنا أهز برأسي. «أعتقد أن هذا كافٍ لليوم. هل ترغب في رؤية الديك البرّي؟»، سألته لأصرفه عن الموضوع.

فأوما برأسه متحمساً... سلخت نفسي من الماضي ونهضت عن الكرسي، إذ لم يكن الوقت المناسب لأبدأ بتحليل ما قرأته، ولا بالتفكير إذا ما سيكون له تأثير ما على وجودي. وجدت أورلاندو في المطبخ، وقد فرز الأغراض التي جاؤوا بها من متجر المزرعة.

«أنجزت عملاً صالحاً، ونتفت الديك البرّي نيابة عنك، ستشعرين بارتياح كبير عندما تعرفين أنني نزعيت بيدي الرصاصات التي أنهت حياته لكي لا تتكسر أسناننا ونحن نأكله غداً». ثم رفع الصحن الصغير الذي وضع فيه الرصاصات الثلاث. وعلى الفور، أمسك روري بواحدة وتفحصها، ثم قال: «طائر مسكين».

«آه أجل، نحن محظوظون لتناول هذا غداً. ويا آنسة ستار، هذا من أجل وليمة الليلة».

رأيت شريحة من اللحم الأحمر ألقى بها على بلاطة الرخام أمامه.

«لا أعرف شخصاً آخر قادراً على إنصاف هذه التحفة. وإذا لم يكن لديك مانع، أحبّ تناول العشاء في الساعة الثامنة. هكذا سيتسنى لمعدتي ثلاث ساعات لهضم الطعام قبل أن تحين ساعة النوم»، قال أورلاندو وهو ينظر إلى الساعة. «إدّا، من الأفضل أن أباشر بها الآن».

«وفي أثناء ذلك، سأتبارى مع هذا الرجل الصغير في لعبة شطرنج. لأنّ الخاسر سيغسل الصحون بعد العشاء».

«لكنّك تفوز دائماً يا عم لاندو»، تذمّر روري وهما يخرجان من المطبخ. جهّزت اللحم والخضار، ثمّ جلست إلى الطاولة أستنشق رائحة الطبخ وأستمع بدفء المطبخ. وبعد التفكير في ما قرأته، فهمت أن التمثال الذي أعطاه لي والذي كان تمثال القط المدلّ پانثر، ولم يكن نمراً كما اعتقدت في البداية. ثمّ فكرت في فلورا ماك نيكول التي ذكرها پا سولت. لا بدّ من أنّها تقربني. هناك بالتأكيد أوجه شبه بيننا، على سبيل المثال اهتمامنا المشترك بالنبات وحبنا للطبيعة.

لكن بالطبع هناك ملايين الأشخاص الآخرين الذين لديهم تلك الهوايات. ومما قرأته، يمكن لأوريليا نفسها أن تقربني. ففي النهاية هي من تزوّجت من عائلة فوغان على ما يبدو.

إن أسوأ ما في الأمر هو أنّي أردت بشدة العثور على رابط، أو أي علاقة تربطني على نحو وثيق بهاي ويلد، وتسمح لي أن أكون جزءاً من هذه العائلة الاستثنائية التي أصبحت اليوم على وجه الخصوص مولعة بفردين منها.

بعد أن تناولنا شريحة اللحم التي وصفها أورلاندو بالرائعة، اصطحبت روري إلى الطبقة العلوية ليستحمّ. ولأنّني لم أكن واثقة من قواعد استحمام الأطفال، تركته يمسك زمام المبادرة، فنزع جهاز السمع، ووضعه بعناية على الرفّ.

«هل أخرج؟»، سألته وهو يدخل إلى حوض الفقاعات الذي حضّره له. لكنّه هزّ رأسه بالنفي.

«تحدّثي إليّ. أخبريني قصة عن عائلتك يا ستار».

جلست على غطاء المرحاض الخشبي القديم، ورحت أقصّ عليه بإيجاز كبير، وأنا أعتد على تعابير وجهي عندما أفشل في محادثته بلغة الإشارة، أخبارًا حول طفولتي في أتلانتيس وقصص عني وعن سيسي عندما كنّا نتورّط في المشكلات.

«يا لكما من أختين مشاغبتيْن!»، قال روري ضاحكًا، وهو يخرج من الحمام بالمنشفة التي ناولته إياها. ثمّ أظهر بعض الجدية في عينيه الخضراوين. «أنا أيضًا أريد أختًا أو أخًا. يبدو الأمر ممتعًا».

ساعدته في ما بعد على ارتداء ملابس النوم، وأعطيته جهاز السمع، فثبّته جيّدًا في أذنيه. بعد ذلك لفّ ذراعيه حول كتفي وقبلني على خدي. «هل تكونين أختي يا ستار؟».

«بالطبع»، قلت له ونحن نسير في الممر إلى غرفة نومه.

بعد دقائق قليلة، ظهر أورلاندو في الرواق، يدور حول نفسه متردّدًا. «هل انتهى الحمام؟».

«أجل. ليلة سعيدة يا ملاكي!»، قلت لروري وأنا أمنحه قبلة. «تصبحين على خير يا ستار».



في صباح اليوم التالي، بعد انتهائنا من تناول الفطور، حمّرت ساقي الديك البرّي في وعاء كبير، ثمّ أضفت إليهما التوت والأعشاب وبعض النبيذ الأحمر، وأملت أن ينضج بالصلصة التي حضّرتها له بنكهة لذيذة. ثمّ لففت قطعًا من صدر لحم الخنزير المقدّد، ووضعتها جانبًا لأطهوها في الفرن في ما بعد. جلس روري إلى طاولة المطبخ ليرسم فيما كنت أَلفُ المعجنات لأحضّر فطيرة فاكهة، وبقينا نعمل على هذا النحو وسط أجواء لطيفة. كنت في الماضي أشاهد سيسي وهي ترسم، وقد حصل ذلك مئات المرات، لكنّ فنّها كان ميّالًا إلى الدقّة، في حين أنّ فنّ روري كان عبارة عن مزج الألوان المائية لكي يحصل في النهاية على الظلال التي يرغب فيها، ثمّ يذلّقها عشوائيًا فوق ورقة. بعد أن وضعت الفطيرة في الفرن، رأيته ينهي مشهدًا طبيعيًا خريفياً، لو تمرّنت على رسمه شهوّرًا فلن أكون قادرة على تكراره.

«رائع»، قلت له وهو يضيف اسمه إلى اللوحة. ولاحظت كيف شكّلت يده حروف اسمه بطريقة خرقاء تناقضت مع ضربات الفرشاة الانسيابية.

«أحب الرسم».

«كلّ منّا يحبّ فعل أمور يجيدها»، أجبته مبتسمة.

كان أورلاندو قد خرج من البيت في وقت سابق في ذلك الصباح، ولم يخبرنا إلى أين كان سيذهب. فانتابني شعور بأنّه فعل ذلك عن قصد. ثمّ عاد إلى المنزل برفقة ماوس عندما كنت أهرس البطاطا.

«انظر»، أشار روري إلى لوحته. «هذه لستار».

أشاد أورلاندو برسمه على نحو مطيع في حين أن ماوس بالكاد ألقي نظرة سريعة إليها.

«ما رأيك لو أحضر شراب فاكويراس بعد أن صببته في إبريق لاحتسائه مع وجبة الديك البرّي التي تحضّرها ستار؟»، قال أورلاندو وهو يتّجه إلى المخزن لإحضار الخمر.

«هل قرأت دفتر اليوميّات الذي نسخته؟»، فاجأني ماوس بسؤاله.

«نعم، لقد فعلت. شكرًا لك». قلت له وأنا أشير إلى كومة الورق الأنيقة بجانب الهاتف.

«هل وجدتها مفيدة؟».

«جداً».

«أودّ أن أرى ذلك التمثال الذي لديك».

«في الواقع، لم أحضره معي». كذبت عليه، وأنا آمل ألا يحمرّ وجهي كما يحدث عندما أكذب.

«هذه خسارة لأنّ أورلاندو يعتقد أنّه فابرجيه».

«سأبحث في حقيبتني قبل أن أغادر».

«من فضلك».

رن الهاتف، فنهض ماوس وأمسك السماعة.

«مرحبًا يا مارغريت. نعم كل شيء على ما يرام هنا. هو أيضًا بخير، أليس كذلك يا روري؟».

«نعم!»، صرخ روري لكي تسمعه والدته. «بخير».

«في أي ساعة تعودين؟».

شغلت نفسي عند الموقد حتى لا أبدو أنني أسترق السمع.

«فهمت. حسنًا بالتأكيد لا تستطيعين فعل ذلك، سأسأل أورلاندو وستار إذا كان باستطاعتهما. أورلاندو؟».

«نعم؟»، سأل أورلاندو الذي عاد من المخزن وبيده النبيذ.

«طلب إلى مارغريت أن تبقى مدة أطول في فرنسا. إنها تريد أن تعرف إذا كان بإمكانك أنت وستار تمديد إقامتكما بضعة أيام للاهتمام بروري».

«يؤسفني القول إن هذا مستحيل. لديّ مزادان مهمّان في الأيام الآتية في لندن، ويجب أن أستعدّ لهما. ماذا عنك، يا ماوس؟».

«صعب أيضًا بالنسبة إليّ. تعرف ما لديّ في المزرعة في هذه الأثناء. إلى جانب ذلك، روري في نصف الفصل الدراسي و...».

وقعت عيناى على روري الذي كان يجلس بين الشقيقتين، ويلتفت إليهما وسط تراشقهما الكلام كأننا في مباراة تنس لفضية. لعلّه شعر بأهمية أكبر بقليل من الكرة المجازية التي كانت تتضارب بينهما.

«أنا يمكنني أن أبقى». قلت فجأة. «أعني إذا كنتَ قادرًا على إدارة الأمور في المتجر من دوني يا أورلاندو».

«سأفكر في الأمر، بالتأكيد».

عندئذٍ ربّت روري على يدي أورلاندو وكلمه بلغة الإشارة. «نعم، من فضلك دع ستار تبقى! إن طعامها لذيذ!».

وسادت فجأة لحظة صمت تحوّلت خلالها نظرات الأخوين إليّ.

«بالنظر إلى قلة العملاء في المتجر، لا أعتقد أنه سيكون لديها ما تفعله غير مسح الغبار»، قال ماوس.

على الفور، شعرت بغضب من تعليقه. إلا أنني تماكنت نفسي. ورأيت أورلاندو يتصرّف بالمثل، وفي النهاية قال:

«بالطبع، أهمّ ما في الأمر الآن هو أن يكون روري سعيدًا».

«إذن، هل سمعتِ ذلك يا مارغريت؟ ستبقى ستار. وروري سعيد بهذا الترتيب». قال ماوس عبر السّماع. «لكن لا تقلقي سأبقي عيني هنا. لا تنسي أن تخبرينا في أي ساعة ستعودين يوم الأربعاء. تمام، وداعًا».

«الطعام جاهز»، قلت لأورلاندو الذي سكب لكل منا كأسًا من النبيذ.

«رائع. لنتناوله هنا، أليس كذلك؟ وأنا... نحن...»، قال أورلاندو وهو ينظر إلى أخيه، «ممتنان لك كثيرًا».

«لا مشكلة في ذلك». أجبته وأنا أعود إلى الموقد.

بعد انتهائنا من تناول الغداء الذي كان لحظة انتصار لي، على الرغم من أنني أقولها عن نفسي، وبالنظر إلى أنه لم يسبق لي أن طهوت ديكًا بريًا، اصطحب ماوس أورلاندو إلى أشفورد بسيارته اللاند روفر للحاق بقطار لندن. كان الفتور بين الأخوين واضحًا، فافترضت أن يكون ذلك بسبب لقائهما السابق، وإلى المحادثة الهاتفية مع مارغريت.

كان ماوس قد أخبرني بأنه سيعود ليتمنى لروري ليلة سعيدة. لكن عندما تجاوزت الساعة الثامنة ولم يظهر أي أثر له، أبعدت روري عن الشاشة التي كانت تبثّ فيلم سوبرمان مرّة أخرى، وساعدته على الاستحمام، ووضعت في السرير.

عدت إلى غرفتي وبحث في حقيبة الظهر عن رسالة يا سولت، وعن تمثال القطّ الأسود. أمعنت النظر في ذلك الكائن الصغير وتذكرت وصف فلورا لپانثر.

«هل هذا أنت؟». سألت التمثال. وعندما لم أحصل على ردّ، خبأته مجددًا.

ماذا لو كان فابرجيه كما يدّعي ماوس! كنت أعرف أنه ذو قيمة كبيرة.

ربّما تكون السيدة كيبييل التي تحبّ إبداعات فابريجيه، هي من أهدته إلى فلورا... لم يكن هناك سوى طريقة واحدة لمعرفة الحقيقة، وهي بإعطائه إلى فأر المجاري... أو ماوس صحّحت نفسي. فاسم الحيوان الأليف الذي على لساني قريب جدًا من اسم الحيوان الأليف الذي يحمله، وكان يصعب أن أتفادى زلة اللسان في أي حال من الأحوال.

دخلت الحمام وغمرت نفسي على وجه السرعة في الحوض المليء بالفقاعات الذي كنت قد حضّرت له لروري قبل قليل، بعد أن أدركت البارحة، أن خزّان المياه الساخنة يعمل بأنبوب واحد فقط في اليوم. ثمّ أسرعته إلى غرفتي لأرتدي طبقات عدة من الملابس قبل النزول إلى الطبقة السفلية.

وقفت عند الباب الأمامي أتساءل عما إذا كان ينبغي أن أقفل الباب ليلاً، وإذا بظلال رجل تخرج من خلفي، تسببت لي بسيل من الدموع من وقع الصدمة.

«هذا أنا لا تخافي. لقد سمحت لنفسي بالدخول من الباب الخلفي بينما كنت أنت في الطبقة العلوية. أردت أن أعطيك هذه فحسب». كان يحمل مفتاحين نحاسيين ضخمين في حلقة كبيرة.

«شكرًا لك».

«شكرًا لك على ما تفعلينه. من الواضح أن روري قد تعود عليك. تقول مارغريت إنّها ستتصل غدًا. لا بدّ من أنّها وافقت على البقاء رغمًا عنها عند ظهور ذلك الطارئ في اللحظة الأخيرة»، تتمم قائلاً. «عادة تعمل هنا في الأرجاء لتتمكن من العودة إلى المنزل في المساء من أجل روري. لكن يبدو أن شهرتها قد ذاعت. في أي حال، ستحتاجين إلى تجهيزات إضافية لتواصلتي رحلتك بكلّ راحة في الأيام القليلة المقبلة. إذا أمكنك، اكتبي لي قائمة بالأغراض التي ستحتاجين إليها، وسأمرّ في وقت مبكر صباح الغد لأخذها».

«لا مشكلة. هل تمانع إن استخدمت الهاتف لأخبر أختي بأنني لن أعود الليلة؟ إن هاتفي المحمول لا يعمل هنا».

«خذي راحتك. وإن كنت بحاجة إلى إرسال بريد إلكتروني، يمكنك الذهاب إلى منزلي. عندما تصلين إلى البوابة في الخارج، انعطفي إلى يمينك واعبري الممر

إلى الجانب الآخر، ستجدين هناك لافتة فارم هاوس على بعد مئة متر إلى اليسار.
قد لا يكون بحجم هذا المنزل، لكنّه على الأقل مزوّد بشبكة واي فاي». «لن أحتاج إليه. شكرًا لك».

«إذا نجحت في العثور على ذاك التمثال، أريد فعلاً رؤيته. هناك عدد من الثغرات في ماضي عائلتنا وأنا حريص على ملئها».

«سألقي نظرة أخرى إلى حقييتي».

«أمل أن تجديه. حسنًا. طاب مساؤك».

«طاب مساؤك».

رافقته إلى الباب. وأغلقت الباب بقوة خلفه. ثمّ عدت إلى المطبخ، ورفعت سماعة الهاتف لأتصل بيسي.

«مرحبًا، هذه أنا».

«سيا! أين أنت؟ لِمَ تتصلين بي من رقم غريب؟».

شرحت لها ما حدث قدر المستطاع، وإذ بصمت طويل يسود بيننا.

«أفهم منك أن هذه العائلة لا تدفع أجرًا زهيدًا مقابل ساعات العمل الطويلة في بيع الكتب فحسب، بل أصبحت تستخدمك كمربية وطاهية من دون أجر؟».

«قال أورلاندو إنني سأظل أحصل على مرتبي، كما أن مارغريت ستدفع لي مبلغًا إضافيًا».

«المشكلة تكمن في أنك طيبة القلب زيادة عن اللزوم».

«إنّها حالة طارئة، وكنت الوحيدة القادرة على المساعدة، كما أنني لا أمانع في تقديمها. لقد أحببت هذا المكان». أجبتهابصراحة.

«تأكدي من أنهم سيدفعون لك مستحقّاتك. أفتقدك كثيرًا يا سيا. هذه الشقة كبيرة جدًّا لشخص واحد».

«سأعود قريبًا إلى المنزل، وإذا احتجّت إليّ يمكنك الاتصال بي على هذا

الرقم».

«لن أحضر الحصّة الأخيرة في الكلية يوم الأربعاء لنتمكن من تناول العشاء معًا. بالكاد رأيتك في الأسابيع القليلة الماضية».

«أعرف ذلك. أنا آسفة يا سي. نامي جيدًا».

«سأحاول. وداعًا».

أنهت سيسي المكالمة بغتةً، فعدت إلى غرفة الرسم وأنا أتنهّد بعمق. أردت التأكد من أن النار قد خمدت تمامًا قبل أن أخلد إلى النوم. كانت هذه قاعدة ذهبية أخرى تعلّمتها من يا سولت. ثمّ أطفأت الأنوار، وشققت طريقي إلى السرير. وبعد أن تحققت من أن روري يغطّ في سبات عميق، جلست أشكر السماء على منحي ليلتين إضافيتين في هذا المنزل الضخم والرائع.

21

استيقظت في صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة، عندما قفز روري داخل فراشي ليقول لي إنه جائع. وعند وصول ماوس ماوس ليأخذ قائمة الأغراض التي كنت بحاجة إليها، كنّا قد جلسنا إلى الطاولة في المطبخ لتتناول الفطور.

«يا لها من رائحة شهية!»، قال ماوس.

تفاجأت بذلك، إذ نادرًا ما كان يصدر عنه تعليق إيجابي منذ أن تعرّفت إليه.

«أعددت الخبز بالبيض. هل تريد بعضًا منه؟».

«مرّ زمن طويل منذ أن تناولت الخبز بالبيض. كنت حينذاك ما أزال صغيرًا.

أجل من فضلك، إن لم يزعجك ذلك».

«هناك قهوة طازجة في الإبريق على الطاولة».

ربت روري على ذراع ماوس، وقال له بلغة الإشارة: «هل يمكنني أن أركب

معك التراكاتور؟».

«ماذا قلت؟»، أجابه ماوس، وهو بالكاد ينظر إليه.

«يريد روري أن يعرف إذا كان بإمكانه ركوب التراكاتور معك». قلت وأنا أضع

الطبق أمامه بصرامة ملحوظة.

«آه، كلا!»، أجابه وهو يلتهم الخبز بالبيض بشهية لم يظهرها من قبل في

المرات القليلة التي أعددت فيها الطعام لهم. «يا له من مذاق رائع! أحب الوجبات

الخفيفة». قال وهو يحتسي القهوة مرة أخيرة قبل أن ينهض عن الطاولة ويمسك

قائمة التسوق. «سأجلبها لك عندما أقدر»، قال ثمّ خرج.

«لا تراكتور اليوم؟». سألني روري وهو ينظر مباشرة في عيني، وعلى الفور لاحظت تعابير الحزينة فانفطر قلبي.

«ليس اليوم يا روري. ما رأيك لو ترتدي ملابسك ونخرج إلى الحديقة فتركب دراجتك الهوائية هناك؟».

سلك روري الدرب المؤدية إلى البستان على دراجته، وهناك جمعنا التفاح والدمسون بقدر ما استطعنا حمله. كانت الأشجار القديمة بحاجة ماسة إلى التقليم، لكن كان يتعين عليها انتظار أواخر الشتاء.

«هل سنأكل كل هذا»، سألني روري بلغة الإشارة في أثناء عودتنا بالفاكهة إلى المنزل، وكنت قد وضعتها في عربة جَرَّ وجدتها في مكان ما هناك.

«بالطبع لا، لكن مذاقها سيكون رائعًا عندما أحضر الفطائر والمربى منها».

«هل تصنعين المربى؟».

«أجل». أجبته وأنا أضحك من تعابير وجهه المتفاجئة. فكّرت أنه في هذا السنّ كان من الطبيعي أن يعتقد أن معظم ما يأكله يأتي من جَنِيّة السوبر ماركت غير المرئية.

بقيت طوال بعد الظهر أعدّ الفطائر بالفاكهة التي أحضرناها. وفي هذه الأثناء، شاهد روري فيلم سوبرمان بعد أن طلب إليّ أن أشغّل له القرص المدمج من جديد. وعندما عدت إلى المطبخ لأخمر الشاي وأتحقّق من نضوج المعجنات في الفرن، شعرت برغبة في إعادة ترتيب المخزن والخزائن في المطبخ، لكنني سرعان ما تراجع بعد أن ذكرت نفسي أنني لا أملك المكان.

في ما بعد، نظرت إلى الساعة ورأيت أنها قاربت السادسة، ما يعني أننا كنا نقرب من موعد عشاء روري. وبالنظر إلى عدم وصول الأغراض التي طلبتها من ماوس، ذهبت أبحث عما كان متوافرًا في المنزل.

كنت أخرج آخر فطيرة من الموقد عندما فتح الباب، وأطلّ ماوس من خلفه يحمل أكياسًا بلاستيكية مليئة بالأغراض.

«ها أنتِ هنا». قال وهو يرمي الأكياس على الطاولة. «ما هذا كله؟ هل تخططين لإقامة حفلة؟»، تابع كلامه وهو يشير إلى الفطائر.

«كلا. كل ما في الأمر أنني أستفيد من خيرات البستان».

ثم أخرج زجاجة جعة من أحد الأكياس وفتحها.

«هل أفتح واحدة لك؟».

«لا شكرًا».

«وهل روري بخير؟».

«نعم بخير»، أجبته وأنا أنظر داخل الأكياس بحثًا عن النقانق وأسحبها من الداخل لأفرغها في صينية خبز، ثم أضعها في الفرن. «سأحضّر أيضًا رقائق البطاطس»، قلت له وأنا أفتح كيس البطاطس وأحضر المِقسرة من الدرج. «أمل أن يحبها روري».

«بالنظر إلى أنّه ومارغريت يعيشان طوال الوقت على البيض وعلب الفاصوليا المطبوخة، فأنا واثق من أنّها ستعجبه. وستعجبني أنا أيضًا إذا بقي لي منها».

ابتسمت في سرّي وأنا أشعر بحماسة مفاجئة.

«بالطبع سأعدّ ما يكفي منها»، أجبته وأنا أشير إلى حجم كيس البطاطس الكبير. «سأذهب لأخبر روري أنّك عدت»، قلت وأنا أتجه نحو الباب.

«قبل أن تذهبي...».

استوقفتني نبرة صوته. فالتفت إليه وتفاعلت لرؤية تعابيرهِ الحزينة. «أريد أن أسألك مرّة أخرى عن تمثال فابرجيه. بصدق، هل أنت لا تحمليه في حقيبتك أم أنّك لا تريدين أن أراه. إن كنت لا تثقين بي فسأتفهّم الموضوع. ففي النهاية لم أظهر لك ما يكفي من الترحيب منذ البداية. ولا داعي للقلق يا ستار لأنّ الجميع يعتبرونني تافهًا. ولا أظنّ أنهم مخطئون، لأنني بالفعل تافه».

ها نحن نعود إلى الشفقة على الذات. إذا كان يتوقع منّي أن أعارض ما قاله عن نفسه فهو مخطئ.

«في أي حال»، تابع القول عندما لم تبدر مني أيّ ردة فعل. «ما رأيك لو نعقد صفقة؟ سأخبرك ببقية ما وجدته عن تاريخ عائلتنا في مقابل أن ترينني تمثال القط، لأنّه إذا كان فابرجيه بالفعل، فلديّ فكرة عمّن أعطاه لفلورا ماك نيكول».

«أنا...».

«ماوس»، نادى روري وهو يدخل المطبخ ويقاطعنا.

في أثناء تناولنا العشاء، بدا ماوس أكثر سرورًا من ذي قبل. لم أعرف إذا كان يبذل جهدًا لطمأنتي أو لأشعر معه بأمان زائف قبل أن يعاود إظهار حالته الكئيبة مرة أخرى، أو أنه مفعول رقائق البطاطس التي حضرتها لهما. لكنني كنت سعيدة من أجل روري خصوصًا عندما رأيت ماوس يبذل مجهودًا للتفاعل معه. اقترحت عليهما لعبة «الأصفار والصلبان»، وفهمت أن روري لم يسمع بها من قبل. وبعد أن شرحت له طريقة اللعب أعجبته الفكرة، ولعبا معًا وراح صراخه يعلو من شدة الحماسة والسعادة كلما فاز بدورة. لكنني كنت أعرف أن ماوس هو من كان يسمح له بالفوز، فوجدت ذلك تطورًا إيجابيًا منه.

«حان وقت النوم». قال ماوس فجأة.

نظرت إلى الساعة فرأيت أنها تجاوزت السابعة ببضع دقائق. ورأيت روري ينهض من مكانه مثل مجند جديد تلقى أمر التقدم من رئيس الوحدة العسكرية. «سأصعد معك إلى أعلى لأساعدك على الاستحمام». قلت له وأنا أرفع ذراعي لأمسك يده.

«ليلة هانئة يا ماوس».

«ليلة هانئة روري».

بعد أن ملأت حوض الاستحمام، راح روري يلهو بالماء، ثم استلقى داخل الحوض وأغمر عينيه عندما كنت أغسل شعره بالشامبو. بعد ذلك غطس في الماء. وعندما أخرج رأسه مجددًا، فتح عينيه، وقال:

«ستار؟».

«نعم؟».

أخرج يديه من الماء وحدثني بلغة الإشارة. «لا أعتقد أن ماوس يحبني كثيرًا». «أعتقد أنه يحبك، ولكنه لا يجيد التعبير عن حبه»، أشرت له بدوري.

«سنعلّمه. الأمر ليس صعبًا».

«نعم»، قلت له. مددت يديّ وأنا أمسك طرفي المنشفة ليخرج من الحوض من دون أن يتعرّض لأي انتهاك للخصوصيّة، ثمّ ساعدته على ارتداء ملابس النوم ورافقته بعد ذلك إلى غرفته.

«والآن هل تريد منّي أن أقرأ لك قصة أم أنّك تجدني سيئة في ذلك؟» مازحته وأنا أدغدغه بلطف.

«أنت أفضل بكثير من ماوس، لذلك نعم من فضلك».

استدار روري قبل أن أستدير أنا، ورأى ماوس يقف عند باب الغرفة فشعرت بالامتنان كونه لا يفهم لغة الإشارة.

«هل تريدني أن أضعك في فراشك يا روري؟».

«نعم من فضلك». أجاب مطيعًا.

«ليلة هائلة». قبّلت روري على جبهته وغادرت الغرفة.

«إنك تجيدين التعامل معه». قال ماوس عندما دخل المطبخ في ما بعد وأنا أغسل الأطباق. من بين كلّ وسائل الراحة الحديثة التي تمنّيها أوّلًا في هاي ويلد، كانت غسالة الصحون.

«شكرًا لك».

«أفترض أنّك عملت من قبل مع الصغار الصمّ؟».

«لا، أبدًا».

«إذا كيف ذلك...».

شرحت له باختصار كيف تعلمت لغة الإشارة. ثمّ أخرج زجاجة جعة من الثلاجة وفتحها.

«أجد لقاءك بروري والرابط الوثيق الذي نشأ بينكما مثيرًا للاهتمام. أنت من دون شكّ امرأة قليلة الكلام، ولكن يكاد لا يشعر بذلك مقارنة بشخص سمعه طبيعي. أنت لا تفعلين أي مجهود، أليس كذلك؟».

ولا حتى أنت. فكّرت في نفسي.

«أنت تعيشين مع أختك، صحيح؟»

هذا يعني أنه يتذكر.

«نعم».

«هل لديك حبيب؟ شخص ما في حياتك؟».

«كلا». كما أنه ليس من شأنك. وأنت؟»، أجبته وقد استفزني سؤاله.

«كلا. لا أحد سيتحمل طباعي، أنا أدرك ذلك، ولا يشكّل ذلك فرقاً عندي».

لم أتحمّس لرّده، لذلك بقيت صامتة، وأنا أعيد الأطباق ولوازم المائدة إلى مكانها.

بعد أن طال الصمت بيننا، كشف لي، مثلما كان سيفعل أيّ كان، معلومات عنه أكثر مما توقّعت. «في الواقع، كنت متزوّجاً».

«آه».

«يبدو أنها اعتقدت أنني طبيعي».

مرّة أخرى لم أقل شيئاً.

«وبعد ذلك....».

بقيت محافظة على صمتي.

«توقّيت».

كنت أشعر بأنّ اللحظة التي سأهزم فيها آتية لا محالة. وبما أنه كان من المستحيل ألا أقول شيئاً بعد إفصاح كهذا، قلت في النهاية:

«أنا آسفة». والتفتت لأنظر إليه، فوجدته يقف محرّجاً جنب الطاولة.

وهذا بالضبط ما كنت عليه أنا أيضاً.

«لكن هكذا هي الحياة... والموت، أليس كذلك؟».

«نعم، هي كذلك». أجبته وأنا أفكر في پا سالت.

ثمّ ساد صمت طفيف في المطبخ. بعد ذلك، نظر إلى ساعة الجدار، وقال:

«يجب أن أذهب. لديّ حسابات ثلاثة أشهر غير منجزة، وعليّ الانتهاء منها. شكرًا لك على طعام العشاء».

ترك ماوس زجاجة الجعة نصف فارغة على الطاولة، وغادر المطبخ من الباب الخلفي.



في تلك الليلة لم أستطع النوم. شعرت بهول من رحيله المفاجئ. كنت أعرف أنه رحل متأثرًا بالبرودة التي أظهرتها إزاء خبر موت زوجته. مهما بدا لي وقحًا منذ البداية، لكن ذلك الاعتراف صدر عن عاطفة كان يخفيها. وها أنا أعطيه إجابة مبتذلة خالية من أي عاطفة.

وبذلك سمحت لنفسي أن أهبط إلى مستواه.

في النهاية شعرت بأنني كنت منهكة من شدة الإرهاق. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت في السادسة والنصف مع شروق الشمس، ارتديت ثيابًا بطبقات كثيرة ونزلت إلى المطبخ.

كنت واثقة من أن الأمر الوحيد الذي سيهدئ أعصابي هو خبز كعكة، فأعددت واحدة.

بعد الفطور، طلبت إلى روري أن يرافقني إلى مزرعة ماوس، فتحمس للفكرة، وأومأ إيجابًا.

«أفكر في تقديم هذه الكعكة له».

«أجل». قال روري وهو يرفع إبهامه. «إن ماوس وحيد».

ركب روري دراجته، وحضنت القالب حيث كنت أضع الكعكة بين راحتي، ثم سلكننا الممر وعبرناه إلى الخارج. قادني روري على طول حافة ضيقة من العشب، فرحت أستنشق ذلك العطر المألوف الذي ذكرني جيدًا بخريف إنكلترا؛ كانت رائحة خميرة غنية لريف يودّع ذيول صيف آخر قبل أن يستعدّ لاستقبال ربيع جديد.

«هنا». أشار روري إلى لافتة قادتنا إلى طريق خاص كان مكسوفًا بالعشب.

انطلق روري على دراجته ولحقت به بثبات أكبر، إذ كنت ما أزال أمسك الكعكة في يديّ، وفي النهاية، ظهرت المزرعة أمامنا. كانت عبارة عن مبنى متين من الطوب الأحمر خالٍ من الزخارف على عكس المبنى الواقع في الجهة المقابلة من الطريق. إذا كانت هاي ويلد أرستقراطية، فإنّ منزل المزرعة عمليّ ومريح.

ظهر باب كبير في وسط المزرعة، كان قد طُلي بلون أحمر يبعث على البهجة. لكن الزمن جعله يبهت ويتقشّر. كان الجزء الأمامي من المنزل مغطّى بالخزّامي التي لم تعد في أفضل أحوالها، وكانت بحاجة ماسة إلى استبدالها. أمّا رائحتها فكانت ما تزال تعطرّ الهواء. سبقني روري إلى المنزل وراح يحوم حوله، فيما اتّجهت أنا مباشرة إلى الباب الخلفي.

«هل تطرق الباب؟»، أشرت إليه.

فقرع الباب وأبدى استمناحه باهتزازاته. لكننا لم نلقَ أي ردّ.

«اطرق مرة ثانية»، اقترحت عليه.

«الباب مفتوح دائماً. هل ندخل؟»

«تمام».

تبعث روري إلى الداخل على الرغم من شعوري بالذنب لاقتحامنا المكان، ووجدت نفسي في مطبخ كان نسخة مصغرة عن ذاك الذي خرجنا منه لتوّنا، مع فارق بسيط، وهو الفوضى الكبرى التي كانت تعمه، إذ كادت طاولة خشب الصنوبر أن تكون غير مرئية، تحت كمّ كبير من فناجين القهوة المتسخة والصحف وما يشبه دفاتر الحسابات التي تسرّبت من صفحاتها إيصالات وفواتير كثيرة. ثمّ هبّ نسيم تسبب في إغلاق الباب خلفنا وتطاير بعض من تلك الإيصالات على الأرض. فوضعت الكعكة جانباً وانحنيت لالتقاطها، وإذ بماوس يدخل المطبخ في الثانية نفسها من باب داخلي.

راح يحدّق عابساً إلى الإيصالات التي كنت أمسك بها.

«كانت على الأرض»، قلت له بصوت خافت، سأعيدها إلى مكانها على الطاولة.

«أحضرنّا لك هدية. روري، قدّم الكعكة إلى ماوس».

«ستار أعدّتها لك»، قال روري بلغة الإشارة.

«إنّها برذاذ الليمون». أضفت قائلة.

وحدّق ماوس في القالب كما لو أنّه قد يحتوي على قبلة.

«شكرًا لك».

«لا داعي للشكر».

بقينا واقفين في أماكننا وسط توتر شديد، وفجأة ارتجفت من شدة البرد في الغرفة. فالموقد لم يكن مشتعلاً، كما أن الدفء الذي يوحى به المنزل من الخارج، كان غير موجود في الداخل.

«هل كل شيء على ما يرام؟»، سأل ماوس.

«أجل».

«حسنًا، اعذريني عليّ أن أنهي بعض الأعمال».

«بالتأكيد». عدت أنا وروري أدراجنا إلى الباب، وعندما أوشكت على الإمساك بالمقبض، قررت التصرف كأنني أنا أكبر منه سنًا. «سنتناول فطيرة الراعي على العشاء إذا أحببت الانضمام إلينا». ثمّ فتحت الباب، وخرجنا نحتمي بحرارة الشمس في ذلك اليوم من تشرين الأول على الرغم من البرد القارس.

صرفنا أنا وروري عصر ذلك اليوم نلعب لعبة الأصفار والصلبان، إلى أن سئم منها، فعلمته قواعد لعبة البوارج. لكنه بدا لي أنّه لم يستوعب مفهوم اللعبة كثيرًا، لأنّه بدلًا من أن يضع الصلبان في مربعات محددة لسفينته، راح يرسم السفن نفسها. لكنه على الأقل أضاع بعض الوقت، وهو يصر على الرسم بإتقان كلّ صورة صغيرة، ويمحيها ويعيد رسمها عندما لا تلبّي توقعاته.

في ما بعد، شغلت القرص المدمج لفيلمه العزيز سوبرمان، ودخلت المطبخ لأضع الغلاية على النار، وأنا أتناوب؛ ليس من الأرق الذي عانيت في البارحة فقط، لكن من تجربتي الأولى في ترفيه طفل من دون توقّف.

وعدت بذاكرتي إلى أتلانتيس، وإلى ما كنّا نقوم به نحن الفتيات لنتسلّى خلال

العطلات. وتعجبت من نجاح (ما) في تعاملها مع ستّ بنات في الوقت الذي كانت كلّ واحدة فينا في مرحلة مختلفة من حياتها. وأدركت فجأة أنني غير قادرة على تذكر شعور الملل في تلك المرحلة، إذ كان لديّ سيسي وبقية شقيقاتي. أمّا روري فهو طفل وحيد، وليس لديه من يلعب معه. وإذا كانت هناك مساحة صغيرة فيّ اليوم تشعر باستياء لنموّها في عش أنثوي بحت، ولعدم حظوة الواحدة منّا بشخص واحد ينفرد بالاهتمام بها هي وحدها، فها أنا أشعر بأنني كنت محظوظة وما أزال. وبعد أن حضّرت فطيرة الراعي تركتها في الموقد لتنضج جيّدًا، ثمّ صعدت إلى الطبقة العلوية لترتيب سرير روري وسريري. هناك جلست على سريري بأصابع متصلّبة من البرد القارس وأخرجت من حقيبتي الصندوق الذي يحتوي على تمثال بانثر. بما أن كعكة رذاذ الليمون لم تصلح الأمور بيننا، وكنت ما أزال أشعر بالذنب لأنني سمحت البارحة للغضب أن يتغلّب على تعاطفي معه، وضعت التمثال في الجيب الخلفي لسروال الجينز الذي أرتديه، ونزلت إلى الطابق الأرضي، وأنا واثقة من أن ذلك التمثال هو الشيء الوحيد الذي سأكفّر به عن ذنبي بتقديمه إلى ماوس. دقّت الساعة السابعة، ثمّ الثامنة إلى أن تجاوزتها بدقائق. فساعدت روري على الاستحمام، ثمّ وضعته في السرير، وعدت إلى الطابق الأرضي لأرفع العشاء عن الطاولة. كنت على وشك إطفاء النور في المطبخ لكي أجلس أمام النار، وأبدأ بالقراءة عندما فتح باب المنزل الخلفي.

«آسف على تأخري. واجهت بعض المعوقات. هل بقي لي شيء من فطيرة الراعي؟».

«نعم». وذهبت إلى المخزن لإحضارها من هناك ووضعها في الفرن. «دقائق قليلة وتسخن». لم أكن واثقة من كيفية التصرف، لذلك رحت أحوم حول الطاولة في المطبخ.

«يمكنني التهام زجاجة جعة، هل تريدن كأس نبيذ؟».

«حسنًا».

أحضر ماوس الشراب وسكب لي كأسًا.

«نخبك». قال وهو ينقر زجاجة الجعة بكأسي بعد أن جلسنا إلى الطاولة.
«أود أن أشكرك على كعكة رذاذ الليمون. تناولت قطعة منها على الغداء،
طعمها لذيذ للغاية. جئت لأخبرك بأنني لن أكون هنا غدًا. سأذهب إلى لندن
لمناقشة مسألة بيع المتجر مع أورلاندو».

«سوف تفطر قلبه». قلت له مدعورة. «إنه حياته كلها».

«أتعتقدين أنني لا أعرف؟ لكن لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو. كما سبق
أن قلت لك وله أيضًا، يمكن للأعمال التجارية أن تستمر عبر الإنترنت. وبالمال الذي
نجنه من البيع يمكننا تسديد الديون المتراكمة. ويمكنني شراء معدات جديدة
للمزرعة للحفاظ على استمراريتها. أتفهم مشاعرك لكنني آسف للقول إن الحياة
قاسية يا ستار... وهذا قدرنا».

«أعرف ذلك»، قلت وأنا أعض على شفتي لكي أحبس الدموع التي بدأت
تطفح بها عيني، وتكاد تنساب.

«يؤسفني القول إنه على أحدا أن يتقبل الواقع. ولأكون صريحًا معك إذا لم
أفعل شيئًا اليوم، فإننا سنعرّض أنفسنا للخطر لأنّ المصرف سيعلن حينها إفلاس
الشركة ويصادر المتجر لكي يسدّد عنا الديون. وهذا يعني أنه سيبيع المتجر في
مقابل عُشر قيمته الفعلية، ولن نرى إلّا القليل من الأموال الباقية بعد البيع».
«أفهم قلقك، لكن عليك أن تنظر أيضًا إلى حجم الخسارة الحقيقية بما أنه
إرث».

«إرث؟»، قال وهو يشخر من السخرية. «هذه العائلة لم تنعم يومًا بالحظ
أو بالأحرى المنطق عندما يعود الموضوع إلى المال. بالكاد نجحنا في إنقاذ هاي
ويلد، ولا أقول ذلك لأنني مهتم، لكنني أعرف مدى تعلّق مارغريت بالملكّة».
«آه يا عزيزي!»، قلت بنبرة مستهجنة، ثمّ نهضت لإخراج فطيرة الراعي من
الموقد، وأنا غير واثقة مما كان عليّ قوله.

«في أي حال، هذه ليست مشكلتك، علمًا أنّك قد تضطرين إلى البحث عن
وظيفة أخرى في الأشهر القليلة المقبلة. لحسن الحظّ هناك تراجع في سوق

العقارات التجارية بسبب الوضع الاقتصادي العالمي. فكما يقول المثل 'المصائب لا تأتي فرادى'.

«لا تقلق علي، بل على أورلاندو لأنه أكثر من سيعاني».

«أنت معجبة به، أليس كذلك؟».

«نعم، جدًّا».

«هو أيضًا معجب بك. ليسوا كثرًا من يستطيعون التعامل مع غرابة أطواره. ربّما يُشخّص على أنه يعاني واحدة من المتلازمات السائدة، مثل الوسواس القهري أو ما شابه، هذا بصرف النظر عن تصميمه على عيش حياة رجعية تعود إلى قبل مئة سنة». قال وهو يهز برأسه. «عندما كنّا صغاريًا، كان أورلاندو يحظى دائمًا باهتمام أُمنا. فهو من كان حبيب قلبها. وقد بدأت تعطيه دروسًا منزلية ابتداءً من سنّ التاسعة بعد أن بدأ يعاني نوبات ربو شديدة. كان الاثنان يختفيان داخل متجر الكتب، ويغرقان في قراءة أعمال ديكنز القيّمة. لذلك لم يشعر قط بحاجته إلى عيش الواقع. لقد سمعته يقول دائمًا... الزمن الماضي كان أكثر تحضرًا ولطفًا.

فأجبته: «بصرف النظر عن الحروب المروعة التي لم تكن تنتهي والنقص في المضادات الحيوية أو الرعاية الصحية للفقراء».

فنظر إليّ بذهول، وفاجأني بضحكة سخية، وأردف قائلاً: «صحيح. ناهيك بسجن المدينين».

«أداء أورلاندو لن يكون جيدًا إذا وجد نفسه فجأة في أيّ من تلك الحالات.

لا وجود لسانسيري والقمصان النشوية في المنازل الفقيرة».

تبادلنا ابتسامة ساخرة وأنا أضع أمامه الطبق الساخن، وأفكر في مدى الاختلاف بين الأخوين، تمامًا مثلي أنا وسيسي.

«ليس أورلاندو وحده من يحب تأليق الماضي، هناك غيره كثر. وأنا منهم».

تمتم قائلاً بمشاعر متأججة وهو يرفع شوكته ليأكل.

«كم كان عمر زوجتك عندما ماتت؟»، سأله متنبهة.

شعرت بأنّ عليّ فتح ذلك الموضوع مجدّداً، وبذل قصارى جهدي للتكفير عن السلوك الذي بدر مني البارحة.

«كان عمرها تسعة وعشرين. كنا سعداء معاً».

«أختي فقدت خطيبها في حادثة إبحار قبل شهر، وقد حصل ذلك على الفور بعد وفاة والدنا. فكما قلت لتوك الحياة قاسية». كنت أجبر الكلمات على الخروج من فمي على الرغم من أنّني شعرت بأنّني، من باب التكفير، أسهبت في الكلام أكثر من العادة.

«آسف من أجل أختك. لا أتمنى لأي شخص أن يمرّ بتجربة فقد شريكه ووالده في تتابع سريع، مثلما حدث معي. بالحديث عن الماضي، هل لديك نظرية تفسّر الصلّة التي تجمعك بهذه العائلة؟».

«كلا».

«ماذا تقصدين؟ ألم تصرفي الأيام الثلاثة الماضية في هاي ويلد وأنت تبحثين في الأدراج عن دليل يثبت صلتك بنا؟».

«كلا، أنا...».

وشعرت بالحرارة ترتفع إلى خدي، وكأنّني كنت مذنبه. كان ماوس صعب القراءة، لذلك لم أفهم إذا ما قال ذلك لإغاظتي أو لتوبيخي.

«لو كنت مكانك لفعلت بالتأكيد. فلنكن واقعيين، لو ثبت وجود صلة، سيكون من حقك أن ترثي ما تعتقدينه في الأساس مبلغاً قيماً من المال. لكن بالنظر إلى وضعنا الحالي، سيكون علينا إدراجك في عريضة الإفلاس».

«لم أفتش المنزل كما أنّني لست فقيرة». قلت بتحدّ.

«حسنًا، أنت محظوظة. لعلمك يا ستار أردت فقط إغاظتك».

«آه!»، وكرهت أنّه نجح في قراءة أفكاري.

«من فضلك، أعرف أن حس الفكاهة الخاص بي مريبك لذلك أعذك بأنّه كان مزاحاً. حيلة نفسية لإبقاء الناس عند حدّهم. أليس كذلك؟ لكلّ واحد طريقته. انظري إلى حالك، يصعب على المرء قراءة... في بعض الأحيان أشعر بأنّني أعرف

ما تفكرين به، بمجرد قراءة التعابير التي تعكسها عيناك الزرقاوان... لكن في معظم الأحيان الأخرى، أشعر بالعجز».

أبعدت نظري عنه، وقد سمعته يكتّم ضحكته قبل أن يحتسي رشفة أخرى من الجعة. «في أي حال، كنت آمل أن تعثري أثناء وجودك هنا على دليل، لقد مرّت فترة طويلة جدًّا لم أره فيها».

«ماذا تقصد؟».

«أصبحت تعرفين أن فلورا ماك نيكول كانت كاتبة يوميّات نشيطة، وهذا في مختلف مراحل حياتها. كانت يوميّاتها، أربعون أو خمسون منها، وقد بقيت على الرفوف في غرفة الدراسة في منزل المزرعة سنوات طويلة. وكان والدي من وجدها في صندوق في العلية في أثناء تنظيفه المنزل بعد وفاة والديه. هكذا عرف بالشواذ... الذي أخبرني عنه وهو على فراش الموت».

«أيّ «شواذ؟».

«الأمر يتعلق بالميراث عندما كانت هاي وولد مقسّمة في الأربعينيات. ببساطة، شعر بأن شجرة عائلتنا، أي آل فوربس، كانت ضحية خداع في ما يتعلق بما هو حقّهم».

«فهمت».

«بطبيعة الحال، عندما بدأت البحث في تاريخ عائلتنا، أنزلتها عن العلية وبدأت أبحث من خلالها إلى أن وصلت إلى طريق مسدود، لأنّ يوميّاتها بعد العام 1910 كانت مفقودة. ستار، أنا واثق من أن هناك مجلدات إضافية. كانت تغطّي رفّين اثنين، وفجأة لم تعد تحتاج إلّا إلى رفّ واحد وليس بكامله». قال وهو يهزّ كتفيه. «المشكلة تكمن في أن تلك السنوات المفقودة قد تحتوي على دليل يؤكّد نظرية أبي. هذا لا يعني أنّني قادر على فعل أي شيء حيالها، لكنني أرغب في معرفة الحقيقة بطريقة أو بأخرى فحسب».

«أفهمك».

«هل وجدت تمثالك؟».

«نعم وجدته». قلت له بعدما قررت أن لا فائدة من الاستمرار في الكذب.

«عرفت أنك ستجدينه. هل يمكنني رؤيته؟».

أدخلت يدي في جيب الجينز وأخرجت الصندوق. «تفضل»، قلت له وأنا أناوله إياها عبر الطاولة.

فتح الصندوق الصغير بتأنٍ، ثم سحب نظارات المطالعة من جيب قميصه، وراح يتفحص التمثال بتمعنٍ.

«ممتاز! ممتاز!»، تتمم ماوس. ونزع نظاراته عن أنفه وقال: «هل يمكنني استعارته أسبوعًا تقريبًا؟».

«لماذا؟».

«أريد أن يصادق عليه».

«لست متأكدة...».

«ألا تثقين بي يا ستار؟».

«بلى، أقصد...».

«إما أن تثقي بي وإما لا. لذلك يا أستروپ أو ستار... يبدو أننا نلعب لعبة القط والفأر». وما إن قال ذلك حتى علت ضحكة بيننا نحن الاثنين أزال التوتر.

«حسنًا يمكنك أن تأخذه إذا أقسمت على إعادته. فهو يعني لي الكثير».

«أعدك بذلك. آه، اتصلت مارغريت لتقول إنها لن تعود قبل وقت متأخر مساء غد».

«حسنًا. إذًا سأبقى إلى صباح الخميس، وأذهب من هنا مباشرة إلى العمل».

«شكرًا لك. والآن» قال وهو يحتسي جرعة أخيرة من زجاجته «حان وقت الرحيل. بقي علي أن أجمع الحسابات لأعرض على أورلاندو غدًا كل ما يرفض رؤيته».

«عامله بلطف، اتفقنا؟». توسلت إليه وأنا أسلمه التمثال.

«أورلاندو أم هذا؟»، قال ممازحًا وهو يعيد التمثال إلى الصندوق ويضع

مكتبة
t.me/soramnqraa

الصندوق في جيب سترته البربور. «سأبذل قصارى جهدي».

«وقف ومشى إلى الباب الخلفي، ثمَّ قال وقد توقف للحظة: «يؤسفني القول إن الحقيقة تؤلم أحياناً. استمتعت بمحادثتك الليلة. شكرًا لك».

«حسنًا».

«نتحدث قريبًا. تصبحين على خير يا ستار».

«وأنت بخير».

22

في اليوم التالي، وقفت سيّدة عند الباب الخلفي تدّعي أنّها جاءت لاصطحاب روري إلى درس ركوب الخيل. فانهلت عليها بالأسئلة إذ لم أجد ادّعاءها طبيعيًا، لكن عناق روري لها وتقبيله لها بحرارة أكّدا لي أنّها لم تأتِ إلى هنا لاختطافه. بعد انتهائه من الدرس، عاد إليّ أحمر الخدين من شدة البرد ومن شدة سروره. وبعد أن جلسنا إلى الطاولة في المطبخ، طلبت إليه أن يرسم لي صورته. فطلب إليّ ألا أنظر إليه وهو يرسم. لذلك وقفت أحضّر كعكة براونيز. كنت سأضع بعضًا منها في الثلاجة، وأقدّم إليه ما تبقى ليتناولها عندما تبرّد.

رحت أنظر إلى شعره النحاسي، وهو يحني رأسه فوق الصورة صابًا كامل تركيزه عليها. فشعرت بحب أمومي تجاه هذا الصبي الصغير الذي نجح بطريقة ما في التسلل إلى أعماق قلبي. من يعرف ما يخبئه له المستقبل بعد ما أخبرني به ماوس. هل ستبقى هاي ويلد له إلى حين يكبر ويصبح قادرًا على ترأسها؟ الخبر السار يكمن في أنّه لم يكن مدرّكًا المشكلات التي تواجه الكبار، وأنّه يتمتّع بطبيعة متفائلة ومنفتحة تجذب الناس إليه.

كان يثق بالإنسانية...

«هذه لك يا ستار». وكزني روري ليعطيني بكل فخر الرسمة التي أنهارها.

أخذتها منه لأتفحصها فشعرت بغصة في حلقي. لقد رسمنا نحن الاثنين، كنّا في الحديقة، نمسك بيدي بعض، وكنت أنحني فوق الزهور لأتفحصها. وقد نجح في إصابة طريقي في الوقوف، وفي رسم شعري الذي ينسدل على وجنتي، كما أصاب شكل أصابعي الطويلة التي تمسك الصورة.

«روري، إنها رائعة. شكرًا لك».

«أحبك يا ستار. عودي قريبًا».

«سأحتفظ بها إلى الأبد». وبذلت قصارى جهدي لأستجمع قواي. «والآن ما رأيك في تناول البراونيز ومشاهدة سوبرمان؟».

رفع روري إبهامه من شعوره بالحماسة لتلك الفكرة، فدخلنا يدًا بيد إلى غرفة الجلوس.

بعد أن انتهينا من القصة الأخيرة ما قبل النوم، نهضت لأعدّ حقيبتني لكي أتمكن من الخروج في ساعة مبكرة في صباح اليوم التالي. أملت ألا يكون عند مارغريت مانع أن تقلّني إلى المحطة لأتمكن من الوصول إلى متجر الكتب في موعد بدء الدوام. حاولت ألا أفكر في المحادثة التي كنت شبه واثقة من أنها جرت بين الأخوين خلال النهار. عندما عدت إلى الطابق الأرضي، لمست الدرابزين لأرْسَخ تصميمه الجميل في ذاكرتي فيبقى حاضرًا في ذهني إلى موعد زيارتي التالية.

ثمّ رأيت إنارة سيارة تومض داخل الممر. كانت الساعة تشير إلى العاشرة. وبعد بضع ثوان، سمعت دوي الباب في أثناء انغلاقه، فذهبت لإلقاء التحية على سيّدة هاي ويلد الحالية.

«عزيزتي ستار»، قالت مارغريت وهي تطوّقني بذراعيها. «هل روري بخير؟ شكرًا جزيلاً لبقائك إلى جانبه. أخبرني ماوس أنك كنت رائعة معه. هل هناك طعام جاهز لأنني أتصوّر جوعًا». تمكّنت من قول كلّ هذا في جملة واحدة.

«نعم، روري بخير. لقد غفا بسرعة لكنّه متحمّس لرؤيتك. ونعم هناك طعام ما يزال ساخنًا في الموقد».

«ممتاز. يا إلهي أنا بحاجة إلى كأس نبيذ، وأنت؟»، قالت مارغريت وهي تدخل حجرة المؤن حيث كانت الثلاجة.

«لا شكرًا».

بعد أن ملأت كأسها بالنبيذ سارعت إلى احتساء جرعة كبيرة منه. «أشعر بأنّني قضيت اليوم بطوله على الطريق. فالقصر يقع في مكان ناءٍ كما أن الطائفة تأخّرت في الإقلاع».

وعلى الرغم من احتجاج مارغريت القوي، ظَلَّت جميلة في نظري. فالنور الذي كان يشع من عينيها والتوهج الذي عكسته بشرتها أخبراني أنها كانت سعيدة أينما وقع المكان الذي كانت فيه ومهما طالت رحلتها للعودة إلى هنا.

«كيف سارت الأمور في فرنسا؟».

«بطريقة مذهشة». أجابت مارغريت الحاملة. «آه والرسوم أيضًا كانت رائعة». ثمَّ أطلقت ضحكة لطيفة.

«روري موهوب أيضًا. لا بدَّ من أنه ورث موهبة الرسم منك».

«أشك في ذلك». أجابت مارغريت وهي ترفع حاجبيها. «فنه مختلف تمامًا عما أرسَم. كما أن موهبته آتية من شخص آخر». وبعد أن فكَّرت قليلًا أضافت قائلة: «هل تعرفين أن ماوس ذهب اليوم لرؤية أورلاندو في متجر الكتب؟». ثمَّ دسَّت يدها داخل حقيبتها الجلدية الضخمة وسحبت علبة سجائر من ماركة جيتان. «سيجارة؟».

«شكرًا». سحبت واحدة من العلبة وأشعلتها لي. كان قد مرَّ وقت طويل على آخر مرَّة دَخَّنت فيها سيجارة فرنسية. «أخبرني ماوس البارحة أنه ذاهب إلى لندن». «وبالطبع أورلاندو في حالة ذهول». قالت مارغريت وهي تسحب نفسًا طويلًا من سيجارتها وتنفض رمادها في وعاء صبار، كان موضوعًا على حافة نافذة المطبخ. «يبدو أنه رفض قطعًا النظر إلى الحسابات».

«إنني أطلع شوقًا إلى الغد». تمتمت في نفسي وأنا أسكب لها الدجاج بالنبيذ في الطبق.

«لأكون صادقة معك، أنا مسرورة لأنك ستكونين إلى جانبه. وكذلك ماوس. جاء في أثناء عودته من لندن إلى جاتويك ليقلّني من هناك. كان قلقًا قليلًا على الرغم من أننا لا نعتقد أن أورلاندو سيرتكب حماقة، ومع ذلك لا أحد يعرف. يا إلهي! صحيح أن المال هو أساس كلِّ الشرور، أليس كذلك؟».

«أجل»، قلت لها وأنا أضع الطبق أمامها. ثمَّ غَلَّيت البابونج لنفسي وجلست إلى الطاولة.

«ستار أنت حقًا ماهرة. فهذا لذيذ للغاية. كم يسرّني أن أصل إلى منزلي وأجد وجبة شهية توضع أمامي. قالت وهي تتناول شريحة من الدجاج بشوكتها وترمقني بنظرة سعيدة عبر الطاولة. «عندما يُباع متجر الكتب قريبًا ستصبحين عاطلة من العمل. هَلَا تأتيين حينئذٍ إلى هنا لمساعدتي في المنزل ومع روري؟».

كنت أعرف أن في كلامها ملاطفة. وعلى الرغم من ذلك أجبته وأنا أهزّ بكتفي. «ربّما».

«أنت بالتأكيد مؤهّلة كثيرًا نسبة إلى ما أعرضه عليك، لذلك أرجو ألاّ تشعرني بالإهانة من العرض. كلّ ما في الأمر أنني أجد صعوبة في العثور على شخص أثق به ليعتني بروري، خصوصًا بعدما مدح ماوس التوافق بينكما. من جهة أخرى، عرضت عليّ هيلين التي تملك القصر في فرنسا، غرفة أخرى لأصمّم رسومها، وأرغب بشدّة في قبول ذلك العرض. المكان رائع هناك، وقد عشقته».

بقيت صامتة لأنّ مارغريت كانت تجهل أن ذاك الذي تعرضه عليّ هو حلم بالنسبة إليّ. العيش هنا في هاي ويلد للاعتناء بروري والمنزل والحدائق وللطهو كلّ يوم لتلك الأسرة الاستثنائية الرائعة. كنت أعرف أنّه كان عليّ اغتنام الفرصة قبل أن يطير عقل مارغريت ويحط في مكان آخر أو عند شخص آخر.

«ثقي بأنّه سيكون من دواعي سروري أن أقدم إليك المساعدة في أي وقت. فأنا أحب هذا المكان وأحبّ روري».

«أحقًا؟»، قالت مارغريت وهي تعقد حاجبيها. «يا إلهي هل تعنين ما تقولينه؟ لن أستطيع أن أدفع لك كثيرًا، أنا واثقة من أنّك أدركت ذلك بنفسك، لكنّك ستحصلين على سرير وطعام... عليّ أن أسأل أورلاندو، ربّما يمكننا أن نتشاركك؟ وإذا وافق، يمكنني حينئذٍ أن أقبل عرض هيلين، فهي حريصة أن أبدأ في أقرب وقت ممكن...».

انخفض صوتها بعد ذلك، واستطعت أنا أرى الإثارة في عينيها لمجرّد وجود ذاك الاحتمال.

«بالطبع لا أريد خذلان أورلاندو، كما أنّني لا أريده أن يشعر بأنّني تخليت عنه خصوصًا الآن. لكنّه في الحقيقة ليس بحاجة إليّ هناك طوال الوقت».

«أنا واثقة من أن أورلاندو سيريد الأفضل لروري. إلى جانب ذلك، ذكر لي أنك قد تكون لك صلة قرابة بنا». قالت مارغريت وقد لمعت عيناها.

«إلى الآن لا أستطيع أن أرى كيف. في كل الأحوال سنرى ذلك»، قلت لها مصادقة.

«حسنًا، لا شك في أنك نجحت في الوصول إلى قلوبنا جميعًا منذ مجيئك إلى هنا يا ستار. ولا يسعني الانتظار لأكتشف ما يثبت أنك واحدة منا، لا بد من أن ماوس أخبرك بالفوضى التي تعم شجرة عائلتي فوغان/ فوربس وما تزال لغاية اليوم». ثم، توقفت فجأة عن الكلام وفتحت شفتيها على وسعهما لتتأب ثم أغلقتهما. لم أجد فيها شيء حساس سوى جاذبيتها التي تكمن في ملامحها الكبيرة والقوة التي تتضمنها.

«حان وقت النوم». قالت وهي تنهض.

«سأغلق الأقفال».

«أحقًا؟ ممتاز».

«هل يناسبك أن تقلّيني إلى المحطة في الصباح؟ عليّ أن أستقل قطار الساعة الثامنة المتّجه إلى لندن».

«أخبرني ماوس أنه سيقلك إلى المحطة. أعتقد أنه يريد أن يخبرك بما حدث مع أورلاندو. تصبحين على خير يا ستار. وشكرًا لك مرة أخرى».



في صباح اليوم التالي، استيقظت باكراً لأتمكن من إعداد الفطور لمارغريت وروري قبل المغادرة. ثم كتبت لها ملاحظة أخبرتها فيها أنني تركت لهما النقانق ولحم الخنزير المقدد والبانكيك في الفرن، وأرشدتها إلى الفطائر الأربع الموضوعة في الجزء السفلي من الثلاجة.

عندما نقر ماوس على الباب الخلفي، التقطت حقيبتني وتبعته إلى السيارة.

«هل رأيت مارغريت البارحة عندما دخلت المنزل؟»، سألني ونحن ننطلق في السيارة.
«أجل».

«إذاً لا بدّ من أنّها أخبرتك أنّ أورلاندو لم يتقبّل الأخبار برحابة صدر».
«نعم أخبرتني ذلك».

«اسمعي يا ستار. إذا كانت لديك طريقة تجعله يرى الواقع فسأكون ممتناً لك. حاولت أن أشرح له أن المصرف، إن لم نبع متجر الكتب بأنفسنا، سيتدخل في كلّ الأحوال. لكنه حرفياً وضع يديه على أذنيه، وهرع إلى الطبقة العلوية ليحبس نفسه داخل غرفة نومه».

«مثل طفل يعاني نوبة غضب».

«بالضبط. قد يبدو أورلاندو لطيفاً من الخارج، لكنّه أكثر شخص عنيد على وجه الأرض عندما يتعلق الأمر باتخاذ القرارات الصعبة. خلاصة القول ليس لدينا خيار آخر، وعليه أن يعي ذلك».

«سأبذل قصارى جهدي، لكنني أشك في أنّه سيستمع إليّ».

«حاولي على الأقل. أعرف أنّه يحبّك ويثق بك، لذلك أتمنّى أن تجرّبي حظّك معه».

«سأحاول». قلت له فيما كنّا نقترّب من المحطة.

«هل يمكنك الاتصال بي لتخبريني عن حاله؟ فهو لم يردّ ليلة البارحة لا على هاتفه المحمول ولا على الهاتف الثابت».

«سأفعل». وعدته عندما ترجّلت من سيارته اللاند روفر. «شكراً على اصطحابي».

«هذا أقل ما يمكنني فعله. عندما تعودين إلى هاي ويلد، سنتحدّث عن الجزء التالي من يوميات فلورا». صاح عبر النافذة. «استعدّي للانبهار. وداعاً يا ستار. اعتني بنفسك».

وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه، توسّعت تدريجاً إلى أن بلغت عينيه، فاستنار وجهه الوسيم.

لَوَحَتْ له بيدي قليلاً قبل أن أدخل المحطة.

عندما وصلت إلى شارع كنسينغتون، شعرت وأنا أفتح باب متجر الكتب بخوف يتملّكني. ليس لأنني كنت أجهل الوضع في الداخل فحسب، لكن بسبب الرسائل النصية والصوتية التي تلقّيتها من سيسي بعد أن عاد الإرسال إلى هاتفي المحمول، وأنا على متن القطار. كنت منشغلة تماماً بهاي وولد وسكانها ونسيت تماماً الاتصال بها لأخبرها عن تمديد إقامتي فيها ليلة إضافية. فجاءت رسالتها الأخيرة على النحو التالي:

ستار، إذا لم أتمكن من الوصول إليك بحلول الصباح، سأتصل بالشرطة لتسجلك بين المفقودين. أين أنت؟!

شعرت بالفزع فتركت لها عدداً موازياً من الرسائل النصية والصوتية، قدّمت فيها اعتذاري، وأخبرتها بأنني بخير وأنني سأراها في الشقة لاحقاً في ذلك المساء. وعندما رأيت أن لا شيء قد تغيّر داخل المتجر، شعرت بالارتياح، وإن لم ألتق أورلاندو لأنه عادة لا يكون حاضراً عندما أصل إلى المتجر. انشغلت بإنهاء أعمالي الروتينية، وعندما لم يظهر في الحادية عشرة، بدأت أشعر بالقلق عليه. نظرت إلى الباب الخلفي المؤدّي إلى السلالم التي تقود إلى الطبقة العلوية، الذي لم يسبق لي أن دخلته وافترضت أن يكون المكان الذي يعيش فيه أورلاندو. فكّرت أولاً في أنه قد يكون هناك ويشارك في أحد المزادات... وبما أنه لم يظهر عند الباب مع حلول الساعة الثالثة، أصابني الفزع، لأنني كنت أعرف أن أورلاندو يحترم الروتين بشكل دقيق.

قضيت نصف الساعة التالية وأنا أتجوّل صعوداً ونزولاً، حائرة بين النظر إلى الشارع عبر النافذة واستراق السمع عبر الباب الموجود في الجزء الخلفي للمتجر. بحلول الظهيرة فقدت السيطرة على نفسي. أردت التأكد من أنه موجود في الطبقة العلوية فحسب. فلم أجد خياراً سوى الصعود إلى فوق. وحين أمسكت

المقبض لأفتح الباب، علا صريره وفضح تحركاتي. ومع ذلك تسللت إلى أعلى الدرج المرهق حتى بلغت سفرة درج صغيرة وجدت فيها ثلاثة أبواب. وطرقت بتردد الباب الأول إلى يميني.

«أورلاندو؟ هذه أنا ستار. هل أنت هنا؟»

عندما لم ألقَ أي ردٍّ، أمسكت المقبض ودفعت الباب، فوجدت نفسي في مطبخ صغير فيه حوض قديم، وفرن بايبي بيلينغ، وثلاجة قديمة يعود تصميمها إلى ما قبل خمسين سنة، وعلى الرغم من ذلك كانت ما تزال على الموضة، لكنّها على الأرجح النسخة الأصلية. عدت إلى البسطة، وقمت بالمثل عند الباب المجاور. فوجدت نفسي في حمام قديم بأرضية مشمّعة بشعة، ذكرتني بالشقة التي عشنا فيها أنا ويسي قبل الانتقال حديثاً إلى الشقة الجديدة. كيف يمكن لأورلاندو أن يكون دائم التأتّق في حين أنّه يستخدم مثل تلك المرافق؟ لغز عجيب.

ثمّ التفتت إلى الباب الأخير وطرقتة. «أورلاندو». ناديته هذه المرّة بصوت أعلى. «هذه أنا ستار، من فضلك، أخبرني بأنك في الداخل. أشعر بالقلق عليك. كلنا قلقون عليك». أضفت بنبرة حزينة.

حتى تلك اللحظة، لم ألقَ ردّاً. فأمسكت المقبض لأفتح الباب. لكن هذه المرة شعرت بمقاومة. من الواضح أن الباب كان مقفلاً من الداخل. فجأةً أحسست بصوت ارتطام خلف الباب، كأنّ كتاباً ثقيلاً سقط على الأرض. فأصابني الخوف مثلما تصيب الصاعقة. ماذا لو لم يأخذ دواءه؟

عندئذٍ رحت أطرق الباب بإلحاح كبير. «من فضلك يا أورلاندو، أعرف أنّك هنا. هل أنت بخير؟»

«ابتعدي». علا صوت مكتوم من الداخل.

فشعرت بالارتياح. إن كان بحالة تسمح له أن يكون فظاً لتلك الدرجة، فلا يفترض بي أن أقلق عليه.

«حسنًا سأرحل». قلت له من خلف الباب. «لكنني سأبقى في المتجر إن رغبت في التحدّث».

نزلت إلى الطبقة الأرضية وأشعلت النار، ثم خرجت إلى الشارع لأبعث برسالة نصية إلى ماوس أخبره فيها بما حدث وأطمئنه على أورلاندو. فهو على الأقل على قيد الحياة، وإن كان ما يزال يرفض الخروج من غرفته. عند الواحدة بعد الظهر، توقعت أن يظهر أمامي لكي يملأ معدته الشرهة باستمرار، لكنني لم أسمع وقع أي خطوة على الدرج. لذلك أمسكت حقيبتتي ومفاتيحي وغادرت المتجر، وأنا أغلق الباب خلفي. ومشيت باتجاه السوق على طول الطريق. إذا وُجد أمر واحد سيجبره على الخروج من غرفته فهو رائحة الطعام.

بعد عشرين دقيقة، عدت بالمكونات من السوق وصعدت مباشرة إلى المطبخ الصغير. فوجدت نقصًا في الأواني ما تسبب لي بمشكلة صغيرة، لكنني تدبرت أمري باستخدام قدر صغير، وضعت فيه الكراث والثوم لتحضير الصلصة، وأضفت إليها الكريما والأعشاب وقليلًا من البراندي. وجدت أيضًا مقلاة مشوهة لشريحتي اللحم التي اشتريتهما، وأضفت إليهما الفطر ونصف حبة طماطم. وعندما أصبح الطعام جاهزًا، خرجت إلى سفرة الدرج، ولاحظت أن رائحة عصائر الثوم واللحم المغربية عبقّت في المكان فشعرت بالسرور.

ثم طرقت باب غرفة أورلاندو، وقلت له بلهجة مرحة: «الغداء جاهز، سأسكه في طبقين وأنزل بهما إلى تحت. هل يمكنك إحضار النبيذ من الثلاجة، لا بدّ من أنه أصبح باردًا». سكبت شرائح اللحم ومرفقاتها في طبقين على نحو شهّي، وبقيت واقفة هناك في أعلى السلالم.

«لا تتأخر من فضلك. أسوأ ما في الفيليه مينيون تناوله فاترًا». ونزلت السلالم على مهل متقصّدة إثارة شهيتّه. بعد مرور حوالى ثلاث دقائق، سمعت وقع خطواته على الدرج، وفي النهاية ظهر عند الباب الخلفي بوجه حزين ومظهر أشعث. كان يمسك زجاجة السانسيرى وكأسين. كان شعره أشعث، وبدا أنه لم يحلق ذقنه لأيام. كان يرتدي ثوب البيسلي الذي رأيته فيه في هاي ويلد، ويتنعل الشبشب المطرّز باللون الأزرق الفيروزي.

«هل باب المتجر مغلق؟» سألني وهو ينظر إليه بقلق.

«طبعًا، فهذا وقت الغداء».

عندما اقترب منّي، رأيت بأَم عيني، أول مرة في حياتي، صورة مبتدلة لشخص كبر في السنّ سنوات عدة بين عشية وضحاها.

«أمل أن تحب شريحة اللحم، تركتها غير ناضجة تمامًا قدر الإمكان وحضّرت الصلصة بالأعشاب». قلت له لأشجعه على تناولها كأنني ممرضة تتحدّث إلى طفل. «شكرًا لك يا ستار». تمتم وهو يضع زجاجة السانسيروي والكأسين أمامنا. ثمّ جلس على الكرسي على الرغم من الألم الذي كان يصيب عظامه. بعد ذلك، أطلق تنهيدة عميقة واستجمع كلّ الطاقة التي يحتاج إليها ليصل إلى الزجاجة ويسكب كمية سخية من النبيذ ليملأ الكأس.

«نخبك». قال لي وهو يرفع كأسه. «على الأقل تأكدت أن لي صديقًا وحليفًا». رحت أراقبه وهو يحتسي الشراب بجرعات كبيرة ويعيد ملأه كلّما فرغ، فتساءلت عمّا يمكن أن تكون نسخة أورلاندو وهو في حالة سكر. «تناول الطعام». ألححت عليه.

كانت تلك المرّة الوحيدة في تاريخ علاقتنا القصيرة، التي أسبقه فيها بوضع السكين والشوكة في طبقي الفارغ. كان يأكل مثل مريض، يقطع شرائح الفيليه إلى قضمات صغيرة ويمضغ كلّ قضمة إلى ما لا نهاية.

«الطعام رائع كالعادة يا ستار. لكن أنا من لست....»، وتلاشى صوته في أثناء مضغه قضمة صغيرة أخرى. وبعد أن ابتلعها، تناول جرعة أخرى كبيرة من النبيذ، وبان على شفثيه ظل ابتسامة فيما أعاد لوازم المائدة إلى الطبق.

«اليوم، حتى الطعام يغلبني. لقد سمعت من أخي على ما أعتقد».

«أجل».

«كيف يمكنه فعل ذلك؟ أعني... تلك القساوة!»، قال وهو يمدّ ذراعه ويمسح بظاهر كفّه فضاء متجر الكتب: «هذا عالمي. عالمي الوحيد».

«أعرف ذلك».

«يقول إننا سنفلس أو على نحو أدق، إن المصرف سيضع يده على كل ما لدينا إذا لم نبع المتجر. هل تصدقون ذلك؟».

«أنا آسفة، لكن نعم».

«لكن كيف؟ هذا... لا يمكن لذلك... المصرف أن يتجرأ على سرقة ما هو لنا؟ من المؤكد أن أخي يبالغ؟».

كانت تعابير وجهه مفعجة لدرجة اضطرت فيها إلى ابتلاع ريقى بصعوبة قبل أن أتمكن من الرد عليه. «كلا. يبدو أن هناك ديونًا كثيرة».

«نعم، لكن لا يمكن احتسابها مقارنة بالسعر الذي سيجنيه البناء إذا باعوه. عليهم أن يدركوا أن لديهم ضمان».

«أعتقد أن المشكلة في المصارف، فهي ليست في أفضل أحوالها هذه الأيام. أصحابها متوترون»، قلت له وأنا أدرك أنه كان عليّ اختيار كلمات مناسبة. «الوضع الاقتصادي في العالم ليس في أفضل حال».

«هل تخبريني بأنّ بيع متجر آرثر مورستون، ناهيك بأنّه روعي، سيحلّ أزمته؟ يا إلهي يا ستار، كنت أتوقع منك أكثر من هذا. اعتقدت أنّك إلى جاني».

«أنا كذلك يا أورلاندو، حقًا. لكن الحياة لا تعطينا دائمًا ما نرغب فيه. الأمر فظيع لكنّه صحيح. الحياة ليست عادلة. فهمت من ماوس أن المزرعة تعاني أيضًا».

«ماذا؟!». وتحوّلت بشرة أورلاندو الشاحبة من اللون الوردي إلى لون أحمر أرجواني. «هل هذا ما قاله لك؟».

«أجل. هو بحاجة إلى شراء آلات جديدة لمنحها فرصة كسب لقمة العيش».

حينئذ توقّعت أن ينفجر أورلاندو من الغضب. لكن ملامحه اللطيفة امتصّت تعابير الغضب والسخرية، وصعب عليّ توقّع كيف سيسيطر جسده على ذلك الكمّ من التأثير والانفعال.

«ها! ها ها ها! ربّما أخبرك أيضًا لماذا تمرّ المزرعة بأوقات عصيبة؟».

«كلا».

«هذا يعني أنه لم يذكر حقيقة أنه حبس نفسه في غرفته في السنوات الثلاث التي تلت وفاة آني، وأنه نادرًا ما كان يخرج منها. هو من أهمل المساحة بأكملها وتركها للفوضى والخراب، لأنه لم يكن قادرًا على النهوض من سريره وجرّ نفسه إلى الطابق الأرضي ليحدّث مدير المزرعة الذي انتظره أيامًا وأسابيع مع فواتير غير مدفوعة إلى أن رفض جميع الموردين إعطاءنا أساسيات المزرعة، فلم يجد المدير خيارًا سوى الاستقالة. حيواناتنا نفقت تحت أنظار أخي يا آنسة ستار، بسبب سوء التغذية. هذا من دون ذكر المحاصيل التي أهملت سنوات إلى أن أصابها القرح ففقدت إرادتها في العيش... دعيني أخبرك الآن، وضعنا الحالي هذا يكاد يكون من صنع أخي. وليس من صنعي أنا».

«بلا شك». قلت له وأنا أغامر بصمتي ولو مرة بينما كان أورلاندو يملأ كأسه بالنبيذ. «وهل حاولت فهمه؟».

«بالطبع حاولت. لقد فقد حب حياته. ولا يمكنني إلا أن أتعاطف مع من يمرّ بمثل هذه المحن. لكن» تابع قائلاً بعد أن اكفهر وجهه مرة أخرى «هناك أشياء لا تعرفينها ولا يسعني إخبارك بها لأنه ليس من حقّي، لكنها لا تغتفر أو على الأقل في قاموسي. تأتي لحظة في حياة كلّ إنسان، تفرض عليه نسيان مأساته لكي يدفع بنفسه إلى أقصى الحدود من أجل أولئك الذين يحتاجون إليه. لكن أخي غرق في الشفقة على نفسه منذ سنوات وهذه هي الحقيقة البحت. كلنا بذلنا جهدًا في إظهار الحب له والدعم، لكن حتى أكثر القلوب ليونة وتفهمًا تقسو بمرور الوقت عندما ترى المرء عازمًا على تدمير نفسه».

حينئذ وقف أورلاندو ووضع يديه في جيبه رداءه، وراح يتمشّي.

«أؤكد لك يا آنسة ستار أن عائلته دعمته بكل الطرق المتاحة. ولا شكّ لديّ في أنك تعرفين أن الناس هم من يختارون إما أن يكونوا ضحايا وإما أبطالاً. وهو اختار أن يكون الضحية. والآن بسبب خياره ذلك، أنا... وهذه... أشار مرة أخرى إلى قاعة المتجر فيما كانت ذرات الغبار تطفو مثل ملائكة صغيرة من حولنا تحت نور الشمس الخافت في ذلك اليوم من شهر تشرين الأول - أصبحنا أضحيته».

قال هذا، ثمّ انهار على الأرض وبكى.

«يا إلهي، ما هذه الفوضى...»، سمعته يحدث نفسه بصوت عالٍ. «جميعنا في حالة فوضى. كل واحد على حدة».

جثوث على ركبتي إلى جانبه، وبعد تردد قليل لففت ذراعيّ حول كتفيه. في البداية، قاومني، ثمّ استسلم لعناقي، فرحت أهزه كما كنت سأهزّ طفلاً صغيراً.

«أنت لا تفهمين ماذا يعني لي متجر الكتب هذا. لا تفهمين البتة...».

«أورلاندو، أنا أفهمك تمامًا. ولو كنت قادرة على فعل شيء من أجلك لسمحت لك بالبقاء هنا إلى الأبد. صدّقني».

«أنت فتاة طيبة يا ستار. تقفين إلى جانبي، أليس كذلك؟»، نظر إليّ بعينيهِ المتألّمتين.

«بالطبع أنا كذلك. عندما تصبح أكثر هدوءاً، ربّما أخبرك ببعض الأفكار التي تدور في خلدي».

«أحقاً؟ سأفعل أي شيء، أي شيء...».

بالطبع كانت لديّ أفكار، لكنّها تميل إلى العقلانية وتأخذ الظروف الراهنة في الاعتبار، لذلك شككت في أنّها كانت ستسرّ أورلاندو.

«حسنًا، كلّي أذان صاغية». قال وهو يبتعد عني ويسارع إلى النهوض كما لو أنّني أوشك على إعطائه الفروة الذهبية. «ما رأيك بأن أذهب إلى الطبقة العلوية لأستحم؟ أشعر بأنني شبه عار ولا أقبل بذلك على نفسي». اعترف وهو ينظر إلى ملبسه. ثمّ اقترب من الأطباق، لكنني هزرت برأسي.

«اليوم ليس يومًا عاديًا، أنا من سيرفعها».

«فليكن». ومشى نحو الباب الخلفي، ثمّ استدار إليّ بعد التفكير. «شكرًا لك على كلّ شيء يا آنسة ستار. كنت أعرف أنّك الوحيدة التي يمكنني الاعتماد عليها. عندما أعود من فوق سأخبرك بسر».

وبقي واقفًا في مكانه يضحك، تمامًا كما كان روري سيفعل.

«ماذا؟»، لم أقدر إلا أن أسأل.

«أعرف مكانها». ابتسم أورلاندو ثم استدار نحو الباب واختفى خلفه.

انتظرت أن يصل إلى أعلى السلالم ونهضت لإزالة بقايا الغداء، ثم تبعته إلى فوق. شعرت بأنني كنت أتخطى حاجزًا آخر بما أنه سمح لي بالدخول إلى معقله الخاص. وفيما كنت أغسل الأطباق في الحوض الصغير، فكرت في كلماته الأخيرة. كنت شبه واثقة مما قصده، إذ لا يمكنه أن يقصد إلا يوميات فلورا ماك نيكول. فشعرت بأنني أتمزق إلى نصفين بين أخوين خصمين.

عدت إلى الطبقة الأرضية وغيّرت العلامة من «مغلق» إلى «مفتوح»، إذ كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهرًا. ثم وقفت في وسط القاعة ورحت أنظر إلى الرفوف. كنت أعرف أنني لمحت في السابق مجموعة مؤلفات مغلفة بالحرير البني فيما كنت أخرج عن الرفوف مجموعة أخرى موضوعة إلى جانبها. وبما أنني أعرف طريقة تفكير أورلاندو المرحّة، فهذا يعني أنه لن يجد أفضل من هذا المكان الذي يحتوي على آلاف الكتب المماثلة لتمويه فعلته؟

مسحت الرفوف بعيني، ثم أغلقتهمَا لأستعيد في ذهني موقع المجموعة الأخرى التي سحبتها عن الرف في المرّة الماضية إلى مكانها...

كانت هناك، الأمر واضح مثل ملف افتراضي أسحبه من مخزن ذاكرتي.

«أورلاندو». تمتعت في نفسي وأنا أسير إلى قسم اللغة الإنكليزية وأنظر إلى الرفوف الثلاثة السفلى. كانت هناك، حيث وضعت بطاقة الرواية البريطانية، 1900-1950 على الرف.

انحنيت إلى الأرض وأخرجت مجلدًا صغيرًا وعندما فتحته على الصفحة الأولى قرأت.

يوميات فلورا ماك نيكول

1910

عندئذٍ سمعت وقع أقدام ثقيلة على الدرج، فأغلقت المجلد وأعدته على

الفور إلى الرف. كان أورلاندو يتقدّم بسرعة غير اعتيادية فاقتربت من النار لأشعلها قبل أن يدخل الغرفة.

«هل تشعر بتحسّن؟». سألته وأنا أضيف مزيدًا من الفحم.

ساد صمت مؤقت في الغرفة استمر فترة طويلة ما اضطرني إلى الالتفاف إليه لاكتشاف السبب. ومرة أخرى رأيت أن وجهه قد أصبح أرجوانيًا، كما أنّه كان يغلق ذراعيه وهو يتقدّم نحوي.

«أتوسل إليك ألا تتفضلي عليّ أكثر من ذلك. بما أنّك نجحت في تهدئتي. تلقيت الآن مكالمة من أخي ليقول لي إنّك وافقت على وظيفة مدبرة منزل في هاي ويلد.

«أنا...».

«لا تكذبي عليّ يا ستار! هل وافقت أم لا على ذلك العرض؟».

«كانت مارغريت يائسة لأنّ مهمّتها لم تنتهِ بعد، لذلك قلت أنّي سأقبل...».

«هل تتركينني وتديرين ظهرك لي لتعملي مع العدو؟!».

«قلت فقط إنّني سأذهب إلى هناك بين الحين والآخر لأساعد مارغريت في رعاية روري. هذا كلّ ما في الأمر. وهي قالت إنّها ستتأكّد من ألاّ تمانع في استعادتها لي بين الحين والآخر عندما لا تكون الأعمال ضاغطة في المتجر. ولا علاقة لذلك بماوس».

«يا إلهي يا امرأة! كلّ هذا يتعلق بأخي. فهو يقوم بكل أعمالها القذرة، بما في ذلك الاتّصال بي فقط بحجة التأكّد من أنّني بخير. ثمّ يعلمني بأنّهم سيحتاجون إليك في هاي ويلد في عطلة نهاية الأسبوع».

«أورلاندو، ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه».

«لا، أنا واثق من أنّك لا تعرفين. وأنا الذي فكرت في أنّك إلى جانبي...».

«أنا إلى جانبك يا أورلاندو... حقًا».

«لا لست كذلك. ألاّ ترين أن ما يحدث هنا مناسب له هو فحسب!».

توقّف مؤقتًا عن الكلام وأخذ نفسًا عميقًا، كان على ما يبدو بأمس الحاجة إليه.
«أنا آسفة». قلت بلا حول ولا قوة.

«وأنا أكثر من ذلك»، قال وهو يحدّق إلى وجهي وقد اختفت تعابير الغضب من عينيه فلم أتمكن من قراءته بعد ذلك.
«حسنًا، اذهبي إذًا».
«أذهب إلى أين؟».

«إلى المنزل أو لا أدري في أي قفص تعيشين، واحزمي أمتعتك لتذهبي إلى هاي ويلد فمارغريت وماوس بحاجة إليك».
«من فضلك، أنا موظفة عندك، وولائي لك. وأنا أحب هذا المكان...».
«آسف، إذا كنت تتوقعين مني أن أقاتل من أجلك بعد هذه الخيانة، فلن أفعل».

وهز بكتفيه على نحو درامي، ثم أغلق ذراعيه بقوة أكبر فوق صدره وابتعد عني مثل طفل عابس.
«لن أذهب إلى هاي ويلد، أريد البقاء هنا».
«وأنا أطرّدك».
«هذا ليس عدلاً!».
«قلتها بنفسك قبل قليل يا ستار، الحياة ليست عادلة».
«نعم، ولكن...».

«ستار، كان من الواضح جدًّا منذ أن ارتكبت خطأ اصطحابك إلى عش الدبابير ذاك، أنّك وقعت في حب هاي ويلد من النظرة الأولى. وأكثر من ذلك، أنّك وقعت في حب أفراد عائلتي الثرثارين. فمن أكون لأبعدك عنهم؟ لكن اعتبري ما يحصل الآن بمثابة إنذار لك يا فتاتي العزيزة، لأنّك وقعت في الفخ. اذهبي إليهم وانتظري الساعة التي ستلدغين فيها».

لو لم تكن كلماته مؤلمة لضحكت من قلبي على أدائه الميلودرامي الإدواردي.
لكنني شعرت بالدموع تطفو إلى جفني.

"حسنًا"، قلت له وأنا أمر بجانبه لأخذ حقيبة يدي وحقيبة الظهر. «وداعًا
أورلاندو وأنا حقًا آسفة».

واصلت مشيي إلى الباب وسط صمت رهيب، وعندما أوشكت على إمساك
المقبض، فتح فمه مرة أخرى.

«على الأقل، سيستفيد روري من اهتمامك اللطيف به. وأنا سعيد لذلك. وداعًا
يا آنسة ستار».

فتحت الباب وخرجت إلى الشارع الغارق بالضباب تحت سماء مظلمة.
حملتني قدمي تلقائيًا إلى الطريق المواجه حيث محطة الحافلات، المحطة التي
رأيت منها أول مرة متجر آرثر مورستون للكتب.

ووقفت هناك أنظر خلفي باتجاه المتجر، ورأيت في الظلال، خلف الخرائط
الموضوعة في الواجهة، هيئة رجل كان يقف ويراقبني.

ثم أدرت وجهي إذ لم أكن قادرة على تحمل سخرية أورلاندو الصامتة.

23

حمدت الله أن الشقة كانت فارغة عند وصولي. صعدت إلى غرفتنا المشتركة لأضع الحقيبة هناك، فبدت لي خانقة بعد الليالي الخمس الماضية التي انفردت فيها في غرفة كانت لي وحدي. ثم دخلت الحمام، وبقيت هناك أستحم بعض الوقت. وعندما بدأت مياه الأنابيب الساخنة تنسكب فوق جسمي، لم أترك دموعي تنساب فحسب، لكنني أطلقت صوتًا من حلقي كاد يشبه العواء، وأنا أسأل نفسي كيف أمكنني بحق الجحيم أن أفسد كل شيء في غضون أربع وعشرين ساعة.

وعندما خرجت من الحوض ولففت جسمي بمنشفة بيضاء ناعمة، كانت الإجابة قد أصبحت عندي. إنه الجشع والأنانية. مثل أي امرأة تقع في حب شغوف. لم أستطع رؤية تشعبات أفعالي كوني كنت شرهة في الوصول إلى فريستي. إلى هاي ويلد وسكانها باختصار، كما قال أورلاندو.

بالطبع، كان عليّ ألا أقبل الوظيفة التي عرضت عليّ هناك، خصوصًا في ظل الظروف الأخيرة. لا، كان عليّ أن أقول لهما إنني سأتحديث إلى أورلاندو أولًا، ففي النهاية كان هو من قدمني إلى تلك الدنيا العجيبة.

لكنني لم أفعل. وها أنا مجددًا عاطلة من العمل. فإذا ذهبت الآن إلى هاي ويلد - وكر الدبابير كما وصفها أورلاندو - فإن أفضل صديق حصلت عليه في حياتي سيعتبرني خائنة. وأنا ببساطة لا أستطيع تحمل ذلك.

رحت أفرغ حقيقتي بقلب منفطر، واكتشفت أن مفاتيح المتجر النحاسية ما تزال في جيبِي الداخلي. فتذكرت تلك اللحظة المجيدة قبل بضعة أسابيع، عندما

وضع أورلاندو بسلسلة المفاتيح في كفي وهو يتسم. وبسرعة، حاولت محوها من ذاكرتي، وقررت المعاندة. يمكنه المجيء بنفسه لاستعادتها أو أنني سأسلمها له عندما أكون مارة من هناك. لكنني بالتأكيد لن أبذل جهداً لأعيدها إليه بنفسي. ثم نزلت إلى الطبقة الأرضية لأحضّر لنفسي الشاي، فوجدت مطبخنا الذي يكون في العادة مرتّباً، في حالة فوضى لم تفاجئني؛ كان الحوض مليئاً بأطباق خمسة أيام، على الرغم من الغسالة القابعة بجانبه تحت سطح العمل. وكانت الأرضية مغطاة بفتات الطعام والبقع. عندما بحثت عن أكياس الشاي في علبتها لأضع واحدًا في كوب بعد أن شطفته بالمياه، لم أعثر على أي واحد.

«يا إلهي، سيسي!» تمتمت بغضب وأنا أتابع البحث عبثًا داخل الخزائن لأشبع وحامي. في النهاية، غطّست كيس أعشاب في المياه المغلية وتركت المطبخ على حاله، وخرجت أحتسي شرابي الساخن على الشرفة. لحسن الحظ، وجدت معظم الشتلات هناك إمّا في حالة سبات وإما بغير حاجة إلى مياه بسبب غزارة الندى. لكنني لاحظت أن الكاميليا كانت بحاجة إلى الاحتماء داخل الشقة من الصقيع. وبالنظر إلى حجمها ووزنها، كنت أشعر بوهن لجّرها بمفردي إلى الداخل، لذلك فكّرت أن من الأفضل لي أن أعطي أزهارها الرقيقة هذه الليلة بكيس نفايات ريثما يطلع الصباح.

عدت إلى الداخل، ورأيت أن الساعة قد تجاوزت السادسة، فشعرت برغبة في تناول النبيذ. سكبت كأسًا وجلست على إحدى الأرائك الكريمية الضخمة، أنظر حولي إلى تلك المساحة المثالية النقية التي تتناقض مع ما تمثّله هاي ويلد. فامتلأت عيناى بالدموع.

كنت أعرف أنني لا أنتمي إلى أيّ من هذين العالمين؛ لا هذا الذي بنته أختي، والذي يحتوي على قليل أو لا شيء مني، ولا هاي ويلد.

بعد مرور بضع ساعات، كنت قد أصبحت في السرير عندما سمعت دوي الباب. وكنت قد تركت ملاحظة لسيسي على الثلاجة، كتبت فيها بحروف كبيرة لتلفت انتباهها، أنني عدت من هناك بنزلة برد رهيبية لذلك دخلت أنا في الغرفة

الاحتياطية لكي لا أعديها. وكما توقعت سمعتها تناديني فور وصولها. ثمَّ استمعت إلى وقع خطاها إلى المطبخ حيث كانت تجدني في العادة، ثمَّ ساد صمت، فتصورت أنَّها وجدت الملاحظة وأنَّها تقرأها، وبعد ذلك سمعتها تصعد السلالم. ثمَّ سمعت طرقًا على الباب.

«ستار؟ هل أنت بخير؟ هل يمكنني الدخول؟».

«نعم»، كذبت على نحو مثير للشفقة.

فُتح الباب وظهر ظل سيسي داخل الغرفة تحت شقَّ الضوء.

«لا تقتربي كثيرًا، أنا في حالة رهيبة»، قلت لها وأنا أظهار بالسعال قدر المستطاع.

«مسكينة أنت. هل أحضر لك شيئًا؟».

«لا شكرًا. تناولت دواء».

«إذا احتجت إليَّ في الليل، تعرفين أين تجديني».

«حسنًا».

«حاولي أن تنامي. بما أنَّك عدت الآن إلى المنزل فلا بدَّ من أن تشعرني بالتحسُّن».

«أجل. شكرًا لك».

تمكنت من رؤيتها بعيني اليسرى المفتوحة تحوم عند الباب وتراقبني بصمت.

«اشتقت إليك». قالت بعد ذلك.

«وأنا أيضًا».

عندما أغلق الباب، فكَّرت في أنَّني كذبت في هذا اليوم مرتين.

فتدحرجت داخل السرير، وأنا أتوسَّل إلى السماء لتساعدني على النوم. وفي النهاية استُجيب دعائي.



في صباح اليوم التالي، استيقظت مخدرة تمامًا كما كنت قد أخبرت سيسي في الليلة السابقة. وبعد أن تعثرت لأخرج من السرير، رأيت ورقة دُفعت إلى داخل الغرفة من تحت الباب.

غادرت إلى الكلية. اتصل بي إذا احتجت إلى شيء. أحببك. سي.

نزلت السلالم إلى المطبخ وفوجئت به مرتبًا. كان نظيفًا كما أتركه عادة، فشعرت بالرضا والذنب في آنٍ بسبب الكذبة التي قلتها ليلة البارحة. وبعد أن قمت بتشغيل الغلاية، تذكرت أكياس الشاي التي نفدت.

رحت أتجوّل في غرفة الجلوس وألقيت نظرة عبر الزجاج فبدا لي اليوم أكثر إشراقًا من البارحة.

بقيت أنظر عبر النافذة بعض الوقت، وذهبت أفكاري من تلقاء نفسها إلى هاي ويلد. رحّت أتساءل عما إذا كان روري قد استيقظ في هذه الساعة، وماذا كان سيتناول على الفطور بعد أن غادرت المكان ولم أعد هناك لأعده له. ما بك يا ستار، الصبي مع والدته الآن، وهو حتمًا سعيد...

مع ذلك شعرت بأنه يفتقدني، ربّما من باب الغرور، وليس الغريزة. كلا.

‘هذه ليست حياتك. وهم ليسوا عائلتك. وروري ليس ولدك’. قلت لنفسي بصوت عالٍ.

في ما بعد، صعدت إلى الطبقة العلوية. لم أكن أشعر بالرغبة في ملء الفراغ الذي أعيشه بأي طريقة، لذلك اعتمدت سياسة أورلاندو واتبعت روتيني المعتاد، فدخلت أستحمّ مرّة أخرى وبعد ذلك ارتديت ملابسني ونزلت إلى الطابق الأرضي لأجلس إلى المكتب. اليوم، قلت لنفسي، سأحاول البدء بكتابة روايتي. أردت فعل أمر من أجل نفسي، إذ إن الوقت قد حان لأبدأ بصوغ مصيري. فأخرجت دفتر ملاحظات وقلم حبر وبدأت في الكتابة.

وبعد مرور بضع ساعات، رأيت أن الغسق قد بدأ يحلّ، والسماء تتلون بصبغة حمراء. فوضعت قلمي على الطاولة ودلّكت أصابعي التي ألمتني بسبب ضغطها الشديد على القلم. ونهضت بعد ذلك عن المكتب لأملأ كوبًا بالماء. نظرت إلى هاتفي المحمول فرأيت ورود عدد من الرسائل النصية ورسالتين صوتيتين تجاهلتهما عمدًا في البداية إلى أن انتابني الفضول، وخفت من حدوث مكروه لأورلاندو أو ربّما لروري فتخلّيت عن عنادي.

«مرحبًا يا ستار هذا أنا ماوس، لا أعرف إذا مرّر لك أورلاندو الرسالة، لكن مارغريت ذاهبة إلى فرنسا في عطلة نهاية الأسبوع. وقالت إنك قد تكونين على استعداد لرعاية روري والمنزل في أثناء غيابها. هل يمكنك العودة إلى هنا في أسرع وقت؟ الهاتف الأرضي في هاي ويلد معطل بسبب فاتورة ما لم تدفع في موعدها، لذلك طلبت إليّ أن أتواصل معك. شكرًا».

أما الرسالة الثانية فكانت من شانتي. كانت تسأل عن أحوالي وعن مكاني، وقالت لي إنّه سيكون من الرائع أن نلتقي قريبًا. شعرت بالارتياح لدى سماع صوتها الناعم. فدوّنت ملاحظة في ذهني لكي أتصل بها في ما بعد وأرتّب موعدًا. ثمّ تحققت من بقية الرسائل النصية ووجدت رسالتين يائستين من ماوس. فمع خروج أورلاندو من المشهد، أصبحت رعاية روري مهمته. كنت على وشك وضع هاتفي جانبًا عندما هاتفني ماوس من جديد. هذه المرة فكّرت في أنّه من الضروري أن أردّ عليه.

«ستار.. هذه أنت الحمد لله. كنت أتساءل إذا ما كنت أرسل الرقم الخطأ. حاولت الاتصال بأورلاندو لكنه لا يردّ عليّ هو أيضًا».

«لا، لن يفعل».

«هل تلقيت رسالتي الصوتية ورسالتي النصية؟».

«نعم».

«هل يمكنك القدوم إلى هاي ويلد في الأسبوع المقبل؟».

«كلا. يؤسفني القول إنني لن أستطيع المجيء».

«حسنًا». وساد الصمت عبر السماعة. «هل لي أن أسألك عن السبب لأنّ مارغريت قالت إنك بدوت متحمسة لفكرة العمل لها من وقت إلى آخر».

«نعم، قلت ذلك بشرط موافقة أورلاندو. لكنه لم يوافق».

«لكنّه قادر على الاستغناء عنك بضعة أيام من أجل قريبه».

«نعم يستطيع ذلك. لكنّه طردني البارحة بعد تلقيه مكالمتك ووصفني بالخائنة». أضفت فجأة.

«يا إلهي». أطلق ماوس تنهيدة طويلة سمعتها بوضوح عبر السماعة. «أنا آسف يا ستار. هذه ليست مشكلتك على الإطلاق وينبغي ألا نقحمك فيها. لم أفكر في ذلك قبل الاتصال بك».

«نعم، حسنًا هذا ما حدث».

«ألا تفكرين في المجيء إلى هنا حتى في عطلة نهاية الأسبوع؟».

«آسفة، لا أستطيع. لقد كان أورلاندو لطيفًا معي، ولا أريد أن أكون جاحدة».

«لا، بالطبع لا، وأفهمك. حسنًا... في أي حال، ربّما يكون من الأفضل أن تبقي بعيدة من عائلتنا المجنونة. الآن سيتدمر روري، لقد صرّعنا بمدحه لك».

«أرسل له تحياتي».

«سأفعل بالطبع. ربّما تغيّرين رأيك عندما يهدأ الوضع».

«لا أعتقد ذلك. أنا آسفة».

«تمام. سأدعك الآن. هناك أمر أخير، هل ترسلين إليّ عنوانك لأتمكن على الأقل من إرسال ما ندين لك به مقابل رعايتك روري الأسبوع الماضي؟».

«لا داعي لذلك. لقد كنت سعيدة بفعل ذلك».

«هذا مهم بالنسبة إليّ، لذلك من فضلك...».

فأعطيته عنواني. وقال إنه سيرسل لي شيكًا عبر البريد.

«حسنًا، سندعك بسلام أنا وأقاربي المضطربين. وعندما يهدأ أورلاندو ربّما يأتي إليك جاثيًا على ركبته ليتوسّلك العودة إلى العمل».

«أشك في ذلك. لقد أخبرتني بمدى عناده وقد أذيته في الصميم».

«لا يا ستار، لم تفعلني. الخطأ هو خطأي. في أي حال، أتمنى لك حظاً سعيداً في العثور على وظيفة أخرى، وابقى على تواصل معنا. الوداع».

«الوداع».

وانقطع الاتصال. على الرغم من موقفني الثابت، فإنني شعرت كأنها كانت نهاية علاقة حب جميلة بيني وبين ذلك المنزل، وتلك العائلة، وما قد يكون أو لا يكون ماضي الذي أبحث عنه. وجدت صعوبة في ابتلاع ريقى ومنع دموعي من الانهمار. فذهبت إلى المطبخ لأعدّ العشاء مرّة أخرى لي ولسيسي فقط.

قَطَّعت الخضار بطاقة زائدة عن اللزوم وحَمَرتها في شرائح وأنا أفكّر في أنني أعود إلى الصفر على جميع الأصعدة. ثمّ انتظرت وصول سيسي وأنا أتمنى أن يثنىها مرضي الوهمي عن مهاجمتي ولو متأخراً لأنّي نسيت إخبارها ببقائي في هاي ويلد يوماً إضافياً. ثمّ بعثت برسالة نصية إلى شانتى. وبما أنني قرّرت البدء من مكان ما لبناء حياتي الخاصة، دعوتها إلى تناول القهوة في شقّتنا عندما تسنح لها الفرصة. فأجابتنى فوراً أنها ستكون سعيدة بزيارتي غدًا عند الساعة الرابعة. فرحت لذلك لأنها أعطتني عذراً لإعداد كعكة؛ غير رذاذ الليمون فكّرت بحزن، ثمّ سمعت باب المنزل ينفتح وينغلق.

«مرحباً سيا، كيف تشعرين الآن؟».

«أفضل بكثير. شكراً لك».

ثم عبست وهي تتفحص وجهي. «ما زلت شاحبة».

«أنا دائماً شاحبة يا سي». قلت لها وأنا أضحك. «أعدك أنني بخير. وأنت كيف حالك؟».

«آه جيدة، نوعاً ما». قالت وكنت أعرف أنها لم تكن كذلك. «هل تريدن جعة؟». سألتني وهي تسير إلى الثلاجة لتخرج منها زجاجة جعة.

«لا شكراً».

ثم جلست قبالي، وقالت: «كيف كانت خدمة الحضانة؟».

«جَيِّدة.. شكرًا. روري فتى محبوب».

«وهل ستذهبين مرة أخرى؟».

«كلا. كانت مرة واحدة».

«وأنا سعيدة لذلك. يا إلهي ستار، أنت حاصلة على درجة أولى في الأدب الإنكليزي وتحدثين لغتين بطلاقة، كما أنك من أكثر الأشخاص ذكاءً ممَّن أعرفهم. عليك ألا تقللي من شأنك».

كانت تلك لازمة سيسي المتكررة، ولم أكن مهتمة حقًا بالاستماع إليها.

«وماذا عنك؟ ما هي أخبارك؟».

«كيف عرفت أن هناك أخبارًا؟». قالت سيسي وهي تقترب مني وتلف ذراعيها حولي. «أحمد الله على وجودك في حياتي». قالت وهي تتنهد بعمق.
«إذا ما الأمر؟».

«من الصعب أن أشرح لك لكنّه يشبه العودة إلى المدرسة. تلك العلاقة الوطيدة مع الطلاب تشعرني بأنني لست في مكاني الصحيح. في الواقع هي أسوأ من المدرسة لأنك لست معي هناك. أحاول ألا يكون لدي مانع لكنني اعتقدت فعلاً أن مجموعة الفنانين ستكون مختلفة. لكنهم ليسوا كذلك. وهذا مؤلم يا سيا.. حقًا مؤلم».

«بالطبع هو كذلك».

«المدرّسون ينتقدون عملي باستمرار. أقصد أنني أعرف أنّه يُدفع لهم لفعل ذلك، لكن مجاملة صغيرة غير مألوفة من وقت إلى آخر سيكون لها نفعها. في هذه اللحظة بالذات، أشعر بإحباط تام كما أنني على وشك أن أتخلى عن كل شيء».

«اعتقدت أن الأهم هو العرض النهائي في آخر السنة؟ وأن الكلية أحضرت نقّاد فنّ بارزين وجامعيّين لتقييم عملك؟ في رأيي مهما كان الأمر صعبًا في هذه المرحلة، لا يمكنك التخلّي عنه؟».

«لا أريد ذلك يا سيا. كان پا يقول دائمًا إن الحياة قصيرة جدًّا لنعيشها ببؤس.

- وكان يقول أيضًا إنّه يجب ألا نستسلم أبدًا».

صُعقت كيف كنا نحن الاثنتين قادرتين على تكييف مختلف كلمات يا الحكيمة بالطريقة التي ثلاثنا، الآن بعد أن رحل عن هذه الدنيا.

«أجل». قالت سيسي وهي تعض شفتها، فتفاجأت بأولى الدموع تغزو جفניה.

«كم أفتقده. اعتقدت أنني سأقبل فكرة رحيله، ولكن هناك فراغ، تعرفين ذلك؟».

«بالطبع أعرف». قلت لها بهدوء. «لم تمر فترة طويلة بعد على وجودك هناك، لذلك لم لا تمنحي الأمر مزيدًا من الوقت وترين كيف ستسير الأمور؟»

«سأبذل قصارى جهدي، لكنني أعاني يا سيا، أنا فعلاً أعاني خصوصاً عندما تكونين بعيدة».

«حسنًا، لقد عدت الآن».

بعد ذلك صعدت سيسي إلى الطبقة العلوية لتستحم، فنهضت بسرعة ووضعت مكونات الطعام في المقللة وحمّرتها. ورحت أفكر في قدرنا، ربّما كان محتمًا علينا أن نعيش مهمّشتين، مثل ذبّتين وحيدتين، ليس لواحدتنا أحد سوى الأخرى. على الرغم من أنني حاولت مؤخرًا الهروب، لكن التاريخ والأعمال الأدبية مليئة بقصص الأخوات العازبات اللواتي يجدن الراحة والأمان في أحضان بعضهن البعض. لذلك ربّما كان عليّ الاستسلام للقدر وقبول مصيري.

في ذلك المساء، تناولنا العشاء معًا، وأول مرة منذ زمن بعيد شعرت على غير عادتي، بالراحة لوجود سيسي إلى جانبي. وعندما أرّنتي صور أحدث لوحاتها في الكلية، التي كانت تحتفظ بها في هاتفها، فكّرت بصدق أنها أفضل ما أنتجته منذ مدة طويلة، وفكّرت أيضًا كيف تقلب البصيرة والقبول المقاييس.

في تلك الليلة، ذهبنا إلى الفراش باكراً، كلّ واحدة منّا منهكة لأسبابها الخاصة. ربّما كنّا متشابهتين أكثر مما أرغب في تصديقه، فكّرت وأنا أحّدق في القمر عبر النافذة. ربّما كنّا خائفتين من قسوة العالم خارج منطقة الراحة التي كبرنا فيها.

24

لأسباب ربّما تعود إلى قصة قديمة لها علاقة بالكبرياء، لم أخبر سيسي أنني طُردت من وظيفتي. لذلك استيقظت في اليوم التالي في الوقت نفسه لمعرفتي أنها تغادر المنزل قبل نصف ساعة مني، واتبعت روتيني الصباحي المعتاد.

«يومًا سعيدًا»، قالت سيسي وهي تغادر الشقة.

«ولك أيضًا». لوحت بيدي وأنا أظهار بأنني أرتشف قهوتي بسرعة لكوني على عجلة من أمري.

لكن ما إن أغلقت الباب وراءها، حتى بدأت أبحث في كتب الطبخ عن وصفة أحضرها قبل وصول شانتي. في النهاية، وبعد طول تفكير، رسوت على وصفة إنكليزية نموذجية - عبارة عن رغيف شعير - لكنني قررت أن أضيف إليها بعض التوابل إحياءً لثقافتها. ثم خرجت إلى السوبر ماركت لشراء المكونات وأكياس الشاي.

في تمام الرابعة بعد الظهر، رنّ جرس الباب فضغطت على الزر الطنان لتتمكن شانتي من دخول المبنى. أشعرتني تكبدها عناء زيارتي بدفء في قلبي. وعندما خرجت من المصعد وجدتني في انتظارها عند عتبة الباب.

«ستار!». ولفت ذراعيها حولي وعانقتني. «مرّ وقت طويل لم أرك فيه».

«نعم، هذا صحيح. ادخلي».

«يا للروعة!». قالت وهي تتفحص غرفة الجلوس الواسعة. «يا له من مكان جميل! لم تخبريني أنك مدلة إلى هذه الدرجة».

«لست كذلك. أختي هي من اشترت هذا. أنا مجرد مستأجرة هنا».

«أنت محظوظة جداً». قالت مبتسمة وهي تتخذ مكاناً.

«شاي أم قهوة؟».

«في الواقع، سأشرب ماء، أو أي خلطة عشبية منسية في قعر الخزانة. فأنا صائمة اليوم».

فنظرت إلى رغيف الشعير الممتلئ الطازج الذي ينتظر أحداً ليلتهم، وتنهّدت.

«إذن كيف حالك، يا نجمتي الصغيرة؟».

[قالتها بالفرنسية].

«هل تجيدين الفرنسية؟».

«لا، هذه هي العبارة الوحيدة التي أعرفها»، قالت وهي تضحك، «وتصادف أنّها تحتوي على اسمك».

«أنا بخير»، قلت لها وأنا أمسك صينية الشاي ورغيف الشعير وقالب من الزبدة الطازجة لدهنه بها. كانت عادة أورلاندو بتناول الحلوى بعد ظهر كل يوم قد بقيت عالقة في ذهني لذلك قررت أن أتناول بعضاً منها.

«ما أخبارك؟».

«كنت أعمل في متجر للكتب».

«أي متجر؟».

«آه، متجر لم تسمعي به من قبل. يبيع كتباً نادرة ولا يدخله كثير من الزبائن».

«لكنك تستمتعين بعملك هناك؟».

«أحبه. أو على الأقل كنت أحبه».

«لم؟ هل توقفت عن العمل؟».

«لا. طُلب إليّ المغادرة».

«أنا آسفة يا ستار. ماذا حدث؟».

فكرت جلياً في ما إذا كان عليّ إخبارها. ففي النهاية، لم أتمكن بعد من إخبار سيسي. لكن شانتى كانت ضليعة في استخراج الأخبار. وإن أردت أن أكون صادقة مع نفسي، فإنّ حرصى الشديد على رؤيتها كان بسبب حاجتي إلى التحدّث إلى أحد.

«إنها قصة طويلة».

«إذن كلّى أذان صاغية». قالت وهي تراقبني وأنا أمضغ رغيف الشعير المفلفل. «حسنًا أستسلم. إذ تبدو كعكتك لذيدة».

فقطعت شريحة وقدمتها إليها. ثمّ بدأت أخبرها برحلتى الطويلة مع عائلة فوغان/فوربس. بين الحين والآخر، كانت تقاطعني لتتأكد من أنّها تفهم الوقائع كما هي، إلى أن وصلت إلى نهاية قصتي المؤسفة.

«ها أنا أجد نفسي مرّة أخرى عاطلة من العمل». قلت لها وأنا أهزّ كتفي.

«يا لهم من أناس مشوّقين»، قالت شانتى وهي تأخذ نفساً عميقاً. «غالبًا ما اعتقدت أن العائلات الإنكليزية الأصلية لديها مثل تلك الطباع».

«يمكنك قول ذلك، نعم».

«ربّما تكونين على صلة قرابة بهم بطريقة ما؟».

«إذا كنت بالفعل على صلة قرابة بهم يؤسفني أنّي لن أعرف الحقيقة. أشك في أنّي سأسمع منهم بعد الآن».

«لا بل ستسمعين، وقريبًا جدًّا. خصوصًا من شخص محدّد».

«أورلاندو؟»، سألتها متلهّفة.

«لا يا ستار ليس أورلاندو. إن لم تتوقّعي بنفسك من هو ذلك الشخص فلن أقول لك أنا. يبدو أيضًا... كما لو أنهم يخفون شيئًا ما».

«هل تعتقدين ذلك؟».

«هناك ما لا يبدو منطقيًا في القصة. قلتِ إن المنزل مذهل».

«أجل هو كذلك. أحببت الإقامة فيه كثيرًا، على الرغم من أن أختي تقول إنهم

استغلّوني، وأنني أستحق أفضل من ذلك... لكنني أحب البقاء في المنزل ورعاية الناس. هل تعتقدين أنني ارتكبت خطأ؟».

«هل تقصدين الأيام التي يفترض نحن الإناث أن نكون صاحبات وظائف، ونشقي طريقنا لنخترق حدودًا غير معترف بها؟».

«أجل».

«لا أعتقد أنك أخطأت يا ستار».

«حسنًا، أنا أحب الأشياء البسيطة. أحب الطبخ، أحب العمل في الحدائق، أحب رعاية منزل جميل... كما أنني أحببت الاعتناء بروري. فذلك جعلني سعيدة».

«إذن هذا ما يجب أن تهدفي إليه يا ستار. لكن بالطبع ستحتاجين إلى عنصر آخر لتحقيق ذلك».

«ما هو؟».

«ألا تعرفين ما هو؟».

فنظرت إليها، وقلت:

«أجل، الحب».

«بالضبط. كما تعرفين يمكن الحب أن يتجلى في أشكال مختلفة. ليس بالضرورة أن يكون ذلك السيناريو التقليدي الذي يتمثل بحب الرجل للمرأة. انظري إليّ، لدي تيار متواصل من العشاق من الجنسين».

احمررت خجلًا رغمًا عن إرادتي. فراحت شانتني تدرس ردة فعلي ولاحظت ابتسامة على شفيتها.

«هل تجددين الحديث عن الجنس مريبًا يا ستار؟».

«أنا... لا... أعني...».

«إذن لن تمانعي إن سألتك، لأنني أتوق لمعرفة إذا كنت تفضّلين الرجال أم النساء، أو كليهما مثلي، وذلك منذ أن التقيتك؟».

حدّقت فيها مذعورة، وتمنيت لو أن وسائد الأريكة الاسفنجية تبتلعني، أو أن تحلّ كارثة طبيعية مباغته فوق رأسينا لكي لا أضطر إلى الإجابة عن تلك الأسئلة.

«أنا تقليدية»، تمتمت في النهاية. «أي أنني أفضل الرجال».

«أحقًا؟»، أجابت شانتي وهي تومئ رأسها بحكمة. «هذا يعني أنني كنت على خطأ. لا تقلقي سأشطبك من قائمة فتوحاتي المحتملة». قالت وهي تضحك بلطف. «نعم»، تمتمت، وأنا أعلم أن وجهي قد أصبح أحمر فاتحًا.

«هل تريدان مزيدًا من الشاي؟» كنت سأضع الغلاية على النار، سواء أرادت مزيدًا من الشاي أم لا، كما كنت سأفعل أي أمر آخر لمجرد الابتعاد من نظرتها الاستفهامية.

«أنت جميلة يا ستار، لكن يبدو لي أنك لا تدركين جمالك. تعرفين أن الذات الجسدية ليست مخزية. فهي هدية من الله. أنت شابة وجميلة. عليك أن تستمتعي بالمتعة التي يجلبها لك جسدك».

بقيت واقفة في المطبخ، وأنا أشعر بعجز يمنعني من العودة إلى الأريكة وتحمل تلك العيون عليّ، لأنني ببساطة لم أكن قادرة على الاستمرار في تلك المحادثة. طلبت حينذاك، لا بل توسلت القدرة الإلهية، لكي تتدخل وتنقذني من ذلك الموقف. ولدهشتي، ما هي إلا ثوان قليلة حتى سمعت الجرس يرنّ.

لم أهتم بهوية من كان يقف أمام الباب، أكان قاتلاً أم لا، أو على الأرجح سيسبي التي غالبًا ما ترن الجرس لأضغط على الزر الطنان فلا تضطر إلى البحث في حقيبتها عن بطاقة المفتاح. فرفعت السماعه. «مرحبًا؟».

«ستار؟ هذا أنا ماوس. كنت أتمرّ من هنا وفكرت في أن أسلمك الشيك باليد بدلًا من إرساله في البريد».

«آه!».

«هل يمكنك النزول إلى الطبقة الأرضية لتستلميه. لم أجد صندوق بريد في الخارج».

كان على حق. يبدو أن مطوري المبنى نسوا إضافة صندوق بريد خارجي، كما

أن البواب غائب معظم الوقت، وقد لاحظت ذلك بنفسي كلَّما عبرت الردهة في المرات السابقة. بعد تردد شديد، فاز خوفي من متابعة الدردشة مع شانتي ففتحت له الباب.

«اصعد من فضلك إلى الطابق الثالث، الباب المقابل للمصعد».

«شكرًا».

«آسفة»، قلت لها وأنا أتجوّل حول الأرائك وأحوم مرتبكة حول نفسي. إنه صديق وقد قرّر زيارتي فجأة.

«يجب أن أذهب في أي حال». قالت وهي تنهض عن الأريكة.

رافقتها إلى الباب وأنا عاجزة عن إخفاء ارتياحي لرحيلها بتلك السرعة.

«سررت برؤيتك يا ستار. وآسفة حقًا إن أخرجتك».

«لا بأس». كنت قادرة على سماع طنين المصعد أثناء صعوده، وفجأة أدركت أنه عليّ أن أعرفهما ببعض.

«حسنًا. وداعًا يا نجمتي الصغيرة». لفّت شانتي ذراعيها حولي وضمتني إلى صدرها الكبير. وعندما فُتح باب المصعد وجدنا ماوس في تلك الوضعية.

«آسف»، قال عندما أفلتتني شانتي. «أرجو أنني لم أقاطعكما».

«بتاتًا». قالت شانتي وهي تبتسم بلطف. «كنت على وشك الرحيل. ستار كلها لك». ومرت بجانبنا لتدخل المصعد. «ما اسمك؟»، سألته وهي تضغط على زر الهبوط.

«ماوس».

«ها! قلت لك يا ستار». قالت شانتي، وهي ترفع إبهامها من خلف ظهره قبل أن ينغلق باب المصعد. وسمعت صدى ضحكها يتردد في أرجاء المبنى في أثناء نزولها إلى الطبقة الأرضية.

وبينما كنت أقوده إلى الداخل سألني ماوس: «ما هي النكتة؟ لم أفهمها».

«لا تقلق، ولا حتى أنا».

«تبدو شخصية مثيرة للاهتمام. هل هي صديقتك؟».

«أجل. هل ترغب في الشاي أم القهوة؟».

«لديك جعة، أليس كذلك؟».

«أجل».

«يا لها من شقة رائعة!»، قال ماوس وهو يسير بخطى كبيرة إلى النوافذ حيث كانت أضواء لندن تتلألأ تحتنا عند الغسق. «الآن بَتّ واثقًا من أنك لا تسعين وراء هاي ويلد. فمن سيحتاج إلى تلك الكومة المتعفنة عندما يسكن في شقة مثل هذه».

«الشقة ملك لأختي»، قلت للمرّة الثانية في ذلك اليوم.

«حسنًا»، قال وأنا أقدم إليه الجعة، «نخب الأقارب الأغنياء، أتمنى لو كان بإمكانني صرف بعض الوقت هنا». أضاف وأنا أقوده إلى الجلوس على الأريكة. ثمّ نظر إلى كعكة الشعير بشهية. «هل يمكنني الحصول على قطعة منها؟ لم أكل طوال اليوم».

«بالطبع». وقطعت له شريحة، ثمّ مسحها بالزبدة.

«إنّها لذيذة مثل كلّ ما تُعدّين. لديك موهبة حقيقية».

«شكرًا لك»، تمتعت في نفسي وأنا أفكر إلى أين كان سيقودنا ذلك الإطار المندفع، وفي ما كان يريده منّي بالضبط. لأنّ لا أحد يمر من أمام بابنا هكذا. فالواحد في الحقيقة يحتاج إلى خريطة أو بوصلة للعثور على مدخل المبنى الذي نعيش فيه.

«آه، قبل أن أنسى تفضلي». وأخرج مغلفًا من جيب سترته البربور. «آمل أن تعتبره كافيًا. أضفت إليه أجر عملك في متجر الكتب لأسبوعين».

«لم تكن مضطرًا إلى فعل ذلك حقًا». قلت له وأنا أدرك تمامًا حالته المادية.

«كيف حال أورلاندو؟».

«عدواني. لقد قطع أيّ اتصال بيننا... وهذا سبب مجيئي إلى لندن. لم أسمع

منه منذ أن اتصلت به آخر مرة لأخبره عنك. وبالطبع شعرت بالقلق. كان المتجر مقفلًا عندما وصلت عصر اليوم. لحسن الحظ لدي مجموعة أخرى من المفاتيح. ما يزال يحبس نفسه داخل غرفته ولم يسمح لي بالدخول. الطريقة الوحيدة التي جعلتني أتحدث إليه هي تهديده بالاتصال بالشرطة وكسر الباب لمعرفة إذا ما كان ما يزال حيًّا».

«لم يتغير شيء بعد ذلك؟».

«كلا. ذهبت أيضًا لرؤية وكيل عقارات للبدء في عملية عرض المبنى للبيع. أمل أن يمتنع المصرف، عندما يرى أننا ننوي البيع وأننا سنسدد له الدين عما قريب، عن الاستحواذ على العقار في الوقت الحالي».

«هل أخبرت أورلاندو بذلك؟».

«يا إلهي لا، أعتقد أنه سيلقي بنفسه من نافذة عليّته إذا فعلت. إنّه لأمر مخزّ ألا يعيدك إلى العمل. ها هو الآن يجلس غارقًا في تفكيره ليل نهار. حسنًا، أعرف أنّه سيتجاوز الأمر في نهاية المطاف، فهذا ما يحصل لنا جميعًا بعد فقد ما نحبه».

«لكن الأمر يستغرق بعض الوقت. أليس كذلك؟»، قلت له وأنا أنتظر أن أرى ما إذا كانت تلك الملاحظة قد أصابت الهدف. ففي النهاية، لم يمرّ إلا بضعة أيام على حدوث ذلك.

«فهمت». أجاب ماوس. ومن تعابير وجهه، استطعت أن أرى أنه استغرق وقتًا ليقرر إذا ما عليه أن يعتبر تلك الملاحظة إساءة إليه. وبصراحة لم آبه.

«أنت على حق». قال بعد صمت طويل. «والآن اسمعي يا ستار، هناك سبب آخر لمجيئي إلى هنا، وليس له علاقة بي أو بعائلتي، ولكن بك أنت». «بي أنا؟».

«أجل. ففي النهاية كان سبب دخولك ذلك المتجر أوّل مرة هو للبحث عن ماضيك. وبعد ذلك، أفسدنا عليك حياتك من دون أن ترتكبي أي خطأ، إذا جاز القول. لذلك اعتقدت أن من العدل أن آتي إلى هنا وأخبرك بما أعرفه عن فلورا ماك نيكول، أو على الأقل أن أشرح لك مصدر تمثال القط ذاك».

«فهمت».

«إنه في سوثبي الآن. أخذته إلى هناك في وقت سابق اليوم. سيتصلون بي بمجرد الانتهاء من استفساراتهم، لكنهم شبه واثقين من أنه من صنع فابرجيه. عليك أن تعرفي أنه إذا تمت المصادقة عليه، فإنه يستحق ثروة. حتى تمثال صغير مثل پانثر يمكن أن يباع في المزاد بمئات الآلاف».

«أحقًا؟»، قلت له وأنا أشعر بالدهشة.

«أجل. يبدو أنك تدركين الآن ميراثك الحقيقي. والآن...»، قال وهو يُخرج عددًا من مجلدات ضئيلة كانت مغطاة بالحرير من جيب آخر. ولاحظت أنها كانت متطابقة مع تلك التي رأيتهَا على الرفّ في متجر الكتب. «هذه»، قال وهو ينقر عليها بأطراف أصابعه، «تتمة لليوميّات التي نسختها. وبسبب انشغالي لم أجد وقتًا لنسخ هذه أيضًا، لكنني قرأتها. ستار، هل تريدينني أن أخبرك أكثر عنها؟ بعبارة أخرى، إنها قصة رائعة ونهايتها دراماتيكية إذ جاز الوصف».

ترددت قليلًا، إذ كنت البارحة فقط وهذا الصباح أيضًا، قد جهدت كثيرًا لأضع ما عشته في الأسابيع القليلة الماضية خلفي، وأن أخطو إلى مستقبل من صنع يدي. فهل سيكون جرّي مجددًا إلى هاي ويلد وسكانها الذين ماتوا منذ زمن بعيد لمصلحتي؟ وإذا حدّدت صلة القرابة بيننا، فحينئذ سأكون مرتبطة بهم ارتباطًا وثيقًا إلى الأبد. لكنني لم أعد واثقة من أنني أرغب في ذلك.

«حسنًا»، قلت له أخيرًا وأنا أعلم أنني سأركل نفسي إن لم أفعل.

«لكن قد يستغرق الأمر بعض الوقت. فخط فلورا صعب القراءة، لذلك سأقرأها لك بنفسي بما أنني اعتدت على فك حروفها. لن يُزعجنا أحد، أليس كذلك؟»، سأل وهو يفتح دفتر اليوميّات.

«ليس لفترة من الوقت، في أي حال».

«جيد. إذًا فلنبدأ».

فلورا

لندن

كانون الأول 1909

25

لم تُدعِ عائلة كيبييل لحضور حفل زفاف آرتشي وأوريليا، الذي أقيم في هاي ويلد، مقر آل فوغان في كنت. فاجأ هذا الإغفال فلورا بالنظر إلى كونهم يحضون في ظاهر الأمر بشعبية كبيرة في لندن. لكن غياب تلك الدعوة لم يزعج السيدة كيبييل. «بصراحة، إن علاقتنا بآل فوغان علاقة سطحية». أبدت السيدة كيبييل عدم مبالاتها، وهي تحرك يدها على نحو عكس استهانتها بالأمر. «كما أن آل فوغان يُقحمون أنفسهم في الطبقة الأرستقراطية».

صدّقت فلورا تبرير السيّدّة كيبييل مع أنّها كانت تعرف أنّها تمتلك منزلاً ريفياً في كنت، ولذلك، فهي أيضاً تنتمي إلى تلك الطبقة.

وُضعت سيّارة تحت تصرّف فلورا خلال عطلة نهاية الأسبوع الذي حُدّد فيه حفل الزفاف. عندما جلست على المقعد الخلفي ليقودها فريد إلى خارج لندن، راحت تتساءل كيف ستنجح في مواجهة الساعات الثماني والأربعين الآتية. سبق لها أن فكّرت بعشرات الخطط القادرة على جعل ذهابها إلى هناك أمراً مستحيلاً، كأن تقف مثلاً في أعلى السلالم، وتستجمع كلّ الشجاعة التي ستلزمها لتلقي بنفسها من أعلى الدرج فتكسر ساقها، وتتذرّع بذلك لعدم الذهاب، أو كأن تقف في الحديقة في مهبّ رياح تشرين الثاني الباردة وهطول أمطارها الغزيرة، أملاً في أن تصاب بالتهاب رئوي، وغيرها من الخطط الشبيهة. لكن بدا أنّها لم تكن من النوع الذي يُهزم بسرعة، أقلّه جسدياً. وها هي الآن في طريقها إلى حفل زفاف أختها من آرتشي فوغان، الرجل الذي تحبّه هي.

كان أسوأ ما في الأمر اضطرابها إلى رؤية هاي ويلد وحدائقها العزيزة على قلب آرتشي، والتي وصفها لها بشغف كبير في الصيف الماضي. مع ذلك، لم تستطع نسيان أنها المسؤولة عن دفع الأحداث في ذلك الاتجاه.

وتذكرت فلورا الانفعال الذي ظهر على أمها في حفلة الخطوبة التي استضافتها الخالة شارلوت في منزلها في لندن من أجل العروسين. فقد شعرت بارتياح حقيقي بعدما تأكدت أن التضحية بإستويت هول لم تذهب سدىً. وكان والداها قد ذهباً قبلها إلى هاي ويلد، استعداداً للاحتفال بزفاف ابنتهما.

كانت العروس قد اختارت ثماني إشبينات، على الرغم من غياب إليزابيث، أخت آرتشي، عن العرس. بعد أن أبهرت مع زوجها في تشرين الماضي إلى سيلان، كما أن وريثاً جديداً لحقول الشاي كان في طريقه إلى هذه الدنيا.

«سينتهي كل شيء في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، وأعود بعدها إلى المنزل»، فكّرت فلورا عندما بدأت ضواحي المدينة تغيب عن نظرها لتحلّ مكانها الحقول المحروثة والأسيجة المتعرّية من قسوة الشتاء، على جانبي الطريق.

بعد ساعة، انتهت فلورا إلى المداخل الطويلة الهشة التي بدأت تتأ من وسط هياكل الأشجار. وفيما انعطفت السيارة عند الممر، أطلّت على مبنى قديم ساحر من الطوب الأحمر.

«لا أريد أن أغرم بذلك المنزل». فكّرت فلورا وهي تنظر إلى تلك الواجهة الساحرة. وعلى الرغم من سحرها المتميز، بدّت النوافذ المتفاوتة كأنها استسلمت للزمن، فظهرت بعض مفاصلها وإطاراتها الملتوية والمتقوسة، كأنّ الدهر قد هرّمها. وعلى الرغم من الطقس البارد في ذلك اليوم، إلّا أن الشمس كانت تسطع بنورها وقد امتدّت طبقة الجليد غطّت الأحواض المسيّجة ببريق رائع. فبدأ المكان مثل مدخل إلى دنيا العجائب.

«لقد وصلنا يا آنسة ماك نيكول». قال فريد وهو يمشي كما ينبغي منه إلى باب السيارة الخلفي ليفتحه لها.

ترجّلت فلورا من السيارة، وراحت تحدّق في الأبواب الكبيرة المقوسة

المصنوعة من خشب البلوط، مثل سجين مذعور يشرف على دخول السجن. وما إن تقدّمت على الممرّ المغطّى بالحصى، حتى فُتحت الأبواب فجأةً وظهرت أوريليا من خلفها.

«عزيزتي! لقد وصلت. أمل ألا تكون قد تعبت من الرحلة».

«لم تستغرق سوى ساعتين، المكان قريب جدًا من لندن».

«إلا أنّه مختلف كثيرًا، ألا تعتقدين؟ لكنّ المحيط هنا ألطف بكثير من محيط إستويت. والآن»، قالت وهي تدسّ ذراعها حول ذراع أختها، «فيما هناك الكثير مما يلزم فعله بينما يصل المدعوون، فكّرت في التظاهر في أننا لسنا هنا، فقط لبعض الوقت، حتى أتمكّن من الانفراد بك».

دخلت الأختان إلى قاعة سقفاها منخفض، اشتعلت فيها النيران وراء شباك حديد على نحو ساطع ونشرت الدفء فوق أرضية الحجر القديم.

«تعالى نصعد إلى فوق، سنختبئ في غرفتي»، قالت أوريليا وهي تكتم ضحكتها، وتجرّ أختها إلى أعلى السلالم الخشبية الواسعة المزينة بنقوش تيودورية غزيرة. ثم قادت أوريليا أختها إلى الباب في نهاية الممر، وعندما فتحت، ظهرت خلفه غرفة نوم كانت تحتوي على سريرين نحاسيين مفردين. وكانت جدرانها مغطاة بألواح من خشب البلوط الفاخر الذي منح بقية المنزل شعورًا مريحًا بالدفء، وإن كان الضوء الذي يخترق النوافذ الضيقة خفيفًا في الشتاء.

«هذه الغرفة التي سأنام فيها الليلة. كنت أمل أن تنامي معي هنا على السرير الآخر».

«بالطبع سأصرف الليلة هنا، إذا كنت ترغبين في ذلك». أجابت فلورا.

«شكرًا لك. الأمر كله يبدو لي ساحقًا إلى حد ما. هل تصدّقين أنّي بالكاد رأيت آرثشي منذ أن وصلنا إلى هنا. فكلانا منشغل بأموره».

رأت فلورا ملامح أختها تُظلم لبضع ثوان، لكن سرعان ما تماكنت نفسها واستعادت ابتسامتها المشرقة.

«قبل كل شيء، أخبريني بكل ما حصل معك في لندن. سمعت أنّك أصبحت شخصية اجتماعية».

أخبرت فلورا أوريليا باختصار عن كل الرقصات اللامتناهية، ومآدب العشاء،
والسهرات التي حضرتها خلال الشهرين الماضيين.

«نعم، نعم». علقت أوريليا وهي تحرك يدها لتبدي عدم اهتمامها بتلك
التفاصيل. «أريد أن أسمع منك عن فريدي سوامز».

«آه فريدي، أجل». قالت فلورا وهي تغزل بعينها. إنه نافذ جدًا في الدائرة
الاجتماعية في لندن.

«أعرف ذلك، لكنني أريد أن أعرف عنكما».

«لا يوجد شيء في ما خص عنكما».

«حقًا يا فلورا؟ قد أعيش منبوذة في الريف، ومع ذلك أنا قادرة على سماع
الشائعات».

«إنه لا يعني لي شيئًا، صدقًا يا أوريليا».

«في رأيي أنك تحتشمين. فلندن غارقة في الثروة، جميع الناس يتناقل أخبار
مغازلته لك. كما أنهم يقولون إنه على وشك عرض الزواج عليك».

«يمكن لندن أن تقول ما تشاء».

«فلورا، إنه فيكونت، وهذا ليس بقليل! كما أنه سيصبح إيرل ذات يوم!».

«قد يكون صحيحًا، لكنني لن أتزوج من أجل لقب، تعرفين ذلك».

«ولا حتى من أجل الأراضي الشاسعة في هامبشاير، ومن أجل تاج ألماس؟
هل تعرفين أنه سيصل غدًا؟ فهو قريب عائلة فوغان، مع فارق جيل واحد، مهما
كان ذلك يعني».

«لم أكن أعرف. لكن حينذاك، سأرمي كل رسائله في النار».

«فلورا! معظم الشابات اللواتي ذهبن معي إلى حفلات البلاط الملكي، تزوجن
في النهاية بأزواجهن الحاليين، فقط لأنهن لم يستطعن الحصول على فريدي. إنه
ليس ثريًا فحسب، بل وسيم وجذاب ومغرٍ أيضًا. وها هو يجثو عند قدميك!».

«وصفه بالإغراء موفق»، فكرت فلورا وهي تتنهد.

«بعد أن رفض أول دعوة وجهناها له، سمع أنك إشبينتي الرئيسية، فراسل

السيدة فوغان ليخبرها بقبوله الدعوة. أنت واثقة من أنك لا تحبّنه، ولو قليلاً؟». «قطعاً لا».

«آه، حسناً أشعر بالخيبة. كنت أتمنى أن تعيشي قصة حبّ عاصفة، وأكون أول من يعرف تفاصيلها».

«ببساطة، لا توجد تفاصيل لأخبرك بها».

«حسناً، هل يمكنك التظاهر بذلك؟ على الأقل غداً».

«كلا». أجابت فلورا ضاحكة، «والآن، هل لي أن أرى فستان زفافك؟».



في ذلك المساء، نُفي العريس من المنزل، الأمر الذي أثار كثيراً ارتياح فلورا، وذهب ليقيم عند آل ساكفيل ويست في كنول التي لا تبعد كثيراً عن هاي ويلد. وقُدّم العشاء لمناسبة الزفاف في غرفة الطعام الطويلة، حيث أضيئت مئات الشموع فوق الثريات. كانت فلورا قد التقت بالإشبينات الأخريات في لندن. فبعد أن أصبحت خبيرة في مثل تلك المناسبات الاجتماعية، شغلت تفكيرها وهي تبذل جهداً كبيراً في إجراء محادثات قصيرة.

وبدت والدتها أكثر سعادة من أي وقت، حتى إن والدها كشف في تلك الليلة عن حسّ فكاهته؛ إذ إن ابنته المفضّلة اصطادت السمكة التي كان متلهفاً لالتقاطها لها، لدرجة أنّه ضحّى بمنزل العائلة من أجل ضمانها لها.

سرّت فلورا عندما أعلنت العروس انسحابها، وقادتها بعد ذلك إلى الطبقة العلوية.

«هذه آخر ليلة أنام فيها وحدي». قالت أوريليا وهي تجلس أمام منضدة التزيّن. وراحت فلورا تساعدتها في تسريح شعرها الأشقر الطويل.

«أحقاً؟ كنت أعتقد أن المرء عندما يتزوّج، يصبح قادراً على النوم بمفرده قدر ما يشاء». قالت فلورا بكل صدق وصراحة. «من المؤكّد أن السيّد والسيدة كييل ينامان منفصلين».

«لا يمكن أحدًا أن يشك في ذلك».

«ماذا تقصدين؟»، سألتها فلورا على الرغم من معرفتها الإجابة، لكنها أرادت أن تسمعها من شفتي أختها.

«حسنًا، هل تتخيلين نفسك مكان المسكين السيّد كيبيّل؟ كل من في لندن يعرف عن علاقة آليس بالملك، لذلك لا بدّ من أنّك أنت أيضًا تعرفين؟».

«أجل بالتأكيد، أعرف أنّهما صديقان مقرّبان». لكنّ فلورا لم تظهر أي ردة فعل على وجهها لكي لا توحى لأختها بأي توضيح.

«لا أصدّق أنّك ساذجة إلى هذا الحد لتعتقدي أنّهما مجرد صديقين؟ الجميع يعرف أنّهما...».

«الجميع يعرف ما يحلو له أن يعرف. أنا أقيم في ذلك المنزل، ولم أرَ شيئًا غير لائق في علاقتهما. إلى جانب ذلك، كيف يمكن أن يتغاضى السيّد جورج عمّا تتهمينهما به؟ فهو رجل ذو شرف ونزاهة، والسيدة كيبيّل تعشقه».

«لا أعتقد ذلك».

«بلى. كما أنّي مثل السيدة كيبيّل، لا أهتم مثقال ذرة للثرثرة، لأنّها مثل غبار، لا أساس لها، وتتخذ أي شكل شاءت».

«حسنًا، غبار السيدة كيبيّل والملك يلوح في أفق لندن مثل ضباب». وعندما التقت عيونهما في المرأة لانت تعابير أوريليا. «دعينا ننسَ الزيجات الناقصة، ولنركّز اليوم على زيجة واحدة آمل أن تكون مثالية بقدر ما سأعمل على تحقيقه».

ثم نهضت أوريليا عن المقعد ومشّت إلى السرير. فسحبت فلورا البطانيات عنه وساعدتها على الانزلاق تحتها.

«تصبحين على خير». قبّلتها فلورا بلطف على جبينها، ثمّ دخلت سريرها وأطفأت المصباح.

«فلورا؟»، قالت أوريليا بصوت بدا طفوليًّا في الظلام الدامس الذي خيم على الغرفة.

«نعم؟».

«هل تعتقدين... هل الأمر مؤلم؟».

ما إن فكّرت في العلاقة الحميمة التي ألمحت إليها أوريليا، حتى بدأ قلب فلورا يترنّح، وصمتت برهة قبل أن تجيب.

«لأكون صادقة معك، لا أعرف. لكنني أؤمن بأنّ الله حنون لدرجة لن يسمح فيها بمعاناتنا في أثناء إظهار حبنا للرجل أو إعطائه طفلاً».

«لقد سمعت قصصاً».

«مجرد ثرثرة مرة أخرى».

«أريد إرضاءه».

«أنا متأكّدة من أنّك ستفعلين. حاولي فقط ألا تخافي. أسمع أن الخوف هو بيت القصيد».

«فعلًا؟».

«أجل».

«شكرًا لك. ليلة سعيدة مرّة أخرى يا أختي العزيزة. أحبك كثيرًا».

«وأنا أحبك».

في تلك الليلة، أغلقت الشابتان عيونهما لتغطّيا في نوم عميق، وتحلم كلّ منهما أنّها في أحضان الرجل نفسه.



«أنا جاهزة. كيف أبدو؟».

نظرت فلورا إلى أختها، فيما كان قماش فستانها الدانتيل الكريمي الناعم يلمس بشرتها الخوخية، وتاج عائلة فوغان يعلو خصلها الذهبية المجعدة.

«متألّقة بامتياز». أجابت فلورا وهي تبتسم لأختها وتعطيها باقة من الورد الأحمر الغامق.

«شكرًا لك يا أختي العزيزة. حسنًا، حان الوقت لنذهب». قالت أوريليا، وهي تأخذ نفسًا عميقًا.

«أجل. إن أبي في انتظارك أسفل الدرج».

«تمني لي الحظ». قالت أوريليا وهي تحاول الوصول إلى يد فلورا وتضغط عليها.

«بالتوفيق يا عزيزتي».

ومشت أوريليا إلى باب الغرفة، ثم استدارت إلى أختها. «أنت من أقنعتني بجعل هذا اليوم ممكناً. لن أنسى ذلك».

عندما غادرت أوريليا الغرفة، نظرت فلورا إلى صورتها في المرآة، ورأت الألم والذنب في وجهها.

كانت الكنيسة القديمة التابعة للملكية مكتظة بـ 400 مدعو. تقدّمت العروس وهي تمسك ذراع أبيها وخلفها وصيفاتها في الردهة الصغيرة الموجودة في مؤخرة الكنيسة.

«فلورا»، همست أوريليا فيما رُتبت طرحتها الطويلة بحرص خلفها. «هل هو هناك؟ هل ترينه؟».

مشت فلورا إلى الباب الذي يفصل الردهة عن الكنيسة، وفتحته بضع بوصات لكي تخطف نظرة سريعة إلى الداخل، وإذ بعينين داكنتين تستديران من حيث وقفت في مقدمة الكنيسة، والتقتا بعينيها. فأغلقت فلورا الباب بسرعة والتفتت إلى أختها وأومأت لها برأسها. «أجل، إنه هناك».

أعطيت الإشارة، وبدأ الأرغن يعزف لحن الزفاف. ومرة أخرى، تأرجح الباب، فتبعت فلورا والدها وشقيقتها على طول الممر. استمعت فلورا إلى الندور، وهي ترتجف داخل ثوبها الحريري العاجي، وتشهد كيف تصبح أختها زوجة آرتشي أمام الله. عندما خرج العروسان من الكنيسة بعد التوقيع على العقد، أجبرت فلورا نفسها على النظر في عيني آرتشي، في أثناء عبوره بجانبها وهو يشبك ذراعه بذراع أوريليا. ثم اتخذت مكانها ومشت خلفهما إلى خارج الكنيسة، حيث كان الصقيع قد اشتدّ في ذلك اليوم المطير.

ورغمًا عن إرادتها، لم تستطع فلورا إلا أن تقدّر روعة الفطور الذي أعد لمناسبة

زفاف أختها. وبما أن عيد الميلاد كان سيحلّ بعد ثلاثة أسابيع فقط، فقد رُيّنت القاعة الكبرى في هاي ويلد بالشموع الواضحة وأغصان الهولي ونبات الهدال التي علّقت في الأسقف العالية، فاستوت من لهيب النيران المشتعلة داخل المدفأة. يبدو أن هنري الثامن غازل ذات مرة آن بولاين في هذه القاعة، كما أخبرها أحد الضيوف. وقُدّم النبيذ الساخن لشرب الأنخاب بدلاً من الشمبانيا، كما قُدّمت فطائر اللحم المفروم بدلاً من الترفل.

شعرت فلورا بالتخدير من شدة الحرارة ومن كميات الطعام والنبيذ الهائلة. وشعرت بالامتنان أيضاً لآرثشي عندما نهض عن كرسيه وأعلن عن أخذ استراحة من الإجراءات، بينما تستعدّ الأوركسترا للحفلة الراقصة في المساء. فانتهزت الفرصة وغادرت القاعة لتستنشق بعض الهواء النقي، الذي كانت في أشدّ الحاجة إليه. بحثت عن عباؤها المخملية وخرجت إلى برد ساعات المساء المبكرة. كان الظلام قد حلّ وبدأ يشتدّ في الخارج، وكانت الشرفة الواسعة وأسوار الحديقة الخلابة تتلأأ بإنارة الفوانيس التي وضعت بمحاذاة حوافها الكثيرة. تمتّ فلورا لو كانت قادرة على رؤيتها في عزّ الصيف، بدلاً من رؤيتها مزينة هكذا بأنوار اصطناعية. وشقّت طريقها إلى أسفل السلالم، وهي تتدبّر عباؤها وتجذبها إليها أكثر لتستدفي فيها، وراحت تتجول عبر الحقائق، تاركة ضجيج الحفلة ينحسر. وعندما بلغت جداراً مرتفعاً من الطوب، توقفت عنده وشعرت بنفسها يتبلور في الهواء البارد.

«إنها جميلة جدّاً، أليس كذلك؟».

قفزت فلورا في مكانها، واستدارت لتكتشف هوية الشخص الغامض الذي وقف خلف شجرة الطقسوس الضخمة. وقد تسبّب صوته بتسريع نبضات قلبها.

«أجل».

«كيف حالك يا فلورا؟»، جاءها الصوت من الظلام.

«أنا بخير. وأنت؟».

«لقد تزوّجت. فعلت كما طلبت إليّ».

«شكرًا لك».

«أحبك». قال هامسًا.

وقفت فلورا راسخة في مكانها مثل الجذور.

«ألن تجيبي؟ قلت لك إنني أحبك».

«كلامك لا يستحق الرد. لم يمرّ على زواجك بأختي سوى ساعات قليلة».

«فعلت ذلك بناء على طلبك».

«بحق السماء! هل تحاول معاقبتي؟».

«ربّما، نعم».

«إذن من فضلك، إذا كنت تحبّني كما تدّعي، أوقف هذا. كل ما حدث بيننا في الأيام القليلة سابقًا، انتهى».

«إذا كنت تدريكين ما تقولينه، فأنت تخدعين نفسك. لأنّه لا يمكن لذلك أن ينتهي أبدًا».

«كفى!». ما إن استدارت لتعود إلى المنزل، حتى امتدت ذراع وأمسكت أعلى ذراعها وشدّتها إليها. وبما أنّها لم تكن قادرة على الصراخ خوفًا من جذب الانتباه إليها، وجدت نفسها في أحضان آرتشي وشفّتيه تلتصقان بشفتيهما.

«يا إلهي، فلورا، كم كنت أتوق لفعل ذلك من جديد...».

استسلمت فلورا لآرتشي مدّة أطول مما ودّت تقبّله، لروعة إحساسها في أثناء وجودها بين ذراعيه وفمه على فمها. وفي النهاية، استعاد ذهنها قدرًا ضئيلاً من الحسّ، واستطاعت بعد جهد ومعاونة كبيرة أن تحرّر نفسها من ذراعيه اللتين كانتا تلتفّان حولها.

«ماذا فعلنا! أرجوك دعني أذهب».

«سامحيني يا فلورا. رأيّتك من أعلى الشرفة وأنت تنزلين إلى الحقائق، فتذكرت كلّ ما تحدّثنا عنه في أثناء زيارتي لك في إستويت. لذلك... لا تلومي نفسك».

«فلنصلّ لكي لا تجد أوريليا نفسها غير قادرة على مسامحتنا». قالت له وهي

تشعر بالقشعريرة. «أتوسّل إليك أن تجعل أختي سعيدة». ومن دون انتظار ردّه، غادرت فلورا الحديقة عائدة إلى المنزل.

بقي آرتشي واقفاً في ظلّ شجرة الطقسوس القديمة، يراقب حبّه وهو يهرب منه.

26

صعدت فلورا السلالم وذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، وشعرت بنفسها يتسارع بشكل متقطع مثل رشق ناري قصير وحاد. جلست على السرير تحاول تهدئة نفسها لكي يستعيد قلبها نبضه المنتظم.

«سامحني يا الله». تمتمت مذعورة وخجلانة مما حدث، لدرجة لم تسمح بمواساة نفسها بالبكاء. وعلى الفور، سمعت طرقًا على الباب، فنزعت عباءتها ونهضت تفتحه.

«أين كنت؟».

«أنا...» شعرت فلورا بأنه سيغمى عليها، لدى رؤية أوريليا، وبدأت متوترة ومضطربة على نحو غير عادي.

«حسنًا، لا يهم. انتظرت مجيئك، من فضلك ساعديني في نزع ثوبي، لأرتدي ثوب المساء!».

«آه، بالطبع! لا بد من أن النعاس غلبني...».

«من فضلك فلورا، هل يمكننا الإسراع؟ يجب أن أقابل آرتشي عند مدخل القاعة الكبرى في السابعة، والساعة الآن قاربت السادسة والنصف».

وفيما كانت فلورا تسرف في اعتذارها، تبعت أوريليا عبر الممر الذي أدى بهما إلى غرفة كبيرة، وكانت السرير الضخم المحاط بأربعة أعمدة فيها قد اتخذ مساحة كبيرة، وكان مصنوعًا من الخشب الداكن الصلب. على الفور، أبعدت فلورا عينيها عنه، محاولة ألا تفكر فيما كان سيخدم العروسين. كما أن النار قد أشعلت هناك

لإعداد الغرفة لهما، وراح لهيبتها يتراقص عبر البساط الثقيل الذي زَيْن الجدران. ارتبكت فلورا وهي تفكّ أزرار اللؤلؤ في مؤخرة الفستان، وتدعو الله ألا تسقط أصابعها المخدّرة من الصقيع، وقد شعرت بأنها تستحق ذلك.

«لاحظ جميع الموجودين أن فريدي سوامز لم يرفع عينه عنك خلال الفطور». ثرثرت أوريليا فيما كانت فلورا تساعد على ارتداء فستان وردي داكن للسهرة. «من الواضح أنّه مغرم. تقول أمي إنه قارب الخامسة والعشرين، وعليه أن يتزوج في أقرب وقت. هل ستجيبينه بنعم إذا عرض عليك الزواج؟». «لم أفكر في الأمر قط».

«فلورا، على الرغم من الوقت الطويل الذي صرفته في منزل السيدة كيبييل، ما تزالين ساذجة فيما يخص الرجال. والآن، أعتقد أنّه عليّ أن أدع شعري يتدلى على ظهري. ما رأيك؟».

«أعتقد أنّه سيبدو رائعًا». أجابت فلورا وهي تأمل ألا تلاحظ أوريليا احمرار وجهها من عقدة الذنب، وقد أحسّت بامتداده إلى رقبتها مثل طفح جلدي. «هل يمكنك استدعاء جينكينز؟ على ما يبدو، ستكون خادمتي الخاصة، وهي هدية من والدّة آرتشي لمناسبة الزفاف. لست واثقة من أنها ستروقني، لكنّها بارعة في تصفيف الشعر. بعد ذلك، عليك أن تذهبي لتتأنقي لكي تبدي جميلة. أنا واثقة من أن فريدي سيدعوك إلى الرقص هذه الليلة أكثر من مرّة».

خرجت فلورا تبحث عن جينكينز، ثمّ تزيّنت من دون مساعدة أحد، ولم يعن ذلك أنّها اهتمّت لإصلاح مظهرها في تلك الليلة. على الرغم من احتجاجها أمام أوريليا، لكن كان صحيحًا أن فريدي سوامز طاردها بثبات في الشهرين الماضيين. وعلى الرغم من أن معظم نساء المجتمع اللندني كنّ يطلن في مدح وسامته، لكن فلورا كانت تجده متعجرفًا واعتقدت أنه شاب مملّ، كما بدا لها في مناسبات كثيرة التقت فيه، وكان فيها ثملًا. أما إن كان لديه عقل، فهي لم تطلع على مكائده.

مع ذلك، بدا مفتونًا بها، لذلك لم يكن مجتمع لندن ليتفاجأ لو أعلنت خطوبتهما...

عندما دخلت القاعة الكبرى بعد دقائق قليلة، رأت أن الطاولات قد أزيلت وأن الكراسي قد دُفعت إلى الأطراف لإفساح المجال للرقص.

«هدوء من فضلكم، أفسحوا المجال للعروس والعريس! السيّد والسيدة قُوغان».

راحت فلورا تراقب آرتشي وهو يقود أوريليا إلى حلبة الرقص وسط جولة من التصفيق. وعندما لفّ ذراعًا حول خصر زوجته لتأدية الرقصة الأولى وفق العادات، انطلقت الأوركسترا بعزفها. ثمّ بدأت الحلبة التي عبقت برائحة العطور الفاخرة، تمتلئ بالأزواج وباقي الحاضرين، فتحولت إلى قوس قزح يدور حول نفسه، من ألوان الفساتين الجميلة.

«هل لي شرف أن أراقصك الرقصة الأولى؟».

قفزت فلورا من مكانها عندما شعرت بذراع ثقيلة تحطّ على كتفها، وعندما نظرت إلى أعلى رأت عيني فريدي سوامز الزجاجيتين.

«مساء الخير لورد سوامز».

«أفترض أنك تشعرين بأنّ نصيبك هو أن تكوني دائماً وصيفة شرف، وليس العروس نفسها، أليس كذلك يا آنسة ماك نيكول؟». أمسك يدها لتنهض وقادها بشكل غير مستقر إلى حلبة الرقص، ثمّ همس في أذنها: «عليّ الاعتراف أنّ فستانك هذا أعجبني».

«شكراً لك». أجابت فلورا وهي تدير رأسها جانباً بعد أن فاحت من أنفاسه رائحة كحول كريهة جعلتها تشعر بالغثيان.

«أنت لا تتجنّبينني، أليس كذلك؟ لأنني كلّما بحثت عنك، لا أجذك».

«أنا الإسبينة الرئيسية، لذلك عليّ الاعتناء بأختي».

«بالطبع، عليك بذلك. إذًا لم تكوني أنتِ من رأيته في الحديقة مع العريس، وأنا أبحت عنك في وقت سابق؟».

«كلا...» ابتلعت فلورا ريقها بصعوبة من وقع الصدمة لكنّها جهدت لتحافظ على هدوئها. «كنت في الطبقة العلوية مع أوريليا أساعدها في تغيير فستانها».

«أحقًا؟ حسنًا، حسنًا، كنت على وشك أن أقسم أنها أنت، لكن أيًا كانت تلك السيدة، فما رأيته في الحديقة لا يبشر بالخير بالنسبة إلى زواج أختك».

«لا تقل هذا! فآرتشي وأوريليا مخلصين لبعض! لا بدّ من أنك مخطئ».

«ليس هناك خطأ، لكن ثقي بأنّ السرّ عندي في أمان». أضاف عندما انتهت الرقصة. «لم أعد متعجبًا من كونك بعيدة المنال في الأسابيع القليلة الماضية، يا آنسة ماك نيكول».

«أنت مخطئ تمامًا».

«إذا أثبتت لي أنك لست كذلك بقبولك الزواج بي». قال فريدي وهو يمرّغ وجهه في شعرها عندما بدأت الأوركسترا تعزف ألحان فالس أخرى. «وإلا فلن أصدقك».

ابتلعت فلورا ريقها بصعوبة، ونظرت إلى آرتشي وأوريليا، ثمّ نظرت إلى تعابير فريدي المتعجرفة والمغرورة. لقد رآها، وكلاهما يعرف ذلك. وتسارعت دقات قلبها. إن كانت لديها شكّ حتى الآن في ما عليها فعله، فعليها أن تتحرّر منه؛ إنه عقاب عادل، وعليها أن تقبله.

«نعم أقبل».

«ماذا؟! هل تتزوجين بي؟». تعثر فريدي قليلًا قبل أن ينتصب مجددًا.

«أجل».

«حسنًا، حسنًا، عليّ الاعتراف أنّي لم أتوقع ذلك».

«حقًا، إذا كنت تفعل ذلك فقط لمضايقتي، فمن فضلك أخبرني و...».

«كلا، ليس لمضايقتك»، أجابها بسرعة. افترضت أنّه عليّ الصبر مدّة أطول. وتوقّف فريدي فجأة عن الرقص، ما تسبّب باحتشاد من حولهما، ورفع إصبعه ليربت خدّها فيما بذلت هي قصارى جهدها لكي لا تنتفض. «أنتِ بالفعل الشابة الأكثر غموضًا على الإطلاق، يا آنسة ماك نيكول. لست قادرًا على استنباط ما يجول داخل رأسك. هل أنت واثقة من جدّية قبولك عرضي بالزواج؟».

«نعم، تمامًا».

«هل لي أن أتعجّر وأسأل إذا كان قرارك هذا نابغًا عن مشاعر تكتنئها لي؟».

«وهل هناك سبب آخر؟».

«لا، بالطبع لا». قال ضاحكًا. «حسنًا، ليس معي خاتم لأقدمه إليك الآن».

فجأة بدا على فريدي القلق والتوتر.

«هل نتابع الرقص أم نجلس؟»، سأله فلورا عندما شعرت بأن وقوفهما هكذا في وسط الحلبة قد بدأ يلفت الأنظار.

«فلنرقص. أنا مستمتع جدًا بمناقشة موضوع قراننا على أنغام موسيقى شتراوس. وبالطبع، يجب أن أعرفك إلى والديّ، فهما على علم بنيتي تجاهك».

«وهل سُرّا بها؟».

«هما مهتمّان كثيرًا بالتعرّف إليك، كما هي حال المجتمع اللندني كله منذ أن وصلت إليه. وآمل أن تعجبي بما سيصبح منزلك الجديد. فهو ملكيّة واسعة».

«سمعت بذلك».

«وهل يخيفك ذلك؟».

«هناك أمور كثيرة لا أخافها يا سيّدي».

«لاحظت ذلك، وهذا أكثر ما يثيرني فيك. لكن يبقى سؤال: هل سينجح أحدهم ذات يوم في ترويضك؟».

«من كان ليصدّق أن امرأة «مرؤّضة» قادرة على إثارتك».

ضحك فريدي بقوة لدرجة أنه رمى برأسه إلى الوراء. «يا إلهي، ستشكّلين تحدّيًا بالنسبة إليّ. لكنّه من النوع الذي أتوق إلى قهره».

أحسّت فلورا بأصابعه وهي تشدّها من خصرها وتضغط فوق لحمها.

«سوف نعلن خطوبتنا في أقرب وقت ممكن. كما أنّنا قادرون على فعل ذلك الآن، بالنظر إلى وجود مجتمع لندن هنا في معظمه، في هذه القاعة».

«أجل، هذا ما ينبغي فعله». أجابت فلورا بقصد منع احتمال تهريبها بعد تلك الليلة.

نظر فريدي إليها، وقال: «هل أنت جادة يا آنسة ماك نيكول؟ هل ستشعرين بالارتياح لو أعلنت خطوبتنا الآن؟».

«سواءً فعلت ذلك الآن أم غداً أو في الأسبوع المقبل، لا فرق عندي. لقد طلبت إليّ أن أكون زوجتك، وقبلت». «إدًا، فليكن».

تزامن ذلك مع وصول الأوركسترا إلى نهاية عزفها لرقصة الفالس، فقاد فريدي فلورا عبر الحشد ليتحدث إلى قائد الأوركسترا. ثمّ جذبها إلى جانبه ودعا الحاضرين إلى الانتباه. «سيّداتي، آنساتي، سادتي. لديّ إعلان. لمناسبة زواج شقيقتها من اللورد فوغان، قبلت الآنسة فلورا ماك نيكول أن تكون زوجتي».

وقبل فريدي يدها، فعلت الشهقات بشكل واضح بين المتفرّجين، تلتها موجة من التصفيق. وفي الحال، سارت أوريليا نحوهما، وقالت بكل سرور: «كنت أعرف ذلك!».

«إدًا، نتطلّع إلى رؤيتكما في سيلبورن بارك، حيث سنقيم حفل زفافنا في الربيع». قال فريدي بعد أن أشار بيده إلى الخادم ليحضر له كأسًا من الشمبانيا. «نخب خطيبتيّ!»، تابع وهو يرفع كأسه ليشرب النخب. فسارع الحاضرون إلى البحث عن كأس ليشربوا نخبهما.

ظهر آرتشي أمامهما بعد أن جرّته أوريليا إلى المقدّمة. فلفت انتباه فلورا نظره المباشر إليها قبل أن يلتفت مجدّدًا إلى مدعوّيه. «كانت أمسية رائعة. وهما هي تزداد روعة بعد إعلان خطوبة أخت زوجتي العزيزة. نخب فريدي وفلورا!». «نخب فريدي وفلورا!!»، ردّد الضيوف من بعده.

أشار آرتشي إلى الأوركسترا لكي تواصل عزفها، فوجدت فلورا نفسها محاطة بالمهتّئين، ومنهم والدتها ووالدها.

«يا إلهي»، قالت روز وهي تقبّلها. «لم أتوقع يومًا مثل هذا الأمر. كانت السيدة كييل على حق. فكرة إرسالك إليها في لندن كانت ممتازة. والآن ستصبحين فيسكونتيسة. عزيزتي فلورا، أنت تستحقّين هذا وأكثر».

فتعانقت الأم وابنتها. وما إن تراجعت روز قليلاً حتى رأت فلورا عينيها تمتلآن بالدموع.

«من فضلك يا أمي، لا تبكي».

«سامحيني لأنني قللت من شأنك. أتمنى أن تغفري لي يوماً».

«أغفر لك ماذا يا أمي؟».

«لا شيء». سارعت روز في الرد. «كل ما أريدك أن تعرفيه هذه الليلة هو أنني فخورة بك مثل أي أم».

ها هي والدتها تتحدث إليها بالألغاز، لكن انبهارها منعها من محاولة حلها. «شكراً لك يا أمي».

ثم حان دور والدها الذي احتضنها بإيجاز، وبدأ مثل العادة محرّجاً من إظهار مودّته. «أحسنت يا فلورا، أحسنت يا عزيزتي».

ثم جاء دور آرتشي الذي وقف في الطابور لتهنئتها.

«مبروك يا أخت زوجتي العزيزة».

«شكراً لك». أجابت فلورا وهي تحسّ بشلل من الخوف. وابتعد آرتشي من دون أن ينظر إليها مرّة أخرى.



«إذن، تعودين إليّ فتاة مخطوبة؟»، قالت السيدة كيبييل وهي تحتضن فلورا في أثناء دخولها الصالون في اليوم التالي. «أجل».

«وهل أنت سعيدة؟ ففي النهاية، فليكونت سوامز يعدّ فريسة في لندن هذه الأيام».

«سعيدة جداً».

«ضعي الصينية هناك»، أمرت السيدة كيبييل مابيل قبل أن تلتفت مجدّداً إلى

فلورا. «ضعي الكرسيّ جنب النار واجلسي وأخبريني بالتفاصيل. هل كان رومانسيًا على نحو يائس وهو يعرض عليك الزواج؟».

«نعم، على ما أعتقد. لقد عرض عليّ الزواج فيما كنّا نرقص القالس».

«في حفل زفاف أختك! آه يا فلورا، أنا سعيدة جدًا لك».

«يرسل إليك والداي كامل حبّهما وامتنانهما».

«يؤسفني أنّا لن نراهم في عيد الميلاد. فكما تعرفين سوف نذهب إلى كريشيل. هل قررت الانضمام إلينا أم بعد؟ أعرف أن أختك دعتك للبقاء في هاي ويلد».

«أودّ مرافقتكم إلى كريشيل، يا سيدة كيبييل. سبق أن قلت لفريدي، وأخبرني بأنّ ملكيّة عائلته قريبة جدًا في نيو فورست».

«نعم، هي كذلك. وربّما ينضمّ هو ووالده إلى الرجال في صيد بوكسينغ داي، حينئذ يمكنني أن أقدمك إلى والدته الكونتيسة. حسنًا، لقد سوّي الأمر. وسيكون من دواعي سرور آل ألينغتون أن يستضيفوك».

«شكرًا لك، وأنا مسرورة لذلك».

ثم نظرت إليها السيدة كيبييل، وقالت: «لكنّك لا تبدين لي كما يُفترض أن تبدو فتاة خُطبت لتوّها».

«وكيف يُفترض أن أبدو؟».

«سعيدة. كما أنّني أعترف لك أنّني فوجئت بسماع خبر خطوبتك. كنت أعلم أن فيكونت سوامز مولع بك، لكن...».

«أنا سعيدة». قاطعتها فلورا، «وسعيدة جدًا أيضًا. كما أودّ أن أشكرك على كلّ ما فعلته من أجلي لجعل هذا الوضع ممكنًا».

«يا فتاتي الجميلة، ببساطة أنت الوحيدة هنا المسؤولة عمّا حدث. إذًا، ستقابلين والدَي فريدي؟».

«أعتقد أنّه سيجري ترتيب شيء من هذا القبيل».

«على الرغم من نسبهم العريق، وسمعتهم النظيفة، واسم عائلتهم الذي تعود جذوره إلى تاريخ بريطانيا القديم، لكنهم أناس... غير عاديين. فالإيرل صادق وصريح في مجلس اللوردات. وأنا معجبة كثيرًا بدأني، ستكتشفين بنفسك كم هي رائعة. كما أن ماضيها مثير». ورفعت السيدة كييل فنجان الشاي في وجه فلورا وابتسمت لها. «أفترض أنك ستبقيين هنا حتى موعد الزفاف؟».

«لم تشر أُمِّي إلى خلاف ذلك».

«إذن، عليّ مراسلتها لأعرف منها إذا كان باستطاعتنا تنظيم حفل الخطوبة هنا. أنا واثقة من أن جميع أصدقائنا سيرغبون في الحضور».

شاهدت فلورا وجه السيدة كييل وهو يشعّ بالبهجة وهي تفكر في الموضوع. وراحت تتساءل إذا ما كانت ستجد السعادة هي أيضًا، عندما ستقوم بدور القيسكونتييسة في المستقبل، حين تنظّم المناسبات الاجتماعية. إلا أن الشك ساورها.

«هل تعذريني يا سيدة كييل؟ خلدت إلى النوم في ساعة متأخرة البارحة، وأشعر بالتعب بعد كل تلك الإثارة».

«بالطبع. هل سينشر والداك إعلانًا في صحيفة التايمز أم أفعل ذلك؟».

«لم نناقش ذلك».

«حسنًا، سأذكر هذا أيضًا في الرسالة التي سأرسلها إلى والدتك. سنراك على العشاء. أنا واثقة من أن جورج وباقي الضيوف سيرغبون في تهنيتك شخصيًا».

غادرت فلورا الصالون لتصعد إلى غرفتها وهي تشعر بالإرهاق. إعلان خطوبة يعني مزيدًا من الحفلات... فتمنّت لو ينتهي الأمر بسرعة وتنتهي من كل هذا. فضلًا عن أنها لم تُقدّم في البلاط، لم يكن لديها مهر، فوالداها كانا عاجزين عن تحمّل تكاليفه. فكيف لها أن تصبح قيسكونتييسة؟

«كان پانثر يبحث عنك».

ظهرت فيوليت مثل الشبح في القاعة المضاءة بقنديل غاز في أعلى الدرج، وكانت تدسّ القط داخل ذراعيها.

«شكرًا لك على الاعتناء به يا فيوليت».

«لا داعي لشكري. يبدو أنه معجب بي. تقول أمي إنك خُطبت لفيكونت سوامز؟».

«أجل».

«أعترف أن الخبر أدهشني».

«لماذا؟».

«لا أقصد أن أكون وقحة بشأن الرجل الذي ترغبين في الارتباط به، لكن كلما كنت ألتقي به هنا، كان يبدو ثملًا. كما أنك إذا تحدثت إليه، لن يفوتك أنه غبي في الواقع. في حين أنك لست كذلك».

«لطف منك أن تقولي هذا. لكن ثقي بأنني لا أخطئ في ما أفعله».

«هل أنت خائفة من أن تبقي عانسًا؟».

«لا، لأنني أريد فعلًا الزواج بفريدي».

«حسنًا إذن بالتوفيق، لكنك لن تجعليني أذعن لقواعد المجتمع».

أعادت فيوليت بانثر إلى صاحبته، وأكملت طريقها إلى الحضانة الليلية.

«لا يا فيوليت، أنا واثقة من أنه لن يحصل». تنهّدت فلورا وهي تراقب الفتاة تذهب بعيدًا، ثم أغلقت باب الغرفة خلفها. وراحت تمسّد قطّها الذي لم يتوقّف عن الخرخرة، وقد بدا اليأس واضحًا على وجهها.

ما حصل قد حصل، ولم يعد لديها الحق في الإنصات إلى قلبها بعد الآن.



غادرت فلورا لندن برفقة عائلة كييل عشية عيد الميلاد. وبعد ساعات، وصلوا إلى كريشيل هاوس في دورست. كان المكان واسعًا، وهو عبارة عن مبنى كبير من الحجر البيج الباهت، مصمم وفق الطراز الجورجي، بحيث تبدو ملكية إستويت صغيرة مقارنة به. واستقبلتهم داخل القاعة شجرة عيد ضخمة متألّقة، أشعل شموعها الخدمُ بحلول الغسق.

«يا إلهي، سأحتاج إلى خريطة للعثور على غرفة نومي». علّقت فلورا أمام السيدة كيبييل عندما اجتمع الثلاثون مدعوًا لاحتساء الشراب في غرفة الرسم المترفة قبل العشاء.

«يا عزيزتي، إذا اعتبرت هذا المنزل كبيرًا، انتظري حتى تري سيلبورن بارك». عند بزوغ الفجر في يوم عيد الميلاد، سار المحتفلون إلى الكنيسة، التي وجدت فلورا موقعها ملائمًا، وفي الوقت نفسه غريبًا، داخل الحديقة. تلت جولة الكنيسة جولة أخرى مترفة من تبادل الهدايا. فلاحظت فلورا أن النساء كنّ يتلقين، دبابيس رائعة التصميم أو تماثيل صغيرة لحيوانات مختلفة أو لزهور أو أشجار. وأخبرتها السيدة كيبييل بأنها كلّها من صنع فابريجيه.

«وهذه لك». قالت السيدة كيبييل وهي تقدّم إلى فلورا صندوقًا ملفوفًا بلباقة ورقيّ. «إنّها من صديقك بيرتي». همست في أذنها. «إنه يتمنى لك عيد ميلاد مجيد. افتحيه».

فتحت فلورا الصندوق، ووجدت قطعًا صغيرًا مصنوعًا من العقيق الأسود وعيون كهرمانية. وعندما نظرت عن كثب، لاحظت الأحجار الصغيرة شبه الكريمة. «إنّه بانثر!»، صاحت فلورا وهي تقرأ اسمه المحفور على الحامل المعدني. فحشقتة.

«طلب صنعه خصيصًا لك». أضافت السيدة كيبييل فيما كانت فلورا تفرك التمثال.

وصل فريدي مع والديه إلى هناك في اليوم الذي انطلق فيه بوكسينغ داي. وعلى الفور، انضم الأب والابن إلى حاملي الأسلحة في الملكية، بينما اصطحبت السيدة كيبييل فلورا والكونتيسة إلى غرفة الصباح لتتعارفا.

«تعالى واجلسي إلى جانبي يا عزيزتي. ومن فضلك، ناديني دافني، وآمل أن تسمح لي بمناداتك فلورا».

«بالطبع». قالت فلورا وهي تحشر نفسها بجانب امرأة كانت أكبر حجمًا منها بكثير على الأريكة الصغيرة.

«سأعثر على خادمة لتحضر لنا المرطبات». قالت السيدة كيبييل وهي تغادر الغرفة.

«آه منك، يا عزيزتي آليس، أنت كعادتك متحفظة ولطيفة. والآن يا عزيزتي فلورا، لا يمكنك تخيل مدى ارتياحي كون فريدي قد اختار أخيراً عروسه. أنا متأكدة من أنك على علم بطباعه المندفعة، وأعلم أنك ستفعلين ما بوسعك لتروّضيه. كان بحاجة إلى امرأة غير عادية لها ماضٍ غريب، وأشعر بأنك مناسبة تمامًا لهذه المهمة». «أنا... شكرًا لك».

«نحن أيضًا عائلة غير عادية، لكن مرة أخرى كل عائلة لديها ما تخفيه خلف أبوابها المغلقة؟»، قالت الكونتيسة وهي تغمز فلورا. «بالطبع، كان علينا أن نقنع الإيرل إلى أن قبل أخيرًا. ففي النهاية، لا يمكن المرء أن يطمح إلى نسل أفضل من هذا، أليس كذلك؟». وكتمت دافني ضحكتها وهي تربت على ركة فلورا. «أنت بالفعل شابة وجذابة». وواصلت الكونتيسة تفحصها فلورا من خلال نظارتها التي علقتها بسلسلة حول رقبتها السميكة. واستطاعت فلورا رؤية الطبقة السميكة من المسحوق الذي يغطي وجه المرأة المشرق. أما اللون الذي كانت تضعه على خديها وشفتيها فذكرها بإحدى شخصيات شيريدان من المسرح الجورجي الهزلي. «قبل أن تغادر غدًا، علينا أن نرتب موعدًا لكي تزوري سيلبورن، ربّما في عطلة نهاية الأسبوع الثالث من كانون الثاني؟ يا له من شهر موحش، أليس كذلك؟».

في ذلك المساء، تناقشت فلورا ودافني على العشاء في المواعيد المحتملة للزفاف.

«حسنًا يا أمي»، قال فريدي وهو يضغط على فخذ فلورا تحت الطاولة، «لو الأمر لي لتزوّجت في الحال لأنني عاجز عن الانتظار أكثر». «هل لديك تفضيلات يا فلورا؟».

«فلنقل حزيран؟». اقترحت فلورا بحياد.

«في رأيي، غالبًا ما شعرت أن حفلات الزفاف في حزيран مبتذلة». أجابت دافني. «أفضل شهر أيار، فهو أكثر انتعاشًا. هل نتفق على ثاني يوم جمعة من أيار المقبل؟ سيكون الطقس جميلًا في بداية الموسم».

«كما تريدن يا دافني». أجابت فلورا وهي تخفض عينيها.

«إِذَا اتَّفَقْنَا! سأرسل الدعوات للطبع في متجر السيد سميثسون في شارع بوند. وهم لن يوزعوها على المدعوين إلا قبل ستة أسابيع من الموعد، لكننا سنخبر كل من يحتاج إلى معرفة الموعد مسبقاً في أقرب وقت ممكن. هل تفضلين لون الكريم أم الأبيض؟».

«لم يبقَ إلا القليل يا فتاتي العزيزة». همس فريدي في أذنها فيما نهض لينضم إلى باقي الرجال من أجل تناول كأس براندي وتدخين سيجار. «لا يسعني انتظار ليلة زفافنا. أين تريدن أن نقضي شهر العسل؟ لديّ أصدقاء في البندقية، أو ربّما نذهب إلى جنوب فرنسا؟ في الواقع، انسي الأمر، سنخطط لجولة بعيدة تدوم الصيف كله!».

وكما هي الحال مع والدته، كانت كل فكرة تطرحها فلورا تُقابل بتغافل لبق. من الواضح أن تلك العائلة كانت معتادة إتمام الأمور بطريقتها الخاصة. ومع ذلك، ففيما كانت تعبر ممرات كريشيل الطويلة إلى غرفة نومها، شعرت فلورا بالارتياح كونها ليست في هاي ويلد، إذ لم تكن مضطرة هنا إلى معاناة رؤية آرتشي وأوريليا اللذين عادا حديثاً من شهر العسل.

27

انتهى شهر كانون الثاني في المدينة، تحت ملاءة من الصقيع، والثلج، والأحوال، لا تشبه الصفائح الناصعة البياض التي تغطي المنحدرات والمرتفعات في منطقة البحيرات. ولم يكن لدى فلورا إلا القليل من الوقت لتفكر في ماضيها أو في مستقبلها. إذ كانت أيامها حافلة بإجراء الترتيبات واتخاذ القرارات المتعلقة بزواجها الوشيك، أو على نحو أدق، بالموافقة على كل ما كانت تقترحه حماتها. وعندما لم تكن تفكر في قوائم الطعام، ولوائح المدعوين، ومخططات الجلوس، كانت تذهب إلى الخياطة لتجربة فستان زفافها وجهازها كله. وكتبت السيدة كيبييل إلى والدي فلورا لتخبرهما أنها ستقدم إليها خزانة ملابس جديدة كهدية زفاف. وعندما احتجّت فلورا ووالدتها على ذلك الكرم، لوحت السيدة كيبييل بمعصمها في حركة سريعة وخفيفة.

«هذا أقل ما تستحقينه في الأوضاع الراهنة. اطمئني، فإنّ ذلك لن يجعلني فقيرة. لا يمكننا أن نسمح لزوجة فيكونت الجديدة أن تبدو مبتذلة بعد الآن، كيف سنسمح بذلك؟»، وابتسمت فيما كانت الآنسة دريبر تعدّل قبعة مزينة بريش نعام بالغ في طوله، فوق رأس فلورا الحائر. «سنحوّلك من سندريلا إلى أميرة حقيقية كما أنت عليه في الواقع».

سافرت فلورا إلى هامبشاير لزيارة سيلبورن بارك في كانون الثاني، وقد شعرت بالانبهار أمام فخامة الملكية. بدت في نظرها بحجم قصر باكنغهام، ولكن سبق للكونتيسة أن أشارت إلى أن سيلبورن هي أقدم بكثير من المقر الملكي «الذي بُني حديثاً». وفيما اقتيدت فلورا إلى قاعة المدخل الواسعة ذات الأرضية الرخامية تحت أنظار خدم يقظين وقفوا على الجانبين ليستقبلوها، راحت تتساءل كيف ستتعلم ذات يوم إدارة هذا الجيش من الخدم.

«لا تقلقي يا فلورا». قالت دافني عند دخولهما غرفة الرسم التي كانت بحجم ملعب تنس. «لن أتخلّى عنك لسنوات عدة. أنت بلا شك شابة ذكية، وسوف تتعلمين مثلما فعلت أنا عندما تزوجت ألجيرنون».

كان العشاء في ذلك المساء مسألة مختلفة، إذ خيم التوتر بسبب تدمر الإبرل من طبق حساء السلحفاة الذي قُدّم إليه، ومن أحدث جلبه حصلت داخل مجلس اللوردات، فيما كانت ידי فريدي تحاولان الوصول إلى فلورا أسفل الطاولة مثل أخطبوط فاسق. وفي هذه الأثناء، كانت فلورا قد بدأت تشعر بدفء متزايد تجاه دافني. ففيما كانت الكونتيسة قد بلغت بلا شك منتصف العمر، حاولت فلورا تخيل الشابة الحسنة الثائرة التي كانت عليها عندما هربت، كما تفيد الشائعات، إلى غريتنا غرين مع «رجل غير مناسب». فسحبته عائلتها من شعرها إلى هامبشاير، على الرغم من تمردها وصراخها، وأجبرتها على الزواج من الإبرل.

ثم وُضع طبق من هلام الباناشي أمام كلّ منهم، فراقبت فلورا ألجيرنون وهو يضع الملعقة في فمه المنكمش.

«إذا وافق ذاك الأسكويث اللعين على مشروع القانون هذا...».

«آه اسكت يا ألجي، ليس على المائدة!»، صاحت به دافني قبل أن تلتفت إلى فلورا لتطلق في وجهها تنهيدة تدلّ على مدى إرهاقها. «دعونا نتحدث في موضوعات مثيرة. قائمة المدعوّين أحرزت تقدّمًا بشكل رائع، وإن كان يؤسفني القول إن جدّيك ردّا الدعوة...».

«جدّي؟»، قالت فلورا التي كانت معتادة حجم أسرتها الصغير لدرجة أنّها نسيت تقريبًا أنّه كان لديها جدّين.

«نعم، أهل والدتك، عائلة بوشان».

«لو كان الأمر لي»، همس فريدي في أذنها، فيما كانت يده تمسّد تنورتها من فوق إلى تحت، «لهربنا الليلة».



في صباح يوم كئيب من شباط في ميدان پورتمان، وكان قد مرّ يومان فقط على

عيد ميلادها العشرين الذي أقيم لمناسبته عشاء ضخم، سمعت فلورا طرقًا على باب غرفتها، لتدخل بعد ذلك الآنسة دريير. «آنسة فلورا، السيدة كييل تنتظرك في صالونها».

فشقت فلورا طريقها إلى الطبقة السفلية، كما أمرت. «عزيزتي فلورا، أشعر بأننا بالكاد رأينا بعضنا في الأسابيع القليلة الماضية». قالت السيدة كييل وهي تستدير لتلقي التحية عليها. ولاحظت فلورا شحوب وجهها وتعابيرها المتوترة تحت ابتسامتها المشرقة والدافئة.

«كنت منشغلة كثيرًا في تحضيرات الزواج».

«أخشى أن التحضيرات مرهقة أكثر من الزواج نفسه. اجلسي من فضلك، وأخبريني بالتفصيل كيف تسير الترتيبات».

وأخبرت فلورا السيدة كييل بالحقائق والأرقام عن تحضيرات الزواج فيما كانت السيدة كييل تومئ لها بالموافقة.

«سيكون بلا شك حدث الموسم. سأشعر بالفخر مثل أي أم، عندما ستمشين على طول الممر باتجاه عريسك. والآن يا فلورا، لدي ما أقترحه عليك؛ كنت أتساءل إذا ما كان ممكنًا أن أصطحبك معي بضعة أيام في الشهر المقبل إلى بياريتز؟ سنذهب أنا وقيوليت وسونيا في رحلتنا السنوية إلى هناك، وسنقيم عند السيد كاسيل في فيلا أوجيني. وسيكون الملك موجودًا أيضًا في المدينة في «هوتيل دو پاليه». أعتقد أنك ستشعرين مجددًا بالانتعاش بعد أن طال فصل الشتاء هنا في لندن. كما أن هواء البحر سيضيف بعض اللون إلى خديك قبل الزفاف».

«شكرًا لك، لكنني أشك في أن الكونتيسة ستسر إذا خرجت في إجازة قبل أسابيع قليلة فقط من زفافي. بالطبع، لن أكون قادرة على تركها وحدها في حين أنه ما يزال هناك الكثير لفعله».

«آه لا تأبهي لهذا، فهي تحب الاهتمام بنفسها. فضلًا عن ذلك، سبق أن حصلت على مباركتها، ومباركة فريدي أيضًا».

«فهمت». لم تكن تلك المرة الأولى التي تشعر فيها فلورا بأن حياتها ليست

ملكها، وبأنّ عليها أن تنحني أمام أمنيات راعيتها. «إذًا، كما سبق وتقرّر، سأكون سعيدة بالذهاب معك».

«هذا رائع! إذًا لقد سوّي الأمر. أنا متأكّدة من أن فيوليت وسونيا ستسرّان بمجيئك. تعرفين كم تعشقانك. وبيرتي أيضًا سيكون سعيدًا. مسكين بيرتي، أنا قلقة عليه. فهو يمرّ بفترة مروعة بسبب الضغط الذي تمارسه عليه حكومته فيما ما يزال يعاني من صحّته. أنا...».

ورأت فلورا الدمع يلمع في عيني السيدة كييل. كانت تلك أوّل مرّة تلمس فيهما ضعفًا.

«أنا قلقة عليه». قالت في النهاية. وبعد أن هدأت قليلًا، نجحت في رسم ابتسامة واهنة على شفّتها. «كان شتاءً طويلًا وباردًا هذا العام، وجميعنا اكتأبنا بقدر كآبة السماء في الخارج. لكنّ الربيع آتٍ، وأنا أعرف أنّك ستحبّين بياريتز. والآن، أخبريني عن فريدي».



كما وعدتها السيدة كييل، باركت دافني رحلتها إلى بياريتز، وقد قالت لها في آخر زيارة لها إلى ميدان پورتمان:

«بالطبع عليك أن تذهبي. فقليل من هواء البحر والرفقة الطيبة سيضيفان رونقًا إلى وجهك من أجل الزفاف. ومن يعلم؟ قد نضطر إلى تغيير مخطط الجلوس لنستضيف ضيفًا آخر. حينئذ سنحتاج إلى مقعد كبير وواسع». وضحكت دافني من نكتتها.

أيّد فريدي الرحلة أيضًا. «على المرء أن ينحني أمام القضايا السامية». قال لها وهو يقبل يدها، في أثناء استعداداته للمغادرة برفقة والديه، إلى منزل السيّد والسيدة دارلينغتون اللذين استضافاهم على العشاء. «في الثالث عشر من أيار، ستصبحين لي وحدي». أضاف وهو يلقي نظرة مطوّلة إلى نهديها.



ساعدت فلورا الفتاتين في حزم أمتعتهما استعدادًا للرحلة. فقد كانتا ستغادران قبل الرحلة المزمعة ببضعة أيام لتمكثا أسبوعًا في باريس قبل الانتقال إلى بياريتز. وكانت ستنضم إليهما في ما بعد في فيلا أوجيني، حيث سينزلن ضيوفًا عند السير إرنست كاسيل، الذي كان زائرًا منتظمًا عند السيدة كييل. وكما أبلغتها ناني، هو مدير المستشارين الماليين للملك نفسه.

كان لكل من ابنتي كييل صندوق كبير، إضافة إلى سلال لتتسع فيها خزائنها وأغراضهما الشخصية. فبدت الصورة كأنهما ستغيبان ستة أشهر، وليس شهرًا واحدًا. «هل تعتقدين أن پانثر قادر على الاختباء داخل سلتي كما فعل معك عندما غادرت للمجيء إلى لندن؟»، سألت فيوليت.

«أعتقد أن عليه أن يقرّر ذلك بنفسه. يمكنك أن تتركي غطاء السلة مفتوحًا هذه الليلة، وسنرى ماذا سيحدث؟».

«أجل». وغرقت فيوليت في سريرها فيما ارتسمت على وجهها ملامح الكآبة. «لو أخذ معي على الأقل، شيئًا أحبه».

«لديك ناني، وأختك، وأمك يا فيوليت. فأنت بالتأكيد تحبينهن؟».

«بالطبع أحبنّ، لكنهنّ أفراد عائلتي. وهنّ... لسن لي». وبدأت كتفا فيوليت ترتعشان، ثمّ سألت دموعها على خديها في صمت.

«ما الأمر بحق السماء؟»، سألتها فلورا وهي تقترب منها لتجلس إلى جانبها.

«لا شيء... وكلّ شيء... آه يا فلورا! إنني أحبّها كثيرًا...».

«من؟».

«ميتيا، بالطبع! لكن روزاموند تريدها لنفسها هي أيضًا، وفي أثناء غيابي ستبذل قصارى جهدها لتسرقها مني. بالكاد أستطيع تحمّل ذلك!».

تبع ذلك مزيد من الدموع، فيما راحت فلورا تبحث في ذاكرتها عمّن يمكن أن تكون «ميتيا». وبالتأكيد شعرت بالتعاطف مع محنة فيوليت.

«وهل تبادلك ميتيا الحب؟».

«بالطبع تحبّني! لكنها لم تدرك ذلك بعد».

«ربّما ابتعادك عنها سيكون مفيدًا. ففي بعض الأحيان، هذا ما يحصل».

«هل تعتقدين ذلك؟»، نظرت فيوليت إليها فيما تعرّت عيناها لتكشف عن يأسها.

«نعم، على ما أعتقد».

«لأنني كما ترين، لا أستطيع أن أكون سعيدة من دونها».

«أفهمك تمامًا يا فيوليت».

«أعرف أنك تفهميني، وأنا سعيدة جدًّا لمجيئك معنا إلى بياريتز».

عندما تسلّلت فلورا إلى السرير في تلك الليلة، استخلصت أن ميتيا هو اسم الدلع الذي أطلقته فيوليت على فيتا ساكفيل ويست، الفتاة ذات الوجه الشاحب التي انضمت إليهم ذات مرة على الغداء. وراحت تفكّر في هوس فيوليت بصديقتها. كانت تعرف أن الافتتان بفتيات أخريات كان أمرًا شائعًا نسبيًّا، لكن فيوليت في الخامسة عشرة من عمرها وفيّتا تكبرها بسنتين. وتساءلت عمّا إذا كان أحد غيرها في تلك الأسرة المنشغلة دائمًا على علم بالموضوع. فمن المؤكد أن السيدة كيبييل منشغلة جدًّا بأوضاعها الخاصة لتلاحظ الأمر، لذلك فكّرت فلورا إذا ما كان عليها أن تذكر الأمر لناني. لكنّه لم يكن من الموضوعات التي يمكن المرء أن يناقشها مع عانس إسكتلندية بلغت منتصف العمر.



في اليوم التالي، شاهدت فلورا تحميل الشاحنة أمام المنزل، بخزانات الملابس المرصّعة، التي غطّت طولها تقريبًا. اكتظّط الشاحنة بعشرات القبعات وعلب الأحذية وبحقيبة المجوهرات المخصصة للسفر لتغادر بها إلى محطة فيكتوريا. ووقف ساعي القصر في صمت عند القاعة الأمامية، وذراعاها تتقاطعان فوق زِيّه الرسمي، تأهّب حين خرجت السيدة كيبييل برفقة الفتيات ليغادرن إلى محطة القارب الذي كان سينطلق إلى دوفر.

«عزيزتي فلورا، نراك في بياريتز. موازيل ستراففك إلى هناك من أجل حمايتك».

«نعم يا سيدة كييل، أتمنى لك وقتًا ممتعًا». قالت لها فلورا إذ كانت قادرة على رؤية الإثارة التي تشعر بها راعيتها.

«شكرًا لك. هيا بنا يا فتيات، من الأفضل ألا نؤخر انطلاق القطار».

«وداعًا يا فلورا، نراك في الأسبوع القادم». قالت سونيا التي بدت ظريفة بمعطفها الوردي الجديد المخصص للسفر. «أنا حزينة لأنني لا أستطيع أن أريك عربتنا الخاصة بنا وحدنا، والتي تتضمن كراسٍ وطاولات وباقي الأمور. هل تعرفين أنهم، في فرنسا، يعاملون أمي كأنها ملكة إنكلترا».



بعد أسبوع، وصلت فلورا وموازيل إلى بياريتز. كانت الرحلة طويلة عبر القناة إلى كاليه، وبعد ذلك كان عليهما أن يستقلا القطار نزولاً إلى جنوب غرب فرنسا. وكانت فلورا تشعر بالإرهاق.

«مرحبًا بكما في بياريتز أيتها الآنستان!».

«شكرًا أيها السيد». قالت موازيل للخادم الذي ساعدهما على النزول من القطار إلى الرصيف. وما إن خرجتا من المحطة، حتى تجهّم وجه فلورا لدى رؤيتها السماء الملبّدة بالغيوم، والتي كانت تُنذر بهطول المطر. ففي جميع اللوحات الزيتية والصور الفوتوغرافية التي رأتها لجنوب فرنسا، كانت الشمس مشرقة دائمًا. أما اليوم، فهي تشبه إنكلترا.

«لسنا بعيدين من فيلا أوجيني». قال الخادم وهو يساعدتهما على الجلوس على المقعد الخلفي لسيارة رولز رويس رائعة، قبل أن يتخذ مكانه بجانب السائق. ونظرت فلورا عبر النافذة فشعرت بالبهجة لمجرد التفكير أنها قادرة على رؤية المحيط الأطلسي. إذ نادرًا ما كانت تخرج إلى الشاطئ، وبالتأكيد لم تفعل ذلك منذ أن كانت طفلة. وساروا عبر المدينة الهادئة، حيث كانت المتنزهات الواسعة هادئة، ربّما بسبب سوء الأحوال الجوية. وراحت تتأمل أشجار الطرفاء والهورتنسيا

التي نمت أمام البيوت الكريمة والوردية الأنيقة. ثم قوّست رقبتها لتخطف نظرة إلى الواجهة البحرية حيث كانت الأمواج الرغوية تتحطم فوق الرمال.

غادرت سيارة الرولز رويس الشوارع المرصوفة بالحصى في وسط المدينة وبعد ذلك بوقت قصير، انعطفت عند ممر كبير أدى إلى فيلا كبيرة. هناك ساعدهما الخادم على الخروج من السيارة، ورَّحَّب بهما كبير الخدم، وهما تصعدان السلالم إلى أبواب بيضاء كبيرة.

شعرت فلورا كأنها حيوان يُنقل من حديقة حيوانات إلى أخرى. ولحقت بموازيل عبر قاعة فخمة واسعة، ثم إلى أعلى مجموعة من السلالم الواسعة. كان هناك صوت وحيد استطاعت أن تسمعه وهو صوت وقع الأحذية على الأدراج المبلّطة. وما إن فتحت خادمة باب الغرفة، حتى التفّ زوج من الأذرع حول خصرها. «فلورا، أنت هنا!».

«أجل». ابتسمت فلورا وهي تستدير، فاستقبلتها سونيا المبتهجة.

«أنا سعيدة جداً». قالت سونيا وهي تتبع فلورا والخادمة إلى غرفة النوم. كانت النوافذ مفتوحة، ففاحت رائحة هواء البحر المنعشة والمطهرة. وفيما بدأت الخادمة في إفراغ صندوق فلورا راحت سونيا تقفز فوق السرير. «شعرت بملل كبير منذ وصولنا إلى فرنسا. كينغي لا يشعر أنّه بخير. وأمّي تعتني به». «آه! ما خطبه؟».

«تقول أمّي أنّه أصيب بنزلة برد عندما كان في باريس. ومنذ وصوله قبل ليلتين، لم نره هو أو أمّي. لقد علقنا هنا وحدنا». واستلقت سونيا فوق السرير الكبير، الذي صنّع لوحه الرأسي من الحرير الأزرق المغسول، وكان في أعلى كل زاوية منه جوز بلوط مطليّ بالذهب. «هذه المرتبة رائعة». لاحظت سونيا. «هل يمكنني النوم بجانبك هذه الليلة؟».

«بالطبع يمكنك، إذا سمحت لك ناني».

«ناني قلقة لقلق أمّي على كينغي، لدرجة أعتقد أنّها ستسمح لنا بفعل ما يحلو لنا اليوم كله، حتى من دون حتى غسل أيدينا».

ما إن سمعت فلورا تلك الملاحظة، حتى أدركت أن مرض الملك بلغ درجة متقدمة من الخطورة. «هذا منزل جميل، أليس كذلك؟». انضمت فلورا إلى سونيا فوق السرير بعد أن أغلقت الخادمة باب الغرفة.

«أفترض ذلك، لكن المطر هطل بغزارة منذ مجيئنا إلى هنا، ما تسبّب في الكآبة للجميع إلى حدّ ما».

«حسنًا، أنا متحمّسة لمجيئي إلى فرنسا، إذ لم آتِ إلى هنا من قبل».

«في الواقع، هذا المكان ليس مختلفًا كثيرًا». قالت الطفلة الخبيرة البالغة من العمر تسع سنوات. كل ما في الأمر أنّهم يتحدثون لغة مختلفة ويأكلون أشياء غريبة على العشاء، مثل الحلزون.

ثم وصلت ناني تبحث عن أمانتها، وغادرت سونيا الغرفة. بقيت فلورا مستلقية على السرير وهي تشعر بجفنيها يرتخيان. واستيقظت من النوم على طرق حاد على الباب.

«ادخل»، قالت وهي تستوي جالسة.

«آنسة فلورا، لقد تركتك أطول فترة ممكنة».

كانت موازيل. «شكرًا لك، أنا... كم الساعة الآن؟».

«لقد تجاوزت الثالثة. ترغب السيدة كيبييل في أن تنضمّي إليها في «هوتيل دو پاليه» في الخامسة. أردت أن أمنحك بعض الوقت لتستعدّي جيّدًا».

«هل تريدني من أجل العشاء؟».

«لم تقل شيئًا، لكن الملك سينضم إليكما بالتأكيد. سأرسل الخادمة لتساعدك في ارتداء الملابس».

«شكرًا لك».

بعد أن أغلقت فلورا النافذة وأسرعت لإعداد نفسها، شعرت باضطراب في معدتها، وهي تفكّر في أنّها ستتناول العشاء مع الملك. فهي لم تره منذ أن تناولا معًا الشاي في تشرين الأول الماضي.

بعد أن جرى حشوها وزرّكها داخل ثوب من لون الشاي الأخضر الزمردى، اصطُحبت إلى السيارة، ثمّ اقتيدت إلى فندق «هوتيل دو پاليه» المطل على البحر. فبدأ كل جزء من ذلك القصر، بواجهته الحمراء والبيضاء الفخمة ونوافذه الطويلة، اسم على مسمى. وعند المدخل، وجدت في استقبالها، رجل يرتدي ملابس أنيقة.

«آنسة ماك نيكول؟».

«نعم».

«أنا سير آرثر ديفيدسون، وصيف الملك، سأرافقك إلى غرفته».

وقادها سريعاً عبر القاعة الفخمة الموجودة عند مدخل الفندق، إلى الطبقة العلوية عبر المصعد. وهناك خرجا منه إلى رواق واسع فرش بالسجاد الفاخر، وراحا يسيران باتجاه خادم شخصي يرتدي زياً رسمياً ويقف وسط مجموعة من الأبواب المزدوجة.

- «من فضلك، أخبر السيّدة كيبييل أن الآنسة ماك نيكول هنا». قال المرافق.

فأوماً الخادم برأسه وتوارى إلى الداخل. انتظرت فلورا في صمت، إذ لم تكن تعرف كيف تتحدّث إلى وصيف الملك.

«فلورا، عزيزتي!»، ظهرت السيدة كيبييل من خلف الباب المزدوج وعانقتها بعفوية. «ادخلي، ادخلي». تابعت وهي تغلق الباب في وجه الرجل، وتقود فلورا إلى غرفة جلوس كانت مفروشة على نحو رائع، وفيها نوافذ طويلة تعطي إطلالة رائعة على المحيط. «الملك نائم الآن، لكنّه سيستيقظ عندما يحين موعد العشاء. وهو يرغب في تناول الطعام هنا في غرفة الطعام الخاصة بنا. عليّ أن أحذرك من أنه ليس على ما يرام على الإطلاق. أنا...».

وفيما غرقت كلمات السيدة كيبييل في صوتها المروّع، علا سعال عميق داخل الغرفة المجاورة.

«تعالى واجلسي، لنتناول معاً كأس شيري. فأنا أرغب في كأس. سأستمتع حتماً به».

ذهبت السيدة كيبييل إلى مجموعة الدوارق المجهّزة فوق خزانة البوفيه،

وسكبت لكل منهما كأسًا. وبينما كانت تقدّم الكأس إليها، لاحظت فلورا أن يدها ترتعش، وظهور هالات سوداء تحت عينيها.

«ما مدى مرض الملك؟»، غامرت فلورا في السؤال وهي تشعر بالتوتر.

«شعر بالبرد عندما كنّا في باريس. وخلال اليومين الماضيين، أُصيب بالتهاب رهيب في الشعب الهوائية. أنا وطبيبته الدكتور ريد نرعاها الآن. ومع ذلك، أشكر الله على وصول الممرضة فليتش من إنكلترا، فقد سبق أن اهتمت به».

وأفرغت السيدة كيبييل كأسها دفعة بسرعة.

«هل يتحسن؟».

«لنقل إنه على الأقل، لا يزداد سوءًا، على الرغم من أن ذلك الأحمق يرفض مساعدة نفسه. ما زال يصر على مواصلة روتينه بدلًا من البقاء في السرير. كل ما قدرنا عليه هو حبسه في هذه الغرفة». وانبعث سعال آخر محطّم للعظام من الغرفة المجاورة، ما دفع بفلورا إلى احتساء جرعة كبيرة من كأسها هي أيضًا.

«هل أنت واثقة من أن من اللائق أن أكون هنا الآن وهو مريض لتلك الدرجة؟».

«عزيزي، قلت لك إن الملك يرفض الاستسلام لمرضه، وأشكّ في أنه سيرضى بتناول العشاء بمفرده ليلة واحدة في حياته. «الماركيز دي سوفيرال، وهو السفير البرتغالي، سينضمّ إلينا هو أيضًا على العشاء. فبالطبع، لن يرضى الملك عن وجودنا نحن فقط وطبيبته إلى المائدة. عندما أخبرته بوصولك في وقت سابق هذا اليوم، كان حريصًا جدًّا على انضمامك إلينا».

«إدًا، هذا شرف لي».

«المهم، أنه لا يدخن سيجاره اللعين. الدكتور ريد مقتنع أنه سبب إصابته بالشعب الهوائية. ولا أشكّ في أنه سيعاود تدخينه حين يتعافى. ليس بوسعنا أن نفعل شيئًا، فهو الملك في النهاية».

أرادت فلورا أن تعرف لِمَ، فيما الملك مريض لتلك الدرجة، لم تكن الملكة إلى جانب زوجها، لكنها شعرت بأنّ السؤال غير ملائم.

«لا بدّ من أن تكوني مرهقة، إذ لم تنامي طوال اليومين الماضيين». قالت فلورا.

«بالفعل، أنا مرهقة. لقد جالسته طوال الليل، ومسحت له عرقه فيما كانت درجة حرارته مرتفعة. لأكون صادقة معك يا فلورا، مرّت لحظات خشيت فيها على حياته. لكن الآن بعد أن جاءت الممرضة فليتش، أشعر بأنّه أصبح في أيدٍ أمينة». وعلت نوبة سعال أخرى في الغرفة المجاورة. «عفوًا يا فلورا، عليّ الذهاب إليه».

خلال الخمس عشرة دقيقة التي تلت، بقيت أبواب الجناح تنفتح وتنغلق فيما كانت أوعية البخار والكمادات ذات الرائحة الغريبة تعبرها إلى الملك. واختبأت فلورا في أبعد زاوية، بجوار نافذة غرفة الرسم، محاولة التخفي.

أخيرًا، فيما بدأت الشمس تتلاشى في الأفق ولوّنت بأشعتها الغيوم بأحمر وبرتقالي رائعين، ظهرت السيدة كيبييل والدكتور ريد مجددًا في الغرفة، وهما يتحدّثان.

«السؤال هو، هل يجب أن نخبر الملكة؟»، سأل الدكتور ريد.

«سبق أن ذكر الملك أنّه لا يريد أن يخيف زوجته»، قاطعته السيدة كيبييل. «فضلاً عن ذلك، الملكة تمقت بياريتز».

«ربّما، لكنّ الأمر سيبدو مأساويًا لو...»، وعصر الدكتور ريد يديه مرتبكًا. «بطبيعة الحال، يفترض أن يكون في المستشفى الآن، لكنّه لم يسمح لنا بنقله». «لا أعتقد. هل تتخيّل الضجة التي ستحدثها الصحافة لو عرفت بالأمر؟».

«سيّدتي، يوجد الآن عدد من المراسلين في الطبقة السفلية، وهم يسألون لِمَ لا يتنزّه الملك كالمعتاد في المتنزه، ولمَ لا يغادر الفندق لتناول العشاء في الخارج. أشكّ في أنّنا سننجح في منعهم من الاقتراب فترة طويلة». «إذن ماذا تقترح؟».

«سأجالسه هذه الليلة لأراقبه ساعة بساعة. وإذا طلع عليه الصباح وهو ما يزال يعاني من صعوبة في التنفّس... علينا الاتصال بالقصر سواءً أرغب الملك في أن تعرف زوجته وبقية العالم بوعكته أم لا».

سُمع طرق على الباب، فاستدارا، ونهضت فلورا لتردّ.

«فلورا، عزيزتي، نسيت أنك هنا». وعلا خدّي السيدة كيبييل لون وردي باهت، حين أدركت أنها استمعت إلى حديثهما.

دخل الوصيف الجناح. «الخادومات هنا لتجهيز مائدة العشاء للملك».

«أجل، أجل، فليدخلن». تنهدت السيدة كيبييل وهي ترمق فلورا بنظرة يائسة.

«ما زال يصرّ على النهوض من سريره ليتناول العشاء معنا هنا».

غادرت السيدة كيبييل إلى غرفتها الخاصة لتستعدّ للعشاء، واختفى الدكتور ريد داخل غرفة الملك. وبقيت فلورا تشاهد الخادومات الثلاث يفرشن مائدة الطعام بالأطباق الصينية المؤطّرة بالذهب ولوازم المائدة الفضية الثقيلة التي كانت تدفع بدقة لتتخذ مكانها في زوايا دقيقة من كؤوس الكريستال، قبل أن تنسحب الخادومات بهدوء تام مثلما فعلن عندما دخلن.

سرّت فلورا عندما أحسّت بأنّ السعال القادم من الغرفة المجاورة قد خفّ؛ ربّما نام الملك في النهاية. وعندما فتح باب غرفة النوم من جديد، انشغل بال فلورا، فاستدارت حيث توقّعت خروج الدكتور ريد. لكن الملك بنفسه أطلّ من داخل الغرفة. كان يرتدي ملابسه بالكامل ويعاني صعوبة في التنفّس.

«صاحب الجلالة». أسرعّت فلورا لجرّ نفسها في النهوض وانحنّت أمامه وهي تشعر بالإحراج. فشعرت بعينه عليها، وهو يجول بهما عبر غرفة الرسم الواسعة.

«يا للمفاجأة! هذه أنت الآنسة الصغيرة فلورا ماك نيكول». قال وهو يلهث.

«نعم، يا صاحب الجلالة».

«تعالى وساعديني لأجلس على كرسي، هل يمكنك ذلك؟ هربت فيما سجّاني منشغلون في الحمام. لا شك في أنهم يعدّون بعض الكمادات أو الحقن الفظيعة من تلك ذات الرائحة الكريهة».

مشّت فلورا إليه، فسمعت نفسه غير المنتظم فيما كان يتنفّس، وصلت لكي لا يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو برفقتها. ثمّ مدّ لها مرفقه فأمسكته بخجل.

«أين تريد أن تجلس؟»، سألته وهما يتقدّمان ببطء بسبب الألم، عبر الغرفة،

وقد جعله المشي عاجزاً عن الكلام، غير قادر إلا على الإشارة إلى كرسيه المفضل. تطلّب الأمر قوّة فلورا كلها لتتمكّن من دعمه وهو يرمي بكل ثقله فوق الكرسي، ويصارع أكثر في نوبة سعال تحت أنظارها. ثمّ دمعت عيناه واشتدّت وتيرة نفّسه. «هل أناذي الدكتور ريد، يا صاحب الجلالة؟».

«لا!»، همس لها. «اسكبي لي كأس براندي فحسب!».

سارت فلورا إلى صينية الدوارق، متمنّية أن تصيب الملك نوبة سعال أخرى تنبّه الطبيب إلى هروبه من الغرفة. تبعت إصبعه الغليظ وعندما أوماً لها، انتقت أحد الدوارق وسكبت كأساً صغيرة، ثمّ استدارت نحوه. «اسكبي مزيداً».

وبعد أن نفّذت فلورا تعليماته، وملأت الكأس كاملة، عادت بالبراندي إليه وراحت تشاهده وهو يتلعه جرعة واحدة.

«كأساً أخرى». همس لها، فلم يكن أمام فلورا سوى تكرار ما فعلته لتوّها. «والآن»، قال الملك وهو يمرر لها الكأس فارغة. «هذا ما أسميه دواء. صه». ووضع أصبعه المرتجفة على شفتيه فيما كانت فلورا تعيد الكأس إلى الدرج. «اجلسي». وأشار إلى الكرسي الأقرب إليه فانصاعت للأمر.

«إذن يا آنسة ماك نيكول، فلورا.... أجد الاسم مناسباً. أتعرفين أنّه إسكتلندي؟». «نعم يا صاحب الجلالة».

«أمر غريب، أليس كذلك؟».

«ما هو الغريب يا صاحب الجلالة؟».

مرّت بضع ثوان بقي فيها الملك صامتاً قبل أن يواصل كلامه.

«أن أجد نفسي معك. أنا وأنت هنا وحدنا. وأنا في حالة قد تمنعني من رؤية الشمس صباح غد».

«من فضلك يا صاحب الجلالة، لا تقل مثل هذا الأمر!».

«أنا....».

شاهدت فلورا الرجل الجسيم وهو يكافح من أجل استنشاق الهواء فيما كانت الدموع تملأ عينيه.

«لقد ارتكبت العديد من الأخطاء».

«أنا متأكدة من أنك لم تفعل».

«بلى... بلى...».

تلى ذلك لحظة صمت طويلة أخرى.

«أنا مجرد إنسان، كما ترين. وقد أحببت...».

قررت فلورا أن أفضل ما تفعله الآن هو تحاشي النظر إليه فيما يواصل مناجاته المتقطعة.

«... النساء»، تمكن أخيراً من النطق. «ستتزوجين قريباً؟».

«نعم أنا».

«من فيكونت، كما سمعت؟». وابتسم الملك فجأة.

«نعم يا صاحب الجلالة، فريدي سوامز».

«و... هل تحبينه؟».

«أعتقد أنني سأفعل مع الوقت، نعم».

عندئذٍ بدأ الملك يضحك، لكنّه سرعان ما أدرك أنّه غير قادر على ذلك بالنظر إلى حالته، لذلك سيطر على فرحته.

«أنت شجاعة، مثلي. تعالي إلى هنا».

اقتربت فلورا منه وأمسكت يده الممدودة، وسمعت حشجة الموت في صدره.

«لم أكن متأكداً، هل تفهمين».

«من ماذا يا صاحب الجلالة؟».

«ممّا اقترحته عليّ السيدة جورج. يا لها من امرأة ذكية، السيّدة جورج... هي دائماً على حق».

في تلك اللحظة فُتح باب غرفة النوم ودخل عليهما الدكتور ريد تتبعه الممرضة.

«ظننا أنك نائم يا صاحب الجلالة عندما تركناك في الغرفة». ووقعت عينا الدكتور ريد على فلورا في لوم. «أنت تعرف أن أفضل دواء حتى الآن».

«أنت من يقول ذلك». أجابه الملك بسخط. «لكن ماذا عن... الصلبة الممتعة». وغمز الملك فلورا قبل أن يستسلم لنوبة سعال كان يحبسها، ولم يعد قادراً على كبجها. فأحضر له الماء ومزيد من كمادات البخار، وظهرت السيدة كيبييل في ما بعد، وقد بدت منتعشة وهادئة في فستان سهرة مخملي أزرق.

«سيدة جورج، أين كنتِ؟».

«حقاً يا بيرتي، يجب أن تكون في السرير الآن». وبخّته السيدة كيبييل.

«أين سوفرال؟ لقد تأخر على العشاء. وأنا... أتضوّر جوعاً».



غادرت فلورا جناح الفندق بعد ساعتين، عائدة إلى فيلا أوجيني. كان العشاء الذي تحمّله لتوها - وكلمة «تحمّله» كانت الوحيدة التي أمكنها استخدامها هنا - جزءاً من معاناتها الضاغطة. بقي الضيوف يستمعون إلى نفّس الملك الذي كان يزداد صعوبة، متظاهرين أن كل شيء طبيعي، ومع ذلك كانوا خائفين عليه من انهيار وشيك بسبب نوبات السعال المتشنجة التي تجاوزت حدّها. وتناول الملك وفق ما كانت فلورا قادرة على تصنيفه عشاء شخصين على الأقل، واحتسى على الرغم من نظرات الاستياء التي أظهرها بعض ضيوفه، كمية ملحوظة من النبيذ الأحمر.

«سأبقى هنا معه». قالت السيدة كيبييل لفلورا. «أرسلني حبي للفتاتين وأخبريهما بأنني سأراهما عندما تتحسن حالة كينغي».

بعد أن ودّعتا بعضهما، اقتيدت فلورا إلى الطبقة السفلية حيث سيارة الرولز رويس في انتظارها. وبإلقاء رأسها إلى المقعد الجلدي الممتلئ، شعرت بأنّ كامل قواها العقلية والجسدية قد استنزفت من أحداث ذلك اليوم.

لم ترَ فلورا السيدة كيبييل طوال الأيام الثلاثة التالية، ولذلك راحت هي والفتاتان يرقّهن عن أنفسهنّ بالخروج من فيلا أوجيني في نزعات منعشة على طول المتنزه، ثمّ كنّ يعدن إليها لتناول طعام الغداء. وعندما يكون الطقس مشمسًا، كنّ يصرفن وقتهنّ في تصوير ورسم النباتات غير المألوفة التي نمت في حدائق الفيلا.

حتى تلك اللحظة، لم تظهر فيوليت إلّا القليل من الاهتمام برسومها، وكانت تلازم فلورا معظم الوقت. وبالفعل، أظهرت ألوانها المائية المرفهة قدرة حقيقية. لكنّ مزاج الأختين كان متعكّرًا، وقد شكّكتا في ما أفسد عليهما روتينهما المألوف في بياريتز. لم تستطع فلورا إطلاعهما على الحقيقة، لأنّ السيدة كيبييل أخبرتها بوضوح ألا تذكر لهما شيئًا عن خطورة حالة الملك.

واشتكت سونيا: «لِمَ لا نخرج للتنزه مع أمي وكينغي؟ من الممل أن نبقى في الفيلا طوال الوقت، كما أنّني حتى الآن، لم أرَ تدبّ أيّا من فساتيني الجديدة». «لأنّ الطقس رطب جدًّا، وكينغي لا يريد أن يعرّض نفسه لنزلة بردية». «لكن السماء مشمسة اليوم يا فلورا، كما أنّنا لم نرَ أمنا منذ أيام. لا بدّ من أنّها تشعر بالملل أيضًا».

«أنا متأكّدة من أنّنا سنراها قريبًا، وسنرى كينغي أيضًا». أجابت فلورا في محاولة لإقناعهما بما لم تكن تشعر به.

في ذلك المساء، بعد تناولهن العشاء في وقت مبكر، اصطحبت ناني سونيا إلى

الطبقة العلوية لتستحم، وبقيت فيوليت برفقة فلورا، تخربش في دفتر الملاحظات الذي كانت تحمله معها أينما تذهب.

«فلورا؟».

«نعم؟».

«كينغي مريض جدًا، أليس كذلك؟ هل سيموت؟».

«يا إلهي، لا. إنه يعاني نزلة برد حادة فحسب. كل ما في الأمر أن الجميع حذر لأنه الملك».

«أعرف أنك تكذابين. لكن لا يهم». واستدارت فيوليت إلى دفترها، وهي تمضغ طرف قلمها الرصاص.

«ماذا تكتبين؟».

«أكتب شعراً، على الرغم من أنه مروّع، مقارنة بما تكتبه فيتا. أنا واثقة من أنها ذات يوم ستكون كاتبة. يبدو أنها تستمتع بوقتها في لندن استعداداً للموسم، ولا أظنها تفكر بي».

«أنا واثقة من أن ما تقولينه غير صحيح». حاولت فلورا طمأننتها حين رأت عينيها تظلمان، وكانت تسبق ذلك عادة حالة مزاجية قاتمة.

«بلى، صحيح. إنها جميلة جدًا مثل مثل حصان أصيل جامع... بريّ وغير مقيد. ولكن من المؤكد أن الحياة والرجال سيروّضانها».

«على الأرجح أن الحياة تروّضنا جميعاً يا فيوليت. وربما هذا ما عليها فعله».

«لماذا؟ لِمَ يجب علينا نحن النساء أن نتزوج شخصاً يختاره لنا الآخرون؟ الأمور تتغير يا فلورا! انظري إلى ما تفعله المناضلات بحق اقتراع المرأة! لا أشك في أنهن سيحدثن فرقاً؟ والأمر كذلك في الزواج». قالت فيوليت وهي ترتجف. «لا أستطيع أن أفهم كيف يُفترض بشخصين بالكاد يعرف أحدهما الآخر، أن يعيشا معاً ما تبقى من عمرهما، وأن يفعلا... ذلك الشيء المروّع، على الرغم من كونهما غرباء تماماً عن بعضهما».

«أنا واثقة من أنك ستفهمين كل هذا عندما تكبرين يا فيوليت».

«لا، لن أفهم». قالت ببساطة. «لا يكفّ الناس عن قول ذلك، لكنني لا أحب الرجال. يبدو الأمر كأننا نطلب إلى قطّ وكلب أن يعيشا ويناكما معًا. ليس لدينا نقاط مشتركة. انظري إلى أمي وأبي».

«ما الخطب الآن! إن ما لاحظته، أنهما سعيدان معًا. كما أنهما صديقان مقربان».

«إذن، أخبريني لم، في هذه اللحظة بالذات، أبي في مكتبه في لندن، بينما أمي هنا تمارس دور الممرضة لملك مريض؟».

«ربّما توفّع الزوجة أن يفِي زوجها كل حاجاتها، أمر مبالغ فيه قليلًا».

«لا أوافقك الرأي. فيتا تسدّ كل احتياجاتي. ولن أشعر بالملل وأنا برفقتها».

«هذا يعني أنك محظوظة لأنك وجدت مثل هذه الصديقة».

«هي أكثر بكثير من مجرد صديقة لي. هي... كل شيء بالنسبة إليّ. لا أتوقع أن تفهمي، لا أنت أو أي شخص آخر». فجأة نهضت فيوليت. «سأخلد إلى النوم. تصبحين على خير يا فلورا».



في اليوم التالي، ظهرت السيدة كيبييل في فيلا أوجيني باكراً في الصباح. والتقت بفلورا على السلال، وهي ذاهبة لتناول الفطور.

«كيف حال الملك؟». همست فلورا.

«الحمد لله، لقد تجاوز المحنة. انخفضت حرارته، وأول مرة، نام ليلة البارحة بسلام».

«هذه أخبار رائعة».

«بالفعل هي كذلك. وهذا الصباح، أصرّ على انضمام أصدقائه إليه على الغداء، لذلك عليّ أن أجهّز نفسي. لقد كانت الأيام القليلة الماضية طويلة. ولاأكون صريحة معك، أشعر بإرهاق شديد. هل الفتاتان في الأعلى في غرفتهما؟».

«نعم».

«حسنًا، سأذهب لطمأنتهما. لا شك في أن بيرتي سيرغب في أن يستأنف حياته كالمعتاد، وقد أيقن أنه بخير. وليعرف العالم أنه كذلك. لقد أشعل سيجاره البغيض هذا الصباح».

بعد ذلك، عادت الحياة إلى طبيعتها، وعادت فلورا تساعد الفتاتين في ارتداء ملابسهما، قبل أن تخرجاً كل يوم للتنزه مع والدتهما والملك.

«أمر غريب للغاية يا فلورا، هناك الكثير من الأماكن الجميلة التي يمكننا الجلوس فيها لتناول الطعام، لكن كينغي يصّر دائماً على اصطحابنا في نزهة خلوية على حواف الطريق!». قالت سونيا وهي تنزع قبعة القش عن رأسها بعدما عادوا من إحدى نزهاتهم.

«هذا لأنه لا يحب أن يراه الناس في فرنسا وينحنوا له مطوّلاً لإلقاء التحية»، أجابت فيوليت ساخرة. «ربّما يعتقد أن الأمر سيزعج ملك فرنسا».

«حسنًا، ليس لدي رأي آخر»، قالت سونيا، «في الواقع يبدو عجوزاً على نحو فظيع. كما أنه مريض حقاً».

«يمكننا قول الأمر نفسه عن قيصر. لقد فاحت رائحة ذلك الكلب على نحو مريع»، اشتكت فيوليت وهي تمسّد تنورتها لتنزع الوبر عنها. في اليوم التالي، استلمت فلورا رسالة من كبير الخدم.

هاي ويلد

أشفورد، كنت

إنكلترا

14 آذار 1910

مكتبة

t.me/soramnqraa

عزيزتي فلورا،

أعلم أنك حالياً مع السيدة كيبييل. السيد رولف في ميدان پورتمان

أعطاني عنوانك في بياريتز. يا أختي العزيزة، أتمنى أن تكوني أول من يعرف أنك ستصبحين خالة قبل نهاية هذا العام. أجل، أنا حامل، وأعترف لك أنني أشعر بالرعب كما أشعر بهدوء فطيع. أخبرني الطبيب أنه أمر طبيعي في هذه المرحلة المبكرة من الحمل.

عزيزتي فلورا، أنا مشتاقة إلى رؤيتك، وأسألك إذا ما كان ممكناً أن تأتي إليّ لتبقى معي فترة من الوقت، بعد عودتك إلى إنكلترا؟ إن أمي غير قادرة على المجيء من المرتفعات لتكون إلى جانبي، لأنّ أبي سقط على ساقه المصابة وكسر كاحله. لذلك، أنا أصرف حالياً معظم يومي وحيدة وأشعر بتوعك شديد يمنعني من الخروج. أنا وحيدة يا أختي العزيزة. أعلم أن حفل زفافك اقترب، لذلك لن أبقيك كثيراً فأؤخرك عن متابعة الترتيبات، لعلّك قادرة على تخصيص ما لا يقلّ عن بضعة أيام لي؟ أرجوك راسليني في أقرب وقت ممكن، وأخبريني متى يمكنني انتظار مجيئك.

أختك المحبة،

أوريليا.

شعرت فلورا بتوعك في أثناء قراءتها الرسالة في أثناء تناول الفطور، تماماً مثلما زعمت أختها بمرضاها. فذلك الدليل الحسي على إتمام القران بين أوريليا وآرتشي كان كافياً لجعلها تنهض عن الطاولة وتجزّ نفسها إلى غرفتها.

مجرد التفكير بالبقاء في هاي ويلد كان لعنة.

«توقفي عن أنايتك!»، وبّخت فلورا نفسها وهي تجول في الغرفة ذهاباً وإياباً. «أوريليا بحاجة إليك وعليك أن تذهبي إليها».

جلست فلورا إلى المكتب، وأخرجت ورقها وقلم الحبر.

فيلّا أوجيني

بياريتز

فرنسا

19 آذار / مارس 1910

أختي العزيزة،

سعادتي من أجلك تفوق أيّ حدود. سأعود إلى إنكلترا خلال أسبوع.
وعلى الرغم من التحضيرات الجارية للزفاف، فإنني سأوفر لك بالطبع بعض
الوقت. لذلك سأتي إليك مباشرة بعد وصولي إلى إنكلترا.
أحتك المحبة،

فلورا



تزامنت ليلة فلورا الأخيرة في فيلا أوجيني مع زيارة الملك الأولى للعائلة. عندما
نزلت إلى الطبقة السفلية، كانت غرفة الرسم قد امتلأت بالضيوف، وكان بعضهم
يتحدّث بلغة فرنسية سريعة وعويصة. أدارت السيدة كيبييل الجلسة، وكان تاج
الماس يتلألأ فوق خصلها الكثيفة المجعدة بلونها البني المائل إلى الحمرة. بعد
معاينتها، أدركت فلورا أنّها في بلاط السيدة كيبييل؛ إذ كانت لشهر في السنة - هنا
بعيداً من إنكلترا - الملكة كما أرادت دائماً أن تكون.

وكان قيصر، وهو كلب من فصيلة فوكس تريير، من بشّر بوصول الملك،
بهرولته أمامه عبر الأبواب المزدوجة، تلا ذلك تصاعد النفحة المعتادة لسيجاره
اللاذع. وعلى الفور، تحوّلت الأنظار في الغرفة من السيدة كيبييل إلى الزائر الجديد.
شعرت فلورا بالارتياح عندما رأت الملك قادراً أقلّه على التنفّس، ومع ذلك كانت
عيناه ما تزالان جاحظتين وبشرته شاحبة.

«سمعت أنّك ستغادرين غداً». قال لها رجل من النبلاء كان يقف إلى جانبها.
كان الشبه بينه وبين الملك محيّراً، بلحيته الرمادية وشاربيه الهابطين وبنيته
الضخمة، وكان من السهل اعتباره نظيره.

«نعم».

«يبدو أن الملك قد تعافى جيّدًا من مرضه، أليس كذلك؟».

«أجل، هذا صحيح». قالت فلورا متمنية أن يعرف ذلك السيد عن نفسه، إذ لم يكن لديها أدنى فكرة ما اسمه. «الحمد لله».

«سمعت من الملك أنك هوّنت عليه الوقت في أثناء مرضه».

«لا أعتقد ذلك يا سيدي، أنا...».

«هذا ما يعتقده الملك بالفعل، ونحن جميعنا شاكرين لك».

«سامحني يا سيدي»، قالت فلورا بعد أن استسلمت، «لكنني غير متيقنة أننا تعارفنا رسميًا قبل الآن».

«أنا إرنست كاسيل. وأنت حاليًا ضيفة في منزلي». ابتسم لها بعينين ضاحكتين.

«اعذرني يا سيدي، التقيت كثيرًا من الوجوه الجديدة في الأشهر القليلة الماضية...».

«لا داعي للاعتذار. الخبر السار هو أنني أعرف من تكونين. اسمحي لي أن أعطيك بطاقتي. قد يأتي وقت في المستقبل تحتاجين فيه إلى الاتصال بي. فأنا لست مضيفك في فيلا أوجيني فحسب، لكنني أيضًا صديق مقرب لكل من الملك والسيدة كيبييل ومستشارهما. والآن، هل أرافقك لتناول العشاء؟».

لم يبحث الملك عن فلورا إلّا في ما بعد، عندما بدأ هو وحاشيته بالمغادرة. فابتسمت له وهي تنهض لتنحني له.

«أنا سعيدة برؤيتك في حالة جيّدة هذه الليلة يا صاحب الجلالة».

«شكرًا لك يا آنسة ماك نيكول، سنلتقي عندما أعود إلى لندن إن شاء الله. وداعًا يا عزيزتي». ثمّ قبل يدها وغادر مبتسمًا.



وصلت فلورا إلى هاي ويلد بعد يومين. استقبلتها أوريليا عند الباب وأدخلتها إلى غرفة الرسم لتشربا الشاي المنعش.

«إِذَا، أَخْبَرْنِي كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْمَلِكِ. لَا أَصَدِّقُ أَنَّكَ التَّقِيْتُ بِهِ!».

«كَانَ رَائِعًا وَبَشُوشًا كَمَا هِيَ حَالُهُ دَائِمًا».

«بِالطَّبْعِ، هَذِهِ لَيْسَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي تَقَابَلْتُمَا فِيهَا. بِالنَّظَرِ إِلَى مَكَانَةِ السَّيِّدَةِ كَيْبِيل... فِي حَيَاتِهِ».

«لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمَا صَدِيقَانِ مُقَرَّبَانِ جَدًّا».

«أَفْهَمُ أَنَّ تَكُونَ السَّيِّدَةُ كَيْبِيلَ قَدْ طَلَبْتَ إِلَيْكَ أَنْ تَقْسِمَ عَلَى السَّرِّيَّةِ».

«لَمْ تَفْعَلْ قَطُّ».

«تَقُولُ أَرَابِيلَا إِنَّ لَدَيْهَا سُلْطَةً حَتَّى دَاخِلَ الْحُكُومَةِ! سَامَحِينِي يَا فُلُورَا، نَسِيتُ أَنَّكَ بَرِيئَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ، وَأَنَّكَ تَوْمِنِينَ بِالطَّبِيعَةِ الْجَيِّدَةِ لِلْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ فَحَسْبُ. «فِي أَيِّ حَالٍ، لَنْ أَتَقَبَّلَ تَحْفَظُكَ بَعْدَ الْآنِ. وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، سَأَخْبِرُكَ أَنَا بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ هُنَا مِنْذُ التَّقِينَا آخِرَ مَرَّةٍ».

اسْتَمَعْتَ فُلُورَا إِلَى أَحَادِيثِ أُخْتِهَا الْمَوْلَعَةِ، عَنْ اهْتِمَامِ آرْتَشِي بِحَالَتِهَا، وَاحْتَقَرَتْ نَفْسُهَا عَلَى اازْدَوَاجِيَّةِ رُوحِهَا.

«يَصْعَبُ أَنْ أَصَدِّقَ أَنَّي سَأَرْزُقُ بِطِفْلٍ عَمَّا قَرِيبٍ، وَأَنَّهُ سَيَبْقِيَنِي مَنشُغَلَةً طَوَالَ الْوَقْتِ. الْجَمِيعُ هُنَا يَصَلِّي أَنْ يَكُونَ صَبِيًّا. فِيمَا أَتَمَنَّى أَنَا أَنْ تَكُونَ فَتَاةً، وَبَصَحَّةً جَيِّدَةً بِالطَّبْعِ».

«هَلْ آرْتَشِي سَعِيدٌ بِشَأْنِ الطِّفْلِ؟».

«آه نَعَمْ. أَعْتَقِدُ أَنَّي نَجَحْتُ حَتَّى فِي رَسْمِ ابْتِسَامَةِ عَلَى وَجْهِ أَرَابِيلَا. هَلْ تَعْرِفِينَ، أحيانًا أَتَسَاءَلُ لِمَ أُمِّي وَدُودَةٌ مَعَهَا إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ». قَالَتْ أَوْرِيلِيَا وَهِيَ تَخْفِضُ صَوْتِهَا. «رَبِّمَّا كَانَتْ أَكْثَرَ طَيِّبَةً فِي السَّابِقِ. أَوْ رُبَّمَا فَقَدَانِهَا وَالِدَ آرْتَشِي فِي الْحَرْبِ. لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ وَدُودَةٌ».

«لَيْسَ لَدَيَّ مَا أَقُولُهُ، لِأَنَّ حَدِيثَهَا مَعِي لَمْ يَزِدْ عَنْ بَضْعِ جَمَلٍ. يَا لَكَ مِنْ مَسْكِينَةٍ، أَفْتَرِضُ أَنَّكَ تَوَاجِهِينَ صَعُوبَةَ فِي الْعَيْشِ مَعَهَا تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ».

«عَلَى الْأَقْلَ، هِيَ بَعِيدَةٌ الْآنَ مِنَ الْمَنْزِلِ، لِذَلِكَ بَقِيَ الْمَكَانُ لَنَا وَحْدَنَا أَنَا وَأَنْتِ. كَمَا أَنَّ لَدَيَّ أَخْبَارًا سَارَةً! عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أُمِّي لَمْ تَسْتَطِعْ الْمَجِيءَ بِسَبَبِ كَا حَلٍ

أبي المكسور، لكنها كتبت تخبرني أن والدته سارة قد توفيت قبل بضعة أشهر، واقترحت عليّ أن أرسلها لأسألها إذا ما كانت ترضى بالمجيء إلى هنا لتعيش معي بشكل دائم فتكون خادمتي الشخصية ومساعدتي خلال الحمل وبعد الولادة. ولفرحتي، أجابتنني على الفور، وقالت لي إنها ستكون سعيدة لإجابة طلبي. لذلك، ستصل غداً إلى هاي ويلد. هكذا سأشعر على الأقل أن لديّ شخصاً إلى جانبي في هذه الأسرة».

«كم هذا رائع! لكنك تقولين إن آرثشي يوليكَ اهتماماً كبيراً؟».

«آه، نعم، عندما لا يكون رأسه داخل كتاب نبات أو عيناه تحدّقان إلى نبتة في الدفيئة. لقد ذهب إلى لندن لإنجاز بعض الأعمال. قال لي إنه سيعود في الأسبوع المقبل. يعتمد الأمر على موعد مغادرتك، أشك في أنك ستريه، وهذه خسارة».

«نعم». شعرت فلورا بارتياح زائد، تلتته خيبة أمل لم تستطع كبثها. «هذا يعني أنك ستكونين لي وحدي».

«أعرف أنك لم تشعري قط بالتعاطف تجاهه، لكنّه رجل طيب كما أنّه لطيف معي».

«هذا ما يهم».

«أجل. والآن سامحيني يا فلورا سأذهب لأخذ قسط من الراحة».

«بالطبع، هل أساعدك في الوصول إلى غرفتك؟»، سألتها فلورا بحزم وهي تمسك أوريليا التي تفتقر إلى الخبرة من مرفقها لتساعدتها على النهوض.

«أجل من فضلك. أشعر دائماً بأنّ حالتي تتحسنّ بعد الظهر».

صعدت فلورا إلى الطبقة العلوية مع أوريليا. ثمّ نادى على خادمتها لتطلب لها الشاي، وسحبت الملاءة والبطانية عن السرير الضخم المحاط بالستائر، الذي تنام فيه أوريليا، ومن دون شك، آرثشي.

«شكراً لك»، قالت أوريليا فيما كنت فلورا تساعدتها على دخول الفراش. «قيل

لي إن الغثيان سينتهي قريباً. لكن حضورك سيساعدني كثيراً».

بقيت فلورا جالسة على الكرسي بالقرب من أوريليا إلى أن غفت. بعد ذلك،

خرجت على رؤوس قدميها وذهبت إلى غرفتها لتنعش نفسها. هناك شعرت بانجذاب إلى النافذة، حيث كان بإمكانها رؤية الشمس تسلط نورها على الحديقة. على الرغم من أنها كانت تعرف أن النساء الحوامل قد يشعرن بالتوعك خلال أول شهرين أو ثلاثة من الحمل، لكن أوريليا كانت قد تخطت تلك المدة، وأصبحت في شهرها الرابع تقريبًا. لذلك رجت فلورا أن يكون حملها على ما يرام.

وفي اليوم التالي، وصلت سارة إلى هاي ويلد. بدت مرهقة ومحمرة الوجه من عناء الرحلة الطويلة من إستويت. وعلى الرغم من ذلك، شعرت بسعادة غامرة لرؤية الفتاتين.

«قالت أمي إنها ستأتي عندما يحين موعد الولادة، لكن سارة هبة من الله». قالت أوريليا وهي تنضم إلى فلورا في غرفة الطعام لتتناولا العشاء في ذلك المساء. «لقد بدت سعيدة جدًا بزيّها الجديد كمساعدتي الشخصية، على الرغم من أنه يحتاج إلى توسيع. أمل ألا يتنمر عليها الموظفون الآخرون أو أن ينظروا إليها بازدراء. يبدو أنهم ينظرون إلى من يولدون في الشمال على أنهم أقل شأنًا منهم، بمن في ذلك أنا». وأطلقت ضحكة قصيرة مصطنعة.

«لا تكوني سخيفة يا عزيزتي أوريليا. أنا واثقة من أنك تتوهمين فحسب». «أنا واثقة من أنه ليس كذلك. حتى زوجي يسخر من خلجي، ويقول لي إنه يجب ألا أسمح للخدم أو أرابيلا بالانهيال عليّ بالأوامر. ربّما لست مخلوقة لإدارة منزل».

«كونك لطيفة ولبقة لن يعوقك عن التمتع بالسلطة، أو بالأحرى عن كسب الاحترام. أنت تشعرين بالضعف بسبب حالتك فحسب. هذا كل ما في الأمر». «مجددًا أقول لك إنني لست كذلك. أمر غريب لأنك، وسامحيني على ما سأقوله، في منزلنا كنت أنت من يتصرف مثل الظل، بينما هنا أنا من يفعل ذلك. كم تغيّرت أمور خلال العام الماضي».

«لكنك سعيدة مع آرثشي؟».

«بالطبع. تعرفين أنني أعشقه، لكنّه الآن، بسبب حملي، لم يعد يزورني مثل السابق... تهذبت أوريليا. من الصعب أن أشرح لك، لكنّه الوقت الوحيد الذي

يشعرنى بأننى أملكه بالكامل. ستفهمين معنى ذلك عمّا قريب عندما تتزوجين بفريدي».

«نعم، بالتأكيد سأفعل». أجابت فلورا وهي تقمع قشعريرة معتادة. «إذا كنت تظنين أنّك تواجهين مشكلات في إدارة منزلك، عليك أن تري منزلي المستقبلي. فأنا مسرورة إلى حدّ بعيد بمواصلة الكونتيسة إدارتها له، وهذا لأنني بالكاد أعرف من أين أبدأ.

«أختي، فيسكونتيسة». وهزت أوريليا رأسها.

«من كان ليصدّق؟».

«بالفعل؟».

شعرت فلورا بالارتياح كون سارة قد أحضرت معها بعضاً من هواء لايكلانده النقي الذي كانت بأشد الحاجة إليه، وهذا كان مجازياً وواقعاً. ففي الأيام التي تلت، استعادت أوريليا إشرافتها إلى حد بعيد بين يديها الحنوتين المقتدرتين.

«لم أفكر لحظة واحدة أنّي قد أستعيد فتاتي ذات يوم. ها هي إحداكما متزوجة وتنتظر مولوداً، والأخرى على وشك أن... تصبح من العائلة المالكة!». صرخت سارة وهي تضع أوريليا في السرير من أجل قيلولة بعد الظهر. «لقد أحببت اللورد فوغان دائماً، حقاً، فهو رجل لطيف. هل تذكرين يا آنسة فلورا، عندما جاء لزيارتك في إستويت الصيف الماضي، وعدت مبلة إلى المنزل بعد أن تسلّقت سكافيل؟.

جمدت دماء فلورا في عروقها بسبب ملاحظة سارة. فهي لم تتلفّظ بكلمة واحدة أمام أوريليا أو أي شخص آخر، عن الموضوع، أو عن اليوم الذي عادت فيه مبلة إلى المطبخ في إستويت.

«كنت ترتدين سروال والدك وقبّعته! لم يسبق لي أن رأيت شيئاً من ذلك القبيل! فضحكنا أنا والسيدة هيلبيك على مظهرك».

«هل ذهب آرثشي لزيارتك في إستويت الصيف الماضي؟». نظرت أوريليا إلى أختها في حيرة.

«نعم». أجابت فلورا وهي تستعيد رباطة جأشها. «كان في طريق العودة من رحلة الصيد إلى اسكتلندا وقرّر المرور بي. أنا واثقة من أنني أخبرتك بذلك يا عزيزتي».

«لا أذكر إذا أخبرتيني بالأمر». بقيت شفتا أوريليا جامدتين لا تتحركان. «وهل تسلفتما سكاويل معًا؟».

«لقد فعلا. في تلك الليلة، غطت في نومها قبل أن أعد لها الحمام»، وقهقهت سارة. «كانت مثيرة للضحك في ملابسها، بدت مثل رجل، والآن ستصبح فيسكونتييسة في أسابيع!». «

من المؤكد أنك لم تخبريني».

«لا، لقد شعرت بالحرَج، كما يمكن أن تتخيلي. فسارة محقّة، لقد عدت إلى المنزل في حالة مزرية إلى حد ما، لكن آرتشي رغب في رؤية الجبال، ولم يكن لدي خيار إلّا أن أجامله وأجاره. والآن، هل أنت مرتاحة هكذا؟ سنتركك في سلام». اقتربت فلورا من السرير وقبّلت أختها على خدّها. «استريح جيّدًا، سأكون في غرفتي لأقرأ». وقبل أن تسمح لأي نظرة بخيانتها، مشت فلورا إلى الباب.

وعندما أصبحت بأمان داخل غرفتها، وضعت رأسها بين يديها وهي تشعر بصعوبة في التنفس، وراحت تحوم حول نفسها فوق الأرضية الخشبية. في تلك اللحظة، تمّنّت لو أن آرتشي كان هنا لتناقشه بما حدث للتوّ. لا شك في أن سارة عرفت صاحب الحانة في القرية الذي أعار آرتشي ملابسه من أجل الرحلة، أو ربّما رآها شخص ما وهي تركب السيارة مع آرتشي، عند مدخل منزلهم، فالمجتمع صغير هناك. ولم يكن يهمّها كيف عرفت سارة أنّها كانت برفقة آرتشي في ذلك اليوم، بقدر ما همّها لمّ امتنعت عن إخبار أوريليا بالموضوع حتى الآن.

في تلك الليلة، لم تتطرّق أوريليا إلى إحياءات سارة في أثناء العشاء. ولم تسأل عن تفاصيل إضافية، عندما رافقتها فلورا إلى الطبقة العلوية لتضعها في السرير وتطبع قبلة المساء على جبينها. بيد أنّها، ربّما خيّل إليها بفتور في تصرفات أختها.

في تلك الليلة، لم تنم فلورا جيداً. وبطريقة أو بأخرى، شكرت السماء على الرسالة التي استلمتها من الكونتيسة، والتي سألتها فيها إذا أمكنها السفر إليها في سيلبورن بضعة أيام، لمناقشة خطط الزفاف.

بالكاد غمغمت أوريليا الإجابة، عندما سألتها فلورا إذا كان لديها مانع لو غادرت قبل الموعد إلى هامبشاير.

«بالطبع عليك الذهاب، كما أنني الآن أشعر بتحسّن كبير». قالت وهي تنظر إلى سارة باعتراز وهي ترتب الغرفة. «كما أن آرتشي سيعود قريباً إلى المنزل». «سأغادر في ساعة مبكرة صباح غدٍ، لذلك قد لا أراك قبل أن أنطلق. لكنني سأعود خلال ثلاثة أيام، أعدك بذلك».

«شكراً لك. الآن بعد أن أصبحت سارة معي سيكون كل شيء على ما يرام. سلّمي لي على الكونتيسة وفريدي. وابتسمت ابتسامة باهتة، ثمّ دحرجت نفسها داخل السرير استعداداً للنوم.

غادرت فلورا وهي واثقة من أن الشكّ قد بدأ ينتاب أختها. لذلك عندما دخلت غرفتها، مشّت مباشرة إلى المكتب، وسحبت منه ورقة وقلم حبر.

هاي ويلد

أشفورد، كنت

2 نيسان 1910

أوريليا تعلم بزيارتك للبحيرات. لقد أخبرتها سارة، خادمتنا السابقة، التي أتت إلى هاي ويلد لتعتني بها. أرجو أن تبذل قصارى جهدك لطمأنتها أنّه لم يحدث أي شيء غير لائق بيننا. أنا خائفة على حالة أختي العقلية، ولا أرغب في تضرّر صحتها. فهي لم تتمتع يوماً بالقوّة. أنت على وشك أن تصبح أباً، وولادة طفلك بأمان ذات أهمية قصوى.

ف.

29

«أخيراً!». قال فريدي وهو يرحّب بها في قاعة سيلبورن بارك ويقبّل يدها. «كنت قد بدأت أتساءل، إذا ما كنت قد هجرتني، ورحلت عن شواطئ إنكلترا إلى الأبد. كيف كانت بياريتز؟ وكيف حال الملك؟ بلغت الأقاويل في لندن، حدّ التأكيد أنّ حالته أخطر بكثير مما يدّعيه رعاياه».

«آه، كان بصحة جيدة عندما غادرت بياريتز». أجابت فلورا بصدق تقريباً. «كل ما في الأمر أنّه عانى نزلة برد».

«جيد، جيد، تأمل أمّي أن يحضر حفل زفافنا. لقد أرسلت له دعوة، هل ذكر شيئاً من هذا القبيل أمامك عندما رأيته هناك؟».

ومدّ فريدي مرفقه لها لكي يسيرا معاً إلى غرفة الرسم الواسعة.

«كلا. سكرتيه الخاص هو من ينظّم جدول أعماله، فإن كان سيحضر، فقد لا يعرف هو ذلك. هل والدتك هنا؟».

«لا، لقد خرجت في زيارة لإحدى جمعياتها الخيرية في وينشستر، وأبي في لندن. لذلك يا عزيزي فلورا، نحن بمفردنا هنا». ثمّ شبك فريدي يديه حول خصرها لكي يجذبها إليه، وانحنى بشفتيه فوق شفتيها، واخترقهما بلسانه، وهو يجبرها على فتح فمها.

«من فضلك يا فريدي!»، كافحت فلورا لتحرير نفسها. «قد يظهر أيّ من الخدم في أيّ لحظة».

«فليظهر من شاء منهم؟ لا شكّ في أنّهم رأوا أسوأ من ذلك بكثير». ضحك فريدي وهو يحاول تقبيلها مرة أخرى.

«لا، لا أستطيع. لم نترُج بعد».

«كما تريدن». قال فريدي وهو يرخي قبضته، ويزم شفتيه عابسًا. «لا يمكنني أن أرى الفرق بين الخاتم وتسجيل الزواج في دفاتر الكنيسة. آمل ألا تمنعي عني ولعلك بعد الزواج».

«بالطبع لا. حينئذ سنكون متّحدين أمام الله». وخفضت عينيها بعفة.

«حسنًا، تبًا لذلك. فأنا أتوق إلى تلك اللحظة. لكن أرى أنك لن تسمح لي بالاقتراب، كأنني مصاب بالبرص، قبل زواجنا. سأنادي الخدم ليحضروا لنا الشاي، وستخبريني بكل مغامراتك في فرنسا».

شعرت فلورا بالارتياح عندما دخلت الكونتيسة عليهما بعد ساعة. فمحاولاتها في إبعاد يدي فريدي عنها كانت أقرب إلى إنقاذ نفسها من مخالاب نمر مفترس. وبعد تناول طعام الغداء، غادر فريدي ليفجر بعض طاقته على ظهر حصانه، على حد تعبيره، في حين بقيت فلورا برفقة دافني تركّزان على تفاصيل الزفاف.

نزعت دافني نظارتها عن أنفها، وابتسمت لها، وهي تقول: «أفترض أنك تفكرين في مدى سخافة هذا كله يا عزيزتي. وإن لم تفعل، فتأكدي أنني أفعل. لكن بالطبع، على المرء أن يتمسك بالتقاليد. كيف حال الفتاتين كيبيل؟». سألتها لتغير الموضوع.

«إنها بخير بخير. وكذلك الفتاتان. إنهما تتطلّعان بفارغ الصبر لكي تكونا وصيفتي الشرف في زفافي».

«يا لها من فتاة غريبة، فيوليت. لقد فكرت في ذلك كثيرًا... لقد أخبرتني السيدة ساكفيل، وهي صديقة عزيزة لي، منذ أسبوع فقط، أنها تظن أن لفيوليت هوس غريب بابنتها فيتا. ما رأيك في ذلك؟».

«أعرف أنهما صديقتان فقط».

«في أي حال، رفضت فيكتوريا استضافة السيدة كيبيل في كنول. وقد تفاجأت قليلاً بذلك، بالنظر إلى ماضي والدتها الفاضح. من جهة أخرى، غالبًا من بيوتهم من زجاج يرمون الآخرين بالحجارة. بالتأكيد، فيكتوريا لن تؤيد فكرة سير فتاتي كيبيل

أمامك إلى المذبح. كان عليّ إقناع أليجرنون أن ذلك هو عين الصواب وقد تطلّب الأمر مجهودًا كبيرًا مِنِّي. فهو ليس من النوع الذي يواكب العصر بسهولة، كونه قديم الطراز، لِيُطِلَّ الله في عمره. حسنًا الآن»، قالت الكونتيسة وهي تربت على يد فلورا. «أعتقد أن الوقت حان لتناول كأس شيري، أليس كذلك؟».

في ما بعد، وقفت فلورا عند إحدى النوافذ في غرفتها، التي امتدّت من الأرض إلى السقف لتتفحص الحقائق الشاسعة أمامها. خلف سياج الطقسوس، كان هناك حديقة للغزلان، وكانت قادرة على رؤية الحيوانات وهي تتحرك مثل الظلال أمام الشفق. الأبعاد الضخمة في كل ما في ذلك المنزل جعلتها تشعر كأنها دمية صغيرة أُخرجت من بيت للألعاب، لتُزرع في بيت إنسان.

ثم فكرت في هاي ويلد التي على الرغم من ضخامة حجمها، كان جوّها مريحًا ودافئًا. وأمِلت أن يكون آرثشي قد استلم رسالتها قبل مغادرته لندن. وإن لم يفعل، وقامت أوريليا بمواجهته، واعترف لها بكل شيء، فإن كل ما فعلته لفصل حياتها عنه وعن أختها سيذهب سدىً.



بعد ثلاثة أيام مع فريدي، وهو أطول وقت تقضيه معه لغاية تلك اللحظة، لاحظت فلورا أن تركيزه كان معدومًا: ففي كثير من الأحيان، كان يطرح عليها سؤالًا، وحالما تبدأ بإجابته، كانت نظراته تزوغ وتسرح بعيدًا، فيفقد اهتمامه تمامًا بالإجابة. وفي أحد الأيام، أرادت اختباره، فبدأت تخبره عن طفولتها، وعندما لاحظت أن ذهنه شرد، بدأت بتلاوة قافية تتلى في الحضانة. لكنّه لم يلاحظ شيئًا.

عندئذ قرّرت فلورا ألا تهدر طاقتها في محادثته. كما أن هوايته المفضلة، كان احتساء الخمر. وقد لاحظت أنّه عندما يكون في حالة سكر، كانت قادرة على الوقوف على رأسها فوق طاولة الطعام والكشف عن سرّوها إلا أنّه لن يلاحظ شيئًا. وفي الليلة الأخيرة من إقامتها هناك، دعا مجموعة من أصدقائه المشبهين للانضمام إليهم على العشاء. وفي أثناء جلوسها معهم إلى مائدة الطعام، أصبحت فلورا موضوع كثير من النكات البذيئة، حيث كان الجميع تحت تأثير الخمر.

فأمسكتها دافني على الدرج، فور انسحابها من أوساط الشرب الصاخبة والضحك الفظ الذي كان يتعالى داخل غرفة الرسم.

«عزيزتي، أعترف لك أن سلوك ابني الليلة ليس كما نرغب فيه نحن الاثنين. صدّقيني إن قلت لك إنه يودّع العزوبية. لقد فهم حجم مسؤولياته المستقبلية تجاهك وتجاه سيلبورن، وسوف يلتزمكما».

«بالطبع». خفضت فلورا عينيها احترامًا لها. وهنا مدّت الكونتيسة يدها لتمسكها.

«تذكّري فقط أن الزواج ليس النهاية في حياة المرأة، إنّما البداية بطريقة ما، بشرط أن تنجب الواحدة وريثًا، وأن تكون متزنة، حينئذ يمكن حياتها أن تصبح ممتعة أكثر ممّا تتوقعه. انظري فقط إلى راعيتك وتعلّمي منها. تصبحين على خير يا عزيزتي». قالت دافني وهي تضغط على يد فلورا، وتابعت بعد ذلك سيرها إلى جناحها الخاص.



عادت فلورا إلى هاي ويلد وهي تشعر بالارتياح والخوف في آنٍ.
«أوريليا نائمة حاليًا. لم تكن بخير منذ أن غادرتِ». أخبرتها أرايلا التي كانت قد عادت من لندن، عندما التقت بها في قاعة المدخل. «تلك الخادمة الجديدة تصرّ على إعطائها أنواعًا كثيرة من الخلطات الشنيعة، وأنا واثقة من أنها لا تساعد».
«كنت أتناول من علاجات سارة في طفولتي، وغالبًا ما وجدتها مفيدة». دافعت عنها فلورا.

«أنا واثقة من ذلك. والآن ستراك سيسونز في غرفتك».

«شكرًا لك».

«لا أعتقد أن كوك أعدّت لك شيئًا من أجل العشاء يا آنسة ماك نيكول، لكنني واثقة من أنها قادرة على إعداد الحساء بسرعة إذا رغبت في ذلك». قالت لها مدبرة المنزل وهي ترافقها إلى غرفتها.

«لست جائعة حاليًا، شكرًا لك».

انتظرت فلورا بضع دقائق، ثم عبرت الممر إلى غرفة أوريليا. فتحت الباب وهي تنفر من صرير الخشب الثقيل. كانت الغرفة مظلمة. وعندما تأقلمت عيناها في الظلمة، وجدت سارة في الداخل تغفو على كرسي بجانب النافذة. فغادرت الغرفة وهي تشعر فجأةً بحاجتها إلى الهواء النقي. لذلك لاذت بالفرار إلى الطبقة السفلية.

عندما خرجت من المنزل، استشعر أنفها أول رائحة للربيع، فذكرتها أزهار النرجس البري التي كانت تصطف عند الحواف بإستويت. وعندما أصبحت في الحديقة المسورة، سرت برؤيتها مستيقظة من سباتها الشتوي الطويل.

لحسن الحظ، كانت الحديقة مهجورة. وعلى الرغم من أن فلورا كانت قد أنبت نفسها بشدة في أثناء مجيئها إلى هنا، لكنها شعرت بالهدوء والطمأنينة لفكرة مواجهتها آرتشي، فما حصل في الماضي، سيبقى هناك في الماضي. كما أن آرتشي لم يعد صهرها فقط، إنما قريبًا سيصبح والد فليونها أو فليونتها. وهي ستزوج في غضون أسابيع قليلة. لقد أصبحت عائلة واحدة ولا يمكنهما تجنب صرف الوقت معًا. كانت عازمة على أن تصبح علاقتهما عُذرية، لأنه لا يمكن أن تكون غير ذلك.

«عندما أراه سأقول له ذلك»، قالت لنفسها وهي تمشي على طول الممرات. واستطاعت فلورا أن ترى تخطيطه الحديقة المسورة بالأزهار المثقلة بالحريق لجذب أكبر عدد ممكن من النحل الذي سمعته يطن بكل سرور فوق الخربق الوردي والويبرنوم الأبيض. واستطاعت أن تشعر بحيوية الهواء ونشاطه، كأن الحديقة كانت حبلَى هي أيضًا مثل أختها. وأملت فلورا أن تتاح لها فرصة رؤيتها مزهرة في الصيف، وهي تتخيلها تفيض بالعطر والألوان.

«فلورا». باغتها صوت من خلفها.

«آرتشي». قالت وهي تستدير ليصبحا وجهًا لوجه. «لَمْ تتسلل خلفي دائمًا؟».

«لأنك غالبًا ما تركّزين انتباهك في مكان آخر. وصلّنتني رسالتك عندما كنت

في لندن».

«الحمد لله. شعرت بالقلق من أن تقع في الأيدي الخطأ. أردت أن أحذرك في حال ذكرت أوريليا أمامك... لقاءنا في إستويت».

«شكرًا لك. لقد عدت البارحة، وحتى الآن لم تذكر شيئًا عن الموضوع».

«إذًا، لنأمل أنها نسيته. فهي لا تبدو بخير».

«لا، إنها ليست بخير. أما أنت فبخير. هلأ نتمشى قليلًا؟».

أذعنت فلورا وسار الاثنان جنبًا إلى جنب على طول المسارات. وفيما راح آرتشي يتحدث عن خططه المستقبلية للحدائق، بقيت فلورا تذكر نفسها بالوعد الذي قطعته على نفسها، بأنها قادرة ومستعدة لأن تكون صديقة صهرها.

"إذن، كيف حالك؟". انتهى آرتشي بسؤالها تحت شجرة الطقسوس الضخمة. وتمكنت فلورا من رؤية سيقانها الخضراء الفاتحة الصغيرة التي نبتت من جديد على أطراف فروعها، فحاولت استرجاع الذكرى، حين وقفت تحتها آخر مرة.

«بخير. ذهبت قبل أيام إلى سيلبورن لرؤية فريدي».

«هل يسير كل شيء كما هو مخطط له؟».

مرت لحظة من التردد قبل أن تومئ فلورا برأسها، وقد لاحظ آرتشي ذلك على الفور.

«ثقي في أنك قادرة على مصارحتي أكثر من أي شخص آخر. على الرغم من ذبوع صيت فريدي على أنه صيد لندن، إلا أنه ببساطة صيت وهمي، سواء على المستوى المادي أم الوجودي. وأنا واثق من أنك تدركين ذلك الآن، لأنه في الحقيقة مجرد سكير ثائر. وأعتقد شخصيًا أنه سقط من مهده، وهو طفل رضيع، وتلقى صدمة على رأسه».

«لا شك في أنه... غريب الأطوار، هذا صحيح». وكبتت فلورا ابتسامتها.

«يا له من وضع نجد أنفسنا فيه. صديقي، ليست أنايتي هي التي تدفعني إلى قول ذلك، أتمنى من كل قلبي ألا تتزوجي به، من أجلك أنت».

«لقد حصل ما حصل. مع ذلك أحب والدته كثيرًا».

«ليست هي من ستشاركك السرير ليلاً. لكن لا عليك».

«كيف تجرؤ على التحدّث إليّ بهذه الطريقة!». وشعرت فلورا، من شدة خجلها، بالاحمرار يمتدّ من عنقها إلى أعلى خديها.

«سامحيني، لا أستطيع كبح نفسي، فمجرد التفكير بك وأنت معه... يا إلهي، يا فلورا، عليك أن تفهمي ما أشعر به؟ اشتقت إليك كثيرًا خلال الأشهر القليلة الماضية.

«لا تنطق بأي كلمة أخرى. أنا أعني ما أقول». ثمّ استدارت لترحل عنه، لكنّه أمسكها بيدها قبل أن تتمكّن من الهروب. فبعثت لمستّه قشعريرة لإرادية في عمودها الفقري، لكنها كبحتها.

«دعني أذهب يا آرتشي». تمتمت فلورا. «يجب أن أعود إلى أوريليا، زوجتك». «نعم، بالطبع». وأطلق تنهيدة عميقة، ثمّ أومأ برأسه سريعًا مشيرًا إلى موافقته، وبعد ذلك أفلت يدها. «أراك الليلة على العشاء».

اتّجهت فلورا مباشرة إلى الطبقة العلوية لتعرف إذا ما كانت أوريليا قد استيقظت من نومها أم لا، فقطعت سارة عليها الطريق عند باب الغرفة وإصبعها على شفيتها.

«فلذة كبدي المسكينة منزوعة اليوم، تشكو من صداع أليم. طلبت إليّ أن أقول لك أن تتركها الآن، لكنني واثقة من أنّها ستريد منك أن تريها في ما بعد».

ذهبت فلورا إلى غرفتها لترتدي ملابسها استعدادًا للعشاء. كانت تعاني شعورًا فظيغًا، إذ لم تشعر بالارتياح لأنّ أوريليا منعتها من الدخول عليها. وراحت تفكّر مليًا في كل الأوقات التي صرفتها بجانب سريرها، كلّما شعرت بوعكة في صغرها، فأحسّت بعقدة في معدتها من شدة القلق. وعندما انتهت من ارتداء ملابسها، نزلت إلى غرفة الرسم لتنضمّ إلى أرابيلا وآرتشي.

«يبدو أن زوجتك أصبحت مريضة مرة أخرى». تمتمت أرابيلا وهي تحتسي كأس شيري. «أتمنّى أن تنتهي هذه المرحلة بسرعة. عندما كنت حاملًا بك يا عزيزي، واصلت عملي كالمعتاد. يا لفتيات هذا العصر كم هنّ مختلفات عنّا تمامًا».

«كل ما في الأمر أن البشر يختلف بعضهم عن بعض يا أمي» ردَّ عليها. «أنا متأكد من أن أوريليا لا تتمنى لنفسها هذا الشعور بالإرهاق».

«لا بدَّ من أنها حامل بفتاة. فكلَّ نساء عصري اللواتي أنجن فتيات، شعرن بالمرض في أثناء حملهنَّ، وكأنَّهنَّ كلاب هجينة».

«حسنًا، أنا شخصيًا أحب فكرة أن تكون لي ابنة». قال آرتشي. «من المؤكد أن التعامل مع الفتيات أسهل بكثير من التعامل مع الصبيان».

«قد يكون أسهل، لكنَّه ليس بالفائدة نفسها. هلاً نذهب إلى غرفة الطعام؟».

فيما جلس الثلاثة معًا في غرفة الطعام، في أقصى طرف الطاولة الطويلة المكسوة بلوح من خشب البلوط، فكَّرت فلورا بالمفارقة التي جعلتها الآن تجلس قبالة آرتشي، فيما كانت أمه تفصل بينهما، مدركةً أنها كانت تتخذ مكان أختها. وكان الحساء على وشك أن يُقدَّم، عندما فُتح الباب وظهرت أوريليا.

«اعذروني على التأخير، لكنَّ النوم قد حسَّن حالي كثيرًا، والآن أشعر بالتعافي التام».

عندما جلست أوريليا إلى جانب زوجها واتخذت الخادمة مكانها على عجل، لاحظت فلورا مدى شحوب وجه أختها. ومع ذلك، كانت عيناها الزرقاوان مشرقتين على نحو غريب.

«هل أنت واثقة من أنَّك بخير لتجلسي معنا إلى المائدة يا عزيزتي؟». سألهَا آرتشي وهو يضع يده على كتفها.

«لَمْ تقول ذلك، بالطبع أنا بحالة جيدة. كما أنَّني في الواقع، أشعر بجوع رهيب!». قالت ضاحكة بنغمة عالية وكاذبة. وسرَّت فلورا وهي تلاحظ أن آرتشي أبدى اهتمامًا جمًّا بأختها، لدرجة أنه قطع اللحم في طبقها في ظل استنكار أرابيلا الواضح، وجعلها تتناوله في لقيمات صغيرة.

«علينا ألا نسمح بتلاشيكَ يا عزيزتي. فأنت نحيفة على نحو مخيف».

«سأذكرك بما تقوله الآن عندما أصبح في حجم منزل بعد بضعة أشهر».

مع تقدم ساعات المساء، رأت فلورا وجنتي أختها تستعیدان بعضًا من لونهما، فسمحت لنفسها بالاسترخاء.

«إذن، أخبريني كيف هو منزلك المستقبلي؟ سمعت بأنه رائع». نظرت أوريليا بازدرء إلى أختها.

«وهو بالفعل كذلك. لا شك في أنه سيكون تحديدًا بالنسبة إليّ». «الزواج بذاته تحدُّ علينا مواجهته جميعًا». «أجل».

«يبدو أن فريدي مخلص لك. وهذا كل ما يمكن الزوجة أن تتوقعه من زوجها، أليس كذلك؟»، قالت أوريليا وهي تلتفت إلى آرثشي مبتسمة.

راحت فلورا تراقب ما يحدث حولها بهدوء، فيما كانوا ينزعون طبق التروفل الذي لم تمسه أوريليا، من أمامها. ثم اقترحت أرابيلا أن ينتقلوا إلى غرفة الرسم لتناول القهوة هناك.

«هل تمانعون انسحابي الآن؟ أشعر بأنني بحال أفضل، ولكنني لا أرغب في إجهاد نفسي. هلاً ترافقيني إلى الطبقة العلوية يا فلورا؟».

«بالطبع». نهضت فلورا فيما كانت أوريليا تتمنى لزوجها ليلة هائلة، ثم غادرت الأختان الغرفة معًا.

بقيت أوريليا صامتة وهما تصعدان إلى الطبقة العلوية، فيما كانت سارة تتخبط خلفهما على طول الممر إلى أن فتحت أوريليا باب الغرفة.

«هل أساعدك في ارتداء ملابس النوم يا آنسة أوريليا؟».

«لا، شكرًا يا سارة. أنا متأكدة من أن فلورا قادرة على مساعدتي الليلة. اذهبي ونامي».

- إن احتجت إلى أي شيء، تعرفين أين تجديني. نامي جيدًا يا آنستي.

«من المضحك أنها ما تزال تنادينني بآنسة على الرغم من أنني أصبحت امرأة متزوجة، وسأصبح في الواقع «سيدة» بعد بضعة أشهر». علقت أوريليا وهي تغلق باب الغرفة خلفهما بقوة.

«هل أساعدك في فك أزرار ثوبك؟».

«شكرًا لك». جلست أوريليا على الكرسي أمام منضدة التزيّن، ووقفت فلورا خلفها تكلم صورة أختها في المرآة.

«إنّه لأمر مثير للاهتمام أن تكون الأمور في الواقع مختلفة تمامًا عمّا نراه في الظاهر».

«ماذا تقصدين؟». وشعرت فلورا بالتوتر فيما بدأت تفكّ أزرار ثوب أوريليا.

«مثلًا، حقيقة أنني كنت مقتنعة أنّك أنت وآرتشي تشمئزان من مجرد النظر إلى بعض، ثمّ اكتشفت أنّكما في الواقع كنتما معًا ثلاثة أيام كاملة في إستويت عندما كنت في لندن في الصيف الماضي».

«كما قلت لك، كان آرتشي في طريق عودته من اسكتلندا وفكّر في المرور بي ليطمئن عليّ». أجابت فلورا وهي تضغط بيديها على الأزرار الواحد تلو الآخر.

«أجل». ونهضت أوريليا لتتمكن فلورا من نزع الفستان عن كتفيها. «هذا ما قلته لي قبل أيّام، وأنا صدّفته». قالت أوريليا عندما بدأت فلورا بإرخاء مشد أختها.

«إلى أن فكّرت».

«بماذا؟».

«بأمور شتى. مرري لي قميص النوم يا أختي العزيزة، فالطقس بارد هنا».

كانت فلورا قد بدأت تشعر بخدر في جسمها، فالتقطت ثوب النوم الحريري من على السرير، ورفعت أوريليا ذراعيها إلى أعلى لينساب الثوب فوق جسدها والتواء الصغير الذي برز عند بطنها.

«كان شيئًا قاله لي فريدي ليلة زفافي، مباشرة بعد أن أعلن خطوبتكما».

تابعت أوريليا.

«ماذا قال لك؟». وسحبت فلورا الأغطية لتسمح لأوريليا بأن تنزلق داخل الفراش.

«بعد أن قبلني وبارك لي، وبادلته المجاملة وباركت له على زفافكما القادم،

ضحك وهمس في أذني بآئه من الأفضل أن يعتني الواحد منا بزوجه وزوجته في المستقبل، إذ بدا له أنكما مغرمان ببعض. وأنا غالطته بالطبع، وقلت له إنه مخطئ، وأنه إذا كان هناك ما يقلقني فهو في الحقيقة كُره أختي لزوجي والعكس، وذلك منذ أن كانا صغيرين. «آه، لكنك مخطئة»، همس لي وهو يقودني خارج حلبة الرقص. لقد كنت مخطئة يا فلورا فعلاً، أليس كذلك؟».

علت بقعتان ورديتان خدي أوريلى الشابين ولمعت عيناها بينما كانت تستلقي فوق الوسائد.

«أوريلى، لا أعتقد ذلك. فريدي كان في حالة سكر شديدة في تلك الليلة.»
«وهذا ما فكرت به في ذلك الوقت، وبعد ذلك نسيت كل شيء إلى أن عرفت بزيارة آرتشي السرية إلى منطقة البحيرات.»

«سامحيني لأنني لم أخبرك بالأمر. إنه مجرد سهو يا أختي العزيزة.»
«من غير المحتمل أن يكون سهوًا، فبعد ذلك بوقت قصير، التقيت بك في لندن، وسألتك عن حالة آرتشي الذهنية، ولم في نظرك لم يعرض عليّ الزواج. وأجبتني أنه ليس لديك أدنى فكرة، مع أنك بقيت برفقته طوال ثلاثة أيام قبل بضعة أسابيع. هذا يعني أنه إذا كان هناك من يعرف بما كان يفكر، فهو أنت.»
«لم نناقش ذلك في الحقيقة، كل ما تحدثنا عنه كان النباتات....».

«أجل، بالطبع!». ابتسمت أوريلى ابتسامة صغيرة. «الاهتمام المشترك بينكما؛ علم النبات. حتى لو لم تتطرقا إلى نيته تجاهي، يجب أن تفهمي استغرابي من امتناعك عن ذكر زيارة زوجي للبحيرات ولو مرة واحدة.»

«نعم... نعم، بالنظر إلى الماضي، أفهمك تمامًا. لكن حينذاك، كنت قد وصلت إلى لندن حديثًا وكنت أشعر بنوع من الهزيمة. سامحيني يا أوريلى. ما حصل كان حقًا سهوًا.»

«ربما، حتى مع ما قاله فريدي ليلة زفافي، كنت قادرة على مواصلة تجاهله لو لم تتنابني الشكوك. فبينما اعتقدتني سارة نائمة اليوم، وكنت أعرف أن آرتشي

في الحقائق، ذهبت إلى الغرفة حيث يبذل ملابسه، وانظري علامَ عثرت في جيب المعطف الذي عاد به من لندن أمس؟».

ومدّت أوريليا يدها أسفل الوسادة، لتخرج من تحتها رسالة، ثم أعطتها لفلورا.

«أعتقد أن هذا خطك يا أختي العزيزة؟».

وقرأتها فلورا بعجلة. كانت الرسالة التي كتبتها لآرتشي تحذره من معرفة أوريليا بالوقت الذي كاناه معًا في إستويت.

«هذا لا يدلّ على شيء! كنت ببساطة قلقة من أن تري الأمور من ذلك المنظار. وهذا بالضبط ما يحصل الآن».

«من فضلك، لا تحاولي تهدئي!». ارتجف صوت أوريليا من الغضب الذي كانت تكتمه. «هذه الرسالة وحدها تشير إلى وجود علاقة حميمة بينكما، وأنا ليس لديّ أدنى فكرة عنها. إن لم يكن ذلك كافيًا بالنسبة إليك، وقفت عند النافذة لأقرأها في النور، فرأيتكما معًا في الحديقة. فلورا، زوجي كان يمسك يدك».

«أنا...». وهزّت فلورا رأسها، إذ لم تعثر على مزيد من الكلمات لتدافع بها عن نفسها. «سامحيني يا أختي العزيزة. ليس بوسعي إلّا أن أقسم لك أنّه على الرغم من كل تلك الأدلة اللعينة، إلّا أن لا شيء بيننا... لم يحدث أي شيء غير مرغوب فيه على الإطلاق بيني وبين آرتشي».

«وأنا التي اعتقدت أنكما لا يطبق أحكما الآخر». وأطلقت أوريليا ضحكة مكتومة متجهمة. «حسنًا، كُثر هم الشعراء الحكماء الذين تحدّثوا عن ذلك الخيط الرفيع بين الحب والكرهية. ويبدو أنّه ينطبق على الوضع الراهن بين زوجي وأختي. يا إلهي، لا بدّ من أنكما ضحكتما كثيرًا من غبائي!».

«أبدًا! كل ما أردته هو أن يتزوج بك آرتشي».

«من باب الشفقة!». وبصقت أوريليا عليها. فتراجعت فلورا خطوة عن السرير.

«ربّما كان يريد الزواج بك طوال الوقت، وربّما توّسلت إليه لكي لا يفعل بعد أن رأيتني مضطربة في لندن. حسنًا يا أختي العزيز، هل اتفقت معه على ذلك لتخففي من ذنبك؟».

وهنا انقطع كلامها. فوقفت فلورا، بعد أن تحولت إلى حجر من السَّم الذي بصقته عليها أختها، وحقيقة كلامها.

«فهمت». أومأت أوريليا برأسها، وقد ظهرت أولى دمعاتها. «حسنًا، أنا لا أشكرك على ما فعلته من أجلي، لأنك حكمت عليّ بحياة بائسة إلى الأبد. لقد تزوّجت من رجل أحبّه، لكنّه عاجز عن حبّي. والآن أنا حامل بطفله، ولا مفرّ لنا من هذا. فلورا، ماذا فعلت بي؟ وماذا فعلت لك لكي أستحق مثل هذه القسوة؟». هزّت أوريليا برأسها من اليأس. «أفضّل لو أنني ميتة».

وتبدّد صوتها حين أجهشت بالبكاء. عندئذ اقتربت فلورا لتهدّئها، فضربتها بقوة.

«من فضلك يا أوريليا، أكرّر لك أنني لم أقصد شيئًا مما حدث. أنا مستعدة لفعل أي شيء لكي لا أراك متأذية. سوف... أرحل بعيدًا على الرغم من أنّه لا يوجد شيء بيني وبين آرتشي...».

«كان زوجي يمسك يدك في الحديقة بعد ظهر اليوم!». أجهشت في البكاء. «إياك أن تستمري في أكاذيبك! أنت تعامليني مثل فتاة صغيرة، فيما أنا امرأة متزوجة على وشك أن تنجب طفلًا! هل تعرفين ما أسوأ ما في الأمر؟ إنها ليست العلاقة التي تربطك بزوجي، مهما كان نوعها، إنّما حقيقة أنني وثقت بك أكثر من أي شخص كان! اعتقدت أنك تحبّينني، وأنك ستدافعين عن مصالحني من صميم قلبك. لقد انبهرت بك منذ اليوم الذي رأيت فيه النور. أنا لم أفقد زوجي فحسب، هذا إن كنت قد حظيت بواحد في الأساس، إنّما فقدت أختي الحبيبة».

«من فضلك يا أوريليا، فكّري في وضعك». توّسلت إليها فلورا لدى رؤيتها الحالة الهستيرية التي وصلت إليها.

«وهل كنت تفكرين في «وضعي» عندما أمسكت يد زوجي في الحديقة اليوم؟».

«هو من أمسك يدي، ولم أستطع إيقافه...».

«لا تلوميه! لقد رأيته واقفة هناك مطوّلاً، أطول مما أنت بحاجة إلى فعله، كنت تنظرين في عينيه كفتاة هائمة في الحب».

استدارت فلورا وسارت إلى الكرسي بجوار منضدة التزيّن. شعرت بأنّها إن لم تجلس فإنّها ستنهار. وبقي الصمت يفرّق الأختين فترة طويلة.

«أقسم بحياتي أنّي لم أقصد إيذاءك يا أوريليا. وأتحمل كامل المسؤولية عن سلوكي المشين هذا، ولن أسامح نفسي أبدًا».

«لا ينبغي لنا ذلك! السؤال الآن ماذا سأفعل بحق السماء؟».

«أستطيع فهم جرحك وألمك، لكنني أقسم لك بأنّ آرتشي مهتم بك من أعماقه».

«لكنك أنت شغفه الحقيقي. ربّما ينبغي أن نتشاركه، كما تشارك راعيتك الملكة زوجته الملكة طويلة البال! ما رأيك في أن تصبحي عشيقته، فيما ألد له أنا أطفاله، هل يلائمك ذلك؟».

وقفت فلورا، وجسمها يرتعش بالكامل. «سأرحل غدًا في الصباح. وعلى الرغم من أنّك لا تصدقيني، فإنني واثقة من أنّك قادرة أنت وآرتشي على إنجاح زواجكما والعيش بسعادة. سوف أخبره...».

«لن تفعل شيئا! على أقل تقدير، سوف تعدينني بأنّك لن تتحدّثي إلى زوجي مرّة أخرى في حياتك أو تتصلي به في أي شكل من الأشكال. إذا كنت تريدين أن أمنحك فرصة في المستقبل، يجب ألا يعلم آرتشي بهذه المحادثة. وأنا سأخبره بأنّك استُدعيت إلى لندن».

«ألن تحضري حفل زفافي؟».

«لا. سأقول إنني متوقعة بسبب حملي، وسأعزّي نفسي بحقيقة أنّك ستكونين بائسة مثلي، في زواجك من رجل لن تقدر يومًا على حبّه، كما أنّه في الأساس غير محبوب».

«هل تقصدين إنّك لا ترغبين في رؤيتي مرة أخرى؟».

«طوال حياتي». أجابت أوريليا جازمة. «فأنت ما عدت أختي».

وساد صمت آخر بين الأختين، فيما نهضت فلورا عن الكرسي.

«هل هناك ما يمكنني قوله أو فعله للتكفير عن ذنبي؟».

«لا. والآن، أرجوك غادري. وداعًا يا فلورا».

«سأفكر فيك كل يوم بقية حياتي، ولن أسامح نفسي على الطريقة التي أذيتك بها. وداعًا يا عزيزتي أوريليا».

غادرت فلورا وهي توشك على البكاء، لكن شعورها بالذنب لم يسمح لها بأن تبكي. ثم ألقت نظرة أخيرة إلى أختها لتخزن صورتها في ذاكرتها للمستقبل، وغادرت الغرفة.

30

«يا إلهي! لم أتوقع عودتك بهذه السرعة يا آنسة فلورا». قالت ناني لفلورا حين دخلت الحضانة النهارية في ميدان پورتمان.

«لديّ مواعيد لأخذ مقاسات الفستان وباقي جهازي». كذبت فلورا.

«لا.. بل أعتقد أنك افتقدت أضواء لندن الساطعة، أليس كذلك؟ أنت التي تغنيت بالريف دائماً، أصبحت في النهاية فتاة مدينة إلى أبعد حدود». ضحكت ناني.

«هل السيدة كييل والفتاتان هنا؟».

«لا، لم يعدن من فرنسا. أفترض أن يصلن الأسبوع القادم». ثم توقفت ناني لتتفحص سلوك فلورا. «هل أنت بخير يا آنسة فلورا؟ فأنت تبدين على غير عادتك قليلاً».

«نعم أنا بخير، شكرًا لك». أجابت فلورا وغادرت الحضانة، وهي تشعر بأنه يستحيل عليها أن تكون «بخير» مرة أخرى.

في الأيام القليلة التالية، شعرت فلورا بالارتياح وسط الهدوء الذي كان يعمّ المنزل، لتتمكن من تكبد عناء بؤسها على انفراد. كانت تخرج لتمشي مسافات طويلة في حدائق لندن التي كانت تُزهر بسرعة، آملّة أن تشعر بالارتياح وسط الطبيعة. لكنّ ذلك لم يساعدها إلّا في تذكّر آرتشي وأوريليا. وفيما كانت تسير بعزم، وهي تلحّ على إرهاق نفسها حتى تغطّ في نوم يخدر عقلها، شعرت بأنّها كانت تتمزّق من ألم فقدان أكثر شخص تحبه في العالم. لم تستطع أن ترتاح ولا

أن تأكل. كما أن شعورها بالذنب لم يعرف حدود. وفيما كانت تستعدّ للزواج برجل يشعرها بالنفور، وجدت فلورا أن ذلك الحكم المؤبد بالبؤس كان أعدل عقاب لها.



قبل الزفاف بما يقارب ثلاثة أسابيع، عادت السيدة كيبييل والفتيات من فرنسا. «عزيزتي، لقد أصبحت نحيفة جدًا!». تعجّبت السيدة كيبييل فيما كانتا تتناولان الشاي معًا في الصالون. «لا بدّ من أنّه الضغط الذي تشعرين به بسبب زواجك المرتقب. أتذكر أنني فقدت بوصتين من محيط خصري قبل أن أتزوَّج بجورج». «كيف حال الملك؟». غيّرت فلورا الموضوع.

«لقد تعافى كثيرًا منذ أن رأيته آخر مرّة، لكن تحت أفضع الضغوط التي ما زالت حكومته تمارسها عليه، فهم مصرّون على توريثه، لا بل على ابتزازه، حتى يوافق على التغييرات الدستورية التي لا يوافقهم عليها. أنا سعيدة لأنّه كان خارج البلاد، أو على الأقل بعيدًا من كلّ ما يحدث هنا. ولا أشكّ في أن الضغط قد أثر في صحته، ناهيك بحالته الذهنية. فهو ليس قويًا، كما رأيت في بياريتز. وأشعر بأسف يائس من أجله، المسكين. هو في الحقيقة ملك فاضل، ورجل فاضل، أكثر بكثير مما يُعطى من فضل».

بعد ذلك خرجت فلورا من الصالون وهي تفكّر في أن السيدة كيبييل هي أيضًا لم تظهر كعادتها. وراحت تتساءل في الأسرار التي يمكن أن تشغلها في الوقت الحالي.

في الأسبوعين التاليين، ومع اقتراب اليوم المهيّب، شعرت فلورا بالامتنان لكل ما كان يبقيها منشغلة. وكانت قد حضرت آخر جلسة مقاس في وورث، برفقة الإشبينات السبع، وحينذاك شرحت لدافني أن أوريليا تشعر بأنّها غير قادرة على حضور الزفاف بسبب حملها. فسمعت فيوليت المحادثة، وبحثت عنها في المنزل في بعد.

«فلورا، يؤسفني جدًا أن أسمع أن أختك غير قادرة على أن تكون إشبنتك يوم الزفاف».

[قالت أختك بالفرنسية]، كانت عادة فيوليت الجديدة بتنكيه كلامها بمقتطفات من اللغة الفرنسية قد أثار غضب أفراد الأسرة، لكنّه رسم على وجه فلورا ابتسامة سخرية.

«شكرًا لك».

«أريد أن أقول لك، بما أنني الآن أعدّ الأكبر سنًا بين صويحاتك، فتأكدي أنه سيكون شرفًا لي إذا رغبت في أن أكون إشبينتك».

«هذا لطف منك يا فيوليت، حقًا، أنا واثقة من أنني سأكون بحاجة إلى مساعدتك. لقد جرّبت التاج الذي عليّ ارتداؤه في الزفاف، واللّه أعلم كيف سأتحمل وزنه». قالت لها فلورا متأثرة بعرضها. مكتبة سرّ من قرأ

جلست فيوليت على سرير فلورا، وراحت تعانينا فيما كانت تستعدّ لتناول العشاء في الطبقة السفلية.

«فلورا؟».

«نعم يا فيوليت؟».

«هل تسمحين لي بأن أكون صديقة معك؟».

«يتوقّف ذلك على ما ستقولينه».

«حسنًا، لا تعبريني وقحة لكنك تبدين تعيسة في الوقت الحالي. ألا تتطلّعين بشوق إلى الزواج؟».

«بالطبع أفعل ذلك، كل ما في الأمر، أنني مثل أي فتاة، متوترة».

«وهل تحبّين فريدي؟».

أمر ما في صراحة فيوليت استحقّ إجابة صادقة. «أنا... لا أعرفه بما يكفي لأحبّه. لكنني واثقة من أنني سأحبه في الوقت المناسب».

«أعتقد أنّه عليّ ببساطة الامتناع عن الزواج. فأنا أفضل أن أبقى عانسًا طوال العمر على أن أتزوّج من شخص لا أحبّه. الجميع يقول لي إنني سأغيّر رأيي، لكنني واثقة من أنني لن أفعل. وليس مثل فيتا...»، ثمّ أظلمت تعابير وجه فيوليت. «يا لها من انتهازية».

«ماذا تقصدين؟».

«بعد أن شاركت هذا الصيف في الظهور في البلاط الملكي أول مرة، فإن كل ما تتحدث عنه الآن هو أثوابها الجديدة والشبان الذين يلاحقونها في كنول. بعد كل ما قالته لي...».

«الناس يتغيرون يا فيوليت. ففي بعض الأحيان، العالم من حولنا لا يكون كما نتمناه أن يكون.».

«عندما كنت أصغر سنًا، كنت أؤمن بالقصص الخيالية، وأنت؟».

«هذه حال كل طفل.».

«لكن ربّما الأمر كان مختلفًا بالنسبة إليّ. فأنا نشأت في كنف أمّ تضع تاجًا على رأسها، وتصرف إجازاتها مع ملك إنكلترا. لذلك عوملت على أنني أميرة دائمًا. فلم عليّ الآن أن أكبر وأنا أؤمن بأمور مختلفة؟ أنا فقط...». وتنهدت فيوليت وهي تمطّ نفسها بطريقة استعراضية، «أريد أن أكون مع الشخص الذي أحب... هل ذلك خطأ؟».

«لا». ابتلعت فلورا ريقها بصعوبة. «أو على الأقل، ليس خطأ أن ترغب في، أمّا إذا كانت رغبتك ستتحقق، فتلك قصة مختلفة.».

«لكنّها ليست خيالية». ثمّ استقامت فيوليت وراحت ترجّح ساقها فوق حافة السرير.

«لعلّ الجميع لا يستحقّ نهاية سعيدة». أجابت فلورا، وقد قصدت نفسها في الأغلب.

«حسنًا». نهضت فيوليت وسارت إلى الباب. «أما أنا فبلى.».

ثم غادرت الغرفة. وتذكّرت فلورا الفتاة التي كانت عليها ذات يوم في إستويت، والتي كانت تؤمن هي أيضًا بالقصص الخرافية.



في يوم ماطر، في بداية أيار، استدعيت فلورا إلى صالون السيدة كيبييل.

«من فضلك، اتركينا وحدنا». قالت السيدة كيبييل على خادمة الصالون بنبرة أمر، «لا أرغب في أن يزعجنا أحد».

فسارعت ماويل المذهولة إلى الخروج، وتساءلت فلورا عما حصل، إذ لم يسبق أن رأت السيدة كيبييل تقلل من احترام موظفيها.

«من فضلك اجلسي».

جلست فلورا، وسارت السيدة كيبييل إلى المدفأة، ثم أخرجت قضيب حديد من منصته، وهاجمت بوحشية الجمر المحترق. «الجو بارد في الخارج على الرغم من أننا أصبحنا في أيار، ألا تظنين؟ والملك كما قيل لي، يعاني نزلة برد أخرى. مع ذلك، خمنني أين يتناول العشاء هذه الليلة؟ في منزل تلك المرأة كايسير! ذهب ليلعب البريدج في منزلها، مع أنه عاد حديثاً إلى لندن. الله أعلم ما يراه في تلك المرأة. سامحيني يا فلورا»، قالت السيدة كيبييل وهي تجلس. «قد لا يكون ملائماً أن أحدثك عن مخاوفي، لكنني لا أستطيع التفكير في أحد غيرك؟».

لم يكن لدى فلورا أدنى فكرة عما هي تلك «المرأة كايسير»، لكنها خمنت أن السيدة كيبييل لم تكن «رفيقة الملك» الوحيدة. «هل أسكب لك كأس شيري؟». اقترحت عليها على الرغم من أنها لم تكن واثقة من اقتراحها.

«أعتقد أن كأس براندي سيفيدني أكثر. فأنا مثل الملك، أشعر بالبرد قليلاً. عادة، كان يغادر فرنسا للإبحار مباشرة عبر المتوسط. لكن في ظل الوضع السياسي المتأزم، كان عليه أن يعود بسرعة إلى قصره، لكي لا يحقق أمنية أولئك الذين ينتظرون فرصة لينتقدوا غيابه. وأين زوجته الآن؟ تركته وحيداً وخرجت تبحر عبر الجزر اليونانية! أليس هناك امرأة تهتم حقاً بذلك الرجل المسكين؟».

قدّمت فلورا كأس براندي إلى السيدة كيبييل كما طلبت، فأمسكتها بيدها المرتجفة.

«شكراً لك، يا عزيزتي. سامحيني فأنا لست على طبيعتي».

«لا أظن أن اهتمامك برفاهية الملك بحاجة إلى اعتذار».

«كثير في هذه المدينة، لديهم رأيهم الخاص بي بسبب علاقتي ببيرتي، لكنها

لم تكن يومًا علاقة استغلال أو منفعة. كل ما في الأمر أنني أحب ذلك الرجل. وهل هذه جريمة؟».

«لا أعتقد ذلك، لا».

«أجل، لقد ارتكب أخطاءً في الماضي»، تابعت السيدة كيبييل وهي تضع كأسها من يدها. «لكن ماذا سنتوقع من ابن تخبره أمه أنه لا يصلح ليمشي على الأرض التي يدوس عليها والده، وتحرمه من اعتلاء العرش كملك فقط لأنها لم تثق به فتستولي على العرش، فأى إرث سيعطي ذلك أي طفل، ناهيك إذا كان أمير ويلز؟ هل كان قادرًا على فعل شيء آخر طوال كل تلك السنوات سوى الجلوس خاملاً إلى أن يحين الوقت ليؤدي دوره الطبيعي؟ وكل ذلك بسبب حبها الأعمى لأبيه «المثالي». دعيني أخبرك يا فلورا، ليس هناك من شخص كامل على هذه الأرض. فبیرتي عانى كثيرًا من ازدراؤها المتواصل له».

صدمت فلورا من هجاء السيدة كيبييل. كانت مولودة في عهد الملكة فيكتوريا، الملكة الأقوى في العالم المسيحي، والتي تمثل جوهر الأمومة، مع عائلتها الكبيرة وزوجها المحب. وما قالتها السيدة كيبييل الآن كان يتعارض تمامًا مع تصوّر فلورا للملكة العجوز المشبهة بالعدراء، فلم تستطع تحمّل ذلك.

«والآن، بعد أن صرف كل ذرة فيه ليثبت للعالم أنه قادر على أن يكون ملكًا صالحًا، بات منهكًا وها هي صحته تتدهور بسرعة». قالت السيدة كيبييل وهي تمسكها يدها وتضغط عليها بأصابعها الباردة، «فلورا...أنا أخاف على حياته. حقًا».

«لا بدّ من وجود أشخاص يحرسونه ويهتمون به في القصر؟».

«ستتفاجئين عندما أقول لك إن بيرتي محاط برجال ونساء ضعفاء لا يسعهم سوى تنفيذ أوامره. يعيشون فقط من أجل إرضائه أو إرضاء أيّ كان يشغل منصب السلطة. التقرب من الملك درس يعلمك أنه على الرغم من تزاخم الأشخاص من حوله، وعلى الرغم من تظاهره بأنهم مهتمون لأمره، إلا أنه في الواقع، الموقع الأكثر وحدة على وجه الأرض».



في مساء اليوم التالي، لم ترَ فلورا السيدة كيبييل إلا عبر نافذة الحضانة، وذلك في أثناء مغادرتها المنزل. كان الريش فوق قُبعتها المخملية الكبيرة يرتجف مع كل خطوة من خطواتها. ثم انضمت فيوليت إليها عند النافذة، وهي تحمل بانثر في ذراعيها.

«أمي تتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة. هل أصابت كينغي وعكة جديدة؟».

أبقت فلورا صوتها منخفضاً:

«أنا واثقة من أن كل شيء على ما يرام».

وفي اليوم التالي، لم ترَ فلورا السيدة كيبييل على الإطلاق. ورجّحت أن تكون قد خرجت من المنزل، أو ربّما عزلت نفسها داخل غرفتها. أمّلت فقط ألا يكون الملك قد تعرّض لالتهاب حاد في الشعب الهوائية مثل ذلك الذي عاناه في بياريتز. في صباح اليوم التالي، وفيما كانت فلورا تنزل هي وسونيا إلى الطبقة السفلية لتستمتعا بأشعة شمس أيار المتألّقة وترسما الدلفينيوم التي تتفتّح في الحديقة العامة في مقابل منزلهم، التقت بالسيدة كيبييل في قاعة المدخل.

«كيف حاله؟». همست لها فيما سارتا معاً إلى الباب الأمامي.

«يقول الدكتور ريد إنّه مريض جداً. لقد مدّه بالأكسجين وطلب إليّ أن أذهب إليه. الملكة ما تزال خارج البلاد». وركبت السيدة كيبييل العربة التي تجرّها الخيول، فيما واصلت فلورا وسونيا طريقهما إلى الحديقة.

عند الخامسة والنصف مساءً، رأت فلورا العربة تعود إلى المنزل، والسيدة كيبييل تترجّل من داخلها. وفي وقت لاحق، نزلت إلى الطبقة السفلية لتتناول العشاء، فوجدت السيد جورج وحده إلى المائدة. فاستقبلها بابتسامة متعبة بينما كانت تتخذ مكانها.

«أخشى أن السيدة كيبييل ليست على ما يرام الليلة، ستتناول العشاء في غرفتها. أفترض أنك سمعت أن الملك ليس بخير؟».

«سمعت بذلك، نعم».

«لقد صدر إعلان عن قصر باكنغهام يفيد بأنّ حالة الملك الصحية تثير القلق».

كما أن زوجتي كانت عنده اليوم، وقد أكدت لي أنه مريض جداً. الحمد لله أن الملكة عادت من رحلتها البحرية وأنها أصبحت في القصر».

في النهاية، قالت فلورا: «كل ما يمكننا فعله الآن هو الدعاء له».

«أجل». أوما السيد جورج بحزن. «هذا بالضبط ما قالته زوجتي في وقت سابق هذه الليلة».



«آنسة فلورا، هل أنتِ مستيقظة؟». استيقظت فلورا من نومها بغتةً، ولم يكن لديها أدنى فكرة عن الساعة.

«ما الأمر؟». سألت بارني عندما رأتها واقفة وسط ضوء خافت عند باب الغرفة.

«إنها السيدة كيبييل، وهي في حالة هستيرية. هل يمكنك الذهاب إليها...».

«بالطبع. أين هي؟».

«في غرفة نومها. حاولي أن تهدئي روعها».

في الواقع، لم تكن فلورا بحاجة إلى من يخبرها بمكان السيدة كيبييل، لأنّ شقيقها المثير للشفقة كان ينبعث من خلف الباب وكان سيقودها بطبيعة الحال إليها.

وعلى الرغم من أنها شعرت بأن من التفاهة أن تطرق الباب، لكنها فعلت ذلك مرات عدّة من باب الأدب، ثمّ فتحه ودخلت.

كانت السيدة كيبييل تتجول في الداخل في ثوب النوم وروب من الحرير. كان شعرها البني الكثيف ينسدل ثائراً فوق كتفيها، وقد عكس الحالة النفسية التي كانت تمرّ بها في تلك اللحظة.

«ما الأمر؟ هل هو الملك؟».

«لا». توقفت السيدة كيبييل لتكتشف من كان يسألها، وعندما رأت فلورا، تابعت التجول فيما أغلقت فلورا الباب خلفها. «إنها الملكة! عادت البارحة إلى القصر، بعد أن كانت بعيدة من بيرتي طوال الأسابيع التي اشتدّ فيها المرض عليه،

وها هي اليوم تطردني من القصر! لم يعد مسموحًا لي برؤيته في ساعاته الأخيرة! هل ذلك عدل؟ هل ذلك عدل؟».

وانهارت السيدة كيبييل داخل كومة من الحرير فوق السجادة، وهي تجهش بالبكاء. عندئذ اقتربت فلورا منها وجثت على ركبتها بجانبها.

في النهاية، تمالكت السيدة كيبييل نفسها لتتمكن من مواصلة الحديث. «فلورا، أنا أحبه وهو يحبني، كما أنه يحتاج إليّ، وأعرف أنه يريدني إلى جانبه في القصر!». ثم تحسّست السيدة كيبييل داخل جيب رداؤها لتخرج منه رسالة وتفتحتها. ثم قالت وهي تطعن الورقة بسبابتها: «انظري هنا، اقرئيها». فاستجابت فلورا، وأخذت الرسالة من يديها المرتجفتين.

عزيزتي السيدة جورج،

إنني آخذ مرضي على محمل الجد هذه المرة، وآمل أنك ستأتين لتبهجيني، وإذ لم أحظَ بفرصة أخرى لمواصلة العيش، آمل أن تأتي إليّ لأودّعك وأشكرك على كل ما قدّمته إليّ من لطف وصدقة، إذ أعتبر نفسي محظوظًا بمعرفتك. أنا واثق من أن كل أولئك الذين يكونون لي المودة سينفذون رغباتي التي أعبر عنها في هذه السطور. «فهمت». قالت فلورا بهدوء.

«وماذا أفعل الآن؟».

«حسنًا»، أجابت ببطء. «أعتقد أنه الملك، وأنت واحدة من رعاياه. و... هذه الرسالة تنصّ أنه يتمنى ذهابك إليه».

«لكن، هل أذرّع بها أمام الملكة؟ زوجته؟ هل من اللائق أن أفعل ذلك. هل أستخدم هذه الرسالة لأتوسّل رؤية رجل لم يبقَ أمامه على وجه الأرض إلا ساعات قليلة، حتى أتمكن من توديعه؟ أريد فقط... أن أودّعه...».

لو أن فلورا كانت ستشعر يومًا بثقل العالم على كتفيها، لكان ذلك اليوم.

لم يكن من واجبها إخبار عشيقه الملك إذا ما عليها الإسراع إليه وهو على فراش الموت، متجاهلة استياء الملكة. كل ما كانت قادرة عليه هو وضع نفسها مكان تلك المرأة التي أحبّت رجلاً وتريد أن تراه قبل وفاته.

«على ما أعتقد، كنت سأذهب إلى القصر». قالت فلورا وهي تأخذ نفساً عميقاً، «أجل، هذا ما كنت سأفعله، فقط لأنك، إن لم تتمكني من الدخول لرؤية الملك، ستشعرين في ما بعد أنك حاولت على الأقل تلبية رغبة جلالته. أجل». نظرت فلورا في عيني السيدة كيبييل. «هذا ما كنت سأفعله».

«في هذه الحال، سيكرهني أكثر المعارضين لي في القصر».

«ربّما. المهمّ ألا يفعل هو».

«اللّه أعلم ماذا سيحلّ بي عندما يرحل... لا أجروّ على التفكير في ذلك».

«لكنّه لم يرحل بعد».

«عزيزتي فلورا». قالت السيدة كيبييل وهي ترفع ذراعيها المرتجفتين صوبها. «أنت الفرحة بالنسبة إليّ، وللملك أيضاً. ثمّ أخذتها بين ذراعيها لتحضنها. سأنقل سلامك إليه».

«من فضلك افعلي ذلك. فأنا معجبة به جدّاً».

«وهو معجب بك أيضاً». ثمّ مسحت السيدة كيبييل دموعها فيما كانت تنهض عن الأرض. «سأذهب إلى القصر، وإن لم يسمحوا لي برؤية حبيبي، فليفعلوا. شكراً لك يا فلورا. هل يمكنك أن ترسلي لي بارني لتساعدني على ارتداء ملابسني؟ لن أرتدي اللون الأسود»، قالت وهي ترتجف. «الأفضل أن أختار ألواناً فرحة لكي يبتهج قليلاً».

«بالطبع، حظاً موفقاً». وغادرت فلورا الغرفة.



بقي سكان 30 ميدان پورتمان مستيقظين في انتظار رجوع السيدة كيبييل إلى المنزل. وكانت ناني تأتي بنشرات منتظمة عن صحة الملك، تمرّرها لها السيدة

ستايسي التي راحت تنقل إليها ثرثرة الشارع من التجار الذين يعرجون على باب المطبخ وهم يأتون بالتوصيلات المنزلية.

وجاءت سونيا تجلس إلى جانب فلورا في الحضانة النهارية.

«هل تعتقدين أن كينغي سيذهب إلى الجنة اليوم؟ جميع الخدم يقولون إنه سيموت».

«إذا حصل ذلك، فأنا واثقة من أنه سيذهب إلى الجنة. فهو رجل طيب».

«أعرف أن بعض الناس يخافونه، لكنّه كان دائماً يلعب معي. كان يجعل قطعاً من الخبز المحمّص تنزلق بسرعة على ساقه من فوق سرواله، فتتناثر الزبدة في كل مكان. كما أنّه طيب، على الرغم من أنني لم أحبّ كلبه كثيراً، لكنني أعتقد أنّه سيصبح لديه أجنحة يصعد للعيش فوق السحابة بجوار الله. ففي النهاية، هو أيضاً ملك».

«نعم، هو كذلك». قالت فلورا فيما كانت سونيا متكورة وتمص إبهامها.

كان الغسق قد حلّ عندما سمعت فلورا أخيراً عربة الخيل تتوقف أمام المنزل تحت نافذتها. ثمّ رأت هيئة تخرج نصف محمولة من داخلها. فأسرعت إلى أعلى الدرج وانحنت فوق الدرابزين لتسترق السمع، إذ كانت تتوقّع صوت السيدة كيبييل. لكنّها لم تلق سوى الصمت.

«السيد والسيدة كيبييل يتناولان العشاء في غرفتهما، يا آنسة فلورا. سأصعد إليك بالصينية». قالت السيدة ستايسي، وقد لاحظت فلورا أنّها ترتدي ملابس سوداء. «أو ربّما ارتدتها دائماً، ولم ألاحظ من قبل». فكّرت فلورا.

عند منتصف الليل، كانت فلورا ما تزال مستيقظة عندما سمعت أجراس الكنيسة القرية تعلن حلول منتصف الليل، وقد بدت لها مثل ناقوس الموت. وقرابة الواحدة صباحاً، سمعت أجراس الحزن تُقرع في جميع أنحاء لندن.



«رحل الملك، رحمه الله، رحم الله الملك». قالت ناني وهي تستقبلها في طبقة الحضانة، في صباح اليوم التالي. «الفتاتان غارقتان في الحزن ولا نقدر على مواساتهما. هلاً تأتين لرؤيتهما؟».

«بالطبع». دخلت فلورا الحضانة ووجدتهما متكومتان داخل كرسي بذراعين وپانثر يتمدد فوق حضنهما.

«آه يا فلورا، مات كينغي في الليل! أليس ذلك أمرًا فظيئًا؟». بكت سونيا.

«نعم، إنه بالفعل أمر محزن».

«ماذا ستفعل أَمنا الآن؟ لن نذهب إلى بياريتز مرة أخرى»، قالت فيوليت.
«ولن تصبح ملكة أبدًا».

«الملك سيظلّ ملكًا، وأمك ستظلّ ملكة»، قالت فلورا بلطف فيما كانت تضمّهما إليها وهما تميلان إلى حضنها.

«هناك آلاف يتجمعون أمام القصر، وكثير غيرهم يتجمعون عند عتبة منزلنا». قالت ناني وهي تقف بجوار النافذة وتدقّق النظر في الشارع تحتها. «يريدونها أن تقول شيئًا، لكن ماذا عساها أن تقول؟ كانت السيدة كيبييل ملكة الشعب، لكنّها، كما تعلمين، ليست هنا».

«أين هي؟». سألت فلورا.

«لقد ذهبت مع السيد جورج إلى آل جيمس في شارع جرافتون». أجابت ناني بكل هدوء. «وعلينا أن نتبعها بعد قليل. ابقِي مع الفتاتين ريثما أحزم الأمتعة». فأومأت لها فلورا.

«أريد أن أرى أمي»، قالت سونيا وهي تبكي على كتف فلورا. «لَمْ ذهبت مع أبنينا وتركتنا؟».

«لأنّ الأشخاص المحزونين يرغبون دائمًا في أن يدعمهم الآخرون بسلام».

«إِذَا لَمْ لا نغلق الستائر في منزلنا لنحزن في الداخل؟».

«قد يكون الأمر صعبًا، بوجود كل هؤلاء الذين يثيرون الضجة في الخارج». قالت وهي تمسّد شعر سونيا.

ابتعدت فيوليت عن حضن فلورا لتنهض. «لَمْ ذهبا إلى آل جيمس؟ إنه المنزل الأكثر رعبًا على الإطلاق، كما أنّهم أفضع الناس على الإطلاق». وزمّت فيوليت شفّتها

وهي تنظر إلى المحتشدين أمام الباب الأمامي. «لِمَ أولئك الناس فضوليون إلى هذا الحد؟ لِمَ لا يتركونا وشأننا؟».

«هم أيضًا في حالة حداد ويريدون أن يقدموا الدعم لمن كانوا قرييين من كينغي».

«أتمنى لو كنت قادرة على الانضمام إلى كل من يقف خارج القصر... وأحزن عليه من دون أن يراني أحد».

«حسنًا، كونا على ما أنتما عليه، إذ ما باليد حيلة. ها إن ناني تحزم الأمتعة الآن، وعليكما أن تكونا واعيتين وشجاعتين كما يتمناكما كينغي».

«سنحاول يا فلورا، لكننا لم نصبح راشدين بعد، ما نزال طفلتين»، قالت فيوليت بغطرسة وهي تخرج من الحضانة. وتبعتها فلورا بحثًا عن ناني.

«هل لديك تعليمات في ما يخصني؟ هل سأنضم إليكم أنا أيضًا؟».

«السيدة كيبييل لم تذكر شيئًا عنك يا آنسة فلورا. لدي تعليمات فقط باصطحاب الفتاتين وموازيل إلى شارع جرافتون».

«فهمت».

«حسنًا، ستتزوجين في غضون أسبوع. ربّما تعتقد أنك ستذهبين للإقامة عند أختك أو عائلة خطيبك؟».

«نعم، بالطبع».

«هذه نهاية حقبة يا آنسة فلورا». هزّت ناني رأسها وهي تتنهد بشدة. «فبعد اليوم، لا شيء سيبقى على حاله لنا جميعًا».

لوّحت فلورا بيدها إلى الفتاتين عند قاعة المدخل، فيما كانت الدموع تسيل فوق خديها. وبقيت تشاهد هما وهما تجتمعان داخل عربة الخيل بناني وموازيل، أمام أنظار المراسلين والمحتشدين المحاصرين من رجال الشرطة. ثمّ أغلق السيد رولف باب السيارة، وفكرت فلورا كم كان المتفرجون يشبهون النسور، وهم في ملابس الحداد. وفيما كانت تصعد إلى الطبقة العلوية، راحت تتساءل عمّا إذا كانت ستري مجددًا أيًا من أفراد عائلة كيبييل.

عادت فلورا إلى غرفتها فيما كان المنزل غارقاً في هدوء مخيف. وكتبت برقية إلى فريدي تسأله إذا ما كان مؤثّقاً أن تذهب إلى سيلبورن في اليوم التالي، ثمّ سلّمتها إلى السيد رولف ليرسلها. كانت تعرف أنها لن تجد لنفسها ملجأً في هاي ويلد.

بعد أن انتهت من حزم حقائب ملابسها، مشت مرة أخرى إلى النافذة، ورأت أن الحشد قد بدأ يتفرّق.

بحلول المساء، كان الشارع قد غرق في صمت شبيه بصمت المدافن، هكذا فكرت في نفسها. حاولت ألا تشعر بالأذى، أو بأنّ الجميع قد تخلّى عنها. ففي النهاية، من شبه المؤكد أن السيدة كيبييل افترضت، كما قالت ناني، أن لديها ملاذّين لتذهب إليهما؛ هذا إن استطاعت التفكير بوضوح في حزنها الكبير.

ثم فتحت فلورا نافذة غرفتها واتكأت على أسكفتها، وفيما كانت تمسك بپانثر بين ذراعيها، نظرت إلى سماء الليل الصافية.

«وداعاً أيّها الملك العزيز. مع السلامة». قالت للنجوم فوق رأسها.

31

«لديك زائرة يا آنسة فلورا». قالت بيغي وهي تدخل غرفة نومها.

«من؟».

«الكونتيسة وينشستر. أدخلتها إلى غرفة الرسم في الطبقة السفلية وقدمت إليها الشاي».

«شكرًا لك».

شعرت فلورا بالارتياح لأن الكونتيسة استجابت لبرقيتها بعد يوم واحد فقط من إرسالها، على الرغم من دهشتها أن دافني أتت بنفسها لرؤيتها. مشت إلى الطبقة السفلية، وفتحت باب الغرفة حيث رأت دافني تجلس على الأريكة الطويلة. كانت ترتدي فستانًا من المخمل الداكن الفاخر، وتغطي خصلها الرمادية بعصابة يلمع فوقها الياقوت الأسود.

"عزيزتي فلورا، آسفة لهذه الخسارة». قالت دافني وهي تنهض عن الأريكة وتأخذ فلورا بين ذراعيها.

«ليست خسارة لي وحدي بقدر ما هي خسارة للبلاد والعالم».

«حسنًا، لقد خسرنه جميعًا». قالت دافني. دعت دافني فلورا إلى الجلوس، وقد أجادت لعب دور المضيفة على نحو طبيعي.

«يا لها من مأساة، أليس كذلك؟ كما أن التوقيت سيئ جدًا».

«ربما ليس هناك وقت مناسب لخسارة ملك إنكلترا».

«بالطبع، لكن الآن لم يعد بإمكاننا إقامة حفل الزفاف في الأسبوع القادم. سيُنظر إلى أي شكل من أشكال الاحتفالات على أنه استخفاف بالملك». «أفهم منك أنه سيتعين علينا تأجيل الزفاف».

«نعم، وأنا واثقة من أنك ستفهمين الوضع. خاصة في... هذه الأوضاع». على الرغم من أن فلورا لم تفهم تعليقاتها الشائكة، واصلت كلامها غير مبالية. «أفترض أنك تلقيت البرقية التي أرسلتها. فعائلة كييل غادرت المنزل، وأشعر بأنه من غير اللائق أن أبقى هنا. أرجو أن أكون قادرة على الذهاب إلى سيلبورن حيث يمكنني البقاء إلى أن يحين موعد زواجي بفريدي». «لكن بالتأكيد يمكنك البقاء في منزل أختك في كنت؟». «لن يكون الأمر... مريحًا».

«أحقًا؟». سألتها دافني وهي تمعن النظر فيها. «اعتقدت أن العريزة أوريليا تعول على رفقك؟».

«لا شك في ذلك. لقد كنا مقرّبتين من بعض...». بحثت فلورا عن تفسير مناسب، لكنها وقعت في حيرة. «لكنني لا أستطيع البقاء هناك، ولا يمكنني تغيير الوضع». «فهمت».

وخيم صمت داخل الغرفة. «عزيزتي»، تنهدت دافني في النهاية. «بالنظر إلى كيفية سير الأمور الآن بعد أن توفي الملك، عليّ إبلاغك بأن لا زفاف على الإطلاق. أنا واثقة من أنك ستفهمين الوضع».

فنظرت فلورا إلى دافني بارتباك.

«هل ألغي تمامًا؟».

«أجل».

«أنا... هل يمكنك إخباري بالسبب؟».

استغرقت دافني وقتًا طويلًا لجمع أفكارها قبل أن تتابع. «هل يمكنني أن أسكب لك بعض الشاي؟».

«لا، شكرًا. أتوسل إليك أن تخبريني عن سبب إلغاء زواجي من فريدي. أنا أتفهم ضرورة التأجيل، لكن...».

«بسبب هويتك يا عزيزتي. أنا واثقة من أنك قادرة على تفهم الوضع، ففي هذه الأثناء، الجميع يشعر بالملكة وبخسارتها المروعة، لذلك سيكون زواجك من ابني غير ملائم».

«آه، بسبب السيدة كيبييل». قالت فلورا أخيرًا بعد أن اتضحت لها الصورة.
«نعم، وهذا أيضًا».

«أفهم ذلك».

«لست واثقة من أنك تفهمين يا عزيزتي، لكن من جهتي، أستطيع القول إنني أشعر بالحزن إزاء هذا التبدل غير المتوقع في الأحداث. كنت أؤمن بأنك قادرة على منح فريدي الاستقرار المطلوب، كما كنت أتطلع إلى الترحيب بك في أسرتنا. لكن بالنظر إلى تبدل الظروف، لم يعد زوجي قادرًا على تأييد أي اتحاد بينك وبين وريثه. وكما تعلمين، لا يمكن المرأة إلا أن تفعل ما يطلبه منها زوجها. والآن، من فضلك لا تحزني يا عزيزتي على الطريقة التي سارت بها الأمور، لأن الخطأ ليس خطأك أنت».

لم تجب فلورا بأي كلمة. شعرت بأنها ورقة في مهب الريح، إذ كانت عاجزة تمامًا عن السيطرة على مصيرها.

«يمكنك العودة إلى اسكتلندا للبقاء مع عائلتك، إذا كنت غير قادرة على الذهاب إلى منزل أختك؟». اقترحت دافني.

«نعم، قد أفعل ذلك».

«حسنًا إذن، أشك في أن هناك ما يمكنني إضافته. تأكدي أن فريدي محطّم، مثلنا جميعًا، لكنني واثقة من أنه سيتعافى، وأنت أيضًا». ثم نهضت ومشّت إلى الباب. «وداعًا يا عزيزتي، وليباركك الله».

بعد مغادرة دافني، بقيت فلورا جامدة من دون حراك في مقعدها فترة من الوقت. شعرت بخدر... ولم تسترح لإطلاق سراحها المفاجئ، كما أنّها لم تكن خائفة من مصيرها المجهول، وإلى أين يمكنها الذهاب. فبدا لها كأنّ حياتها قد بدأت في هذا المنزل، وأنها ستنتهي فيه.

«أو ربّما انتهت لتبدأ من جديد». تمتمت وهي تحاول أن تصحو من لوعتها على الملك، ومن رحيل آل كيبييل المفاجئ، ومن الصدمة التي يحدثها ذلك التغيّر المفاجئ في مستقبلها.

بعد ذلك، بدأ الغسق يهبط، وكان غسقاً لم يكتب للملك أن يراه. كانت الشوارع في الخارج غارقة في صمت مميت، كما لو أنّ سكّان المدينة أجمعين اختبأوا داخل منازلهم، حداً على موت ملكهم. أسندت فلورا ظهرها إلى الكرسي، وتركت دمة تسيل إلى أسفل خدّها، بعدما راحت تتذكّره داخل هذا المنزل، مستحضرة حضوره العظيم وحبّه للحياة. لا بد من أنّها غفت قليلاً، لأنّها بعد ذلك وجدت نفسها تستيقظ فجأة على رنين الجرس. وعندما فتحت عينيها، لم تر سوى الظلام. فبحثت وسط السواد الحالك عن باب غرفة الرسم، وعندما شقّته قليلاً استمعت إلى طقطقة.

ثم سمعت السيدة ستايسي وبيغي يصعدان الدرج.

«اذهبي وتفقّدي الآنسة فلورا في غرفتها، سوف أشعل النور في غرفة الرسم. من المفيد لنا أن نعرف متى تنوي الرحيل. لقد أرسل السيد جورج أحدهم في وقت سابق ليلبغني إعفائي من الخدمة ريثما يقرّرون ماذا سيفعلون. لذلك أرسلت الخادم إلى العلية من أجل ملايات الغبار».

«لو كنت مكانها لغادرت لندن في أسرع وقت، أقلّه احتراماً للملكة، إن لم يكن من أجل أمر آخر».

«ما زلت غير متأكدة إن كانت تعرف الحقيقة». أجابت السيدة ستايسي.

«حسناً، إن لم تعرفها بعد، من الأفضل أن يحصل ذلك الآن، لأنّ كل لندن تعرفها». هسهست بيغي.

«أتفق معك! ابحثي عنها في غرفتها، سوف أشعل المصابيح».

ابتعدت فلورا عن الباب. وعندما دخلت السيدة ستايسي، أطلقت صرخة حادة إذ تفاجأت بها وهي تقف هناك في الداخل وسط الظلام الحالك.
«يا إلهي، آنسة فلورا! لقد أفرعتني».

«أعتذر إليك»، قالت فلورا فيما بدأت السيدة ستايسي بإشعال المصابيح.
«لديك زائر. سأرسله إليك وأطلب إلى مابيل أن تعيد إشعال النار. فالمكان بارد قليلاً هنا».
«من هو؟».

«سير إرنست كاسيل، يا آنسة فلورا».

عندما غادرت السيدة ستايسي الغرفة، مشت فلورا إلى الخزانة الكبيرة المذهبة، ووقفت أمام المرأة المعلقة فوق المدفأة لترتب شعرها. تعجبت من سبب زيارة سير إرنست لها، أو ضمن الإطار نفسه، ما عنته يبغي بشأن مغادرتها لندن احتراماً للملكة. فاستنتجت أن تكون سمعتها قد تلوّث بسبب علاقتها بالسيدة كييل.
«مساء الخير، عزيزتي الآنسة ماك نيكول».

دخل سير إرنست كاسيل غرفة الرسم، وسار نحوها وقبّل يدها. وعلى الفور، تمكنت فلورا من ملاحظة احمرار عينيه وشحوب بشرته.
«سير إرنست، اجلس من فضلك».

«شكراً لك. أنا آسف لتطفلي على حسرتك. إنه بالفعل يوم رهيب بالنسبة إلى كل من عرف الملك وأحبه. وإلى رعاياه بالطبع. لا بدّ من أنّه كان سيندهش ويسرّ بفيض المشاعر الذي تظهره إمبراطوريته الحبيبة لو تمكّن من رؤيته. إنهم ما زالوا يقفون بالآلاف خارج قصر باكنغهام. هذا الملك الذي ظنّ أنّه غير قادر على السير على خطى والدته، أو والده. أنا... حسناً...». ابتلع ريقه بصعوبة. «إنّها لتحيّة لائقة بمقامه».

«هل لي أن أسألك لِمَ أتيت يا سيدي؟ فالسيدة كييل لم تعد تقيم هنا».
«أعرف ذلك. لقد ذهبت لرؤيتها في شارع جرافتون ولأقدم إليها ولعائلتها

تعازي الحارة. كانت متوقعة، فأخبرتني العزيزة سونيا أن والدتها غاضبة من شدة الحزن، وأنها ترفض رؤية أحد، حتى بناتها». «لقد أحبته كثيرًا».

«نعم، على ما أعتقد. وبصراحة يا آنسة ماك نيكول، ربّما تبكي أيضًا على نفسها. فبرحيل الملك، انتهى 'عهدها'». «إنّها أوقات عصيبة بالنسبة إليها».

«وإلى بناتها. على الرغم من ذلك، إذا كنت أعرفها حقًا، أنا واثقة من أن السيدة كيبييل ستنتشل نفسها من الحزن سريعًا، لكن اختفاءها عن الأنظار في الوقت الحالي هو أفضل ما يمكنها فعله».

«هل عرفت إن حظيت بفرصة مقابلة الملك قبل وفاته؟».

«نعم، كنت هناك. إلّا أن ما حدث في ذلك اليوم كان مؤسفًا. عندما رأت السيدة كيبييل الملك أصيبت بنوبة هستيرية. فطلبت الملكة إخراجها من الغرفة. من المؤسف أنها لم تتصرّف في ذلك اليوم بكرم الأخلاق الذي عرفناها به». تنهد السير إرنست وتابع القول، «لكن ماذا تنفع الكرامة عندما يقترب الموت؟ لذلك، بينما كنت في شارع جرافتون، سألتها إن كان بإمكانني رؤيتك، وتفاجأت عندما اكتشفت أنهم تركوك وحدك هنا. يبدو أنهم تخلّوا عنك من دون سوء نيّة».

«آه، أنا واثقة من أنّه لم يحصل عن قصد. فكما قلت الآن، إن السيدة كيبييل تعاني نوبة غضب ناتجة عن حزنها على الملك. في أسوأ الأحوال، يمكننا اعتبار ما حصل من باب الخطأ. وفي أحسن الأحوال، من باب اعتقادها بأنني سألجأ إلى منزل أختي أو خطيبي».

«أنا معجب بولائك، لكن يمكنني أن أؤكد لك أن كل ما تفعله السيدة كيبييل في حياتها نابع من تفكير عميق. لرّبما تفهمين سبب شعورها بضرورة النأي بنفسها عنك في هذا الوقت؟».

«لا». أطلقت فلورا ضحكة مكتومة متجهمة. «على الرغم من أنك لست أوّل من يزورني هنا اليوم. فكونتيسة وينشستر، والدّة خطيبي، فيكونت سوامز، وصلت

بعد ظهر اليوم لتخبرني بأنَّ حفل زفافي في الأسبوع المقبل لن يؤجَّل بسبب وفاة الملك، إنَّما سيُلغى».

«هذا يعني أن الملك كان رجلًا حكيمًا بالفعل وقد توقَّع حدوث ذلك».

«هل فعل؟ بسبب ارتباطي بالسيدة كيبيِل؟».

«جزئيًّا نعم، لكن ليس كليًّا».

«سير إرنست». وقفت فلورا وهي تضع يديها قرب النار لتدفئتهما، وقد بدأ الإحباط والإرهاق والحزن يتغلَّب عليها. «منذ أن استُدعيت إلى لندن قبل سبعة أشهر لأقيم تحت هذا السقف، وأنا أشعر بأنني بيدق بريء في لعبة يعرف الجميع قواعدها باستثنائي أنا. اعدرني على فظاظتي لكنني أتوسَّل إليك أن تخبرني لِمَ أحضرت إلى لندن في المقام الأول. كنت فتاة في التاسعة عشرة من عائلة أرستقراطية عريقة على الرغم من أوضاعها الصعبة، إذ لم يكن والدَي يملكان المال الكافي لتشارك ابنتهما البكر بأول ظهور لها في البلاط الملكي. ثمَّ وجدت نفسي فجأة أحظى براعية بمقام السيدة كيبيِل التي قدَّمتني إلى أعلى طبقات المجتمع اللندني، ثمَّ أتناول الشاي مع الملك نفسه، وأتلقَّى عرضًا بالزواج من فيكونت، ما يعني أنني كنت على وشك أن أصبح ذات يوم، كونتيسة متزوجة من إيرل، وعلى رأس إحدى الملكيات في إنكلترا عامَّة».

وتوقفت فلورا عن الكلام إثر انقطاع نفسها من شدة هيجان عواطفها، واستدارت نحوه لتنظر إليه مباشرة. «والآن، بعد أن توفي الملك، تركتني السيدة كيبيِل وحيدة في منزلها، كما أن زواجي الوشيك ألغى تمامًا. بصراحة، أنا لا أفهم سبب هذا التبدُّل المفاجئ في الحظ، كما أن الأمر بدأ يثير جنوني! ولديَّ شعور أن الآخرين يعرفون شيئًا لا أعرفه. أنا...».

«آنسة ماك نيكول، بت الآن قادرًا على فهم سبب وصفك لنفسك ببيدق بريء. أنا مثل الآخرين، افترضت أنك تعرفين الحقيقة. من فضلك، اسمحي لي أن أسكب لكلينا كأس براندي».

«أنا حقًّا لا أشرب البراندي».

«اعتبريه دواءً. ستحتاجين إليه».

نهض سير إرنست ومشى إلى صينية الدورق، فيما شعرت فلورا بالإحراج من إظهار هذا الكمّ من العواطف، فبذلت قصارى جهدها لاستعادة رباطة جأشها.

«تفضّلي، اشربيه يا عزيزتي، سوف يُشعرك بالدفء».

«من فضلك يا سير إرنست، لم أرغب في المجيء إلى لندن في الأساس، وعند التفكير في الأحداث السابقة، أشعر الآن بأنّ السعادة تخمّني لتحرّري من زواج كان سيربطني برجل لن أقدر يوماً على حبّه. لذلك، لا تخافي من إثارة مشاعري أكثر. حقيقة أن تكون معي هنا هذه الليلة، ليلة وفاة ملكنا، يؤكد لي أن لديك كل الإجابات التي أحتاج إلى معرفتها».

«سامحيني، فأنت تستحضرين مشاعر خالجتني العام الماضي. ففي مثل هذه الليلة، أخبرني الملك بخطّة السيدة كيبيّل بإحضارك إلى هنا لتعيشي معها في لندن، وبأنّه لم يكن واثقاً من الأمر. وفي ما بعد، أُعجب بك كما تعرفين، وأُعجب أيضاً بالسيدة كيبيّل لإدخالك إلى حياته، وهذا كان مقصدها في الأساس، خصوصاً بعدما أصبحت أياّمه معدودة. كان يعرف بالأمر، وآه كم كان يعرف به. بعد أن بقيت معه في بياريتز، أرسل على الفور في طلبي، وطلب إليّ أن أتكلّف بك في حال وفاته. كما طلب إليّ أن أعطيك هذا». فتح سير إرنست حقيبته، وأخرج منها مغلفاً رقيقاً سلّمه إلى فلورا.

عندما أمسكت بالمغلف، اتضح لها أنّه كان موجّهاً إليها، من خط اليد الشائك وغير المنتظم.

«وعندما زرت الملك ليلة البارحة، طلب إليّ أن أحضر معي المال، مبلغاً نقدياً كبيراً، أرادّه أن يكون نقوداً ورقية. فذهبت لرؤيته ووضعت المبلغ بجانب سريره. فأوماً إليّ ليشكرني، ثمّ قال لي إنّّه يأمل أن تتاح له الفرصة لإعطاء هذه الأموال إلى من سيكون بحاجة إليها. لكن المؤسف، بعد ذلك بقليل، دخل في غيبوبة. فأعاد أحد مستشاريه المغلف إليّ، إذ شعر بأنّه من غير المناسب لمثل هذا المبلغ الكبير أن يبقى بجانب سريره. فالمبلغ يقارب عشرة آلاف جنيه. وبما أنّني أعرف لمن كان

المبلغ، جئت به إلى هنا». ثم مد يده إلى حقيبته مرة أخرى، وأخرج منها طردًا ملفوفًا بورق بني، ووضعه بين يدي فلورا المرتجفتين.

«أنت حتمًا لا تعني أنه خصص هذا المال لي؟ فأنا بالكاد أعرف الملك. التقيت به مرتين فقط في حياتي».

«يا آنستي العزيزة، أنا مندهش حقًا من أن السيدة كيبيل لم تخبرك بالحقيقة. كنت أتمنى ألا تقع مسؤولية إخبارك بها علي». ثم احتسى سير إرنست بقية كأس البراندي تحت ناظري فلورا التي كان صبرها قد فرغ.

«آنسة ماك نيكول، فلورا....».

«نعم؟».

«أنت ابنته».

عرفت فلورا في تلك اللحظة أن تلك الجملة القصيرة قد انحفرت في ذاكرتها إلى الأبد. ثم نظرت إلى الخارج لتحقق في ظلمة الليل، وهي تتساءل لِمَ لم تخطر الفكرة مطلقًا في بالها. ومع ذلك، كانت تعرف أنها لو خطرت، لرفضها عقلها على اعتبارها فكرة سخيفة. أما الآن، وبينما كانت تنظر إلى المغلفين في حجرها، ثم إلى ذلك الرجل الذي كان من أقرب مستشاري الملك، والذي كان يجلس قبالتها، بدا لها كل شيء منطقيًا.

ربما في قرارة نفسها، كانت تعرف ذلك، لكن بالنظر إلى أن تلك الفكرة كانت واهية، لم تسمح لها بأن تطفو إلى السطح.

العشيقة والطفلة غير الشرعية.

بعد أن قرّرت أن ما سمعته لتوها كان يستحق كأس براندي، تناولت جرعة من الكأس التي تجاهلتها قبل دقائق. «اعذرني يا سيدي، إنها صدمة كبيرة. وبالتأكيد، لا يوجد دليل على ما تقول؟

«كل الأطراف المعنية تعرف أنها الحقيقة. والأهم من ذلك، أن والدك يعرف أنها كذلك. «والدك الحقيقي»، صحّح نفسه. اعلمي أنه بعد العلاقة التي نشأت بينه

وبين والدتك، لم يكن بوسعها الاعتراف بأنها... وجدت نفسها في مأزق. لذلك وافقت على الزواج مباشرة والابتعاد عن لندن».

«لهذا السبب لم يرني جدِّي، أو يقبلوا الدعوة إلى حفل زفافي...».

«ولهذا السبب لم تشاركي في أوّل ظهور في البلاط الملكي. إذ لم يكن هناك مجال لظهورك أمام الملكة التي كانت ستتعرف إليك حتمًا؟».

«لم أكن لأستطيع فعل ذلك يا سيّدي، أتفق معك. وأبي، أعني زوج أمي، الآن أفهم لِمَ لم يكن قادرًا على النظر إلى وجهي. لا بدّ أنّه كان يعرف».

«أنا متأكّد من أن افتراضك هذا صحيح. فإذا نظرت إلى شهادة زواج والديك وشهادة ميلادك، ستجدين أنّك وُلدت قبل ثلاثة أشهر من الموعد... هناك لخبطة في التواريخ».

وتذكّرت فلورا الرسالة التي وجدتها داخل خزانة الأدراج في غرفة والدها. «نعم. وأعرف أيضًا أنّهم حوّلوا الأموال إلى حسابه. أعتقد... أنّهم دفعوا له مبلغًا من النقود ليتزوَّج بأمي. لكن هل... هل أحب الملك أمي؟».

«سامحيني، لا أستطيع التعليق على هذا، لكنّه بالتأكيد أعجب بك».

«وهل كانت السيدة كيبيّل على علم بالعلاقة بين والدتي والملك؟».

«لقد شاركتنا في الظهور نفسه. كانتا صديقتين».

«لندن بأكملها تعرف من أكون، وأنا ليس لديّ علم بذلك». تمتمت قائلة.

«على الأقل، ازدادت حظوظك عندما أصبحت تحت رعاية السيدة كيبيّل».

«لكنّني كنت، أنا أيضًا، من بلاط الملك البديل».

«ذلك البلاط الذي أسعد الملك طوال حياته».

«لِمَ أحضرتني السيدة كيبيّل إلى لندن؟».

«مرّة أخرى، لست على يقين إذا رغبت في تقديمك إلى أبيك من أجلك أنت أو من أجله هو. أو في الواقع من أجل أن يعود بالفائدة عليها لتنال رعاية الملك. لكن الأمور سارت كما حدث، وأخبرني الملك في عدد من المناسبات، كم كان

يستمتع بصحبتك. لقد رأى فعلاً أوجه شبه عدّة بينكما. فظهورك في حياته منحه فرحة كبيرة يا آنسة ماك نيكول. ولو عاش أطول، فأنا واثق من أنه علاقتهما كانت ستتوطّد أكثر».

«هكذا أصبح الآخرون يرغبون في وجودي، لأنّهم كانوا يعرفون أنّي ابنة الملك. كما أنّه قبلني في النهاية وإن كنت ابنة غير شرعية»... فكّرت فلورا بهدوء. «ولهذا السبب فكّر فريدي في الزواج بي. بقيت الكونتيسة تتحدّث طوال الوقت عن «النسب العريق» كما أنّها تحدّثت عن إمكانية حضور الملك حفل زفافنا».

«ربّما كان له تأثير في الأحداث، نعم. أمّا الآن وقد مات الملك، وبينما ما تزال الملكة....».

«ذلك الوهم الذي خلقته السيدة كييل بعصاها السحرية، اختفى مثل الحلم». وسمحت فلورا لنفسها أن تبدي ابتسامة شاحبة. «حسنًا... مهما حدث في الماضي، ومهما سيأتي في المستقبل، أنا سعيدة لكوني على الأقل كنت معه بعض الوقت».

«لقد كان فخورًا بك يا آنسة ماك نيكول، على الرغم من أنّه كان مضطّرًا إلى إبقائه سرًّا. وأتمنّى أن تتفهّمه».

«أتفهّم».

«والآن، كما أشرت لك سابقًا، أصبحنا على أبواب عصر جديد. لقد انحلّ البلاط القديم، وسيجرف الذين خدموا فيه، لذلك سنضطرّ جميعنا إلى السعي للبقاء أحياء في المستقبل. وأنا، نيابة عن الملك، أمل أن تسمح لك محتويات هذا المغلّف من تحقيق ذلك. أقترح عليك ألاّ تبذخي باستخدامه. لقد رأى فيك روحًا حرة، بريئة، غير ملوثة، وبعيدة من كل ما اضطرّ إلى التعامل معه منذ ولادته. ومهما كُتب لك في المستقبل، استخدمني إرثه بحكمة. والآن، هل ستذهبين للبقاء عند أختك؟».

«لا، لا أستطيع ذلك».

«هل أغلقت الأبواب في وجهك هناك؟».

«نعم». لكن فلورا قررت عدم إخباره بالتفاصيل.

«من فضلك، تذكّري أن هذا الموقف الذي تجددين نفسك فيه ليس خطأك. لذلك أرجو ألاّ تشعرني بالذنب. فتلك المكائد التي حيكت من حولك ليست من

صنعك. إنها حادثة ولادة بسيطة. فذلك كانت لعنتك في البدء، وآمل بكل صدق، أن تكون نعمتك الأخيرة».

«حقاً، كان من دواعي سروري التعرف إلى الملك».

«والآن يا آنسة ماك نيكول، عليّ الانسحاب. يمكنك أن تتخيلي كل ما لدي لإنهائه، لكنني قدّمتك على الباقي لأنني كنت أعرف أنك كنت في مقدّمة الأفكار التي شغلت بال الملك وهو على فراش الموت.

«شكراً على الوقت الذي خصصته لزيارتي».

فنهضت فلورا وتبعها إرنست كاسيل.

«لا تشكريني. إنني أشعر بفزع شديد لأنّي سأتركك وحيدة في هذا المنزل».

«لا، يا سير إرنست، بل أنا من يشكرك على كل شيء. بغض النظر عن النتيجة، لقد أعطيتني الإجابات التي بحثت عنها منذ وصولي إلى لندن. الآن وقد عرفتُها، فقد أصبح بإمكانني الاستمرار».

«سأبقى دائماً في خدمتك. إن أردت مساعدتي في استثمار ميراثك، لا تترددني

في الاتصال بي، واسمحي لي أن أقول لك إن اللطف الذي أظهرته لي في مقابل ما أخبرتك به هذه الليلة، يثبت لي أنك أميرة عظيمة. وأنت ابنة أبيك. عمت مساءً يا آنسة ماك نيكول».

وانحنى إرنست كاسيل قليلاً أمامها، ثمّ غادر غرفة الرسم على عجل. فعرفت

فلورا غريزياً أنّه أراد إخفاء مشاعره الخاصة. ثمّ صعدت بهدوء إلى غرفتها في الطبقة العلوية يتعقبها بانثر، كما لو أنّه يوم عادي مثل باقي الأيام.

وهناك وجدت مصابيح الغاز مشتعلة، فاستلقت فوق السرير وراحت تتمتع

في المغلف الضخم. تملّكها شعور غريب بالهدوء، فما قيل لها قبل قليل لم يكن أكثر سورالية من الأحداث التي عاشتها خلال الأشهر السبعة الماضية. أما الآن وبعد جمعها مختلف أجزاء الأحجية، فقد اكتملت الصورة النهائية في ذهنها.

في ما بعد، تمكّنت من أن تغطّ في نوم عميق بعد أن أشفقت عليها الطبيعة وسمحت لعقلها المصدوم بالاستراحة. وفي اليوم التالي، استيقظت في ساعة

مبكرة، قبل بزوغ الفجر بقليل. ووسط خرخرة بانثر الذي كان يستلقي بجانبها، فتحت المغلف الأول.

26 نيسان 1909

عزيزتي فلورا،

(أُثني على والدتك لأنها اختارت لك هذا الاسم، بتَّ تعرفين كم أنا متحيّز لاسكتلندا).

بما أنّك تقرّأين هذه الرسالة، أصبحت تعرفين الآن أنّي والدك الحقيقي، وأنّك من لحمي ودمي. وإذا كنت تشكّين في ذلك، فتقي بأنني أنا أيضًا شكّكت في الأمر قبل أن تقترح عليّ السيدة كيبييل مقابلتك. وفي ما بعد لم يعد لديّ أدنى شك. لأنّك يا فتاتي العزيزة أخذت منّي أنفي! وفي هذا أنا متعاطف معك، لأنّه غير جذاب، لكنّه يتّخذ مكانه بكل ببل وسط وجهك. كما أنّني تعرّفت على كثير من سماتي فيك، ولأكون صريحًا معك يا فلورا، لم أتمنّ يومًا حدوث ذلك، لاسيّما أنّني غير قادر على نكران حقيقة وجودك: كما أنّني أستطيع أن أوّكد لك أن أحدًا لم يلمس والدتك قبل بداية علاقتنا القصيرة.

أولًا عليك أن تسامحيني على تصرفاتي تجاهها، وبعد ذلك تجاهك. أتمنّى أن تكوني قادرة على فهم الوضع الذي وجدت نفسي فيه. ولا حاجة إلى إضافة شيء غير أنّني كنت سعيدًا لسماعي بزواجها السريع. من المؤكد أن إرنست كاسيل قد رآك وسلّمك هذه الرسالة، إضافة إلى المبلغ الذي آمل أن يؤمّن لك مستقبلك. أتوسل إليك أن تحسبي نفسك محظوظة لأنّك لا تعيشين حياة إخوتك وأخواتك غير الأشقاء. كنت آمل أن يتمكن أحد أولادي على الأقل من عيش حياة غير مقيدة بالبروتوكول وما تتطلبه المناصب الملكية. لا تكشفني عن هويتك الحقيقية لتعيشي حياتك حرة طليقة. كم تمنيت ذلك لنفسي لو أتحت لي الفرصة. لكن قبل كل شيء، كوني صادقة مع نفسك...

الآن يا عزيزتي فلورا، أتمنى لك السعادة والوفاء والحب. وأنا حزين
لأنني لم أحظَ بالوقت لأتعرّف عليك أكثر. وتذكّري دائماً اللحظات القصيرة
التي تشاركنها. وأتوسل إليك أن تحرقى هذه الرسالة تجنباً لأي متاعب.

كانت الرسالة تحمل توقيع إدوارد وختم العائلة المالكة.

ثم فتحت فلورا المغلف الثقيل الذي اشتبهت بمحتواه. فخفقت مئات الأوراق
النقدية بين أصابعها، وكانت ستعدها في ما بعد.

أعادت فلورا الأموال إلى المغلف، والرسالة إلى الجيب الحريري الموجود في
الجزء الخلفي من دفتر يومياتها. ونهضت عن السرير وقرعت الجرس لتنادي بيغي،
وتطلب إليها أن تخبر فريد بأنها ستحتاج إليه في ما بعد ليقودها إلى محطة
أوستون.



بعد أن ركبت القطار، واستقرت في إحدى عرباته، راحت تنظر عبر النافذة حين
انطلق خارج المحطة. فعلا مواء بانثر من داخل السلة. وبما أنها كانت تجلس
وحدها في العربة، سمحت لنفسها بأن تحمله بين ذراعيها، ثمّ تمتمت. «لا تبكي

يا عزيزي، إننا في طريقنا إلى الديار».

ستار

هاي ويلد، كنت
تشرين الأول 2007



روبوس فروتيكوسوس
(توت أسود - فصيلة الورديات)

32

«يا لها من قصة شائقة، أليس كذلك؟».

كان لصوت ماوس، وهو يقرأ المذكرات، تأثير مهدي، جعلني أغمض عيني، وأنسى أين كنت جالسة لأسافر في الزمن إلى ما قبل نحو مئة عام. كانت لغة فلورا الغنية وأسلوبها في الوصف، من النوع الذي يعشقه أورلاندو، وكان ما يزال يستخدمه هو نفسه حتى اليوم، قد عزّزا الصور التي خلقها ذهني.

والد فلورا الحقيقي... ملك. لكن الموضوع ليس هنا. وشعرت بكتلة تستقر في حلقي بسبب المشاعر التي وصفتها على نحو محزن في يومياتها. وتساءلت كيف كنت سأشعر لو أنني كنت مكانها.

«ستار؟ مرحباً؟».

بذلت قصارى جهدي لأركز على الهيئة التي تجلس قبالي على الأريكة.

«يا لهذه... القصة. هل تعتقد أنها صحيحة؟ أعني، إنه ملك إنكلترا...».

«ربّما تكون صحيحة. فإدوارد كان مشهوراً بتعدد علاقاته طوال فترة حكمه. كما أنني تحققت من الوقائع التاريخية، وعثرت على حمل مسجل منسوباً إلى إدوارد السابع. وبالنظر إلى وسائل منع الحمل المحدودة أو شبه المعدومة في ذلك الوقت، من المعجزة ألا يكون هناك ولادات أخرى له، لكنها غير مسجلة».

«لا بدّ من أن الأمر كان فظيئاً بالنسبة إلى الملكة. كما يذهلني أن أعرف أن السيدة كيبيل كانت شخصية مهمة إلى ذلك الحد في المجتمع».

«لا شك في أن العلاقات الأحادية قد أصبحت شرطاً أساسياً في الزواج الحديث

ضمن الطبقة الراقية هنا في إنكلترا. لكن في أيام فلورا، كانت الزيجات المدبرة بين العائلات العريقة بمنزلة صفقات تجارية. ومتى ظهر وريث على الساحة، يصبح لدى الرجال والنساء حرية الحصول على عشيق سرّي طبعًا.

«هل أنت مؤرّخ؟»

«بل مهندس معماري، وفي أثناء دراستي في الجامعة، أثار اهتمامي انعكاس احتياجات الناس ورغباتهم على الأبنية. على سبيل المثال، الممرات السرية التي تؤدّي من خدر إلى آخر». قال ماوس وهو يمعن النظر في تعابير وجهي. «تبدّين متشدّدة يا ستار. هل أنت متشدّدة؟»

"يمكنك القول إنني متمسّكة بالأخلاق». أجبته وأنا أحافظ على هدوئي قدر المستطاع، إذ لم أتقبّل كثيرًا ذلك السؤال بعد محادثتي مع شانتي.

«أمر منطقي. إذًا، هل تشعرين بالحماسة لاحتمال أن تكون لك صلة قرابة بالعائلة المالكة البريطانية؟ ففي النهاية، والدك ترك لك التمثال من فابريجيه كدليل. وقد عرفنا من اليوميات أن الملك إدوارد السابع هو من أعطاه لفلورا».

«ليس تمامًا». اعترفت له.

«لو كنت إنكليزية، فلربّما شعرت بالحماسة. أعرف عددًا من الأشخاص، قد يتحمّسون إلى حد تمزيق أنفسهم، لإثبات أدنى صلة تربطهم بالعائلة المالكة. يمكنك اعتبارنا، نحن البريطانيين، حفنة مخيفة من المتعجرفين والمتسلقين اجتماعيًا. أنا واثق من أن الوضع في سويسرا مختلف تمامًا، ويميل أكثر إلى المساواة».

«هو كذلك. يهمني كثيرًا أن أعرف ما حدث لفلورا بعد أن هربت إلى منزلها في منطقة البحيرات».

«حسنًا، كل ما أستطيع إخبارك به هو...».

في تلك اللحظة، سمعت المفتاح يدور في قفل الباب، فنهضت على الفور من مكاني.

«أختك؟»

«أجل».

«عليّ الرحيل في كل الأحوال؟».

كان ماوس قد نهض عن الأريكة، عندما دخلت سيسي الغرفة.

«يا إلهي سيا. لقد مرّ عليّ يوم سيئ».

لكن عندما رأت ماوس بجانب الأريكة، توقفت عن الكلام.

«مرحبًا، أنا ماوس».

«سيسي، أخت ستار».

«سعيد بلقائك». قال لها وهي تعبر من أمامه إلى المطبخ. «حسنًا، أعتقد أنني

سأغادر».

تبعّت ماوس إلى الباب.

«خذي هذه. احتفظي بها». قال وهو يحشر اليوميّات بين يديّ. «قد ترغبين

في قراءتها مجددًا». ثمّ حنى رأسه ليهمس في أذني. «وألقي نظرة إلى بطانة

الحرير داخل الغطاء الخلفي».

«شكرًا». شعرت بالاعتزاز لوثوقه بي لكي أعطني بما يعدّ في الجوهر، أرشيفًا

للتاريخ الإنكليزي.

«سيا؟ هل أعددت العشاء؟ أشعر بالجوع!». علا صراخ في المطبخ.

«الأفضل لك أن تذهبي. وداعًا يا ستار». انحنى مجددًا لطبع قبلة سريعة على

خدي.

«وداعًا»، قلت له وأنا أغلق الباب من بعده، وأنا أشعر بتوهّج حيث طبع القبلة.



في صباح اليوم التالي، استيقظت قبل سيسي، ونزلت إلى الطبقة السفلية، لأعدّ لها

الخبز المحمص مع العسل في محاولة من أجل إحلال السلام بيننا؛ إذ كنت أعرف

أنّه فطورها المفضّل.

«عليّ المغادرة بسرعة»، قالت وهي تنهي فطورها. «سأراك في ما بعد».

صعدت إلى الطبقة العلوية لأخرج المذكرات، إذ كنت متحرّقة لمتابعة قراءتها منذ أن غادر ماوس ليلة البارحة. كما أنّني كنت قد قررت بالأحرى على تصرفات سيسى الوقحة معه، أو لكونها لم تستجوبني بشأنه.

فتحت الغلاف الخلفي لكل دفتر على حدة، إلى أن وجدت ما كنت أبحث عنه. وسحبت بلطف الورقة الهشة المخبأة في الجيب الحريري، وفتحتها بلطف، وقرأت الرسالة التي كتبها ملك إنكلترا إلى ابنته غير الشرعية، فلورا. تعجّبت كيف ظلّ الأمر سرّاً ما يقارب المئة سنة. ثمّ أعدتها إلى مكانها، وقرأت بعد ذلك الصفحات الأخيرة لليوميّات، وأنا أبذل قصارى جهدي لفكّ خطّها غير المقروء. فكّرت في احتمال أن تكون لي صلة قرابة بأعلى طبقة اجتماعية على هذه الرقعة من الأرض. لكن بحسب معرفتي العميقة بپا سولت، انتهت لاحتمال أن تعترضني تقلّبات ومنعطفات في أثناء بحثي عن الحقيقة المطلقة. أمر ما أخبرني بأنّ رحلة البحث لمّا تنته.

كانت المشكلة تكمن في أنّني لن أستطيع تحقيق ذلك بمفردي. شخصان فقط على هذا الكوكب قادران على مساعدتي، وأحدهما أصبح في مكان لا يمكن الوصول إليه. أمّا الآخر... حسناً الآخر، لا أعرف شيئاً بعد عن هذا الماوس.

ثم تذكّرت أنّني كنت قادرة على إعادة مفاتيح المتجر له، عندما كان هنا البارحة. لكن الآن بتّ مضطرة إلى العودة إليهما لإنهاء الرابط الأخير الذي يجمعني بأورلاندو وبعالم متجر آرثر مورستون السحري. كما أنّني كنت بحاجة، وقد شعرت بذلك الاستحقاق، إلى مرجع. كتبت رسالة إلى أورلاندو، وقررت أن أضعها مع المفاتيح في صندوق الرسائل في حال وجدت المتجر مغلقاً. علاوة على ذلك، كنت بحاجة إلى الخروج من هذه الشقة، وإلا كنت سأكتب مما قالته لي شانتي أمس.

ركبت الحافلة وأنا أفكّر في أن استعلامها عن حياتي الجنسية لم يكن أكثر ما زعزع استقراري. ففي النهاية، كلّ من التقينا بهم أنا وسيسى خلال رحلتنا الماضية،

روادهم الشك في لحظة ما حول طبيعة علاقتنا؛ فنحن لم نكن نشبه بعض؛ إذ إن لون بشرتها الذي يشبه حلوى البودينغ الداكنة، وقوامها القصير يتعارضان تمامًا مع لوني الشاحب وطولي. فضلًا عن ذلك، كنا نستعرض بوضوح المودة التي تكنها الواحدة للأخرى. حتى اعتراف شانتى كونها تجدني جذابة لم يزعزع استقرارى، بقدر «الأمر الآخر» الذي قالته لي بعد ذلك، كانت لديها نظرة صائبة، اخترقتني مثل شعاع الليزر لتصل إلى أعماقي.

نزلت من الحافلة، ومشيت إلى باب المتجر، وأنا أدعو أن يكون أورلاندو ما يزال يغلق على نفسه في الطبقة العلوية، حتى أتمكن من وضع الرسالة والمفاتيح في صندوق الرسائل والإسراع في الهرب. دفعت الباب الأمامي فوجدته مفتوحًا. وأصبت بغثيان من فكرة مواجهته.

لحسن الحظ، لم يوحى شيء بأنه في الداخل، لذلك وضعت المفاتيح والرسالة على الطاولة وعدت أدراجي إلى الباب. لكن، بينما كنت على وشك المغادرة، توقفت قليلًا بعد أن فكرت أن من قلة المسؤولية أن أترك مفاتيح متجر مليء بالكتب النادرة على مرأى من الجميع. عدت والتقطتها، وأخذتها إلى الكوة المخفية في الجزء الخلفي. ووضعتها هناك في أحد الأدراج، وقررت أن أبعث برسالة نصية إلى أورلاندو لأعلمه بمكانها.

استدرت لأخرج بسرعة، فرأيت الباب الذي يقود إلى الطبقة العلوية مغلقًا. وخلفه رأيت حذاء إيرلنديًا أسود لماعًا، جنب قدم ممددة في تشكيل زاوية غريبة. خنقت زعيقًا، وبعد أن أخذت نفسًا عميقًا، دفعت الباب لأفترحه قدر المستطاع.

ها هو أورلاندو يرقد على الأرض في الردهة الصغيرة المتصلة بالدرج. كان رأسه عند الدرجة السفلية، وهو ممسك بحلوى الساعة الثالثة.

«يا إلهي!».

انحنيت فوقه وسمعت نفسه الضحل، كما رأيت الدم ينزف في منتصف جبهته. «أورلاندو، هذه أنا ستار، هل تسمعني؟».

لم ألقَ أي رد. فجلست إلى جانبه وأخرجت هاتفى المحمول واتصلت بـ 999

طلبًا للنجدة. وشرحت باختصار للسيدة على الطرف الآخر من الخط، ما حدث قدر المستطاع. سألتني إذا ما كان المصاب يعاني أي حالة طبية. وفجأة تذكرت.

«نعم، إنه يعاني الصرع».

«حسنًا. لقد انطلقت سيارة إسعاف وستصل إليك قريبًا». ثم حدثتني عن كيفية وضع أورلاندو في وضعية التعافي. بذلت قصارى جهدي لاتباع تعليماتها. صحيح أن أورلاندو كان نحيفًا، لكن قامته ذات الستة أقدام كانت محصورة في مساحة صغيرة أسفل الدرج. لحسن الحظ، لم تمر سوى دقائق قليلة حتى سمعت صوت بوق الإسعاف يقترب منّا، وعندما نظرت إلى فوق رأيت ضوءها الأزرق يومض عبر النافذة».

«إنه هنا. لوّحت للمسعفين عند وصولهم. لا أستطيع إيقاظه...».

«لا تقلقي يا آنسة، سنسعه في الحال»، قال أحدهم. ثم نهضت لأفسح لهم المجال للوصول إليه.

وبينما كانوا يفحصونه بعد أن ربطوا مسبارًا بإصبعه ليتأكدوا من مؤشرات الحيوية، اتصلت بماوس. فحوّلني خطّه إلى البريد الصوتي، وشرحت له بهدوء قدر المستطاع ما حدث.

«إنّه يستعيد وعيه يا آنسة. لقد تلقى صدمة شديدة على رأسه، لذلك سنأخذه في سيارة الإسعاف إلى المستشفى لفحصه. ما رأيك لو ترافقيننا؟».

وبينما كانوا يرفعون أورلاندو على نقالة الانتظار، أخرجت مفاتيح المتجر مجددًا من الدرج، وأغلقت الباب خلفي وتبعت المسعفين إلى سيارة الإسعاف.



بعد ساعات قليلة، كان أورلاندو ممدّدًا على سرير المستشفى. بدا شاحبًا وفي حالة ذهول، لكنّه على الأقل كان واعيًا. شرح لي الطبيب أنّه أصيب بنوبة صرع، ورجّح أن يكون قد تعرّض على الدرج وسقط أرضًا.

«إنه مصاب بارتجاج في الدماغ بسبب الضربة التي تلقاها، لكن فحص المسح

الضوئي للدماغ يشير إلى أن كل شيء طبيعي. سنبقيه هنا تحت المراقبة طوال الليل، وإذا تحسّن بشكل ملحوظ، سنسمح له بالعودة إلى المنزل غدًا».

«أنا آسف». صدر صوت مبحوح من السرير.

«لا عليك يا أورلاندو، لا تعتذر».

«لقد كنت رائعة معي دومًا، والآن أنقذت حياتي». وسالت دمعة صغيرة على خده. «سأبقى ممتنًا لك طوال حياتي يا آنسة ستار، إلى الأبد».

بعد ذلك، غطّ في نومه، فخرجت لكي أستنشق هواءً نقيًا، وبعثت برسالة إلى سيّسي لأخبرها بأنّ صاحب العمل تعرّض لحادث، وأنّني سأعود إلى المنزل في وقت متأخر، لأنّي سأبقى معه في المستشفى. وبينما كنت أهتمّ بالعودة إلى الداخل، رنّ هاتفي المحمول.

«ستار، أعتذر إليك. لقد عملت طوال اليوم في الخارج على ذاك التراكثور اللعين، ولم يكن لدي إشارة إرسال هنا على الإطلاق». قال ماوس بصوت متوتر. «أنا الآن في محطة أشفورد. سأراك بعد نحو ساعة. كيف حاله الآن؟».

«يشعر بالأسف الشديد على نفسه، لكنّه بخير».

«أنا واثق من أنّه لم يكن يتناول أدويته كما يجب. وربّما فعل ذلك احتجاجًا على بيعي متجر الكتب. لا أستبعد ذلك».

«لا أعتقد أن أورلاندو سيخاطر بحياته عن عمد يا ماوس».

«أنت لا تعرفينه مثلي. في أي حال، الحمد لله أنّك وجدته في الوقت المناسب».

«سأعود إلى الداخل الآن. أراك في ما بعد». قطعت الاتصال، وأغلقت هاتفي المحمول وعدت إلى داخل المستشفى.

كان أورلاندو قد نُقل إلى حجرة خاصة داخل عنبر، وعندما استقرّ فيها وأنهت الممرضات جميع الفحوص، سُمح لي برؤيته.

«هو لك بالكامل»، تمتمت إحداهنّ، وهي تعبر بجانبني إلى الخارج.

«ماذا كنت تفعل يا أورلاندو؟». سألته وأنا أجلس.

«من؟ أنا؟ كنت أسألهم إذا كان لديهم أي نكهة من نكهات إيرل غراي بدلاً من مياه غسيل الصحون التي يسمونها شاي. على ما يبدو، لا يوجد كايك أيضاً». «يبدو أن الساعة قد تجاوزت الثالثة».

«أجل أعتقد ذلك». أجاب وهو يتفقد الظلمة عبر النافذة. «لقد أضاعت معدتي على نفسها ساعتين اليوم. بالنظر إلى... الحادثة التي تعرضت لها. من الواضح أنها تعاني تفاوتاً زمنياً». «هذا محتمل».

«اعتقدت أنك ذهبت إلى المنزل وتركتني وحدي». أضاف أورلاندو. «كان عليّ إجراء بعض المكالمات الهاتفية. ماوس في طريقه إلى هنا». «إذاً عليّ أن أبلغ الممرضات برغبتني في عدم السماح له بالدخول عليّ». «أورلاندو، هذا أخوك!».

«حسنًا، ليس عليه أن يزعج نفسه من أجلي. لكنني واثق من أنك ستُسَرِّين برؤيته».

بقيت صامتة. على الرغم من أن أورلاندو كان يتصرف كطفل مدلل، لكنني كنت سعيدة في سري حين بدا لي أنه استعاد طبيعته القديمة. في النهاية قال لي: «أعتذر إليك يا آنسة ستار. أدرك تمامًا أن لا علاقة لك بهذا الوضع، وأنّ الكلمات التي قلتها لك في ذلك اليوم كانت قاسية، ولم يكن من حقّي أن أقولها لك. في الحقيقة، أنا مشتاق إلى رفقتك. اليوم، كنت في طريقي إلى الطبقة العلوية لأتصل بك وأعتذر إليك، وأطلب إليك أن تعودني إلى العمل. إلّا إذا كنت قد وافقت على العمل في هاي ويلد». «لا، لم أفعل».

«هل وجدت عملاً آخر؟».

«كلا. ولائي لك وحدك».

«على الرغم من حالة اليأس التي أصابتني وجعلتني أتصرف بتهوّر وأطردك؟». «نعم».

«حسنًا، إليك ما سيحدث»، قال أورلاندو وهو يبتسم ابتسامة باهتة. «هل تعودين إلى متجر الكتب؟ أو على الأقل إلى أن ندير «سفينة» [متجر] الكتب حتى تصبح بخير وتغرق حقيقة؟».

«أجل. لقد اشتقت إلى متجر الكتب، وأنت؟».

«رائع، لا بل أكثر من رائع، حقًا؟ يا إلهي، يا آنسة ستار، إنه لطف منك أن تقولي ذلك. أنت بالفعل ملاك رحمة، بالنسبة إلينا جميعًا. وبالطبع...».

توقّف عن الكلام لحظة وأغمض عينيه بعض الوقت، فشعرت بالقلق لاعتقادي أنه فقد وعيه من جديد.

«نعم يا أورلاندو؟»، قلت لأحفّزه.

وفتح عينيه. «أفهم تمامًا أن إبقائك لنفسي عمل أنانيّ. بينما الآخرون، لا سيّما روري، بحاجة إليك. كنت قد قررت أن أضع سعادته قبل سعادتي، وأن أشاركك معه». ثمّ أغمض عينيه مرة أخرى ورفع يده المتعبة، وقال: «أمنحك موافقتي للذهاب إلى هاي ويلد كلما كان ذلك ضروريًا».

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب، ثمّ دخلت الممرضة.

«أخوك هنا. إنه يريد رؤيتك يا سيد فوربس».

«دعه يدخل. إنه يريد فقط أن يطمئنّ عليك». قلت له قبل أن يتمكن من الاعتراض. حدّق إليّ، ثمّ أومأ إلى الممرضة مثل طفل مطيع. لقد فوجئ بتوبيخي الشديد، ولم يكن الوحيد.

«مرحبًا أيّها العجوز. كيف تشعر الآن؟». دخل ماوس الغرفة ومشى نحونا. بدا الإرهاق على وجهه. لقد كان أسوأ بكثير مما بدا على شقيقه الممدّد على سرير المستشفى.

«لم أحسنّ لدى رؤيتك». أجاب أورلاندو بإيجاز ثمّ أدار رأسه إلى الجهة الثانية، ونظر عبر النافذة.

«هذا يعني أنه يتحسن». نظر إليّ ماوس ساخرًا من أورلاندو.

«أجل». قلت وأنا أقف لأترك له الكرسي ليجلس عليه.

«من فضلك، لا تغادري فقط بسبب وصول أخي». أشار أورلاندو على نحو لاذع.

«لكن عليّ الذهاب، حقًا».

«بالطبع». قال ماوس.

"كن لطيفًا، أو حاول على الأقل". قلت لأورلاندو. وابتسمت وأنا أقبله على جبينه، بعيدًا من الضمادة التي كانت تغطي الجرح. ثمّ حملت حقيبتني واتجهت نحو باب. وقلت لماوس: «لا تتأخّر في طمأنتي عن حاله».

«سأفعل. وشكرًا مرة أخرى يا ستار. أنت بطلة».



في ذلك المساء، كنت أتناول العشاء مع سيسي عندما رنّ هاتفي المحمول.

«عذرًا، أنا مضطرة إلى الرد».

نهضت عن المائدة وأنا أشعر بنظرة من عيني سيسي منغرسة في ظهري، ثمّ خرجت إلى الشرفة.

«مرحبًا يا ستار»، قال ماوس، «أتصل بك لأبلغك أنه إذا سارت الأمور على ما يرام، فإنّ أورلاندو سيغادر المستشفى غدًا. لكن الطبيب حذّرني من بقائه وحده في الأيام القليلة القادمة بسبب تلك الإصابة في رأسه والصرع. فقد يكون عرضة لنكسة أخرى، خصوصًا أنه، كما اعتقدت في البدء، اعترف أنه «نسي» تناول الأدوية في الآونة الأخيرة. هذا يعني، سواء أحب ذلك أم لم يفعل، أنني مضطر إلى اصطحابه معي إلى كنت».

«هل تريدني أن أحضر لمساعدتك؟ لقد وافق أورلاندو على الأمر».

«إذا كنت مستعدة لذلك يا ستار، فسيكون الأمر رائعًا. ستغادر مارغريت إلى فرنسا من جديد مساء الأحد، أما أورلاندو فلا يريد البقاء معي في منزل المزرعة،

لذلك سيبقى هو وروري معك في هاي ويلد. ابعثي لي رسالة بموعد القطار الذي ستستقلينه يوم الأحد، لآتي وأصطحبك من المحطة».

«حسنًا، سأفعل. وداعًا». أنهيت المكالمة وعدت إلى المائدة.

«ماذا تريد منك هذه العائلة الآن؟»، سألتني سيسي.

«يجب أن أذهب إلى هاي ويلد يوم الأحد. مدير العمل يتعافى هناك، وهو بحاجة إلى مساعدتي».

«هل تقصدين أنه بحاجة إليك كمرضة من دون أجر». صاحت سيسي.
«يا إلهي سيا، إنهم يدفعون لك القليل. فلنواجه الأمر، أنت مجرد موظفة في متجر كتب».

«لقد أخبرتك أنني أحب ذلك المنزل وتلك العائلة. ولا أشعر بمشقة».

كدستُ الأطباق الفارغة على الطاولة وحملتُها إلى الحوض. «هل يمكننا أن نوقف النقاش هنا؟ لأنني اتخذت قراري، وليس هناك ما يقال بهذا الشأن».

«أتعلمين يا سيا؟»، قالت سيسي بعد توقف قصير. «لقد تغيرت كثيرًا منذ أن التقيت بتلك العائلة. لقد تغيرت حتمًا».

ربّما تغيّرت، أجل. وكما هي حال أيّ مدمن، سواءً على مخدرات أم أشخاص، حصلت على الضوء الأخضر للعودة إلى هاي ويلد، فتبدّدت كل الأسباب التي تمنعني عنها مثل دخان في مهب الريح. وبينما كنت أزيل صحنون الفطور عن المائدة، رنّ هاتفني المحمول. كان أورلاندو.

«مرحبًا. كيف تشعر الآن؟»، سأله.

«أخيرًا خرجت من الحجر، لكنني أقاد، وعنوة إذا أمكنني القول، إلى أجواء هاي ويلد القطبية. مع أنني بخير وقادر على الاعتناء بنفسني، ومستاء من معاملتي كطفل في الثالثة من عمره.

«أنا واثقة من أن ماوس يتبع فقط تعليمات الطبيب».

«الخبر الجيد الوحيد في هذه الظروف السيئة، هو أنه قيل لي إنك ستنضمين إلينا قريبًا. هذا يعني أنني سأحصل على الأقل، على طعام لائق أطلّع إليه في ظلّ بؤسي الذي لا ينتهي».

«أنا، أجل».

«الحمد لله، ألف مزة. لا أعرف كيف سينجو المسكين روري من هذا. لن أتفاجأ إن كان يعاني سوء تغذية أو داء الحفر. فعلى الرغم من أن ذبوع صيت كنت كحديقة إنكلترا، لكننا نعيش على الخبز المحمّص والفاصوليا المطبوخة. سأصل على الفور بمتجر المزرعة وأطلب بعض الإمدادات، لكي نأكل مثل الملوك عندما تصلين. كنت أتساءل أيضًا، إذا كان بإمكانني أن أطلب إليك معروفًا؟».

«ما هو؟».

«أن تمرّي بمتجر الكتب وتجلبني لي حاسوبى المحمول؟ ستجدينه على السرير في الطبقة العلوية. لديّ عميلان يبحثان عن ترولّوب وفيتزجيرالد كهديّة إلى أحبّتهم في عيد الميلاد. أنا متأكّد من وجود إنترنت في تنتردن، ففي بعض المواقف الصعبة أو اليائسة، يضطر المرء إلى اتخاذ إجراءات، وإن تعارضت مع مبادئه.

«ماوس لديه إنترنت في بيت المزرعة». قلت له أذكره.

«أعرف ذلك يا آنسة ستار، فقد كان ذلك منزل عائلتي أيضًا. لكن في هذه الظروف، فإنّ قدمي لن تطأ عتبة بابه، حتى لو كنت على حافة قبري، فما بالك ببيع كتاب».

«حسنًا، بالطبع أستطيع إحضاره لك». قلت له متجاهلة تعليقه.

«شكرًا لك، أطلعّك إلى رؤيتك غدًا».

«إلى اللقاء يا أورلاندو».

استقللت الحافلة إلى شارع كنسينغتون، وأنا في طريقي إلى متجر الكتب، اشتريت لنفسى ثلاث سترات سميكّة من الصوف، وجوارب للسرير، وكيس للماء الساخن لاستعمالها في أوقات البرد القارس.

عندما وصلت إلى المتجر، صعدت الدرج وفتحت باب غرفة أورلاندو. هناك وجدت الكتب تتكدّس هنا وهناك. ورأيت كومة منها متنكّرة في هيئة طاولة بجانب السرير، وقد انتصب مصباح على نحو غير ثابت فوق رأس روبنسون كروزويه. ورأيت الحاسوب المحمول على السرير، فوق لحاف من الريش الباهت، محاطًا بمزيد من الكتب، فاحترت إن كان أورلاندو قادرًا على إيجاد مساحة لنفسه ليلاً.

حملت الحاسوب إلى الطبقة السفلية، وأنا أشكّ قليلًا في حبّ حياة أورلاندو. ويا له من حب ملائم: فبمجرد أن يقلب صفحة واحدة، كان قادرًا على الانتقال إلى أيّ وجهة يتمنّى الهروب إليها، بعيدًا من كآبة الواقع.

مشيت عبر المتجر، وإذا أمرّ خطر في بالي. فبدأت أحوم حول قسم الرواية

البريطانية 1905-1905، فتفاجأت لرؤية المساحة فوق الرفوف المخصصة لتلك الحقبة الأدبية فارغة، لم أرَ فيها سوى طبقة خفيفة من الغبار، كانت تغطي الخشب، حيث رأيت في المرة السابقة مذكرات فلورا ماك نيكول. غادرت المتجر، وأنا أتساءل عما إذا كان أورلاندو قد نقلها إلى مكان آخر، أو إذا كان لديه اعتبار آخر.

الآن، أصبحت الرحلة إلى هاي ويلد مألوفة بالنسبة إليّ. عندما وصلت إلى أشفورد ولم أرَ سيارة ماوس تنتظر في الخارج لم أشعر بالذعر. في النهاية، ظهر أمامي، فحيّاني باقتضاب، ثمّ خرجنا من المحطة مُسرّعين.

«سررت بمجيئك. لا أجد أي متعة في لعب دور الحاضنة لأخي. أعرف أنّك معجبة به، لكن يا إلهي، يمكنه أن يكون صعب المراس عندما يريد. كما أنّه ما يزال يرفض التحدّث إليّ».

«سوف يتخطّى الأمر في النهاية، أنا واثقة من ذلك».

«سيتعيّن عليه تخطّيه سريعًا، لأنني تلقيت مكالمة هاتفية من أصحاب المتجر المجاور لمتجر آرثر مورستون. إنهم يبيعون آثارًا مستوردة من الشرق الأقصى، ويبدو أن أعمالهم مزدهرة حاليًا في ظلّ شراء الروس العقارات في لندن. تلقّيت منهم عرضًا للمتجر، وهو عرض جيّد. حتى إن وكيل العقارات قال لي إنّه يستطيع أن يفرض عليهم سعرًا أعلى بقليل مما اقترحوه من خلال تهديدهم بعرض المتجر للبيع في السوق المفتوحة».

«وماذا عن الكتب؟ أين ستذهب؟ انسَ موضوع أورلاندو». قلت.

«الله أعلم». قال ماوس متجهّمًا. «لم أفكر في أنّي سأضطرّ إلى التفكير في أمور كهذه بهذه المهلة القريبة. لكن بالنظر إلى أحوال السوق الصعبة، علينا أن نأخذ العرض جدّيًا».

«وهل سيبقى مالٌ لكي يعثر أورلاندو على مأوى لنفسه وكتبه؟».

«عندما نبيع المتجر وتسدّ الدين، سنتقاسم ما تبقى من مال بيني وبينه. الآن، بالنظر إلى أن مخزون الكتب الذي يملكه أورلاندو يقدر بمئات آلاف الجنيهات

الاسترلينية، أعتقد أننا لن نخرج منه مستأين على الإطلاق. سيكون لديه كثيرًا من النقود ليتمكن من استئجار مكان آخر إذا كان هذا ما يريده بالفعل». «جيد».

«لأكون منصفًا، لم نؤل إلى هذا الوضع بسبب أورلاندو فحسب، إنما بسبب سوء إدارتي المزرعة». وتنهد ماوس، وأضاف: «في أي حال، كان هناك كثير من الزلات، وكما يقال، علينا التحقق من مدى جدية مقدمي العرض، أليس كذلك؟». ثم انعطف بالسيارة عند الممر المؤدي إلى هاي ويلد. «أمل ألا تنزعجي إن أوصلتك عند المدخل ورحلت. لدي كثير من الأعمال لأنهيها في المنزل هذه الليلة».

«لا مشكلة لدي». ترجلت من اللاند روفر وخرج ماوس لإخراج حقيبتني من صندوق السيارة.

«هل يمكنك أن تساعدني روري ليجهز للمدرسة غدًا عند الثامنة والنصف صباحًا؟ فهي تقع على بعد نصف ميل فقط من هنا، في مكان مهيب يسمى قرية هاي ويلد. هل يمكنك القيادة يا ستار؟».

«نعم، خضعت لاختبار القيادة في سويسرا قبل ثماني سنوات».

«رائع. إن استطعت قيادة سيارة مارغريت الفيات فهذا سيساعدك على التحرك بحرية أكبر. سأضّمك إلى التأمين».

«حسنًا». قلت له وأنا أبتلع ريقى وأفكر كم سأكون فظة، إن ركبت وراء المقود إلى الجانب الأيسر من الطريق.

رحل ماوس، وحملت حقيبتني إلى الباب الذي سرعان ما فتح في ترحيب احتفالي.

«ستار!»، ورمى روري نفسه بين ذراعي وكاد أن يدفعني إلى الورا بعيدًا من العتبة.

«بات الخلاص قريبًا! حمدك يا رب». قال أورلاندو من خلفه.

وأخذ حقيبتني ووضعها عند أسفل الدرج. ثم قادنا إلى المطبخ حيث كانت

الطاولة محملة بالمؤن التي طلبها من متجر المزرعة. تنهدت في سري على ميل أورلاندو إلى إنفاق المال، فعلى الرغم من أزمته الاقتصادية، يبدو أن عائلة فوربس لم تتعلم قط الاقتصاد في المصروف.

«لم أعرف بالضبط ما نحتاجين إليه، لذلك اشتريت كل ما خطر في بالي. أعترف أننا كنا نأمل بتناول فخذ خروف الليلة. حتى إننا قطعنا لك، أنا وروري، إكليل الجبل. هل تعلمين أنك إذا زرعت ذات يوم إكليل الجبل في حديقتك، سيكون من سوء الحظ أن تقتلعيها؟»، قال وهو يأخذ غصنًا ويضعه تحت أنفه كشارب مزيف، ما جعل روري يقهقه فرحًا. «هذه العشبة تقبع هنا منذ أن كنت ولدًا صغيرًا مثلك. والآن يا آنسة ستار، بماذا نساعدك؟».

بعد مرور ساعتين، جلسنا نتناول الطعام، ثم لعبنا لعبة سكرابل التي فاز بها أورلاندو بأشواط.

«العم لاندو ذكي جدًا»، قال روري وأنا أرافقه إلى الطبقة العلوية. «قال لي إن ماوس يجبره على بيع متجر الكتب».

«ربما. والآن دعني أضحك في السرير، وسأرسل أورلاندو لكي يقرأ لك قصة».

«طابت ليلتك يا ستار. أنا سعيد لأنك عدت».

«وأنا أيضًا. طابت ليلتك يا روري».



«صباح الخير»، قال ماوس عندما ركبنا أنا وروري سيارة اللاند روفر.

صادف أن وقع نظري عليه وكنا قد ابتعدنا عن المنزل، ومرة أخرى وجدته متوترًا.

«من فضلك يا ستار، ركزي على الاتجاهات فيما أوصّل روري إلى المدرسة؟ لأنك إذا تدربت على سيارة الفيات، لا أرى مانعًا أن تصطحبي روري إليها من الآن فصاعدًا».

ركّزت على الطريق الذي سلكه. استغرقت القيادة إلى المدرسة ما لا يزيد على

سبع دقائق. وقد تضمن الطريق منعطفًا إلى اليسار ومنعطفًا إلى اليمين. ثم توقفنا أمام مبنى جميل لمدرسة قديمة، يقع بجوار مساحة خضراء وسط قرية هاي ويلد. «تعالى معى يا ستار». نزل رورى وسحبني خارج مقعدي.

عندما دخلنا عبر البوابة، انضممت إلى الأمهات اللواتي كنّ يرافقن أطفالهنّ في الملعب. وفيما كان كل طفل يمسك بأمّه، مد رورى ذراعيه ليعانقني. «تعالى لاصطحابي في ما بعد». طلب إليّ رورى حين اقتربت منه فتاة صغيرة وأمسكت يده.

«هيا يا رورى لكى لا نتأخر»، حثته الفتاة.

ولحق رورى بالسرب الأخير من الأطفال، وخطا باتجاه أسفل الممر.

«هل كل شيء على ما يرام؟»، سألني ماوس عندما ركبت السيارة.

«نعم. من الواضح أن رورى سعيد هناك».

«ربّما في الوقت الحالي. إن إدارة المدرسة وطاقمها يعاملانه بطريقة استثنائية. إذا كان قادرًا على مواصلة تعلّمه مع تقدّمه في العمر، فتلك مسألة أخرى». قال ماوس، وهو يعود أدراجه سالكًا أسفل الممرات في المنطقة. «هل تظنين أنك ستعرفين العودة وحدك إلى هنا لاصطحابه في المساء؟ لدي اجتماع في الساعة الثالثة والنصف».

«سأترّب على قيادة سيارة الفيات بعد ظهر اليوم».

«ستجدين المفاتيح في الوعاء بجانب الهاتف. اتصلي بي إذا واجهتك أي مشكلة».

قفزت من السيارة في أوّل الممر، وانطلق ماوس مسرعًا من دون أن يضيف كلمة واحدة. عندما دخلت، وجدت أورلاندو جالسًا إلى طاولة المطبخ.

«ستجدين في الثلاجة لحم خنزير مقدد رائع، وهناك فطر مقطوف محليًا. كما أنّي أحب الفطر كثيرًا». قال وهو يرمقني بنظرة جانبية.

«كيف تشعر الآن؟»، سألته وأنا أجمع المكونات التي يرغب فيها من المخزن والثلاجة.

«جسدًا، ممتاز، على الرغم من أنني لا أستطيع كيف يمكن.... ما الذي ستفعلينه اليوم؟».

«سأتمرن على قيادة سيارة الفيات. بعد ذلك سأذهب لإحضار روري من المدرسة عند الثالثة والنصف».

«ممتاز! إذن ضمّيني إلى مشروعك. أحتاج إلى زيارة تتردن، وهي بلدة صغيرة ساحرة قريبة من هنا. وفيها متجر كتب رائع، تعودت والدتي أن تأخذني إليه في صغري...»، وخفت صوت أورلاندو فيما انتقل ذهنه مما كنّا نتحدّث به إلى مكان آخر. «في أي حال، أنا متأكد من أنّه سيكون لديهم مكان تغطية عريض النطاق. كما أن قائمة طعامهم الجاهز تتضمن أفضل موس سلمون مدخّن تذوّقته في حياتي».

بعد الإصرار على محرّك الفيات المتردّد بالدوران، وعمل عدد من الجولات التدريبية من أعلى الممر إلى أسفله، لكي أتأقلم مع علبة التروس التي تشبه مصاصة سوداء كبيرة، انطلقت إلى تتردن وإلى جانبي راكب أكثر توترًا مني. لم تكن توجيهات أورلاندو جديرة بالثقة، تمامًا مثل السيارة التي أقودها، لذلك تخبطنا، وصرخنا، وتوقّفنا عددًا من المرات على طول الممرات الريفية الضيقة التي كنّا نسلكها. وبوصولنا إلى تتردن، كانت أعصابي قد تفتّنت. هناك، تمكنت من العثور على موقف للسيارات قريب من مساحة خضراء مليئة بأشجار يتساقط ورقها بسرعة، كانت تحمي صفًا من المنازل مغلفةً بألواح تلبيس معتنى بها جيدًا.

«أستطيع أن أؤكد لك أن رحلتنا المروعة هذه تستحق الجهد المبذول». قال لي أورلاندو وهو يعبر المساحة الخضراء وأنا أتبعه. شعرت بأنني انتقلت بالفعل إلى زمن أكثر روعة، حيث برج الكنيسة يطلّ على مباني قديمة بإطارات خشبية، والناس يتحدّثون أمام المحلات التجارية المزخرفة، أو يجلسون على مقاعد عامّة موزّعة في المساحات الخضراء.

توقف أورلاندو بغتة أمام مقهى ممتّم بأعمدة نوافذ متاجر الحلوى، وأمسك

الباب ليفسح لي المجال للدخول. وما إن رفعت المرأة الواقفة عند ركن خدمة العملاء نظرها إلينا، حتى ظهرت ابتسامة عريضة على وجهها.

«سيد أورلاندو! كم يسرّني أن أراك هنا».

«وأنت أيضًا، عزيزتي السيدة ميدوز. كيف حالك في هذه الدنيا؟».

«نمرّ بأوقات عصيبة، نحن التجّار المستقلّين. لا بدّ من أنّك رأيت ما حدث في المتجر المجاور». قالت وهي تشير بإبهامها إلى يسارها.

«كلا. لقد أتينا من جهة اليمين. ماذا حصل؟».

«اضطر السيد ميدوز إلى إغلاق متجر الكتب. فإيجار المتجرين استنزفنا مادّيًا. كما أن المقهى وحده هو الذي يأتينا بالنقود».

بدا أورلاندو كأنه تلقى لكمة في بطنه. «متجر الكتب مغلق؟».

«أجل، منذ شهرين. حتى الآن لم نتمكن من العثور على أحد ليستأجره. هل ستبقى على الغداء؟».

«نعم، هذه نيّتنا. ماذا لديكم اليوم؟».

«فطيرة الدجاج والهريس».

«إذا سنطلب وجبتين يا سيدة ميدوز، لو سمحت. مع كأسين من...».

«السانسيري»، أجابته السيدة ميدوز. «ما زلت على حالك يا سيد أورلاندو، هزيلاً. ألا تطعمك جيّدًا هذه السيدة الشابة؟». وأومأت إليّ برأسها وهي تبتسم.

«تأكّدي بأنّها تطعمني جيّدًا جدًّا كما اعتدت أن تفعلني أنت. تعالي يا آنسة ستار».

عندما جلسنا إلى طاولة مصنوعة من خشب الصنوبر تتخلّلها عقد كثيرة، رمى أورلاندو نفسه فوق الكرسي الخشبي، وهو يهز برأسه. «أشعر بالحزن الشديد. هذا جزء آخر من حياتي يختفي. كنت أعتبر متجر ميدوز منارة السلام والهدوء التي لا تنطفئ، إذ أنارت ذكريات طفولتي دائماً. لم يعد لها وجود الآن».

بعد أن تناولنا فطائر الدجاج، التي كانت لذيذة، سأل أورلاندو السيدة ميدوز

عَمَّا إِذَا كَانَ لَدَيْهَا إِنْتَرْنَتْ. فَأَخَذَتْ حَاسُوبَهُ الْمَحْمُولَ إِلَى الْمَكْتَبِ فِي مَوْخَرَةِ الْمَقْهَى.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، خَرَجَتْ لِأَسْتَكْشَفَ تَنْتَرْدَنَ، وَأَمْتَعَ نَظْرِي بِطَابَعِهَا الْإِنْكِلِيزِي الْمَتَمَيِّزَ، وَمَنَازِلَهَا الْجَذَابَةَ وَمَحَلَّاتِهَا التِّجَارِيَّةَ الَّتِي تَقَعُ عَلَى طُولِ الشَّوَارِعِ الضَّيْقَةِ الْمَرْصُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ نَظَرْتُ عَبْرَ نَافِذَةِ لِمَتَجَرِّ أَلْعَابِ، فَوَجَدْتُهَا مَلِيئَةً بِأَنْسِجَةِ الْعَنْكَبُوتِ الْمَزِيفَةِ، وَالْعَنَاقِبِ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ وَالْمَكَانَسِ. فَعِيدَ الْهَالَوَيْنِ كَانَ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، لِذَلِكَ فَكَّرْتُ فِي أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الْمَمْتَعِ أَنِ أَحْتَفَلَ بِهِ مَعَ رُورِي كَمَا كُنَّا نَفْعَلُ أَنَا وَشَقِيقَاتِي فِي أَتْلَانتِيسِ. وَكَانَ بِا سُولْتِ قَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّ شَقِيقَاتِ الثَّرِيَا السَّبْعِ كَانَتْ فِي عِيدِ الْهَالَوَيْنِ، تَرْتَفِعُ إِلَى أَعْلَى دَائِرَةِ فِي السَّمَاءِ، لِذَلِكَ شَعَرْتُ دَائِمًا بِأَنَّهُ عِيدٌ خَاصٌّ بَنَا. وَعِنْدَمَا يَكُونُ فِي الْمَنْزَلِ، كُنَّا نَصْعَدُ إِلَى مَرْصَدِهِ الْوَاحِدَةِ تَلُو الْأُخْرَى، فَيَدْعُ كُلًّا مِنَّا تَنْظُرَ عَبْرَ تِلْسُكُوبِهِ إِلَى تِلْكَ الْكُتْلَةِ النُّجْمِيَّةِ. وَكُنْتُ أَوَاجِهَ دَائِمًا مَشْكَلَةَ فِي الْعَثُورِ عَلَى نَجْمَتِي - أَسْتَرُوبْ؛ إِذْ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَلْمَعُ مِثْلَ نَجُومِ شَقِيقَاتِي الْأُخْرَيَاتِ.

«هَنَّاكَ نَجْمَتَانِ بِاسْمِكَ يَا عَزِيزَتِي. وَهُمَا قَرِيبَتَانِ جَدًّا مِنْ بَعْضَهُمَا بِحَيْثُ تَبْدَوَانِ كَأَنَّهُمَا نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ. هَلْ تَرِينَهُمَا؟». وَرَفَعَنِي بِا سُولْتِ مَرَّةً أُخْرَى، حِينَئِذٍ تَمَكَّنْتُ مِنْ رُؤْيَيْهِمَا.

«رَبِّمَّا أَكُونُ نَجْمُكَ التَّوَامَ»، قَالَتْ سَيْسِي.

«لَا يَا سَيْسِي، أَنْتَ لَدَيْكَ نَجْمَتُكَ الْخَاصَّةُ». أَجَابَهَا بِا بِلُطْفٍ. «وَهِيَ قَرِيبَةٌ جَدًّا مِنْ نَجْمَتِهَا».

بَعْدَ أَنْ اشْتَرَيْتُ زِيَّ هَارِي بَوْتَرِ لِرُورِي، اشْتَرَيْتُ عَبَاءَةً وَقْبَعَةً سَاحِرَةً لِي، وَزِيَّ مَشْعُودَ لَأُورْلَانْدُو. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لَدَيَّ مَشْكَلَةٌ فِي إِقْنَاعِهِ بَارْتِدَاءَ الزِّيِّ. ثُمَّ تَوَقَّفْتُ عِنْدَ أَذْنِي فَارَ، وَشَعَرَ، وَذَيْلِ طَوِيلٍ. رَحْتُ أَضْحَكُ فِي نَفْسِي، فَاشْتَرَيْتُهَا كُلَّهَا. ثُمَّ مَشَيْتُ عَلَى طُولِ الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ وَأَنَا أَمْسِكُ كَيْسًا مَنْتَفَخًا، وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ أَحَدِ الْمَتَاجِرِ لِأَشْتَرِيَ يَقْطِينَةً.

«يَا إِلَهِي! دَعِ امْرَأَةً تَتَجَوَّلُ بَيْنَ الْمَتَاجِرِ وَسَوْفَ تَفْلَسُ عَائِلَتَهَا فِي غَمْضَةِ عَيْنٍ». قَالَ أُورْلَانْدُو الَّذِي التَّقِيْتَهُ وَاقِفًا فِي الشَّارِعِ.

«اشتريت بعض الأغراض لعيد الهالوين».

«هاي ويلد بحالها غارقة في شبح الماضي، ما عليك، سأتدبّر أمري لكي أتعامل مع مزيد منها. والآن، انظري إلى هذا». وأشار إلى المتجر المجاور لمتجر الأطعمة المعلّبة. كانت واجهته الكبرى تظهر يافطة كبيرة كُتب عليها «للإيجار». «يا له من أمر محزن». تنهّد أورلاندو قائلاً. «محزن جدًّا».



بحلول عيد الهالوين، كنت قد اعتدت غرابة أطوار سيارة الفيات. ففيما كنت أوصل روري إلى المدرسة في الصباح، أخبرته عن المفاجأة التي ستكون بانتظاره في هاي ويلد بعد ظهر ذلك اليوم. وأنا في طريقي إلى المنزل، تابعت سيري بضعة أمتار لأنعطف يسارًا إلى منزل المزرعة. «يمكنه ببساطة أن يرفض»، فكرت في نفسي، وأنا أسير إلى الباب الخلفي وأقرعه.

«الباب مفتوح». علا صراخ في الداخل.

كان ماوس جالسًا إلى الطاولة، يحيي رأسه فوق دفتر الحسابات.

«مرحبًا يا ستار»، وتمكّنت من رؤية أول ابتسامة خلال أيام.

«كيف حالك؟».

«جيد. شكرًا».

«في واقع الأمر، أنا أيضًا. لديّ بعض الأخبار. سأضع الغلاية على النار».

ثم وقف وملاً غلاية قديمة من حديد بالماء، ووضعها على الموقد حتى تغلي. «لقد قبل جيراننا في لندن رفع السعر ويريدون الانتهاء من صفقة البيع في أسرع وقت ممكن. حتى إننا سنحظى بفرصة إيداع الأموال في الحساب المصرفي بحلول عيد الميلاد».

«آه».

«لا تبدين سعيدة».

«أفكر في أورلاندو فحسب. هذا كل ما في الأمر».

«هذا أفضل من أن ينتهي الأمر بكلينا بلا مأوى وبلا مال. الآن، سيكون لأورلاندو ما يكفي من النقود لكي يستأجر متجرًا محليًا، أو حتى شراء منزل صغير إذا أراد ذلك».

«جئت لأدعوك إلى الانضمام إلينا هذه الليلة في هاي ويلد لمناسبة عيد الهالوين، سنتنكر في ملابس مميزة».

"فكرة جيدة». فاجأني برده الإيجابي. «يا إلهي يا ستار، أشعر بارتياح كبير. ليس لديك أدنى فكرة كم كانت أمورنا المالية سيئة».

«هل يمكنني أن أطلب إليك عدم ذكر الأمر أمام أورلاندو هذا المساء؟ أود أن يستمتع روري بوقته».

«تمام. كيف حاله؟».

«بخير».

«وأنت؟ تبدين أيضًا بخير. تلك السترة تليق بك تمامًا. لونها مطابق لعينيك».

ثم سألني فجأة: «ألم تعثري على المذكرات في هاي ويلد».

«لا، للأسف». قلت له وأنا أكذب تقريبًا. «لقد اختفت مرة أخرى، لكن ليس من هاي ويلد».

«حسنًا، من يعرف أين اختفت؟ أشعر بالإحراج لأنني لا أستطيع إثبات ما قاله والدي قبل وفاته».

«ربما من الأفضل للجميع ترك الماضي في الماضي. هل تواصلت مع مارغريت؟».

«نعم، اتصلت بي البارحة. قالت إن عملها يجري على نحو جيد».

لكنني واثق من أن ما يستدرجها إلى فرنسا ليست الجداريات ولا المال ولا النبذ الآتي مباشرة من الكهوف. أظن أنها التقت شخصًا ما».

«أحقًا؟».

«لم أرها مندفعة على ذلك النحو منذ سنوات. يدهشني كم أن الحب قادر على فعل المعجزات، أليس كذلك؟ فهو ينيرنا من الداخل». وابتسم ابتسامة خجولة وحزينة. «هل سبق أن وقعت في الحب يا ستار؟».

«كلا». أجبته بصراحة.

«هذا مؤسف».

«حسنًا». توقفت بغتة. فالحميمية التي آلت إليها المحادثة جعلتني أشعر بعدم الارتياح. «أراك الليلة على العشاء عند السابعة». وأضفت فيما كنت أسير نحو الباب الخلفي: «سيكون لكل واحد زيّ خاص به، بمن فيهم أنت».



عندما عاد روري من المدرسة، أشعلنا الضوء داخل اليقطين ووضعناه على جانبي الباب عند المدخل. ثم ارتدى كل واحد منّا زيّه التنكري.

«لم أحتفل بعيد الهالوين من قبل». أخبرني روري بحماسة. «تقول مارغريت إنها فكرة أميركية وينبغي ألا نحتفل به».

«في رأيي، ليس مهمًّا من أين أتت الفكرة، ما دامت جيدة. لقد كان من الممتع أن نتنكر بملابس خاصة».

نزلنا إلى أسفل الدرج ليستعرض روري زيّ هاري بوتر أمام أورلاندو الذي كان قد سبقنا إلى المطبخ، متقمّصًا داخل العباءة والقبعة واللحية البيضاء الطويلة. ولدى رؤيته، فكّرت في أنّه قادر بسهولة على الفوز بدور دمبلدور كممثل بديل. «تبدين شريرة تمامًا». علّق أورلاندو وهو يثني على زيّ الساحرة الذي تنكّرت فيه.

«ستار ساحرة بيضاء، لذلك هي طيّبة». قال روري وعانقني.

ما إن قال ذلك، حتى دخل ماوس عبر الباب، فعبس أورلاندو في وجهي ليعرب عن رفضه حضور أخيه.

«لم تخبريني أنّه سينضم إلينا». همس في أذني لكي لا يسمعه شقيقه.

«هل أحضرت زياً لماوس؟». سألني روري.

«بالطبع. ها هو هنا». وأخرجت الكيس من الخزانة وأعطيته إيّاه. فنظر في داخله وعبس.

«حقاً يا ستار، هذا ليس أنا».

«من أجل روري؟». همست له. «الأذنين فحسب». وأخرجتهما من الكيس وأعطيتهما له.

«الآن أصبحت فأراً حقيقياً». صاح روري الذي سرّ بالفكرة. «سوف أساعدك». واصلت تحريك حساء اليقطين، من دون أن أجرؤ على النظر إليه في أثناء استسلامه أمام إلحاح روري.

«كيف حالك يا أورلاندو؟». سأله ماوس وهو يمشي إلى المخزن. لكنّه لم يلق ردّاً. ثمّ عاد بزجاجة جعة وبعض النبيذ وقدم لي كأساً. نظرت إليه وكبحت ضحكة لدى رؤيتي الأذنين اللتين وضعهما روري عشوائياً على رأسه، فتقدمت منه وأصلحت الأذن المائلة.

«هذا الزيّ يليق بك». قلت له مبتسمة.

«شكراً». تمتم وهو يعود إلى الطاولة.

على الرغم من التوتر بين الأخوين، فإن حماسة روري كان معدية. فتناولنا الحساء، وكنت قد أعددت برغر شبح وبطاطس عنكبوتية صنعتها من الهريس وحمّصتها في المقلاة. بعد تناول الحلوى، ذهبت إلى الدُرج وأخرجت منه قرصاً مدمجاً لفيلم هاري بوتر، كنت قد اشتريته من البلدة.

«هل نشاهده؟». سألت الثلاثة.

«ليس سوبرمان؟». أشار روري.

«لا. أعتقد أنك ستحب هذا». قلت له محاولة إقناعه. «هل يمكنك أن تشغله لنا يا دمبلدور؟».

«بالطبع. لقد حاولت إقناع روري أن يسمح لي بقراءة الكتاب له العام

الماضي». ثم وقف أورلاندو، ودور عصاه السحرية وقال: «تعال يا هاري، دعني آخذك إلى هوغورتس وأمجادها».

«يجب أن أذهب». خلع ماوس أذنيه ووضعهما على طاولة. «شكرًا لك على هذه الليلة يا ستار. لقد أحبها روري».

«يسرني ذلك».

«أنت تجيدين التعامل معه، حقًا».

ثم مشى نحوي وبعد أن توقف قليلًا، فوجئت بعناقه الحار. نظرت إليه ورأيت تعابيره في عينيه فيما كان رأسه يلتوي نحوي. وبعد ذلك، بدا كأنه غير رأيه، فطبع قبلة عميقة على جبهتي.

«طاب مساؤك».

«طاب مساؤك»، قلت له بعد أن أطلقني، وتوجه نحو باب المطبخ ليغادر.

على الرغم من أن أول فيلم لهاري بوتر كان أفضل أفلامي على الإطلاق، لكنني بالكاد تمكنت من مشاهدته، إذ عدت بذهني إلى اللحظات السابقة، حين كادت شفتا ماوس أن تلامس شفتي.

«هيا أيها الصغير، حان موعد نومك». ورفعت هاري بوتر المتردد عن الأريكة فيما بدأت كتابات مقدّمة الفيلم تتوالى على الشاشة.

«لن أروي لك قصة هذه الليلة يا صديقي العزيز، فالوقت متأخر». قال أورلاندو. «نومًا هنيئًا ولا تدع بق الفراش يعضّك».

بعد أن أعطيت روري قبلة ما قبل النوم، عدت إلى الطابق الأرضي لأنظف المطبخ.

«إلى أين أنت ذاهبة؟». لوح أورلاندو بعصاه في وجهي وأنا أجمع أكواب الشوكولاتة الساخنة المتسخة في غرفة الرسم. «ألا تتعبين؟ من فضلك يا آنسة ستار، اجلسي قليلًا. أشعر أننا بالكاد تحدثنا في الأيام القليلة الماضية».

«حسنًا». جلست على الكرسي ذي الذراعين بجوار النار، واتخذت وضعية تشبه وضعيتنا المعتادة في متجر الكتب. «عمّ تريد التحدث؟».

«عنك أنت».

«آه»، قلت متفاجئة، بعد أن استعددت نفسيًا لانتخاب بئس آخر بسبب بيع متجر الكتب.

«نعم أنت يا آنسة ستار». كزّر مجدّدًا. «يذهلني كثيرًا ما تقومين به. لقد فعلت الكثير من أجل هذه العائلة، وخصوصًا من أجل روري. لذلك أشعر بأنه من واجبي أن أعطيك شيئًا في مقابل ذلك».

«حقًا يا أورلاندو، هذا ليس ضروريًا».

«بالتأكيد ضروري، ولم أقصد بذلك مكافأة مالية، إنّما شيء أكثر أهمية بكثير من نظري».

«أحقًا؟».

«أجل، حقًا. كما ترين يا آنسة ستار، لم أنسَ السبب الذي جعلك تبحثين عن متجر آرثر مورستون في المقام الأول. فوالدك أرسلك إلى هناك لتعرفي أكثر عن ماضيك وإرثك الحقيقي».

«أجل».

«وبالطبع، كنت حذرًا في البداية، مثل أي شخص سيظهر أمامه غريب ويخبره بوجود رابط دموي بينه وبين عائلته، خصوصًا إذا كان تاريخ تلك العائلة معقدًا مثل حالتنا. لقد سألتني في البدء من تكون فلورا ماك نيكول، فقلت لك حينذاك إنّها أخت جدتنا الكبرى. بعبارة أخرى، خالتنا الكبرى. وهذه بالفعل حقيقة. لكنّها ليست الحقيقة الكاملة».

«لقد فهمت».

«أشك في أنّك فهمت، أو أن أي شخص آخر سيفهم، عداي أنا، لأنني يا آنسة ستار، خلال طفولتي المروّعة التي قضيتها مريضًا، لم أستطع فعل أي شيء غير القراءة، إذ كانت تلك محاولتي للهروب من الواقع».

«أخبرني ماوس ذلك».

«أنا واثق من أنه فعل. لكن حتى هو لا يستطيع أن يعرف أنني في رحلتي
النهمة عبر رفوف الكتب التي احتواها منزل المزرعة، تمكنت من قراءة كل ما كان
فيها. بما في ذلك يوميات فلورا ماك نيكول». وتوقف أورلاندو عن الكلام بشكل
مثير، وأضاف: «كلها».

«حسنًا». قررت أن أجاري أورلاندو في لعبته الصغيرة. «وهل تعرف أن بعض
يومياتها مفقود؟ كان ماوس يبحث عنها لتساعده في اكتشاف تاريخ العائلة. هل
تعرف أين هي الآن؟».

«بالطبع أعرف».

«إذن، لم تخبره بمكانها؟».

«في الحقيقة، لم أشعر بأنه يبحث عنها بنية حسنة. آنسة ستار، يجب أن
تفهمي أن أخي رجل يعاني من المرارة والاضطراب الشديد، وذلك منذ وفاة زوجته
وأبينا. لذلك شعرت بأن وضع معلومات كهذه تحت تصرفه، سيغذي نيرانه الداخلية.
أستطيع أن أؤكد لك أن من الصعب إخراج كلمة واحدة متحضرة من فمه، فهو
غارق في الحزن. كما أن عقله ليس سليمًا تمامًا».

«ولم ستجعل المذكرات وضعه أسوأ؟».

«أنا متأكد من أن ماوس أخبرك بأنّ والدنا أعطاه معلومات محددة... قبل
وفاته. فأصبح ماوس مهووسًا باكتشاف الحقيقة كاملة عن ذلك الماضي. هذا لأنه
ببساطة لا يرى مستقبلًا أمامه ليتشبّه به. هل تفهمين؟».

«نعم أفهم. لكن ما علاقة كلّ هذا بي؟».

«حسنًا، الآن...»، وانحنى أورلاندو لتناول حقيبة قماش كانت مدسوسة بجانب
كرسيه، وسحب منها كومة من المجلدات المغلفة بالحرير كانت مألوفة لي. «هل
تعرفين ما هذه؟».

«يوميات فلورا ماك نيكول».

«هي بذاتها». أومأ أورلاندو برأسه، وأضاف بسرور: «كانت معي، وبالطبع،

كنت قد استعدتها منذ مدة من منزل المزرعة، وأخفيتُها بين آلاف الكتب الموجودة في المتجر. فكما تعرفين، العثور عليها هناك كان سيستغرق وقتاً طويلاً».

قررت أن أهبه تلك اللحظة التي شعر فيها بالانتصار بما فعل، لذلك امتنعت عن إخباره أنه سبق لي أن رأيته هناك.

«لذلك يا آنسة ستار، ها هي هنا. حياة فلورا ماك نيكول بين عامي 1910 و1944. وهي تتضمن دليلاً مكتوباً على التضليل الذي حدث ضمن هذه العائلة، والعواقب التي تزدّد صداها على مر السنين. كما يمكن أي أحد، بمن فيهم أنا أن يقول إننا نحن الثلاثة ساهمنا بشكل كبير في إيجاد أنفسنا حيث نحن اليوم».

بقيت صامتة، وأنا أفترض بأنه يقصد ماوس ومارغريت ونفسه.

«لذلك، وتبعاً لتصرفاتك النبيلة تجاه عائلة فوربس الفاسدة، أشعر بأنه من العدل أن أواصل في توجيهك في الاتجاه الصحيح، من حيث توقّف أخي».

«حسنًا شكرًا لك».

«والآن، أين وصلت بالضبط مع ماوس؟».

«عند اكتشاف فلورا هوية والدها الحقيقي، وابتعادها عن لندن وعودتها إلى أرضها».

«إذًا، أقترح عليك أن أواصل القصة من هنا. سامحيني إن لم أقرأ كل كلمة، وإلا فسوف تستغرق قراءة المجلّد ثلاثين عامًا». قال وهو يشير إلى كومة المجلّدات الصغيرة بين يديه. «كما أن بعضها مملٌ جدًّا، لكن كوني مطمئنة إلى أن تراكم الأحداث سيقودك إلى الذروة على نحو رائع. لذلك، دعينا نبدأ. أنت على حق، في ذلك اليوم هربت فلورا لتعود إلى منزلها في منطقة البحيرات، وتمكّنت من إيجاد طريقة توصلها إلى نير سوارى لتطرح نفسها تحت رحمة بياتريكس بوتر التي استقبلتها في دارها ووفّرت لها مأوى. وبعد مرور بضعة أشهر، استخدمت وصية والدها لشراء مزرعة صغيرة قريبة من المنطقة. وعلى مدى السنوات التسع التالية، عاشت هناك في عزلة فعلية، ترعى حيواناتها وتهتم بأرضها».

فهمستُ قائلة: «لكنّها كانت ما تزال صغيرة، إذ كانت في منتصف العشرينيات».

«لحظة من فضلك. اصبري يا آنسة ستار. قلت لك إن الوضع تحسّن في ما بعد بالنسبة إليها». قال أورلاندو وهو يلتقط أوّل مجلّد ويقلّب صفحاته، ثمّ وضعه جانبًا وبحث في الكومة عن مجلّد آخر. «الآن، ها نحن في منطقة البحيرات، في شباط 1919، في صباح يوم اشتدّت فيه البرودة وهطل الثلج بكثافة».

فلورا

نير سوارى، مقاطعة البحيرات

شباط 1919

شَقَّتْ فلورا مسلَّكًا ضيقًا داخل الثلوج المتراكمة أمام باب المدخل، على الرغم من أن مجهودها ذاك كان سيذهب سدىً. فبمجرّد النظر إلى السماء المتلبّدة بالغيوم، يمكن المرء أن يتوقَّع تساقط مزيدٍ من الثلوج في أي لحظة. ومع ذلك، كان عليها أن تخرج من الكوخ، وتمشي على طول الممر لكي تتفقّد بياتريكس التي عانت مؤخرًا التهابًا في الشعب الهوائية. لم تجد نفعًا من اصطحاب مهرتها جيزيل، وهي من فصيلة نورثمبريا، ويفترض أن تكون معتادة على تلك الأحوال الجوية، لكنها كانت متدمّرة، لا تحبّ ملامسة الثلج ساقِها. وعندما يحصل، كانت تعاند وترفض أن تتزحزح من مكانها. ارتدت فلورا بنطال تويد سميكًا كانت قد صممته بنفسها، لكونه عمليًا أكثر من التنانير، وحذاءً ثقیلاً، وحملت سلّة مؤن وانطلقت فوق المنحدر الجليدي إلى ممر تكوّن تحت أكوام الثلج.

توقفت كما تفعل دائماً لحظة رؤيتها نوافذ إستويت هول تتلأأ عبر البحيرة. تلك البحيرة التي تجمّدت كلياً لدرجة قدّرت فيها أن تتمكّن من ارتداء زوج من أحذية التزلّج لتعبّرها كلها في غضون دقائق. كانت ذاكرتها قادرة على الجزم أن الطقس في تلك السنة كان الأسوأ في السنوات التسع الماضية هنا. حتى إنّها أصيبت بحزن شديد، عندما فقدت عددًا من أغنامها، وهذا ما حدث أيضًا لباقي الفلاحين في المنطقة.

أخيرًا، استطاعت أن ترى من بعيد كاستل كوتيج، المنزل الذي انتقلت إليه بياتريكس بعد زواجها من المحامي اللطيف، العزيز ويليام هيليس. كانت بياتريكس هي من أخبر فلورا أن مزرعة وينبرغ كانت معروضة للبيع، واقترحت عليها شراءها. وجهدت فلورا كثيرًا لتجديد المنزل، وإعادة تمويل المزرعة.

لم تعد بياتريكس شابة، على الرغم من رفضها الملح للواقع، وكان من السهل العثور عليها فوق التلال، وهي تقطع الأشجار وتبحث عن الأغنام أو عن أي نوع جديد من الزهور البرية التي لا تنمو في حديقتها. وكان كثير من تلك النباتات ينتهي داخل مزرعة فلورا بعد أن تهديها بياتريكس إياها.

في ذلك المساء المشؤوم من عام 1910، عندما هربت فلورا من لندن لتعود إلى منطقة البحيرات، كانت بياتريكس من أنقذها من التشرّد. كثر في القرية كانوا يرون أن الكاتبة شخص غريب الأطوار وسيئة المزاج، عدا فلورا التي نجحت في استشعار اللطف الذي يحتويه قلبها.

في الواقع، كانت بياتريكس أقرب صديقة إلى فلورا، لا بل صديقتها الوحيدة، حتى إنها كانت تحبها حبًّا جمًّا.

كان عليها أن تدفع ثمنًا قليلًا في مقابل تمتّعها بالحرية، أي بالبقاء وحيدة. فكّرت فلورا وهي تغرس قدميها في الثلوج التي بلغ ارتفاعها إلى ركبتيها. على الأقل، كانت تلك الضربة أخفّ بكثير من معظم الضربات التي تلقّاها الآخرون خلال الحرب العظمى، التي أعلنت هدنتها في تشرين الثاني الماضي، ولم تخسر أحدًا فيها. على الرغم من أنّه كان من الكذب أن تدّعي أنّها لم تعد تفكّر في أولئك الذين كانت ما تزال تحبّهم؛ فآرتشي فوغان كان ما يزال يطارد أحلامها وكوابيسها، على الرغم من الجهود التي بذلتها لكي لا تفكّر فيه في ساعات يقظتها.

على الأقل، كان لديها المزرعة، وقد نجحت في ملء وقتها بسبب الأعمال التي كانت تتطلبها، كما أن اندلاع الحرب فرض عليها تعلّم فن الاكتفاء الذاتي. فمنتجات الألبان تعرّضت لنقص في السوق، وبحلب ما كانت تعطيه أبقارها المعدودة من أجل الشبان في فرنسا، كان على فلورا شراء عنزة لكي توفر لنفسها حاجتها. وفيما صودرت خيول الجرّ المحلية لاستخدامها في الحرب، تمكّنت فلورا من الاحتفاظ بمهرتها جيزيل. كما أن الخضروات، شحّت هي أيضًا، لذلك بدأت فلورا العمل على مساحة خضراء، واقتنت الدجاج للحصول على حاجتها من البيض. على الرغم من الجوع الذي شعرت به أحيانًا، لكن لم يغرّها يومًا تسليط

السَّكِينِ عَلَى رَقَبَةِ أَيٍّ مِنْ دَجَاجَاتِهَا. فَمِنْذَ أَنْ عَادَتْ إِلَى مَنْطَقَةِ الْبَحِيرَاتِ، لَمْ تَتَذَوَّقْ شَرِيحَةَ لَحْمٍ وَاحِدَةً.

أحيانًا، كَانَتْ تَفَكَّرُ فِي حَفَلَاتِ الْعِشَاءِ الْكُبْرَى الَّتِي اسْتَضِيْفَتْ فِي مِيدَانِ پُورْتْمَانِ، وَالْوَفْرَةِ فِي الطَّعَامِ وَاللَّحُومِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَتَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى امْتِلَاقِهَا الْمَوَارِدِ الْإِلَازِمَةِ لِإِدَارَةِ مَنَزْلِهَا، مَهْمَا كَانَتْ قَوَائِمُ الطَّعَامِ زَهِيدَةً عَلَى مَائِدَتِهَا. «هَلْ مَا زِلْتَ حَيًّا؟». سَأَلَتْ فَلُورَا فِي هَوَاءِ الْبَرْدِ الْقَارِصِ، صُورَةً لَأَرْتَشِي تَشَكُّلَتْ فِي ذَهْنِهَا. فِي الْحَقِيقَةِ، كَانَ غِيَابُ الْأَنْبَاءِ عَنْ أَحْوَالِهِ يَعَذِّبُهَا بِطَرِيقَةٍ لَا تُحْتَمَلُ. وَكَانَتْ بِيَاتْرِيكْسَ، الَّتِي أَخْبَرَتْهَا فَلُورَا بِقِصَّتِهَا الْمَوْسُفَةِ كُلِّهَا حِينَ وَصُولِهَا إِلَى هُنَاكَ قَبْلَ سَنَوَاتٍ، قَدْ تَوَسَّلَتْ إِلَيْهَا أَنْ تَتَوَاصَلَ مَعَ شَقِيقَتِهَا وَإِخْبَارِهَا عَنْ مَكَانِهَا وَالِاسْتِفْسَارِ عَنْ أَحْوَالِهَا. «الْحَرْبُ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ»، قَالَتْ بِيَاتْرِيكْسَ. أَمَّا فَلُورَا فَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنْ لَا شَيْءَ سَيَغَيَّرُ حَقِيقَةَ خِيَانَتِهَا الْمَرْوَعَةِ، أَوْ التَّعَابِيرِ الَّتِي رَأَتْهَا عَلَى وَجْهِ أُورِيلِيَا، وَهِيَ تَقُولُ لَهَا إِنَّهَا لَا تَرْغَبُ فِي رُؤْيَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى فِي حَيَاتِهَا.

مِنْ حِينَ إِلَى آخَرٍ، كَانَتْ تَسْمَعُ أَخْبَارَ وَالِدِيهَا مِنَ الثَّرَثَةِ الْمَحَلِّيَّةِ. وَهَكَذَا تَلَقَّتْ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ قَبْلَ عَامَيْنِ خَبَرَ وَفَاةِ وَالِدِهَا. حِينَذَكَ كَتَبَتْ رِسَالَةً إِلَى وَالِدَتِهَا فِي اسْكُوتْلَنْدَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَرْسُلْهَا إِلَيْهَا؛ فَالْمَرَارَةُ الَّتِي اعْتَمَرَتْ قَلْبُهَا تَجَاهَ رُوزَ بَعْدَ هَجْرَانِهَا لَهَا بَعْدَ وَفَاةِ الْمَلِكِ، قَتَلَتْ أَيَّ رَغْبَةٍ لَدَيْهَا فِي التَّوَاصُلِ مَعَهَا. كَمَا أَنَّهَا سَمِعَتْ مُؤَخَّرًا أَنَّ رُوزَ غَادَرَتْ الْمَرْتَفَعَاتِ، وَرَحَلَتْ عَنِ الْمَنْطَقَةِ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَعْرِفْ إِلَى أَيْنَ ذَهَبَتْ.

كَانَتْ أَيَّامُ الشِّتَاءِ هِيَ الْأَصْعَبُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا، إِذْ كَانَتْ تَمْنَعُهَا مِنْ اسْتِنَازِافِ طَاقَتِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي كَانَ يَشْغُلُ وَقْتُهَا وَيَطْرُدُ الْأَفْكَارَ الْمَظْلَمَةَ الَّتِي تَتَزَاحَمُ إِلَى رَأْسِهَا. وَكَمْ كَانَتْ تَسَرُّ بِوَصُولِ فَصْلِ الرَّبِيعِ الَّذِي يَمْلَأُ عَلَيْهَا حَيَاتِهَا. بِسَبَبِ الْمَجْهُودِ الَّذِي بَذَلْتَهُ فِي التَّقَدُّمِ فِي الثَّلُوجِ، وَصَلَتْ فَلُورَا، وَهِيَ تَلْهَثُ إِلَى كَاسْتَلْ كُوتِيْجِ، وَطَرَقَتْ الْبَابَ. وَكَمَا هِيَ الْحَالُ دَائِمًا، كَانَ كَلْبَا بِيَاتْرِيكْسَ الْبِكِينِيِّينَ أَوَّلَ مَنْ رَحَّبَ بِهَا.

«عَزِيزَتِي فَلُورَا، تَفَضَّلِي بِالْخُودِ». قَالَتْ بِيَاتْرِيكْسَ فِيمَا اجْتَاَحَهَا هَوَاءُ دَافِئٍ

وأحاط بها. «إنني أخبز كعكة بآخر بيضتين لديّ. لعلّك ستلتذّذين بها أنت أيضًا. لقد ذهب ويليام على الرغم من الثلوج إلى مكتبه في هوكسهيد. والآن، لا تتردّدي في تذوقها، فقد ساعدتني السيدة روجرسون في إعدادها».

«هذا لطف كبير منك. انظري، لقد أحضرت لك بيضًا طازجًا». وخلعت فلورا قفازاتها ووضعت ثلاث بيضات بحذر على الطاولة. «هل تشعرين بالتحسّن يا عزيزتي بياتريكس؟».

«شكرًا لك. كانت نزلة بردية بغیضة، لكنني ما زلت أشعر بالألم في صدري أحيانًا».

«أحضرت لك أيضًا بعض الكافور». قالت فلورا وهي تخرجه من سلتها. «وجرة غسل من خليتي، وهو من إنتاج العام الماضي». جلست فلورا إلى طاولة المطبخ فيما قامت بياتريكس بتقطيع قطعة من الكعكة الإسفنجية لتقدّمها إليها. وكان الجزء العلوي والسفلي منها غني بالمرّبّى ليعوّض عن جوفها. وحين وضعت لقمة على شفّتها واستنشقت رائحتها، تذكّرت فجأة أمرًا.

«في أي يوم نحن؟».

«لمأذا؟ نحن في السادس عشر من شباط».

«يا إلهي!»، قالت فلورا وهي تسند ظهرها إلى الكرسي وتضحك. «هل تصدّقين، إنّه عيد ميلادي؟ وما أنت تقدّمين إليّ كعكة!».

«آه يا عزيزتي! هذا يعني أنّني لم أكن لأقرّر خبزها من أجل مناسبة أفضل من هذه». أجابت بياتريكس، وهي تجلس بجانبها وتضغط على يدها. «عيد ميلاد سعيد يا فلورا».

«شكرًا لك».

«ذكّرني، كم عمرك؟».

«أنا...» وكان على فلورا أن تفكّر بضع ثوانٍ قبل أن تتابع «في التاسعة والعشرين».

«ما زلت صغيرة جدًّا». قالت بياتريكس. «أنت تزيدين عن نصف عمري بقليل. غالبًا ما اعتقدت أنك أكبر سنًّا. وأرجو أن تعتبرها مجاملة، إن استطعت». «آه، هذا ما أفعل. فأنا أشعر بأنني عشت فترة طويلة على هذه الأرض». «حسنًا، لقد عرفتني كامرأة أرض، لكن أحيانًا أشعر بالحاجة إلى العودة إلى الحضارة في لندن، وكنت أتساءل إذا ما كان عليك أنت أيضًا فعل بذلك. خصوصًا الآن بعد انتهاء الحرب».

«أنا سعيدة هنا، وهذا يكفي». علقت فلورا التي شعرت بالانزعاج من مجرد التلميح.

«أعرف ذلك يا عزيزتي، لكنني وويليام كنا نفكر بك في البارحة، ونحن قلقان عليك. فأنت ما زلت شابةً جميلة...».

«من فضلك يا بياتريكس، لا ضرورة للمجاملة».

«ليست مجاملة. أنا أذكر الحقائق فحسب. ألا تفكرين في التواصل مع عائلتك؟ أقترح عليك زيارة الجنوب لتوقفي ذلك القلق الذي ينتابك؟».

«تحدثنا في الأمر من قبل، ولم يتغيّر شيء من ذلك الحين. أورييليا لا ترغب في رؤيتي في حياتها. لذلك لا أجد أن زيارتي ستجلب لها غير ذكريات مؤلمة». «وماذا عن الحب يا فلورا؟».

حدّقت فلورا في بياتريكس بارتباك. فهي ليست من النوع العاطفي، لذلك لم تفهم السبب الذي دفع بصديقتها إلى التحدث عن أمر كهذا. ثمّ ضغطت ما تبقى من الكعكة داخل الصحن ونهضت من مكانها. «الآن، يجب أن أعود. شكرًا لتمنياتك، أؤكد لك أنني بخير وأنني سعيدة. إلى اللقاء».

شاهدت بياتريكس صديقتها الشابة تغادر المطبخ، وراحت تراقبها وهي تسير في الثلوج إلى أسفل الممر. وشعرت بأن الوحدة والعزلة التي تعيشها فلورا ترهقها بازدياد.



بعد مرور أربعة أشهر، وكان يومًا مشمسًا من حزيران، عندما فتحت فلورا بوجه مبلى بالدموع، باب منزلها إثر طرق بياتريكس المَلَح عليه.

«يا إلهي!»، قالت بياتريكس التي بدا الذهول على وجهها. «ماذا حدث بحق السماء؟».

«إنَّه بانثر! دخل ليلة البارحة كالعادة لينام في سريري، لكنَّه لم... يستيقظ هذا الصباح».

«آه عزيزتي»، قالت بياتريكس وهي تدخل إلى الكوخ وتغلق الباب خلفها. «أنا آسفة».

«لقد أحببته من قلبي! كما ترين هو الوحيد الذي كان يربطني بالماضي. في الواقع، هو كل ما أملك...».

«تعالى من هنا، من هنا». قادت بياتريكس فلورا إلى المطبخ، ودعتها لتجلس على الكرسي، ثمَّ وضعت الغلاية على الموقد. «لقد عاش حياة طويلة ورائعة».

"لكنَّه في العاشرة من عمره فقط. لقد سمعت أن كثيرًا من القطط قادرة على العيش سنوات أطول». وخفضت فلورا رأسها بينما كانت كتفاها تتحركان صعودًا وسطح شهيقي صامت.

«حسنًا، لقد عاش حياته سعيدًا يتمتَّع بصحَّة جيَّدة. وكلتانا تعرف أنَّه ليس هناك أسوأ من رؤية حيوان عجوز يتألَّم مع اقتراب أجله، خصوصًا إذا كان ذلك سيدوم وقتًا طويلًا».

«لكنَّه مات فجأة! لا أفهم كيف حصل ذلك».

«لا أحد يفهم، وحده الله قادر على ذلك». وسكبت بياتريكس الماء في إبريق الشاي. «أين هو الآن؟».

«ما زال في سريري. ويبدو مرتاحًا فيه، لذلك لا أريد إخراجَه».

«يجب أن تكوني عملية يا فلورا. علينا أن ندفن بانثر. هل تريدني أن أساعدك؟».

«نعم». واغرورقت عينا فلورا بمزيد من الدموع. «اعذريني على تصرفاتي

العاطفية. تعرفين أنه سبق أن فقدت كثيرًا من الحيوانات في حياتي، لكن بانثر مختلف».

«بالطبع هو كذلك. هذه حال بعض الحيوانات».

«هل من السخف إن قلت لك إنني الآن أشعر بالوحدة من دونه؟».

«كلا، على الإطلاق». قالت بياتريكس وهي تضع كوب الشاي أمامها. «لا بدّ من وجود صندوق ما في إحدى خزائنك. سأعثر عليه ثمّ أضعه إلى الطبقة العلوية، وأضع العزيز بانثر داخله، وبعد ذلك سأنزله إلى هنا لتودّعه قبل أن أغلق الصندوق. وفي ما بعد، يمكننا الخروج إلى الحديقة لتحديد المكان الذي سندفنه فيه».

«شكرًا لك». وابتسمت فلورا ابتسامة باهتة عندما غادرت الغرفة.



بعد دفن بانثر، وتعزية فلورا المنكوبة، غادرت بياتريكس إلى مزرعة وينبرغ عبر الممر الذي يؤدّي إلى كاستل كوتيج. عندما وصلت إلى هناك فتحت الدرج الذي في طاولة الكتابة، وأخرجت منه الرسالة التي وصلتها قبل أيام لتعيد قراءتها. لقد جعلتها محتويات الرسالة تنتحب، وهو أمر نادر في تلك الأيام، عقب الحرب العظمى التي تخلّلتها مآسٍ كثيرة. وخلال تناولها العشاء مع زوجها ويليام، ناقشته في الموضوع.

«ذهبت لزيارة فلورا هذا الصباح لأطرح عليها الفكرة، لكنني لم أشعر بأنّ التوقيت كان مناسبًا. كانت في صدمة لفقدان قطّها».

نزع ويليام سداة غليونه بتمعّن وفكّر.

«مما أخبرني به الآن، أعتقد أن ذلك يجعل اقتراحك أكثر صوابًا. وأنا أميل إلى فكرة وضعها أمام الأمر الواقع. ويمكنها ببساطة رفض الموضوع».

«ربّما أنت على حق. شكرًا لك، يا عزيزي».



بعد أسبوع، رأت فلورا التي كانت ما تزال محطمة من موت بانثر، بياتريكس تعبر الممر بخطى واسعة، وبين ذراعيها حزمة كبيرة.

«صباح الخير يا فلورا»، قالت بياتريكس حين دخلت. «إن حواف حديقتك تبدو رائعة، خصوصًا بعد أن أضفت إليه زهرة أليوم كرستوفي (نجمة بلاد فارس). إنها إضافة موفقة».

«شكرًا لك». أجابت فلورا. «على الرغم من أنني أهملت العمل فيها منذ رحيل بانثر. ما... هذا؟».

أزالت بياتريكس البطانية لتريها ما في داخلها. «هذا يا عزيزتي، طفل». «يا إلهي». اقتربت فلورا من بياتريكس وحذقت في وجهه الصغير. عندئذ انغلقت عينا الطفل بسرعة ليغط في النوم. «وماذا يفعل هنا بالضبط؟».

«عمره أسبوعان. أنت تعرفين أنني راعية مستشفى محلي، وقد أحضر هذا العث الصغير إليه بعد ولادته بساعات قليلة. لقد سمعت إحدى الجيران صراخه داخل منزل مجاور لها يقع على تلة بلاك فال. وعندما قصدت المنزل، وجدت الأم متوفاة بسبب الولادة، وكان الصغير ما يزال بين ساقها يصرخ بصوت عالٍ. هل تتخيلين ذلك المنظر؟ حتى إن حبل السرة الذي يربط الأم بطفلها كان ما يزال غير مقطوع. فقطعته بسكين خبز، وأرسلت زوجها إلى الحانوتي، وأخذنا الطفل من أعلى التل إلى المستشفى. هل أستطيع الجلوس؟ فهو أثقل مما يبدو عليه، مثل أي شيء صغير وقوي، أليس كذلك؟». هدلت بياتريكس بمودة فوق الحزمة.

قادت فلورا بياتريكس إلى المطبخ، وهناك أخرجت كرسيًا لتجلس صديقتها عليه، وهي في حالة ذهول من اكتشاف حس الأمومة لدى صديقتها. «وأين والد الطفل؟».

«حسنًا، إنها قصة مأساوية. الأب راعٍ، لكنّه أرسل إلى فرنسا قبل ثلاث سنوات ليشارك في القتال. كانت إجازته الأخيرة في آب. لكن بعد عودته إلى الجبهة بفترة وجيزة، لقي حتفه في الخنادق في معركة إيبهي. حصل ذلك قبل أسابيع قليلة من الهدنة. لكنّ جثته لم تُعد قط إلى المنزل». هزت بياتريكس رأسها وقد حفر

الحزن أثره على ملامحها. «والآن، لم يعد أحد من الوالدين موجودًا ليُعنيا بابهما. لا يسعني إلا الصلاة من أجلهما ليجتمعا في الجنة، رحمهما الله». «أليس للطفل أقارب؟».

لا يعرف أي من الجيران بوجود أقارب له. كل ما استطاعت الجارة إخبار موظفي المستشفى هو أن الأم كانت من كيسويك واسمها «جاين». عندما ذهبت إلى المستشفى في زيارتي الشهرية، عرفت بالطفل وبمصييره المأساوي. فذهبت لزيارته، وعلى الرغم من أنه كان عليلاً حينذاك، أعترف أنني افتتنت به، وتأثرت بشدته». «لكنه الآن بصحة جيدة على ما يبدو».

راحت كلّ منهما تراقب الطفل وهو يتحرك، كانت شفتاه الصغيرتان الورديتان تعبسان في استياء قبل أن يبدأ بإصدار أصوات رضاعة. «قريبًا، سيستيقظ وهو بحاجة إلى طعام. ستجدين في سلتي، زجاجة. هلاً تسخينها؟ فالتعليمات التي أعطيت لي تفيد بأنّ الأطفال لا يحبّون البرد».

«هل هو حليب بشري؟»، سألت فلورا المنبهرة، وهي تُخرج الزجاجة من السلة. وسخّنتها في إناء ملأته بالمياه، فوق الموقد.

«كل الأطفال يفظمون على حليب بقري مخلوط بالماء، على الرغم من أنه قيل لي إن حليب البقر يتسبّب لهم أحياناً في المغص، وإن حصل ذلك فإنه يستبدل بحليب الماعز».

«أجل...» تردّدت فلورا. «ولمّ الطفل معك هنا؟ هل تفكرين في تبنيه أنت وويليام؟».

«يا إلهي، بالطبع لا! مهما تحسّرت على كوني لن أصبح أمّاً ذات يوم، إلا أنني أقرّ بأنني سأظلم أيّ طفل إن بدأت اليوم بالاهتمام به. فلورا، يا عزيزتي، ربّما نسيت أنني في الثانية والخمسين من عمري، وهذا يعني أنني متقدّمة في السنّ ويسهل على أيّ كان اعتباري جدة هذا الصغير. يا لها من فكرة!». ضحكت بياتريكس. «فضلاً عن ذلك، من شبه المؤكد أنني سأكون أنا وويليام في ذمة الله عندما يبلغ سن الرشد».

«إذن، أنت ببساطة تهتمين به خلال النهار؟».

«نعم». وبدأ الطفل يحرك ذراعيه الصغيرتين بحماسة بعد أن أخرجهما من تحت البطانية أثناء تمّده. «خلال زيارتي للمستشفى، أرى الكثير من الأطفال المرضى وغيرهم من الأطفال الصغار، إلّا أن هذا الطفل محارب. فعلى الرغم من ظروف ولادته المؤلمة، أخبرني طاقم التمريض أنّه تعافى تمامًا. هل تمانعين لو حملته لبعض الوقت؟ فقد بدأت ذراعاي تؤلمانني بشكل مخيف».

«أنا... لم أحمل طفلًا في حياتي، ولا أريد أن أسقطه أرضًا أو أن أوذيّه...».

«لن يحصل. تذكرّي أنّنا نحن أيضًا كنّا طفلتين ذات يوم، وأنا واثقة من أن أمهاتنا حينذاك كنّ غير كفؤات، وعلى الرغم من ذلك، فقد نجحن في حمايتنا بحسن نيّتهنّ فحسب. تفضلي. سأحضر الزجاجة». ورفعت بياتريكس الطفل لتضعه بين ذراعي فلورا.

ذهلت فلورا من صلابته. وعلى الرغم من أنّه بدا لها صغيرًا جدًّا، لكن كل جزء منه بدأ يتحرك في اتجاهات مختلفة، وبدأ يموء مثلما كان يفعل بانثر لطلب الطعام، فدمعت عيناهما من إصراره المطلق على النجاة.

«اختبرت الزجاجة على يدي لأتأكّد من أنّها ليست ساخنة لدرجة حرقه، أو باردة لدرجة إخافته». قالت بياتريكس وهي تعطيها الزجاجة.

«وماذا أفعل الآن؟»، سألتها فلورا فيما بدأ الطفل بالنواح، وهو يشمّ رائحة الحليب قريبة منه، وفي الوقت نفسه بعيدة عن فمه.

«لَمْ، ستضعينها في فمه». حشرت فلورا الحلمة بين شفّتيه الصغيرتين الورديتين اللتين أحكهما بعناد، ولم يقبلها.

«إذًا، أسقطي القليل من الحليب على شفّتيه. فلورا، رأيّتك في السابق ترضعين ما يكفي من الحملان وتشجيعهم على الرضاعة. عليك استخدام التقنية نفسها».

وهذا ما حصل. فبعد ثوانٍ قليلة من التوتر، تمكّنت فلورا من وضع الحلمة في فم الطفل، وبدأ في مصّها. وتنفّست المرأتان الصعداء بعد أن عاد الهدوء من جديد إلى المطبخ.

«وماذا سيحلّ به؟». سألت فلورا بعد قليل.

«من يدري؟ هو الآن بخير، لكن لا يمكنه البقاء في المستشفى. لقد كتبوا طالبين إليّ الاستعلام عن مأوى محليّ له، وإن لم نعثر على منزل، سيُرسل إلى دار أيتام في ليثربول». قالت بياتريكس وهي ترتجف. «لكنني سمعت أنّه أكثر الأماكن رعبًا. وعندما يكبر، سيعثر على عمل في مطحنة للقطن إن كان محظوظًا، أو في مناجم للفحم».

«وهل هذا أفضل ما يمكن لطفل بريء أن يأمل به؟». سألت فلورا مذعورة وهي تنظر إلى تعابير الهادئة التي دلّت على الرضا.

«للأسف، نعم. ربّما كان من الأفضل لو أنّه رحل مع أمّه؛ إذ هناك أمل ضئيل في أن يحظى بمستقبل هنا، حيث عدد اللقطاء في تزايد سريع كل شهر. هناك عدد كبير من النساء يكافحن لإعالة أولادهن، من دون موارد للعيش، بينما أزواجهن في فرنسا، وقد يطول غيابهم العمر كلّهُ».

«بطبيعة الحال، رأينا ما يكفي من الحيوانات التي ذهبت سدى؟».

«الفقر يولّد الفقر، يا عزيزتي. العالم كلّهُ يحاول التعافي من الهلاك الذي شارف عليه. اعذريني على ما سأقوله، لكنّ كوننا هنا نختبئ خلف نيراننا المشتعلة، يسهل علينا أن نفصل أنفسنا عن الواقع المرير الذي يتجلّى هناك في البعيد. عندما أزور لندن، أرى إحباط الجنود المشوهين وهم يتسوّلون في منعطفات الشوارع. هو الفقر، خاتمة الحرب الشنيعة».

«لقد أنهاها وبدأ ينام». وضعت فلورا الزجاجاة على الطاولة. «بياتريكس، لم أحضرت هذا الطفل إلى هنا؟».

«لأنّني أردت أن تريه».

«هل هذا هو السبب فحسب؟».

«في الأغلب نعم. وأيضًا...».

«ماذا؟».

«أحيانًا أشعر بالقلق عليك لأنك تنغلقين على نفسك بعيدًا من العالم الخارجي».

«ربّما هذا ما أتمناه لنفسي. فأنا مثلك، أفضل الحيوانات على الناس».

«هذا ليس صحيحًا يا فلورا، تعرفين ذلك. المصدر الأساسي الذي يمدّني بالسعادة هو إنسان آخر. فلو لم يكن زوجي موجودًا، لكانت حياتي فارغة تمامًا».

«خذي». أعادت فلورا الطفل النائم إلى بياتريكس. «لقد تناول وجبته».

«إلى الآن». حملت بياتريكس الطفل بين ذراعيها، ثم نهضت. «هلاً تناوليني سلّتي؟».

ناولت فلورا بياتريكس السلّة، وهي تراقبها تلفّ البطانية حول الطفل استعدادًا للمغادرة. «شكرًا لأنك أحضرته إلى هنا». قالت لها وهما تخرجان من الباب الأمامي إلى أسفل المسار. «ما اسمه؟»، سألتها فلورا وهي تفتح البوابة.

«يعرف باسم «تيدي»، لم يبق ممرضة لم ترغب في حضنه ومعانقته». قالت بياتريكس بحزن وهي تبتسم. «وداعًا يا فلورا».

في وقت لاحق من ذلك المساء، جلست فلورا تكتب يومياتها، فوجدت صعوبة في التركيز. بقيت عينا الطفل الكبيرتان ونظراته غير المقيدة تطاردانها طوال الوقت. في النهاية، استسلمت وبدأت تتجول في غرفة الرسم المرتبة والنظيفة. فكل شيء كان في مكانه، حيث كانت قد وضعت بالضبط. إذ لم يسبق لأحد أن جاء ليزعزع النظام الهادئ والأمن الذي خلقته لنفسها.

ثم صنعت لنفسها كوبًا من الأوفالتين الذي كانت ناني تنصح به فيوليت وسونيا قبل النوم.

فيوليت... العزيزة فيوليت، العاطفية إلى أبعد حدود، والتي ما يزال حباها الساحق لصديقتها فيتا ساكفيل ويست يهيمن عليها. وكانت فلورا تعرف أن فيتا تزوّجت قبل سنوات، لكنّ الثروة التي جلبتها بياتريكس مؤخرًا من لندن، أفادتها بتجدّد العلاقة بين المرأتين. ومع أن فلورا كانت قد أصمّت أذنيها عن سماع كل ما له صلة بحياتها الماضية، لكنها تمكّنت من جمع بعض المعلومات لتستخلص أن الحب الذي جمع بين الصديقتين في أيام الطفولة قد نما إلى شيء أعمق.

تنهّدت فلورا وهي تفكّر في أنّه إذا كان ينبغي لأحد أن يكون موضوع أحدث

العلاقات الفاحشة في لندن، فستكون فيوليت، فهي في الواقع ابنة أمها، وقد تتلمذت على يدها، وتربّت على أن السمعة السيئة أمر طبيعي.
بما أنها هربت مع عشيقته...

وبينما كانت في الطبقة العلوية تتمدّد على سريرها، راحت تستمع إلى نعيق بومة، وهي المخلوق الوحيد الذي كان ما يزال مستيقظًا بانتظار انتهاء ساعات الليل الطويلة. شعرت بالوحدة تثقل كاهلها مثل عباءة داكنة، وهي تنزل إلى الطبقة السفلية لتجلس خلف طاولة الكتابة. ثم أخذت مفتاحًا من أحد الأدراج، وفتحت الحجرة السرية، وأدخلت يدها لتسحب دفتر يومياتها، وبعد أن وصلت أصابعها إلى الجيب الحريري الذي كان في الشقّ الداخلي للغلاف، أخرجت رسالة والدها إدوارد، التي بعثها لها عبر سير إرنست كاسيل.

لا تكشفني عن هويتك الحقيقية لتعيشي حياتك حرة طليقة. كم تمنيت ذلك لنفسي لو أتحت لي الفرصة. لكن قبل كل شيء، كوني صادقة مع نفسك....

ثم حدّقت مطوّلًا إلى توقيعه. «إدوارد»...
«تيدي»، نطقت فجأة.

وضحكت فلورا ماك نيكول أوّل مرّة بعد زمن طويل. كانت قد نسيت متى كانت آخر مرّة ضحكت فيها.
«طبعًا. طبعًا».

35

بعد يومين، انتقل الطفل تيدي للعيش مع فلورا. كان كلٌّ منهما يبذل، في أحسن الأحوال كما في أسوأها، جهده ليعتاد الآخر. حاولت فلورا التعامل معه على أنه حمل يتيم بحاجة إلى دفء وحبٍّ، والأهم من ذلك كله إلى حليب. مع ذلك، احتارت في كيفية إزالة أي نوع من روث الحيوانات من دون قلق، إذ كانت في كل مرة تُغيّر حفاضه، تشعر بتهيج في معدتها لدرجة الغثيان.

لم يكن تيدي طفلاً قانعاً في أيِّ حال من الأحوال، كجرو فقد أمه. وكانت بعد أن تقدّم له آخر زجاجة حليب، تضعه في مهده المؤقت، وهو عبارة عن دُرج ملأته بالبطنيات ووضعتة قرب الموقد، ثمّ تستعدّ للنوم، فتزحف صعوداً على السلالم لتتسلّل بعد ذلك داخل الملاءات وتغلق عينيها بارتياح. ولم تكن تمرّ دقائق قليلة قبل أن تسمع صراخ الطفل.

في البدء حاولت تجاهل الأمر، فالتعليمات التي تلقّتها من بياتريكس كانت تفيد بضرورة تدريب الأطفال كما تدرب الحيوانات، لكن تيدي لم يوح بميله إلى الانصياع لقواعد اللعبة. وفيما كانت وحدات الديسبيل ترتفع تدريجياً فيتردد صداها داخل الجدران الحجرية السميقة للمزرعة، أدركت فلورا في النهاية أنّها حرب مستنزفة، وأن تيدي هو دائماً الفائز.

كانت المرّات الوحيدة التي تمرّ عليها بسلام، هي حين تضعه بجانبها في السرير. وعلى الرغم من أنّها كانت تدرك أن الأمر سيسبّب لها مشكلة في المستقبل، لكنّ شعورها بإرهاق على الصعيد الجسدي والعقلي والعاطفي، جعلها تتغاضى عن الموضوع، وفي النهاية سمحت له بالنوم إلى جانبها ليلاً.

بعد ذلك حلّ قليل من السلام على الكوخ، في حين أن المزرعة عانت الإهمال. وعندما ضرب الإهمال أطنابه اضطرت إلى توظيف شاب من القرية لإنهاء المهام الأساسية التي لم تعد قادرة عليها. وعلى الرغم من أن الوافد الجديد عطل الروتين الذي كانت قد ابتكرته لنفسها لدرجة أنها لم تعد قادرة على إصلاحه، لكن وجود قلب ينبض كل ليلة بين ذراعيها تمكن من إذابة قلبها المتجمّد.

مع طلوع شمس الصيف، بدأت فلورا تأخذ تيدي في نزعات. كانت تستخدم الحبال القطنية لتلفها حولهما، إذ أن الطرقات الوعرة والصخرية والتضاريس لم تكن مناسبة للعربة المتنقلة. وكانت تتجاهل نظرات القرويين الفضولية، فيما كانت قادرة على تخيل الثروة المحلية. وكم ضحكت على ما كانوا قادرين على التفكير فيه. وبمرور الأيام، بدأت تشعر بالسلام والالتزام الذي ظنت أنها فقدتهما إلى الأبد. وبقيت على ذلك النحو إلى أن جاء يوم حار في تموز، عندما أتاها فيه زائر غير متوقّع.

كانت فلورا قد وضعت تيدي في السرير من أجل قيلولة بعد الظهر، وشغلت نفسها في الحديقة بعد أن استغاث بها الزرع المهمل من الشهر الماضي، كما يفعل تيدي عادة بصراخه. وفيما بدأت تنزع الأعشاب من بين نبات الترمس، وقد تعرّقت تحت أشعة شمس بعد الظهيرة، فكّرت كيف أن الطبيعة عند إهمالها وإن فترة قصيرة، قادرة على فرض نفسها على الفور.

«مرحبا فلورا».

تجمّدت يداها الغارقتان في التراب والعشب.

«اسمي آرتشي فوغان. هل تذكريني؟».

لابدّ أن ذلك من أثر الشمس، فكّرت في نفسها. هل تذكرته؟ إنّه الرجل الذي سكن روحها وجسمها على مدى السنوات التسع الماضية؟ كم كان سؤالاً سخيلاً ليطرحة ذهنها المتألم من الوحدة.

«هل يمكنني الدخول من فضلك؟».

استدارت لكي تدع حذاءً لهلوستها السخيفة، وفيما كانت تحدّق إلى هيئة

«السراب» الواقفة خلف البوابة، هزّت رأسها ورمشت عينيها مرّات عدة، إلّا أن الصورة رفضت أن تختفي.

«يا للسخافة!». صرخت بصوت عالٍ.

«ما هي السخافة؟». أجابها السراب خلف البوابة.

«أنت»، قالت وهي تقوّم نفسها وتسير إلى البوابة. فبعد أن قرأت عددًا كافيًا من الكتب، كانت تعرف أن المرء عندما يصاب بالجفاف، فإنّ السراب يختفي حين يقترب منه المرء.

«هل أنا كذلك؟»

والآن، باتت ترنو من فوق البوابة، كانت قريبة جدًا لتستطيع شمّ رائحته التي لم تنسها، وتحس بأدنى قدر من نفّسه على خدها. «من فضلك ارحل!». أمرته بيأس.

«فلورا، من فضلك... هذا أنا آرثشي. ألا تذكريني؟».

ومدّ السراب يده فلامس إصبعه خدها، حاملة معها أحاسيس لا يمكن في أي حال أن تكون خيالاً.

بدت لمستّه كأنّها تستنزف آخر قطرة دم من عروقه، فترنّحت وهي تحاول الوصول إلى البوابة لتستند إليها بعد أن شعرت بدوار.

«يا إلهي، فلورا...».

فجأة، بدأت الأرض تدور بها، إلى أن سقطت في الممر.

«سامحيني». سمعت في المسافة بعد أن شعرت بهبّة باردة تلامس وجهها. «كان عليّ أن أرسل برقية لأخبرك مسبقاً بقدومي. لكنني خشيت أن تغادري قبل وصولي».

وأعادها الصوت الناعم إلى وعيها ففتحت عينيها، ورأت ما بدا لها أوّل وهلة مثل مروحة كاليكو يبيج تتحرك أمام عينيها ذهابًا وإيابًا. وعندما عاد إليها إدراكها، فهمت أنّها قبعتها الشمسية وقد أخفت خلفها وجهًا أكثر نحافة مما كانت تذكره،

وأكثر إرهاقًا أيضًا إضافة إلى الشعر الذي وخطه الشيب عند الصغين. كما أن عينيهِ لم تعودا مشرقتين كما في السابق، وأصبحتا مثل عيني رجل مسكون.
«هل يمكنك الوقوف؟ عليك أن تحتمي من الشمس».

«نعم». وأسندت إليه كامل ثقلها فساعدتها على دخول المنزل. وأشارت باتجاه المطبخ.

«لكنك بحاجة إلى الاستلقاء؟».

«بالله عليك، لا». أجابت وهي تشعر كأنها بطلة مخبولة وحمقاء في قصة حب معقدة. «هلاً تجلب لي الماء في الإبريق من المخزن؟».

عندما عاد، ابتلعت المياه كأنها كانت ظمأى، أمام عينيهِ الجاحظتين اللتين لم تفارقاها لحظة واحدة. فجأة، راحت تفكر في ما كان يراه في تلك اللحظة؛ امرأة كثرت التجاعيد فوق وجهها المتزيّن بالحزن والوحدة وبطقس البحيرات القاسي. أما شعرها فكان أشعث كعادته، يتساقط من عقدته، وكانت قامتها تلتف بعباءة قذرة مخيطة بخشونة. وكانت ترتدي سروالا قصيرا من القطن مغطى ببقع من العشب، وبقبا خشيبا. باختصار، شعرت أنها كانت مخيفة.

«تبدين جميلة». تتمم آرتشي. «لقد أنصفتك السنوات التي مرت عليك جيداً». أطلقت ضحكة مكتومة، وهي تشك في بصره الذي ربّما أعمته الشمس القوية. الحمد لله أنها استعادت قدراتها الذهنية، فاستجمعت قواها على مضض مثل جيش منهنك تحت إمرتها.

«ما الذي تفعله هنا؟ كيف وجدتنى؟» سأله بحدة.

«من الأفضل أن أبدأ بالردّ على سؤالك الأخير، وأخبرك بأنّ عائلتك كانت تعرف بمكانك منذ سنوات. لا تتفاجئي عندما أخبرك بأنّ ستانلي، السائس العجوز في إستويت هول، هو من أخبر والدتك بانتقالك إلى هنا حين وصولك. وبما أن روز لم تكن على دراية بالدراما التي نشأت حديثاً بين ابنتيها، فقد كاتبت أوريليا».

«فهمت».

«لا بدّ من أن تدركي أنّه لإنقاذ زواجنا واستمراره، كان من الأفضل لنا ألا نثير المتاعب ونمتنع عن التواصل. لكنّ أوريليا بقيت تتسكّط أخبارك». «أنا مندهشة، حقًّا».

«هذه حقيقة بدهية، فالزمن قادر على شفائنا من أيّ داء يا فلورا. وخلال السنوات القليلة الماضية، أدركنا جميعنا كم أن الوقت المتاح لنا قصير جدًّا قبل أن يحين موعد المغادرة». وأظلمت عينا آرتشي. «أجل».

وفيما راح كل منهما يحدّق في الفراغ، ساد الصمت بينهما، فعادت الذكريات تتجمع بشكل كثيف وسريع. «أنا هنا لأنّ أوريليا أرادت التعويض». واصل آرتشي كلامه في النهاية. «لكننا الطرف المذنب».

«أتفق معك. لكن أوريليا هي من طردتك من حياتها. وعندما وُلد طفلنا قبل شهر، كان أول ما فكّرت فيه هو مراسلتك. حينذاك شعرت بأنّ الوقت قد حان». «طفل جديد؟ كم طفلًا لديكما الآن؟». «طفل واحد فقط. أنا...».

سمعت فلورا الغصّة في صوت آرتشي وقرأت التعابير على وجهه. وفي النهاية فهمت. «كلا». همست.

«توفيت أوريليا قبل ثلاثة أسابيع، بعد مرور عشرة أيام فقط من ولادتها. لذلك أنا آسف يا فلورا. تعرفين أنّها لم تكن بصحّة جيّدة، كما أن الحمل أضّرّ صحتها». أغلقت فلورا عينيها وتركت دموعها تنهمر. أختها الجميلة اللطيفة لم تعد تتنفس. لن تتمكّن من النظر مجدّدًا إلى تلك العينين الزرقاوين الصافيتين، المليئة بالأمل والضحك. فحتّى في منفاها الاختياري، شعرت بأنّ أختها كانت إلى جانبها. لكنّ نهايتها أرعبتها، فأثبتت نفسها على كل تلك السنوات الضائعة.

«يا إلهي... يا إلهي...». تمتمت فلورا. «لا أستطيع أن أتحمّل. هل... ساهمنا؟ كنت مستعدة لوهبها حياتي بكل سرور، يجب أن تعرف ذلك».

«أعرف هذا أكثر من أي شخص آخر يا فلورا، فقد ضحيت بسعادتك من أجلها. بصراحة، عندما تزوجنا أنا وهي، كان الأمر... صعبًا بالنسبة إلينا نحن الاثنين. خصوصًا أننا ناضلنا من أجل ذلك الرابط الذي كنّا بحاجة إليه، أي الطفل. لكنّ أوريليا أجهضت أوّل حمل، ثمّ عانت حالات إجهاض متتالية. وبعد وقت قليل، اندلعت الحرب العظمى، فانضمت إلى سلاح الطيران الملكي، وكنت خلال السنوات الثلاث ونصف الأخيرة بعيدًا من هاي ويلد معظم الوقت. واصلنا المحاولة في الإنجاب لكن من دون جدوى. فحذّرنا الطبيب ونصحنا بألا نحاول من أجل صحة أوريليا، كان ذلك الأصوب لها، لكنها لم تستمع إلى نصيحته. وفي الخريف الماضي، وجدت نفسها أخيرًا حامل بطفل مرة أخرى. نحن.... أنا...». صحح نفسه قائلاً «لديّ ابنة».

«أنا... يا آرتشي...»، أخرجت فلورا منديلًا قذرًا من جيبها ومخطت فيه.

«أنا حزين جدًّا لمجيئي إلى هنا لكي أنقل إليك مثل هذا الخبر الرهيب. لكن أوريليا أصرت على ذلك».

«أصرت على ماذا؟».

«على أن آتي إلى هنا شخصيًا، لأعطيك هذا. كان ذلك آخر طلب لها قبل وفاتها». ثمّ أخرج مغلفًا من جيب سترته وسلمه لها. وحالما تعرّفت على خطّ يد أختها بلّلت الدموع وجه فلورا.

«هل تعرف ما تحتوي عليه؟».

«أنا... ربّما لديّ فكرة.. نعم».

عندما تناولت المغلف منه، بدأت يداها ترتجفان فيما تملّكها الخوف، وهي تفكر في الكلمات اللعينة التي قد تحتويها الرسالة. ثمّ شعرت بيد دافئة تلمس يدها. «لا تخافي. أخبرتك أنها تريد التعويض. هل ستفتحيه الآن؟».

«المعذرة». نهضت فلورا وخرجت من المطبخ إلى المدخل إلى غرفة الرسم. وهناك جلست على كرسي بذراعين وشقّت ختم الشمع.

هاي ويلد

أشفورد، كنت

16 حزيران/يونيو 1919

أختي العزيزة،

لديّ الكثير من الأمور التي أتمنى أن أقولها لك، لكن كما تعرفين، لست بارعة مثلك في الكتابة. كما أنني أصبحت ضعيفة، أفقدت إلى القوة يوماً بعد يوم، لذلك سامحيني على اختصار الكلام في هذه الرسالة.

اشتقت إليك كثيراً يا أختي العزيزة. لم يمرّ يوماً لم أفكر بك فيه. أجل، لقد كرهتك في البداية، لكن مؤخراً، بدأت أوبّخ نفسي على التصرفات التي بدرت منّي نتيجة غيرتي العمياء قبل تسع سنوات. لقد أضعنا الكثير من الوقت، والآن بات من الصعب التعويض عما ضاع منا.

لذلك، أشعر الآن، وأنا أراقب ابنتي العزيزة تنام بسلام إلى جوارى في سريرها، وهي تجهل أنها لن تتعرّف إلى والدتها التي أنجبتها، بواجب إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح. فلورا، لا أريد أن تكبر طفلي من دون أمّ. فمهما سحبت آرثي لويز، إلا أنه لن يقدر على مدّها بالحنان الذي توفره أذرع أنثوية، أو بالأذن المصغية لتوجيهها ورعايتها وهي تكبر إلى أن تصبح بدورها شابة ناضجة.

بالطبع، هناك العزيزة سارة التي ستبقى إلى جانبها لتعتني باحتياجات لويز الأساسية، لكنها تتقدّم في السن. ونحن على حد سواء نعرف أن تعليمها محدود وكذلك وجهة نظرها في العالم، ولست بصدد إلقاء اللوم عليها هنا.

كل هذا يقودني إلى المعروف الذي أرغب في أن أطلبه منك:

عندما استفسرت مؤخراً من مخبريّتي في إستويت عن أحوالك، قالوا لي إنك تعيشين وحيدة. إذا كان وضعك هذا ما يزال على حاله، وكنت على

استعداد للخروج من عزلتك، أتوسل إليك أن تفكر في الانتقال إلى هاي
ويلد لتربي ابنتي على أنها ابنتك.

أنا متأكدة من أنك ستحبينها بكل ذرة من قلبك الجميل. وأيضًا،
ساندي زوجي المسكين وقفي بجانبه في حزنه. فلورا، لا يمكنك تخيل ما
الذي مرّ به خلال الحرب، والآن عليه أن يواجه رحيل زوجته، وأن يربي
ابنتنا وحده، وهذا كله يفوق طاقته على التحمل.

من فضلك، انظري على الأقل في إمكانية إحداث مثل هذا الترتيب،
واسمحي لي أن أظهر روعي الخالدة من ذنب الأنانية. لقد عانيت كفاية
فترة طويلة. قد تتفاجئين بهذه الرسالة، لكنني أدركت مع مرور الوقت
أننا لا نستطيع مساعدة من نحب. آرتشي اعترف لي، بكثير من اللوم، بما
حدث في ذلك الوقت. وأخبرني كيف أنّه لاحقك وضللك بشأن الترتيب
الذي اتفق عليه مع والدي عندما كان في اسكتلندا.

عزيزتي فلورا، بدأت أشعر بالإرهاق، لذلك لن أستطيع الإطالة في
الرسالة. لذلك صدّقي عندما أقول لك إن قدر المعاناة في العالم كان كثيرًا
في الآونة الأخيرة، وأمنيّتي الأخيرة هي أن أخفف من آلام أولئك الذين
أحبهم، في المستقبل. وآمل أن أمهد الطريق أمامهم لإيجاد السعادة.

سأدعو الله لكي تجديها في قلبك لتتمكني ذات يوم من فهمي
والغفران لي. وإن وجدت ما أقترحه عليك مناسبًا، أرجو أن تربي ابنتي في
منزلها بكثير من الحب والعطف.

مع كامل محبتي، يا أختي العزيزة.

صلي من أجلي أيضًا.

أوريليا

حدّثت فلورا عبر النافذة، وقد أحسّت بخدر في حواسها بسبب تلك الرسالة

الاستثنائية. فمقدار الكرم الذي احتوت عليه بطريقة أو بأخرى قد أزعجها أكثر من الاتهامات التي وجهت إليها في السابق، وشعرت بأنها تستحقها.

«فلورا؟ هل أنت بخير؟»، ناداها آرتشي من خلف الباب.

«إنها تطلب إليّ أن أسامحها». همست قائلة. «يا إلهي آرتشي! لم يكن عليها أن تفعل ذلك. كنّا نحن من تسببنا لها بالألم».

«أجل. على الرغم من أنني الملام الكبير في هذا الموضوع. فالحبّ الذي أكنّه لك قد أعمى بصيرتي».

«كيف أمكنها أن تتحلّى بكلّ تلك القدرة على المسامحة؟ أشكّ في أنني سأكون قادرة على ذلك لو كنت مكانها». قالت فلورا، وصمتت قليلاً لتستعيد توازنها. «الآن، لم يعد باستطاعتي أن أخبرها بأنّ إنقاذ زواجكما ليس وحده ما أجبرني على الهرب للعيش هنا في عزلة».

«أحقاً؟».

ترددت فلورا قليلاً ثمّ قررت أن لا نفع بعد الآن من احتفاظها بأسرارها لنفسها، لذلك ذهبت إلى مكتبها وأخرجت الرسالة من الجيب الحريري ليوميّاتها لعام 1910 وأعطتها لآرتشي.

«كان من أجل هذا أيضاً». وراحت تراقبه وهو يقرأ الرسالة، ويرفع حاجبه من وقت إلى آخر من وقع المفاجأة.

«حسنًا»، قال لها وهو يعيد الرسالة إليها. «حسنًا، حسنًا».

«هل كنت تعرف؟ أعتقد أن لندن بأكملها كانت حينذاك على علم بذلك».

«لكي أكون صادقًا معك، سمعت في البدء إشاعات عن... رابط يجمعك بعائلة معينة، لكنني لم أصدّقها. علاوة على ذلك، عندما توفي الملك وتولّى جورج الخامس العرش، طُمرت كل أنواع الثروة التي طاولت البلاط القديم وسيّده، فيما كان رجال الحاشية يتدافعون من أجل إبراز أنفسهم داخل البلاط الجديد. لذلك...». ظهر بصيص ابتسامة على وجه آرتشي أول مرة منذ أن وصل، «هل يفترض الآن أن أناديك 'سموّ الأميرة'. يا إلهي، لا أدرك ما أقوله، على الرغم من أنّه يفسر الكثير من الأمور».

«ليس هناك ما يمكنك قوله، لكن الآن على الأقل يمكنك أن تفهم السبب الذي دفعني إلى مغادرة لندن على عجل. العالم في ذلك الوقت، كان ينتحب مع الملكة فيما كنت أنا، مثل السيدة كيبييل، بمثابة تذكير غير مرغوب فيه لجُنحات زوجها». «لكنك على عكس السيدة كيبييل، لا تلاميذ على أي منها». أجاب آرتشي. فأنت تتمتعين بالكرامة، ولذلك اختفيت عن الأنظار، أما هي فقد عادت إلى لندن وواصلت تسلقها صفوف المجتمع. كما أن ابنتها حاليًا موضوع ثرثرة، بعد أن هربت فيوليت مع فيتا إلى فرنسا فور إعلان الهدنة، وقد تركت تلك الأخيرة زوجًا وطفلين. كما أن صيتهما ذائع في مختلف أنحاء لندن. حتى إنهم يردّدون أن فيوليت هي من شجعت فيتا على فعلتها. عائلة كيبييل لا تتمتع بأدنى معايير الخجل، أما أنت فقد تصرفت بكرامة وأخلاق، مثل الأميرة الحقيقية التي أنت هي عليها».

على الرغم من صعوبة الأمر، تمكنت فلورا من التّبسم ابتسامة خجولة، وهي تنظر إلى ملابسها.

«تلك الصفات تأتي من الداخل يا فلورا. الآن، أريد أن أسألك ما هو شعورك تجاه الرغبة الأخيرة لأوريليا؟».

«آرتشي، لا أستطيع أن أبدأ في معالجة مشاعري. علاوة على ذلك...».

فجأة علا صراخ تيدي في الطبقة العلوية كما لو أن التوقيت كان إلهيًا.

«ما هذا الضجيج؟». عبس آرتشي.

«عذرًا»، قالت وهي تنهض. «تيدي بحاجة إلى تناول طعامه».

صعدت فلورا إلى الطبقة العلوية لتحضر ما توقّعت أن يكون حزمة متعرّقة ورائحة كريهة صاخبة إلى أبعد حدود، وسمحت لنفسها بإطلاق ضحكة مكتومة. فعلى الرغم من أن حياتها في السنوات التسع الماضية كانت بالفعل راكدة، حان الآن دورها لتقدّم مفاجأتها إلى آرتشي فوغان. ويا لها من مفاجأة، فكرت وهي تعود إلى الطبقة السفلية وتيدي بين ذراعيها، ثمّ اتجهت إلى المطبخ حيث كانت زجاجة الحليب.

ما هي إلّا دقائق قليلة حتى تبعها آرتشي، وقد بدأ الفضول يتملّكه إلى درجة

الهزيمة. «ألديك طفل؟»، قال لها فيما كانت تحاول إمساك الزجاجة واتخاذ الوضعية المفضلة لدى تيدي.

«نعم».

«فهمت».

وتنهّد آرتشي تنهيدة طويلة.

«هل يعيش أبوه هنا معك؟».

«لا، لقد مات».

«هل كان زوجك؟».

«كلا».

«إذّا...».

بعد أن سمحت بعض الوقت بأن يمر حتى يؤدي خيال آرتشي مهمّته، ويبني على ما قالت له، علماً أنّها لم تقلّ إلا الحقيقة كاملة، تابعت حديثها.

«إنه لقيط. يعيش معي منذ أقلّ من شهر. وأخطط أن أتبنّاه».

ورفعت نظرها إلى آرتشي، ولم تقدر إلا أن تكتم ضحكة خافتة لدى رؤية الارتياح يعلو وجهه. ثمّ أضافت: «اسمه تيدي».

«بالطبع... نسبة إلى إدوارد»، قال وهو يربط تلقائياً بين اسم الطفل واسم والدها الحقيقي. «أعترف لك أنّي منذهل».

«هذه كانت حالي أنا أيضاً في البداية عندما قررت استقباله. لكن الآن...». ونظرت إلى تيدي المتخوم وقد تدرجت عيناه جزاء شعوره بمتعة امتلاء معدته، ثمّ قبلته باعتزاز على رأس. «لن أكون لأذهل لولاه».

«وكم عمر تيدي؟».

«حوالي ستة أسابيع. ولد في الأسبوع الأخير من شهر أيار».

«هذا يعني قبل أيام قليلة فقط من ولادة لويز، في بداية حزيران. كان بإمكانهما أن يكونا توأمان».

«لكنهما يأتيان من عالمين مختلفين. فهذا الصغير والده راعٍ، وقد توفي في الحرب العظمى».

«أستطيع أن أؤكد يا فلورا أنه سواءً أكان المرء سيِّدًا أم متسولاً، فإنَّ الموت لا يميِّز الحواجز الاجتماعية. مهما كانت الفئة الاجتماعية التي انتمى إليها والد تيدي، إذا قاتل ومات من أجل وطنه، فهذا يعني أنه بطل». قال آرثشي بثقة. و«عليك أن تخبري ابنه عنه يومًا ما».

«لم أقرر بعد ماذا سأقول له».

«إذن، أنت الآن على دراية جيدة برعاية الأطفال و...»، وعلقت كلمات آرثشي في الهواء. لكن فلورا عرفت إلى ماذا يرمي.

«أين لويز حاليًّا؟».

«مع سارة في هاي ويلد، فهي من تعتني بها. إذا شعرتِ بأنك غير قادرة، بسبب... الظروف المتغيرة، والتي علينا النظر فيها الآن، على الانتقال إلى هناك لرعاية لويز، فحينئذ سأبذل قصارى جهدي بمساعدة سارة، لأكون لها الأم والأب في آن».

«لكن حتى لو وافقت على اقتراحك، ماذا عن تيدي؟ هل ستقبله في حضانة هاي ويلد؟ إذا شعرتِ بأنك لا تستطيع الترحيب بطفلي، فعليَّ أن أخبرك بأنني لا أستطيع في أي حال من الأحوال الموافقة على الذهاب إلى هناك».

«فلورا، ألا ترين؟ هذا أفضل من رائع! سيكون للويز رفيقًا تلعب معه، ولن يقلَّ عن أخ لها، على الأقلَّ من أجل الرفقة. سيكبران معًا...».

حينذاك رأت فلورا اليأس في عينيَّ آرثشي. أكان بسبب ابنته، أم زوجته المتوفاة، أو نفسه.. لم تستطع أن تجزم.

«هل يمكنني أن أحمله؟»، سألها فجأة.

«بالطبع». رفعت فلورا تيدي ووضعتَه بين ذراعي آرثشي المفتوحتين.

«يا له من طفل وسيم، بتلك العينين الزرقاوين الكبيرتين والشعر الأشقر. من

المفارقة أن تكون لويز قد أخذت جينات عائلتي، لذلك فهي سمراء، في حين أن تيدي يشبه أوريليا إلى حد بعيد. مرحبًا أيها الصديق العزيز»، قال آرتشي وهو يوجه إصبعه إلى تيدي الذي قبض عليها بقوة في كَفِّه الصغيرة. «أعتقد أننا سنتفق كثيرًا أنت وأنا». مكتبة سُر من قرأ

نهضت فلورا من مكانها، وهي تشعر بالضغط الكبير لاتخاذ قرار قبل أن تحظى بالوقت الكافي لتفكر فيه. «أنا خائفة»، قالت وهي تستعيد منه تيدي. «وأتمنى أن تغادر الآن. لن أستطيع إعطاءك إجابة فورية. مهما افترضت أنني أعيش حياة فارغة، لكنني سأضطر إلى التضحية بأمور كثيرة. فأنا اليوم أدير مزرعتي الخاصة، وهناك كثير من الحيوانات التي تعتمد عليّ. وعلى الرغم من أوقات العزلة التي أعيشها، لكنني أحب هذا المنزل وأحب جزءًا كبيرًا من حياتي، خصوصًا الآن وقد أصبح لدي رفيق رائع. وها أنت تطلب إلي أن أتخلّى عن هذا كله من دون النظر فيه مرة ثانية».

«سامحيني يا فلورا على أنايتي. أنت تعرفين أنني لا أجيد إخفاء مشاعري. صحيح أنني أجد ما أقترحه عليك حلًا مثاليًا ومناسبًا لي، إلا أنني أتعلم ألا يكون كذلك بالنسبة إليك».

«شكرًا على حضورك لرؤيتي. سأكتب لك لأعلمك بقراري».

«على الرغم من أنني سأنتظر قرارك بفارغ الصبر، فإنني أرجو أن تأخذي الوقت كله الذي تحتاجين إليه».

ومشيا إلى الباب الأمامي، ففتحته فلورا.

«وداعًا آرتشي».

«قبل أن أغادر، اسمحي لي أن أكرّر لك أنني سأرحّب بوجودك في هاي ويلد تحت أي شرط ترغيبين فيه، وأنني لن أفترض قبولك هذا العرض أنه سيكون هناك أي... علاقة بيننا. على الرغم من أنني أرغب بشدة في إخبارك بأن حبي لك ما يزال مشتعلًا. ومهما كنت أشعر بالذنب، لكنني لا أستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. فحبك أصبح ببساطة جزءًا مني. لكن الآن أكثر شخص يهمني في هذه الفوضى

المؤسفة، هو طفلي التي فقدت أمها. لذلك سأفعل ما طلبته وأتركك وشأنك. مع السلامة».

عندما خرج آرتشي، لاحظت فلورا أنه كان يعرج.



خلال اليومين التاليين، قرأت فلورا رسالة أختها مرات عدّة. وكانت تصطحب تيدي في نزهة فوق الهضاب، لتسأل العشب الذي يدغدغ أنفها في أثناء استلقائها تحت ظل شجرة، والقبرّات التي راحت تحلق فوق رأسها، والسماء نفسها النصح، وتوجيهها في اتخاذ قرارها.

لكنها ظلت صامتة تمامًا مثل روحها. في النهاية، يؤس عقلها المتعب من إيجاد حل، فربطت تيدي في حماية الأطفال وسارت على طول الممر لتزور أفضل صديقاتها، وأفضل مستشاراتها.

«حسنًا، حسنًا»، قالت بياتريكس فيما كانت المرأتان تجلسان في الحديقة وتشربان الشاي، بعد أن استمعت إليها من دون مقاطعتها، وقصّت عليها فلورا أحدث فصل في حياتها. «عليّ الاعتراف أنه يبدو لي أنك قادرة فطريًا على جذب الدراما إلى حياتك. من ناحية ثانية، إن خلفيتك غير عادية منذ البداية. أولاً، يجب أن أقدم لك تعازي الحارة في خسارة أختك الصغيرة المسكينة. وبالنظر إلى الرسالة التي قرأتها لي، بدا لي أنها هي أيضًا كريمة النفس. وذكية، إذا جازت الإضافة».

«ماذا تقصدين؟».

«لا بدّ من أنك ترين هدية الفراق التي تقدّمها إلى الزوج والأخت التي أحبّتها، بعد عثورها على طريقة للمّ شملهما؟ مما أخبرتني في الماضي، لقد كانت أختك مدركة للمشاعر المتبادلة بينكما دائمًا. وفي الوقت نفسه، فإنّ هديتها ستسمح لها بوهب ابنتها الحبيبة أمًا مناسبة، بدلًا من أن تكبر على يد مربية/ممرضة مسنة. ألا يمكنك أن تري أنها أرادت منحكم أنتم الثلاثة السعادة التي شعرت بأنكم تستحقونها؟».

«نعم، وإذا قررت الذهاب إلى هاي ويلد، ماذا سيفكر الناس فيّ؟».

«كأننا اهتممنا من قبل لما يفكر فيه الناس». ضحكت بياتريكس. «أليس من الطبيعي جدًّا انتقال الأخت العانس للأُم المتوفاة إلى منزلها لكي تعتني بابنة أختها اليتيمة؟ أضمن لك أن هذا لن يثير استهجان أحد».

«ماذا لو؟».

«استأنفت أنت وآرتشي علاقتكما؟». قاطعتها بياتريكس لتنهى ما في بالها.

«مرة أخرى، أعتقد أنه بعد مرور الوقت الكافي، سيكون الجميع سعيدًا للطفلة اليتيمة والأرمل المسكين الذي عاد حديثًا من الحرب كبطل وتحمل خسارة مأساوية أخرى».

«ماذا عن آرتشي نفسه؟ أتساءل كيف سيتمكن من النظر إليّ من دون شعوره بذنب يحجب نظره عني».

«فلورا، هناك أمر واحد تعلّمته خلال سنواتي الكثيرة على هذه الأرض، وهو أن على المرء أن يتقدّم من دون أن ينظر إلى الوراء. أضمن لك أن اللورد فوغان قد رأى ما يكفي من الموت والدمار في الحرب ليقتنع بذلك العرض. ومثلما قالت أختك في رسالتها لا نستطيع أن نختار من نحب. هذا يعني أنّه لم يحصل على مباركة زوجته فحسب، بل على تشجيعها الإيجابي أيضًا لذلك المستقبل. لم يبقَ هناك أسرار، ولا غيرها لتشعرا بالذنب. كوني المرأة العملية التي عرفتها دائمًا. من المؤسف أن ترحل أختك عنك، لكنّه حصل، لذلك سيكون من غير المجدي أن تتخذي ما يمكن اعتباره قرارًا خاطئًا لأنك تشعرين بالذنب».

«إدًا، هل تعتقدين أن عليّ الذهاب إلى هاي ويلد؟».

«فلورا عزيزتي، من الواضح تمامًا أن عليك أن تفعلي ذلك. الإنسان بلا حب مثل برعم ورد بلا ماء. قد تبقى الوردة فترة من الوقت، لكنّها لن تزهر بالكامل. ولا يمكنك إنكار أنّك تحبينه».

«كلا، لا يمكنني». عبّرت فلورا بالكلمات أول مرة عن مكنون صدرها.

«قلت لي إنّ ما يزال يحبك. أعتقد أنّنا كيفما فسرنا ما حصل، لا يمكن إلّا أن

يكون عرضيًا. فلويز تحتاج إلى أم وتيدي يحتاج إلى أب. الأمر الوحيد المحزن في هذا كله، هو أنني سأفتقدك كجارة».

«وأنا سأفتقدك بشدة يا بياتريكس. وسأفتقد حيواناتي والبحيرات الحبيبة».

«حسنًا، هناك دائمًا تضحيات لنقدّمها في مكان ما. سأكون سعيدة بشراء مزرعة وينبرغ منك إذا كنت ترغبين في بيعها. محفظتي في الأراضي تتزايد على قدم وساق. وقد كتبت وصيتي مؤخرًا، فحين رحيلي عن هذه الدنيا ستذهب الأرض إلى الصندوق الوطني، وبالتالي ستعود ملكًا لشعب البحيرات لكي يحتفظوا بها إلى الأبد. لكن بالعودة إلى مشكلتك المحيرة. ليس لديّ ما أضيفه لمساعدتك، سوى ألا تتوقفي فترة طويلة عند ذلك القرار. من السهل جدًّا أن نقدّم حجبًا مقنعة من أجل تغيير الظروف إلى الأفضل، خصوصًا عندما يكون التغيير مخيفًا. تذكري أن كل يوم يمر عليك هنا هو يوم آخر يضيع من مستقبلك. والآن، أخشى أن عليّ الانسحاب. عليّ كتابة رسائل جديدة إلى قرائي الصغار في أميركا عن موضوع عزيزي الصغير جوني تاون ماوس. فأنا أحب الردّ شخصيًا على كلّ واحد من أولئك الأطفال».

«بالطبع. نهضت فلورا وذهبت لتأخذ تيدي الذي تركته يرقد تحت شجرة ويهدل للطيور التي كانت تغرد فوقه. شكرًا لك على كل شيء يا بياتريكس. لا أعرف أين كنت سأكون من دونك». ثمّ شعرت بغصة في حلقها، وهي تفكر في حياتها من دون صديقتها المقربة.

وفي تلك اللحظة عرفت أنّها قد اتخذت قرارها.

36

كانت فلورا قد امتنعت عن زيارة جنوب إنكلترا منذ وفاة الملك، والدها البيولوجي. وعندما داست قدمها بهو الدخول في هاي ويلد، هاجمتها موجة من الذكريات، ومن الصدمة إثر تمييزها الحالة المتدهورة التي كان فيها المنزل وأرضياته بعد أن احتفظت بصورة مثالية عنه في ذاكرتها مدة طويلة. وفيما قام آرثشي بمرافقتها في جولة حول الحداثق التي كان لها ذات يوم سحر أخاذ، حرصت على الحفاظ على مسافة واضحة بينهما وهو يعرج إلى جانبها. كما لاحظت حالة الفوضى التي اجتاحت المكان منذ آخر مرة كانت فيها هنا.

«كما تعرفين، غالبًا ما واجهت عائلة قوغان ضائقات مالية»، قال آرثشي متجهماً. «لذلك كان من الصعب على أوريليا إبقاء الملكية على حالها فيما كنت غائبة، وكان الشبان في القرية يقاتلون في فرنسا. خصوصًا أن والدتي توفيت بعد أشهر قليلة من اندلاع الحرب».

في الطبقة العلوية حيث كانت الحضانة، استقبلتها سارة بفرح ودموع غزيرة. «الأمر مأساوي جدًا»، قالت وهي تنشق فيما كانت تقود فلورا إلى المهد لتقدّمها إلى ابنة أختها. «في النهاية، حصلت أوريليا على الطفل الذي تاقت إليه دائمًا، لكنّها لم تعد هنا لرؤيته. هي أيضًا جميلة، ولها طباع لطيفة مثل أمّها».

حملت فلورا لويز بين ذراعيها، وعلى الفور شعرت بموجة من الحب الوقائي تغمرها.

«مرحبًا يا صغيرة»، هدلت فلورا والطفلة مستلقية بهدوء بين ذراعيها. وربما

تيدي شعر في تلك اللحظة باهتمام فلورا يتحوّل عنه، لذلك بدأ بالصراخ من داخل سلّة السفر، فحملته سارة بين ذراعيها.

«يا له من طفل قوي. أخبرني اللورد فوغان عن عائلته المتوفية. إنه حقًا كرم منكما أن تستقبله معًا يا آنسة فلورا. كما أنني أعرف أن أختك كانت ستوافق على هذا القرار هي أيضًا».

خلال الأسبوعين الأولين، صرفت فلورا معظم وقتها برفقة الطفلين، لكنّ تيدي كان يطمع إلى حصّة الأسد من اهتمامها. وبما أن سارة كانت موجودة لتقدّم الدعم، قررت فلورا ترك تيدي ليلاً إلى جانب لويز في الحضانة، آبية اصطحابه لينام بجانبها في السرير. إلّا أنّه ظل يصرخ حتى ازرقّت بشرته من شدة استيائه. وذات ليلة قالت لها سارة إنّها ستتولى المناوبة الليلية. فذهبت فلورا إلى الفراش شاكرة لها، واستيقظت في صباح اليوم التالي بعد أن نامت طوال الليل نومًا هانئًا لم تعرفه منذ أسابيع. ركضت فلورا إلى الحضانة، مذعورة من شدة قلقها على تيدي، وهي تتساءل إذا ما كان قد مات في تلك الليلة. فوجدت سارة تجلس بهدوء على كرسي بجانب النافذة وهي تحيك.

«صباح الخير يا آنسة فلورا». قالت لها وهي تراها مسرعة إلى سرير تيدي لتجده فارغًا.

«أين هو؟».

«انظري إلى هناك». أشارت سارة إلى مهد لويز.

ورأت تيدي يسند رأسه الصغير إلى رأس لويز، وكلاهما يغطّ في نوم عميق. «كان بحاجة إلى رفقة، على ما أعتقد»، قالت سارة. «بدأ أولاً بالبكاء، لكنني وضعت في المهد مع لويز. ومذاك، لم أسمع زقزقة من أي منهما».

«سارة، أنت عجيبة». قالت فلورا وهي تنهد بارتياح.

«كل ما في الأمر أنني كنت أفعل الأمر نفسه مع أوريليا عندما كانت تشعر بالقلق ليلاً. كنت أضعها في مهدك. يبدو أن مثل توأمين، هما أيضًا، بما أنّهما من العمر نفسه».

«نعم، هما كذلك».

في ما بعد، دخل آرثشي الحضانة ليصَبِّح على ابنته، فلاحظ أن الطفلين كانا في مهد واحد.

«انظري إليهما كيف ينامان بسلام». قال آرثشي. «ربَّما كل ذلك مقدَّر».

ثم غادر الغرفة بعد أن لمس فلورا بيده الخفيفة في كتفها.



فيما بدأت سارة تتولى مزيدًا من المسؤوليات داخل الحضانة، وجدت فلورا نفسها متفرَّغة بازدياد. وبما أنها كانت معتادة في أثناء إقامتها في منطقة البحيرات على البقاء خارج المنزل من الفجر إلى الغسق، بدأت تخرج في الصباح لتمشي في الحدائق والأراضي الزراعية فتستمتع بهواء الصيف، وكم تمتَّ أن تتَّسخ يداها في أحواض الزهور التي اختنق جمالها بسبب الأعشاب الضارة.

لكنَّ الحدائق ملك لآرثشي وليس لها. وحتى الساعة، كان الاثنان متَّفقيين ضمنيًا من دون الحاجة إلى التطرق علانية إلى الموضوع، على الحفاظ على ذلك الحيِّز بينهما احترامًا لذكرى أوريليا. ولم يكن ذلك مهمة صعبة بالنظر إلى حجم المنزل. كانا يتناولان العشاء معًا في المساء، وكان طعامًا رديئًا تحضَّره لهما سيِّدة مسنَّة من المنطقة، وكانت الشخص الوحيد الذي قبل المبلغ الزهيد الذي قدَّمه إليها آرثشي.

فكانا يجلسان في غرفة الطعام، ويتناقشان بالتفصيل أمورًا تتعلق برفاه الطفلين، وهو موضوع محادثة محايد قادر على ملء الصمت بينهما، على الرغم من بقاء كثير من الموضوعات عالقة بينهما. وبعد تقديم الحلوى، كانت فلورا تنسحب إلى غرفتها على الفور.

وبالطبع، لم تكن تشعر بالتعب. حتى الثواني القليلة التي تكون فيها برفقة آرثشي كانت تَحْرِزها في أطراف نهاياتها العصبية. وفي الليالي الحارة في آب، كانت تترك نافذتها مفتوحة لتسمح لأقل نسمة تهبَّ بالدخول عبرها، حتى إنها كانت

تشاق إلى صراخ تيدي الذي كان يوقظها ليلاً؛ فعلى الأقل، كان سيكسر رتابة الأفكار الملوثة التي كانت تصاحبها حتى طلوع الفجر.

مع اقتراب أيلول، وهو الشهر الذي تحتاج فيه الطبيعة، خصوصاً النوع الذي يتطلب بعض الرعاية، إلى الاهتمام لتتمكن من الصمود في الشتاء، قررت فلورا مواجهة آرثشي. فذات مرة، وجدته في البستان، يملأ عربة اليد بثمار البرقوق التي أسقطتها الريح.

«مرحباً»، قال لها وهو شبه خجل.

«مرحباً».

«هل الأمور على ما يرام مع الطفلين؟».

«لا بل هي ممتازة. إنهما يأخذان الآن قيلولة بعد الظهيرة».

«جيد. من الرائع أنهما ينعمان برفقة بعضهما».

«أجل، صحيح. آرثشي، هل يمكننا التحدّث؟».

«بالطبع. هل هناك من خطب؟».

«كلا، على الإطلاق. أنا فقط... حسناً، إذا كنت سأبقى في هاي ويلد، وسيصبح منزلي أنا أيضاً... أريد أن أساهم فيه».

«لكنك يا فلورا، تفعلين ذلك».

«أقصد المساهمة المالية. فالمليكة بحاجة إلى استثمار مالي، وبالنظر إلى... ما تركه لي والدي بعد وفاته، وبعدها باعت مزرعة وينبرغ، فإنّ المال متوفّر لدي».

«أقدّر عرضك هذا، لكن تذكّري أنّه سبق لعائلتك أن ساهمت في إنقاذ هاي ويلد بأموال طائلة إثر بيع إستويت هول. ربّما لست على دراية بالمبلغ الذي تحتاج إليه إدارة مثل هذا العقار، ناهيك بتطويره».

«حسناً على الأقل، أرغب في تقديم خدماتي الشخصية في تطوير الحدائق بالمجان؟ وربّما في توظيف شابين اثنين لمساعدتنا في ذلك؟».

«هذا إذا تمكّنا من العثور على أحد ما يزال حيّاً»، تمتم آرثشي بحزن. «أدرك تماماً أنني... لم أعد ما كنت عليه في السابق». قال لها وهو يشير إلى ساقه.

«أودّ المحاولة فحسب، لأننا إذا لم نتحرّك سريعًا قبل حلول الشتاء، فعملك هذا سيذهب سدى. كما أن ذلك سيبقيني منشغلة. فسارة تنزعج من زياراتي المتكرّرة إلى الحضانة».

«إذن سأكون ممتنًا لأيّ مساعدة ستقدّمينها». وابتسم لها ثمّ قال: «شكرًا لك».

وعمل الاثنان بقية أيلول، طوال ساعات النهار في الحديقة المسوّرة. كما نجحت فلورا في العثور على جنديين سابقين في القرية، سرًا بمدّ يد العون لهما في تقليم الأشجار.

بعد عودتها إلى ما كانت تألفه، وارتدائها ملابس أنثوية ملائمة لمهامها الجديدة في الحداثق، خاطتها لها سارة، شعرت فلورا بأنّها أصبحت أكثر هدوءًا. وبدلًا من الأحاديث القصيرة التي كان الاثنان يُجهدان نفسيهما في تناولها على العشاء، أصبحا يتناقشان مسائل التقليم، وإزالة الأعشاب الضارة، ويُمعنان النظر في كاتالوجات البذور. وبدأ صدى ضحكاتهما يتردد داخل جدران هاي ويلد.

في بعض الأحيان، خلال فترات بعد الظهر، كانت فلورا تضع عربة الأطفال تحت شجرة الطقسوس الضخمة في أثناء عملهما هناك، فينام تيدي ولويز جنبًا إلى جنب فيها نومًا عميقًا.

«هما حقًا مثل توأمين». قال آرثشي وهو ينظر إلى الطفلين بعد ظهر أحد أيّام أيلول المعتدلة. «من كان ليصدّق؟».

أجل، من كان ليصدّق؟. فكّرت فلورا عندما دخلت غرفتها منهكة لتنام تلك الليلة، بعد يوم عمل شاق في الحديقة. لكن ذلك على الأقل كان يساعدها على النوم، على الرغم من تساؤلاتها المتكررة حول مدى قدرتها على الاستمرار في كبت مشاعرها. وجعلها الوقت الزائد الذي باتت تصرفه برفقة آرثشي، تدرك بشكل مؤلم، كيف أن الحرب غيّرتة. فالشاب المفعم بالحيوية الذي أحبّته ذات يوم، نضج ليصبح شخصًا متأملًا غارقًا في تفكيره. وفي كثير من الأحيان، كانت تلاحظه وهو ينحرف بعيدًا، عيناه ممتلئتان بالحزن لرّبما من ذكرى معاناة عاشها هو، أو آخرون أمام عينيه.

كما ظهر لدى آرتشي وهن جديد قضى تمامًا على غروره القديم، وهذا ما جعله مجببًا إليها أكثر. فخلال الأسابيع القليلة الماضية، تصرّف تجاهها بطريقة لا تشوبها شائبة، وهذا ما دفع فلورا في النهاية إلى الشك في أنها كانت تحلم عندما قال لها إنه ما يزال يحبها.

علاوة على ذلك، كانا ما يزالان يسيران تحت الظلال الملقاة على هاي ويلد جرّاء وفاة أوريليا. فمهما جاء في رسالتها، إلّا أن فلورا فكّرت مرارًا إذا ما كنت تلك الظلال ستتلاشى يومًا أم لا.



عندما بدأ النهار يقصر، ووجد آرتشي وفلورا نفسيهما مضطربان إلى إنهاء العمل قبل وصول صقيع الشتاء، بدأ الاثنان يكدحان في الحقائق في ضوء الفوانيس.

«سوف أنهيها كلّها هذه الليلة». قال آرتشي في إحدى أمسيات تشرين الأول الباردة، وعندما دفع نفسه للنهوض، استطاعت فلورا رؤية المجهود الذي تطلّبه منه ذلك. فشاهدته وهو يشعل سيجارة، وهي عادة خرج بها من الحرب، وراح يتجول تحت شجرة الطقسوس.

«ادخل أنت. سأنتهي كل ما تبقى هنا». اقترحت عليه فلورا.

«هل تعرفين أن ضوء الفوانيس ولفحة الهواء تذكّرني بتلك الليلة التي قبّلتك فيها هنا». علّق آرتشي.

«لا تذكّرني بذلك». تمتعت فلورا.

«بالقبلة أم بالوضع؟».

«تعرف تمامًا ما الذي أقصده يا آرتشي». قالت له فلورا، وهي تلتفت إلى حوض الأزهار.

«أجل».

وكانت هناك وقفة.

«أتمنى أن أقبلك مرة أخرى يا فلورا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

فجأة، شعرت بلمسة يده على كتفها، فأدركت أنه بات ملتصقاً بها خلف ظهرها. ثم أمسك يدها وسحبها للنهوض وأدارها نحوه وأصبحا وجهًا لوجه. وتمتم قائلاً: «هل تسمحين؟ الحب ليس عيباً يا عزيزتي فلورا، لكن التوقيت الخطأ هو العيب. وهذه المرة، أجد أن التوقيت مثالي».

نظرت إليه وهي تحاول العثور على إجابة، وقبل أن تتمكن من إيجادها، كانت شفتاه قد لامست شفتيها، وذراعه قد التفتا حولها وسحبها إليه، وفجأة اختفت كل الأسباب التي قد تمنعها من مبادلته تلك القبلة.



بعد ذلك، عاش الاثنان في ألفة، وأبقيا علاقتهما سرّاً عن باقي المنزل، على الرغم من أن آرتشي حرص على الزواج منها في أسرع وقت ممكن.

«لقد أهدرنا كثيراً من الوقت، قال متوسلاً إليها». لكن موقف فلورا كان ثابتاً. «علينا أن ننتظر سنة على الأقل، قبل أن نعلن عن أي خطوبة». قالت له: «لا أريد معارضين، ولا ثرثرة عندما يحصل ذلك».

«يا إلهي، فلورا». أخذها آرتشي بين ذراعيه، بعد أن أصبحا يرتبان للقاءاتهم في البيت الزراعي، وهذا ما اعتبرته فلورا مزيداً من الإثارة. «لِمَ تهتمين كثيراً؟ أنا سيد هذا القصر ولديّ طريقتي، ستصبحين زوجتي بعد سنة. أحذرك أن ستتناولها الألسن مهما فعلنا».

«إذن علينا الانتظار بعد من أجل ذكرى أوريлия». تصدّت له.

في النهاية، نجحت فلورا في إقناع آرتشي بالسماح لها باستثمار جزء من إرثها لملء المنزل والأرضيات بما كانا بحاجة إليه.

وفيما جرى توظيف طاقم من العاملين وراح البناءون يحومون داخل المنزل لإصلاح السقف، ومعالجة الرطوبة، وورق الجدران، والديكورات الداخلية، لإضفاء مزيد من النور على الغرف، فهمت فلورا أخيراً ما كانت تفقده في حياتها وفق رأي

بياتريكس. فعلى الرغم من الفوضى التي مرّ بها في أثناء إنجازهما الأعمال، فإنّها شعرت بسعادة أكبر من أي وقت، علمًا أن طبيعة علاقتهما الحقيقية بقيت مستورة عن أنظار الآخرين.



«عزيزتي، لدي ما أعترف به. ويمكنك اعتبار ذلك مفاجأة»، قال آرتشي على العشاء ذات مساء. «تذكرت مؤخرًا أنني لم أسجل ولادة لويز. لكنّ دائرة الأحوال الشخصية ساعدتني كثيرًا، بالنظر إلى ظروف وفاة أوريليا المؤلمة، فقد أعفّنتني من الغرامات المالية التي تفرض على تأخير فاق اثنين وأربعين يومًا. و...»، تابع آرتشي وهو يأخذ نفسًا عميقًا، «وفي أثناء وجودي هناك، لإبقاء الأمور واضحة، قررت أن أسجّل ولادة تيدي بتاريخ ميلاد لويز. هذا يعني أن تيدي أصبح آمنًا الآن يا عزيزتي ولا يمكن لأحد أن يأخذه منّا. هذا يعني أنّه عمليًا أصبح ابني، وتوأم لويز».

«لكن...». نظرت فلورا المذهولة في عيني آرتشي الداكنتين، «الآن لم يعد باستطاعتي أن أكون والدته القانونية! عدا عن أنّك كذبت في وثيقة رسمية!».

«يا إلهي، يا عزيزتي، ليس هناك من خداع في الحب. اعتقدت أنني سأجعلك بذلك سعيدة! فهذا سيجنّبنا كلّ المعاملات الرسمية المروّعة التي علينا ملؤها، بالنظر إلى المصدر الذي يأتي منه تيدي، ناهيك بمثول المرء أمام المحكمة في أثناء عملية التبني. في حين أنّه الآن، بإمكان طفلينا أن يكبرا معًا، وهما يعتقدان أنّهما توأمان بالفعل».

«ماذا عن سارة؟ والطبيب؟»، سألته فلورا وقد بدأت تشكّ في أن آرتشي فقد عقله. «كلاهما يعرف الحقيقة».

«بالنسبة إلى سارة فقد أخبرتها بالأمر، كما أنني سألتها عن رأيها فيما قرّرتّه». وقد وافقتني الرأي في أنّها أسهل طريقة لضماننا تيدي. أمّا الطبيب الذي حضر الولادة، فقد انتقل منذ زمن لممارسة أخرى... في ويلز».

«يا إلهي، آرتشي، كنت أتمنى لو سألتني رأيي في مثل ذلك القرار الكبير».

«فكرت في أن من الأفضل أن أضعك أمام الأمر الواقع، ببساطة لأنني أعرف قلبك الصادق وطريقة تفكيرك. كما أنني واثق من أنك كنت ستمنعيني. من فضلك، تذكرني أنني أنا من يقدم ليدي على طبق من فضاء القلب والملكية. وذات يوم، سيصبح ابن أحد رعاة ليكلاند اللورد فوغان التالي». ابتسم آرتشي بتجهم. «لا أستطيع التفكير في أي طريقة تكرم رجلاً سقط في الخنادق، أفضل من جعل ابنه سيداً».

بقيت فلورا صامتة، وقد فهمت في النهاية المنطق الذي اختبأ وراء قرار آرتشي. وباتت واعية بازدياد شعوره بالذنب لبقائه حياً فيما سقط كثر غيره في أرض المعارك. وكانت تلك بمثابة هدية لتعويض كل الأرواح التي فقدت. وقد جعلها القدر من نصيب تيدي.

وعرفت أن ليس هناك ما تقوله. ففعل الخير قد أنجز، وعليها قبوله مهما كانت النتيجة. ثم أدركت أنها باتت بعد الآن هي أيضاً مذنبه في ذلك الخداع.



أخيراً، أعلن آرتشي وفلورا خطوبتهما في الخريف التالي، في عام 1920، وخططا للزواج بعد ثلاثة أشهر، أي في عيد الميلاد.

بعد كثير من محاولات الإقناع المؤلمة واللطيفة لآرتشي، قررت فلورا أخيراً دعوة روز إلى حفل زفافها. كانت روز قد عادت مؤخراً من الهند، بعد أن غادرت المرتفعات في إثر وفاة زوجها، للبقاء هناك عند ابنة عمها. وفور عودتها إلى الوطن، باعت المنزل في المرتفعات، واستأجرت شقة أنيقة في شارع ألبيمارل في لندن. وعند استلامها دعوة الزفاف، كتبت لابنتها تناسدها زيارتها. وعندما حصل اللقاء بينهما، بكّت روز، واعتذرت إلى ابنتها على خداعها، وعلى الطفولة الصعبة التي عاشتها، وعلى عدم دعمها بعد وفاة الملك.

«لا بدّ من أنك تفهمين أنه كان عليّ الابتعاد، تماماً مثل السيدة كييل، وقطع أيّ اتصال بك بالنظر إلى الشبهة التي لحقت بك، ناهيك بمرارة أليستير المتواصلة تجاه ذلك الوضع... لقد شعرت أن من الأفضل لي فعل ذلك. كما أنني كنت

خائفة من مواجهتك، ومن الأمور الرهيبة التي كنت ستقولينها لي. هل تستطيعين مسامحتي؟».

في النهاية، غفرت فلورا لأمها بفضل حالة السعادة التي كانت تمرّ بها، وكانت قادرة على مسامحة أي شخص أخطأ. فسمح ذلك لهما على الأقل، مشاركة حزنهما على خسارة أوريليا.

«لم أعرف أنها توفيت إلا بعد شهرين. إن خدمة البريد في پونا ليست جيدة. لذلك لم أستطع حتى حضور جنازة ابنتي».

وعلى الرغم من أن روز شككت أولاً في حقيقة ذكر آرتشي لويز فحسب في الرسالة التي بلغها فيها وفاة أوريليا، أعادت روز الأمر في النهاية إلى السهو بسبب حزنه الشديد وقت كتابته الرسالة. وحين وصول روز إلى هاي ويلد للمشاركة في احتفالات الزفاف، ورؤيتها «التوأمان» وهما يزحفان ويلعبان معاً، زال أيّ شك كان قد ساورها.

«عزيزي تيدي يشبه أمّه كثيراً». علّقت روز وهي تمسح دموعها فيما كان تيدي يجلس على ركبتها. كما أن عينيه الزرقاوين البريئتين ذكّرتا فلورا أيضاً بعيني أختها. «من كان ليظن ذلك؟». تمتمت روز وهي تساعد فلورا على ارتداء فستان الزفاف الكريمي يوم عقد قرانها. «كلّنا اعتقدنا في البدء أنك تحترقين آرتشي فوغان».

«أنا واثقة من أن أوريليا ستكون سعيدة لو استطاعت رؤية ما يحدث منذ رحيلها. فطفلاها سيكبران في رعايتك».

أقيم حفل الزفاف في الكنيسة القديمة، حيث رأت فلورا زوجها الجديد آخر مرة فيها، يتزوّج بأختها. حصل الزفاف على نطاق ضيق وحميم، احتراماً لذكرى أوريليا. أما مظهر آرتشي وهو يضع أخيراً الخاتم في إصبعها فكان صورة ستحفظها في ذهنها إلى الأبد.

«سأحبك إلى الأبد»، تنفس وهو يقبلها.

«وأنا أيضاً أحبك».

لم ترَ فلورا الضرر الذي ألحقته الحرب العظمى بجسم آرتشي إلا في ليلة زفافهما. فبدت كل من ساقيه كتلة ندوب بسبب الحروق التي تسببت فيها اشتعال طائرة بريستول 22 اصطدمت بالأرض في أثناء وجوده فيها. وقد كافح من أجل تحرير نفسه من الحطام المحترق، في حين لقي مساعده الطيار حتفه بعد دقائق قليلة من اشتعال النيران في الطائرة.

لم يكن بوسع فلورا إلا أن تحبّه أكثر لشجاعته وبسالته، وهو يمارس الحب معها بكل لطف في الليلة الأولى.



في السنة الأولى التي تلت زواجهما، كانت فلورا تتساءل مرارًا كيف أمكن جسدها أن يحتوي كل الفرحة التي كانت تشعر بها، وهي إلى جانب آرتشي، فيما كان تيدي ولويز يكبران تحت نظرها في هاي ويلد التي امتلأت بالإيجابية والحب.

كانت لويز ناعمة ولطيفة مثل والدتها، كما أنّها ورثت ذكاء والدها الحاد، إضافة إلى أهوائه المتسلطة الطبيعية. وعلى الرغم من طباع تيدي المتقلّبة، لم تكن لويز متسامحة فحسب مع الصبي، بل كانت تعشقه وتدافع عنه لاعتقادها، هي والآخرين، أنّهما توأمان.

في إحدى الأمسيات، في أثناء تناولهم العشاء، أخبر آرتشي فلورا بفخر كيف أنّه اصطحب تيدي البالغ من العمر فقط عامين إلى الإسطنبول، وأقعده على حصانه. «هل تعلمين؟ لم يبكِ ولو مرة، حتى عندما بدأنا بالهرولة. ظلّ يصرخ: مزيدًا يا أبي! مزيدًا!».

كانت فلورا سعيدة برؤية علاقة الأب والابن تنمو وتتعمق. ثمّ عادت وفكرت في قرار آرتشي بشأن حقيقة ولادة تيدي، لرُبّما كانت القصة التي نسجها أمرًا صائبًا.



استقرّت أحوال عائلة فوغان لتستمتع بالسنوات الذهبية التي مرّت بين الحربين،

داخل جنة منزلهم الجميل. وكبر التوأمان قرييين من بعضهما، ولاحظ ذلك كل أفراد المنزل وكل من كان يأتي لزيارتهم في هاي ويلد.

مع ذلك، عندما بلغا العاشرة، شعرت فلورا بالانزعاج بسبب الكذبة التي طالوت هوية أمهما الحقيقية، وأصبحت تشعر بثقلها بازدياد.

«أشعر أنني محتالة». قالت لآرتشي بنبرة حزينة. «يجب على الأقل أن نخبر لويز أن والدتها الحقيقية هي أوريليا. فضلاً عن ذلك، لا بدّ من أن تعرف الحقيقة من أحد القرويين عندما تكبر. ولكن هذا يعني أن علينا الكذب على تيدي بشأن والدته «الحقيقية».

«سبق أن ناقشنا الأمر، من المؤكد أن هذا ثمن بخس مقابل سلامته وراحته في أثناء بقاءه هنا معنا؟». تصدّى لها آرتشي. «على الرغم من أنني أوافقك الرأي فيما يخصّ أوريليا».

بعد أيام قليلة، جلس تيدي ولويز جنباً إلى جنب في غرفة الرسم، وبدوا في نظر الجميع مثل ملاكين صغيرين، بعد حمام جيّد. وجلست فلورا وآرتشي قبالتهما ليخبراهما عن والدتهما الحقيقية، فشعرت فلورا بألم في قلبها عندما نظرت إلى تعابير تيدي الواثقة. وقد بدا كلا الطفلين في حالة صدمة، وشكّ فيما اكتشفاه.

«هل يمكننا أن نناديك أمي؟». سألتها لويز بخجل وكانت عيناها البنيتان الداكنتان تحدّقان في فلورا.

«بالطبع يمكنكما ذلك يا عزيزتي».

«لقد كنت دائماً أمانة». أضاف تيدي وعيناه ممتلئتان بالدموع.

«نعم، كنت كذلك دائماً». وضمتّهما إلى صدرها. أعدكما أن أحبكما دائماً وأهتم بكما.



عندما صار تيدي في سنّ البلوغ، علّمه آرتشي كل ما يعرفه عن الحرف الرفيعة. ولأن جذوره كانت تعود إلى منطقة البحيرات، تبين لآرتشي أنّه يتمتّع بقدرة طبيعية

على إتمامها. وعندما بلغ الثالثة عشرة، أصرَّ آرتشي على أن يسير تيدي على خطاه فأرسله، خلافاً لرغبة فلورا ولويز الشديدة، إلى تشارترهاوس، وهي مدرسة داخلية قريبة من هاي ويلد. هناك بدأ تيدي يتمرّد ضد الأوساط الأكاديمية وضد الروتين الذي تفرضه مثل تلك المؤسسات. فحاولت فلورا أن تخبر آرتشي أن تيدي سيشعر بسعادة أكبر لو تُرك في الهواء الطلق، وأنَّ حبَّ التجوّل حول الأراضي يجري في عروقه، لكنّه رفض تقبّل الأمر رفضاً قاطعاً.

«عليه أن يتصرّف كما يفعل أي شاب من طبقته، ويتعلّم كيف يكون رجلاً نبيلًا؟».

ولقد أغضب بوّس تيدي وتمرّده المستمرّ فلورا دائماً. لكنها كانت تعرف مثل أي شخص آخر في هاي ويلد، أن آرتشي نسي من يكون تيدي في الحقيقة.

37

كانون الأول 1943

لقد توفيت بياتريكس!

بعد أن عجزت السيدة فلورا فوغان عن رؤية الصفحة في يومياتها، وضعت قلمها الحبر جانباً، وأجهشت بالبكاء. كانت البرقية قد وصلت قبل ساعات قليلة فقط، وبالكاد استطاعت تصديق الخبر، فوسط كل الموت والدمار الذي تجدد مع الحرب، وكل البرقيات التي وصلت بانتظام إلى القرويين في هاي ويلد، حان الوقت لتتلقي بدورها واحدة مماثلة.

«يا أعزّ، أعزّ صديقة لي...».

كاد الواقع أن يكون غير قابل للتصور، فمثل تلك القوة الطبيعية، المرأة، والكاتبة، والطف شخص عرفته في حياتها، وأذكاهم على الإطلاق، لن تمشي بعد اليوم عبر المرتفعات الحبيبة.

«عزيزتي، ما الأمر؟».

انحنى آرتشي فوقها ليقراً البرقية. «أنا حقاً آسف. أعرف ما كانت تعنيه لك».

«ما كانت تعنيه لنا؟ فبياتريكس هي من شجعني على المجيء إلى هنا من أجلك ومن أجل لويز. ناهيك بأنّها هي من جلبت تبدي إلى باب بيتي».

«أجل، وموتها خسارة فادحة. هل تريدني أن أبقى إلى جانبك اليوم؟ عليّ أن أحضر اجتماعًا في وزارة الطيران، لكنني قادر على إلغائه».

قَبِلَتْ فلورا اليد التي أمسكتها من كتفها. «كلا، كانت بياتريكس دائمًا تقول يموت الناس والحياة تستمر. لكنني أقدر وقوفك إلى جانبي. هل ستعود لتناول العشاء معنا الليلة؟».

«أتمنى ذلك. لكن مواعيد القطارات باتت فظيعة في هذا الوقت». ثمَّ قَبِلَ آرثشي زوجته قبله رقيقة على خدّها. «إن احتجت إلى أي شيء، فأنت تعرفين أين سأكون».

«هل سيرافقك تيدي إلى المحطة؟».

«سأقود السيارة بنفسي». قال آرثشي بغتة. «أراك في ما بعد يا حبيبتي».

وغادر آرثشي المكتب فيما كانت فلورا تحدّق في الحديقة المسوّرة التي أعاد الاثنان بناءها. وفي ذلك الوقت من السنة، كانت طبقة سميكة من الصقيع تحمي أمجادها، فتذكّرت ذلك اليوم من كانون الأول، قبل أربع وثلاثين سنة، عندما قبلها آرثشي أول مرّة تحت شجرة الطقسوس. واليوم، فإنّ لويز وتيدي تخطّيا السنّ الذي كانا يبلغانه آرثشي وفلورا في ذلك الوقت. وهذا عيد ميلاد آخر قد أصبح على الأبواب.

نهضت فلورا، التي كانت تعرف أنّه لن يكون لديها اليوم الوقت لتحزن، بتلاوة صلاة قصيرة على روح صديقتها العزيزة، وبعد ذلك ألقت نظرة إلى قائمة المهام التي كانت في انتظارها؛ إذ كانت الاحتفالات السابقة لعيد الميلاد ستنتطلق عند الخامسة، بحفلة مخصّصة لبنات الأرض. وكان على فلورا أن تساعد السيدة تانيت في إعداد عصير التفّاح المحليّ يُقدّم مع فطائر اللحم المفروم الطازجة. وقد أرادت فلورا أن تعمّ الأمسية بالمرح لتستمع فيها الفتيات اللواتي وصلن إلى هاي ويلد قبل عام ليمارسن أعمال الرجال الذين ذهبوا إلى القتال، واللواتي عملن بجِدّ في المِلْكِيّة. وكانت أولئك الفتيات سيغادرن في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي في حافلة استُنجرت خصيصًا لإعادتهنّ إلى عوائلهنّ من أجل العيد.

كما أن والدتها كانت ستصل إلى هاي ويلد عشية العيد لتكون معهم في العيد. وكانت فلورا قد تعجبت من مدى تبدل علاقتها بوالدتها روز التي أصبحت ضيفاً مرحباً به في هاي ويلد. وأصبحت تزورها بانتظام، الآن وقد أصاب التقنين لندن بقوة. شكرت فلورا الله على الدجاج الذي كان يضع لها البيض، مع أن أسمن دجاجة بينها كانت ستودع الحظيرة بحلول المساء. كانت بمرور الوقت، قد شعرت بأن عليها أن تستسلم لرغبة عائلتها في تناول اللحوم، و«دوتي» كانت أضحية ذلك العام.

لترفع معنوياتها، راحت تحصي النعم التي تحظى بها، فعائلتها لم تعانِ الحرب مثلما عانت عائلات أخرى؛ كما أن أيّاً من رجليها الحبيبين لم يشارك في أي معركة؛ آرتشي كونه أقصي في الحرب العظمى، كما أنه قد تقدّم في السن ليشارك في التجنيد، وتيدي بسبب معجزة سخيّة تمثّلت في قدميه المسطحتين. ما زالت فلورا لا تفهم كيف يمكن لمثل تلك السمة أن تؤثر على مهمّته كجندي، خصوصاً أنه كان نشيطاً جداً، لكنّها لم تأبه كثيراً للموضوع. فتلك الحالة ربّما أنقذته من موت محتمل.

في حين أن مثل تلك الأخبار تسببت لآرتشي ببعض القلق، ففي النهاية هو ملاك شاب ويفترض أن يكون قدوة لأهل القرية، لكنّ الخطأ لا يقع على عاتقه، كما أنه كان قد أقسم على أن يمارس دوراً نشطاً داخل الملكية قدر استطاعته.

المؤسف أن محاولاته تحقيق ذلك كانت باستمرار تبوء بالفشل؛ ما فسّره زوجها بعدم الانضباط. لكنّ فلورا ردّت الأمر إلى طيش شاب بلغ سن الرشد في زمن الحرب. ففور مغادرة رفاقه في أكسفورد للانضمام إلى معسكر المحاربين، تضاءلت حماسة ابنها للدراسة. وبعد فترة من الوقت، وصف رئيس كليته سلوكه «بغير المناسب» لطالب منتسب إلى جامعة أكسفورد، لذلك أرسلوه إلى المنزل.

ومنذ ذلك الحين، حاول الالتحاق أولاً بالحرس الداخلي لكنه وجد صعوبة في تلقي الأوامر، ووصف الحرس الداخلي بـ «العجوز القاسي». ثمّ أذعنت فلورا لطلب تيدي بإدارة المزرعة حين انضمّ ألبرت، مدير المزرعة إليها. لكن عجز تيدي عن

الاستيقاظ فجراً، أثار غضب حفنة من موظفي المزرعة كانوا تحت أمرته، بعد أن عملوا فيها فترة طويلة.

بعد ذلك، أمّن آرثشي وظيفة إدارية له في وزارة الطيران في كينغزواي، حيث كان يعمل هو، لكنّ عمل تيدي هناك لم يدم طويلاً. ولم تتيقن فلورا من تفاصيل فصله، بعد أن قال لها آرثشي بوجه متجهّم إنّه اتخذ القرار وانتهى، وعليه أن يغادر الوزارة ويعثر على عمل آخر. ورَجّحت فلورا التي حاولت القراءة بين السطور، أن يكون للأمر علاقة بفتاة.

لم يكن غريباً أن تغمى النساء أمامه، إذ كان طويل القامة قويّ البنية ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين، ناهيك بسحره، لذلك لم يكن ليفشل في جذب انتباه الجنس الآخر. وكان تيدي سيبلغ قريباً الخامسة والعشرين من عمره، لكنه لم يستقرّ. لكن فلورا كانت على يقين أن ابنها الحبيب عندما سيستقرّ، سيعوّض عن كل الأخطاء التي ارتكبها ليستحق في النهاية اللقب والتركة التي سيرثها ذات يوم.

سارت فلورا عبر الممر المتجمّد إلى المطبخ الدافئ الغارق في البخار، حيث كانت السيدة تانيت تحضّر وصفة شهية ذكّرتها رائحتها بفطائر اللحم المفروم، لكنّها هذه المرّة استخدمت لباقتها لتحضّرها بمكونات مختلفة بديلة.

«كيف حالك؟». سألتها فلورا.

«بحالة ممتازة، شكراً لك يا سيدتي. ماذا ترغبين في أن تتناولتي على العشاء هذا المساء؟ كنت أفكر في استخدام ما تبقى من العجينة لتحضير فطيرة لذيدة للآخرين. لديّ بعض السبانخ، والهريس، والبيض الذي يمكنني قليه لك». قالت لها بلهجة ناعمة.

«يا إلهي، فطيرة! ستكون بمثابة وجبة دلال لي. إذا عثرنا على ما نضعه فيها». «عثر السيد تانيت في القرية على لحم البقر. فكّرت في استخدامها فيها».

كانت فلورا مدركة تماماً مجرى الأمور، لذلك لم تكن مضطرة إلى الاستفسار عن مصدرها. فالسوق السوداء للحوم كانت رائجة محلياً. وهذه المرة فقط، لم تشأ المقاومة. «لا بأس بالنسبة إليّ». قالت موافقة، وممتنة مرّة أخرى لوجود آل تانيت

إلى جانبها. فهذان الزوجان الشابان لم يكونا ممن يخافان الأعمال الشاقة. فالسيد تانيت لم يكن يكتفي بقيادة السيارة، بل كان يساعد فلورا في أعمال الحديقة التي لا تنتهي، مثل لملمة التفاح المتساقط، ورعاية الحيوانات التي تضعف عددها على مر السنين تحت إشراف فلورا.

«هل يمكنك أيضًا أن تجهزي غرفة أُمِّي المعتادة؟». سألت فلورا السيدة تانيت. «وبالطبع، سنحتاج إلى النبيذ الساخن لنقدّمه للقرويين غدًا على الغداء. لذلك أحضري من فضلك بعض النبيذ الأحمر من القبو، علينا أن نتدبّر أمرنا بالكمية المتوافرة حاليًا في غياب العصائر». وبمجرد التفكير في البرتقال، ارتعشت حواس فلورا من الشوق.

«نعم، سيدتي».

«وهذه الليلة، ستُحضر لويز فتيات الأرض في تمام الساعة الخامسة». وأضافت بعد أن فكرت قليلًا. ثم غادرت المطبخ إلى مكتبها لتكتب رسالة تعزية إلى ويليام، زوج بياتريكس. وعندما وضعت فلورا قلمها جانبًا، سمعت طرقًا على الباب.

«تفضّل».

«مرحبًا أُمِّي، هل أزعجك؟». أطلّت لويز برأسها من خلف الباب. كانت قد ثبّتت شعرها البني المنسدل على طوله فوق كتفها بمشطين على نحو مرتب، وبدت عيناها الداكنتان أكثر شبهًا بعيني آرتشي.

«لا، بالطبع لا. على الرغم من أنني تلقّيت خبرًا حزينًا. لقد توفيت أُمس صديقتي بياتريكس».

«آه أُمِّي، آسفة على موتها. أعرف مدى إعجابك بها. لقد كانت موهبة حقيقية وقد فقدناها جميعًا. أذكر أنك كنت تقرأين لنا أنا وتيدي قصصها عن الحيوانات».

«لا أشكّ في أن العالم سيكون أكثر انحطاطًا من دونها».

«من المحزن ألا تعيش طويلًا لكي ترى السلام يحلّ في العالم من جديد. أنا واثقة من أننا سنشهده قريبًا. أو على الأقل، هذا ما أمله». صَحّحت لويز نفسها.

«لِمَ جئت يا عزيزتي؟».

«آه... لا شيء. يمكن أن ينتظر يومًا آخر». ثم تابعت بنبرة مرحة، «الفتيات متحمّسات جدًّا بشأن حفلة الليلة. سنبدّل قصارى جهدنا لنمرح خلالها».

«لقد خُطِّتَ لهنَّ أكياسًا من الخزامى، وسأقدّمها هدية قبل أن يغادرن إلى منازلهنَّ. كما أننا ارتدينا ملابسنا!».

«ممتاز. أرجوك ألا تعتقدي أنني سأظهر حزني هذا المساء. لم تكن بياتريكس لترضى أن نحدّ عليها».

«ومع ذلك، إن أي خسارة هي خسارة صعبة. لكنني ببساطة أعرف أنك شجاعة». ثم مشّت لويز إلى فلورا وقبّلتها على خدّها. «أراك عند الخامسة».

«هل تعرفين إذا كان تيدي سينضمّ إلينا في المساء؟ لقد طلبت إليه الحضور».

«قال إنّه سيحاول، لكنّه مشغول جدًّا اليوم».

بماذا؟ سألت فلورا نفسها عندما غادرت لويز الغرفة. ثمّ طرحّت الفكرة جانبًا.

فهو ابنها كما أن ثقتها به عمياء.

في ذلك المساء، اجتمعت فتيات الأرض في غرفة الرسم لشرب عصير التفاح وتناول الفطائر الممتازة التي أعدّتها السيدة تانيت باللحم المفروم والبرقوق المجفف والتفاح المقطوف من البستان في وقت سابق من فصل الخريف. وشجّع الجميع لويز على العزف على البيانو، لتراققهن في تأدية ترانيم الميلاد المبهجة، قبل أن ينتهين بأغنية فيرا لين «سوف نلتقي مجددًا».

وفيما أرشدت لويز الفتيات إلى الردهة ليحملن أمتعتهن والمعاطف قبل العودة إلى الكوخين اللذين شغلنهما بالقرب من الاسطبلات، رأت فلورا نظرة القلق على وجه ابنتها.

«هل كل شيء على ما يرام يا لويز؟».

«إحدى فتياتي، تيسي، مفقودة. لكن لا تقلقي، أنا واثقة من أنها ستظهر عاجلاً أم آجلاً». قالت لويز وهي تنقر فلورا على خدّها. «إن كنت لا تمانعين، لن أنضم إليك أنت وأبي على العشاء. أودّ أن أصرف بقية الأمسية مع الفتيات».

«بالطبع. ألا يوجد خبر عن تيدي؟».

«كلا. تصبحين على خير يا أمي». واصطحبت لويز الفتيات إلى الخارج تحت ناظري فلورا التي بقيت تراقبها من النافذة وهي تصحبهنّ إلى أسفل الممر في ضوء الفانوس. وفكرت فلورا باعتزاز بما كانت ابنتها تقدّمه من مساعدة منفردة في إدارة فتيات الأرض على نحو هادئ وودود، من دون أن تظهر أي تصرّف متكبّر. كما أن فلورا كانت تعرف أنّهنّ يعشقنها.

ثمّ توجهت إلى المطبخ، وتفحصت الموقد، ووجدت فطيرة لحم كانت ما تزال دافئة مع البطاطس المهروسة والملفوف التي تركتها السيدة تانيت هناك قبل أن تعود إلى كوخها.

مرّة أخرى، راحت فلورا تفكّر بالعزلة التي عاشتها في منطقة البحيرات من دون خدم، والتي أعدّتها بامتياز لسنوات الحرب التي تعيشها هنا، ثمّ رفعت صينية لتلمّ أكواباً فرغت من عصير التفاح، في غرفة الرسم وحملتها لتغسلها بنفسها ريثما يعود آرثشي، وتيدي، إلى المنزل. ففي تلك الأيام، كانوا يتناولون الطعام على الطاولة في المطبخ، إذ كانت الغرفة الأكثر دفئاً في المنزل. وعلى الرغم من وجود أشجار مناسبة قابلة للتقطيع من أجل المدفأة، إلّا أن فلورا وآرثشي كانا قد اتّفقا على ألا يعيشوا فوق قدرة كل من كان يعاني الحرمان حول العالم.

وبعد عشرين دقيقة، وصل آرثشي من الباب الخلفي وقد بدا الإرهاق على وجهه، لكنّ عينيه بدتا مشتعلتين. «كيف حالك يا حبيبتي؟». قبلها بحرارة. «وكيف كانت الحفلة؟ اعذريني على تفويتها، لكن كان لديّ اجتماع كما لديّ أخبار سارة». «كانت حفلة مبهجة».

ارتدت فلورا منزعجة وبدأت في تقديم العشاء على الفور، ولم يشاء انتظار تيدي لكي لا تفسد الفطيرة. «ما هي أخبارك؟».

«يكفي أن أقول إنّني لن أضطر إلى السفر إلى لندن بعد الآن فترة طويلة. سأعيّن في قاعدة أشفورد الجوية التي تبعد أميالاً قليلة من هنا. تعرفين من الصحف المحلية أن لدينا أسراباً من السلاح الجوي الملكي البريطاني والقوات الجوية الملكية. وهذا إضافة إلى الأميركيين بالطبع».

«أجل». ابتسمت فلورا وهي تتذكر الإثارة والحماسة اللتان حدثتا في وقت سابق من العام عندما سمعت فتيات الأرض أنه تقرّر أن تتمركز أسراب كندية وأميركية وبريطانية هناك. وأقيمت حفلات راقصة للمناسبة وعادت الفتيات من هناك يحملن الشوكولاتة وجوارب النايلون.

«هذه أخبار ممتازة يا حبيبي. وماذا سيكون دورك؟».

«كل ما يمكنني قوله هو أن أمرًا عظيمًا آتٍ. سأكون ضابط الارتباط بين مختلف الأسراب، وسيكون عليّ تنظيم الطيران وما شابه، والمساعدة في الاستراتيجية. هل تعرفين يا عزيزتي، اليوم أشعر أول مرّة أن النهاية باتت تلوح في الأفق».

«سنكون سعداء جدًا إن صدقت». ووضعت فلورا طبقًا أمام زوجها وهي تنظر إليه باعتزاز.

«يبدو لذيذًا، شكرًا لك». قال وهو يمسك سكينه وشوكته. «ألن ينضم إلينا أي من الأولاد؟».

«لا، فلوريز في الكوخين مع فتيات الأرض، وتيدي... في الخارج».

«كالعادة». تتمم آرثشي.

كانت الساعة قد شارفت على الثانية صباحًا، عندما سمعت فلورا التي كانت تعاني الأرق، ألواح الأرضية تصرّ تحت الباب الذي انغلق عبر الرواق. فعرفت أن ابنها عاد أخيرًا إلى المنزل.



«أين كنت في البارحة؟». سألت فلورا تيدي الذي دخل يتجول في المطبخ المزدهم، حيث وقفت فلورا تساعد السيدة تانيت في الخبز والتقطيع استعدادًا لموسم الأعياد، وسط عزف للأغاني الميلادية على الراديو.

«في الخارج. هل لديك مشكلة في ذلك يا أمي؟ لقد تخطيت سن الرشد منذ مدة». وسحب تيدي فطيرتين بالمرّي كانتا موضوعتين على رفّ فوق الطاولة لكي تبردا.

«وكيف حالك في هذا اليوم الجميل، يا سيدة تانيت؟».

«أنا بخير، شكرًا لك يا سيدي».

وكانت فلورا قد لاحظت أن مدبرة منزلها كانت المرأة الوحيدة التي أبت الوقوع أسيرة سحر ابنها الكبير.

«ممتاز». بادل تيدي السيدة تانيت بابتسامة مشرقة. «إذًا، ما هي خطتك اليوم يا أمي؟».

«سنستقبل القرويين، وسنقدّم لهم نبيذًا على الغداء، ثمّ ستصل جدتك إلى أشفورد عند الخامسة. سيكون من الرائع لو تأتي بها من المحطة؟».

«بحسب»، أجاب تيدي وهو ما يزال يتجول في المطبخ، ثمّ يتكئ على الموقد، بالقرب من السيدة تانيت حيث وقفت لتحرك النبيذ الساخن. «لقد دعاني الشبان في القرية للانضمام إليهم في الحانة قبل العشاء. ففي النهاية، إنها ليلة عيد الميلاد». «سنكون ممتنين كثيرًا لو تكرّمت بإحضارها إلى هنا».

«ألا يستطيع ذلك الذي هو زوجك فعل ذلك؟». سأل السيدة تانيت التي بدأت ترتجف عندما شعرت بيده تلامس برفق ظهرها.

«السيد والسيدة تانيت لن يكونا في الخدمة هذه الليلة، سيحتفلان على انفراد في كوخهما، لأنّ السيدة تانيت ستساعدني غدًا في تحضير الطعام وتقديمه على الغداء. وأنا متأكدة من أن جدتك ستقدر لك ذلك المعروف».

«هل يوجد خبز؟». سأل تيدي، وهو ينظر حوله في المطبخ. «إنني جائع لدرجة أنني قادر على الاتهام حصان».

فأشارت فلورا إلى مخزن المون.

«هناك ثلاثة أرغفة فقط. لكن من فضلك لا تأخذ غير رغيف واحدة. فنحن بحاجة إليها لتحضير الشطائر للقرويين».

وفيما كان ابنها يبحث عن الأرغفة، راحت فلورا تتنهد. إذ إن صبرها هي أيضًا كان ينفد من وقت إلى آخر.

«أعتقد أن هذا العيد سيكون رائعًا». قال تيدي وهو يخرج من المخزن ويمضغ قطعة سميكة من الخبز.

«أتمنى ذلك».

«وبالطبع، سأذهب لاصطحاب جدتي». ابتسم تيدي فجأة، ومشى إلى والدته وحضنها. «كنت أغیظك فحسب».



اتضح للجميع أنه بالفعل كان عيد ميلاد سعيد. فقد بدا آرتشي أكثر إيجابية مما كان عليه منذ فترة طويلة حسبما تذكر فلورا، وكانت متأكدة من أن تلك الإيجابية هي نتيجة تعيينه الجديد في أشفورد. أما لويز، فكانت كما هي دائمًا، الابنة المطيعة التي تسهل الأمور على الجميع لتوفر لهم الراحة والسعادة. حتى تيدي، نجح في السيطرة على رغبته في الانضمام إلى أصدقائه في الحانة المحلية، وبقي في المنزل إلى يوم الملاكمة.

في تلك الليلة، ارتمت فلورا وآرتشي فوق السرير، كلاهما متعب من صخب العيد.

«أشعر كأننا متّعنا الحي بأكمله. أغنياء وفقراء، على حسابنا».

«أجل، هذا ما فعلناه». ضحكت فلورا وهي تفكر في كل من مرّ بهاي وولد في الأيام القليلة الماضية. «هذا ما ينبغي أن يكون عليه العيد، أليس كذلك؟ ففي النهاية، عيد الميلاد هو مناسبة للعطاء».

«أجل، وكنت أنت أكثر من أعطى هنا. شكرًا لك يا عزيزتي». ثمّ قبلها آرتشي بلطف. «لعلّ العام الجديد يجلب إلينا السلام الذي نستحقه جميعنا».

38

بدا شتاء 1944 في نظر فلورا أطول من أي شتاء آخر. ربّما لأنّها، مثل بقية العالم، سئمت الحرب، وسئمت الأنباء السيئة، وسئمت البهجة الكاذبة التي كانت تسمعها على الراديو، وهي تطلب إلى الجميع الحفاظ على معنوياتهم العالية. إلى جانب ذلك، تملّكها هاجس غريب، ضغط عليها مثلما تخيّم طبقة الثلج الكثيفة على الحقائق. الشعاع الوحيد الذي خفف من قتامة شباط كان الرسالة التي وصلتها من ويليام هيليس.

كوخ القلعة (كاستل كوتيج)

نير ساوري

15 شباط 1944

عزيزتي السيدة فوغان، أو هل أدعوك «فلورا»؟

أمل أن تقرأي هذه الرسالة وأنت بخير. سماكة الثلج هنا باتت كثيفة، وأنا أكتب لك وسط هدوء تام. الآن وقد رحلت عزيزتي بياتريكس، ولا أجد من يوبّخني. أكتب إليك لأخبرك بأنني قرأت وصية بياتريكس بنفسني، في حضور القطة فحسب (التي أشير إلى أنّها حظيت بحصة صغيرة من الوصية، تتمثل بعلبة سردين). كان هذا إجراءً رسمياً، يفرضه القانون على المحامي (وهو أنا) والمنفّذ (وهو أنا أيضاً). وسيكون هناك اجتماع رسمي للأمناء وجميع المستفيدين في الوقت المناسب، لكن في ظل الظروف

الراهنه الصعبة، قررت أنني سأمتنع عن تنظيمه إلى أن يذوب الثلج، وسأعقده في لندن حيث يقيم عدد من المستفيدين، ومن بينهم الصندوق الوطني الاستئماني. يمكنك أن تتخيلي أن القائمة طويلة، وهناك فرصة كبيرة أن أضطر إلى استئجار قاعة تتسع للجميع. أنا أمزح، لكن الوصية معقدة وسوف يستغرق أمر تنفيذها بعض الترتيبات، وأكثر ما يجعل أمر تنفيذها مؤلماً على هذا المحامي المتواضع، هو أنها عائدة إلى بياتريكس. والآن، أريد إخبارك أن بياتريكس قد تركت لك حصّة من وصيّتها. وأرفق رسالتي برسالة قصيرة كتبتها لك لتوضح الأمر. أتمنى ألا تمانعي!

وإلى أن يحين ذلك، يا عزيزتي فلورا، دعينا نأمل أن ينتهي هذا الشتاء الذي طال قليلاً، وأن يأتي الربيع في النهاية ليجدّد أملنا بمستقبل مشرق. أعترف لك أنني في الوقت الحاضر أكافح من أجل الاعتراف لنفسني أنّه سيكون هناك مستقبل مشرق من دون زوجتي الحبيبة.

ابقي على تواصل معي أيتها الصديقة العزيزة.

ويليام هيليس

بعد أن أخرجت فلورا المغلّف الآخر، فتحتّه وأجبرت نفسها لتقرأ محتواه.

كوخ القلعة (كاستل كوتيج)

نير سوراى

20 حزيران/يونيو 1942

عزيزتي فلورا،

سأختصر الكلام لمعرفتي أن الرسائل من وراء القبور قادرة على تجيش العواطف.

فلندخل في صلب الموضوع: لقد أورثتك متجر كتب في لندن، كنت

قد اشتريته قبل سنوات، إثرَ مرور صاحبه بضائقة مالية. آرثر مورستون (وهو الحفيد الابن ويحمل الاسم نفسه) توفي قبل بضع سنوات، وكان هذا متجري المحلي منذ أن كنت أعيش في كنسينغتون في صغري. ولكوني كنت مغرمة بأصحابها، انتزعته من بين أيديهم.

يحزنني أنني اضطرت إلى إغلاقه في بداية الحرب، بسبب النقص في الموظفين. وهو ما يزال مغلقاً حتى اليوم.

عزيزتي فلورا، يمكنك أن تفعلي به ما يحلو لك.

المبنى يساوي شيئاً ليس بالقليل على أقل تقدير. أنت أقرب مِنِّي إلى لندن، لذلك إذا قررت الاحتفاظ به، أنا واثقة من أنك ستكونين صاحبة عمل ومالكة أفضل مما كنت عليه أنا بكثير. أما إذا بعته، فأنا واثقة أيضاً من أن حبك للكتب سيجعلك تحسّنين استخدام مخزونه. إن نجاة المتجر من الحرب كانت معجزة كبيرة، على الأقل حتى الآن، فيما يُدمّر كثير من المباني القريبة منه. إنه متجر كتب صغير جداً ورائع، وأشجّعك أن تزوريه على الأقل قبل أن تتخذِي قرارك.

والآن يا عزيزتي فلورا، حان وقت الوداع. لن أنسى أوقات الودّ والمحبة التي تشاركناهَا. ابقِي على تواصل مع عزيزي ويليام. أخشى، عندما ستحين الساعة، أن يشعر بالضياح التام من دوني.

بياتريكس



«يا لها من امرأة كريمة ومراعية». قال آرثشي في أثناء العشاء في ذلك المساء. «حالما تستلمين سندات الملكية والمفاتيح، يجب أن نذهب إلى لندن لرؤيته». «أتمنى أن يبقى صامداً. لا أكاد أتحمّل فكرة العثور عليه كومة من الركام». «قد يهتمّ تيدي بإدارته؟ أرى أن ليس لديه الكثير ليركّز عليه في هذه الأيام. فهو لا يستطيع حتى إخراج نفسه من السرير قبل موعد الغداء. وتردّد إلى مسامعي في القرية أنه يزور الفندق المحلي بانتظام كل ليلة».

«كما تعرف كان يعاني نزلة برد رهيبة».

«كلّنا عانينا نزلة برد هذا الشتاء يا فلورا، لكنها لم تمنعنا من فعل ما يفيدنا خلال النهار».

«أعتقد أنه مكتئب. فقد صرف سنوات مضطربة بسبب الحرب، وهو ما يزال شابًا».

«على الأقل، ما زالت أُمّاه سنوات طويلة، على عكس كثيرٍ من أقرانه»، قال آرثشي محاولًا كبح جماح غضبه.

«فكرت مؤخرًا أن علينا مناقشة مضمون وصيتي. فأنا لم أعد لها منذ مدّة، وكان ذلك بعد أن تزوّجنا بقليل. فحاليًا هاي ويلد ستتقل إلى تيدي، بما أنّه ابننا البكر والوحيد، وبذلك هو وريثي بحقّ البكورة، لكنني أعترف أنّني بدأت أشكّ في أهليّته لامتلاك مثل هذا العقار. كنت أفكر اليوم، على الرغم من أنّني عاجز عن فعل أي شيء حيال انتقال اللقب إليه مباشرة، ربّما يجب أن أترك لك المِلْكِيّة بشكل دائم يا عزيزتي. وبعد ذلك، سيتوقّف الأمر على سلوك تيدي في المستقبل، وعلى احتمال إنجاب لويز طفلًا ذكرًا، وبعد ذلك ستقررين أنت ما هو الأفضل لتفعليه. لأنّ تصرفاته في الوقت الحالي تجعلني أشكّ فيما إذا...».

«هل يمكننا مناقشة هذا في وقت آخر؟ ربّما عندما تنتهي الحرب مثلاً وتنقشع السماء من جديد؟ فمع وفاة بياتريكس مؤخرًا، التي لم تبرد جثّتها بعد في قبرها، أنا حقًا لست جاهزة للتفكير في مثل هذه الأمور».

«بالطبع لا يا عزيزتي». أجابها آرثشي وهو يمد ذراعه عبر الطاولة ليصل إلى يدها ويضغط عليها. «وعندما يحصل ذلك، علينا الاحتفال أولًا بنجاتنا جميعًا».



ارتفعت معنويات فلورا بخروج إنكلترا من فصل الشتاء وظهور أولى علامات الربيع. كما أنّها شعرت بالحماسة لدى رؤيتها نمو الشتلات التي كانت قد زرعها بمساعدة السيد تانيت في بداية الخريف الماضي. مع حرب أو من دونها، فإن أي حديقة

بحاجة إلى رعاية مستمرة واهتمام مثل الأطفال. كما أن إحساسها بصلابة الأرض بين أصابعها جعلها تشعر ببساطة بالرسوخ.

على الرغم من نظرتها الساخرة للدعاية الإيجابية الوافرة التي أطلقها مكتب الحرب، فإن فلورا شعرت فعلاً بالتغيير الكبير في حظوظ الحلفاء. وعرفت مما قاله آرتشي، ومما لم يقله، أن الحلفاء كانوا يستعدون لنوع من الهجوم المنظم في أوروبا. ومع أن ساعات عمل آرتشي في القاعدة الجوية غالباً ما كانت تمتد إلى وقت متأخر في الليل، فإنها كانت قادرة على قراءة ترقبه للأحداث في عينيه.

وكان هناك أيضاً أخبار سارة طاولت لويز التي ذهبت برفقة تيدي إلى حفلة راقصة ليلة رأس السنة، بعد أن بذلت فلورا وسعها لإقناعها.

«ستستفيدين كثيراً بذهابك إلى المدينة وأخذ قسطٍ من الراحة من عملك هنا في هاي ويلد». أصرت فلورا. وأعارت لويز ثوباً لائقاً للمناسبة، فعدّته لويز بأصابعها الرشيقة، تماماً كما كانت تفعل أوريليا في الماضي. ورافقها تيدي في القطار إلى هناك، وعندما عادت في اليوم التالي إلى المنزل، لاحظت فلورا نوراً جديداً في عينيه.

كان الشاب يدعى روبرت فوربس، محباً للكتب، وقد منعه ضعف نظره المزمن من الانضمام إلى معسكر المقاتلين في بلاده، وكان تيدي يعرفه بشكل سطحي من أكسفورد، وأبلغ لويز أنه كان يعمل على أمر ما في مجال الذكاء.

«بالطبع، لا يستطيع الإفصاح عنه في الوقت الحالي، لكنني واثقة من أنه أمر مهم. فهو ذكي جداً يا أمي، وقد حصل على منحة لدراسة الكلاسيكيات في أكسفورد».

«لكنه جافٌ قليلاً». قاطعها تيدي، «وممل على نحو فظيع، كما أنه رفض احتساء كأس ثانية من الشمبانيا عشية رأس السنة!».

«لا يحتاج المرء إلى الإفراط في احتساء الخمرة لكي يجد السعادة». صرخت لويز في وجهه.

لم يكن من عادة لويز أن تهاجم أي شخص، ناهيك إذا كان ذلك الشخص أخاها

الحبيب. لذلك راحت فلورا تتساءل عما إذا كان هجومها الأخير ناتج عن رغبتها في الدفاع عن روبرت فحسب، أو عن انزعاجها المتصاعد من تيدي.

توطدت العلاقة الرومانسية بين روبرت ولويز بسرعة لتخلق رابطًا قويًا بينهما. وأعجب كلٌّ من فلورا وآرتشي به حين مقابلته، كما أنَّهما شعرا بالاطمئنان لرؤية الحب يكبر بينهما. وبعد مرور أسبوعين فقط، أعلن الثنائي خطوبتهما، وجاء روبرت للبقاء في هاي ويلد في عطلة نهاية الأسبوع للاحتفال. وقد تأثر بشدة بما ورثته فلورا من بياتريكس، فتوسَّل إليها أن تسمح له بمرافقتها في زيارة متجر الكتب عندما كانت ستفعل بعد أسابيع قليلة. وأكّدت التحريات سلامة المبنى من القصف خلال الغارات الأخيرة، فيما كانت فلورا تتوقع استلام سندات المِلْكِيَّة في وقت قريب.

على الرغم من أن روبرت كان ينتمي إلى عائلة عريقة، فإنَّه لم يكن لديه دخل خاص به وحده، لذلك اتفق آرتشي وفلورا على أن ينتقل الزوجان الشابان إلى بيت المزرعة التي تقع عبر الممر، والتي بقيت مهجورة منذ أن غادرها مدير المزرعة. كانت تعرف، أن مع قليل من الطلاء، وبعض الستائر الجديدة وغيرها من التجهيزات التي كانت أصابع لويز البارة قادرة على تحقيقها، فإن المنزل سيناسب العروسين. كما أن فلورا فكرت بهدية زفاف مثالية تقدِّمها للثنائي الشاب.

«أمِّي، هل يمكنني التحدث إليك؟».

قالت لويز وهي تعثر على فلورا في الحديقة في صباح مشمس من أيار.

«بالطبع». وقفت فلورا تتفحص القلق على وجه لويز. «ماذا هناك؟».

«هل يمكننا الجلوس؟».

أشارت لويز إلى مقعد في الظل، تحت سقيفة ورد كان قد بناها مؤخرًا السيد تانيت.

«ماذا هناك؟».

استطاعت فلورا رؤية أصابع لويز الطويلة وهي تشبكها وتحررها بانفعال.

«الأمر... حسَّاس. على صلة بإحدى فتيات الأرض، وتيدي».

«إِذَا من الأفضل أن تخبريني».

«عرفت أن هناك ما يدور بينهما منذ عيد الميلاد. تذكرون ليلة حفلة فتيات الأرض التي غابت عنها تيسي؟».

«أجل».

«حسنًا، في تلك الليلة كنت عائدة إلى المنزل من الأكوخ عندما رأيت تيدي وتيسي يخرجان من ممر بيت المزرعة. كان الوقت بعد منتصف الليل، وهذا ما أكد لي ما أخبرتني به بعض الفتيات».

«هل تعنين أنهنَّ كنَّ يعرفن بمكان وجودها؟».

«نعم، وكنَّ يعرفن برفقة من كانت؟».

«فهمت».

«كنت أتمنى أن تنتهي العلاقة بينهما. أنا واثقة من أنك على دراية بمدى قصر انتباه تيدي، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالنساء، ويبدو أن هذا ما حصل».

«إِذَا، لِمَ تخبريني بذلك الآن؟».

تنهدت لويز بعمق ونظرت في الاتجاه الآخر عبر الحديقة. «لأنَّ تيسي جاءت باكية إليَّ أمس، تقول لي إنها تنتظر مولودًا، على حدِّ تعبيرها. إنها حامل يا أمي، وتقسم أن تيدي هو والد الطفل».

«يا إلهي...». حان الآن دور فلورا لتشبك أصابعها متوترة. «هل تعتقدين أنه خبر صحيح؟».

«إنها في الشهر الرابع تقريبًا، وخطيها خرج قبل ستة أشهر ليقاقل في فرنسا، ولم يحصل على إجازة يوم واحد. كما أن باقي الفتيات يعرفن أنها واعدت تيدي حتى ساعة متأخرة في تلك الليلة، وقد تسَّرنَّ عليها. يؤسفني القول إن التواريخ متطابقة. لذلك أرجح أن يكون الأمر صحيح، نعم».

«وتيدي؟ ماذا يقول؟».

«لم تخبره. لقد قطع علاقته بها، حسبما تقول بعد ما حصل على ما أراد منها».

«إذن، أظنّ أن عليه أن يتزوَّج بها».

«إنّه لن يفعل. فهو لا يحبّها. لم يعد حتى معجبًا بها! علاوة على ذلك، تيسي شابة ذكية وجميلة جدًّا، لكنّها من الطرف الشرقي للندن. لذلك، لا نقاط مشتركة بينهما. وإذا ولدت صبيًّا، فسيكون وريث هاي ويلد. لا أعرف ماذا سيقول أبي بحقّ السماء؟».

استوعبت فلورا تداعيات فعلة ابنها الدنيئة. ثمّ فكّرت في ردّة فعل آرثشي عندما يسمع الخبر. كما أن ذلك سيفاقم العلاقة المتوترة أساسًا بين الأب وابنه. «هل قلت إن الفتاة مخطوبة؟».

«نعم، صحيح. يحبّان بعضهما منذ الطفولة، وهما على علاقة منذ سنوات».

«هل تعتقدين أنّه يحبها لدرجة أن يغفر لها هذا الذنب، ويقبل الطفل؟ ففي النهاية، لن تكون الفتاة الأولى في زمن الحرب التي تعاني مصيرًا كهذا».

«لا يمكنني أن أجزم يا أمّي، لكنني أشك في ذلك. وأنت ما رأيك؟». أجابت لويز بتعقّل، فأشارت نبرتها إلى أن يأس فلورا جعلها تبدو ساذجة في تحليلها. «أعني، لو كان روبرت، لكان تركني من دون أن يفكر مرّة ثانية. كما أن الأمر لا يتعلق بمدى شعور الخطيب تجاه تيسي فحسب، لكن بما تشعر به تيسي تجاه تيدي. لقد قالت لي إنّها تحبه».

«أفهم ممّا قلته الآن، أن تيدي لا يبادلها الشعور نفسه».

«ربّما يمكنك التحدّث إليه؟ فأنت الوحيدة التي يستمع إليها. أقسم لك يا أمّي أنّه انحرف قليلًا في الأشهر القليلة الماضية. كما أن صيته ذائع في الجوار بسبب انغماسه في الملذّات، وسيُصدم أبي عندما يبلغه الخبر. سامحيني لكوني أثقل كاهلك بهذا، ولكن علينا التحرك. وسريعًا».

«شكرًا لإخباري يا لويز. اتركي الأمر لي وسأحاول التفكير في ما هو أفضل لنفعله».

سأخبر تيسي أنّي تحدّثت إليك في الموضوع، وبأنك ستناقشينه مع تيدي. بقيت فلورا بقية اليوم في الحديقة، وهي تتمنّى في أعماقها لو أمكن تيدي

أن يتشبه بالسيد تانيت صاحب الطباع الهادئة، والذي قلّما كان يتحدث، ومع ذلك كان يتعامل مع النباتات والحيوانات بحنان ورفق. «يا له من شخص متعاطف».

فكرت فلورا وهي تتساءل عما إذا كان ابنها سيتعلم ذات يوم ما كانت تعنيه تلك الكلمة.

ظلت فلورا الليلة كلها تراقب آرتشي وهو ينام بسلام في جوارها، وهي تحاول اتخاذ القرار في ما عليها فعله. كانت في إمكانها توقع الآتي لو سمع آرتشي بالجنحة المروعة التي ارتكبها ابنه. فالشرف كان أهم شيء بالنسبة إليه، ولن تتفاجأ إذا طرد تيدي مباشرة من هاي ويلد من دون أن يعطيه فلسًا.

بعد ظهر ذلك اليوم، طلبت فلورا من لويز أن ترسل إليها الشابة تيسي لتقابلها بنفسها. وصلت الفتاة إلى غرفة الرسم بوجهها الجميل الشاحب، وعينيها الزرقاوين الكبيرتين الخائفتين. تمكنت فلورا من رؤية انتفاخ بطنها الطفيف، ما جعلها تشعر فجأة بألم في نفسها. على الرغم من أنها هي وآرتشي حاولا الإنجاب، لكنها لم تنجح يومًا في الحمل. فعندما قررا الزواج في النهاية، كانت قد بلغت الثلاثين، وبعد مرور بضع سنوات، عرفت أن الفرصة قد ضاعت منها.

وفيما راحت تتفحص الفتاة، خطرت في بالها فجأة فكرة مجنونة، تصوّرت نفسها تحمل ذلك الطفل بين ذراعيها وتربيته على أنه ابنها. كان طفل تيدي... مقدراً له هو أيضًا أن يكون رضيعًا يتيماً. ثم وضعت حدًا لخيالها وتمالكت نفسها استعدادًا للمواجهة.

«مرحبًا تيسي. تعالي واجلسي».

«شكرًا سيّدتِي. آسفة لإقحامك في هذا كله، لا سيما أنني أعرف كم أنك لطيفة معي ومع باقي الفتيات. هل تحدثت إلى تيدي؟ ماذا قال؟».

استعدت فلورا للكذب. «أجل، لقد تحدّثت إليه، لكنّه نفى أي علاقة تربطه بك. أو مثل ذلك الادعاء».

«كيف يمكنه ذلك؟ الجميع يعرف أننا تواعدنا شهوّرًا في الخريف الماضي وطوال موسم الميلاد. يمكنك أن تسألي بقية الفتيات، فهنّ سيخبرنك. أنا...».

وانفجرت تيسي في بكاء صاخب.

نهضت فلورا واقتربت من تيسي، وسحبت منديل دانتيل من داخل كمها وأعطته لها. لقد حنَّ قلبها على الفتاة المسكينة، ولكن كان عليها أن تضع عائلتها في المقام الأول.

«اهدئي، اهدئي»، قالت لها بلطف. «لا شيء على الإطلاق بالسوء الذي يبدو عليه».

«بلى، هو كذلك! وهل هناك أسوأ ممّا أمرّ به، أتمنّى أن تعذريني على ما سأقوله، يا سيدتي؟ الطفل في طريقه إلى الولادة، وهو من رجل ينكر فعله، وخطيبي الذي من دون أدنى شكّ سيرحل بعيدًا مِنّي عندما يرى بطني يكبر. وماذا عن أمّي وأبي... اللذين سيطردانني من المنزل لحظة اكتشافهما الأمر. سأرمى في الشارع إلى الهلاك. لعلّ الحلّ الأفضل هو أن أخرج الآن إلى النهر وأرمي بنفسي فيه وأنتهي من هذه المشكلة!».

«تيسي، من فضلك، أفهم أن تكوني منزوعة، لكن هناك دائمًا طريقة ثانية لنحل بها الأمور، ثقي بما سأقوله».

«وما هي تلك الطريقة يا سيدتي، اعذريني على السؤال؟».

«حسنًا، أهمّ ما في الأمر الآن هو أن يكون لديك أنتِ وطفلك سقف لتحتما تحته، أليس كذلك؟ أعني منزلًا لك أنت وحدك».

«بالطبع، لكن بالنسبة إلى أجري، لن أستطيع تأمين دخل».

«لا. لهذا السبب أنا جاهزة لأعطيك مبلغًا من المال يسمح لك بشراء منزل صغير. فضلًا عن ذلك، سيوفّر لك دخلًا سنويًا قليلًا إلى أن تُدخلي طفلك المدرسة لتتمكني بعدها من العثور على عمل لنفسك».

«عذرًا يا سيدتي، لكن لماذا؟». نظرت تيسي إلى فلورا بريية. «أعني، إذا أخبرك ابنك ذاك أن الطفل ليس طفله... وبأنه ليس حتّى... على معرفة بي، لِمَ لا تطرديني من دون أن تلتفتي إليّ؟».

«أخبرني ابني أن الطفل لا يمكن أن يكون طفله، لكن هذا لن يحول دون

مساعدتي لشابة تمرّ في محنة، أم لا؟ أنا أيضًا كنت صغيرة ذات يوم ومررت بحالة من اليأس يا تيسي. ووجدت آنذاك من يتلطف بي ويساعدني عندما كنت في أمس الحاجة إلى ذلك. وها أنا أسدّد دينًا وأقابل العمل الصالح بعمل صالح». ردت فلورا بهدوء.

«لكن شراء المنازل مكلف جدًّا». قالت تيسي وهي تمخط بصوت عالٍ في منديلها.

«إذا أردت، يمكنك شراء منزل صغير بالقرب من مسكن والديك. أين يعيشان؟». «في هاكني».

«أنا واثقة من أنهما سيغيّران موقفهما عندما يولد الطفل. ولعلّ خطيبك أيضًا. يعني إذا كان يحبك».

«آه نعم، هو يحبني كثيرًا. يقول عني أنني أشعة الشمس التي تنير يومه. انظري إلى ما فعلت به». هزّت تيسي رأسها. «لا، لن يسامحني على هذا... أبدًا. حسنًا، وماذا تتوقعين منّي في المقابل؟».

«لا شيء. عدا عن مراسلتي بصورة للطفل من وقت إلى آخر، وواعد منك ألا تنشري أكاذيب تضر سمعة ابني».

«أقسم لك يا سيدتي أن تيدي هو والد الطفل. وأظنّ أنّك تعرفين ذلك، لهذا ترغبين في مساعدتنا، لأنني حامل بحفيدك». ووضعت يدها على بطنها. «إذا كان صبيًا، قد يكون وريثًا لهذا كله».

«تعلمين جيدًا أن من المستحيل أن تثبتي ما تقولينه بأي طريقة. لذلك، إليك هذا العرض. هل تقبلينه؟».

«أنت تستترين عليه، وتحمينه، أليس كذلك؟ ابنك العزيز هذا... الكل يعرف أنّه قرّة عينك، ولن تقولي أي كلمة لا تصبّ في مصلحته. أين هو الآن؟». وقفت تيسي وهي ترتجف من الغضب. «أفترض أنّك لم تتحدثي إليه على الإطلاق. لذلك أريد أن أحدثه بنفسني. الآن!».

«لا تتردّدي في ذلك». هزّت فلورا كتفها بأكبر قدر من اللامبالاة، قبل أن تدير

لها ظهرها وتمشي إلى مكتبها. «لكن ثقي أنك عندما تغادري هذه الغرفة، فإن هذا العرض لن يبقى قائمًا. وأستطيع أن أضمن لك أنك لن تسمعي شيئًا مختلفًا من تيدي. أسألي لويز. لقد نفى الأمر أمامها هي أيضًا»، أضافت لتؤكد الأمر. ثم جلست إلى مكتبها، وسحبت دفتر الشيكات. «لذلك لا فائدة من تصرفك هذا؟ يمكنك الاختيار بين المغادرة مع شيك بقيمة ألف جنيه محرر باسمك، والعودة إلى كوخك لحزم أمتعتك والرحيل. وسأرسل بطلب السيد تانيت ليقودك إلى محطة أشفورد بعد ساعة، أو المغادرة خالية اليدين وإلقاء نفسك تحت رحمة ابني، وكلانا يعرف على حد سواء، أنها ليست صفة يمتلكها».

ساد الصمت بينهما برهة تمتت خلالها فلورا أن تكون قد فعلت ما يمكن لإقناعها. لكنها كانت تتمتع بكبرياء عال، وإشراق، وقد أعجبت فلورا بمعنوياتها العالية.

«هذا ابتزاز...».

لم تعلق فلورا، التقطت قلم الحبر السائل وببطء أزال الغطاء عنه. فانبعثت تنهيدة طويلة عبر الغرفة تشير إلى الهزيمة.

«تعرفين جيدًا أن لا خيار آخر لدي. سوف آخذ مالك وأرحل».

«فليكن». قالت فلورا وهي تحرر الشيك وتشعر بارتياح يغمرها. «لقد اتخذت القرار الصحيح، يا تيسي».

«لم يكن لدي خيار لأتخذ قرارًا فيه، أليس كذلك يا سيدتي؟ هل تعرفين؟ لقد أحببته بصدق». قالت بحزن. «كنت فتاة صالحة دومًا، لكنه أسمعني كل أنواع الكلام الجميل، مثل أنه سيتزوجني».

«تفضلي الشيك، وهذا اسم المحامي الذي أتعامل معه. فهو من سيهتم بأى مراسلات بيننا في المستقبل. وسيساعدك إذا لزم الأمر على شراء منزل».

«شكرًا لك يا سيدتي»، تمكنت تيسي من الإجابة. «ما لا شك فيه أنك امرأة طيبة. تيدي لا يعرف كم هو محظوظ أن يكون لديه أم مثلك، تنظف أعماله القذرة. هو شخص سيئ، ثقي بما أقوله لك».

«وداعًا يا تيسي. اعتني بنفسك وبالطفل».

«سأبذل قصارى جهدي يا سيّدي، أقسم لك».

وغادرت تيسي الغرفة. ثم غاصت فلورا داخل كرسيها، تشعر بالارتياح والاشمئزاز يغمرانها على حد سواء.

لا خداع في الحب....

تذكرت فلورا كلمات آرتشي التي بقي يردّها طوال السنوات الماضية. لكن حبّها لتيدي وشعورها بضرورة حمايته حوّلاها إلى شخص لم تقدر أن تتعرّف إلى نفسها فيه. وهذا ما جعلها تكره نفسها.



«ما الأمر يا أمّي؟ سأخرج في الخامسة من أجل اجتماع»، قال تيدي عابسًا، وهو يدخل مكتب فلورا.

«وأنت الآن متأخر على موعدك عشر دقائق، لذلك من الأفضل أن ندخل مباشرة في الموضوع».

«ما الذي فعلته الآن؟ أي ثرثرة وصلتك؟».

«أعتقد أنّك تعرف جيدًا أي واحدة».

«آه»، ضحك تيدي. «أفترض أنّك سمعت بعلاقتي المزعومة مع فتاة سميث».

«نعم، لقد سمعت بها من باقي فتيات الأرض، ومن أختك التي تقول إنّها رأتكما تخرجان من منزل المزرعة في الليلة السابقة لعشية الميلاد. ومن تيسي نفسها في وقت سابق هذا اليوم».

«هل جاءت لرؤيتك؟».

«أنا من طلبت إليها المجيء».

«يا إلهي يا أمّي، يبدو أنّك نسيت أنّي في الرابعة والعشرين من عمري، وأنّني قادر على الاهتمام بمشكلاتي الخاصة».

«إذاً أنت تعترف أنّك تسببت في حدوث مشكلة؟».

«لا، أنا...»، وتلعثم تيدي في الكلام. «لست بحاجة إلى والدتي لتتدخل في حياتي. تدركين أن الأمر برّمته مجموعة أكاذيب؟».

«بعد أن تحدّثت إلى تيسي اليوم، أشك حقاً في أنّه كذلك. سأدخل مباشرة في الموضوع. تعرف أن تيسي حامل. ومن المحتمل أن يكون الطفل الذي تحمله ابنك. مرّة أخرى رفضت تحمل مسؤولية فعلتك بأي شكل من الأشكال، كما لم تتحمّل يوماً أي مسؤولية أخرى. وأنت الآن تكذب كالعادة بشكل سافر لإنقاذ نفسك».

«أمّي، أنا...».

«من فضلك، لا تقاطعني. أنت كسول، وسكّير سفيه. بصراحة، أنت مصدر إحراج لهذه العائلة. الأسبوع الماضي فقط، حدّثني والدك عن رغبته في إعادة صوغ وصيته».

«هل سيحرمني من الميراث؟».

«أجل». وعرفت فلورا أنّها نجحت في تحقيق مبتغاها من التعابير التي ظهرت على وجه تيدي. «ويمكنني بالتأكيد أن أخمّن السبب. لنكون صريحين، إذا سمع والدك مجرد همس عن الشائعة التي تخصّ تيسي، فستكون القشة التي ستقصم ظهر البعير».

«فهمت». قال تيدي وهو يجلس على الكرسي ذي الذراعين.

«أقترح عليك من الآن فصاعداً، ألا تبقى أي أكاذيب أخرى بيننا إذا أردتنا أن ننقذ الموقف».

نظر تيدي إلى ما وراء والدته عبر النافذة. «اتفقنا».

«لقد أرسلت تيسي بعيداً وأعطيتها ما يكفي من المال لتتأكد من أنّها ستكون هي والطفل بخير».

«أمّي، لست بحاجة إلى فعل ذلك، حقاً، أنا...».

«بل أعتقد أنّني كنت كذلك. من شبه المؤكد أن يكون الطفل طفلك، وبذلك هو حفيدي وحفيد والدك. اعترف بذلك، بحق السماء، يا تيدي».

«نعم أعترف». وافق أخيراً. «ولكن هناك فرصة...».

«أنا لست مهتمة بسماع اعتراضاتك. أنت ببساطة لا تستطيع الاستمرار في المنوال نفسه. قد أتفهّم أنّك تشعر بالملل وتكافح مع أجل بناء مستقبلك، لكن سمعتك كزير نساء وسكّير تكبر باطراد».

«أنا حقًا أشعر بالملل. وليس مستغربًا أن أشعر به. فلولا المشكلة التافهة في قدمي، لكنت قد رحلت قبل سنوات لأؤدي واجبي في خدمة الوطن».

«مهما كان عُذرك، عليك الآن أن تختار. إمّا أن تبقى هنا وتصبح ابنًا نفتخر به أنا ووالدك، وإمّا سأقترح على والدك أن يرسلك إلى سيلان عند عمّتك إليزابيث وعمّك سيدني. هناك تستطيع مساعدتهما في مزارع الشاي التي يملكانها. وفي كلتا الحالتين، عليك أن تثبت لوالدك أنّك جدير أن تكون وريثه».

وكما حصل مع تيسي في وقت سابق، ساد الصمت برهة فوق الكرسي ذي الذراعين.

«هل سترسليني بعيدًا؟ الحرب ما زالت مشتعلة يا أمّي». تصدّع صوت تيدي قليلاً. «هناك قصف وإغراق مستمر للسفن».

وأخذت فلورا نفسًا عميقًا قبل أن تواصل كلامها. «نعم سأفعل ذلك. ببساطة لأنني لم أعد قادرة على التستر على أفعالك أو على اختلاق الأعذار لك. بفضل تدخلاتي المستمرة، لم تصل الأمور بعد إلى نقطة اللاعودة مع والدك. ومع ذلك، وبقدر ما أحبّك، فمجرد النظر في وجه تلك الفتاة اليوم، بينما كانت تجلس حيث أنت الآن، وأنا أخبرها بأنك أنكرت وجود أي علاقة بينكما، جعلني أدرك أنّه لم يعد بمقدوري التغاضي عن سلوكك الأخير. هل تفهمني يا تيدي؟».

«نعم يا أمّي، أفهمك». قال وهو يحني رأسه من اليأس.

«ما زلت أؤمن أن هناك رجلًا صالحًا في داخلك. ما تزال شابًا ولديك فرصة للتعويض، ولتثبت لوالدك أنّك جدير بوراثته تركته في يوم من الأيام».

«أجل، سأبقى يا أمّي». قال في النهاية، «وأعدك ألا أخيّب ظنك أنت وأبي مرة أخرى». ومن دون إضافة كلمة واحدة أو النظر إليها مرّة أخرى، نهض تيدي من الكرسي وغادر الغرفة.

39

خلال الأسبوعين التاليين، بدا تيدي كأنه بالفعل أصلح نفسه. كان معوَّانًا قدر المستطاع في شؤون المنزل والحديقة أيضًا. وكان هناك كثير مما يمكنه فعله، إذ في اليوم التالي لحديثه مع فلورا، أخبرها السيد تانيت برغبته في مغادرة هاي ويلد في الحال مع زوجته من دون أن يذكر الأسباب. وعندما سألته فلورا إذا ما كان هناك أي شيء يمكنها فعله لإقناعهما بالبقاء، بقي تانيت صامتًا.

«هذا أفضل يا سيدتي. السيدة تانيت لم تعد تشعر بالارتياح في هاي ويلد». وغادرا في الليلة ذاتها. فبقيت فلورا مستيقظة إلى ساعة متأخرة في الليل، تتساءل عن الذي صدر عنهم وأساء إلى مدبرة منزل بلطف السيدة تانيت. من يأسها، هزّت لويـز كتفيها عندما سمعت الخبر في المطبخ في الصباح التالي.

«لا بد من أنك فهمت السبب؟»، همست قائلة. بقي تيدي في الأشهر القليلة الماضية يحوم حولها أينما تذهب. «أعني قد لا أستطيع الجزم، لكن لو كنت مكان تلك المسكينة، لما استطعت تحمّل الوضع».

أغمضت فلورا عينيها وراحت تتذكّر منظر ابنها عندما وضع يده على ظهر السيدة تانيت في المرة السابقة في أثناء وقوفهما عند الموقد في المطبخ.

في مساء اليوم التالي، تناولت فلورا العشاء بمفردها، بعد أن هاتفها آرثشي ليخبرها أنه سوف يتأخر في القاعدة الجوية. وكان أمرًا شائعًا في تلك الأيام. وبينما كانت في السرير تلك الليلة، سمعت صوت الطيارة المسيّرة للقاذفات الألمانية

يقترّب من هاي ويلد، لكنّها لم تنشغل به مطوّلاً. فمثل تلك الأصوات كانت قد أصبحت مألوفة في تلك الآونة، كأنّها زقزقة عصافير الفجر. مع ذلك، كان الصوت قريباً جدّاً تلك الليلة، فتنهدت فلورا في انزعاج من احتمال نزولهم إلى القبو لقضاء ما تبقى من الليل في حال اقتربت القاذفات أكثر.

وبالفعل، قبل منتصف الليل بقليل، انطلقت صفارات الإنذار معلنة عن غارات جوية، فاخبتأت فلورا وتيدي ولويس أسفل الدرج. وبعد ساعتين، اختفت الأصوات، وعاد كل منهم إلى سريره. كانت فلورا على دراية أن آرتشي كان سيختبئ في الأغلب في القاعدة الجوية ما تبقى من الليل.



«أمّي، استيقظي يا أمّي!».

أيقظها نداء لويز في صباح اليوم التالي. أتت مكالمة هاتفية. هناك شخص يقول إنّه قائد السرب الملكي، وهو يريد التحدّث إليك.

ركضت فلورا إلى الطبقة السفلية، وهي تشعر بالتوتر لدرجة كادت تتعثّر من شدّة استعجالها للوصول إلى الهاتف. بيد أنّها كانت تعرف مسبقاً سبب اتصاله بها. ونقل لها قائد السرب خبر مقتل آرتشي وأربعة عشر آخرين من سلاح الجو الملكي البريطاني في أشفورد جرّاء سقوط قنبلة في منطقة الخيام التي يسكنها الطيارون المقاتلون الاحتياطيون وغيرهم من الموظفين.

على الرغم من القوة التي تحلّت بها فلورا في مواجه الشدائد السابقة، لكنّها انهارت هذه المرّة كليّاً. فمن المثير للسخرية... أن يتمكّن آرتشي من النجاة من الموت كل تلك المدة، ويُسعد بتعيينه في أشفورد بدلاً من عمله في لندن، المستهدفة بشكل رئيسي بقصف الطائرات الألمانية، ويفقد حياته في النهاية على بعد أميال قليلة من منزله... هذا أكثر ما جعلها تشعر بالهزيمة، ولم يستطع عقلها المشوّش استيعابه.

واستدعت لويز الطبيب الذي وصف لها عقاقير مهدئة. وظلت فلورا أياماً

طريحة الفراش، لا حول ولا قوّة لها. فمن دون حبيبها آرتشي إلى جانبها، كانت تفضل الموت هي أيضاً. حتى وجه ابنته الذي كان يذكّرها به لم يكفٍ لدفعها إلى مغادرة غرفتها. فبقيت مستلقية هناك، تستعيد ذكرى كل لحظة قضتها مع آرتشي، وتشتكي إلى الله أنّها فقدت إيمانها به، بعد أن أبعد آرتشي عنها إلى الأبد.

والأسوأ من هذا كله، لم يُنح لها فرصة توديعه.



في صباح اليوم السادس الذي تلى تلك المكالمات الهاتفية المشؤومة، استيقظت فلورا من نومها تحت مفعول العقاقير، إثر نقرٍ على النافذة. وعندما رفعت رأسها، رأت شحوراً صغيراً هوى من عشه المبني على غصن شجرة كستناء معمّرة، فأنقذته حافة نافذتها من السقوط أرضاً، لكن في ظل الهستيريا التي عليه، بقي معرّضاً لخطر السقوط فيما كان يقفز ويزعق مستنجداً بأمّه.

«أنا قادمة يا صغيري». همست وهي تفتح النافذة بحذر. وتمكنت من إمساك ذلك المخلوق الصغير بين يديها. «تعال، تعال، الآن أصبحت في أمان». رددت فلورا. «سنجلب سلماً لنعيدك بعد قليل إلى أمك». ثمّ نزلت إلى المطبخ في الطبقة السفلية وهي تمسك العصفور، حيث كان تيدي يجلس مع لويز إلى الطاولة.

«أمي، ها قد استيقظت! كنت على وشك أن أعدّ لك فنجان شاي». قالت لها لويز.

«لا عليك. لقد سقط هذا المسكين من عشه في شجرة الكستناء. تيدي، هلاًّ تساعدني في جلب السلم لنعيده إلى عشه قبل أن يموت من الصدمة؟».

«بالطبع يا أمي».

ونظرت لويز إلى تيدي، فغمزها وهو ينهض عن الكرسي. «ستكون على ما يرام بعد الآن». قال تيدي وهو يغادر المطبخ خلف والدته.



أقيمت الجنازة في الكنيسة الواقعة ضمن الملكية، وحضرها قرويون، وأصدقاء، وأفراد العائلة. فآرتشي كان شخصية محبوبة من السكان المحليين. جلست فلورا بين ولديها، تبتسم من خلف دموعها المنهمرة، خلال تأبين زملائه في سلاح الجو الملكي البريطاني من كلا الحربيين. وفي أثناء الجنازة، راحت فلورا تبحث في أعماقها عن ذرة قوة أو شجاعة كانت تمتلكها. سمح لها أسبوع الحداد الذي بقيت فيه في عزلة، على الأقلّ بالتحزّر من الحزن الشديد الذي في داخلها، وبذلك أصبحت قادرة على دعم ولديها في تجربتهما الشخصية مع الألم. قد تكون حياتها، أو على الأقل مصدر سعادتها الرئيسي، قد سلب منها إلى الأبد، لكن الحياة ما زالت أمام ولديها. ولم تكن لتخذلهم.

في اليوم التالي للجنازة، اتصل بها السيد سوندرز، محامي الأسرة. وبعد تقديم واجب التعزية، انتقلا في الحديث إلى مناقشة الأعمال.

«ربّما أنت على علم أنّ اللورد فوغان لم يعد صوغ وصيّته منذ عام 1921». بدأ السيد سوندرز كلامه فيما كان يخرج كومة من الأوراق المرتّبة من حقيبته الجلدية القديمة. «لذلك أفترض أنّه كان ما يزال يرغب في أن تذهب تركته إلى ابنه تيدي؟».

«أنا... لا يمكنني إلّا التسليم بذلك»، قالت فلورا وهي تشعر بالذنب، وتغلق الفرقة عند صدرها بإحكام.

«إذاً سأبدأ بإجراءات نقل التركة إلى تيدي على نحو ما جرت مناقشتها. من المحزن ألا يوجد مستند قانوني يتيح لك البقاء في هاي ويلد. لذلك لا بدّ لي من تنبيهك أيضًا إلى أن من ضمن حقوق ابنك القانونية، أنه يمكنه أن يجبرك على مغادرة الملكية. هذا لا يعني بالضرورة أنه سيفعل، أنا واثق من الأمر، لكنني أعرف حالات مماثلة حصل فيها ذلك».

«سوف أتناقش مع تيدي بشأن رغبته». قالت فلورا بثقة. «أنا واثقة من أنّنا قادران على حل المشكلة في ما بيننا. لدي سؤال وحيد يا سيد سوندرز: لنفترض أن أختي أوريليا أنجبت لويز فقط. أو بعبارة أخرى، أنجبت أنثى فقط، أو لو أن تيدي مات في الحرب، ماذا الذي كان سيحدث حينئذ؟». أضافت فلورا بهدوء.

«حسنًا، حينئذ كانت الأمور ستصبح أكثر تعقيدًا. علينا أولًا أن نبحث عن وريث ذكر للتركة. وفي حال لم نعثر على واحد، كانت لويز ستمنح بالتأكيد فترة ولاية على هاي ويلد إلى أن تُنجب ذكرًا. وعندما يبلغ ولدها سن الرشد، يرث الأراضي ولقب النبالة. أما لو أنجبت بنتًا، فحينئذ كانت الابنة ستمنح الحياة نفسها إلى أن تلد بدورها ذكرًا. بالطبع، ما لم تنجب إحدى بنات أخت اللورد فوغان ذكرًا قبلها. وما إلى ذلك».

«فهمت».

«كما يتبين لك، لا يسعنا إلا أن نشكر الله على وجود وريث ذكر مباشر». قال المحامي وهو يطلق ضحكة مستهزئة. «أعرف كثيرًا من العائلات التي حُرمت من الذكور بسبب الحربين اللتين دمرتا أجيالًا من الآباء والأبناء. لذلك أنت محظوظة يا سيدة فوغان، لأنّ نسبكم الحقيقي في هاي ويلد قادر على الاستمرار من خلالكم، بينما هناك أسر كثيرة وجدت نفسها في وضع مماثل، لكنها لا تحظى بالانتقال السهل نفسه».

«أتساءل يا سيد سوندرز إذا كنّا أقله قادرين على إعطاء لويز جزءًا من التركة؟ فهي ستزوج قريبًا وزوجها ليس رجلًا غنيًا. وكوني أنثى أنا أيضًا»، تابعت فلورا بحذر، «لا أشعر بأنّ ولادتها كأنثى قادرة على منعها من المطالبة بجزء من ملكية أسرتها، خصوصًا أنّها توأم تيدي».

«أوافقك الرأي يا سيدة فوغان. لكن القوانين المتعلقة بالإرث قديمة وبالية. آمل فقط أن يصبح في النهاية لدى النساء، أعني بعد فترة من الزمن، الحق بوراثة كل من الأراضي والملكيات بالتساوي مع الذكور. مع ذلك، يؤسفني القول إن القرار الآن بيد ابنك. كما يؤسفني أن أخبرك بأنّ أي منكما لديه سلطة على ما يحدث لملكية هاي ويلد. من المزعج بالطبع أن يتوفّى زوجك قبل أن يعيد صوغ وصيته. فأنت الآن تحت رحمة ابنك، وكذلك أخته».

«شكرًا لك على النصيحة يا سيد سوندرز. لا شك في أنّك ستكون بعد الآن على

اتصال بي وبتيدي».

«من الآن فصاعدًا، كل الاتصالات التي سأجريها معكم ستكون مباشرة مع تيدي». أجاب السيد سوندرز، وهو يضع أوراقه مجددًا داخل حقيبتة. «مرة أخرى، تعازي الحارة على خسارتك، فزوجك الراحل كان رجلًا صالحًا. دعينا نأمل أن يكون ابنه الوريث أهلاً بتركته. نهارك سعيد يا سيدة فوغان». وبتنهيدة عميقة أشارت إلى أن الثروة المنتشرة حول تيدي قد بلغت الطرف الآخر من الحي، نهض السيد سوندرز، وغادر هاي ويلد.

بقيت فلورا جالسة في مكانها، تحدّق عبر النافذة إلى الحديقة التي قد لا تستطيع رؤيتها بعد الآن. وأدركت أن آرتشي، من خلال نواياه النبيلة حينذاك، جعل لويز تتنازل عن حقّها الشرعي الذي يمنحه لها نسبها. وعلى الرغم من تدمره في ما بعد من كون تيدي غير مؤهل لتولي إدارة هاي ويلد من بعده، لم يكن هناك ما يمكن فعله من دون الكشف عمّا ارتكبه آرتشي من خطأ.

على الأقل، شعرت بالامتنان لإدراكها بضرورة توظيف معظم ما ورثته عن والدها الحقيقي في استثمارات آمنة، بنصيحة من السيد إرنست كاسيل وبمساعده. وقد اكتسبت في السنوات التي تلت حصولها على الإرث، اهتمامًا ملمًا بأسواق الأسهم والمال، وهذا ما أخضع نقودها لتقلّبات الأسواق المالية غير المستقرّة بامتياز. باختصار، كانت فلورا امرأة ثرية.

وكان بيت المزرعة قيد الانتقال إلى روبرت ولويز. بعد أن وقّع آرتشي على إذن نقل المِلْكِيّة، وبات العقار جاهزًا لاستقبال الزوجين الشابين للعيش فيه بعد زفافهما في آب. وبطبيعة الحال، لم يكن تيدي قادرًا على الاعتراض.

كانت فلورا تعرف أنّها بمجرد أن فكّرت في احتمال فعله ذلك، فهذا يؤكد فقط خطورة الوضع.

في تلك الليلة، جلست فلورا مع تيدي ولويز ونقلت إليهما تفاصيل محادثتها مع السيد سوندرز. وراحت تراقب تعابير تيدي عن قرب، فشعرت بالارتياح لدى رؤيتها آثار الحزن والارتياح.

«حسنًا، روبرت وأنا سنكون سعداء في منزل المزرعة». قالت لويز مبتهجة. «إنّه مكان جميل. وأنا متأكدة من أننا سنحوّله إلى منزل يشبهنا».

«نعم، أنا واثقة من أنكما ستفعلان ذلك». قالت فلورا المحبة لطباع لويز الملتزمة والممتنة دائماً. وافترضت فلورا أن ابنة أختها لم تتوقع أكثر من ذلك، كونها لا تدرك حقيقة الأمور. «إذاً تيدي، هذا يعني أن كل هذا سيكون من نصيبك». وجالت يد فلورا في فضاء المطبخ على نحو مرح. «فما هو شعورك؟».

«أمي، أنا أحصل على ما هو حقّي، أليس كذلك؟». قال وهو يتظاهر بالاستحقاق. «أجل. لكنك تعرف جيداً أن ملكيّة هاي ويلد تتطلب كثيراً من الأعمال. وسيوضح لك من السيد سوندرز، أن المال شحيح للحفاظ عليها. خصوصاً المزرعة. ستحتاج إلى توظيف مدير جديد، كما ستحتاج إلى المساعدة داخل المنزل، مع انتقال لويز إلى منزلها في الصيف».

«ستكونين هنا معي لتسوية هذا كله يا أمي. يعني إلى أن أتزوج». وابتسم بمكر. «وقد يكون لديّ شخص أفكر فيه».

«أحقاً؟». شعّ وجه لويز. «سيكون أمراً رائعاً لو ننجب أطفالنا في الوقت نفسه لكي يكبرا معاً. أليس كذلك يا عزيزي تيدي؟».

«لست واثقة من أنها من النوع الذي يحب الإنجاب، لكنني متمسك بها جداً».

«يا لك من 'خبيث' يا تيدي. ما اسمها؟». سألت لويز.

«ستعرفان في الوقت المناسب. فهي ليست من الجوار».

«حسناً، بالطبع سوف أرحل من هنا عندما يصبح لديك زوجة». قالت فلورا. «يمكنني الذهاب إلى لندن للبقاء مؤقتاً في منزلنا إلى أن نتمكن من تجديد بيت الأرملة؟ لم يسكن فيه أحد منذ سنوات».

«منزل لندن سيبقى تحت تصرّفي أنا فقط من الآن فصاعداً. يمكنك أن تبقي عند أمك في شارع ألبيمارل عندما تذهبين إلى المدينة، ما رأيك؟ والآن..»، قال تيدي وهو ينظر إلى ساعته، «عليّ الخروج. قطار لندن سيغادر بعد نصف ساعة. سأقود سيارة أبي الرولز رويس إلى محطة أشفورد».

«لكنه لم يستخدمها لسنوات يا تيدي. كما أنها تستهلك كثيراً من الوقود، ونحن بحاجة إلى القسائم من أجل ملء الآلات الزراعية»، قالت لويز وهي تلقي نظرة مرتبكة إلى والدتها.

«أنا واثق من أن أملاكي قادرة على تحمّل التكاليف هذه المرة فقط. سأكون في المنزل في غضون يومين». ثم نهض ونقر أعلى رأس كل من أمه وأخته وغادر المطبخ.

بعد ذلك ساد صمت رهيب.

«لا تقلقي يا أمي». التفتت لويز إلى أمها. «ستجدين دائماً مكاناً بيننا في بيت المزرعة».



في الشهر التالي، أعدت فلورا نفسها لتودّع هاي ويلد، فيما كان غياب تيدي واضحاً، حيث يكون معظم أوقاته في منزل لندن. وناضلت فلورا ولويز من أجل تجاوز حزنهما وإدارة الملكية في ما بينهما. وكتب السيد سوندرز رسالة إلى فلورا، من باب الدبلوماسية وليس الواجب، «يعلمها فيها أن نقل ملكية هاي ويلد والمنزل في لندن ولقب النبالة إلى تيدي كان يسير بسلاسة، وأن الإجراءات ستنتهي بحلول تشرين الثاني على أبعد تقدير.

ولو أن فلورا ولويز فكرتا مطوّلاً في موضوع ميراث تيدي، فلم ترغب أيّ منهما في إقرار شكوكهما حول أهليته. وفي النهاية، حلّ حزيان وجلب معه دفقاً من الانتعاش بسبب نجاح عملية إنزال النورماندي في فرنسا. فبدلت فلورا قصارى جهدها للتركيز على تجهيزات حفل زفاف لويز الوشيك، وقررت أن تقدّم لهما هديتها عندما يصل روبرت إلى هاي ويلد لعطلة نهاية الأسبوع ومناقشة خطط ما قبل الزفاف. وكم كانت راضية لدى رؤيتها البهجة على وجهيهما عندما أخبرتهما أنها ستهديهما متجر آرثر مورستون للكتب.

«يا إلهي!». وأخرج روبرت منديلاً ومسح به عينيه. «وأنا الذي كنت قلقاً، أتساءل كيف سأحافظ على نمط العيش الذي تعودته ابنتك. حسناً، لقد أعطيتني الإجابة. لا أستطيع أن أشكرك كفاية. أنا... عاجز تماماً».

انهمرت الدموع من عيني فلورا لدى رؤيتها الثنائي الشاب سعيداً ومغرماً، يحتضن الواحد منهما الآخر. وعرفت على وجه اليقين أنها فعلت الشيء الأصحّ.

«كما أن هناك شقة صغيرة فوق المتجر، يمكنكما تحديثها. فلربما اضطررتما يوماً ما إلى البقاء في المدينة. مع أنني واثقة أن أخاك سيعرض عليك استخدام المنزل في لندن».

«أشك في ذلك يا أمي. لكن حتى لو فعل، فأعتقد أن الشقة الموجودة فوق المتجر ستناسبنا أكثر، مهما كانت حالتها».



بعد بضعة أيام، تلقت فلورا برقية من تيدي:

تزوجت بديكسي في مكتب تشيلسي اليوم. أنا سعيد جداً. سأسافر إلى إيطاليا لقضاء شهر العسل. أراكم عما قريب للاحتفال. أخبرني لويز أنني سبقتها إلى المذبح. تيدي.

قرأت لويز البرقية في صمت، وكشفت تعابير وجهها عن المشاعر التي خالجتها. «آه يا عزيزي».

«هل تعرفين الفتاة؟».

«ليس تمامًا. لكنني بالطبع سمعت عنها. مثل كل سكان لندن. عرّفتي تيدي سريعاً إليها خلال حفلة رأس السنة».

«من تكون؟».

«ليدي سيسيليا أوريلي. هي إيرلندية الأصل، من عائلة عريقة لكن بوهيمية... وهي بلا شك مثيرة للاهتمام. وحالما دخلت إلى سافوي ليلة رأس السنة، بدأ كل رجل موجود في القاعة يتصرّف بسخافة. لديها شعر أحمر يصل إلى خصرها، وطباع بدت في الظاهر حادة قليلاً. كان تيدي مهووساً بها في تلك الليلة، وأعتقد أنها سبب وجوده كل ذلك الوقت في لندن مؤخراً؟ سيشكلان بالتأكيد ثنائياً شائقاً». أضافت لويز.

«فهمت». كانت فلورا تقرأ بين السطور في أثناء استماعها إلى تعليقات لويز، ما تسبّب بهبوط معنوياتها أكثر.

«سامحيني يا أمي. لكن كما قلت لي دائماً، علينا ألا نحكم على الكتاب من غلافه. أو ممّا يقال عنه. قد تكون ديكسي «لعوب» في نظرنا، لكن من يدري ربّما تكون أيضاً شخصاً صالحاً. من المؤكد أنها ستضفي بعض الحيوية على هاي ويلد وتدفع تيدي إلى التعقّل». وظهرت على وجهها ابتسامة شاحبة.

في تلك الليلة، استلقت فلورا على سريرها، وقلبها يتألم على غياب الدفء والراحة التي كانت تشعر بهما في حضور الجسم الذي كان يرقد بجانبها كل ليلة. وبينما كانت مستلقية على وسادتها، بدأت بوضع خطط مستقبلها، متسائلة كيف يمكنها أن ترتاح من تأنيب ضميرها حيال لويز.



بعد مرور شهر، عاد الوريث الجديد إلى هاي ويلد مع عروسه الجديدة. وعلى عكس ما توقعت فلورا، فقد أُعجبت على الفور بالشابة ديكسي. واتضح لفلورا من البحة في ضحكتها أنّها مدخنة شرهة للسجائر الفرنسية، ومن بشرتها اللبنية الرائعة ونحافتها الرشيقة أنّها قوّة يحسب لها ألف حساب. كما كانت شديدة الذكاء على اعتبار رذات فعلها الساخطة على تيدي عندما كان يدلي بأي تعليق مخادع.

بعد أمسية احتفالية احتُسي فيها كثيرًا من الكحول، تحوّلت فيها المسكينة لويز إلى شخص تافه وممل فيما كانت ديكسي تعرب عن آرائها بصوت عالٍ في كل شيء بدءًا من الوضع الإيرلندي إلى الحرب، وتشارك معرفتها «الخاصة» بشخصية تشرتشل المكتتبة، تمنّت فلورا للجميع ليلة سعيدة وصعدت السلالم إلى غرفتها. هناك شعرت بالارتياح عندما فكّرت بأن آرثشي كان على الأقلّ سيقدّر رفقة زوجة ابنه الجديدة الحيوية.

في اليوم التالي، دعت فلورا تيدي إلى مكتبها. قبلته بحرارة، وطلبت إليه الجلوس.

وقبل أن يتمكن من البدء بالحديث، أخذت زمام المبادرة.

«تهاني يا تيدي. أعتقد أن ديكسي رائعة تمامًا. لقد وفّقت باختيارك، وأنا واثقة

من أننا سنصبح صديقتين مقربتين. أردت ببساطة أن أخبرك بأنني سعيدة بدفع تكاليف التجديدات اللازمة لبيت الأرملة من جيبي. وأودّ أن أعرف إذا كنت جاهزاً لبيع مئتي فدان من الأراضي الزراعية المحيطة به؟ كونها تقع على الجانب الآخر من الممر، فإنّ تلك الأراضي تتاخم أيضاً بيت المزرعة. وأنا على استعداد لأخذها وزرعها بدلاً منك. لقد استشرت وكيل الأراضي المحلي، ويمكنني أن أقدم لك سعراً مقبولاً، سيوفر لك أموالاً لصيانة هاي ويلد، ومنزل لندن».

«فهمت». أجابها تيدي وقد أظهرت التعابير على وجهه دهشته. «لا بد لي من مناقشة الأمر أولاً مع ديكسي والمحامي».

«افعل من فضلك. سأغادر هاي ويلد بعد زواج لويز».

«بالطبع».

«هذا كل ما أردت قوله».

«حسنًا». نهض تيدي. «لا تترددي في أخذ كل ما تشائين من البيت».

«احتياجاتي قليلة، ولا مانع لديّ في البدء من جديد. كل ما يمكنني قوله هو أنك حصلت على إرث جميل. هاي ويلد مكان مميز وأتمنى أن تعرف أنت وديكسي قيمته، وتحافظا عليه مثلما فعلنا أنا ووالدك».

وقبل أن تنفجر فلورا بالبكاء، خرجت من الغرفة.



في أحد أيام آب الحارة، حضرت فلورا زواج لويز وروبرت فوربس في الكنيسة التي دفنت فيها زوجها مؤخراً. وبينما كانت تصلي من أجل الزوجين، لم تقدر إلا على توسّل القوى العليا السلام الذي وُعدت به مراراً. سواء في حياتها الخاصة أو في العالم.



في أواخر فصل الخريف، كانت فلورا تتجول حول هاي ويلد وهي تسخر من

توديعها ذلك المنزل الذي كانت ستزوره مرات عدة في المستقبل. على الرغم من أنه لن يكون منزلها بعد الآن. وبعد ذلك، فكرت بحزن أن هاي وولد لم يكن يومًا ملكها، كما لم يكن ملكًا لأحد. إنه ببساطة ملك نفسه، وهذه هي حال كل المنازل القديمة. وسوف يصمد في المستقبل، بعد سنوات طويلة على موت الذين يشغلونه حاليًا.

ثم ألقت نظرة عبر نافذة المطبخ إلى الحديقة المسيّجة، وتذكرت الأوقات السعيدة التي تشاركتها مع آرثشي هناك.

«لحظات من السعادة... فكرت فلورا في نفسها. لم يدم أي منها إلى الأبد، على عكس ما يتوقعه الإنسان دائمًا. لكننا في الواقع، كل ما نحن قادرون عليه هو الاستمتاع باللحظات الآنية قدر استطاعتنا.

فيما كانت المهرة والعربة تنتظرانها في الخارج، محمّلان بمعظم أغراضها الثمينة، خرجت وحدها من الباب الأمامي وصعدت إليها.

«وداعًا...»، قالت وهي ترسل قبلة في الهواء إلى هاي وولد، إلى آرثشي، وإلى كل الذكريات. ثم أدارت رأسها، فاستغرقتها لحظة لتسامح نفسها على كل الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي، وضربت المهرة ضربة خفيفة على جنبها، وانطلقت إلى أسفل الطريق، إلى مستقبل آخر جديد.

ستار

تشرين الثاني 2007



روزا وسنتيفوليا

(وردة الكرنب - فصيلة الورديات)

أعادتنى دَقَات ساعة الجَدِّ من الماضي، مهزوزةً. نظرت إلى ساعتى فوجدتها الرابعة صباحًا. قبالتى، رأيت أورلاندو يُغلق عينيه، وبدا لي منهكًا. حاولت التفكير في كل ما أخبرني به، لكننى أعرف أنني كنت بحاجة إلى النوم قبل أن أبدأ باستيعاب تلك الأمور.

«أورلاندو؟»، ناديته بهمس لكي لا أباغته. «حان وقت النوم».

فتح عينيه فجأة، ورأيت فيهما بريقًا. «حسنًا. علينا مناقشة ما أخبرتك به غدًا». نهض ومشى إلى المدخل مترنحًا، كأنه كان مخدَّرًا، ثم التفت إليّ. «هل فهمت الآن لِمَ أفكر أنه من الأفضل أن تبقى هذه بعيدة من أخي؟ إن ماوس إنسان متهور. فحين يتأكد أن عائلتنا تعرّضت للخداع في ما يخصّ هاي ويلد، لن يجني سوى الإساءة لنفسه».

«أجل هذا ما أعتقد. قلت وأنا أشير إلى اليوميات. هل أخبئها بعيدًا؟».

«يمكنك الاحتفاظ بها. إن محاولتي التافهة في سرد مثل تلك القصة المعقّدة لم تعطك سوى رؤوس أقلام. أمّا هذه فستزوّدك بالتفاصيل. طابت ليلتك يا آنسة ستار».

«لكن ما زلت لا أفهم علاقتي بهذه القصة؟».

«يا إلهي!». قال وهو يتأملني متحرّزًا. «أنا مندهش. كنت أعتقد أن عقلك الحاذق سيكون قادرًا على استنتاج الرابط. في أي حال، سنحدّث غدًا». وغادر الغرفة ملوِّحًا بيده في وجهي.



كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما ظهر أورلاندو في المطبخ في صباح اليوم التالي.

«أشعر اليوم بثقل كل سنة من السنوات الستة والثلاثين التي مرّت عليّ، وزيدي عليها خمسين سنة». قال وهو يرمي بثقله على كرسي.

«أنا أيضًا شعرت بالتعب، بعد أن صرفت ما تبقى من البارحة وأنا أتقلّب في فراشي. تمكّنت من النوم فقط قبل أن يرنّ المنبّه بنصف ساعة، ونهضت عند السابعة لأعدّ فطور روري وأوصله إلى المدرسة».

«ما رأيك بوجبة فطور متأخرة؟ بيض بالمفّن الإنكليزي مع السلمون المدخن؟». اقترحت على أورلاندو.

«لا يسعني التفكير في فطور أروع من هذا. دعينا نتظاهر أننا في فندق ألجونكوين في نيويورك، وبأننا نقصده مباشرةً بعد خروجنا من حانة، رقصنا فيها حتى ساعات الفجر الأولى. وأنت كيف حالك اليوم يا آنسة ستار؟». «غارقة في التفكير. أحبته بصدق وأنا أجهّز البيض».

«أنا متأكد من أن إشباع المعدة سيسهّل عليك هضم الحقائق».

«ما لم أفهمه بعد هو لِمَ خَلَفَ ماوس لديّ انطباعًا أنّ فلورا ماك نيكول هي شخص مخادع. بينما هي في رأيي، امرأة رائعة».

«أتفق معك. فلولا ضخّها أموالها الشخصية في ترميم المنزل والحدائق بعد وفاة جدّتنا الكبرى أوريليا، ناهيك بإعادة بنائها المملّكية، وإدارتها خلال الحرب العالمية الثانية، لما كان أيّ من آل فوغان أو فوربس قادرًا على الإقامة فيها حاليًا. فضلًا عن الأراضي الزراعية التي اشتريتها من تيدي، وتركتها للويز وروبرت بعد وفاتها. تلك الأرض هي اليوم مصدر دخل منزل المزرعة الأساسي».

«لقد بذلت قصارى جهدها لتعويض لويز». أحبته بعد تفكير.

«أجل، ولو تعرفين كيف. خلال السنوات الصعبة التي تلت الحرب، أخبرني والدي أن فلورا هي من أبقت العائلة مجتمعة. كانت هي من عملت حسابات متجر آرثر مورستون للكتب، كما أنّها كانت حاضرة لمساعدة ديكسي في تربية ابنها

مايكل، وفي إدارة هاي ويلد. فكما يمكنك أن تتخيلي، تيدي لم يكن نافعا في أي من الدورين. لقد عاشت حياة طويلة حققت خلالها أمورًا كثيرة». «كم كان عمرها عندما توفيت؟»

«كانت في أواخر السبعينيات عندما توفيت. أخبرني والدي أنه عُثر عليها جثة هامة تحت شجرة الورد وشمس الظهيرة».

«أنا مسرورة كونها عاشت سنواتها الأخيرة سعيدة. فهي استحققت ذلك بالفعل. كيف يمكن ماوس أن يشعر أنها المسؤولة عن كل ما حدث؟ ففي النهاية، كان قرار آرتشي أن يسجل تيدي توأماً للويز في شهادة ميلاده».

«ولأسباب متفانية واضحة»، أضاف أورلاندو. «أراد بأسلوبه الخاص، أن يكرم كل الذين ماتوا في الحرب أمام عينيه. رجاءً، تذكرني أن ماوس سمع نسخة والدنا عن تلك القصة، عندما سافر لرؤيته في اليونان قبل وفاته. أذكر آنذاك أنه عاد إلى المنزل ثائراً. وإذا تذكرين جيداً، سبق أن قلت لك أن والدنا توفي بعد عامين فقط من رحيل آني. كان ذلك عندما نقلت اليوميات إلى المتجر. وأسوأ ما في الأمر أنني شعرت آنذاك، أن ماوس كان يغرق بازدياد في مشكلات الماضي». «لا بدّ من أنّه شعر بأنّ كل شيء يُسرق منه»، تمنت قائلة.

«زوجته، أبوه، ميراثه الشرعي».

«نعم. الاكتئاب أمر فظيع يا آنسة ستار». تنهّد أورلاندو. «على الأقل، هناك علة واحدة يبدو أنني لا أعاب بها».

«ربّما ينبغي أن يقرأها ماوس يا أورلاندو، ليكتشف حقيقة ما حصل. لأنني أعتقد أن فلورا هي أكبر خسارة في هذا كله».

«أتفق معك، مع أنّه كان من العار ألا تنتقل المِلْكِيَّة إلى جدّتنا لويز بالوصاية، بانتظار أن تلد صبياً في المستقبل، الذي هو والدنا، لورانس. كما أن جدّي روبرت كان رجلاً رائعاً».

«أحياناً، حبنا للأطفال يعمي بصيرتنا».

«نعم، في كثير من الحالات». وافق أورلاندو. «فلورا كانت امرأة عاقلة وعملية. كانت تعرف أن آرتشي، وبعد ذلك هي، كانا مذنبين بسبب الكذبة المتعلقة بحق تيدي الطبيعي. نشأ على اعتقاد أنه الوريث الطبيعي. في النهاية لم يكن خطأه. ولو حاولت حرمانه من الميراث، كان هناك احتمال أن تفقده إلى الأبد لضياعه في ملاهي لندن المترفة، والانشغال بقية حياته بالكحول والنساء والملاهي الليلية. فوفق يومياتها، هذا ما كان يفعله في أي حال في هاي ويلد. كانت زوجته ديكسي هي من أنقذت الموقف. لقد أنجبت مايكل، والد مارغريت، وحافظت على الممتلكات فترة من الوقت في ما كان تيدي يسكر حتى الثمالة. يذهلني أن أكتشف أن هاي ويلد أنقذت على يد أجيال متتالية من الإناث القويات».

«والآن، روري سيرث اللقب والملكية من خلال مارغريت». أضفت وأنا أضع الفطور على الطاولة وأجلس إليها. ثم التقط أورلاندو سكينه وشوكته وبدأ في تناول الطعام.

«آه، هذا أفضل منشط. شخصيًا، أشعر بسعادة غامرة لأن السيدة فلورا أورثت متجر الكتب لروبرت ولويس».

«لقد أحسن إدارته طوال السنوات القاتمة التي تلت الحرب إلى أن استلمته في النهاية، وهي إرث رائع. يقول ماوس إن قيمة العقار هناك تكاد تفوق ما تبقى من هاي ويلد».

«لم تنجب فلورا أولادًا، أليس كذلك؟». أفصحت أخيرًا عن فكرة أزعجتني منذ ساعات الصباح الأولى.

«كلا». ونظر إليّ أورلاندو. «هل ربطت الأمور أخيرًا؟»
«أعتقد ذلك».

«حسنًا، إنه أمر مخزٍ يا آنسة ستار. فبرأيي كان من السهل أن أصدق أنك أرستقراطية بريطانية راقية. لكن الحقائق المطروحة تُظهر أن ليس هناك ذرة دم ملكي في عروقتك».

«ولم أعطاني والدي قطّة فابرجيه كدليل؟».

«آها! هذا أكثر ما يحيرني منذ اللحظة التي أخبرتني فيها عن سعيك. ممّا قلته لي عن أبيك، وسجّلي كلامي جيّدًا لأنني سمعت جيّدًا كل ما قلته، وقد أضيف ما لم تقوله أيضًا، أعتقد أن هناك سببًا وجيهًا ليفعل ذلك».

«وما هو ذلك السبب في رأيك؟». وفكرت في أنني أعرف السبب، لكنني أردت أن أسمعه من أورلاندو أولًا.

«كان بحاجة إلى دليل حسيّ يعيدك قطعياً إلى ذريّة آل فوغان، بدلاً من فوربس. وتيدي هو ابن السيدة فلورا بالتبني. لذلك من البدهي على المرء أن ينظر في ذريتها...».

«هل تقصد الطفل غير الشرعي لفتاة الأرض؟». أعربت أخيراً عن شكوكي.
«بالضبط! كنت أعرف أنك لن تخذليني». ووضع أورلاندو قبضتيه تحت ذقنه وراح يتفحّصني. «لقد أخبرتني في ذلك اليوم المصيري الذي أعادك إلى متجري لتستعيدي مجلدك البلاستيكي الثمين أن الإحداثيات المذكورة على الأسطرلاب الكروي تفيد أنك وُلدت في لندن».

«أجل».

«وأين عاشت فتاة الأرض التي تخصّنا؟».

«في الطرف الشرقي للندن».

«تمامًا. وما العنوان الذي حدّدته إحداثياتك عندما بحثت عنها على الإنترنت؟».

«شارع ماري، إي 8».

«الذي يقع...».

«في هاكني».

«صحيح. وهو الطرف الشرقي للندن!». أمال أورلاندو رأسه إلى الوراء وضرب الطاولة بيده وهو يكاد يطير من الفرح والاعتزاز من بصيرته وذكائه. الأمر الذي أزعجني، لأنّ تاريخي لم يكن موضوعًا للضحك. «سامحيني يا آنسة ستار، لا يمكن المرء إلا أن يجد تلك المفارقة مسلية. لقد جنّت إليّ مع قطة فابرجيه، ربطتك

مباشرة بملك إنكلترا. ثم اكتشفنا أن لا علاقة لك بالملك أو حتى بعائلة فوغان. وفي النهاية، تبين لنا أنك الحفيدة غير الشرعية لذلك المتطفل الخبيث على أملاكنا».

فجأة شعرت بعيني تغورقان بالدمع. على الرغم من أنني كنت متفهممة لتحليل أورلاندو المنطقي، لكن حقيقة اعتباره الأمر برمته مسلياً جرحني في الصميم. فاحتجبت بغضب:

«لا يهمني من أين آتي. أنا...». فيما تضاربت، داخل دماغي المنهك، ألف إجابة عفوية لادعة على سخريته، لكنني نهضت عن الكرسي وقلت له: «عذراً، أنا ذاهبة في نزهة».

أمسكت سترة قديمة وزوج أحذية مطاطية كانت في الردهة، وارتديتها، وخرجت إلى الجوار المتجمّد في ذلك الصباح. وما إن عبرت البوابة، حتى بدأت أوبّخ بقسوة پا سولت حيثما كان يقبع في السماء، وأنا أحلّل حُججه. فعلى أحسن تقدير، كنت في الظاهر الحفيدة غير الشرعية لرجل سرق هاي ويلد عن غير قصد من بين يدي وريثته الشرعية. وفي أسوأ تقدير، كنت لا أحد. ولا علاقة لي بأي من هذا كله.

وفيما انعطفت إلى اليمين لأواصل مشيي على طول المسار، قادتنني قدمي تلقائياً إلى طريق التوت البري الأسود، كما كنّا نسّميه أنا وروري. وغشّت الدموع رؤيتي فيما بقيت ضحكات أورلاندو تتردد في أذني. هل قصد إذلالني؟ هل استمتع بحقيقة أنه استطاع أن يثبت لي بوضوح أنني آتية من لا شيء؟ وأنّ دمه الأرستقراطي المزعوم يجعله متفوقاً عليّ؟ لمّ كل هذا الهوس بالمكانة الاجتماعية لدى البريطانيين؟

«مجرّد اندفاعهم لاجتياح العالم ليصبحوا في النهاية إمبراطورية على رأسها عائلة مالكة لا يعني شيئاً. فالناس متساوون مهما اختلفت أصولهم، همست بغضب إلى عقق رفع رأسه نحوي، ثم رمش بعينه قبل أن يطير. وهذا الأمر لا أهمية له في سويسرا. قلت لنفسني. ولم يكن ليهمّ پا سولت. كنت واثقة من أنه لن يهتمّ له. إذاً لماذا؟».

وفيما كنت أسير في طريقي، كرهت نفسي بسبب يَأْسِي الناتج عن حاجتي إلى الشعور بالانتماء إلى مكان ما، أو شخص ما غير سيسي، وبعيد من العالم السوربالي الذي أنشأه يا سولت لسرب حمامه المتنوع في آتلانتيس، وإلى بناء عالم خاص بي يشعرني بأنني أنا من ينتمي إليه فقط.

وبعد أن وصلت إلى حقل مفتوح، جلست تحت جذع شجرة، ووضعت رأسي بين يدي، وتركت الدمع يسيل من عيني. في النهاية، تماكنت نفسي ومسحت عيني بقسوة.

هيا، يا ستار، تحكمي بعواطفك. هذا لن يوصلك إلى أي مكان. «مرحبًا يا ستار. هل أنت بخير؟».

التفتُ نحو الصوت، ورأيت ماوس يقف على بعد أقدام مني. «نعم، أنا بخير». «لا يبدو عليك. هل تريدين كوبًا من الشاي؟».

أجبت به حركة في الكتف، كان من السهل اعتبارها حركة صيانية. «حسنًا، لقد وضعت لتوي الغلاية على النار». قال وهو يشير خلفه. أدركت حينذاك أنني همت عشوائيًا إلى أن دخلت الأرض التي تقع خلف بيت المزرعة. «أنا آسفة». تمتمت له.

«لِمَ ستأسفين؟».

«لم أركز في الاتجاه الذي كنت أمشي فيه».

«لا مشكلة. هل تريدين كوبَ شاي أم لا؟».

«عليّ العودة إلى المنزل لأغسل الصحون».

«لا تكوني سخيقة». اقترب ماوس مني، ثمَّ أمسك بمرفقي، وسار بي من دون تكلف إلى المنزل. وعندما وصلنا إلى المطبخ، ضغط عليّ لأجلس على الكرسي. «اجلسي، سأسكب لك الشاي، مع الحليب وثلاث ملاعق سكر، أليس كذلك؟».

«نعم، شكرًا».

«تفضلي».

ثم وضع الشاي المغلي أمامي. لم أقدر أن أحمل نفسي على النظر إليه. بدلاً من ذلك، حدّقت في تعرّق خشب الصنوبر الذي صُنعت منه الطاولة القديمة. وسمعت ماوس يجلس قبالي.

«أنت ترتجفين».

«الجوّ بارد في الخارج».

«أجل، هذا صحيح».

ثم ساد الصمت بيننا لبعض الوقت. فارتشفت الشاي.

«هل ترغيبين في أن أسألك عمّا حدث؟».

مرة أخرى، أجبته بهز كتفي، وأنا أميل إلى التصرّف مثل مراهقة متمرّدة.

«حسنًا، كما تريدن».

أمسكت الكوب بين يدي، وكنت قد بدأت أشعر بدفء الغرفة يخترق عروقي المتجمدة. لا بدّ من أنّه ملأ خزّان الفيول منذ آخر مرّة كنت فيها هنا.

«أعتقد أنّني أعرف لِمَ أرسلني والدي إلى متجر آرثر مورستون للكتب». قلت له في النهاية».

«تمام. هل لأمر جيد؟».

«لا أعرف». قلت وأنا أمسح أنفي بظاهر يدي قبل أن يوشك على الرشح بشكلٍ مقرف داخل كوبي.

«عندما جئت أول مرة إلى المتجر وأخبرت أورلاندو بقصّتك، اتصل بي على الفور».

«آه ممتاز»، قلت باقتضاب، إذ لم يعجبني مناقشة الأخوين أموري من وراء ظهري.

«كفّي عن هذا يا ستار. لم نكن نعرف من تكونين. لذلك كان من الطبيعي أن يخبرني عنك. ألن تخبري أختك لو كنت مكاننا؟».

«بلى، لكن...».

«لكن ماذا؟ على الرغم مما سمعته أو رأيته مؤخرًا هنا، اعلمي أنّني وأورلاندو

قريبان جدًّا من بعض. فنحن شقيقان. ومهما حدث بيننا، فالواحد منّا موجود دائماً من أجل الآخر».

«هل تقول لي إنّه لا يمكن للدم أن يتحوّل إلى ماء؟». أجبتّه باستخفاف، وأنا أفكّر في أن الشخص الوحيد الذي أعرفه اليوم وواثقة من أنّه من دمي هو أنا. «أتفهم جيّدًا أن تشعرني على هذا النحو في الوقت الحاضر. على فكرة، كنت أعرف أن أورلاندو من أخذ تلك اليوميات». «وأنا أيضًا».

التقى نظره بنظري عبر الطاولة وتبادلنا ابتسامة رقيقة. «أعتقد أن كلّ واحد لعب على الآخر. كنت آمل فقط أن تعرفي مكانها منه. وكنت أعرف أيضًا لم أخفها عني». «لم أفعل، حتى ليلة البارحة. اعتقدت في البدء أنه فعل ذلك لأنك أزعجتني في مسألة بيع المتجر. لكن على ما يبدو كان يحاول حمايتك». «إذن، من يظنك تكوينين؟».

«اسأله هو، سيخبرك بنفسه. فهو أخوك». «لكنك لاحظت أنه لا يحدثني مؤخرًا». «سوف يفعل. لقد سامحك». ثمّ نهضت بعد أن شعرت بالتعب من كل تلك المحادثات. «يجب أن أذهب». «ستار من فضلك».

مشيت إلى الباب، لكن حين وصلت إلى المقبض، أمسك ذراعي. «اتركيه». «انظر، أنا آسفة».

هزرت رأسي. ولم أستطع الكلام. «أنا أفهم شعورك».

«لا، لا تفهم شيئًا»، قلت له وأنا أصرُّ أسناني. «لا بل أفهمك تمامًا. لا بدّ من أنّك شعرت بأننا استغللناك جميعنا. فأنت مثل فلورا، بيدق في لعبة لم تعرفي قواعدها».

ما كنت لأصف الأمر بشكل أفضل. وفيما رمش جفناي من شدة الدموع، تنحنحت، وقلت له: «يجب أن أعود إلى لندن. هل تستطيع إخبار أورلاندو برحيلي، ولا تنسَ إحضار روري من المدرسة عند الثالثة والنصف؟».

«بالطبع أستطيع، لكن يا ستار...».

مدّ يده نحوي، لكنني تخلصت بقوة من قبضته.

«حسنًا»، قال وهو يتنهد. «هل تريدني أن أوصلك إلى المحطة؟».

«لا شكرًا. سأطلب سيارة أجرة».

«كما يحلو لك. لكنني آسف. فأنت لم تستحقي... نا».

عبرت الباب وأغلقت خلفي وأنا أتألم بشدة. كنت أبذل قصارى جهدي لكي أكبح أي رغبة يائسة في لطم ما تلمسه يداي. وعدت إلى هاي ويلد. لحسن الحظ، لم ألتق بأورلاندو في المطبخ، ولاحظت أنه رتب تاركًا الطعام في مكانه. اتصلت بمكتب سيارات الأجرة، وطلبت سيارة لتبعدني بسرعة عن هذا المكان. ثمّ أسرعرت إلى الطبقة العلوية ورميت أغراضي داخل حقيبة القماش.

بعد خمس عشرة دقيقة، كنت داخل السيارة أبتعد عن هاي ويلد، وأقنع نفسي أن ما يهمّ الآن هو المستقبل، وليس ماضي. كرهت حقيقة أن پا سولت، الذي أحببته ووثقت به أكثر من أي شخص آخر، لم يتسبّب لي إلّا في مزيد من الألم. كان درسًا صارمًا علّمني ألا أثق بأحد بعد الآن.

عندما وصلت إلى تشارينغ كروس، سرت مباشرة إلى محطة الحافلات التي كانت ستأخذني إلى باترسي. وقفت هناك بعض الوقت. فلم أتحمّل فكرة العودة مرة أخرى إلى منزل سيسبي، بعد محاولتي الفاشلة مرّة أخرى في العثور على حياة خاصة، ونشوتها المحتمّة من كوني لم أنجح بذلك، فكّرت بدناءة.

ثم وبّخت نفسي على التفكير بذلك المنطق، على الرغم من أنني كنت واثقة أن هناك جزءًا منها سيكون بلا شك سعيدًا بعودتي إليها لأكون لها وحدها. كنت أعرف أيضًا أنها أكثر شخص أحبّني في العالم، ويريد أن يفرّج عني الألم. لكن هذا

يعني أن عليّ إخبارها بما اكتشفت، وفي الواقع لم أكن مستعدة بعد للبوح به إلى أي أحد، وحتى هي.

وبدلاً من الذهاب إلى باترسي، ركبت حافلة متجهة إلى كنسينغتون، وترجّلت أمام متجر آرثر مورستون للكتب، حيث بدأت هذه القصة المؤسفة. بعد عثوري على المفاتيح داخل حقيبة الظهر، فتحت الباب ودخلت غرفة، كان الجو فيها أكثر برودة من الخارج. كنّا قد تقدّمنا جدّاً في ساعات الليل، فرحت أتحمس بأصابعي لأتمكّن من إشعال النور، ثمّ أغلقت الدرفات القديمة عبر النوافذ. وبعد ذلك أشعلت النار. كانت يداي ترتجفان من البرد. وفيما جلست على كرسيّ المعتاد، وقد بدأت الحرارة تدفئ أصابعي، حاولت أن أبرّر لنفسي البؤس الذي شعرت به. لأنني في أعماقي، كنت أعرف أنّه غير عقلاني. فأورلاندو لم يقصد إيذائي، بعد أن قصد مساعدتي بإخباري القصة كاملة. لكنني كنت متعبة جدّاً، ومرتبكة، وحساسة لدرجة بالغت فيها برودة فعلي.

في النهاية، أخرجت كل ستراتي من الحقيبة لكي أغطّي بها، وتكوّرت فوق السجادة قبالة النار وغفوت.



استيقظت وأنا ما أزال بالوضعية نفسها، وتفاجأت أن الساعة قاربت التاسعة. لا بدّ من أنّي رحت في نوم عميق. نهضت لأحضر كوب قهوة ينعشني. وبعد أن شربتها سوداء، حلوة، ساخنة، شعرت بالارتياح. كنت قادرة على أن أربض في هذا المكان في الأيام القليلة الآتية، فكرت بامتعاظ؛ إذ كنت أحتاج فقط إلى السلام والمساحة في الوقت الحالي. ثمّ أخرجت الحاسوب المحمول من حقيبة القماش وشغلته. كانت الإشارة ضعيفة في الطبقة الأرضية، لكنها على الأقل كانت شغالة. ذهبت إلى غوغل إيرث لأدخل مرة أخرى إحداثياتي وأتأكد من أنّي لم أرتكب أي خطأ. وها هو العنوان من جديد: شارع ماري، إي 8.

هذا يعني... بعد كل الذي اكتشفته، هل من المعقول أن يكون من قبيل المصادفة أن تعيش تيسي سميث في هاكني؟

أخرجت الدفتر حيث بدأت أكتب روايتي، وقلبتني إلى الصفحة الخلفية وأنا أفكر كيف أن حكايتي الخاصة أصبحت على وجه السرعة أكثر أهمية من أي رواية خيالية كنت قادرة على تأليفها.

رحت أوزع الأسماء في عمودين؛ أدرجت في الأول نسل لويز، وفي الثاني نسل تيدي. وأدرجت أن نسل فوربس الذكوري الحالي كان هو أيضاً مرتبطاً بفلورا بطريقة غير مباشرة، من خلال أختها أوريليا. فلورا كانت خالة أورلاندو وماوس الكبرى.

ولكن... إن كنت حفيذة تيسي، فهذا يعني أنني مرتبطة مباشرة بمارغريت من خلال تيدي. وبالتالي، بروري. وهذا ما جعلني على الأقل أبتسم. لكن هناك معضلة أخرى الآن، وهي مدى رغبتني في مواصلة بحثي، وإلى أي مدى. من المرجح أن يكون والداي حيين. نهضت لأتجول في الغرفة، وأنا أحاول اتخاذ القرار فيما كنت أريد فعله. وبالنظر إلى أنني كنت أعرف اسم تيسي، والمنطقة التي عاشت فيها، رجحت أن أكون قادرة على العثور على اسم الطفل الذي ولدته في عام 1944، أو أي طفل آخر بعد ذلك التاريخ.

لكن... لم يتخلّى والداي عني؟

فجأة، توقفت عن تعرجاتي الذهنية إثر سماعي أصواتاً عند الباب الأمامي، وولوج مفتاح في قفل الباب.

«تبا!». ركضت نحو المدفأة في محاولة يائسة لإخفاء دليل إقامتي هنا البارحة. وفتح الباب ليكشف عن ماوس، متبوعاً برجل صيني منمنم، تعرفت إليه من آخر زيارة لي إلى متجر التحف المجاور.

«مرحباً يا ستار»، قال ماوس وقد بدت المفاجأة على وجهه.

«مرحباً». قلت له وأنا أضع وسادة فوق صدري.

«سيد هُو، هذه ستار، مساعدتنا في المتجر. لم أعرف أنها ستكون موجودة هنا اليوم».

- «حسنًا، اعتقدت أن عليّ المجيء لأتفقد المتجر». أجبتّه وأنا أسير نحو النافذة بسرعة لأفتح الدرف.

«شكرًا لك»، قال وهو يلقي نظرة باتجاه المدفأة حيث تكدّست السترات التي استخدمتها لتدفئة نفسي ليلة البارحة، بجانب حقيبة القماش المفتوحة.

«هل أشعل النار؟ الجو بارد هنا». سألتّه.

«ليس بالنسبة إلينا، كلا. السيد هوّ يريد إلقاء نظرة على الشقّة فوق المتجر».

«حسنًا، بما أنّك أصبحت هنا، سأرحل». قلت وأنا أنحني فوق أغراضي لأضعها داخل الحقيبة.

«في الواقع، كنت سأزورك في شقتك. لقد أعطاني أورلاندو شيئًا لك. انتظري قليلًا، لن نتأخر». قال وهو يستدير إلى السيد هوّ ليقوده إلى الجزء الخلفي من المتجر، ثمّ سمعتهما يصعدان الدرج.

في أي حال أشعلت النار، وأنا أشعر بخدودي تحترق من شدة الإحراج. وعندما عادا إلى الطبقة الأرضية، شغلت نفسي في الجزء الخلفي للمتجر بينما تابعا حديثهما عند الباب الأمامي، وأنا أحاول الاستماع إلى التفاصيل.

فُتح الباب، ثمّ أغلق مجددًا ليسمح للسيد هوّ بالخروج، وبعد ذلك أتى ماوس إليّ.

«كنت هنا البارحة، أليس كذلك؟».

لم أستطع تمييز ذاك الذي رأيته في عينيه الخضراوين، إذا ما كان غضبًا أم قلقًا. «نعم، أنا آسفة».

«لا مشكلة في ذلك. كل ما أهتمّ له هو سبب عدم ذهابك إلى منزلك».

«أنا فقط... أردت بعض السلام».

«فهمت».

«كيف حال روري؟».

«إنه يفتقدك. لقد أعدته من المدرسة أمس. بعد أن دخل فراشه، جلسنا أنا

وأورلاندو ندردش قليلًا. فأخبرته عن عرض السيد هُو. وأخذ الأمر بإيجابية أكبر مما ظننته سيفعل في البدء. وبدأ لي أكثر قلقًا على انزعاجك منه». «جيد. أنا سعيدة من أجلكما أنتما الاثنين». كنت قادرة على سماع النكد في صوتي.

«توقفي يا ستار. لقد أشرفت على الوقوع في المبالغة. وأعرف الشعور عندما يقع المرء في المبالغة». قال بلطف. «أورلاندو كان قلقًا بشأن حالتك الذهنية، وأنا أيضًا. تركنا لك رسالتين على هاتفك المحمول، لكنك لم تجيبي». «لا يُسمح باستخدام الهواتف المحمولة في المتجر. لذلك لم أفعل». ورأيت ابتسامة تزحف إلى شفتيه.

«في أي حال»، قال ماوس وهو يضع يده في جيب سترته. «هذه لك». وسلمني مغلفًا بنيًا كبيرًا. «أخبرني أورلاندو أنه أجرى بعض التحريات نيابة عنك». «حسنًا»، قلت له وأنا أَدس المغلف في مقدمة حقيبة القماش وأحمل حقيبة الظهر. «اشكره نيابة عني».

«ستار، من فضلك... اعتني بنفسك. على الأقل لديك أختك». لم أجب.

«هل اختلفتما؟». سألني في النهاية. «لذلك لم تعودى البارحة إلى المنزل؟». «لا أعتقد أنه يجب أن نثق ببعضنا إلى هذا الحد». قلت له على نحو مفاجئ. «عندما التقيتها، بدت لي بوضوح غيرة عليك». «هي كذلك. لكنها تحبني».

«كذلك أنا وأورلاندو، نحب بعضنا وإن اختلفنا. لو لم يقف إلى جانبي في السنوات القليلة الماضية، لا أستطيع تخيل ما الذي كان سيحل بي. قلبه طيب جدًا، تعرفين ذلك. لا يقدر على إيذاء ذبابة». «نعم أعرف».

«ستار، لِمَ لا تفتحين المغلف الذي أرسله لك؟».

«سأفتحه».

«أعني هنا الآن. من الجيد أن تفتحيه بوجود شخص إلى جانبك».

«لَمْ أصبحت فجأة لطيفاً معي؟». سألته بهدوء.

«لأنني أستطيع أن أرى تألمك. وأريد مساعدتك. كما ساعدتني في الأسابيع القليلة الماضية».

«لا أعتقد أنني فعلت».

«أنا من يقرر إن فعلت أم لا. لقد عاملت الجميع بلطف، وصبر، وتسامح، في حين أنني شخصياً لم أكن أستحق ذلك. أنت شخص رائع يا ستار».

«شكراً لك». قلت له وأنا ما أزال أحوم في حيرة بحقيقة القماش.

«انظري، لَمْ لا تقترين من النار وتجلسين هناك بينما أصعد أنا إلى فوق لأجمع الأغراض التي طلبها أورلاندو لكي أخذها معي إلى هاي ويلد؟».

«حسناً»، قلت له بعد أن استسلمت، إذ شعرت ببساطة بأن ساقى قد أصبحتا مثل الهلام. وعندما اختفى ماوس خلف الباب، أخرجت المغلف من الحقيبة وفتحته.

هاي ويلد

أشفورد، كنت

1 تشرين الثاني/2007

عزيزتي ستار،

أكتب لك هذه الرسالة لأطلب المغفرة منك على طريقتي الخرقاء في التحدث إليك أمس. صدّقيني، لم أكن أسخر منك، فهذا بعيد كل البعد من الواقع. كنت مستمتعاً بسخرية الحوادث ومفارقة الوراثة فحسب.

الآن عليّ الاعتراف أنني، منذ أن خطوت أول مرة داخل المتجر وأظهرت لي قطعة فابريجيه وإحداثياتك، قمت بتتبع ماضيك. لأنه، بطبيعة الحال، قد يكون مرتبطاً على نحو معقد بماضينا. أرفق هذه الرسالة

بمغلف آخر يحتوي على الحقائق كلها التي عليك الاطلاع عليها عن عائلتك الحقيقية.

لن أقول أكثر (وهذا من غير الطبيعي بالنسبة إلي)، لكن كوني مطمئنة إلى أنني هنا لمساعدتك إذا احتجت إلى مزيد من التوضيح. مرة أخرى، أرجو المعذرة. كما أن روري يرسل إليك سلامه.
صديقك والمعجب بك،
أورلاندو

مررت أصابعي فوق الغلاف الخشن الباهظ الثمن الذي ختم بالشمع. هذا يعني أنني كنت أمسك بين يدي بالحقيقة المطلقة التي أبحث عنها فيما يخص ولادتي. وبدأت أصابعي ترتعش كما شعرت بمرض شديد وبالذوار.
«أأنت بخير؟». سألني ماوس عندما وجدني أسند رأسي إلى عقد أصابعي.
«أجل... كلا». اعترفت له. مشى نحوي بينما كان رأسي يدور، ووضع يده على كتفي.

«مسكينة يا ستار. يعتقد الدكتور ماوس أن المريض يعاني الصدمة، والانفعال، ومن شبه المؤكد الجوع. لذلك، بما أنه وقت الغداء، سأعبر الطريق لأقدم هذه المرة الطعام لك بنفسك، من باب التغيير فحسب. لن يطول الأمر».

شاهدته يغادر، ورغماً عني تمكنت من رسم ابتسامة على وجهي، وأنا أترد صورة فأر المجاري من ذهني، أقله اليوم، وأستبدل بها صورة مخلوق أبيض ناعم ذي أذنين لطيفتين وأنف وردي.

«اجلسي هناك ولا تبرحي مكانك»، قال ماوس عندما دخل من الباب بعلب الألومينيوم. «اليوم، أنا سأهتم بك».

على الرغم من أنني ارتبت قليلاً، بالنظر إلى سجله السابق، لكنني سررت أن يعتني بي شخص مثله. فيما كنا نأكل، ونشرب السانسيرى الذي أصابني مباشرة في

رأسي، رحت أبحث عن دافع خفي وراء تصرفاته، إلا أنني لم أتمكن من العثور على واحد. ثمَّ خطر سؤال في بالي.

«من سيصطحب روري بعد ظهر اليوم؟».

«مارغريت. لقد عادت إلى المنزل من فرنسا في وقت متأخر البارحة. لم أرها من قبل سعيدة بهذا القدر. أمر لا يصدق، كيف يمكن المرء أن يبقى على حاله سنوات، وفجأة تهبَّ موجة عارمة من الحوادث فتدفعك إما بعيدًا من المحيط، وإما تعيدك بلطف إلى داخله؟ من الواضح أن زلزالًا قد أصابنا مؤخرًا نحن آل فوغان وفوربس. ويبدو أنك كنت العامل المحفّز».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«أعتقد أنها مجرد مصادفة».

«أو أنه القدر. هل تؤمنين بالقدر يا ستار؟».

«في الأغلب لا. لأننا نحن من نصنع الحياة».

«حسنًا، على مدى السنوات السبع الماضية، كنت أؤمن أن المعاناة كانت جزءًا من قدري. لذلك انغمست فيها بنسبة مئة في المئة. في الحقيقة، كنت غارقًا فيها، ولن أستطيع تعويض الضرر الذي تسببت به لعائلتي. الآن وقد فات الأوان».

شاهدت عينيه تكتئبان وتستعيدان تعابير التوتر.

«بإمكانك أن تحاول».

«نعم، بالطبع. في أي حال، هذا يكفي بالنسبة إليّ. هل ستفتحين هذا المغلف حتى نتمكن من مناقشة الأمر، أم لا؟».

«لا أعرف. أخشى أن يخبرني فقط أن والدي قرأ التخلي عني. ما رأيك؟».

«ليس لدي أدنى فكرة».

«إمّا هذا، وإمّا أنّهما متوفيان. إذا تبين أنّهما تخليا عني، لا أعرف كيف يمكنني مسامحتهما؟ كيف يمكن أي أب أو أم أن يتخليا عن طفلها؟ خصوصًا إذا كان طفلًا رضيعًا، وهذا ما كنت عليه عندما وصلت إلى أتلانتيس».

«حسنًا»، قال ماوس وهو يتنهد، «ربّما عليك أن تسمعي الأسباب قبل أن

تحكمي. فبعض الآباء يفعلون مثل هذه الأمور فقط لأنهم لا يتمتعون بكامل قواهم العقلية».

«هل تعني مثل اكتئاب ما بعد الولادة؟».

«على ما أعتقد، نعم».

«حسنًا هذا مختلف تمامًا عن حالات الفقر وعدم العثور على الطعام لإعالة الطفل، أو التشرّد على الطرقات وعدم امتلاك سقف يحمي رأسه».

«وهو كذلك. في أي حال، من الأفضل لي أن أعود إلى هاي ويلد. كما تعرفين لدي بعض الأعمال لأنها».

«أجل».

«إذا كان هناك ما يمكنني مساعدتك فيه»، قال لي وهو ينهض، «اتصلي بي».

«شكرًا لك». أجبته وأنا أنهض بدوري. وأحسست فجأة بتحول في عواطفه. «وشكرًا على الغداء».

«لا تشكريني على شيء يا ستار. فأنا لا أستحق الشكر. الوداع».

قال هذا، وغادر.

جلست في مكاني، أهزّ برأسي وأشتم نفسي على سذاجتي.

ما خطب ذلك الرجل؟ هو قادر على الانتقال من حالة إلى أخرى في غمضة عين. أعرف أن هناك شيئًا ما... شيئًا ما يطارده.

41

في تلك الليلة، فيما كنّا أنا وسيسي نتناول الطعام معًا، هيمن علينا شعور بعدم الارتياح. في العادة، كانت سيسي تفصح عن كل ما يجول في ذهنها، لكن في تلك الليلة، بدت عيناها مثل قلعة يصعب اختراقها.

«أنا ذاهبة للنوم. فغداً لدي يوم طويل». قالت وهي تنهض لتصعد إلى الطبة العلوية. «شكرًا على العشاء».

أزلت الأطباق عن المائدة، ثم خرجت أتأمل النهر الذي يتدفق تحتي، على الرغم من برودة الطقس في تلك الليلة. رحت أفكر في ماوس وفي نظرية المحيط. أنا أيضًا كنت أخضع لتحوّل زلزالي، وقد طال علاقتي بسيسي. وفكرت أيضًا في المغلف الذي كان ما يزال مغلقًا داخل حقيبة الظهر، وكنت أتوق لفتحه. فشعرت بحاجة إلى التحدّث في الحال إلى شخص أثق به. شخص من النوع الذي لا يطلق أحكامًا عشوائية، شخص متروّ، يقدّم إليّ نصيحة معقولة.

مارينا.

أخرجت هاتفي من جيبي الخلفي لأتصل بالمنزل، منزلي الحقيقي، وانتظرت أن ترفع السماعة، كما يحصل دائمًا عندما تتصل بها إحدانا، مهما كان الوقت متأخرًا. لكن الليلة، حوّلت إلى البريد الصوتي، وأعلمتني رسالة الاستقبال الآلية أنّه لا يوجد أحد في المنزل. فشعرت بهبوط في قلبي. بمن أستطيع الاتصال غير مارينا؟

مايا؟ آلي؟ تيغي؟ بالتأكيد ليس إلكترا... على الرغم من حبّي الكبير لها

وإعجابي بما أنجزته في حياتها، لكن التعاطف لم يكن من طبيعتها. كان والدي يقول دائماً عنها أنها «ضيقة الخلق»، كما أنني وسيسي ندعوها فيما بيننا بالشقيّة. في النهاية، جرّبت الاتصال بآلي، لوجودها على الأقل، على عكس مايا، في النصف الشمالي من الكرة.

وعند الرنة الثالثة، أجابت.

«ستار؟».

«مرحبًا. آمل ألا أكون قد أيقظتك؟».

«كلا. هل أنت بخير؟».

«نعم. وأنت؟».

«أنا بخير».

«يسرّني ذلك».

«عندما أراك، سأخبرك بكل شيء. والآن، كيف يمكنني مساعدتك؟». تابعت.

ابتسمت إزاء ردّة فعل أختي الكبرى العفوي. كانت تعرف أنّه عندما تتصل بها شقيقاتها الصغيرات، فلم يكن ليسألنّ عن صحتّها. وقد خضعت في النهاية للأمر، بما أنّه دورها ويحتّم عليها تأدية مهام «القائد» في عائلتنا.

«لديّ مغلف. لكنني خائفة من فتحه».

«آه. لماذا؟».

شرحت لها باختصار مفيد كل الموضوع.

«فهمت».

«بماذا تشيرين عليّ أن أفعل؟».

«بالطبع افتحيه!».

«أحقّا؟».

«ثقي بي يا ستار، مهما سيكون الأمر مؤلماً، أراد يا أن يساعدنا على الاستمرار

في هذه الحياة. عدا عن ذلك، إن لم تفتحيه الآن، ستفعلين حتمًا في المستقبل، فأنت تؤجلين فحسب. ولا تشكّي في أنك ستفتحينه ذات يوم».

«شكرًا يا آلي. وكيف حال النروج؟».

«رائعة... رائعة جدًا. أنا... لديّ بعض الأخبار السارة».

«مثل ماذا؟».

«أنا حامل». قالت من دون تفكير، «من ثيو. مارينا تعرف، لكنني لم أخبر بعد أيًا من شقيقاتنا».

«آلي»، قلت لها وأنا أشعر بألم في حلقي. «هذا حقًا رائع! يا إلهي! يا له من خبر مذهل».

«أليس كذلك؟ أوه، كما أنني عثرت على عائلتي البيولوجية هنا في بيرغن، باستثناء أهمّ شخصين، ولقيت عندها الدعم، كما أن هناك حياة جديدة في طريقها إليّ».

«أنا سعيدة من أجلك يا آلي. فأنت تستحقين ذلك، أنت شجاعة جدًا».

«شكرًا لك يا ستار. آه، سأشارك في حفل موسيقي، سأعزف على الناي هنا في بيرغن، في قاعة غريغ، في السابع من كانون. وسأدعو جميع شقيقاتنا إليه، لكن أحب أن تكوني أنت خصيصًا حاضرة. وسيشي إذا كانت في الجوار».

«أعدك أن آتي».

«مارينا أيضًا قالت إنها ستحضر، لذلك ربّما تناقشين معها ترتيبات السفر؟ أنا سعيدة يا ستار، بعد أن شككت ذات يوم بأنني سأكون كذلك بعد... ما حدث. لكن اسمعيني، بالعودة إليك، كل ما يمكنني نصحك به هو أن من الضروري أن تتسلّحي بالشجاعة اليوم، إذا كنت ترغبين في تغيير حياتك».

«حسنًا سأفعل».

«وأنتهك إلى أن الأمر قد لا يتوافق مع ما تتمنّين سماعه؛ فالقصة الخيالية بقيت في أتلانتيس... وما كانت عليه حياتنا في ذلك الوقت لم يعد واقعيًا. تذكرني

أَنَّكَ المسؤولة الوحيدة عن مصيرك. لكن عليك أن تسعى لتتمكّني من عيشه. هل تفهمين؟».

«نعم. شكرًا لك يا آلي. أراك في بداية كانون الأول».

«أحبّك يا ستار. تعرفين أنّني سأكون دائمًا موجودة من أجلك».

«نعم. بارك الله فيك».

«فيك أيضًا».

أنهيت المكالمة ورحت أتجول داخل الشقّة بعد أن لاحظت أن لون أصابعي مال إلى الزرقة بسبب البرد. ثمّ تفقدت بريدي الصوتي واستمعت إلى بعض الرسائل، وكانت من أورلاندو وماوس. بعد ذلك استحمت سريعًا، وتسلمت إلى غرفة النوم حيث كانت سيسي تنام بصمت.

"تحوّل زلزالي"، تمتعت في نفسي عندما وضعت رأسي على الوسادة الناعمة، وأنا أشعر بالامتنان.

أود أن أتمثّل بأختي الكبرى.

وأكون شجاعة.



راود سيسي كابوسًا قرابة الرابعة صباحًا. فتسللت إلى فراشها لأهدئها، ثمّ شعرت بالنعاس يفارقني. فنهضت من السرير ونزلت إلى الطبقة السفلية لأعدّ كوب شاي. رحت أنظر إلى ظلمة لندن المخملية، فرأيت ثريا الشقيقات السبع، وقد بدت بأبهى حلّتها في موسم الشتاء في النصف الشمالي للكرة الأرضية، تسطع فوق رأسي. تبعت بنظري النهر إلى الشرق، أتساءل إذا ما كان أقاربي الحقيقيون ينامون هناك في مكان ما، لربّما كانوا يتساءلون كيف أبدو. أو أين أكون.

كَرّزْتُ على أسناني، وأخرجت المغلّف من حقيبتي فيما خانتني شجاعتي للتوقّف وتحليل ما كنت أفعله. ثمّ فتحت المغلّف والمدينة بحالها ما تزال نائمة لكي لا يشهد على ذلك أحد.

كان المغلف يحتوي على ورقتين. ففتحتهما ووضعتهما على طاولة القهوة الزجاجية. إحداهما كانت شجرة العائلة وكانت مغطاة بخط أورلاندو المتألق، وقد أحاطت بالشجرة سهام موجهة إلى تعليقات مختلفة. أما الثانية فكانت نسخة عن شهادة ميلاد:

تاريخ ومكان الولادة: 21 نيسان 1980

دار التوليد التابع لجيش الخلاص، هاكني

الاسم الأول واسم العائلة: لوسي شارلوت براون

الأب: -----

الأم: بيتولا براون.

«لوسي شارلوت». تنفست، إنها مولودة يوم عيد ميلادي.

هل هذا اسمي الحقيقي؟

عدت إلى شجرة العائلة التي كان أورلاندو قد فصلها، وتفحصتها عن قرب. تيسي إيلانور سميث أنجبت في تشرين الأول 1944 فتاة تدعى باتريسيا سميث. وليس هناك أي اسم أب هنا على الشجرة، ومع ذلك كتب أورلاندو ابنة تيدي؟ في الهامش. هذا يشير إلى أن تيسي لم تنجح في تسوية الأمور مع خطيبها. وربت ابنتها باتريسيا بمفردها...

في آب 1962، أنجبت باتريسيا بدورها ابنة سمّتها «بيتولا». واسم الأب «ألفريد براون». في 21 نيسان 1980، أنجبت «بيتولا» في عمر يناهز الثمانية عشر سنة، «لوسي شارلوت».

عدت وتحققت من شجرة العائلة، ووجدت أن أورلاندو سجّل وفاة تيسي في عام 1975 ووفاة باتريسيا في أيلول الماضي. وهذا يرجح أن تكون والدتي ما تزال حية، ومجرد التفكير بتلك الكلمات بعث في عمودي الفقري قشعريرة من حدسي الرهيب.

فجأة سمعت صوت باب الحمام ينغلق فوق رأسي. فنهضت ورحت أعدّ الفطور، وأنا محتارة فيما إذا كان عليّ طلب النصح من سيّسي.

«صباح الخير»، قالت وهي تنزل إلى الطبقة السفلية بعد أن استحمت.

«هل نمت جيّدًا».

- «لا بأس». كذبت. لم تتذكّر سيّسي أبدًا كوابيسها، ولم أخرجها بتذكيرها بها. وعندما جلست لتناول الفطور، بدت لي شاحبة، وبلا طاقة على غير عاداتها.

«هل أنت بخير؟».

«نعم». أومأت برأسها. كنت أعرف أنّها تكذب. «هل عدت إلى المنزل لتبقي هذه المرأة؟».

«لا أعرف. أعني قد أضطر إلى العودة إلى هناك مرة أخرى إذا لزم الأمر».

«المنزل موحش من دونك يا سيّا. لا أحب ذلك».

«لِمَ لا تدعين إليه أصدقاءك في الكلية، عندما أكون بعيدة؟».

«ليس لديّ أصدقاء، تعرفين ذلك». قالت بوجه متجهّم».

«سيّ، أنا واثقة من أن لديك أصدقاء».

«من الأفضل أن أذهب». قالت وهي تنهض عن كرسيها.

«آه، تحدّثت إلى آلي ليلة البارحة. وهي تدعوننا نحن الاثنين إلى بيرغن، ستشارك في عرض موسيقي في بداية كانون الأول. هل أنت قادرة على الذهاب؟».

«هل ستذهبين؟».

«بالطبع سأذهب! وقد فكّرت في أنّه يمكننا السفر معًا».

«حسنًا، لِمَ لا؟ أراك في ما بعد إذن». هزّت كتفها تحت سترة من الجلد، وأمسكت حقيبتها ثمّ صاحت في وجهي بصوت عالٍ «وداعًا» وغادرت الشقة.

البلوط والسرو لا ينموان في ظلال بعض....

وإن كنت أحدث كل تلك اللخطة لأتمكّن من النمو بعيدًا من ظلّها، إلّا أنّني على الأقل كنت أحاول. كما أنّني كنت ما أزال مقتنعة بأنّ هذا هو الأنسب لنا، وإن

عجزت سيسي عن رؤية فائدته. دخلت لأستحم، ثم تفقدت رسائلي من جديد. كان أورلاندو قد ترك لي واحدة يخبرني فيها أنه عائد اليوم من كنت إلى المتجر، وأراد أن يتأكد إن كنت سأتواجد هناك.

«فتاتي العزيزة، من فضلك تعالي. أودّ التحدث إليك. شكرًا لك. آه، هذا أورلاندو فوربس». أضاف عبثًا، ما جعلني أبتسم.

وبما أنني كنت ما أزال موظفة رسميًا عنده، قرّرت الذهاب. عندما صعدت إلى الحافلة المتجهة إلى كنسينغتون، وأعترف أنها مجرد أعدار، شعرت بالحاجة إلى التحدّث إلى أورلاندو عن العائلة التي وجدها لي.

«صباح الخير يا آنسة ستار. تسرّني رؤيتك مجددًا في المتجر. كيف حالك في هذا اليوم الضبابي؟»، استقبلني أورلاندو عند عتبة الباب بروح مرحّة وإيجابية. «لا بأس».

لا تنفع معي «لا بأس» هذه، وأنا أريد تحسين تلك الكلمة الفظيعة حالًا. والآن جلّسي، لدينا الكثير لمناقشته».

عندما جلست، لاحظت أن النار كانت مشتعلة، وكنت قادرة على شمّ رائحة القهوة المخمّرة لتوها. كان أورلاندو عازمًا على حلّ المعضلة. لذلك أحضر لكينا فنجانًا من القهوة، ثمّ وضع ملفًا بلاستيكيًا سميكًا على الطاولة أمامنا. «الآن قبل كل شيء، هل ستقبلين اعتذاري بشأن ردّ فعلي الفظّ تجاه أزمته العائلية الحالية؟».

«نعم».

«عليّ أن أكتفي بالتحدّث إلى نفسي أو الصراخ في وجه الشخصيات في الكتب. إذ لا يبدو أنني أتمتّع بحسّ إنساني».

«لكنّك تجيد التصرف مع روري».

«حسنًا، في الواقع روري قصة مختلفة، ولحسن الحظ ليست قصّتي. إذن، هل فتحت مغلفك؟».

«فعلتُ ذلك هذا الصباح».

«يا إلهي!»، صفق أورلاندو مثل الطفل المتحمّس. «يسرّني ذلك كثيرًا. اسمحي لي أن أقول لك يا آنسة ستار، إنك أكثر شجاعة مني. فيما أنني كنت «أورلاندو» طوال حياتي، لا شك في أنني كنت سأواجه صعوبة كبيرة إن اكتشفت يومًا أنني «دايف»، أو «نايجل»، أو لا سمح الله، «غاري» وليس «أورلاندو»!«.

«كنت أفضل اسم «لوسي». كان لديّ صديقة جميلة تدعى لوسي»، قلت متصدية له إذ لم أكن في مزاج يتحمّل غطرسته.

«نعم، لكنّه مقدّر لك يا أستروپ أن تحلّقي بين النجوم. كما فعلت والدتك من قبل». قال لي، فلم أفهم قصده.

«ماذا تقصد؟».

«حسنًا الآن، بمعزل عن شهادة ميلادها، لم أتمكن، خلال نبشي الطويل والشاق في ماضيك، من العثور على أي ورقة باسم «بيتولا براون». كما أنّه لا يوجد أي أثر لذلك الاسم على صفحات الإنترنت، بتاتًا، وهذا أمر غريب بالنظر إلى اسم مسيحي غير مألوف مثل هذا. بعد ذلك، كتبت إلى الأرشيف الوطني، وإلى أي شخص خطر في بالي لأعرف شيئًا عن مصيرها. وفي النهاية، تلقيت الردّ فقط البارحة. احزري ماذا يخبرني؟».

«ليس لديّ فكرة يا أورلاندو».

«غيّرت «بيتولا» اسمها رسميًا بشكل قانوني. وهذا ليس مفاجئًا أن تكون قد شعرت بعبء ذلك الاسم. لذلك المدعوّة «بيتولا» لم تعد تدعى «بيتولا براون» لكن «سيلفيا غراي». آنسة ستار، المرأة التي أنا شبه واثق من أنّها والدتك هي حاليًا أستاذة في الأدب الروسي في جامعة يال!».

«والآن، ما رأيك بهذا؟».

«أنا...».

«وفق سيرتها الذاتية على موقع جامعة يال...»، وبحث أورلاندو داخل الملف الموجود على الطاولة عن ورقة ليقراً فيها، «ولدت البروفيسورة سيلفيا غراي في

لندن، وحصلت على منحة دراسية في كامبردج». من الغريب يا آنسة ستار أن تحقق فتاة من الطرف الشرقي كل هذا. ثم واصلت دراستها لتحصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب الروسي، وبقيت هناك خلال السنوات الخمس التالية قبل أن يُعرض عليها منصب في جامعة يال، حيث التقت بروبرت شتاين، وهو أستاذ في علم الفيزياء الفلكية في جامعة يال وتزوجت به. سيلثيا غراي تعيش اليوم في نيو هافن، كونيتيكت، مع ثلاثة أولاد، أربعة خيول، وهي في صدد إصدار كتاب جديد». نقلًا عما كان يقرأه أورلاندو في الورقة.

«هل هي كاتبة؟»

«لقد نشرت بعض النصوص النقدية في مجلة جامعة يال. تفضلي! من المدهش كيف تنكشف الجينات؟»

«أكره الخيول منذ صغري»، تمتمت.

«لا تكوني متفلسفة. اعتقدت أنك ستشعرين بسعادة غامرة!».

«ليس إلى هذا الحد. ففي النهاية، لقد تخلت عني».

«لكنني واثق من أنك استنتجت من شجرة العائلة التي رسمتها لك بدقة متناهية أن «بيتولا» هي «سيلثيا»، وأنها كانت في الثامنة عشرة فقط عندما ولدتك. بما أنها وُلدت في العام 1962».

«نعم، لقد حللت ذلك بنفسِي».

«لا بدّ من أنها كانت في سنتها الأولى في كامبردج عندما ولدتك، وهذا يعني أنها حملت بك في الصيف الذي سبق».

«أورلاندو، من فضلك، مهلاً عليّ. أنا أبذل قصارى جهدي لأستوعب كل هذا، الأمر صعب».

«سامحيني. قلت لك سابقًا، عليّ الاكتفاء بالخيال، والتخلّي تمامًا عن الواقع». حينها فقط دخل في صمت كطفل مؤدّب، فيما كنت أحاول استيعاب كل هذا. «هل يمكنني التحدّث؟»، قال بخجل.

«نعم». قلت وأنا أتنهّد.

«هناك ما عليك رؤيته يا آنسة ستار».

«ما هو؟».

ثم أعطاني مطبوعة. «ستكون هنا في إنكلترا في الأسبوع القادم. لديها محاضرة في جامعة كامبردج، جامعتها القديمة».

«آه». وقرأتها دونما اهتمام، ثمّ وضعتها جانباً.

«أمر لا يصدق، أليس كذلك؟ أن تصبح على ما هي عليه الآن، من دون دعم ولا امتياز. هذا يؤكّد كم تقدّم العالم».

«وأنت تكره ذلك».

«لا يمكنني إنكار ذلك. لكن كما تناقشت مع أخي البارحة، أنت من ساعدني على تغيير وجهة نظري. وللأفضل بالطبع، إذا كنت تسمحين. حسنًا، إن التحري عن ماضيك... علّمني الكثير. لذلك شكرًا لك يا آنسة ستار. أنا مدين لك بطرق عدّة. هل ستذهبين؟».

«إلى أين؟».

«لمقابلتها في كامبردج بالطبع».

«لا أعرف. لم أفكر في الأمر، أنا...».

«بالطبع لم تفعلي». شبك أورلاندو أصابعه الطويلة. وأخيرًا بعد أن فهم تلميحي قال لي: «والآن، ما رأيك أن أخبرك عما قررت فعله في مستقبلي؟».

«حسنًا».

«حسنًا، ذكرت لك أنني وماوس أجرينا محادثة مطوّلة البارحة. وستفرحين بسماع التعديلات التي سنجرّيها».

«أجل، سمعت ذلك من ماوس».

«هذا يعني أنّك تعرفين أيضًا أن العزيز السيد هو عرض علينا ما يجوز اعتباره مبلغًا سخياً ومثيراً للدهشة مقابل المتجر. وهذا سيمكّنني أنا وماوس من تسديد

الديون المستحقة مقابل مختلف أصولنا، وسيساعدني على العثور على مكان بديل
لنفسي ولكتبي. الخبر السار هو أنني أعتقد أنني وجدت ذلك المكان». «أحقاً؟»

«نعم».

ثم أخبرني عن متجر السيد ميدوز في تندر، وكيف عرض عليه المواصله في
دفع الإيجار، وأن السيد ميدوز وافق على الفور.

«هناك أيضاً مجموعة غرف في الطبقة العلوية، ويمكنني العيش فيها. أعتقد
أنني بعد كل هذا الوقت الذي صرفته في تجارة الكتب، أصبح لدي الحق في تسمية
متجري الجديد أو. فوربس المحترم للكتب النادرة. ما رأيك؟».

«بالفكرة أو الاسم؟».

«كليهما».

«أعتقد أنهما ممتازان».

«أحقاً؟». ورأيت أساريه تنفرج مثل شروق أشعة الشمس. «حسنًا، وأنا أيضاً
أعتقد ذلك. ربّما حان الوقت ليبدأ كل فرد في هذه الأسرة من جديد. وهذا يشملك
أيضًا. ففي النهاية، أنت قريبة العزيزة مارغريت».

«وروري». أضفت قائلة.

«تناقشنا أنا وماوس إذا ما كان ينبغي أن نخبر مارغريت بكل شيء عن
الماضي. أعرف أن ذلك لن يحدث أي فرق في الوقت الحالي، بالنظر إلى أن كل
تلك الحوادث حصلت في العقود الماضية، المفارقة هي أنها لم ترغب في هاي
ويلد في أي حال. فبعد سنوات البذخ التي عاشها تيدي، بقيت الملكية في حالة
يرثي لها. ما اضطر ابن خال أبي مايكل، ابن تيدي وديكسي، إلى بيع الأجزاء الباقية
له من الأراضي الزراعية إضافة إلى بيت الأرملة والأكوخ، ليتمكن من مواصلة حياة
البذخ. لكن بالطبع، لم يتمكن من الأذخار لإجراء الترميمات. تحدّثنا أنا وماوس عن
إعطاء حصّة من عائدات المتجر لمارغريت لمساعدتها في إجراء تصليحات أساسية
مثل السباكة ونظام التدفئة. من كان ليفكر في ذلك...؟».

«يفكر في ماذا؟». وشاهدت أورلاندو أثناء انجرافه إلى أعماق عالمه الخاص.
«بعد مرور ما يزيد على ستين سنة، سنكون نحن، الأقارب الفقراء الذين كانوا
يسكنون ذات يوم عبر الممر، وهم مجرد أصحاب متاجر ومزارعين، من نتصدّق
على سيدة القصر الحالية. لكن كل هذا جائز بمرور الوقت. تمامًا مثلما حدث مع
والدتك التي زادت ثروتها مع الوقت، فأني تغيير جائز خلال جيلين».
«نعم، هذا ممكن».

«هل ستذهبن إلى كامبردج لحضور محاضرتها؟».

«أورلاندو». لففت عيني لاستيائي من طريقة إعادة المحادثة إلى ذلك
الموضوع. «لا أستطيع الظهور أمامها هكذا لأخبرها بأنني ابتتها المفقودة منذ زمن
بعيد».

«حسنًا أريدك الآن أن تنظري في دليل أخير. ثقي بأن أي أحد قادر على
القول إنّه مسك ختام التحقيق الشامل الذي أنجزته مثل أي محترف. والآن، أين
وضعتها؟». نقّب أورلاندو مرّة أخرى بين كومة الأوراق. «آها! ها هي! وأعطاني
مطبوعة وهو يشعر بالابتهاج». ونظرت إلى أسفل الصفحة التي كنت أمسك بها
فرأيت وجهًا يحدّق إليّ. كان وجهًا مألوفًا يشبه وجهي، مع فارق في السنّ وفي
الاعتناء بالمظهر، إذ إن العينين الزرقاوين كانتا معزّزتين بماكياج خفيف، والشعر
الأشقر الفاتح اللّماع يحيط بشرة مرمية. وشعرت بعيني أورلاندو وهما تثقبانني
بينما كانت الحماسة بادية على وجهه.

«من أين حصلت عليها؟».

«من الإنترنت بالطبع. نزلتها عن أحد مواقع التواصل. والآن قللي لي إذا كانت
الأستاذة سيلقيا غراي والدتك أم لا، يا آنسة ستار؟».

حدّقت مرة أخرى في الصورة التي لا شكّ في أنني كنت سأشبهها عندما أصبح
في منتصف الأربعينات. على الرغم من كل الأدلة المكتوبة التي جمعها أورلاندو،
إن تلك الصورة هي ما تجعل الأمر قطعياً.

«إنها جميلة، أليس كذلك؟ تمامًا مثلك. شاء القدر أن يرسلها إلينا في تلك

المدة الزمنية القصيرة. عليك بالتأكيد اغتنام الفرصة التي يهبها لك القدر؟ أنا شخصيًا سأحبّ التحدث إليها. فهي واحدة من أهم الهيئات في الأدب الروسي، والذي كما تعرفين، لديّ ميل خاص إليه. فهمت من سيرتها الذاتية أنها عاشت في سان بطرسبرغ سنة كاملة في أثناء إنهاؤها أطروحة الدكتوراه».

«لا يا أورلاندو، توقف من فضلك! ما زال الوقت مبكرًا. أنا بحاجة إلى بعض الوقت لأفكر في الموضوع...».

«بالطبع تحتاجين إلى الوقت، ومرة أخرى أرجو المعذرة بسبب حماستي».

«كما أنني لا أستطيع الذهاب هكذا إلى محاضرة في جامعة كامبردج! فأنا لست طالبة هناك».

«صحيح»، قال أورلاندو. «لكن لحسن حظنا، نعرف طالبًا هناك. أو على الأقل طالبًا سابقًا».

«من؟».

«ماوس. درس الهندسة المعمارية في كامبردج ويعرف إجراءات الدخول. لذلك وافق على إدخالك خلسة».

«وهل يعرف عن هذا أيضًا؟».

«بالطبع يعرف يا فتاتي العزيزة».

وقفت فجأة. «هذا يكفي يا أورلاندو، من فضلك».

«لنغلق الموضوع على الفور إلى أن ترغب في إعادة فتحه مجددًا». ثمّ أضاف بابتسامة ماكورة: «وآمل أن يحصل ذلك قبل يوم الثلاثاء المقبل. الآن، لنعد إلى العمل. سيسرّ السيد ميدوز بانتقالنا إلى منزلنا الجديد ساعة نشاء. اقترحت عليه بعد أسبوعين، للاستفادة من مبيعات ما قبل عيد الميلاد. فيما نحن نتحدّث هنا، يعدّ هو عقد الإيجار». قال أورلاندو وهو يشير إلى رفوف الكتب، «هذه يجب أن تكون موضّبة بعناية وفق ترقيم صناديق التعبئة التي طلبتها سابقًا وستصل غدًا. أخبرت كلّاً من مارغريت وماوس ألا يطالبا بك قبل أن ننتهي من هنا. علينا أن نعمل ليل نهار يا آنسة ستار، ليل نهار».

«بالطبع».

«كل شيء حدث بسرعة مع بيع هذا المتجر. كان السيد هُوَ متحمسًا لشرائه، لذلك حرص على إتمام الصفقة قبل عيد الميلاد. عليك أن تذهبي لتري بنفسك متجر ميدوز. يتراءى لي أنه أكثر جاذبية من هذا. والأهم من ذلك، فيه مدفأة. في أثناء حزمنا الأغراض، يتعين علينا غرلة المخزون، لأنَّ عدد الرفوف هناك أقل، لكن مارغريت وافقت على تخزين الباقي في هاي ويلد. وهناك مخزون السيد ميدوز أيضًا، وقد وافقت على شرائه. سوف نغرق بين الكلمات المكتوبة!».

حاولت التركيز مع أورلاندو، وأن أكون سعيدة لحماسته وارتياحه للمنعطف الذي تتخذه الحوادث. إلا أن عينيَّ بقيتا تتحولان باستمرار إلى النسخة المطبوعة الملقاة أمامي. صورة البروفيسورة سيلفيا غراي، والدتي... ثمَّ قلبت الورقة إلى الجهة الخلفية. ورسمت ابتسامة على وجهي وقلت: «حسنًا، من أين نبدأ؟».



شغل توضيب كل هذه الكتب بالي وجسمي. لذلك نجحت في صدَّ أي فكرة غزت رأسي عن المحاضرة في خلال الأيام السابقة ليوم الثلاثاء، إلى أن بلغنا مساء الإثنين، وكنت أشعر فيه بالإرهاق والالتساخ من كمية الغبار بسبب ما فعلناه في أيام التعبئة الثقيلة.

«حان وقت الاستراحة يا آنسة ستار»، قال أورلاندو وهو يطلُّ من داخل القبو حيث كان يوضَّب بعناية فائقة عددًا من الكتب القيمة التي يحفظها في الخزانة القديمة. «يا إلهي، لست معتادًا كل هذا العمل البدني. كما أنه لا يناسبني. يخيّل إليَّ أننا نستحقُّ كأس نبيذ أحمر مكافأة لنا على هذا التعب».

وفيما صعد أورلاندو إلى الطبقة العلوية، رميت نفسي فوق كرسيي لتوفّر لي منطقة المدفأة ما يشبه واحة داخل مستنقع من الصناديق المكدّسة من حولنا إلى السقف.

«فتحت الزجاجاة قبل ساعتين لتتنفّس»، قال أورلاندو وهو يسير بين الصناديق، على طول الممر الرفيع مع زجاجة نبذ وكأسين، وجلس قبالي.

«تشين تشين»، قال لي وهو يقرع كأسه بكأسي. «لا أستطيع أن أشكر كفاية على المساعدة التي تقدمينها إليّ. ببساطة، ما كان بمقدوري تحقيق ذلك كله من دونك. وأنا بالطبع أمل أن تكوني على استعداد للانتقال معي إلى مقري الجديد». «آه!».

«آه؟! من المؤكد أن الفكرة خطرت لك من قبل؟ ولأغريك أكثر سأمحك لقبًا أعلى مثل مدير، مع زيادة في الراتب كترقية تستحقينها».

«شكرًا لك. هل يمكنني التفكير في الأمر؟».

«ليس لفترة طويلة. تعرفين مدى تقديري لمهاراتك. أعتقد أننا فريق لا يُهزم. ويفترض أن تدركي معنى ذلك؟».

«وماذا يعني؟».

«أنّه جرى لمّ شمل فرعي العائلة المتباينين فوغان/فوربس بعد مرور ستين عامًا، في مشروع مشترك».

«نعم أفترض أنّه كذلك».

«وبالنظر إلى أن هذا المتجر كان، في الأساس متجر فلورا ماك نيكول، وهي من الناحية التقنية جدتك الكبرى، وإن لم يكن بصلة الدم، فلديك الحق في أن تكوني فيه تمامًا مثلي. هل فهمت؟ كل شيء ينجح في النهاية».

«أحقًا؟».

«هيا يا آنسة ستار، لم تكوني سلبية قط. والآن، يجب أن أسألك...».

«كلا!». كنت أعرف ما أوشك على سؤاله. «لن أذهب غدًا. أنا... لا أستطيع».

«هل لي أن أسألك لماذا؟».

«لأنني...»، وعضضت شفتي. «خائفة».

«بالطبع ستكونين كذلك».

«ربّما أتصل بها ذات يوم. لكن ليس الآن، فالأمر سابق لأوانه».

«أنا أفهمك». تنفّس أورلاندو الصعداء وأنا أفرغ كأسِي، ثمّ وقفت.

«من الأفضل أن أرحل، لقد تجاوزت الساعة الثامنة».

«إذن هل أراك باكراً غداً؟ وفكري بعرضي من فضلك. سألت مارغريت إذا كان بإمكانك البقاء في هاي ويلد إلى أن تعثري على منزل خاص في المنطقة. كانت سعيدة بالفكرة. وكذلك روري».

«أنت لم تخبرها بعد عن... رابط القرابة بيننا؟».

«كلا، لكن ربّما فعل ماوس. في رأيي، هي تعيش للحاضر، وليس للماضي، خصوصاً في الوقت الحالي. حسناً إذن، طابت ليلتك يا آنسة ستار».

«طاب مساؤك».



سأكذب على نفسي لو قلت إنني لم أصرف اليومين التاليين، وأنا أفكر بالبروفيسورة سيلفيا غراي ليل نهار، وقد مقّط نفسي لجبني. وفي تمام الساعة السابعة والنصف مساءً من يوم الثلاثاء، رحت أتخيّلها وهي تصعد إلى المنصة وسط موجة من التصفيق.

يؤسفني القول إنني كنت أعرف أن هناك سبباً آخر لم يجعلني أذهب إلى كامبردج في تلك الليلة، وهي الفرصة التي أتيحت لي هناك قبل عشر سنوات لكنني رفضتها. جلست وحدي مطوّلاً بعد خلود أختي إلى النوم، واعترفت لنفسي أنني كنت أغار من تلك الأم التي لم أعرفها. الأم التي لم تسمح لشيء أن يمنعها من الذهاب إلى كامبردج، التي سهلت طريقها إلى العظمة في عالم الأدب الأكاديمي، لا شيء على الإطلاق، حتى أنا، الطفلة التي أنجبته...

إصرارها على صنع شيء من نفسها على الرغم من انطلاقها المتواضعة جعلني أشعر بأنني لم أحقق إلّا القليل في حياتي، مقارنة بتلك القدوة: أم لثلاثة

أولاد، وأرجح أن يكونوا أذكاء ومنتفعين على نحو استثنائي، وزوجة، ومالكة خيول،
وصاحبة مهنة حملتها إلى القمة في مجالها.
لا بدّ من أنّها ستخجل بي كما أخجل أنا بنفسي...
مشيت إلى النافذة لأنظر إلى السماء الصافية، المليئة بالنجوم، وفجأة همست:
«ساعدني يا پا، أرجوك ساعدني».

42

«حسنًا والآن، عليك أن تذهبي إلى كنت في نهاية هذا الأسبوع لتساعديني في تفريغ الكتب في المتجر الجديد». قال أورلاندو بينما كنا نتناول حلوى الساعة الثالثة في اليوم التالي. «سأغادر في الصباح لأشرف على الترتيبات هناك، وآمل، عند وصولك، أن نكون قد انتهينا من إعادة طلاء واجهة المتجر، وأن يكون الخطأ قد بدأ بعمله. حينئذ فقط سأتمكن من الترحيب بالجميع في أو. فوربس المحترم - للكتب النادرة».

أشرق وجه أورلاندو من الإثارة لدرجة أنني شعرت بنجمي يتحوّل تدريجيًا إلى ثقب باهت في السماء.

«وسيكون هناك تدفق في المتطوعين. ماوس قال إنه مستعدّ للمساعدة، وكذلك مارغريت التي تغادر مجددًا إلى فرنسا يوم الأحد المقبل. لذلك سيكون الأمر مريحًا من كل النواحي، إن قررت البقاء في هاي ويلد لبعض الوقت لكي تساعدنا أنا ووروري. يمكننا اعتبارها فترة تدريبية، لتتولي بعدها منصبًا أكثر ديمومة في متجر الكتب».

«نعم سأتي»، قلت موافقة. «فلم يبق ما أفعله هنا عندما يُغلق المتجر إلى الأبد».

«رائع! إذن لقد سُوّي الأمر».

ثم ناقشنا كيف سأشرف على تعبئة الصناديق في الشاحنة هنا في لندن، بينما يقوم هو بفرز المخزون غير المرغوب فيه في المتجر الجديد، وينقله إلى هاي ويلد. في تلك الليلة، أخبرت سيسي أنني سأسافر إلى كنت بضعة أيام.

«لكنك ستعودين، أليس كذلك؟». حتى لو لم تتوسل بالكلمات، شعرت بتعابيرها تفعل ذلك.
«بالطبع».

«أقصد أنت لا تفكرين في الانتقال نهائياً إلى هناك، أليس كذلك؟ بحق السماء يا ستار، أنت الآن مجرد بائعة في متجر، أنا واثقة من أنك قادرة على الحصول على وظيفة أفضل في لندن وبأجر أعلى بكثير. مررت بمتجر فويلز للكتب أمس، وعرفت أنهم يبحثون عن موظفين. عثورك على عمل جديد هنا في لندن لن يستغرق وقتاً طويلاً».

«حتمًا، أنا واثقة من ذلك».

«تعرفين كم أكره البقاء وحدي هنا. عديني أنك ستعودين؟».

«سأبذل قصارى جهدي».

كان الوقت قد حان لأفكر أولاً في نفسي، لكنني لم أرغب في إعطاء سيبي أملاً كاذباً. ففي النهاية، هي ليست طفلة عاجزة، كما كنتُ عندما مارست دور الأم علي...

فيما بقيت سيبي مستاءة، صرفت اليوم التالي أعمل في المتجر من الفجر إلى ما بعد الغسق. وفي صباح يوم الجمعة، كان كل شيء جاهزاً لنبداً بالتحميل، عندما توقفت الشاحنة أمام مدخل المتجر. جعلني إصرار أورلاندو على الاتصال بي كل بضع دقائق وإعطائي تعليمات، أكسر القاعدة الذهبية وأجيب على المكالمات داخل المتجر.

مرّ بنا بضعة زوّار من الرّواد الأوائل وراحوا ينظرون بحزن إلى الكتب التي كانت تُنقل إلى الشاحنة. وبما أننا أنا وأورلاندو كنّا قد توقعنا ذلك، اخترنا لكل واحد منهم كتاباً كهديّة وداع. وعندما غادرت الشاحنة، حاملة معها بعضاً من ممتلكات أورلاندو الشخصية التي حُشرت فوق صناديق الكتب، رحّت أتجوّل داخل المتجر المهجور، وشعرت بالفعل بأنها نهاية حقبة طويلة، امتدت عبر الروابط الأسرية لتصل إلى بياتريكس بوتر نفسها.

كانت مهمتي الأخيرة نزع الرسالة التي كتبها بياتريكس إلى فلورا عندما كانت فتاة صغيرة، من الإطار وتغليفها بورق بني وحملها بيدي إلى كنت. وفيما كنت أفعل ذلك، قطعت وعدًا على نفسي بأنني سأسافر ذات يوم إلى منطقة البحيرات لأكتشف المكان الذي كبرت فيه فلورا. فعلى الرغم من أنني أصبحت أعرف الآن أن لا صلة رحم بيننا، لكنني كنت أشعر في الصميم أنني قريبة منها. فهي أيضًا لم يكن وضعها عاديًا، وكانت منبوذة تشعر بأنها لا تنتمي إلى أي مكان. لكنها بفضل عزمها وتصميمها المطلق تمكنت من النجاة. وفي النهاية عثرت على المكان الذي شعرت بالانتماء إليه دومًا، وبقيت فيه مع مكتبة سُر من قرأ الرجل الذي كانت تحب. وداعًا، همست للظلمة، وأنا أنظر آخر مرة إلى تلك الغرفة التي بدأت فيها حياتي تتغير.



ذلك المساء، وصلت في سيارة أجرة إلى تتردن، ووقفت خارج المتجر الجديد أنظر إلى أنواره التي تخترق الضباب. رحت أنظر إلى الواجهة التي طُليت حديثًا. كان أورلاندو قد اختار زجاجًا أخضر، من لون الزجاج الذي كان في متجر كنسينغتون. ورأيت فوق النافذة مخططًا غامضًا للحروف الأولية للافتة. شعرت في تلك الليلة بالسعادة لسعادة أحد أفراد عائلتي فوربس/فوغان.

شقَّ أورلاندو طريقه عبر الصناديق صوبي.

«أهلاً بك يا آنسة ستار في منزلي الجديد. ماوس ومارغريت سيصلان في أي لحظة. طلبت الشمبانيا من المقهى المجاور. كما سينضم إلينا آل ميدوز بعد قليل. هل تعرفين، أظن أنني أفضل هذا المكان على المتجر القديم؟ انظري فقط إلى ذلك المحيط».

ورأيت الأشجار فوق العشب خلف المسار الضيق، ومصابيح الشوارع القديمة تتلألأ بلطف بينها.

«يا لروعة المكان».

«هناك أيضًا باب يصلنا بالمقهى، لذلك لن يكون هناك علب ألومنيوم على الغداء. سنحصل بدلًا منها، على طبق ساخن مباشرة من الفرن. آه...» نظر أورلاندو خلفه ولوّح بيده «لقد وصلنا».

رأيت سيارة ماوس اللاند روفر القديمة تتوقف في الخارج. وتبعه كل من مارغريت وروري إلى داخل المتجر.

«وصلتما في الوقت المناسب»، قال أورلاندو. وفور ظهورها عند الباب في الجزء الخلفي للمتجر، تعرفت مباشرة إلى السيدة ميدوز، التي كانت تحمل صينية فيها كؤوس وشمبانيا. كانت برفقة رجل مسنّ، قصير القامة، عريض البنية، وكان يرتدي ربطة عنق منقطة.

«سيد وسيدة ميدوز، أعتقد أنكما تعرفان أخي وابنة عمي العزيزة مارغريت. وروري أيضًا. كما أنك يا سيدة ميدوز التقيت سابقًا بمساعدتي». ثمّ أضاف وهو يجذبني إلى المقدمة، «أقدّم لكما الرائعة آستروپ دابليز الشهيرة بستار، وهي اسم على مسمى». ختم وهو ينظر إليّ باعتزاز.

تركني أورلاندو برفقة الثنائي ميدوز، وراح يلقي التحية على بقية أفراد عائلته. وبينما كنت أرتشف الشمبانيا وأتحدّث إلى الثنائي المسنّ، تبين لي أنّهما يشعران بسعادة غامرة لاستلام أورلاندو إدارة المتجر.

«مرحبًا يا ستار».

«مرحبًا»، قلت وأنا أتفاجأ بماوس إلى جانبي. ثمّ شعرت بذراعين رفيعين يحضنان خصري من الخلف.

«مرحبًا روري»، قلت له وقد بدت ابتسامة حقيقية على شفتي.

«أين كنت؟».

«كنت في لندن، أساعد أورلاندو في نقل كل الكتب إلى هنا».

«اشتقت إليك».

«وأنا أيضًا».

«هل يمكننا أن نصنع كعكة غدًا؟».

«بالطبع يمكننا».

«حاول ماوس أن يصنع واحدة معي، لكنها كانت مقرفة، ولزجة تمامًا. بخخخ!». وبالغ روري في إصدار أصوات متقرّزة.

«هذا ما كانت عليه، أتفق معك». قال ماوس وهو يهزّ كتفيه. «لكنني حاولت على الأقل».

«ستار!». عانقتني مارغريت وقبّلتني على خديّ ليس مرة واحدة، ولا اثنتين، بل ثلاث مرات. «هكذا سيرحبون بك في بروفانس!». وضحكت.

رحت أنظر إلى مارغريت وعينيها الواسعتين البنفسجيتين وأطرافها الطويلة، وأفكر في الرابط الوراثي الذي يجمعنا. كنّا في الظاهر، مختلفتين تمامًا، وعلى الرغم من ذلك، لاحظت أن بشرتها كانت مثل بشرتي التي لا بدّ من أن تكون مماثلة لبشرات كثيرة غيرها لا تربطني بها أي صلة دم.

«أخبرني ماوس أنكما صرفتما بضعة أيام مثيرة». ثمّ انحنت لتهمس في أذني. «أهلاً بك في عائلتنا المجنونة». وراحت تقهقه. «لا عجب في أننا أحببناك من أول نظرة. هذا لأنك تنتمين إلينا، بكل بساطة».

في تلك الليلة، فيما كنت واقفة داخل متجر أورلاندو الجديد، محاطة بـ «عائلة»، شعرت مبدئيًا بأنها عائلتي.



في صباح اليوم التالي، استيقظت متأخرة بخلاف عادتي. ربّما بسبب الإجهاد النفسي والجسدي التي مرتت بهما في الأيام القليلة الماضية. نزلت إلى الطبقة السفلية، ومن هناك إلى المطبخ المهجور، الذي اجتاحتها الفوضى القديمة في غيابي، وهناك وجدت ملاحظة على الطاولة:

خرجنا نساعد أورلاندو في متجر الكتب. سيمرّ ماوس في الحادية عشرة لاصطحابك. كوني مستعدة.

م. و ر. قبلات

عندما رأيت أن الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف، صعدت أستحم بسرعة بالماء المتجمد، وأنا حائرة فيما إذا كنت قادرة على بناء حياة هنا في كنت. حاولت تجفيف نفسي بسرعة، وأنا أنفض شعري وأمسده بأصابعي، ثم ارتديت سروال جينز وكنزة زرقاء.

تلك التي تليق بي بحسب ما قال ماوس...

هذا لا يعني بالطبع أن رأيته يهمني.

إذن لم تحاولين إرضاءه؟

فأسكتت نفسي وأجبرتها على الخضوع. وعندما حانت الساعة، كنت واقفة بجانب الموقد، أمسك صينية براونيز طازجة، وسمعت سيارة تتوقف في الخارج، وخطوات ثقيلة مألوفة تعبر باب المطبخ.

«مرحبًا يا ستار»، قال ماوس وهو يدخل من الباب.

«مرحبًا، هل نغادر على الفور؟ أعددت بعض البراونيز، وهناك قهوة على النار».

«هذا رائع»، قال صوت مألوف وغريب في الوقت نفسه. بدا كأنه صوتي أنا

بلكنة أميركية.

«أحضرت شخصًا لتتعرفي إليه». قال ماوس فيما بدا شعوره بالذنب على جبينه.

ورأيت خلفه، نسخة طبق الأصل عن المطبوعة التي وضعها أورلاندو بين يدي،

تخرج من الردهة إلى المطبخ.

«مرحبًا يا ستار». قالت الصورة.

حدّقت إليها، وإلى وجهها وجسمها، لكنني لم أستطع رؤية شيء آخر لأنّ

الدمع أعمانني.

لم أعرف إذا كان من الغضب أو الخوف أو الحب.

ثم قال ماوس بلطف: «ستار، هذه سيلفيا غراي، أمك».

لا أذكر الكثير عن الدقائق القليلة التي تلت، غير أن ذراعي ماوس غلفتاني

مثل الدرع ورحت أبكي على كتفه.

«أنا آسف للغاية»، همس في أذني. «ذهبت إلى كامبردج لحضور محاضرتها، وعرفتُها بنفسِي عقب انتهائِها. كانت متحرّقة للمجيء ومقابلتك. أخبريني بما كان عليّ فعله».

«لا أعرف»، كتمت صوتي داخل سترته.
ثم شعرت بذراعين أُخريين يلتفّان حولي.
«أنا آسفة جدًّا يا ستار. سامحيني، أرجوك سامحيني. لم أنسك لحظة، أقسم لك. كنت أفكّر فيك كل يوم».

«كلّا!». صرخت في وجهها غير مكترثة.
ثم ركضت عبر الردهة إلى الخارج، إلى هواء تشرين الثاني المنعش، ونزلت إلى الحديقة وسرت عبر متاهة الأعشاب والنباتات. لم أكن بحاجة إلى ماضٍ، ولا إلى أمّ... كل ما أردته، مستقبلاً، واحدًا يشعرني بالأمان، بالواقع، بالصفاء. أمّا رؤية هذه المرأة وهي تنتظر لتنقُض عليّ داخل هاي ويلد فلم يكن مما أردته.

شقت طريقي بتهوّر إلى البيت الزجاجي حيث قام أرتشي في الماضي برعاية الشتول التي زرعتها فلورا بعناية لتنمو بقوة حبّهما وثباته. وهناك رميت بنفسِي على الأرض وأنا أرتجف من البرد.

كيف تجرؤ على مطاردتي! كيف يجرؤ ماوس أساسًا على إحضارها إلى هنا؟ هل تعتقد هذه العائلة أنها قادرة على التحكم في حياتي كما تفعل الآن؟

«ستار؟ هل ما زلت هنا؟».

لا أعرف كم مرّ من الوقت قبل أن أسمع ماوس يدخل إلى المنزل الزجاجي.
«آسف جدًّا يا ستار. لقد أسأت التفكير. كان عليّ أن أحذرك من قدومها وأطلب إذنك... عندما ذهبت إلى كامبردج في تلك الليلة، وقابلت سيلفيا بعد المحاضرة، وعرفتُها بنفسِي وأخبرتُها من تكون وفق اعتقادنا أنا وأورلاندو، توسلت إليّ لكي أحضرها إلى هنا، إلى هاي ويلد، لمقابلتك».

«ربّما أرادت رؤية المنزل الذي كان ملك جدّها، وليس رؤيتي أنا»، أجبتّه
باشمئزاز.

«حسنًا، ربّما أرادت رؤية ذلك أيضًا، لكنها أرادت رؤيتك أكثر، أقسم لك». «لم ترغب في رؤيتي طوال سبعة وعشرين سنة، فلمَ سترغب في ذلك الآن؟». «لأنّ والدتها كذبت عليها وأخبرتها بأنك متّ وأنت طفلة. كما أنّها تحتفظ بشهادة وفاة مزوّرة باسمك، أعطتها لها أمّها دليلًا على ادّعائها». «ماذا؟». «حينذاك فقط نظرت إلى وجهه».

«هذه الحقيقة. لكن...» وتنهد عميقًا، «أعتقد أن من واجبها أن تشرح لك كل هذا، وليس أنا. سامحيني يا ستار. كان خطأ منّي، كل هذا... كان ينبغي أن نحترم أمنيّتك. لكن عندما رأيته، كان اليأس قد تملّكها لمقابلتك». «لم أجب. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لأحلل ما كان يقوله». «حسنًا، سأتركك وشأنك. أعذر مرة أخرى».

«لا بأس». مسحت أنفي بكمي ونهضت. «سأتي معك».

استجمعت كل الأوتار في جسمي لتساعدني على الوقوف، ثمّ نهضت ومشيت متمايلة صوبه، فشبك ذراعيه القويتين حولي، وأعادني عبر الحديقة المسوّرة إلى المنزل.

عندما عدت إلى المطبخ، وجدت سيلفيا تبكي. كان ماكياجها الناعم المتقن يسيل تحت عينيها، وبدت فجأة أكثر هشاشة مما كانت عندما دخلت قبل قليل. «ما رأيكما لو أضع الغلاية على النار؟». اقترح ماوس.

«فكرة جيدة»، قالت المرأة التي هي أمي.

ملأ ماوس الغلاية، بينما كنت أدير ظهري إلى الموقد وأنا أرتجف، وأحاول استجماع نفسي.

«اقتربي واجلسي؟».

«لَمْ تخلّيت عني؟». بادرتها بالقول.

عندئذ تجعّد وجهها، وساد صمت فيما كانت تفتّش عميقاً عن الكلمات.

«لم أفعل يا ستار. بعد أن ولدتك في عطلة عيد الفصح، أصرت أمي على عودتي إلى كامبردج من أجل امتحانات السنة الأولى. كان تطمح إلى أن أبني لنفسني مستقبلاً مشرقاً؛ إذ كنت متفوّقة وذكية... رأيت في المستقبل الذي لم تحقّقه لنفسها. فقد عاشت حياة صعبة، بعد أن توفي والدي في شبابه، وتركها تربيّني وحدها... كانت تشعر بالمرارة يا ستار. بمرارة كبيرة».

«وهل ستلومين أمك الآن؟» أجبتها، وأنا أرّعب من المرارة التي سمعتها في صوتي.

«لديك كل الحق لتغضبي مني. لكن أقسم لك أنني عندما تركتك برعاية أمي في شهر أيار، كنت طفلة سليمة تتمتعين بصحة جيدة، كما أنك كنت نطاطة وجميلة للغاية. كانت الخطة أن تعتني بك هي إلى أن أنهى دراستي الجامعية وأحصل على شهادة. لم أفكر لحظة واحدة في التخلّي عنك. أقسم بذلك. لكن نعم، إذا كنت ترغبين في سماع الحقيقة، كنت بحاجة إلى أن أحسّن من حياتنا نحن الاثنين. وبعد مرور بضعة أيام على انتهاء امتحاناتي، وصلتني رسالة من أمي تقول فيها بأنك توفيت بمتلازمة الموت السريري». عندئذ مدّت يدها إلى حقيبتها الجلدية الرفيعة وأخرجت منها مغلفاً. هذه شهادة الوفاة التي أعطيت لي. «ألقي نظرة إليها».

«كيف يمكن تزوير شيء مثل هذه؟». أجبتها من دون أن أمسك المغلف.

«بسهولة تامة، إذا كنت في موقع مماثل لزوجة طبيب محلي. بعد وفاة والدي، بقيت أمي ميّومة لديه لسنوات. لذلك أرّجح أنّه كان حريضاً على مساعدتها بقدر ما كانت هي حريصة على خداعي أنا. كان رجلاً فظيئاً، عضواً متمكناً في المجتمع الكاثوليكي المحلي؛ وربّما فُكر هو أيضاً في ضرورة معاقبتي على فعلتي».

«معاقبتك بأن يدّعي بأنّ طفلك ماتت؟» هزّزت رأسي. «يصعب عليّ تصديق ذلك. وكيف صدّقت الآن أنني في قيد الحياة، إن كنت تعتقدين في البدء أنني... لم أكن كذلك؟».

«توفيت أمي قبل بضعة أسابيع. لكنني لم أحضر جنازتها إذ كنت قد قاطعتها طوال السبع وعشرين سنة الماضية. بعد وفاتها، تلقيت رسالة من محاميها. أرادت أن تعترف لي بما فعلته. وبالطبع قالت لي إنها تفعل ذلك من أجل نفسها، أكثر مما كان من أجلي. ربّما كانت تؤمن بأنها ذاهبة إلى الجحيم، بعد تلك الكذبة الفظيعة التي أخبرتني بها».

«وهل ذكرت الرسالة هوية الذي تبّنائني؟».

«قالت إن الطبيب أعطاك لكاهن الكنيسة الذي أخذك إلى دار للأيتام كان يقع في مكان ما في الناحية الشرقية. وعندما ذهبت إلى هناك قبل يومين فقط من مقابلتي ماوس، قالوا هناك إنه ليس لديهم أي سجل باسم 'لوسي شارلوت براون'». «أنا واثقة من أن والدي بالتبني لم يكن ليأخذني لو عرف بالأوضاع الحقيقية». قلت مدافعة.

«أنا واثقة من أنه لم يكن ليفعل. لكن أمي كانت كاذبة ماهرة. الحمد لله أنني أشبه جدتي تيسي. يا لها من سيدة رائعة. لقد عملت بجد كل حياتها، ولم تشتكِ مرة واحدة».

شعرت بوهن في ساقي. فانزلقت أسفل الموقد إلى الأرض، ووضعت ذراعي فوق صدري.

«لا أفهم كيف عثر پا سولت عليّ».

«هل پا سولت هو والدك بالتبني؟».

تجاهلت السؤال.

«لِمَ لم تتمكّني من العثور على اسمي في دار الأيتام؟».

«ربّما سجّلك الكاهن باسم مختلف، لكنّ المثير للاهتمام أنهم لم يُسجّلوا أيّ طفل بذلك الميتم خلال الأسبوعين التاليين لاستلامي خبر وفاتك. لقد راجعت بنفسني السجّلات الأصلية مع السكرتيرة عندما كنت هناك. لذلك أنا حقًا لا أعرف يا ستار. أنا آسفة».

«والآن مات والدي أيضاً، ولا أستطيع أن أسأله».

شعرت برأسي يعوم في ضياع. ثم طويت ذراعيّ فوق ركبتيّ وأسندت رأسي عليهما.

«حسنًا»، علا صوت ماوس. «إحداثياتك تشير إلى شارع ماري، حيث باتريسيا براون، أي جدّتك، عاشت حتى وفاتها. إنّه المكان الذي تعيدك إليه إحداثياتك، وليس إلى دار الأيتام. ربّما جرى الترتيب لتبنيّ خاص بشكل من الأشكال». وأضاف بعد صمت: «أليست سخرية الحوادث أن تبدأ بالبحث عن بعضكما في الوقت نفسه؟».

«إذا كانت تقول الحقيقة». تمتمت.

"إنّها الحقيقة يا ستار، صديقي. لا يمكن لأحد أن يخلق مثل هذه القصة من دون تخطيط مسبق، وخلال الدقائق القليلة التي استغرقتها مقابلتي لها بعد المحاضرة»، تمتم ماوس وهو يضع كوب الشاي الساخن على الأرض بجانبني.

«ولم يكن ماوس يسمح بأن أقرب منك لو لم يثق بي»، علّقت سيلقيا. «كما أنّه راجع الأرشيف الوطني ليتأكّد من وجود وثيقة وفاة رسمية صدرت باسمك. ولم يعثر على شيء. شعرت بالسعادة يا ستار! إذ حاولت بالفعل تتبع أثرك وفشلت، كما أنني جئت قبل الموعد هذه المرّة إلى إنكلترا لأحاول البحث عنك مرة أخرى. كنت فاقدة للأمل تمامًا عندما ظهر صديقك الحميم أمامي».

«هو ليس صديقي الحميم».

«إذن صديقك». صحّحت نفسها.

«ولم غيّرت اسمك؟».

- بعد أن أخبرتني أمي بوفاتك، فقدت عقلي لبعض الوقت. لم أكن لأتفاجأ لو أنّها قتلتك بيديها العاريتين. كما أنّها أخبرتني أنّها ربّبت لجنازتك بنفسها لكي تجنّبني الألم. بالطبع عدت على الفور إلى المنزل، لتأكّد من أنّها لا تكذب، فأعطتني حينها شهادة الوفاة. اتّهمتها بعدم رعايتك جيّدًا... وعضت أمي على شفّتها ورأيت الألم الحقيقي في عينيها. ثمّ طردتني من المنزل. فأقسمت على ألا أعود إلى هناك

مرة أخرى. ولم أفعل. مكثت في كامبردج، ورحت أعمل خلال العطلات لأدعم نفسي. أردت أن أنأى بنفسي عنها. واعتقدت أنني لو غيرت اسمي، فلن تتمكن من العثور عليّ.

«ومن كان والدي؟».

«كان مديري في مصنع الملابس حيث عملت خلال الصيف قبل دخول كامبردج، وكان ذلك لجمع بعض النقود التي كانت ستدعمني خلال دراستي الجامعية. وبالطبع كان متزوجًا... يا إلهي! أشعر بالخجل من إخبارك بكل هذا...». رأيت أمي تضع رأسها بين يديها وتبكي. لكنني لم أواسها. لم أستطع. وفي النهاية، واست نفسها بنفسها وواصلت الكلام.

«لست أنا من عليها البكاء. فلا عذر لديّ على ما اقترفته من ذنب، لكنّه أغواني، كان يصطحبني إلى العشاء في مطاعم فاخرة، ويقول لي إنني جميلة... يا إلهي! كم كنت ساذجة. ليس لديك أدنى فكرة عما كانت عليه والدتي: مفرطة في حمايتها، وملتزمة بتعاليم الكنسية التي كانت تجربني على الذهاب إليها طوال الوقت في طفولتي. ولم يكن لدي أدنى فكرة عن منع الحمل وما إلى ذلك. صدّقيني إذا قلت لك أن الكتاب المقدّس لا يخدم بشيء. لذلك كان مجيئك محتمًا».

«وهل كنت ستجهزينني لو كان بإمكانك فعل ذلك؟».

«أنا... لا أعرف. أحاول أن أكون صادقة معك قدر المستطاع يا ستار. عند انتهاء الصيف، وصلت إلى كامبردج، وبحلول تشرين الأول، أدركت أن هناك شيء غريب يحصل لي. فسألت صديقة، فاشترت لي اختبار حمل. وأكّد لي الطبيب بعد ذلك أن حملي تخطّى الشهر الرابع».

وعندما التقطت كوبها لترتشف الشاي، رأيت يديها ترتجفان لاإرادياً. فشعرت بأول تعاطف معها. وفكرت أنّها «لم تكن مضطّرة إلى وضع نفسها في تلك الحالة». كان بإمكانها أن تنكر أمام ماوس أي علاقة لها بي.

«أنا أسفة إذا تصرف معك بوقاحة». قلت لها.

«ليست طبيعتها». قاطعنا ماوس بنية حسنة. «فابنتك قد غيرتنا جميعًا منذ أن دخلت حياتنا».

نظرت إليه، ولمست بعض المودّة في نظرتة إليّ.

«حسنًا، سأترككما وحدكما». قال قبل أن يخرج من المطبخ، فشعرت برغبة مفاجئة في دعوته إلى البقاء.

«خذي هذا، أحضرت لك شيئًا كنت قد صنعته لك فور عودتي إلى كامبردج مباشرة بعد ولادتك. وكنت سأضعه حول معصمك حين أعود إلى المنزل». فوقفت سيلقيا واقتربت منّي، وجثت على ركبتيها بجانبني.

«هذا تذكّار صغير كنت سأتركه لك لتشعري بي في الوقت الذي لن أكون فيه إلى جانبك».

وناولتني علبة مجوهرات صغيرة مصنوعة من الجلد. فتحتها ورأيت في داخلها اسم صائغ في كامبردج، كان مطبوعًا بالذهب. ورأيت سوارًا صغيرًا موضوعًا على خلفية زرقاء من المخمل. أخرجت السوار ورحت أتفحص حجابًا كان على شكل قلب يتدلّى منه.

لوسي شارلوت

1980/5/21

«كنت أخطّط لأضيف إليه حجابًا جديدًا كل سنة في عيد ميلادك، لكن الفرصة لم تسنح لأعطيه لك. إلّا الآن. تفضّلي. واستعادت الصندوق مني، ثمّ أخرجت قاعدة العرض المركزية من مكانها وظهرت تحتها قطعة ورق صفراء. فأعطتها لي لأقرأها. كان إيصالًا بالسوار بتاريخ 20 أيار 1980. وقيمتة 30 جنيهًا إسترلينيًا. «كان مبلغًا كبيرًا في تلك الأيام». ابتسمت لي بخجل. ولاحظت خاتمًا ماسيًا ضخّمًا يتلألأ حول إصبعها، وشممت عطرها الزكيّ الثمين. بقيت جالسة بصمت ألعب بالسوار الصغير. وفكرت في نفسي أنّه في حال كان كلّ ما يحدث هنا تمثيلًا، فإنّه تمثيل بارع.

«لوسي... ستار، هلاًّ نظرت إليّ من فضلك؟». اقتربت منّي ورفعت ذقني نحوها. «لقد أحببتك حينذاك، وما زلت أحبك الآن. من فضلك، من فضلك صدقيني».

وابتسمت في وجهي بعينين زرقاوين غائمتين خلف الدموع.

وفجأة اغرورقت عيناى بالدموع.

«هل يمكنني... هل أستطيع معانقتك؟ إنني أتوق لذلك منذ وقت طويل».

لم أمانع، فتحرّكت نحوي، وسحبّني ذراعاها إلى حضنها. وبعد تردد طويل، تحرّكت ذراعاى تلقائيًا حولها من دون أي مجهود، وشعرت بنفسى وأنا أطوّق ظهرها. «يا لها من معجزة»، تمتمت داخل خصل شعري، وهى تمسدها بيديها الناعمتين. «يا طفلى... ابنتى الجميلة...».



«هل أنت بخير؟». سألنى ماوس عندما عاد إلى المطبخ بعد ساعة، ووجدنا ما نزال نجلس على الأرض ونضغط بظهرينا على الموقد الدافئ. «أجل». ابتسمت له. «نحن بخير».

«حسنًا»، قال وهو يتفحصنا، «نادّني إن احتجت إليّ». ثمّ مشى إلى الباب، لكنّه عاد واستدار. «كأنّنى أنظر إلى حبّتى بازلاء فى قرنية واحدة». وغادر الغرفة. «إن ماوس هذا رجل طيب»، تابعت أمى وهى تمسّد أصابعى، كأنّها كانت تطبعها فى ذاكرتها. فهى لم تتوقف عن لمسى طوال الساعة الماضية، واعتذرت عن ذلك متحجّجة بأنّها تحاول إقناع نفسها بأنّها ليست فى حلم. «هل هو قريب لنا؟». «كلا».

حاولت إعطاءها لمحة مختصرة عن نفسى وطفولتى وعن نشأتى مع شقيقتى الخمس فى أتلانتيس. ثمّ انتقلنا للحديث عن هاي وولد وتعقيدات عائلة فوربس/فُوغان.

«سمعت أن ماوس لديه أخ غريب الأطوار قليلًا. أظنّه يدعى أورلاندو؟».

«أجل، يا له من إنسان رائع».

«أظنّ أن ماوس ضعيف تجاهك يا ستار. وعلى فكرة، يسرّنى كثيرًا أن يكون

والدك بالتبني قد أطلق عليك هذا الاسم الجميل. فهو يناسبك. تعرفين أن اسم «لوسي» يعني النور؟».

«أجل».

«إذًا، هذا يعني يا ستار أنك تشعين نورًا». وابتسمت.

واصلنا الحديث، وكنا في أغلبه نستطرد بعيدًا حين يتبادر سؤال إلى ذهن أي منا. وعرفت منها عن إخوتي غير الأشقاء، وهم ثلاثة، كلهم أصغر مني، وهناك فارق كبير في السنّ بيننا. وقد سمتهم «جيمس» تيمناً بجويس، «سكوت» تيمناً بفيتزجيرالد، و«آنا» تيمناً ببطلّة تولستوي المأساوية. كما أخبرني أنّها سعيدة في زواجها من والدهم روبرت. فبدت لي أنّها تعيش حياة شاعرية.

«بالطبع روبرت يعرف عنك. لقد دعمني كثيرًا عندما تلقيت الرسالة من محامي أمي قبل أسابيع قليلة. وسيشعر بسعادة غامرة عندما أتصل به لأخبره بأنني وجدتك. هو رجل طيب أضافت. ستحبّينه».

«عُرض عليّ منصب في كامبردج»، اعترفتُ لها فجأة.

«فعلًا؟ ممتاز! هذا إنجاز في الوقت الحالي. ففي أيامي، كان من السهل الحصول على منصب مماثل، خصوصًا أنني آتية مما يصنّف خلفية محرومة. إذ إن الحكومة في ذلك الوقت كانت متحمسة جدًّا بشأن مذهب المساواة. لذلك يمكن القول أنك حققت إنجازًا أكبر مما حققته أنا. لمَ لم تقبله؟».

«كان سيضطرّني إلى ترك أختي. وكانت واحدتنا بحاجة إلى الأخرى».

«هل هي سيسي التي تعيشين معها في لندن؟».

«نعم».

«حسنًا، أنت قادرة على تعويض تلك الفرصة والعودة الآن إذا رغبت في ذلك. فكما تعرفين لم يفت الأوان لتغيّري مصيرك».

«تذكريني بپا سولت». وابتسمت. «هذا ما كان يقوله دائمًا».

«أحبّ ما كان يقوله پا سولت. من المؤسف ألا أستطيع التعرّف إليه».

«أجل، لقد كان والدًا رائعًا لنا جميعًا نحن الفتيات».

شعرت بأنّها ترتجف إلى جانبي، لكنها عادت وتعاغت بسرعة.

«إذن هل لديك فكرة عما تريدين فعله في حياتك الآن بعد أن استقررت في إنكلترا؟».

«كلا، لا أعرف شيئًا. أعني، اعتقدت أنني أريد أن أكون روائية، لكن الأمر صعب أكثر مما يبدو عليه، ولست أكيدة من أنني جيّدة في ذلك».

«ربّما ليس الوقت المناسب، وقد يحدث في ما بعد، كما هي الحال مع كثير من الكتاب. وقد حصل معي أنا أيضًا».

«في الواقع، أنا أحبّ الأمور البسيطة، مثل إدارة المنزل، والطهو، والاعتناء بالحدائق...». التفت إليها فجأة قبل أن أتابع. «لست امرأة طموحة. هل ذلك خطأ؟».

«بالطبع لا! أعني كلنا سعداء بالمرحلة التي بلغها تحرّر المرأة، واسمحي لي أن أخبرك بأننا نحن، فتيات الثمانينات، والجيل الأول من المتعلّقات، كنّا رائدات في وضع أوّل قدم ثابتة، أو أوّل كعب عالٍ إذا صحّ التعبير، في أماكن عمل يهيمن عليها الذكور. لكنني أوّمن أكثر أن ما فعلناه آنذاك كان ببساطة إعطاء الأجيال التابعة من النساء حق الاختيار. بعبارة أخرى، لقد مكّنا الإناث من أن يخترن ما يردن أن يكنّه».

«إذن، هل من المقبول أن أقول، الآن فقط، إنني لا أريد بناء حياة مهنية؟».

«لا بأس بذلك يا عزيزتي». قالت وهي تعصر يدي داخل قبضتها وتقبلني في أعلى رأسي. «هذه هي الحرية التي وقرها لك جيلي. ولا حرج في أن تكوني أمًا غير عاملة، وأقول لك عن معرفة إنّ الأمر يكون أسهل، إذا تمكنت من العثور على من يقدّم إليك الدعم في أثناء تربيته أطفالك».

«حسنًا، لم أحصل على ذلك بعد». ضحكت.

«سوف يحصل يا عزيزي، سوف يحصل».

«إيه، مرحبًا»، قال ماوس وهو يطل من باب المطبخ. «جئت فقط لأقول إن أورلاندو اتصل ليخبرني أنه ومارغريت وروري عائدون من تتردن».

«إذن من الأفضل لي أن أذهب».

عندما حاولت والدتي النهوض، شددتها أرضًا لكي لا ترحل.

«هل يمكنها البقاء، يا ماوس؟».

«بالطبع يا ستار». قال وهو يبتسم لي. «لا مشكلة في ذلك».

43

تلك الأمسية، اعتبرت، وأنا أندس في الفراش، أنها كانت من أفضل الأمسيات في حياتي. فبعد أن وصل آل فوغان وفوربس جميعًا معًا إلى المنزل، اتّضح لي استعداد أورلاندو وماوس لاستقبال سيلقيا بأذرع مفتوحة.

«في النهاية، إنها من العائلة». ضحكت مارغريت وهي تشعل سيجارة «جيتان» أخرى من سجائرها التي لا تنتهي، وتحتسي كأسًا أخرى من كووس النبيذ الأحمر التي لا تعدّ ولا تحصى، فيما كنت أطبخ مفاصل لحم البقر التي عاد بها أورلاندو إلى المنزل من متجر المزرعة. وعندما جلسنا إلى مائدة العشاء، رحنا نشرح مزيدًا سيلقيا، عن مدى ارتباطها، ونتيجة ذلك ارتباطي، بتلك العائلة المعقدة. وفيما كان النبيذ يتدفّق في الكؤوس، شعرت بشكل من أشكال التسرّب السهل عبر جدران هاي ويلد القديمة الرطبة. كما لو أنه تمّ العبث بأسرار الماضي فراحت تهبط مثل الندف الثلجية لترسو في النهاية بكل هدوء فوق الأرض.

وفيما كنت أحرّك قدمي لأعثر على مساحة دافئة بين الملايات المتجمّدة، أدركت تلك الليلة، وبينما كانت أمي هنا إلى جانبي، أنني أخيرًا أشعر بالانتماء.



«يا إلهي!»، قالت أمي وهي تدخل المطبخ في صباح اليوم التالي، وتجدني منكبّة فوق الموقد على تحضير الفطور. «أعاني آثار مشروب البارحة. لقد نسيت تمامًا كيف يشرب الإنكليز». تابعت وهي تقترب منّي لتعانقي من تلقاء نفسها.

«أشَمَّ رائحة زكية». علّقت وهي تنظر إلى النقانق التي كنت أأكلها لروري، الذي تسلّل لمشاهدة هاري بوتر، فيلمه المفضل الجديد، بينما لم يعترض أحد.

«أنت بالفعل طبّاحة ماهرة يا ستار. تمامًا مثلما كانت جدّتك الكبرى تيسي. ما زلت أحلم برقائق البطاطس التي كانت تحضّرها في المنزل».

«أنا أيضًا أحضّرها في المنزل». قلت لها.

«حسنًا، أودّ أن أذوّقها ذات يوم». قالت، وعيناها تجولان نحو إبريق القهوة.

«هل يمكنني أن أسكب فنجانًا لنفسِي؟».

«تفضّلي أرجوك».

«شكرًا لك. هل تعرفين أننا بقينا أنا ومارغريت مستيقظتين بعد أن خلدتم إلى النوم. حاولنا معظم الوقت أن نفهم ماذا كنّا نقرب لبعض. فتوصلنا إلى أننا أبناء عمّ من الدرجة الثانية. لكن من يدري؟ ومن يهتم؟! يا إلهي! تلك الفتاة قادرة على الشرب حتى الثمالة. جلست هناك إلى الطاولة، وعلى الرغم من انزعاجها كما قالت بسبب احتسائها الكثير من الخمر، بدت أنيقة في سروال الجينز وسترة الكشمير التي كانت ترتديها. لقد أخبرتني كيف وقعت في حب مالك القصر الذي ترسم فيه اللوحات الجدارية هناك في فرنسا. وأنها سئمت من هاي ويلد ومن محاولتها الإبقاء عليها. شعرت بأنها ترغب في الانتقال من هنا».

«إلى أين؟».

«لِمَ؟ إلى فرنسا، بالطبع!».

«وماذا عن روري؟ سيضطرّ إلى تعلّم لغة الإشارة الفرنسية، فهي مختلفة تمامًا عن النسخة البريطانية...».

«أنا حقًا لا أعرف يا ستار، لعلّها ستحدّثك بالأمر. هل تعرفين، بمجيئي إلى هنا، أدركت كم أنا إنسانة بسيطة. وكم أن الحياة التي أعيشها بسيطة مقارنة بأبناء عمّي الإنكليز الذين اكتشف وجودهم لتوي».

«متى تغادرين إلى الولايات المتحدة؟».

«حُجزت على الرحلة التي تغادر هذه الليلة. لذلك إذا ناسبك، يمكننا أن نبقى معًا ما تبقى لي من وقت هنا؟».

«أجل، أودّ ذلك».

بعد أن قدّمت الفطور وغسلت الأطباق، كلّفنا روري أن يأخذنا في جولة حول الحدائق. فتقدّمنا وراح يدور حول الممرات الصلبة المتجمّدة، ويرسم لي إشارة التكاسل كلّما تأخرنا قليلًا في اللحاق به.

«يا له من ولد لطيف، ذلك الصغير، وفطن أيضًا»، علّقت أمّي. «ناهيك بأنّه مولع بك».

«وأنا أيضًا أحبه. إنّه في غاية الإيجابية».

«أجل، هو كذلك. بارك الله فيه، آمل فقط أن تعامله الحياة بلطف في المستقبل».

«لديه عائلته التي تحيط به وتحميه».

«أجل، صحيح. أقلّه الآن»، أضافت أمّي مع ابتسامة حزينة.

من بعد ظهر ذلك اليوم، طلبت إلى مارغريت أن تعيرني سيارتها الفيات لأقود أمّي إلى تنتردن، حيث كان أورلاندو، الذي كان يعاني هو أيضًا أثر النبيذ، يرصّ الكتب فوق الرفوف.

«آه! سيّدتاي المترفتان تتفضّلان بزيارتي في مسكني المتواضع. أهلاً بك يا أستاذة غراي. لعلّني قادر الآن على القول إن أوّل زبون عندي هو أستاذة في الأدب من جامعة يال؟ والآن، اسمحي لي أن أريك الطبعة الأولى الرائعة من رواية أنا كارينينا».

«أرجوك أورلاندو، طلبت إليك مساء أمس، أن تناديني سيلفيا».

بينما كان أورلاندو وأمّي يغوصان في شغفهما المشترك، تولّيت عملية رصّ الكتب فوق الرفوف، وأنا أشعر، مثل روري، بأنّني أناضل لفهم ما كانا يتحدثان عنه.

«بالطبع، لدينا خبيرة في إصدارات الأدب الإنكليزي في أوائل القرن العشرين

وهي ستار».

ورمقني أورلاندو بنظرة، بعد أن أدرك، كونه حساسًا بما يكفي، أنني على الأرجح كنت أعاني تجاهلهما لي.

«أسألها أي سؤال عن مجموعة بلومزبري، على وجه الخصوص عن جارة هاي ويلد القديمة، عزيزتنا فيتا ساكفيل-وست، وعن العشاق المنسويين إليها. أجد الأمر مثيرًا للسخرية، بالنظر إلى ماضي السيدة فلورا فوغان».

«أخبرتني ستار ليلة البارحة عن ذلك الرابط على نحو مبهم». علّقت أمي.
«في المرة المقبلة التي تعودين فيها إلى البلاد يا سيدة سيلفيا، عليك أن تقرأي اليوميات بكاملها. ستعطيك لمحة رائعة عن إنكلترا الإدواردية.

«حسنًا، ربّما ينبغي على ستار أن تحوّلها إلى رواية. أنا واثقة من أن العالم بأسره سينبهر بقصة فلورا».

«هذه فكرة ممتازة، يا سيدة سيلفيا. ما بالك بمعرفتها المتعمّقة بأدب تلك الحقبة، فضلًا عن الرابط الشخصي الذي يجمعها بالسيدة فلورا. لن نجد أحدًا مؤهلًا أكثر منها». وافق أورلاندو. وشعرت بزوجين من العيون تحدّقان إليّ.
«ربّما في الوقت المناسب»، قلت وأنا أهرّكتني.

«إذا قررت القيام بذلك، أنا واثقة من أن المطبعة في جامعة يال ستهتم لنشرها».

«كما سيفعل عدد من الناشرين التجاريين هنا»، تصدّى لها أورلاندو. «فالقصة لديها كل العناصر التي تسمح بإطلاق عبارة «قصة حب تاريخية» عليها، بغض النظر عن مدى صحّة حوادثها!».

نظرت والدتي إلى ساعتها.

«أخشى أنّه حان وقت الانطلاق في طريق العودة إلى المنزل. فقطاري المتّجه إلى لندن يغادر قريبًا».

عندما عدنا إلى هاي ويلد، نزلت والدتي السلالم ممسكة حقيبتها.
«سيقلّك ماوس إلى المحطة». قلت لها.

«آه يا ستار». أخذتني أمي بين ذراعيها وضمتني إليها بقوة. «أرجوك ابقني على تواصل معي كلما سنحت لك الفرصة. وإلا سأبدأ بالتفكير بأنني كنت أحلم بكل ما حصل. لديك جميع أرقامى؟ وبريدي الإلكتروني؟».

«أجل، كلها».

علا صوت بوق في الخارج.

«حسنًا، سأضطرّ إلى توديعك الآن. لكن عندما أصل إلى المنزل، سنبداً بالتخطيط للقاء آخر. إمّا أن تأتي أنت إليّ في كونيتيكت وتتعرّفي إلى إخوتك غير الأشقاء وأختك، أو أن أعود أنا إلى هنا لأراك مجددًا، اتفقنا؟».

«أجل، هذا يناسبني».

عانقتني أمي عناقًا شديدًا، ثمّ رمت لي وهي تخرج من الباب قبلة في الهواء، فبقيت أنظر إليها وهي تركب سيارة اللاند روفر إلى جانب ماوس. وعندما انطلقت السيارة، شعرت فجأة بأنني تيتمت من جديد. لقد بدت هذه المرأة بأنها تعرفني من كتب كما لم يعرفني أحد، فيما بدأت لتوّي بالتعرف إليها.



بعد دخول روري فراشه، قدّمت على العشاء الملفوف المقلي مع البطاطس واللحوم مع ما تبقى من طعام، وتناولنا الوجبة بصمت مريح. لقد كنا كلنا منهكون مما مرّ بنا في اليومين الماضيين. بعد ذلك، انسحب أورلاندو ليخلد إلى فراشه، بينما صعد ماوس إلى الطبقة العلوية ليلقي نظرة على تسرّب المياه الذي اكتشفته مارغريت في سقف غرفة نومها.

«والذي يتجمّع حاليًا داخل قدر». وتنهّدت مارغريت وهي تساعدني في إزالة الأطباق عن الطاولة. «على فكرة، سأطلق باكراً غدًا صباحًا لأعود إلى فرنسا. ماوس سيعطيك بعض النقود للبقالة التي ستحتاجين إليها في غيابي».

«متى تعودين؟».

«أبدًا، ليت كان لديّ الخيار، لكن ما باليد حيلة. بالله عليك كم أكره هذا

المنزل. فهو بمثابة رعاية قريب عجوز مريض، على الرغم من أنك تعرفين أن هذا الأمر ليس بيدك». بعد أن انتهت من تجفيف صحن، تناولت سيجارة وأشعلتها ورمت بنفسها فوق كرسي. «كنت أقول لماوس إنه عليّ التفكير جدًّا في بيعه. أعرف جيدًا أنه يفترض أن ينتقل إلى روري، لكنني واثقة من وجود ابن مدينة لديه زوجة طموحة من الطبقة الراقية، ممن يرغبون في إنفاق ملايينهم على بيت مثل هذا في الأرياف. على الأقل قال ماوس إنه وأورلاندو سيخصصان لي مبلغًا مما سيجنياه من بيع متجر الكتب. ستكون بمنزلة مكافأة لي في الأوضاع الراهنة». قالت بحزن.

«لكن روري سعيد هنا».

«نعم هو كذلك، لأنه أصبح مثل منزله. يا للمفارقة، حقًا...».

أدارت عينيها باتجاه النافذة وتنهّدت، ثم نفثت الدخان من فمها. «في أي حال، سأرحل غدًا، وأغيب فترة من الوقت، وجزء كبير من الحوادث الحالية يحصل بفضلك يا ستار. لقد أعدت بحق، الاستقرار إلى هذا المنزل وسكانه. خصوصًا ماوس».

«لا أعتقد ذلك». تمتمّت.

«أنت لم تعرفيه من قبل. لقد تغيّر يا ستار، وهذا على الأقل يعطيني أملًا بأن الأمور قد تتغيّر في المستقبل. إنه في الواقع يبذل جهدًا مع روري وهذا بنظري معجزة. حتى أورلاندو أصبح أقل انقطاعًا عن الواقع منذ دخولك إلى حياته. لقد تساءلت دائمًا إذا ما كان مثليًا، ومع ذلك لم أره يومًا برفقة أحد، ذكرًا أكان أم أنثى. أخمن أنه لا جنسي. ما رأيك أنت؟».

«أعتقد أنه مغرم بكتبه. هي كل ما يحتاج إليه»، قلت لها وأنا أشعر بعدم الارتياح لمناقشة حياة مديري الجنسية.

«هل تعرفين بماذا أفكر؟ أعتقد أنك على حق». ابتسمت مارغريت.

«روري سيفتقدك عندما ترحلين». قلت لها وأنا أرغب في إعادة المحادثة إلى منطقة أكثر أمانًا.

«وأنا سأفتقده، لكنّ الخبر السار هو أنه معتاد منذ صغره رعاية الوجوه

الجديدة له. لقد حظي بفيض من المربيات قبل أن أقرر أن الوقت قد حان لأتولى المسؤولية بنفسى. والآن، إذا كنت لا تمانعين، سأدع الأمر بين يديك». ثم نهضت وأطفأت سيجارتها في وعاء الصبار البائس. «إليك نصيحة منى: من الرائع أن يقع الواحد منا في الحب. فهو يعيد الإشراف إلى حياتنا كلها. ليلة سعيدة يا ستار». وبهذا، بعثت لي قبلة في الهواء وتركتني وحدي في المطبخ، ويدي غارقتان في رغوة الصابون، ورأسى يغزل ويدور.

عندما انتهيت من التنظيف، تجولت على طول الممر إلى غرفة الجلوس، وفي يدي كوب شوكولاتة ساخنة، وأشعر بأننى بحاجة إلى بعض الوقت لألتقط أنفاسى. «مرحبًا».

فوجئت بماوس يدخل الغرفة، بينما كنت أهم بالجلوس. «أهلاً».

«سأضطر إلى استدعاء سبّاك غدًا لينظر بنفسه في ذلك التسرب. هذا لا يعنى أنه قادر على حل المشكلة. أخمن أن المشكلة من السطح».

«آه»، قلت له وعيناي تحدقان إلى السنة اللهب المتصاعدة من الجذع المحترق.

«هل لديك مانع إذا جلست قليلًا؟».

«كلا. هل أقدم إليك الشوكولاتة الساخنة؟».

«لا شكرًا. أنا... أريد التحدث إليك يا ستار».

«عن ماذا؟».

«عن أمور متفرقة وهكذا»، قال وهو يجلس على الكرسي المقابل، وقد بدا لى أنه غير مرتاح مثلما كنت أشعر أنا أيضًا. «حسنًا»، تنهد قائلًا، «لقد مرّ الكثير علينا منذ أن جئت أول مرة إلى متجر الكتب، أليس كذلك؟».

«نعم، مرّ كثير».

«ما هو شعورك الآن بعد أن عثرت على أمك؟».

«أشعر أننى بخير. شكرًا على تحمل عناء الذهاب إلى كامبردج نيابة عنى».

«لم يكن في ذلك عناء، صدقًا. في الواقع، أفادني كثيرًا أن أعود إلى المكان الذي شعرت فيه ذات مرة بسعادة مطلقة. فهناك التقيت بآني».

«أحقًا؟».

«نعم. انطلقت إلى كامبردج قبل ساعتين من موعد بدء المحاضرة. رحلت لأتناول الجعة في الحانة التي كلمتها فيها أول مرة».

«لا بدّ من أنك وجدت راحة في ذلك»، غامرت في القول.

«كلا. في الواقع، لم يكن الأمر كذلك، بل كان مروّعًا. عندما جلست هناك، لم أقدر إلا أن أسمع رأيها في السلوك الذي أبديته منذ أن فارقت الحياة. وكم تصرفت بأنانية وقسوة منذ أن تركتني. لقد كنت شريكًا يا ستار، كنت حقًا كذلك».

«كنت في حداد. وهذا ليس شرًا».

«بل هو شرّ، عندما يتأثر به كل من حولك. لقد أوشكت على تدمير هذه العائلة، من دون مبالغة». أضاف بحسرة. «في ما بعد ذلك المساء، التقيت والدتك، ورأيت كلّ الحب الذي حملته لك في داخلها كل تلك السنوات، على الرغم من أنّها كانت تعتقد أنّك ميتة إلى أن عرفت الحقيقة قبل بضعة أسابيع. فتخيلت آني، من حيث هي فوق، تنظر إليّ وإلى كل ما فعلته. أو ما لم أفعله»، صحّح نفسه. «ثمّ وقفت على الجسر بجوار كلية كينغز كوليغ وكدت أن ألقي نفسي في النهر. كنت أعرف منذ وقت طويل الفوضى التي تسببت بها تصرفاتي، لكنني، مثل أي مدمن كحول يعرف أنّه سكير قدر، ومع ذلك يجرع كأسًا أخرى لتساعده على الشعور بالتحسن، لم أكن أعرف كيف أعيد الأمور إلى مسارها الصحيح».

«أنا أفهمك»، قلت له بهدوء، وبالفعل كنت أفهمه.

«تلك الليلة في كامبردج كانت مؤثّرة». تابع قائلاً. «أدركت فيها أن عليّ أن أتجاوز الماضي، وأدع آني أخيرًا في حالها، وأتوقّف عن الانغماس في الشفقة على نفسي. ليس هناك فائدة من التمسك بذكراها عندما ستؤثّر سلبيًا إلى أبعد الحدود في أولئك الذين ما زالوا أحياء. بعد ذلك، عدت إلى المنزل، وأنا مصمم على إعادة الأمور إلى نصابها».

«هذا جيد». قلت له لأشجعه.

«وأول محطة لي هي أنتِ. وأنا واقف على الجسر في تلك الليلة، اعترفت
لنفسي أنني قد أكنّ... لك مشاعر. الأمر الذي أربكني، فبصراحة كنت أعتقد أنني
لن أحب من جديد. ثم شعرت بالذنب، فبعد أن وضعت زوجتي المتوفاة في مرتبة
عالية خلال السنوات السبع الماضية، اعتبرت مشاعري الجديدة خيانة بطريقة أو
بأخرى، وشعوري بالسعادة في حضورك من باب الخطأ. كنت، وما زلت»، تابع قائلاً،
«خائفاً لا بل مرعوباً. وربما لاحظت أنني عندما أحب، فإن حبي يستلزم مني كل
الطاقة والجهد». وأظهر لي ابتسامة سريعة وساخرة. «كما أنني يا ستار، ومن دون
إحراج، واثق من أنك أدركت أنني أحبك. فأنت جميلة حقاً».

«لست كذلك يا ماوس، أستطيع أن أؤكد لك».

«حسناً، بالنسبة إلي أنت كذلك، على الرغم من أنني أدرك تماماً أن لديك
عيوباً أنت أيضاً، تماماً مثلما كان لآني. اسمعي...». وانحنى ليصل إلى يدي، فتركته
يمسك بهما على مضض، وأنا أشعر بقلبي يدق بسرعة كبيرة لدرجة اعتقدت للحظة
أنه كان سينفجر. «ليس لدي أدنى فكرة عما تشعرين به تجاهي. فهذا الهدوء الذي
تبدينه في الظاهر منيع ولا يمكن اختراقه. سألت أورلاندو عنك البارحة، إذ بدا لي
أنه أفضل من يعرفك هنا. قال إن سلوكي تجاهك لم يكن منتظماً فيما كنت أترجح
بين المشاعر التي وُلدت حديثاً وإحساسي بالذنب لولادتها، فرجّح أن تكوني قد
شعرت بالخوف من الشعور بشيء تجاهي، إن كنت قد شعرت به فعلاً».

بدا ماوس البليغ عادة والمقتصد في الكلام، متسرّعاً في كلامه. «لذلك، قررت
أن أول شيء عليّ فعله في رحلة إعادة تأهيلي، على أمل إعادة إنشاء نسخة جديدة
منّي تكون أفضل من النسخة السابقة، هو أن أتصرف كرجل وأخبرك بالأمر. إذن؟
هل تعتقدين أنك؟ تشعرين بشيء تجاهي؟».

في تلك اللحظة، شعرت بأن ماوس كان متفوقاً عليّ بسبب الوحي الذي نزل
عليه في أثناء وقوفه على الجسر. وذلك لم يكن منصفاً بحقي. إذ إنه حظي بالوقت
الكافي لترتيب مشاعره؛ حقيقية أكانت أم وهمية، بينما أنا لم أحظ بشيء.

«أنا... لا أعرف».

«حسنًا، تكاد تكون اقتباسًا من روميو وجولييت، لكنّها على الأقل ليست نفيًا قاطعًا. كما أنّه...». سحب يديه وأبعدهما عني، ثمّ نهض عن الكرسيّ وراح يسير. «قبل أن تقرّري إذا كنت تكّنين لي مشاعر أم لا، لديّ أمر آخر لأخبرك به. وهو أمر فظيع لدرجة أنّه في حال اكتشفت أنّك تكّنين لي المشاعر، فأنا واثق من أنّك ستضعين لها حدًّا على الفور. أنا قادر على تخييبك منذ البداية يا ستار، وإذا كنّا سنحظى بفرصة معًا في المستقبل، فعليك أن تعرفيه الآن».

«ما هو؟».

«حسنًا...». توقف ماوس عن السير واستدار نحوي. «كانت آني صمّاء».

نظرت إليه فيما تمنّى أن أربط الأمور بنفسي. كنت أعرف أن هناك خطبًا ما، لكنني لم أستوعبه.

«بعبارة أخرى، روري هو ابننا... ابني».

«يا إلهي...». همست فيما كان كلّ ما لم أفهمه بعد عن هذه العائلة يتضح لي أخيرًا في لحظة وحي صارخة. رحت أحدّق إلى المدفأة فيما سمعت ماوس يتنفس الصعداء ويرمي بثقله على الكرسي.

«عندما كانت حاملًا، شعرنا كلانا بحماسة شديدة. ثمّ ذهبت لإجراء أول فحص شعاعي، فتبيّن أنّها مصابة بسرطان المبيض. كان من البدهي أنّها لن تستطيع الحصول على أي شكل من أشكال العلاجات لكي لا تؤذي الجنين، لذلك بقينا أمام خيارين مروعين: إمّا الإبقاء على الحمل وتحملّ عواقب العلاج الكيميائي المؤجّل أو الإجهاض من أجل الخضوع لعلاج فوري. وبالنظر إلى طبيعتها المتفائلة، قررت آني الخيار الأول، وهي تعلم أنّها سواء أعاشت أم ماتت، ستكون تلك فرصتها الوحيدة لإنجاب طفل. فقد أخبرها الأطباء أن عليها استئصال كل شيء حالما تلد. هل تتبعينني يا ستار؟».

«أجل».

«وُلد روري، وعلى الفور أجروا لآني العملية. لكن بحلول ذلك الوقت، كان السرطان قد انتشر إلى غددها الليمفاوية وطاول كبدها. وتوفيت بعد شهرين».

سمعت صوته ينقطع قبل أن ينهي كلامه.

«في الحقيقة، عندما اكتشفنا مرضها، توسّلت إليها لكي تجهض وتمنح نفسها فرصة عالية لإنقاذ نفسها. أنت تعرفين الآن كم كنت أعشقها. لذلك عندما رحلت، كل مرة كنت أنظر فيها إلى روري، لم أكن أرى فيه طفلاً بريئاً، إنّما قاتلاً أمّه. لقد كرهته يا ستار. كرهته لأنّه تسبّب في موت أمّه... حب حياتي. فأني كانت تعني لي كل شيء في هذه الحياة».

ثم اختنق بكلماته، واستغرقت عودته إلى تمالك نفسه بعض الوقت. بقيت جالسة على كرسيّ من دون حراك، بالكاد أجروُ على التنفس.

«بعد ذلك، لا أذكر جيّداً ما حصل، لكنني مررت بنوع من الانهيار وأدخلت المستشفى بعض الوقت. كان هذا عندما لم تجد مارغريت، بارك الله فيها، خياراً سوى أن تأخذ روري لتربيته في هاي ويلد. وفي النهاية، تعافيت من الحبوب المخدرة التي لم يكن لها نهاية، وأُعيد روري إليّ، مع مربية لتعتني به. وقد جرى تشجيعي، بحسب تعبير المعالج النفسي، على خلق رابط بيني وبينه. لكنني لم أستطع. لم أستطع حتى تحمّل النظر إليه. وبعد فترة وجيزة توفي والدي أيضاً. وبعد سلسلة من المربيات الفاشلات، اللواتي أخفهنّ بسلوكي العدواني، اقترحت مارغريت أن يعيش روري عندها في هاي ويلد. بعد أن استسلم الجميع أمام وضعي واعتبروني حالة ميؤوس منها. وهذا ما كنت عليه بالفعل. لقد دمّرت مستقبلي المهني كمهندس معماري، وحكمت على المزرعة بالخراب. فكانت النتيجة أن تحمّلت مارغريت عبء رعاية روري على مدى السنوات الخمس الماضية، ما منعها من عيش حياتها الشخصية والمهنية. وروري نفسه... يا إلهي ستار، الآن يظنّ أنني خاله! والأسوأ من ذلك، إنّه لا يعرف شيئاً عن والدته! لم أسمح لأحد أن يذكر أنني أمامه طوال الوقت! هو يشبهها إلى حدّ بعيد، فأني كانت فنانة موهوبة مثله... كيف يمكنني أن أعوّض عليه ذلك الوقت الفائت؟».

ساد صمت بيننا، بينما بقي ماوس جالسًا، يعاني صعوبة في التنفّس، واضعًا رأسه بين يديه. في النهاية قلت له:
«حسنًا، على الأقل أنت أعددت له كعكة البارحة».
نظر إليّ بعينين متألّمتين. ثمّ رفع ذراعيه، وقال لي بلغة إشارات متقنة:
«أجل فعلتُ ذلك. شكرًا لك».

أخبرت ماوس أنني بحاجة إلى الذهاب للنوم. كنت متعبة من الصدمة التي تلقيتها في الأيام القليلة الماضية، ومما تلقيته منه الآن. تمددت فوق السرير والتفتت بالبطانية واللحاف مثل شرنقة، وشعرت بحاجة إلى تحليل الوقائع قبل أن يتخذ قلبي أي قرار.

مع أنني تعاطفت من أعماقي مع ماوس والخسارة المعقدة التي تحملها، لكنني تعاطفت أيضًا مع أورلاندو ومارغريت، وخصوصًا روري. البريء من كلّ التهم. كان ذنبه الوحيد أنه جاء إلى هذه الحياة.

وعلى الرغم من ذلك... كان يتحلّى بروح مرحة غير مضطربة، وقادرة على أن تكون مصدرًا للحب فقط من إغداقه منه على الآخرين. كان قد تقبّل حالته غير العادية كما يفعل الأطفال، وكما فعلت أنا، من دون طرح الأسئلة. وعلى الرغم من سلوك والده تجاهه، لقي من يحتضنه عندما كان يسقط، كما كان الوضع بالنسبة إليّ.

أما بالنسبة إلى تصريح ماوس بمشاعره تجاهي، فقد شددت على نفسي لكي لا آخذه على محمل الجد. فذلك الإدراك قد حصل بسبب عودته إلى كامبردج، وكل السنوات التي كان فيها وحيدًا وبائسًا، من المؤكد أنها تحوّلت إلى حب في غير محله للأنتى الوحيدة التي وجدها قريبة منه: أنا. كنت أعمل عند أخيه، وأدخل الطعام إلى معدته وأرعى ولده...

كان من السهل أن أرتكب ذلك الخطأ الذريع.

«أجل»، فكّرت في نفسي، «هذا هو السبب». ولا مجال لأفتح قلبي الرقيق وأسمح بتدفق مشاعره في مياه ماوس العكرة الناتجة عن عواطفه الجياشة. «لكنني سأبقى هنا»، فكّرت وأنا أغمض عيني. «من أجل روري».



كنت قد عدت لتوّي إلى هاي ويلد بعد أن أوصلت روري إلى المدرسة في صباح اليوم التالي، عندما دخل ماوس من الباب. لاحظت أنه كان يرتدي الملابس نفسها التي رأيته فيها أمس، كما لو أنه لم يأوِ إلى الفراش قط. «مرحبًا».

«مرحبًا»، قلت وأنا أحضر البيض واللحم المقدد من المخزن لأعدّ الفطور لأورلاندو. ألقيت عليه نظرة سريعة وأنا أمشي باتجاه الموقد، وفكّرت في أنه كان يبدو محطّمًا كليًا هذا الصباح. شعر جزء مني بأنه كان يستحق ذلك. «هل فكرت فيما قلته لك البارحة؟». سألني. «أجل».

«وماذا قررت؟».

«من فضلك يا ماوس، حصلت أمور كثيرة في الأيام القليلة الماضية، وأنا بحاجة إلى وقت لاستيعابه كله، لذلك لا أستطيع أن أقرّر على الفور». «بالتأكيد».

«عدا عن ذلك، لا علاقة للأمر بك أو بي، لكن بروري. ابنك».

«أعرف ذلك. انظري، أنا أيضًا فكرت مليًا، وأنت محقّة. لا أستطيع أن أتوقع منك أن تثقي بي فجأة، ناهيك بأن تحبّيني، بعد ما أظهرته من تصرفات تجاهكما أنتما الاثنين. لكن... هل ستبقين هنا؟

«أجل. روري بحاجة إلى الاستقرار. كما أنني في الوقت الحالي لديّ وظيفة هنا، في المتجر».

«حسنًا إذن...». ولاحظت أنه أصبح قلقًا وغير مرتاح.

«ما أود فعله، بمساعدتك، هو محاولة إصلاح علاقتي، أو على الأقل نسج روابط، بابني. لست قادرًا على تحقيق أشياء كثيرة ريثما يُباع المتجر ويصبح المال الذي سأجنيه منها في حسابي المصرفي، لذلك فكرت في أنني قادر على استغلال ذلك الوقت والبقاء مع روري. في البداية لن أجد ذلك كثيرًا، أعرف ذلك، لكنني قادر على التحسن، أنا واثق من الأمر.

«إذا كنت ترغب فعلًا في ذلك، فبالطبع، يمكنك أن تتحسن».

«أريد ذلك يا ستار، صدقي أن هذا ما أريده».

«حسنًا، هذا سيحل إحدى مشكلاتي. يمكنك أن تبدأ بإحضار روري من المدرسة وتعود به إلى المنزل، لأتمكن من مساعدة أورلاندو في المتجر وقتًا أطول. علينا فعل أمور كثيرة قبل موعد الافتتاح».

«ممتاز» أجاب على الفور، «ومع ذلك لا أعتقد أن مهاراتي في الطبخ ذات أهمية».

«سأطبخ لكم عند عودتي من المتجر، لكن هناك وقت الاستحمام...».

«وقصة ما قبل النوم. أعرف ذلك». قال وهو يبتسم ابتسامة خاطفة.

«صباح الخير جميعًا»، قال أورلاندو وهو يدخل المطبخ. ثم نظر إلينا وشعر بالتوتر الذي بيننا. «هل دخلت هنا في لحظة غير مناسبة؟».

«لا على الإطلاق». قلت له، «الطور جاهز تقريبًا. ستحضر روري في الثالثة والنصف؟». قلت لماوس وأنا أرفض فكرة تقديم وجبة الفطور له أيضًا.

«سيجدني في انتظاره. والآن وداعًا». تمتم قائلاً، ثم غادر على الفور.

مال أورلاندو رأسه صوبي مستفسرًا.

«أخبرني ماوس البارحة أن روري ابنه».

«آه، حسنًا، هذه بالتأكيد خطوة إيجابية، بالنظر إلى أنه لم يعترف لنفسه بذلك إلا مؤخرًا. لقد صنعت معجزة يا آنسة ستار، فعلًا».

«لم أفعل شيئاً يا أورلاندو». قلت وأنا أضع طبق اللحم المقدد والبيض أمامه.
«إذن، سأقول إن الحب هو صانع المعجزات. وبالطبع، عرفت ذلك منذ اللحظة
الأولى التي وقعت فيها عيناه عليك أول مرة...».
«كفى أورلاندو».

«سامحيني، لكن من فضلك يا آنسة ستار، على الأقل أعطيه فرصة ليغيّر أسلوبه
ويجعلك تحبينه».

«أنا مهتمة أكثر في أن يجعل روري يحبه»، عارضته وأنا أرمي مقلاة في
الحوض لأغسلها.

«هل أرى أخيراً بعض المشاعر التي تتأجج؟ قد لا يكون ماوس الوحيد الذي
تغيّر هنا في الآونة الأخيرة، في ما يخص أمور القلب».
«أورلاندو...».

«لن أزيد القول. لكن في الواقع عندما يتوب المذنبون ويحاولون التكفير عن
ذنوبهم، فمن واجبنا المسيحي أن نغفر لهم. وأنا على الأقل، فعلت ذلك. أخي رجل
مرح ومحترم، ولولا وفاة آني....

«هذا يكفي!». التفت إليه، وأنا أمسك المقلاة المبللة في يدي. فرفع ذراعيه
في حماية وهمية لنفسه.

«لن أقول أكثر، أعدك. سأبقي فمي مغلقاً. الأمر عند ماوس الآن».
«أجل»، وافقت بشدة. «هو كذلك».



في الأيام القليلة التالية، التزم ماوس حرفياً بكلامه. كان يصطحب روري إلى المدرسة
في الصباح، ويعيده بعد ذلك إلى المنزل. وكانا يصلان إلى المنزل قبل ساعتين من
عودتي، بعد أن يشتريا الأغراض المذكورة على قائمة التسوق التي أكتبها لهما في
الصباح. وكنت أقود أورلاندو إلى المنزل من تتردن، ثم أعدّ العشاء لأربعتنا، وأنا
أراقب على الهامش، بينما كان ماوس يبذل قصارى جهده للتعويض عن السنوات

الضائعة من حياة ابنه. بعد العشاء، كان يأخذه للاستحمام، ويقرأ له قصة. فيبيدي روري اندهاشه من موهبة ماوس الجديدة في التحدّث بلغة الإشارة.

«إنّه أفضل منك يا ستار. إنّه سريع التعلّم، أليس كذلك؟».

«هذا بالتأكيد بسبب تصميمه على تعلّمها، فهو يحبك». قلت له وأنا أقبّله، وأتمنّى له ليلة سعيدة.

«وأنا أحبه. تصبحين على خير يا ستار».

مشيت إلى الباب لأطفئ النور. وفكرت في ماوس الذي كان يعرف طوال تلك السنوات، كيفية التحدّث بلغة الإشارة التي تعلّمها للتواصل بشكل أفضل مع آني. وأملت أن يبدأ روري ذات يوم بالتعرف إلى أمّه التي أحبته بشراسة لدرجة أنّها قدّمت حياتها فداء له.



في يوم الخميس، أبلغني ماوس أن مارغريت اتصلت في أثناء وجودي في متجر الكتب. «إنّها ترغب في البقاء في فرنسا حتى بداية كانون الأول وستعود من أجل افتتاح متجر الكتب. قلت لها إنني سأعتني بنفسني بروري خلال عطلة نهاية الأسبوع. فقد ترغيبين في العودة إلى لندن؟».

«بالفعل، عليّ العودة إلى هناك». أومأت برأسي موافقة على كلامه. كان من الضروري لماوس وروري أن يكونا معًا أطول وقت ممكن من دون مرافقة أحد لهما.

«حسنًا، سنوصلك إلى المحطة غدًا مساءً عندما تنهين عملك في المتجر».

«شكرًا. ربّما يمكنكما أنت وروري أن تساعدوا أورلاندو في المتجر في عطلة نهاية الأسبوع؟ فهو يخطّط للانتقال إلى الشقة فوق المتجر يوم الأحد المقبل».

«حسنًا هذا ما سنفعله. تصبحين على خير».

«طاب مساؤك».



في المساء التالي، ترجّلت من قطار لندن وركبت الحافلة إلى باترسي، فرأيت

الشوارع تشتعل بزينة الميلاد. فكّرت، وأنا ما أزال أجهل الإجابة، أين سأحتفل بهذا العيد. لم أستطع التفكير في أي شيء أسوأ من الاحتفال به في شقة عقيمة بلا روح، بعد كل تلك السنوات المجيدة التي احتفلنا فيها بعيد الميلاد في أتلانتيس، أو على شواطئ مقمرة في مختلف أنحاء العالم.

عيد ميلاد في هاي ويلد سيكون مثاليًا...

وأمرت نفسي التي بدأت تتمرد حديثًا بالصمت. ورفضت السماح لها بالإقرار كيف أَلقيت نظرة خاطفة إلى ماوس في أثناء جلوس روري على ركبتيه، ليقرأ له كتابًا بلغة الإشارة، شعرت... نعم، شعرت بموجة صغيرة من المشاعر تجتاحني. لكنّه كان سابقًا لأوانه أن أفتح قلبي وأدعه يُخرج ما كنت خائفة جدًا من احتوائه. عندما وصلت إلى الشقة، أعربت سيسي عن سعادة جَمّة لرؤيتي، فرتبنا لعطلة نهاية الأسبوع معًا.

«يجب أن أقصّ شعري في نهاية هذا الأسبوع أيضًا». قالت لي. «لقد زاد طوله كثيرًا».

نظرت إلى سيسي، ورحت أتذكرها عندما كانت طفلة، فقد حظيت ذات يوم بلبدة مجمدة رائعة بلون الشوكولاتة الداكنة تدلّت من طولها متخفية كتفيها. ثمّ، عندما بلغت السادسة عشرة من العمر، عادت ذات يوم إلى المنزل بعد أن قصّت شعرها، لتقول إنّهُ كان يسبّب لها الكثير من الإزعاج.

«لا تقصّيه يا سي». قلت لها وأنا أفكر كم كانت تبدو جميلة تلك الليلة، بتموجات شعرها الناعمة التي تحيط بعينيها البنيتين الجميلتين. «إنّهُ يناسبك أكثر وهو طويل».

«حسنًا»، أجابت موافقة، الأمر الذي فاجأني. «أنا بحاجة أيضًا إلى شراء ملابس أكثر سماكة، لكنك تعرفين كم أكره التسوق».

«سأتي معك، سيكون ذلك ممتعًا».

في صباح اليوم التالي، تجرّأنا على الذهاب إلى شارع أكسفورد لنواجه باقي المتسوّقين للعيد. فبذّرت مالي في شراء فستانًا أرّديه في حفل آلي، كما أقنعت

سيشي بشراء بلوزة حريرية جميلة ترتديها مع سروال رمادي وحذاء كاحل كعبه عالٍ.

«هذه حقًا ليست أنا»، تدمرت وهي تتفحص نفسها في المرأة داخل غرفة تبديل الملابس.

«تبدلين رائعة يا سي». قلت لها بصدق وأنا أتأمل تكويناتها المتناسقة.

لا بدّ من أنّها فقدت بعض الوزن في الأسابيع القليلة الماضية، لكنني لم ألاحظ ذلك من قبل، لأنّها غالبًا ما ترتدي بلوزات واسعة جدًا وسراويل جينز فضفاضة. إضافة إلى أنّني كنت غائبة عنها كل ذلك الوقت.

يوم الأحد، حضرت وجبة مشاوي تقليدية على الغداء، ثمّ أخذت نفسًا عميقًا وأخبرتها عن لقائي بأمي.

«يا إلهي، سيا! لم بحق السماء لم تخبريني من قبل؟».

استطعت رؤية الخيبة في عينيها.

أجبتها:

«لا أعرف. ربّما كنت بحاجة إلى اعتياد الفكرة أولاً قبل أن أخبر أحدًا عنها».

«أنا لست أي أحد».

قالت معترضة. وأضافت:

«لقد اعتدنا قول كل شيء لبعض، خصوصًا الأمور الخاصة».

«كان الأمر غريبًا جدًا في البداية يا سي»، حاولت أن أشرح لها. «لكنّها بدت طيبة. قد أذهب لزيارتها في الولايات المتحدة. في الواقع، تلقيت بريّدًا إلكترونيًا منها هذا الصباح تدعوني فيه لتمضية عيد الميلاد ورأس السنة عندها.

«لكنك لن تذهبي، أليس كذلك؟»، قالت لي وهي تبدو مرعوبة من الفكرة. «يكفي أنّك بعيدة عني طوال الأسبوع، دعك من عيد الميلاد. لم يمر قط ونحن منفصلتان. ما الذي سأفعله من دونك؟».

«بالطبع سنكون معًا». قلت لطمأنتها.

«جيد. في الواقع، لدي ما أخبرك به أنا أيضًا. أفكر في ترك الكلية».

«سي! لماذا؟».

«لأنني أكرهها. لا أعتقد أنني وُلدت لأعيش في مؤسسة، خصوصًا بعد كل تلك السنوات ونحن أرواح حرة».

«وماذا ستفعلين؟».

«سأحاول أن أكون فنانة، على ما أظن». هزّت كتفيها، وأضافت: «في أي حال، إنسي ذلك الآن. أنا سعيدة جدًا لأنك عثرت على والدتك. والآن يمكنني أن أخبرك عن...».

نظرت إلى ساعتني فوجدت أنها قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر.

«آسفة جدًا يا سي، هناك قطار عليّ اللحاق به. ستتابع حديثنا حين أعود في المرة المقبلة، اتفقا؟».

«بالتأكيد».

راقبتني سيسي بخيبة، وأنا أصعد إلى الطبقة العلوية. وضّبت حقيبتني على عجل، وعدت إلى الطبقة السفلية فوجدتها ترسم داخل الاستوديو.

«وداعًا الآن»، قلت لها بنبرة مبتهجة وأنا أتجه إلى باب المدخل. «سأخبرك إذا كنت سأعود في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. أتمنى لك أسبوعًا رائعًا».

«ولك أيضًا». سمعتها تردّ بهمس.



عندما عدت إلى كنت، بقيت مشغولة طوال الوقت، أحضر لما دعاها أورلاندو «افتتاحه الكبير» الذي كان سيجري بعد أسبوعين. وقف خارج المتجر، يرتدي أفضل بدلاته المخملية، بينما كان المصور من الصحيفة المحلية يلتقط له صورًا تتناسب مع المقابلة التي كانوا يجرونها معه، وشعرت بفخر شديد من أجله.

استمرت الحياة في هاي ويلد على المنوال نفسه، ورأيت أن روري وماوس

قد بدأ اعتياد روتين حياتهما الجديد. فبذلت قصارى جهدي لكي أبقى على حياد، عندما كان ماوس يفقد أعصابه أحياناً في أثناء التعامل مع ابنه، وكان من الطبيعي جداً أن يحدث ذلك. وإن كان على ماوس أن يتعلم المعنى الحقيقي «للطبيعي».

ولأن «الافتتاح الكبير» كان يوم سبت، تصرّفت بجبن، وبعثت رسالة نصية إلى سيسي من تتردن، أوضح فيها أنني لن أكون في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع. فحصلت على إجابة فظة.

حسنًا، اتصلي بي! أرغب في التحدث إليك.

رفضت السماح لها بجعلي أشعر بعقدة ذنب. وأدركت نوعاً ما أن الأمر كان بمثابة وضع حدّ لعلاقة حب مؤلمة، بمثابة تساهل حليم وإخلاء سبيل، لكن في النهاية كان هذا الأصحّ بالنسبة إلينا. فحتّى لو غادرت هاي وولد في اليوم التالي وإلى الأبد، كان من الضروري أن يحدث ذلك. لأنني لا أستطيع العودة إلى حيث كنت من قبل. وهذا ينطبق على سيسي أيضاً. أملت فقط أن تتمكن في النهاية من الاستمرار في علاقة مختلفة طبيعية أكثر.

احترم ماوس رغبتني في الحصول على الوقت للتفكير في ما قاله لي. فكان كل مساء يغادر من باب المطبخ بعد أن يتمنى لروري ليلة سعيدة، ملوّحاً لي بيده وهو يقول «أراك غداً».

ومع أورلاندو الذي بات يختبئ داخل شقته الصغيرة فوق المتجر في تتردن، بدأت الأمسيات تتحوّل إلى ما يشبه فجوة تتسع فتحتها أمامي، أدركت أنني كنت مثل سي سي، لا أتقن البقاء بمفردي.

حسنًا، كان عليّ ببساطة أن أتعلّم. مع أنّه في كثير من الأحيان، كنت على وشك أن أطلب إلى ماوس البقاء لتناول الجعة قبل المغادرة، إلّا أنني لم أفعل.

بدلاً من ذلك، كنت أشعل النار في غرفة الرسم وأجلس قبالتها لأقرأ مذكرات فلورا، وأنا أتساءل إذا ما كان بإمكانني تحرير كل تلك السنوات المفصلة من حياتها

في كتاب يرغب الناس في قراءته. ومع ذلك، كنت أشعر دائماً بالتشتت، بينما كانت أفكارى تطير عبر الممر إلى منزل المزرعة، متسائلة عما كان ماوس يفكر فيه أو يقوم به في تلك اللحظات...

ذلك الرجل المعذب والمتضرر الذي اعترف لي بحبه.

بقي السؤال هل كنت أحبه؟

ربّما.

لكن... كان هناك أيضًا ما لم يعرفه عني. وفكرة إخباره، أو إخبار أي أحد به، كان أمرًا لم أستطع تصوّره.



«هل كل شيء جاهز؟»، سألني أورلاندو، وهو يبدو رائعًا في معطفه الإيدواري الكلاسيكي الذي اشتراه حديثًا، المتناسق مع قَبْته المنشأة وربطة عنقه الكستنائية. «أجل».

«حسنًا إذن»، قال بينما كنّا نلقي، نظرة أخيرة حول المتجر المرتّب والمنظّم، ثمّ أتبعه نحو الباب. أملت فقط أن يكون هناك أشخاص كُثْر في الخارج ليشاهدوه وهو يقطع الشريط الأحمر الذي وضعته عند الباب في وقت سابق هذا الصباح بناءً على إصراره.

عندما فُتح الباب، رأيت ماوس وروري ومارغريت يقفون بجانب امرأة شقراء صغيرة البنية لم أعرفها. ورأيت خلفهم مجموعة من المارة المنبهرين، الذين توقّفوا مع أكياس التسوق في أيديهم، مذهولين برؤية أورلاندو في ملابسه المبهرجة.

«سيداتي، سادتي، أودّ أن أعلن عن افتتاح متجر أو. فوربس المحترم للكتب النادرة. والآن سأمرّر مقصًا إلى مدير متجرى، الذي لولا مساعدته، لم أكن موجودًا هنا اليوم». خذي المقص، هسهس في وجهي، وكاد أن ينكرني به في بطني. «كلا، يا أورلاندو! أنت من عليه فعل ذلك».

«من فضلك، يا آنسة ستار، لقد كنت حجر الأساس في هذا المتجر، بغض النظر عما هو حجر الأساس في الواقع، وأريدك أن تقطعي هذا الشريط.»
«حسنًا».

لذلك، قطعت الشريط، وراحت «عائلتنا» مجتمعة تصفّق وتهتف بصوت عالٍ، وهذا ما فعله أيضًا عابرو السبيل. ثمّ ازدحم المتجر بالناس، ووصل المصوّر ليلتقط مزيدًا من الصور فيما كنّا نحتسي الشمبانيا.

«مرحبًا يا ستار. قبّلتني مارغريت على خدي. هذه هيلين. إنها مالكة القصر، ويمكنك اعتبارها نصفي الآخر».

ابتسمت مارغريت بولع وهي تنظر إلى هيلين، وتضغط على يدها.
«يسعدني جدًّا أن أكون هنا». قالت هيلين مترددة بلغة إنكليزية مكسرة.
- ستار تتحدّث الفرنسية بطلاقة، وهذا إنجاز آخر من إنجازاتها». قالت مارغريت لهيلين.

تحدّثنا أنا وهيلين بعض الوقت عن قصرها القريب من جيجونداس، وهي قرية تقع في وسط وادي الرون المجيد، وعن رسوم مارغريت الجدارية الرائعة، وعن مدى روعة مارغريت عمومًا.

«أخبرتني أنك أنت من جعل الأمر ممكنًا بالنسبة إلينا لنكون معًا بعض الوقت». أضافت هيلين. «شكرًا لك يا ستار».
«مرحبًا». قال صوت من خلفي.

«مرحبًا». استدرت إلى وراء فوجدت ماوس يقبّلي رسميًا على خدي. وكان روري يقف إلى جانبه.

«ما رأيك في متجر أورلاندو الجديد؟». سألت روري.
«لقد رسمت له صورة عنه، ووضعتها في إطار».
«أليست رائعة؟». قال ماوس بينما كان روري يعطيني الصورة لأبدي إعجابي بها.

كانت لوحة مائية لواجهة المتجر.

«يا للهول روري، الصورة رائعة»، قلت له بلغة الإشارة. ثم قلت لماوس: «إنه موهوب جدًا».

«أليس كذلك؟».

وسمعت فخرًا حقيقياً في صوته. وعلى الفور، شعرت بحاجة ملحة إلى البكاء. «اسمعي...»، انحنى ليهمس في أذني. «هل تسمحين لي بدعوتك إلى الخروج هذه الليلة؟ أنا واثق من أن الباقي في هاي وولد قادرون على تدبّر أمرهم بأنفسهم مرة واحدة».

«نعم». قلت له من دون تردد.



ربّما كانت شمبانيا الظهيرة هي التي جعلتني أردّ بالإيجاب في وقت سابق ذلك اليوم، فكّرت بتجهّم فيما كنت أبحث بين خياراتي التافهة في الملابس لذلك المساء. وكان لدي الخيار بين سترتين وبضعة سراويل جينز. وبعد أن رسوت على السترة الزرقاء، دخلت المطبخ حيث كان سكان هاي وولد ما يزالون يحتفلون بافتتاح المتجر.

«اتصل ماوس لتوّه ليقول إنه سيمرّ بعد بضع دقائق ليأخذك من عند الباب الأمامي»، قال أورلاندو.

«شكراً»، قلت له وأنا أشم رائحة النفاق تحترق في المقلاة وأصل لاشعورياً إليها لأخرجها من الموقد. ثمّ سُمع صوت بوق يعلو أمام المنزل.

«أتمنّى لك وقتاً ممتعاً». قالت مارغريت وهي تبتسم بين ذراعي هيلين الملفوفة حول كتفيها، بينما كان روري على ركبته، يتناول بكل سرور إصبع سمارتيز. «ولا تجرئي على العودة إلى المنزل قبل بزوغ الفجر». أضافت، ما أدّى إلى انفجار الضحك في المطبخ.

مشيت بوجه محمّر إلى القاعة الأمامية وفتحت الباب. كنت أشعر كأنني خروف يُجرّ إلى الذبح.

«مرحبًا»، قال ماوس وهو يقبلني على خدي عندما دخلت السيارة.
كان قد حلق ذقنه فشعرت للحظة قصيرة، بنعومة بشرته أثناء ملامستها
بشرتي.

«أمتعدة للانطلاق؟».

«بالتأكيد. لكن إلى أين؟».

«إلى الحانة المحلية. أليس لديك مانع؟ فالحانات هنا تقدّم طعامًا لذيذًا».

كانت حانة «الأسد الأبيض» ساحرة ومزدحمة بالسهرانيين، وكانت النيران في
المدفأة تزار خلف شبك الحديد وكان السقف ذو عوارض خشبية ثقيلة. طلب
ماوس جعة لنفسه وكأس نبيذ أبيض لي، وانتقى بعضًا من قائمة الطعام، ثم قادني
إلى طاولة منزوية وهادئة بجانب البار الرئيسي.

«شكرًا لحضورك، أقدر لك ذلك»، قال ماوس. «اعتقدت أن علينا التحدّث في
بعض الأمور».

«مثل ماذا؟».

«مثل أن مارغريت تريد الانتقال نهائيًا إلى فرنسا لتعيش مع هيلين».

«إذن، هذا لقاء 'عمل'، وليس 'موعدًا غراميًا'»، فكرت في نفسي.

«ماذا قلت؟».

«قلت نعم بالطبع. روري هو ابني في النهاية. وعليّ أن أتحمّل مسؤولياتي،
سوف يرث اللقب، الذي انتقل إليّ عندما مات «عمي»، بما أنّه لم يكن لديه سوى
مارغريت. ولسخرية الحوادث، أنا من سيرث هاي ويلد إذا ماتت مارغريت قبلي،
بما أنّها بلغت الثالثة والأربعين ومن غير المرجّح أن تنجب أولادًا ذات يوم. على
الرغم من أن المنزل سيبقى لروري في النهاية».

«إذن أنت في الواقع 'اللورد فوغان'؟». قلت مع ابتسامة.

«من الناحية التقنية نعم، لكنني بالطبع، لن أستخدم اللقب. مع أن هذا الجزء
هنا لن يجعلني أنسى ذلك أبدًا».

وابتسم نصف ابتسامة مشيرًا إلى الحشد في الحانة. في أي حال، باختصار اقترحت مارغريت أن نتبادل المنازل. بما أنها تنوي أن تبقى هنا أقل وقت ممكن، وبما أن هاي وولد ستكون ذات يوم ملكًا لروري، فهي تعتقد أن هذا سيكون أفضل له. سوف تأخذ منزل المزرعة، ومع ما يبقى من بيع متجر كنسينغتون، إذا بعنا ما تبقى من الأراضي الزراعية، سيعطي ذلك كلاً منّا كثيرًا من النقود لدفع قيمة الإصلاحات في المِلَكيتين. كما أنني اكتفيت من «التراكثور» كما يقول روري. واتفقنا أنا وأورلاندو أيضًا على أن كلاً منّا رصيده سيبقى ملكًا له وحده إذا كان هذا ما سنقرر عليه. ما رأيك؟».

«حسنًا، روري يحب هاي وولد، لذلك هذا من الأرجح أفضل له إذا كان سيخوِّله البقاء هناك».

«كما أنه مشروع فطيع سيلقى على كاهلي من أجل إصلاحه. أو يمكنني بيعه والعثور على مكان آخر بسعر معقول».

«لا تفعل. قلت له، أعني أنك تستطيع ذلك، لكنني لا أعتقد أن عليك فعله. أنت، وعائلتك، تنتمون إلى هناك».

«لكن السؤال يا ستار... ماذا عنك؟».

«أنت تعرف كم أحب المنزل...».

«لم أقصد ذلك. انظري، يمكنك نعتي بضيق الخلق، لكن الأسابيع الثلاثة الماضية كانت عذابًا بالنسبة إليّ. فوجودك في هاي وولد، قريبة جدًا منّي، وفي الوقت نفسه بعيدة جدًا عنّي، قد أصابني بالجنون. لذلك أحضرتك إلى هنا هذه الليلة لأسألك عن رأيك في هذا الموضوع. أعني موضوعنا نحن. عليّ القبول إن كنت تريد أن تكوني معي. لكن إن لم ترغب في أن تكوني معي، فحينئذ أعتقد أن من الأفضل لك أن تجدي مكانًا تعيشين فيه في تندر. هذا ليس تهديدًا»، قال بتهوّر، «على الرغم من أنني أفترض إنه مهلة إنذار أخير». ومرّر يده عبر خصله. «ستار، أرجو أن تفهمي أن كل يوم تكوينين فيه معنا في المنزل، يزيد تعلّقي بك. وروري أيضًا، أنا حقًا لا أستطيع تحمل خسارته مرة أخرى».

«أفهمك».

«إذن؟». نظر إليّ عبر الطاولة.

هيا يا ستار، كوني شجاعة، قولي نعم...

«لا أعرف». سمعت نفسي أقولها مرة أخرى.

«حسنًا إذن». قال وهو يحدّق إلى الفضاء. «هذا يختصر كل الحديث تقريبًا».

لا يختصر شيئًا على الإطلاق، باستثناء أنني أشعر بالرعب من إطلاق العنان لمشاعري ومن الوثوق بك... وبنفسي.

«أنا آسفة». أضفت بشكل مثير للشفقة.

«لا بأس».

شاهدته وهو يجرع الجعة.

«حسنًا، بما أنّه ليس هناك مزيدًا لقوله، سأخذك إلى المنزل».

تبعته إلى خارج الحانة، بعد أن نسينا الطعام الذي كنّا سنطلبه. لم يكن قد مرّ على دخولنا إلى الحانة إلاّ عشرين دقيقة، فركبت سيارة اللاند روفر وأنا أشعر ببؤس مطلق. بقينا صامتين طوال الطريق، إلى أن انعطفت السيارة إلى الممر، ثمّ أوقفها أمام المنزل.

«شكرًا على الدعوة». فتحت الباب وكنت على وشك الخروج عندما أحسست

بيده تمسك يدي.

«ستار، ممّ أنت خائفة؟ من فضلك لا تذهبي... بالله عليك تكلمي معي!

أخبريني بما تشعرين!».

كنت ما بين بين، بالمعنى الحقيقي والمجازي، ففتحت فمي، لكن كلمة واحدة لم تخرج مني. بقي الكلام محبوبًا في داخلي، كما يحصل عادة. وفي النهاية، تنهدت نهيدة طويلة وعميقة، وقال لي:

«تفضّلي، خذي هذا. اعتقدت أن الفكرة ستعجبك». ووضع مغلفًا في يدي.

«إن غيّرت رأيك... أو لم تفعلني... شكرًا على كل شيء. مع السلامة».

«مع السلامة».

أغلقت باب السيارة وسرت إلى المدخل الرئيسي، عازمة على عدم النظر خلفي فيما كان يرجع بالسيارة إلى الوراء ويخرج من الممر. فتحت باب المدخل بهدوء، فسمعت ضحكات تنبعث من المطبخ. مشيت مباشرة إلى أعلى الدرج، وأنا أشعر بالحرج الشديد من أن ينتبه أيّ منهم إلى وجودي، وتابعت السير على طول الممر، لأؤكد من أنهم فكروا في وضع روري في السرير. وبعد أن قبلته بلطف على خده، فتح عينيه، وقال لي:

«ها قد عدت. هل كان وقتك ممتعًا مع ماوس؟».

«نعم، شكرًا لك».

«ستار؟».

«نعم؟».

«هل ستتزوجين؟». أشار روري إلى المعانقة وابتسم لي. «لو سمحت».

«روري، كلانا نحبك».

«ستار؟».

«نعم؟».

«ماغ غضبت عندما انقطع الهاتف، وقالت إن ماوس هو والدي وأن عليه أن يدفع. هل هو كذلك؟».

«أنا... عليك أن تسأله، يا روري. لكن الآن، نم جيدًا»، قلت له وأنا أقبّله مرة أخرى.

«أتمنى أن يكون والدي». همس وسط نعاسه. «وأنت يمكنك أن تكوني أمي».

تركته وخرجت مندهشة من قدرة الأطفال على التسامح. وأيضًا على نظرتهم البسيطة إلى الأمور. مشيت إلى غرفتي وتكّومت تحت البطانيات، من دون أن أزعج نفسي بخلع ملابسني لأنّ البرد ببساطة كان قارصًا. ثمّ فتحت المغلف الذي أعطاني إياه ماوس.

عزیزتی ستار،

أودُّ أن آخذك بعيداً لبضعة أيام في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. أفكر في مكان محدّد. أعتقد أننا بحاجة إلى أن نكون بعض الوقت بمفردنا بعيداً من كل ما يحدث هنا. من دون قيد أو شرط. أخبريني إذا كنت موافقة. أو. قبلاتي

ملاحظة: آسف على دعوتك بواسطة رسالة، كتبتها في حال لم أتسلّح بالشجاعة وأتجرأ على طلب ذلك منك وجهاً لوجه في الحانة.



استيقظت مذعورة في صباح اليوم التالي، وذهني يستعرض حوادث البارحة. ربّما، فكرت وأنا أرتدي السترة الثانية لأحتمي من البرد، أن عليّ السير في ذلك الطريق، وقول نعم.

افعليها يا ستار، افعليها ببساطة...

ارتديت ملابسني وأسرعت إلى الطبقة السفلية أسير إلى المطبخ الخالي الذي كان مليئاً بالأطباق والمقالي القذرة، فضلاً عن كوؤس النبيذ والزجاجات الفارغة الكثيرة. كنت سأتجه إلى الباب الخلفي، لمعرفتي بضرورة قول ما أريد قوله قبل أن تخذلني شجاعتي، عندما رأيت ملاحظة مسنودة في منتصف الطاولة.

ستار! اتصلت أختك البارحة. هل يمكنك الاتصال بها؟ تقول إن الأمر عاجل!!! ملاحظة: أتمنى أن يكون وقتك ممتعاً.

م ×

تبّاً!

مُسحت كلّ الأفكار التي دارت في رأسي حول احتمال بناء مستقبل مع ماوس وأنا أمشي إلى الهاتف. أمسكت السماعة وطلبت بيد مرتجفة رقم الشقة. رنّ

الهاتف أول مرة، ثم رنّ مجدّدًا. وعندما حاولت الاتصال بهاتف سيسي المحمول، حوّلني مباشرة إلى البريد الصوتي.

أعدت السماعة إلى مكانها، وقلت لنفسني ربّما أغلقت هاتفها المحمول، ولم تسمع رنّة الهاتف الأرضي، وإن كانت سيسي قادرة عادة على سماع رنّة الدبوس عندما يسقط على الأرض على بعد ميل. حاولت الاتصال بالهاتفين مرّة أخرى ومرّة ثالثة، لكن لم ألقَ أي جواب.

ركضت إلى الطبقة العلوية لأبحث عن هاتفني المحمول، وأنا أتمنّى أن أعثر فيه على إشارة واحدة، فقط هذه المرة، حتى أتمكن من سماع أي رسالة تركتها لي. لكن بالطبع، لم أجد شيئًا. فدست أغراضي في حقيبتي، وعدت مسرعة إلى الطبقة السفلية، وعلى الفور اتصلت بسيارة أجرة لكي تأتي وتأخذني.

كنت قد أصبحت في القطار، عندما تمكنت من الوصول إلى رسائلي بعد أن توالّت في موجة ضخمة جعلت الركاب الآخرون يرمقونني بنظرات غاضبة.

«ستار، هذه أنا سيسي، من فضلك اتصلي بي».

«ستار، هل أنت هنا؟».

«قالوا لي إنك خرجت. أنا بحاجة إلى التحدّث إليك... اتصلي بي».

«في ورطة...».

«لو سمحت! اتصلي!».

«تَبَّا، تَبَّا، تَبَّا!».

مكتبة

t.me/soramnqraa

رغبت في أن يتدحرج القطار في رحلته المضجرة إلى لندن بوتيرة أسرع. وملأت الدموع عينيّ عندما فكّرت في أنايتي التي لم يكن لها حدود طوال الأسابيع القليلة الماضية. لقد تخلّيت عن أختي. لم يكن هناك طريقة أخرى لوصف الوضع. وعندما احتاجت إليّ لم تجدني إلى جانبها. «أي نوع من الأشخاص أنا؟»، سألت نفسي.

عندما وصلت إلى الشقة، فتحت الباب، بقلب يقرع مثل الطبل. ولدى رؤيتي غرفة الجلوس والمطبخ مهجورين ومرتبين على نحو يدعو إلى الغرابة، صعدت

ركضاً إلى غرفة النوم. لم يُسر شيء إلى وجودها هناك أيضاً. حتى سيرها كان مرتباً، وكان من النادر حدوث ذلك، كأنها لم تنم فيه.

بعد أن تفقدت الحمّام والغرفة الاحتياط، وحتى خزانة الملابس التي، إذا أخذنا بالحسبان كمية ملابس سيسي القليلة، بدت فارغة على نحو ملحوظ، عدت أدراجي إلى الطبقة السفلية، وخرجت إلى الشرفة لأتفقد وجودها لعلها تكون هناك. ثم رأيت الملاحظة على طاولة القهوة.

«يا رب، يا رب، يا رب»، توسلت وأنا أقترّب من الطاولة لأمسك بها، وكانت يدي ترتعش من الخوف. ثمّ غصت في الأريكة، وقرأت الرسالة أوّل مرة بسرعة للتأكد من أنها ليست رسالة انتحار، وشعرت بارتياح شديد عندما وجدت أنها لم تكن كذلك. ثمّ عاودت قراءتها مرة أخرى ببطء.

سيا،

اتصلت بذلك المكان الذي تقيمين فيه لكنهم قالوا لي إنك خرجت. على ما أعتقد، لم تصلك أيّاً من رسائلي. أردت التحدث إليك لأنني قررت ترك الجامعة. وأردت أن أعرف رأيك في الموضوع. في أي حال، لقد تركتها الآن. مرّت أوقات سعيدة علينا منذ وفاة يا، أليس كذلك؟ أعرف أنّك بحاجة إلى عيش حياتك الخاصة. وأفترض أنّي أنا أيضاً بحاجة إلى ذلك. أنا وحيدة هنا وأفقدك. لذلك قررت الابتعاد قليلاً للتفكير في بعض الأمور. أتمنّى لك الأفضل بكل صدق. وآمل أن تكوني سعيدة. آمل أن نجد كلتانا السعادة على حد سواء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا تقلقي بشأنني. أنا بخير.
أحبك.

سي

ملاحظة: هل يمكنك الاعتذار لآلي. لن أتمكن من الذهاب إلى النروج. اشتريت شجرتك الكاميليا إذ بدت لي جذابة.

انهمرت دموعي فوق الورقة بينما كنت أقرأها. ولأنها تعاني عسرًا في القراءة، كنت أعرف تمامًا كم تكافح سيسي لكتابة جملة واحدة، فكيف لكتابة خطاب مثل هذا. هذه الرسالة هي الوحيدة التي كتبتها لي، أو التي احتاجت إلى كتابتها، لأنني في السابق كنت دائمًا إلى جانبها. نظرت بعد ذلك إلى الاستوديو ورأيت شجرة الكاميليا موضوعة قرب إحدى النوافذ. كما رأيت زهرة منها ملقاة على الأرض، وقد تحولت بتلاتها البيضاء الرقيقة إلى لون بيج ذابل عكس ذبولها. هي أيضًا عانت الإهمال وبدأت لي يائسة بقدر البؤس نفسه الذي شعرت به منقذتها عندما كتبت لي هذه الرسالة، فكرهت نفسي أكثر.

على الفور، كتبت لها رسالة أخرى أردفتها برسائل الذعر التي بعثتها لها، وأنا على متن القطار. لكن عبثًا. وبينما كنت أجلس في تلك الشقة الفارغة الساكنة، وأحدّق إلى النهر، رحت أتخيّل الليالي الطويلة التي كانت فيها هنا وحيدة، بينما كنت أرتمي في أحضان عائلة جديدة، وإن كانت مثيرة للاهتمام إلا أنها كانت محبة.

حلّ الغسق، وأنا ما أزال أنتظر اتصال أختي بي. لكن هاتفي المحمول بقي صامتًا كما لو كان يفتقر إلى إشارة في هاي ويلد. ولسبب ما، إن حقيقة عودة الإشارة إلى هاتفي جعل الأمور أسوأ في نظري. بما أن الشخص هو من اختار البقاء صامتًا هذه المرة وليس الجهاز. وفي النهاية، زحفت إلى السرير، أو، بتعبير أدق، إلى سرير سيسي، واستلقيت فوقه وأنا أرتعش، على الرغم من أن الجو داخل الشقة كان بمنتهى الدفء.

المشكلة لم تكن في سيسي. إنَّما فيّ أنا. فبعد كلّ ما فعلته من أجلي، بعد أن أحبّبتني، وحمّنتي، وتحدّثت نيابة عني، تركتها بلا تردّد لكي تعتمد على نفسها. وفكّرت مجددًا كيف أخبرتها مصادفة بشأن عثوري على أمي، وكيف ركضت بعد إلى هاي ويلد من دون أن آبه لها. بخلت عليها بالوقت ولم أستمع إلى قصتها. وأدركت مدى الألم الذي كانت تشعر به الآن على ما أفترض.

بطبيعة الحال طلع الصباح، فتركت رسالة على هاتف أورلاندو أقول فيها إنني

لن أتمكن من الحضور إلى العمل بسبب أزمة عائلية. لدهشتي، أجنبي في غضون دقائق.

أفهمك.

فاقم رده الموجز على غير عادة انزعاجي. ربّما لأنّه رأى ماوس، فأخبره بأنّه طلب إليّ مغادرة هاي ويلد إن لم أستطع الالتزام معه. نزلت مخدّرة إلى الطريق ومشيت إلى أقرب سوبر ماركت، وأنا أدرك مدى حاجتي إلى تسكين ذهني، إن لم تكن معدتي. فلذعتني زينة الميلاد ببهجتها المبالغ فيها، إذ كان الراديو في المتجر يبتّ أنغامًا رديئة عبر مكبرات الصوت. عدت إلى المنزل، وأعددت بيضًا مخفوقًا، لكنني لم أرغب في تناوله، ثمّ تلقيت مكالمة من مارينا التي أرادت أن ترتّب للقائنا في الفندق الذي حجزت فيه لكلتينا في بيرغن. وأخبرتها بأنّ سيسى لن تستطيع الانضمام إلينا، لكنني امتنعت عن إخبارها بأنني أكاد أصاب بالجنون من شدة قلقي عليها، كوني لم أشأ الخوض في التفاصيل؛ إذ كنت أشعر بخجل شديد.

عندما رنّ هاتفي المحمول مرة ثانية بعد ظهر ذلك اليوم، أسرعت إليه، وعلى الفور شعرت بهبوط في صدري من خيبة الأمل عندما سمعت نغمات شانتي المعسولة على الطرف الآخر من الخط.

«ستار، أتصل فقط لأسأل عن أحوالك. لم أسمع عنك منذ مدة. فشعرت لتوي... بأنّ هناك جديدًا».

«أنا... بحالة جيدة».

«لكن نبرة صوتك تخبرني العكس. هل تريدان التحدّث في الموضوع؟».

«أنا... لقد رحلت أختي، قلت لها. وبتشجيع لطيف من شانتي، أخبرتها كل ما حدث، وأنا أتألم من خسارة سيسى مع كل كلمة إضافية.

- أنا فقط... هل تعتقدين أنّها يمكن أن تقترف عملاً غيبياً؟

«من نبرتها في الرسالة التي تركتها لك، لا، لا أعتقد. ستار، أنا آسفة جدًا لأنك تمرين بهذا، لكن يبدو لي أن سيسي تفعل الآن ما سبقتها في فعله، هي فقط تبحث عن نفسها. ربّما هي بحاجة إلى البقاء بمفردها بعض الوقت. اسمعي، هل ترغبين في المجيء إلى منزلي لنتناول كأسًا من النبيذ؟ ربّما سيفيدك الخروج قليلًا. لا، شكرًا»، ابتلعت ريقي. «قد تعود سيسي في أي لحظة، أريد أن أكون في انتظارها.



مرّت ثلاثة أيام كاملة، لم تعد خلالها سيسي إلى الشقّة. فكتبت لها رسالة، ثمّ أعدت كتابتها من جديد، وكنت سأتركها في الشقة في حال عادت في أثناء وجودي في النروج. على الرغم من رسائلني الهاتفية المجنونة، ما سمعت لها حسًا. كنت أتعدّب مثل حيوان جريح، وأنا أتساءل عمّا إذا كانت بحاجة إلى البقاء بمفردها لارتكاب أمر فظيع بحق نفسها. ذات مرّة، فكرت في الاتصال بالشرطة للإبلاغ عن شخص مفقود، وسرعان ما تعقّلت بعد أن فكّرت في أن سيسي قد تركت لي رسالة تشرح فيها سبب غيابها. وبالنظر إلى أنّها كانت في السابعة والعشرين من عمرها، شككت في أن الشرطة ستهتمّ بالموضوع.

كما أنّني اشتقت إلى هاي ويلد. وكنت أفكر باستمرار في روري... وفي ماوس. حينئذ تذكرت أنّه، في الأسابيع القليلة المضطربة الماضية، تمكّن بطريقة أو بأخرى من الوقوف إلى جانبي عندما كنت في أمسّ الحاجة إليه.

حسنًا، لكنّه غائب الآن، على الرغم من القرار الذي اتخذته في المبدأ بالذهاب إليه في عطلة نهاية الأسبوع الماضي لأجيبه بـ «نعم». بما أنّني لم أسمع منه منذ ذلك الحين، خمّنت أنّه قرّر التخلي عني في النهاية.



بحلول عطلة نهاية الأسبوع، حملت بما تبقى فيّ من قوّة، حقيبة القماش التي عبأتها مسبقًا، في غياب أي انشغال لي هنا، وفي اللحظة التي كنت سأغادر فيها

الشقة لأتجه إلى مطار هيثرو، رنّ هاتفني المحمول. فركضت لتلقّي المكالمة.
«مرحبًا؟».

«ستار؟ أنا ماوس. عذرًا على الإزعاج. لكنني ذهبت إلى هاي ويلد هذا الصباح،
لم أكن هناك منذ عطلة نهاية الأسبوع. فقد أرادت مارغريت بعض الوقت لتكون
مع روري قبل مغادرتها إلى فرنسا. كما أنني كنت في صدد بيع المتجر مع كل
تنقّلات اللحظات الأخيرة المستلزمة بين المحامين. وعندما اتصلت بهم هاتفياً في
بداية هذا الأسبوع لأتفقد روري، قالوا لي إنك غادرت إلى لندن يوم الأحد».
«آه».

«في أي حال، عندما ذهبت هذا الصباح إلى هناك، قرأت الملاحظة التي
وجّهت إليك، وما تزال مسندة إلى الطاولة في المطبخ. هل كل شيء على ما يرام؟
أعني مع أختك؟».

«نعم... أعني... لا، لقد غادرت ولا أعرف إلى أين ذهبت».

«فهمت لا بدّ من أنّك قلقة».

«قليلاً، نعم».

«ألهذا السبب غادرت يوم الأحد؟».

«أجل».

«بصراحة، كنت أتمنى لو أخبرني أحدهم عن سبب رحيلك! يمكنك أن تتخيّلي
ما اعتقدت. ألا تحبّين الأسر؟».

«بلى»، ابتلعت ريقِي، وأنا أشعر بالارتياح يتسلّل إلى شراييني.

«انظري، هل تريدين منّي أن آتي إلى لندن؟ فمارغريت ستبقى مع روري إلى
يوم الثلاثاء المقبل. هذا يعني أنني حرّ إلى ذلك الحين».

«أنا في طريقي إلى النروج لأستمع إلى أختي، وهي تعزف في حفل موسيقي».

«أي أخت؟».

«آلي، التي مات خطيبها. كما أنّها حامل»، أضفت قائلة.

«آه». ساد صمت عبر الخط. «وهل هذه أخبار جيدة؟».

«نعم»، بالطبع. قلت بحزم. «آلي تشعر بسعادة غامرة».

«ستار...».

«أجل؟».

«اشتقت إليك. ألم تشتاقي إليّ ولو قليلاً؟».

أومأت برأسي، ثم أدركت أنني لم أكن على مرأى منه، لذلك أخذت نفساً عميقاً وفتحت فمي.

«بلى».

ساد صمت أطول هذه المرّة. ثمّ قال لي

«واو. إذن هل قرأت محتوى المغلف؟».

«نعم».

«وهل سترافقيني لبضعة أيام عندما تعودين؟».

«هل تمهلني لأفكر في الأمر؟».

سمعت تنهيدة إحباط تعلو عبر الخط. «حسنًا، لكن هل يمكنك أنت تردّي عليّ غدًا بحلول وقت الغداء؟ فمارغريت تغادر يوم الثلاثاء، لذلك سيجب عليّ العودة إلى كنت بحلول منتصف بعد الظهر من أجل روري. وإذا وافقت على مرافقتي، سأمرّ بك يوم الأحد وأنا في طريقي من كنت».

«سأفعل ذلك، أجل».

«حسنًا، أتمنى لك رحلة آمنة، وآمل أن تسمعي من أختك المفقودة».

«شكرًا، إلى اللقاء».

«الوداع».

سلكت الدرج على وجه السرعة إلى باب المدخل، وأنا أرجو أن تكون سيارة الأجرة التي طلبتها ما تزال في انتظارني.

ما إن انطلقنا، حتى سمعت أزيز هاتفى المحمول ينبّهنى إلى وصول رسالة نصية.

آسفة يا سىا، تلقيت لتّوى جميع رسائلك. كنت أتنقّل. أنا بخير. أخبرك بكل شيء عندما أعود إلى المنزل. أحبك، سى.
وعلى الفور ردّدت.

سى! الحمد لله! قلقت عليك كثيرًا. أنا آسفة على كل شيء. أحبك أيضًا.
ابقى على تواصل. قبلاتى.
ثم أسندت ظهري إلى مقعد سيارة الأجرة، وأنا أشعر بنشوة من شدة الارتياح.

خفت الأنوار داخل القاعة. شاهدت أختي تنهض من مقعدها على المسرح، كنت قادرة على رؤية المنحنيات التي تشير إلى الحياة الجديدة التي تنمو داخلها تتحدّد تحت الفستان الأسود. ورأيت آلي تغلق عينها برهة كما لو أنّها كانت تتلو صلاة. وعندما رفعت الناي إلى شفيتها، امتدت يد لتمسك يدي وتضغط عليها بلطف. كنت أعرف أن مارينا تشاركني الأحاسيس نفسها.

وفيما راح اللحن الجميل المألوف الذي كان جزءاً من طفولتي أنا وشقيقتي في أتلانتيس، يملأ القاعة، شعرت بأنّ بعضاً من التوتر الذي عشته في الأسابيع القليلة الماضية، يهجرني مع ارتفاع صوت الموسيقى. كنت أعرف أن آلي كانت تعزف من أجل كل أولئك الذين أحبّتهم ورحلوا، وأدركت أيضاً أنّه كما تشرق الشمس بعد ليلٍ طويلٍ مظلم، فهناك نور خافت بدأ يسطع في حياتها. وفيما انضمت إليها الأوركسترا، وعلا صوت الموسيقى الجميلة إلى حدّ الذروة احتفاءً ببزوغ فجر جديد، شعرت بذلك أنا أيضاً.

لكن مع ولادتي الجديدة، هناك من يتذوق العذاب. لذلك كان ما يزال عليّ أن أعقلن هذا الشقّ. فأنا لم أفهم إلّا مؤخراً أن هناك أنواعاً مختلفة من الحب.

في فترة الاستراحة، ذهبت أنا ومارينا إلى البار، وانضمّ إلينا بيتر وسيليا فاليس كينغز، اللذان قدّما نفسيهما على أنّهما أبويّ ثيو، فاحتسنا جميعاً الشمبانيا. وفيما كنت أراقب الطريقة التي استقرت بها ذراع بيتر على خصر سيليا، تراءى لي أنّهما ما يزالان يبدوان زوجين حديثين واقعين في الحب.

«نخبك»، قالت لي مارينا وهي تنقر كأسها بكأسي.

«أليست هذه الأمسية هي الأروع على الإطلاق؟».

«نعم، إنها كذلك».

«لقد عزفت آلي بشكل جميل. ليت شقيقاتك استطعن المجيء لرؤيتها وهي تبدع. ووالدك بالطبع».

شاهدت مارينا تقطّب جبينها معربة عن قلق مفاجئ، ما دفعني إلى التفكير في كل الأسرار التي تحتفظ بها لنفسها. وكم كانت ترهقها كما كانت أسراري ترهقني.

«إذن، سيسي لم تتمكن من الحضور؟»، سألتني مترددة.

«كلا».

«هل رأيتهما مؤخرًا؟».

«لم أبق كثيرًا في الشقة في الأيام الماضية يا مارينا».

«إذن، أنت «الأم» التي رعت آلي في طفولتها؟». سأل بيتر.

«نعم». أجابت مارينا.

«لقد أحسنت صنعًا».

«هذه نتيجة خياراتها، ولا دخل لي بها». أجابت مارينا بتواضع. «كما أن كل

واحدة من فتياتي اختارت أن تجعلني فخورة بها».

«وأنت إحدى شقيقات آلي الشهيرات؟»، التفت إلي بيتر بعينه الثابنتين.

«نعم».

«ما اسمك؟».

«ستار».

«وأي رقم أنت؟».

«ثلاثة».

«أمر شائق». قال وهو ينظر إليّ مرة أخرى. «أنا أيضًا كنت رقم ثلاثة. لم أستمع إليهم مرّة ولم أسمعهم بالمرّة. صحيح؟»
لم أرد.

«أراهن أن دماغك لا يرتاح البتة، أليس كذلك؟». واصل كلامه معي. «ثقي بأنّ هذا ما يحدث لي أنا أيضًا».

حتى لو كان على حق، فلم أكن لأخبره. لذلك، بقيت صامتة وهزرت كتفي.
«آلي إنسانة مميزة جدًّا. لقد تعلّمتنا الكثير منها نحن الاثنين»، قالت سيليا وهي تبدي لي ابتسامة دافئة وهي تغيّر الموضوع. أستطيع القول إنّها فسّرت صمتي على أسئلة بيتر معاناة.

«أجل، هذا صحيح. والآن ستجعل منّا جدّين». قال بيتر، «يا لها من هدية ستقدّمها إلينا أختك يا ستار. وهذه المرة، سأكون حاضرًا من أجل الصغير. فالحياة اللعينة قصيرة جدًّا لكي أنشغل عنه، ألا توافقين؟».

ثم رنّ جرس الدقيقتين، فجرع كل من حولي ما تبقى في كأسه. وعدنا جميعًا إلى القاعة لنجلس في أماكننا. كانت آلي قد أطلعتني بالتفصيل عمّا اكتشفته في النروج عبر البريد الإلكتروني. رحت أدرس فيليكس هالفورسن من كتب أثناء تقدّمه على خشبة المسرح، وتوصّلت إلى أن الجينات التي تربطه بآلي لم يكن تأثيرها واضحًا على خصائص آلي الفيزيائية. ولاحظت أيضًا مشيته المتدرّجة وهو يسير إلى البيانو، فتساءلت عما إذا كان في حالة سكر. تلوت صلاة صغيرة ألا يكون. كنت أعرف مما قالته لي آلي سابقًا، كم كان ذلك المساء يعني لها ولأخيها الجديد، توم، الذي أحبّته على الفور لحظة التقائهما به.

عندما رفع فيليكس أصابعه فوق مفاتيح البيانو وأبقاها معلقة في الهواء بلا حراك، شعرت بأنّ كلّ واحد من الجمهور يحبس أنفاسه تمامًا مثلي. ولم ينقطع التوتر إلّا بعد أن لامست أصابعه المفاتيح وبدأ عزف افتتاحية «ذي هيرو كونسيرتو». وبحسب البرنامج، فقد مرّ على تأليف هذه المعزوفة ما يزيد على ثمانية وستين سنة. وخلال نصف الساعة التالية، كان كل واحد منا يتمتّع بسماع أداء نادر وجميل، أحدثه التوافق الكيميائي المثالي بين الملحن الأب والعاظ الابن.

وبينما شعرت بقلبي يَحُلِّقُ صعودًا مع الموسيقى الجميلة، لاحت لي صورة عن المستقبل. «الموسيقى هي الحب الباحث عن صوت». فَكَّرْتُ في ذلك الاقتباس لتولستوي. والآن، بات عليّ أن أعثر على صوتي. وعن الشجاعة لكي أعبر به.

استحقَّ العرض تصنيفًا عاصفًا، ووقف الجمهور يضرب الأرض بأقدامه ويهتف. وانحنى فيليكس أمامهم، ثُمَّ أوماً لابنه وابنته ليخرجا من صفوف الأوركسترا وينضما إليه في مقدِّمة المسرح. وبعد أن سَكَنَ الجمهور، أهدى الأداء في تلك الليلة إلى روح والده وإلى أبنائه.

تلك اللفتة، كانت بنظري دليلًا حيًّا على إمكانية الاستمرار. وعلى حوادث تغيير سيقبله الآخرون لا محال في نهاية المطاف، مهما كان صعبًا.

وحين بدأ الجمهور ينهض عن المقاعد، لمست مارينا كتفي لتقول لي أمرًا ما. فأومأت لها من دون كلام، ومن دون أن أتأكد مما كانت تقوله، همست لها أنني سأراها في الردهة. ثُمَّ بقيت جالسة هناك، وحيدة، غارقة في أفكار. وفيما أنا كذلك، لم أركِّز كثيرًا على الجمهور الذي كان يتقدَّم عبر الممر. وإذ بي ألمح بطرف عيني وجهًا مألوفًا.

بدأ قلبي ينبض، وأذعن جسمي لنفسه، فرحت أركض عبر القاعة الفارغة باتجاه الجمهور الذي يتابع تحرُّكه في كتل مرتبكة إلى المخرج الخلفي للقاعة. كنت بحاجة ماسة إلى رؤيته مجددًا، لذلك رحت أتوسَّل ذلك الوجه الذي لم تخطئه عيني أبدًا أن يظهر بين الحشود ويبرز أمامي مرة أخرى.

شققت طريقي عبر الردهة، وقادتني ساقاي إلى الخارج إلى هواء كانون الأول المتجمّد. وقفت في الشارع على أمل رؤية ذلك الوجه مجددًا، فقط لأتأكد من هويّته، لكنه اختفى. كنت أعرف أنه سيختفي.

«ها أنت هنا!». قالت مارينا وهي تظهر خلفي. «اعتقدت أننا أضعناك. ستار؟ هل أنت بخير؟».

«أنا... أعتقد أنني رأيته يا مارينا. داخل القاعة هناك».

«رأيت من؟».

«يا! أنا واثقة من أنه هو».

«آه يا عزيزي»، قالت مارينا وهي تلف ذراعيها حولي فيما كنت واقفة في الخارج، أتجمد من الصدمة. «أنا آسفة جدًا. هذه الأشياء تحدث دائمًا بعد وفاة الأشخاص الذين نحبهم. يتراعى لي دائمًا أنني أرى والدك في أتلانتيس... في حديقته، عند الليزر، كما أنني لا أكف عن توقّع خروجه من مكتبه في أي لحظة».

«كان هو، أعلم أنه هو»، همست لمارينا من فوق كتفها.

«ربّما كانت روحه حاضرة في القاعة، تستمع إلى عزف آلي. ألم تبدع في عزفها؟» قالت (ما) وهي ترشدني بثبات لنسلك طريقنا.

«أجل. كانت أمسية رائعة، إلى أن...».

«حاولي ألا تفكر في الأمر. لن يفيدك شيء غير الإزعاج. المسكينة آلي اعتقدت أنها سمعت صوته على الهاتف في أثناء وجودها في أتلانتيس. وبطبيعة الحال، كان جهاز الرد الآلي. والآن، هناك سيارة ستقلنا إلى المطعم. لقد سبقنا والدا ثيو إلى هناك وسينتظراننا في الداخل».

تركت مارينا تحدّث نفسها في أثناء سيرنا إلى المطعم، وأنا ما أزال أعاني الصدمة. ما لا شك فيه أن مارينا كانت محقّة، ببساطة كان رجلًا كبيرًا في السنّ له البنية نفسها. وبالنظر إلى أنه كان على مسافة بعيدة، شبّه قلبي المحبط بـ «سولت».

كانت أجواء المطعم مريحة وسط إنارة الشموع. وعندما وصلت آلي برفقة شقيقها التوأم، توم، وقفنا جميعًا وصفقنا لهما.

«هل ننتظر أحدًا؟»، قالت مارينا وهي تنظر إلى المقعد الفارغ على رأس الطاولة.

«هذا المكان مخصّص لأبينا»، أوضح توم بإنكليزية متقنة وهو يجلس إلى جانبي. «لكننا نشك في أنه سيأتي، أليس كذلك يا آلي؟».

«هذه الليلة، يمكننا مسامحته». ابتسمت.

«عندما غادرنا الحفل، كان محاطًا بالمراسلين والمعجبين الذين انهالوا عليه بالإطراء والمدح. كان ينتظر ذلك منذ وقت. لندعه الليلة يحتفل بنفسه».

«أجبرتني آلي على منحه فرصة أخرى». قال توم وهو يلتفت إليّ. «وكانت على حق. أشعر بفخر كبير تجاهه هذه الليلة. نخبك!». ونقر كأسه بكأسي.

«أي أحد يستحق فرصة ثانية، أليس كذلك؟». همست تقريباً لنفسي.

وفي ما بقي من الأمسية، استمتعت بقصص توم وهو يخبرني كيف ظهرت آلي عند عتبة بابه، وقصة اكتشافهما أنهما توأمان.

«كل ما حصل كان بسبب هذا»، قال وهو يمدّ يده إلى جيبه ويضع ضفدعاً صغيراً أمامي على الطاولة. لقد حصل كل أفراد الأوركسترا على واحد هذه الليلة، تكريماً للرجل العظيم نفسه.

عندما غادرنا المطعم، كان الوقت متأخراً، فوقفنا جميعاً في الخارج نودّع بعضنا.

«في أي ساعة ستغادران غداً؟»، سألتنا آلي أنا ومارينا ونحن نحتضن بعضنا.

«رحلتي إلى جنيف تغادر في العاشرة صباحاً، لكن رحلة ستار في الثالثة»، أجابت مارينا.

«إذن، ربّما يمكنكما أن تزوراني في المنزل، وهكذا نطلع على أخبار بعض؟» اقترحت آلي. «ويمكنك أن تستقلّي سيارة الأجرة من هناك مباشرة إلى المطار.»

«أو أوصلها بنفسي». قال توم.

«سنرتّب لذلك غداً. تصبحين على خير، عزيزتي ستار، نامي جيّداً». ثمّ لوحّت لي وهي تركب سيارة متوقّفة في الخارج، وتبعها توم.

«أراك غداً»، قال وهو يبتسم لي. ثمّ انطلقا بسيارتهما.



في صباح اليوم التالي، قادتني سيارة الأجرة إلى منزل آلي وتوم. بقيت أراقب المناظر من حولي على طول الطريق. فالبارحة، كانت الظلمة حالكة، ولم أقدر على رؤية القمم المحيطة بمدينة بيرغن، والمغطاة بالثلوج، في حين أنني كنت قادرة الآن على التمتع بالجمال الطبيعي الذي أوحى لي ببطاقات المعايدات. واصلنا

السير إلى أن دخلنا في طريق ضيق، وتوقفت السيارة أمام منزل خشبي تقليدي، كريمي اللون، حديث الطلاء، بدرف زرقاء شاحبة.

«ستار، تفضلي». قالت آلي وهي ترحب بي عند عتبة الباب. دخلت بكل سرور إلى قاعة الدخول الدافئة.

«آلي، يا له من منزل جميل!». قلت بينما كانت تقودني إلى غرفة الجلوس المشرقة والمليئة بأرائك اسفنجية شاحبة اللون ذات طابع اسكندنافي يتمثل بأثاث مصنوع من خشب الصنوبر. ورأيت بيانو كبيراً عند نافذة كبيرة كانت مطلة على بحيرة تقع أسفل تلال مغطاة بالثلج الأبيض.

«يا له من منظر جميل». قلت لها، «إنه يذكرني بأتلانتيس».

«وأنا أيضاً. لكنّه أكثر لطفاً، كما هي حال باقي الأشياء في بيرغن بما في ذلك السكان. قهوة أم شاي؟».

طلبت القهوة، وجلست أمام مدفأة زجاجية حديثة الطراز، أمتع نظري بالحطب الذي يحترق في داخلها.

«تفضلي قهوتك». وضعت آلي الكوب أمامي وجلست بجانبني على الأريكة. «يا إلهي يا ستار، من أين نبدأ؟ هناك الكثير لنتشاركه. لكن توم أخبرني بأنه أطلعك على معظم ما حدث هنا. لذلك الآن أريد أن أسمع عنك. كيف حال سيسي؟ والأهم من ذلك، أين هي الآن؟ لست معتادة رؤيتكما منفصلتين».

«لا أعرف. غادرت لندن ورحلت بعيداً. و...». عندئذٍ اعترفت لها: «كل هذا بسببي».

«هل تشاجرتما؟».

«نعم... أنا فقط... كنت أحاول العثور على حياة تخصني أنا وحدي».

«وماذا عن سيسي، ألم تفعل بعد؟».

«كلا. أشعر بالذنب لما حدث يا آلي».

«حسنًا، ربّما تحتاج هي أيضاً إلى إيجاد نفسها. كان واضحاً منذ البداية أن الأمر سيبيء بالفشل، وقد شعرنا جميعاً نحن الشقيقات بالقلق حيال علاقتكما».

«فعلًا؟».

«أجل. في رأيي، هذا الفراق مهمٌ لكليتكما. وأنا واثقة من أنه مؤقت».

«آمل ذلك. أريد فقط أن أعرف مكانها. كانت منزعة مني لأنني لم أخبرها عن لقائي بوالدتي».

«هل وجدت والدتك؟! واو ستار! ألن تخبريني عنها؟».

فأخبرت آلي بكل شيء. وكما هي حالي دائمًا، كافحت في العثور على الكلمات، لكن بتشجيع آلي أعطيتها قدر المستطاع النسخة الأقرب إلى الواقع.

«يا إلهي! وأنا التي اعتقدت أن رحلة بحثي عن ماضي كانت معقدة وصادمة»، قالت آلي وهي تتنفس بعمق. «وماذا عن ماوس هذا؟ هل ستمنحني فرصة ثانية؟ «أنا... أعتقد ذلك».

«حاولي، إذا كنت قادرة على ذلك. أصرت عليّ. فعلى حد معرفتي، لا شيء يدوم إلى الأبد».

«أجل». أجبتها وأنا أمدّ ذراعي لاشعوريًا لأمسك يدها. «إنهما بحاجة إليّ. كلاهما. الأب وابنه».

«كلنا نتمنى أن يكون هناك من هو بحاجة إلينا، أليس كذلك؟». وبسرعة مررت يدها عبر بطنها المنتفخ.

«من الأفضل أن أطلب لك سيارة أجرة. فقد أصاب توم إحباط شديد بعد أن اضطر إلى الذهاب إلى العمل لتشريح الانتصار الذي حققناه ليلة البارحة». ابتسمت وهي تنهض عن الأريكة لتصل إلى الهاتف. «صدّقي أنك حظيت بمعجب. هل أخبره بأنك مأخوذة؟».

«نعم»، قلت لها. «على ما أعتقد».

في مطار بيرغن، كنت أصدع إلى متن الطائرة عندما أخرجت هاتفي المحمول. وقبل الانطلاق مباشرة، بعثت برسالة نصية إلى ماوس.

«نعم من فضلك».



عدت إلى لندن، واستيقظت في صباح اليوم التالي في التاسعة والنصف. كان ماوس قادمًا لاصطحابي في الحادية عشرة. وبينما كنت أستحم وأفكر بوصوله، وبذلك اليوم، ثمَّ بالمساء الذي سيتبعه، شعرت بالذعر وبرغبة بالتراجع. لكنني عدت وحزمت حقيبتي، تاركة فيها الفستان الأسود الذي لبسته في حفل البارحة في حال كنت سأضطر إليه، ثمَّ ارتديت السترة الصوفية السمينة التي حميت بها نفسي من برد بيرغن. ووضعت حذاء المشي الذي لديّ، وبدلين من الملابس الداخلية النظيفة في أعلى الحقيبة. فشعرت برجفة بينما كنت أنهي استعدادي.

«عندما سيعرف، قد لا أصل حتى إلى باب السيارة». فكّرت في نفسي فيما بدأ شعوري بالذعر يتفاقم.

في تمام الحادية عشرة رن جرس الباب، فضغطت على الزر لأسمح له بالدخول. وعندما سمعت المصعد يقترب من طبقتنا، وتلت ذلك صوت خطواته تفرع الأرض في الممر الضيق، بدأ قلبي يدق مثل طبل.

«الباب مفتوح». ناديته للدخول. وبدا صوتي مخنوقًا كأنَّ ثعبانًا كان يلتفَّ حول حبالِي الصوتية.

«مرحبًا». قال مبتسمًا. ومشى نحوي إلى أن توقّف على بعد أمتار قليلة. «ستار، ما الخطب؟ هل حدث مكروه؟ تبدين مذعورة». «أنا كذلك».

«لِمَ ذلك؟ هل أنا السبب؟».

«لا... وبلى». حاولت التنفس وأنا أستجمع كل ذرّة من الشجاعة التي أمتلكها. «هل يمكنك الجلوس من فضلك؟».

«حسنًا»، قال وهو يمشي إلى الأريكة. «هل غيّرت رأيك؟ هل الأمر مرتبط بهذا؟».

«لا. أنا فقط... يجب أن أخبرك بأمر ما».

«كلّي آذان صاغية».

«الأمر هو...». كان دوري الآن لأُسرع في الكلام. «كل ما في الأمر هو أنني...». «ستار، مهما يكن الأمر، لا يمكن أن يكون أسوأ مما أخبرتك به. من فضلك، تحدّثي ببساطة».

ابتعدت عنه وأغمضت عيني، ونطقت بتلك الكلمات:
«أنا... ما أزال عذراء».

بدا لي أن الصمت الذي ساد وأنا أنتظره أن يجيب، أبدئًا.
«حسنًا. هل هذا كل شيء؟ أعني، هل هذا ما أردت إخباري به؟». «أجل!». وقفزت في مكاني عندما شعرت بلمسة يد لطيفة على كتفي.
«هل سبق لك أن كنت في علاقة حميمية؟». «كلا. أنا وسيسي... كنا دائمًا معًا. لم تُتَح لي فرصة».

«فهمت».

«أحقًا؟».

«أجل».

كنت أشعر بحرج فظيع. فجأة وجدت نفسي أستدير حول نفسي داخل ذراعين أحاطتا بي بإحكام.

«أشعر بأنني غبية». تمتمت، «فأنا في السابعة والعشرين و...». بقينا صامتتين بعض الوقت، ويده تداعب شعري بلطف.
«ستار؟ هل أستطيع أن أقول لك أمرًا؟». «أجل».

«قد يبدو الأمر غريبًا لك، لكن حقيقة أن أحدًا لم يلمسك، ولا يمكنني العثور على كلمات تصف ما أريد قوله بشكل أفضل، تعدّ نعمة وليس أمرًا سلبيًا. إلى جانب ذلك، بما أننا في صدد... هذه المناقشة، أنا أيضًا مرت عليّ سنوات لم تكن لي علاقة حميمية... في أي حال، أستطيع القول بصراحة أنك لست الوحيدة التي قضيت ليالٍ بلا نوم بخصوص هذا الأمر».

جعلني اعتراف ماوس المتوتر بالتأكيد أشعر بتحسّن. ثمّ أبعد جسده عني وأمسك يدي.

«ستار، انظري إليّ».

فرفعت نظري إليه.

«قبل أن نستمر في هذا، عليك أن تعرفي أنني لن أحاول إجبارك على ما لا تريدينه أو الضغط عليك، أبداً، ما دمت ستمنحيني المعروف نفسه. علينا أن نكون لطفاء مع بعضنا، أليس كذلك؟».

«أجل».

«لذلك...»، ونظر إليّ. «هل نعطي أنفسنا فرصة؟».

هل كنا شخصين مجروحين يحاول كلّ منهما تضميد جراح الآخر؟

نظرت عبر النافذة إلى النهر الذي كان يتدفق من دون توقف، هكذا حرّاً طليقاً. وشعرت بالسد المنيع الذي كنت قد بنيته حول قلبي لحماية نفسي، قد بدأ ينهار. عدت أنظر إليه من جديد، وشعرت بأنّ الحب قد بدأ أخيراً ينتع عبر الشروخ. فتمنيت لو يتحوّل ذات يوم إلى سيل.

"أجل"، قلت له.



«أين نحن بالضبط؟». سألت ماوس وهو يخرج حقائبنا من صندوق السيارة ليستلمها عنا الحمال عند المدخل.

«ألم تتعرفي إلى المكان من وصف فلورا؟».

نظرت إلى المنزل الرمادي الواسع، وإلى الضوء الدافئ الذي يشعّ عبر نوافذه في ظلمة الليل الحالكة. وفجأة تعرّفت إليه.

«إستويت، منزل طفولة فلورا ماك نيكول!».

«إجابة صحيحة. كنت أبحث عن مكان لأبقى فيه هنا في البحيرات، فاكشفت

أنهم حَوّلوه مؤخرًا إلى فندق. وقبّلني ماوس في جبيني. «هذا المكان الذي بدأت فيه قصتك، وبطريقة ما قصتي، من الأساس. هلّا ندخل؟».

عند مكتب الاستقبال، عرض عليّ بأدب أن أنام في غرفة منفصلة، لكنني ساومت على جناح، فطلب ماوس أن يجهزوا لنا سريرًا في غرفة الجلوس، وقال إنه سينام فيه.

«لا أريدك أن تشعري بالذعر». قال محاولًا طمأنتي.

في الطبقة العلوية، ارتديت فستاني الأسود الجديد لتناول العشاء في المطعم الرسمي. ولدى ظهوري عند باب الحمام صفر ماوس.

«ستار، تبدين مذهلة. لم يسبق أن رأيت ساقيك مكشوفتين، هما طويلتان جدًّا ونحيفتان... آسف»، قال وهو يضبط نفسه. «أردت فقط أن أخبرك بأنك جميلة. إذا كنت تسمحين».

«لا بأس». وابتسمت.

على العشاء، شرح ماوس كيف أن مهنته كمهندس معماري لن تضطره إلى توظيف أحد لوضع خطة أعمال التجديد في هاي ويلد.

كانت عيناه الخضراوان الزاهيتان تبرقان في أثناء حديثه عن استحواذه على المنزل في المستقبل، وفهمت فجأة أنّه هو أيضًا كان يحبّه. وعندما رأيت الشغف الذي لا بدّ من أنّه قد سكنه ذات يوم، يشتعل فيه من جديد، شعرت بنتوع قلبي يتحوّل إلى سيل مثل الصنبور الذي تغمره المياه.

«قبل أن أنسى»، قال وهو يمدّ يده إلى السترة الرسمية التي كان يرتديها، ويخرج منها علبة مجوهرات مألوف، «استعدت هذا لتوّي من سوّبي. إنه بالفعل من صنع فابرجيه، بتكليف من الملك إدوارد السابع نفسه. وهو يستحق قدرًا كبيرًا من المال يا ستار».

ناولني إياه، فأخرجت التمثال الصغير وتعجّبت لاعتزاز فلورا ماك نيكول به ذات مرّة، وبما مرّت به في حياتها.

«لست واثقة من أنّه لي بعد الآن».

«بالطبع إنّه لك. لأكون صادقاً معك، أفترض أن تيدي رهن التمثال قبل سنوات. لا بدّ من أنّه فعل ذلك مع باقي كنوز العائلة. لا يهمّ كيف وصل هذا إليك، لأنّك حفيدة تيدي الصغرى. هذا إرثك يا ستار... هل تعرفين، كنت أفكر كثيراً في الماضي»، قال ماوس، وهو ينظر إلى تمثال پانتر الذي يستريح على راحة يدي. «الآن أدرك ما كان هدف آرتشي من تولّي أمر تيدي على اعتبار أنّه ابنه... إنّها الصدمة التي تلقّاها في الحرب...». قال وهو يهزّ رأسه. «بصرف النظر عن العواقب، أراد التكفير عن كل الموت العشوائي والدمار الذي رآه، من خلال منح ملكية مثل هاي وولد إلى نسل جندي مجهول. تماماً كما أمل أن أكفّر أنا عن ذنبي بتجديده لروري».

«أجل. أعتقد أنّها لفتة جميلة».

بعد العشاء، قادني ماوس إلى جناحنا.

«حسنًا»، قال لي عندما أصبحنا في الداخل. «تصبحين على خير».

وشاهدته يخلع سترته في غرفة الجلوس.

ثم توقفت ومشيت إليه، ووقفت على أطراف أصابعي وقبلته على خده.

«طاب مساؤك».

«هل يمكنني أن أعانقك؟». سألني فيما كنت أشعر بأنفاسه على بشرتي.

«نعم من فضلك».

وفيمّا كان يعانقني، شعرت فجأة بشيء يتحرّك في داخلي.

«ماوس؟».

«نعم؟».

«هل يمكنك تقبيلي؟».

رفع ذقني إليه وابتسم.

«أعتقد أنّني أستطيع تدبّر ذلك، نعم».



عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، كانت منطقة لايكلااند العظيمة المحيطة بنا قد كشفت عن نفسها عبر نوافذ جناحنا مثل هدية غير مغلّفة. صرفنا اليوم في استكشافها وزيارة مزرعة هيل توب، منزل بياتريكس بوتر القديم، الذي تحوّل اليوم إلى متحف.

ثم واصل ماوس القيادة بحثًا عن مزرعة وينبريدج، منزل فلورا، الذي عانت فيه سنوات عدّة من الوحدة. فأمسكت يد ماوس وضغطت عليها بإحكام، لشعوري بالفخر كوني نجحت، وإن بعد جهد، من تفادي مصيرها.

عند عودتنا إلى الفندق، مشينا عبر الأشجار بالقرب من بحيرة إستويت، ورأيت قبرة تنزلق عبر الضباب فوق البحيرة، وكنا في ساعة الغروب. وقفنا هناك ممسكين أيدي بعضنا، وأنفانا متورّدان من شدة البرد، ننظر إلى صفاء المنظر الطبيعي الذي أخرجنا بشدة جماله.

في ذلك المساء، ذهبنا إلى تاور بانك آرمز، الحانة المحلية التي أقام فيها آرثشي فوغان عندما أتى لزيارة فلورا.

«ربّما كان عليّ النزول هنا، كما فعل هو».

بانت على وجه ماوس ابتسامة ساخرة.

«أنا سعيدة لأنك لم تفعل». أجبته وأنا أدرك تمامًا أنني قصدت ما قلته.

على الرغم من أنني تركت ماوس ينام وحيدًا بعد القبلّة، بقيت مستلقية في مكاني، أشعر بوخز لذيذ يجري داخل جسدي. وعلمت أنّه بمرور الوقت، واكتساب الثقة، فسيتحقّق كل شيء. حتى إنني في الواقع، قد أستمتع بتلك التجربة.

في صباح اليوم التالي، غادرنا إستويت إلى وادي لانغدايل، حيث سرنا عبر الممرات الجبلية المهيبة. فجأة خطرت في بالي فكرة.

«ماوس؟»

«نعم؟»

«ما اسمك الحقيقي؟ أعلم أنه يبدأ بحرف «أو» اللاتيني».

وتبسّم ابتسامة ساخرة.

«اعتقدت أنك لن تسألني؟».

«حسنًا؟».

«أوينوماوس».

«يا إلهي!».

«أعرف. الأمر مثير للسخرية، أليس كذلك؟».

«اسمك؟».

«أجل، وهذا أيضًا. بالطبع أنا أُلقي اللوم على هوس أبي بالأساطير اليونانية، لكنني قصدت المصادفة. بحسب الأسطورة فإن «أوينوماوس» كان متزوجًا من «أستروپ»، وبعض القصص تقول إنه ابنها».

«نعم، سمعت بالأساطير المحيطة باسمي. لِمَ لم تخبرني من قبل؟».

«سألتك ذات مرة إن كنت تؤمنين بالقدر. فقلت لا. لكنني في ذلك اليوم عندما رأيتك أول مرة في هاي ويلد، وعرفت اسمك الحقيقي، أدركت أنه مقدر لنا أن نكون معًا».

«أحقًا؟».

«نعم. لقد كتبته لنا النجوم، قال ليناغشني. ويبدو أنك حصلت على الأب وابنه عند قدميك».

«حسنًا. آمل ألا تتضايق إذا تابعت في مناداتك بماوس؟».

تردّد صدى ضحكنا عبر وادي لانغدايل، فيما عانقني أوينوماوس فوربس، اللورد فوغان من هاي ويلد، بقوة.

«إذن؟». قال لي.

«إذن ماذا؟».

«هل ستعودين معي إلى هاي ويلد الليلة، يا أستروپ؟».

«نعم». أجبته بلا تردد. «تذكّر أن لديّ عملاً هناك غدًا».

«بالطبع لديك عمل، أيتها الرومانسية العجوز. إذًا هيا بنا». قال وهو يفلتني من بين ذراعيه ويمسك يدي. «حان الوقت لنذهب معًا إلى المنزل».

سلسی
كانون الأول 2007



كاميليا (عائلة ثياتياي)

46

جلست في مطار هيثرو أنتظر النداء الأخير قبل إقلاع طائرتي، وأنا أراقب المسافرين الذين يمرّون بجانبني، وهم يتحدّثون إلى أطفالهم أو من كان يرافقهم. فبدوا لي كلهم سعداء، ومفعمين بالأمل، حتى الذين كانوا يسافرون وحدهم، رجّحت أنّهم مسافرون إلى وجهة ينتظرهم فيها أحد.

لم يعد لديّ من ينتظرني بعد الآن، لا هنا ولا هناك. فجأةً، تذكّرت الرجال المسنين الذين كنت أراهم يجلسون على المقاعد العامّة في حدائق لندن بينما كنت أتنقل من الكلية وإليها. حينها كنت أعتقد أنّهم يستمتعون بصحبة الحياة التي تمرّ بجانبهم في أيام الشتاء المشمسة... لكن الآن أدركت مدى الأذية التي تلحق بنا لشعورنا بالوحدة وسط التجمّعات. فتمنيت لو أنّني كنت حينها أتوقف لإلقاء التحية عليهم. كما تمنيت الآن لو أن أحدهم يتوقّف ليلقي التحية عليّ. سيا، أين أنت؟

كم أتمنّى لو كنت قادرة على تدوين ما يجول في رأسي وإرساله إليك، لكي تتمكني من قراءة ما كنت أشعر به في الحقيقة. لكنك تعرفين أن الكلمات تكون غير مفهومة عندما أدونها؛ فكتابة تلك الرسالة التي تركتها لك في الشقة وحدها استغرقت وقتاً طويلاً، ومع ذلك لم أفلح بها. وأنت لست بجانبني لأحدّث به، لذلك عليّ أن أكتفي بالتفكير بالأمر بيني وبين نفسي، ريثما يحين موعد إقلاع طائرتي، وأنا في المحطة الأخيرة رقم 3.

كنت أعتقد أنّك ستسمعين صراخي طلباً للمساعدة. لكنك لم تفعلي. كنت

أشاهدك وأنت تبتعدين عني طوال هذه الأسابيع، فحاولت جاهدة أن أدعك وشأنك. ألا أمانع هجرانك لي طوال الوقت لتري تلك العائلة أو بسبب غيظك مني، كما هي حال الباقين.

وأنا برفقتك، كنت قادرة على التصرف على طبيعتي، دائماً. وكنت أظنك تحبينني لذلك السبب، وتقيليني كما أنا. ولما حاولت فعله من أجلك.

أعرف ما يفكر به الآخرون عني. ولست واثقة من أنني أرتكب الأخطاء، لأن كل ما في داخلي - جيد، مثل الحب. ولا أطمح سوى لرعاية الناس وتكوين صداقات جديدة. يبدو كما لو أن هناك مفتاح فصل بين ما أنا عليه في الحقيقة من الداخل وما يظهر للخارج عندما يخرج. على فكرة، أعرف أنها جملة رديئة بسبب التكرار، وقد اعتدت على تصحيح الكلمات المكررة في مقالاتي قبل أن تذهب إلى المدرس. كنا طبيبتين مع بعضنا بعضاً. لم تكوني محبة للكلام، لكنني كنت قادرة على التحدث نيابةً عنك، مثلما كنت تدوين ما أريد قوله على الورق بشكل أفضل. كنا فريقاً ناجحاً.

اعتقدت أنك ستكونين سعيدة جداً عندما اشتريت تلك الشقة لنا نحن الاثنين. كنا سنشعر بالأمان فيها إلى الأبد. كفانا سفرًا، لأنني كنت أعرف أنك ضقت به ذرعًا؛ وأن الوقت قد حان لنستقر فنكون ما نحن عليه بالفعل، معًا. لكن يبدو لي أن ذلك، قد جعل الأمور تسوء.

عندما جلست وحدي في الشقة في الأيام القليلة الماضية، أنتظر أن تتصلي بي، أدركت ما كان يحصل في الواقع. لقد جعلتك تشعرين كأنك نمر محبوس لا يستطيع الهروب.

كنت ورقة مع أصدقائك، ذكورًا أو إناثًا، لأنني كنت خائفة جدًا من فقدان الشخص الوحيد الذي بدا لي أنه يحبني، باستثناء يا ومارينا...

لذلك، رحلت يا سيا. لأدعك وحدك لبعض الوقت، لأنني أعرف أن هذا ما تريدينه. لأنني أحبك أكثر من أي شخص آخر في العالم، لكنني أعتقد أنك وجدت من يحبك ولن تحتاجي إلي بعد الآن...

نظرت أمامي ورأيت الركاب يدخلون الطائرة. فشعرت بغثيان لأنني لم أركب طائرة من دون سيا إلى جانبي من قبل. كانت معتادة على الجلوس في مقعد النافذة وأنا بجوارها في المقعد الوسط، إذ كانت تحب أن ترى نفسها فوق السحاب. أما أنا فكنت أفضل دائماً أن أبقى قدمي على الأرض. كانت تعطيني حبة دواء قبل عشرين دقيقة من الإقلاع لكي أغفو عندما أدخل المقصورة فلا أشعر بالخوف.

بحثت في الجيب الأمامي لحقيبة الظهر لكي أعثر على محفظتي حيث كنت واثقة من أنني وضعت الحبة قبل أن أغادر الشقة، لكنني لم أعثر عليها.

فكان عليّ أن أتدبّر أمري من دونها، وأنا ما أزال أبحث بين النفايات التي غضضت النظر عنها داخل جيبتي لأخرج منه جواز السفر وبطاقة الصعود إلى الطائرة. الآن بات عليّ أن أتدبّر أمري في كثير من الأمور. لمست بأصابعي المغلّف الذي كان يحتوي على رسالة يا سولت. وعندما أخرجته، وجدت معه بقايا دونتس بالمربي كنت قد اشتريته في السابق، فكان المغلّف مغلفاً بالسكر الناعم ومتسخاً بالمربي. هذا باختصار ما أنا عليه: لم أستطع حتى أن أحافظ على أهم رسالة كتبت لي، نظيفة.

نفضت السكر عنه، وأخرجت الصورة الصغيرة بالأبيض والأسود وحدّدت فيها للمرة المئة. كنت أعرف أن أحدهما كان ميتاً، أما بالنسبة إلى الآخر...

حسنًا، على الأقل هناك شخص ما في هذا العالم أنتمي إليه بشكل رسمي. وعزّيت أيضًا نفسي بفنّي، فهو الأمر الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يبعده عني.

حفظت المغلّف مرة أخرى في الجيب الأمامي، ثم نهضت ووضعت الحقيبة على ظهري. وتبعت الموجة البشرية ببطء نحو بوابة المغادرة وأنا حائرة فيما كنت سأفعله بحق السماء، وأنا الآن أفسد كل ما خططت له.

للأمانة، لم تكن سيا وحدها من وجدت التغيير صعبًا إلى ذلك الحد. فبعد قضاء بضعة أسابيع فقط في لندن، لم يعد جلدي يسعني وعاد حبي للتجوال يعنّ على بالي مرّة جديدة. كنت سيئة جدًّا في البقاء في مكان واحد لأكثر من أسابيع قليلة، وقد كنت كذلك دائماً، فأدركت أنني كنت أضمر رعباً فطرياً من أن أصبح مؤسسية.

«كان عليك أن تفكر في ذلك قبل أن تتسجلي في كلية الفنون، أيتها الحمقاء...».

لم أحب شيئاً أكثر من حملي منزلي على ظهري وشعوري بالإثارة لعدم معرفتي بالمكان الذي سأنام فيه مساءً. وأكثر من بقائي حرة. والخبر السار، على ما أعتقد، هو أنني بالتأكيد سأعيش على هذا النحو من الآن فصاعداً.

ثم استغربت أن يكون أحد المكانين الوحيدين اللذين تجنبت زيارتهما في العالم، كان الوجهة التي أنا ذاهبة إليها الآن.

تقدّمت في الردهة باتجاه مدخل الطائرة، ثم ركبت المسار المتحرك، وألقيت نظرة سريعة إلى ملصق إعلاني لأحد المصارف، فسخرت في صمت من افتقار المدير الفني الذي عمل على الحملة إلى الخيال الواسع، عندئذٍ لمحت وميض وجه مألوف يمرّ بجانبني. كاد قلبي يقفز من مكانه، فاستدرت ورفعت عنقي لأبحث عنه. لكنّه ابتعد بسرعة فيما كنت مسافرة في الاتجاه المعاكس.

فبدأت أركض فوق المسار المتحرك، وحقيبة ظهري تتدافع في الزحمة وأنا أحاول التقدّم عنوة بين الناس، لكنني كنت يائسة إلى النزول عنه، لذلك لم أهتم. وعندما بلغت نهايته، انعطفت نصف انعطافة في شكل حرف U اللاتيني وعدت أركض في الاتجاه المعاكس، وألهث من وقع تلك الصدمة ومن ثقل حقيبتني. بقيت أتفادى الناس الذين يسرون باتجاهي من كل صوب، إلى أن وصلت في نهاية المطاف إلى مدخل صالة المغادرة.

بحثت يائسة بين الحشود عن نظرة أخرى. عندئذ سمعت النداء الأخير لرحلتي، فأدركت أن الألوان قد فات.

رسالة شكر

هذا المشروع لم يكن ليرى النور لولا مساعدة كثير من الناس، وأنا مدينة لهم لمساعدتي في خوض هذا السباق الروائي المكوّن من سبعة كتب.

في منطقة البحيرات: أقدم كامل الشكر لأنطوني هوتون من ذا تاور بانك أرمز، حانة بياتريكس بوتر المحلية في نير ساوري، لتضلّعه في التاريخ المحلي ولكرم ضيافته. كما أقدم الشكر إلى آلان بروكبانك الذي يبلغ من العمر 95 سنة، وعلى الرغم من ذلك خصّص وقتًا للمقابلات والتحدّث عن الحياة في القرية في الحقبة التي عاشت فيها بياتريكس، وجعلنا نضحك من أعماقنا بقصصه الجامدة والمثيرة. وجزيل الشكر أيضًا لكاثرين بريتشارد، مديرة الصندوق الوطني في مزرعة هيل توب، لخبرتها الواسعة في كل ما يتعلق بالأنسة بوتر. ما كنت أرغب أكثر من تضمين كل التفاصيل الغريبة التي ارتبطت بحياة بياتريكس في هذه الصفحات، هي التي لم تتأخر حتى وفاتها عن تأدية واجبها كزوجة، ومزارعة، وكاتبة، ورّسامة، وباحثة، ومدافعة عن حقوق الطبيعة، وعاشقة للحيوانات، وصديقة لكثير.

شكرًا لماركوس تايرز، مالك متجر سانت ماري للكتب، في ستامفورد، لمعرفته التي لا تقدر بثمن بالتعقيدات التي تطاول تجارة الكتب النادرة، ولتقديم المشورة حول المبلغ الذي كان أورلاندو يقدر على إنفاقه على أنا كارينينا. (وهو مبلغ باهظ!)

وأودّ أيضًا شكر مساعدتي الشخصية الرائعة، أوليفيا، التي تسلّقت بشجاعة هضاب منطقة البحيرات بمفردها تحت الأمطار، بحثًا عن نصب تذكاري لإدوارد

السابع، إثر إصراري على وجوده هناك، ولم يكن كذلك! وأريد أن أشكر أيضًا فريق التحرير والبحث المكوّن من سوزان موس وإيلا ميشيلر، إذ ساعدني مجهودهما الرائع على فهم جميع الصفات التي أعدّتها ستار إضافة إلى لغة الإشارة البريطانية وثقافة الصم.

وأشكر أيضًا الناشرين الدوليين الثلاثين، من حول العالم، يشرفني كثيرًا أن أقول إنني بتّ اعتبرهم أصدقائي وأخصّ بالذكر كاثرين ريتشاردز وجيريمي تريفانان في بان ماكميلان بالمملكة المتحدة؛ كلوديا نيجيل وجورج روشلاين في راندوم هاوس ألمانيا؛ وفريق العمل في كابيلين دام النروج: كنوت غورفيل، جوريد ماثياسن، پيپ هالين وماريان نيلسن؛ أناليزا لوتيني ودوناتيل مينوتو في جيونتي إديتوري في إيطاليا؛ وسارة كانتين وجوديث كور في أتريا في الولايات المتحدة الأميركية.

كتابتي قصة ستار كانت ممتعة كثيرًا، وقد تمكّنت من تحقيق ذلك وأنا مرتاحة في منزلي، ألقى الدعم من عائلتي. لقد تعلموا كيف يتجاهلونني وأنا أتجول في المنزل مثل الشبح في مختلف أوقات اليوم، ليل نهار، وأتحدث إلى جهاز التسجيل ناسجة خيوط الشقيقة الشبح. هاري، بيلا، ليونورا وكيث، تعرفون جميعًا ما تعنون بالنسبة إليّ، وشكرًا لستيفن، زوجي/ومدير أعماله الذي لا يكفّ عن تشجيعي على التمسك بصدقي واستقامتي في جميع الأحوال! لا أعرف ما يمكنني فعله من دونك؟ وشكر خاص لجاكليين هيسلوب التي تسيطر بكفاءة عالية على حصن رايلي وتعتني بنا جميعًا. إلى أختي جورجيا وأمي جانيت. وإلى فلو، التي أهديتها هذا الكتاب. إنني أفتقدك.

وأخيرًا إلى قرائي الأعزاء، كتابة هذه السلسلة الروائية في سبعة أجزاء بدأت في عام 2012 مجرد فكرة مجنونة. لم أضمن قط أن قصص شقيقتي ستؤثر يومًا في كثير من الناس حول العالم. يشرفني بكل تواضع تلقّي هذا الكم الهائل من الرسائل الإلكترونية والرسائل المكتوبة وكلمات الدعم، كنت محظوظة بما يكفي لمقابلة بعضكم في جولاتي حول العالم. شكرًا لكم.

قائمة المراجع

الشقيقة الظلّ عمل روائي ينبنى على خلفية تاريخية خياليّة. في ما يلي قائمة المصادر التي اعتمدتها في أبحاثي عن تلك الفترة الزمنية وتفاصيل حياة الشخصيات التي ابتكرتها من نسج خيالي:

- Munya Andrews, *The Seven Sisters of the Pleiades* (North Melbourne, Victoria: Spinifex Press, 2004)
- Susan Denyer, *Beatrix Potter at Home in the Lake District* (London: Frances Lincoln, 2000)
- Roy Hattersley, *The Edwardians* (London: Abacus, 2014).
- Philippe Jullian and John Phillips, *Violet Trefusis: Life and Letters* (Bristol: Hamish Hamilton, 1976)
- Sonia Keppel, *Edwardian Daughter* (London: Hamish Hamilton, 1958)
- Raymond Lamont-Brown, *Edward VII's Last Loves: Alice Keppel and Agnes Keyser* (London: Sutton Publishing, 2005)
- Linda Lear, *Beatrix Potter: The extraordinary life of a Victorian genius* (London: Penguin, 2008)
- Leslie Linder, *A History of the Writings of Beatrix Potter* (London: Frederick Warne, 1971)
- Tim Longville, *Gardens of the Lake District* (London: Frances Lincoln, 2007)

- Peter Marren, *Britain's Rare Flowers* (London: Academic Press, 1999)
- Marta McDowell, *Beatrix Potter's Gardening Life* (London: Timber Press, 2013)
- George Plumptre, *The English Country House Garden* (London: Frances Lincoln, 2014)
- J. B. Priestley, *The Edwardians* (London: Penguin, 2000)
- Jane Ridley, *Bertie: A Life of Edward VII* (London: Chatto & Windus, 2012)
- Vita Sackville-West, *The Edwardians* (London: Virago, 2004)
- Diana Souhami, *Mrs Keppel and her Daughter* (London: HarperCollins, 1996)
- Judy Taylor, *Beatrix Potter: Artist, Storyteller and Country- woman* (London: Frederick Warne, 1986)
- Violet Trefusis, *Don't Look Round* (London: Hamish Hamilton, 1989)

ملاحظة المؤلف

عندما خطر أول مرة في بالي كتابة سلسلة روايات تقوم على ثريا الشقيقات السبع، لم تكن لدي فكرة أين ستقودني تلك المغامرة. كنت مفتونة بحقيقة أن كل واحدة من الشقيقات الأسطوريات، وفق ما تقوله الميثولوجيا، كانت أنثى قوية و متميزة. بعضهم يقول إنهنّ الأمهات السبع اللواتي زرعن بذورهنّ في الأرض، ولا شك في أنّهنّ، وفق ما تخبره قصصهنّ، كنّ شديدات الخصوبة! وأنّهنّ ولدن كثيرًا من الأطفال من آلهة مختلفين افتتنوا بقوتهنّ وجمالهنّ وأهوائهنّ الأثرية المتصوّفة.

وأردت أن أحتفل بإنجازات المرأة، خصوصًا في الفترة الزمنية الماضية، حيث إن مساهمتهنّ في جعل عالمنا هذا ما هو عليه اليوم غالبًا ما طغت عليها إنجازات ذكورية موثّقة على نحو متكرّر.

إلا أن التعريف بالنسوية هو المساواة وليس السطوة. والمرأة التي أكتب عنها، سواء في الماضي أم في الحاضر، تسلّم برغبتها في وجود الرجل في حياتها وبحاجتها إليه. ولعلّ الطاقتين المذكرّة والمؤنثة هما في الواقع كفتا الميزان الطبيعي وعلينا أن نسعى جاهدين لتحقيق التوازن بينهما. خلاصة الموضوع، علينا بقبول نقاط القوة والضعف الفردية لكل من الجنسين.

وبالطبع، كلّنا بحاجة إلى الحب؛ ليس بالضرورة في الشكل المعترف به؛ الزواج وإنجاب الأطفال، لكنني أوّمن بأنّه مصدر الحياة الذي من دونه، كنّا سنذبل نحن البشر ونموت.

وسلسلة الشقيقات السبع تحتفل بلا خجل بالبحث اللامتناهي عن الحب، وتستعرض الآثار المدمرة عندما يضيع منا.

فيما أسافر حول العالم، متتبعه خطى الشخصيات النسائية التي اخترتها من الواقع أو التي ابتكرتها من نسج خيالي، لأبحث في قصصها، أشعر بالتواضع الدائم والعظمة المهيبة أمام مثابرة أجيال من النساء سبقنني إلى هذه الدنيا وشجاعتهم. سواءً في محاربة التحيزات الجنسية والعنصرية عبر العصور الغابرة، أو في فقدان أحبائهم بسبب الحروب المدمرة أو الأمراض، أو في طموحهم لبناء حياة جديدة في الطرف الآخر من العالم، فإن أولئك النساء مهّدن الطريق أمام حرية التفكير وفعل الخير الذي نتمتع بهما اليوم. وهو أمر مستهان به.

يؤسفني القول إن العالم ليس مكاناً مثاليًا، وأشك في أنه سيصبح يومًا كذلك، لأنه سيكون هناك دائمًا تحدّ جديد لمواجهته. ومع ذلك، أؤمن في الصميم أن البشر، خصوصًا النساء، سيفلحن في التصدي لتلك التحديات. فنحن، في النهاية، آلهة المهام المتعددة! وكلّ يوم أحتفل، وأنا أمسك بيدٍ مهّدًا وبأخرى مخطوطة، بكوني نلت الحرية لأكون ما أنا عليه، على يد آلاف الأجيال من النساء الاستثنائيات، اللواتي يعدّن مباشرة إلى الشقيقات السبع...

أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بقصة ستار. غالبًا ما تمرّ الأيام التي نتحلّى فيها بالشجاعة الهادئة واللفظ والقوة الداخلية غير ملحوظة. ستار لم تغيّر العالم، لكنّها لمست حياة من حولها وجعلتها أفضل. ومن خلال صنيعها، تمكّنت من العثور على نفسها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

يمكنكم أن تقرأوا مزيدًا عن سيسي وشقيقاتها في:

السقيقة اللؤلؤة

عاشت ستار داپليز تحت جناح شقيقتها سيبي بعد أن غيب الموت المفاجئ والدها بالتبني، الذي ترك لكل واحدة من بناته الست دليلاً يشير إلى حقيقة إرثها. وفي ظل حالة من الإحباط تقرّر ستار أن تتبع الخيط الأول الذي تركه لها والدها، حيث يقودها إلى متجر يبيع الكتب النادرة في لندن، وإلى بداية حياة جديدة بالكامل.

تدور أحداث الرواية في مدينة لندن، في عهد الملك إدوارد. وتعرض فضائح البلاط الملكي، والمكائد التي تقع فلورا ماك نيكول ضحيتها بعد أن أبحرت إلى تلك المدينة، وهي التي أقسمت بأنها لن تتزوج أبداً. إلى أن يجمعها القدر بسيد غامض، يكشف لها النقاب عن إجابات كانت تبحث عنها طوال حياتها.

في «الشقيقة الظل» وهي الرواية الثالثة من سلسلة «الشقيقات السبع»، تتعلم ستار من رحلة فلورا، تتصارع مع نفسها ومع الآخرين، وتبحر هي أيضاً لاستكشاف ذاتها، لتخرج من تحت جناح شقيقتها، وتعيش ضمن آفاق جديدة لاحتمالات الوقوع في الحب.

لوسيندا رايلي، وُلدت في إيرلندا في العام 1965 وكتبت روايتها الأولى في سنّ الرابعة والعشرين. تُرجمت رواياتها إلى 33 لغة وبيعت ملايين النسخ منها لتصل إلى رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم.

سلسلة من 7 قصص كتبها لوسيندا، وأكملها ابنها هاري بالكتاب الثامن. حازت الجائزة البلاينية الهولندية للرواية الأكثر مبيعاً في عام واحد، وهي الجائزة نفسها التي مُنحت لسلسلة هاري پوتر. توفيت لوسيندا في العام 2021 بعد معاناة مع السرطان.



مكتبة

t.me/soramnqraa

www.all-prints.com



للاطلاع على منشوراتنا



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر